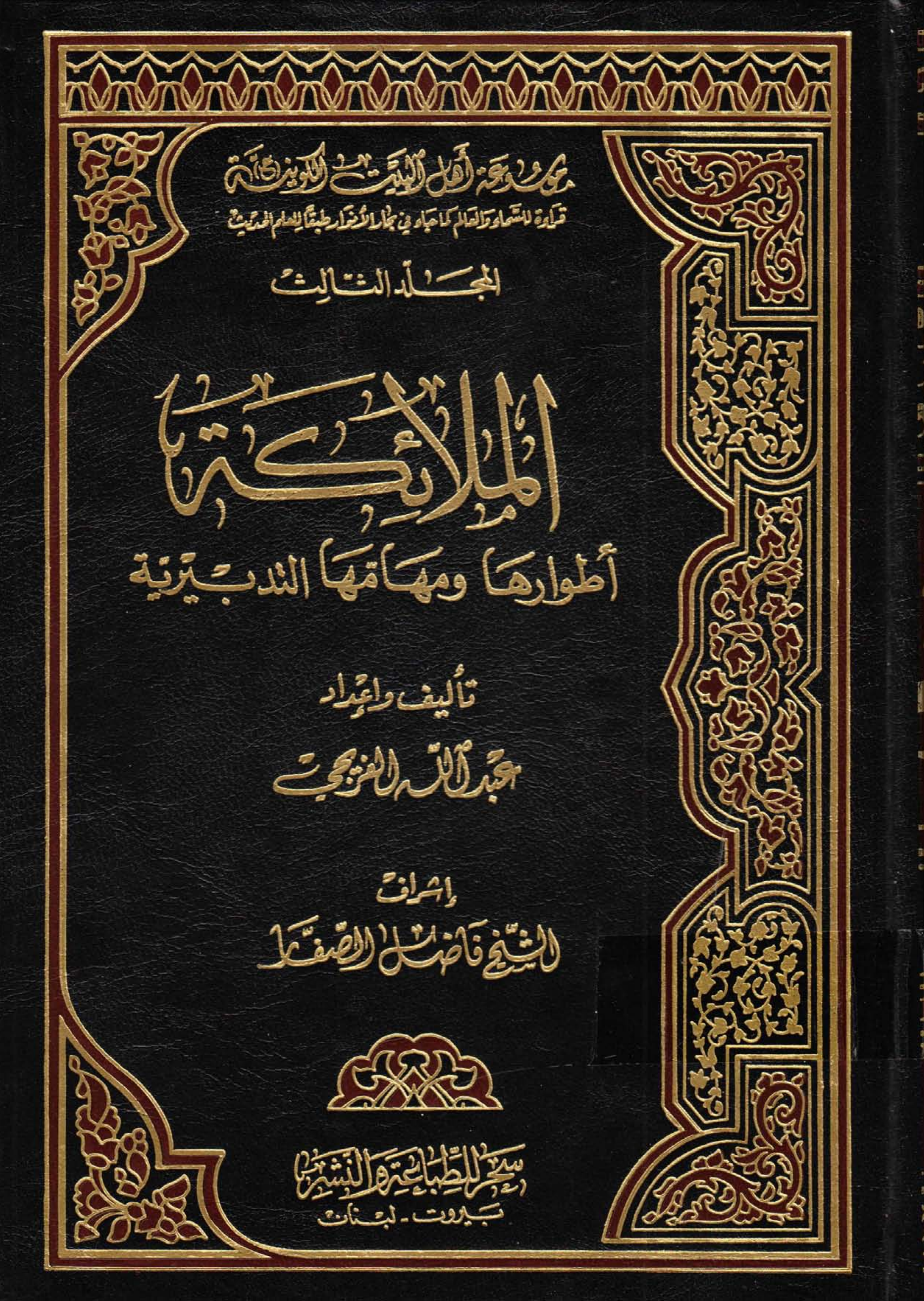

موسوعة أهل البيت (ع) الكونية
قراءة للسماء والعالم كما جاء في بحار الأنوار طبقاً للعلم الحديث
المجلد الثالث
الملائكة
أطوارها ومهامها التدبيرية
تأليف وإعداد
عبد الله الفريجي
إشراف
الشيخ فاضل الصفار
سحر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



موسوعة أهل البيت (ع) الكونية

قراءة للسماء والعالم كما جاء في بحار الأنوار طبقاً للعلم الحديث

المجلد الثالث

الملائكة

أطوارها ومهامها التدبيرية

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

مراكز التوزيع

لبنـان : مؤسسة الفكر الإسلامي

ص ب ٥٩٥٣ / ١٣ بيروت ـ لبنان

هاتف ٢٢٣٦٨٣ ٣ ٠٠٩٦١ ـ ٦٤٨٢٧٠ ٣ ٠٠٩٦١
Email:Alfikr@ayna.com

سوريا : مكتبة الرسول الأعظم ﷺ

هاتف ٦٤١٧٩١٨ ١١ ٠٠٩٦٣ مقسم ١٠٩

إيران : مكتبة أهل البيت عليهم السلام

قم المقدسة ـ هاتف ٧٧٤٤٦٦٨

موسوعة أهل البيت (ع) الكونية

قراءة للسماء والعالم كما جاء في بحار الأنوار طبقاً للعلم الحديث

المجلد الثالث

الملائكة

أطوارها ومهامها التدبيرية

تأليف وإعداد

عبد الله الفريجي

إشراف

الشيخ فاضل الصفار

سحر للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

١ ـ الإسلام والعلم

من الضروري جداً الفصل بين موقفين أو حركتين للعلم، الأولى: هي الموقف النظري من العلم، والثانية هي الموقف العملي، أو بين التصورات والانطباعات، وبين الحركة الفعلية للكشوف والأفكار في أي حضارة، للتوصل إلى حكم صادق على موقف تلك الحضارة من العلم، وإلى أي مدى كانت هذه الحضارة علمية إن صح التعبير.

كما أنّه من الضروري أيضاً، الإشارة إلى عدم دقة المعايير الفعلية التي ورّطت فيها الحضارة الغربية الفكر الإنساني، حينما قسّمَت الفكر إلى فكر خرافي وفكر علمي، إذ أن هذا الذي نطلق عليه خرافة كان في زمنه علماً يعبّر عن مجمل الظروف والشروط التي كانت تحكم العقل الإنساني في تلك المرحلة التاريخية.

ولا يدل الانفجار العلمي الذي أنجزته البشريّة في عصر سيادة الحضارة الغربية على صدق مواقفها من الحضارات الأخرى المعاصرة أو من الحضارات البشريّة السابقة.

كما يجدر بنا القول أن حركة العلم، كانت حركة متواصلة تتميز في كل مرحلة من مراحلها بميزان معين وتصنع لنفسها أطراً خاصة بها، وبالتالي فإن التراث العلمي الإنساني يولد في كل مرة ولادة جديدة مع كل ولادة حضارية جديدة، عندما يتم هضمهُ وتمثيله بصورته الموروثة ليشكّل لبنة في البنى الحضارية الجديدة التي لا تقف عنده بل تضيف إليه الجديد والكثير.

وفي نفس الإطار يتوجب علينا التأمل في الانطباعات التي تشيع عند الطبقات العامة أو أنصاف المتعلمين، أو عند حضارة معينة عن حضارة أخرى أو مرحلة تأريخية سابقة، وعدم قبول الأحكام المسقطة عليها لأنّ عدسات الرؤية تختلف بالنسبة لكل حضارة.

وعلى سبيل المثال يمكن أن نورد الانطباعات التي سادت في أوساط المسلمين في مطلع القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر عن الدين عموماً، فتحكي عن وجود صراع بينه وبين العلم، وهو طبعاً انطباع لم يصمد أمام المحاكمة العلمية والبحث المستفيض، وعندما بادر الكتّاب والمفكرون المسلمون للتصدي لهذا الأمر وملاحقة جذوره، كانت النتيجة التي خرج بها أغلب الباحثين هي أن هذا الانطباع أقرب إلى الشائعة منه إلى التصور العلمي القائم على الأحكام المدروسة.

إنّ هذا التصور كان عبارة عن شائعة تقف وراءها أهداف سياسية ولا تقف وراءها الحقيقة العلمية. ومن هنا فإن التحليل العميق أسفر في النهاية عن نسف هذا التصور الخاطئ واكتشاف المفردات التي كونته. وقد ثبت للباحثين

المسلمين الذين تصدوا للأمر، أنّ كثير من الأحكام التي انتقلت إلى العالم الإسلامي لم تكن موجهة إلى الإسلام كدين بل كحكم عام موجه لجميع الأديان الذي أصدره العالم الغربي على الديانة المسيحية ثم تم تعميمه إلى الأديان قاطبة دون أن يتم دراسة كل دين على انفراد. ولهذا فإنّ بعض المفكرين الغربيين الذين اطّلعوا على جوانب الإسلام صاروا يصدّرون أحكاماً خاصة على الإسلام لما لمسوه فيه من تفاوت عن بقية الأديان، ولا نريد أن نسوق نماذج لأنها متكررة بكثرة في الكتب، رغم أن بعض هؤلاء الفلاسفة الغربيون كانوا ممن يعتقد بأن الدين من صنع الإنسان ولا يؤمن بأصله السماوي.

كما وجد الباحثون أيضاً أن السبب الثاني وراء ذيوع هذه الأحكام هو القراءة المتعصبة وغير الموضوعية للإسلام تأريخاً وعقائداً.

أما العنصر الثالث فإنّه الأهم والأكثر تأثيراً هو الحركات السياسية والتيارات الفكرية المتغرّبة، التي صارت تسقط الأحكام المسبّقة والجاهزة على الإسلام، هي التي كانت وراء نشر مثل هذه التصورات الفاسدة في الأوساط غير المطّلعة من الأمة.

إلاّ أنّه في المراحل اللاحقة وإثر انتشار الأفكار التي تعتز بالذات والتراث، صار الإسلام يكشف عن صورته الناصعة، والناس يعرفون الدور المشرّف الذي لعبه العلم الإسلامي على صعيد التأريخ والحضارة الإنسانية عموماً.

ومن جهة أخرى ظهرت التيارات الأكثر موضوعية في التعامل مع التأريخ والمواريث العلمية والثقافية للشعوب غير الأوربية من الغرب، وساهمت في كشف الكثير من الحقائق التي كانت مجهولة بخصوص الإسلام.

ولكل ما سبق فإن هذا الانطباع صار يتجه إلى الزوال ليحلّ محله انطباع جديد عن العلم ودوره في العالم الإسلامي، وكذلك دوره في النهضة العلمية الأوربية الحديثة، وهي بالطبع لم تنشأ إلاّ بعد انتقال مناهج التفكير وطرائق التجربة، وما إلى ذلك من مقومات النهوض إلى العالم الغربي إثر الاحتكاك بمسلمي الأندلس.

ولكي نذكّر القارئ ببعض ما ورد في هذه البحوث التي أجمع عليها باحثون مسلمون وغربيون، فإنّنا لا نجد في الإسلام سوى الاعتزاز بالعلم والتشجيع عليه، ويتجلى كل ذلك في العدد الكبير من الآيات التي تضع للعلم المكانة اللائقة ونورد منها ما يلي:

﴿... *إنّما يخشى الله من عباده العلماءُ*...﴾[(١)].

﴿... *يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات*...﴾[(٢)].

﴿.. *قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكّر أولوا الألباب*﴾[(٣)].

وهناك الكثير من الآيات التي تدل على العناية الفائقة التي يوليها الإسلام للعلم والمكانة التي يمنحها للعلماء. أما بالنسبة للروايات فإنّها أكثر وضوحاً وصراحة منها ما يلي:

عن الإمام علي ﷺ قال: «فإنّ العالم أعظم أجراً من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله، فإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلاّ خلف منه، وطالب العلم يستغفر له كل الملائكة، ويدعو له من في السماء والأرض»[(٤)].

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

(٢) سورة المجادلة: ١١.

(٣) سورة الزمر: ٩.

(٤) بحار الأنوار: ٢/٤٣/ح١٢.

وعن النبي ﷺ قال: ((ساعة من عالم يتّكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً))(١).

وقال رسول الله ﷺ: ((والعلماء عالمان: عالم عمل بعلمه فهو ناج، وعالم تارك لعلمه فقد هلك. وإنّ أهل النار ليتأذّون من نتن ريح العالم التارك لعلمه))(٢).

وقال رسول الله ﷺ: ((... ورجل آتاه الله علماً فبخل به على عباد الله، وأخذ عليه طمعاً، واشترى به ثمناً قليلاً، فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار...))(٣).

فهذه الروايات عظّمت العلم والعلماء، بل أكدت بعضها على أن العلماء ورثة الأنبياء.

ولعل معترضاً يقول: إنّ العالم الإسلامي قد حصر هذه العناية بالعلوم النقلية والدينية دون العقلية؟ والجواب إنّ حركة الواقع الاجتماعي فرضت هذه العناية بالعلوم النقلية بحكم المسؤولية التي اضطّلعت بها الأمة الإسلامية، والتي كانت تؤسس لحضارة قائمة على النقل لكن هذا لا يعني عدم الاهتمام بالعلوم العقلية، والدليل هو المسار التاريخي حيث يجمع الباحثون على أن الإسلام هو الذي قدّم الفرصة الذهبية للنهضة العلمية في أوربا وغيرها.

فمن المعروف أنّه لم يحظ إسهام علماء العرب والمسلمين في العلوم بالاهتمام اللائق والعناية المرجوّة من الباحثين في البلاد العربية والإسلامية

---

(١) بحار الأنوار: ٢/٢٣/ح٧١.

(٢) المصدر نفسه: ٢/٣٥/ح٧٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٥٤/ح٢٥.

على السواء. بل كان اهتمامهم بدراسة العلوم الدينية والأدبية. حتى ليخيل إلى جمهور المثقفين أن إسهام علماء العرب والمسلمين اقتصر على هذه العلوم الدينية والأدبية كما يدعي علماء الغرب.

وقد لاحظنا أن الدراسات المختلفة لتراثنا الحضاري في البلاد العربية والإسلامية وغيرها، تدور حول مستويين:

الأول: يبحث من زاوية تاريخية، عن طريق دراسة سيرة العلماء ومؤلفاتهم، دون التعرض لإنجازاتهم ومنهجهم العلمي.

والثاني: إنّ وجد فهو قليل جداً، وهو يتطرق إلى الإنجازات العلمية دون التعرّض إلى المنهج الذي اتبعه علماء العرب والمسلمين ومن هنا جاءت دراساتهم ناقصة[١].

فقد قام العلماء المسلمون بالاستفادة من الحضارات السابقة، وصبها بقالب جديد حتى مهّدوا بذلك للنهضة الغربية، فقد «كانت فترة نهوض الحضارة الإسلامية العظيمة من أهم فترات التاريخ، وكانت أوربا خلالها غارقة في عصورها المظلمة، فمنذ القرن الأول وحتى القرن السادس الهجري أي من السابع إلى الثاني عشر الميلاديين سيطرت الحضارة الإسلامية على المعارف الشرقية والغربية»[٢].

«وخلال العصر الذهبي للحضارة الإسلامية تكوّنت مجموعة من أكبر المعارف الثقافية من التأريخ، وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر. وجميع ذلك تأثّرت به أوربا بحيث ينبغي القول بأن العرب كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة»[٣].

---

(١) تاريخ العلم وفلسفته: ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) تاريخ العلم وفلسفته: ٩١.

(٣) المصدر نفسه: ٩١.

وقد ذهب إلى تأكيد هذه القضية من خلال دراسة للتأريخ، المفكر الفرنسي «روجيه غارودي» حيث أكد أن جميع ما لدى الغرب هو ذو جذور شرقية بما في ذلك الحضارة اليونانية، وقد أسهب في توضيح هذا الأمر في كتابه «نحو حوار للحضارات».

ويؤكد (توبي أ. هف) ما أكده المفكر السابق بقوله: «لمشكلة العلم العربي بعدان على الأقل. يتصل أحدهما بعجزه عن إنجاب العلم الحديث. ويتصل الثاني باضمحلال الفكر والممارسة العمليين في الحضارة العربية - الإسلامية وتراجعها بعد القرن الثالث عشر»[1].

فالتراجع قد حصل فعلاً لكن عدم إنجاب العلم الحديث لا يعني منقصة بل إن الطابع العلمي للحضارة الإسلامية وليد ظروفه ومناهجه، ولا يمكن أن نطلب من منهج أن يلد ما ينتجه منهج آخر وبالتالي فإن هذا لا يعني أفضلية المنهج الغربي على المنهج الإسلامي.

وهذه الإشارات المختصرة تفيد ما أثبتته الدراسات الكثيرة والمستفيضة للتراث العلمي الإسلامي الذي أولد الحضارة المعاصرة، وأنه قاد البشرية إلى هذه الولادة، وبالطبع نحن في غنى عن بحث العوامل التي سبّبت النمو أو التراجع.

والمهم في الأمر أن الإسلام كدين وكثقافة، دين يضع العلم في حيزه الخاص المناسب وبالتالي فإنه بحكم سعيه لصياغة جميع أبعاد الحياة من خلال الدين يختلف عن الحضارة الغربية التي حققت ذاتها من خلال جانب واحد هو العقل والعقلنة، حتى لو انتهت فيما بعد إلى الخروج بنتائج وآثار شملت أبعاد الحياة الأخرى. هذا التفاوت يفرض علينا حين نحاول قراءة

---

(١) فجر العلم الحديث: ٦٥.

الحضارة الانتباه إلى الفوارق الأساسية بين الدين كثورة وبقية الثورات الاجتماعية التي ولدت بسبب تفاعل المجتمعات الأخرى مع الدين تفاعلاً غير مباشراً، وهو الحقيقة التي تميز حضارات البحر المتوسط التي تتفاعل في مقاطع متتابعة من التأريخ الإنساني.

وتأسيساً على ما سبق؛ يمكن أن نؤكد حقيقتين هما: أن ما أنجزه الإسلام يتقاطع مع المنهج العلمي الغربي وليس مع العلم، إذ من الظلم أن نحصر العلم بأنه ذلك المنتج وفق المناهج الغربية فقط.

ومع ذلك فإن التقاطع ليس مطلقاً بل إنه تقاطع مع الجوانب التي أفرط الغرب فيها والتي كانت في بداية الثورة العلمية عنصراً أساسياً ثم بدأ التراجع عنها كلما أصبح العلم أكثر نضجاً وأكثر وعياً للعالم، وبعبارة أخرى إنه يتقاطع مع بعض الجوانب التي ولدت إبان الغرور العلمي، إذ «أنّ من الممكن اعتبار القرن التاسع عشر قرن الغرور العلمي. فكان مثل العلماء في غرورهم فيه كمثل ذلك التلميذ الذي يدخل الجامعة لأول مرة فيندهش بما يتعلم في الصف الأول منها من مبادئ العلوم الحديثة ويأخذه عند ذلك العجب والخيلاء إذ يتصور أنه قد استوعب كل أسرار العلم وتمكن من حل جميع المشاكل. فقد وصل علماء القرن التاسع عشر في إيمانهم بالمادة وفي تكذيبهم بما سواها إلى الدرجة القصوى، فكانوا سريعين إلى إنكار كل ظاهرة لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً»[1].

لكن العلم صار يتراجع عن هذا الغرور كلما اكتشف أن هناك الكثير من الأسرار والغوامض، وبالتالي فإن الكفة صارت ترجع باتجاه المنهج الإسلامي في قراءة الكون والحياة ولو بصورة خجلة وتدريجية.

---

(١) خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة: ٢٠ ـ ٢١.

وفي نهاية هذا المختصر، فإننا نؤكد أن الإسلام هو الذي ولد العلم المعاصر وأسس لانفجاراته، وأنه هو الذي قاد الإنسانية غربية وشرقية إلى اكتشاف أهمية العلم وبالتالي فإن الغرب مدين للإسلام وليس العكس. وعلى هذا فإن الإسلام أعطى للعلم حيزه المناسب وأن المبالغة الغربية أثرت سلبياً في تعطيل التطور العلمي حتى لو أنها ساهمت في الانفجار العلمي الذي نعيش من أنواره في الفترة المعاصرة. ولو قدّر لهذا الانفجار أن يبقى في إطاره الأصلي لكان الآن أضعاف ما هو عليه ولحصدت البشرية الكثير من منافعه.

وفي النهاية إن الفصل بين العلم والدين فصل مفتعل، وخاص بالواقع الغربي أو بأديان أخرى سوى الإسلام، وهذه حقيقة صارت واضحة بناء على المنهج الغربي نفسه، وليست مجرد ادّعاء من قبل المسلمين. كما أن التقاطع في بعض الجوانب هو تقاطع مشروع وضروري للحفاظ على المنهج الأقرب لقراءة الكون والذي لم يعاني من عقد التقلّبات والصراعات التي عاشها الإنسان الغربي مع نفسه، أو مع الطبيعة ومع الحضارات الأخرى، وبالتالي فإننا سوف لن نجد منهجاً متوازناً يقدّم لنا أسلوباً موضوعياً لقراءة الكون سوى الإسلام.

وعلى أساس كل ما سبق فإننا نحاول أن نضع بين يدي القارئ بعض المعالم العملية لعدم التقاطع بين الإسلام وبين العلم حتى لو تم أخذ العلم بصورته الفعلية من خلال اختيارنا لكتاب بحار الأنوار. وهو الكتاب الذي جمعت فيه مختلف الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام حيث سيرى القارئ من خلال هذه الدراسة أن القراءة السطحية لهذه الروايات ستقود إلى نتائج مختلفة وبعيدة عن الواقع، كما أن القراءة المجزّأة لها ستقود إلى نتائج غير واضحة، ولذلك لا بد من اعتماد القراءة الموضوعية أي تلك التي تشبه التفسير الموضوعي لكي يتاح لنا تقديم النموذج الذي نرجوه لعدم التقاطع بين

العلم والدين. ومن حسن الحظ أن المصنف وضع بين أيدينا الآيات وأقوال العلماء، أي أنه يقدم لنا فرصاً كبيرةً لفهم الصورة الكليّة التي تنتج من مجمل الآيات والروايات وأقوال العلماء حول الموضوع.

ونحن هنا قمنا بإضافتها إلى ما يدلي به العلم الحديث عن هذه المواضيع ومن خلال المجموع توخياً للوصول إلى صورة قريبة وواضحة عن الحقائق الواردة بواسطة النقل وصولاً إلى مدى تطابقها مع الأسس العلمية، أو مع ما يسميه البعض خرافة أو تفكير لا علمي.

وقد وقع الاختيار على الجزء السادس والخمسين من بحار الأنوار، وهو قسم ضمّ جملة آيات وأحاديث عن الملائكة الذين يمثلون أحد الأسس الاعتقادية الإسلامية والذين أكدت وجودهم تلك الآيات ككائنات تشرف على إدارة الوجود. وهذا الأمر قد عرفه الإنسان لكنه خلط وغلط في تحديد صفات هذه الكائنات، فمرة عبّد الكواكب بناءً على أنها هي التي تتصرف في وجوده، وأخرى قبل فكرة الملائكة لكنه أضاف إليها شيئاً من أفكاره. ولذلك فإن الاعتقاد بوجود الملائكة شائع في مختلف الثقافات البشرية على اختلاف مشاربها وأديانها.

ويستنتج من وجود هذه الكائنات بعض العلماء الذين يرون أن القوانين العلمية وحدها غير كافية لإدارة هذا الكون الممتد امتداداً يقترب من اللانهاية، وقد نقل (كولن ولسن) في كتابه (الإنسان وقواه الخفيّة) رأياً لأحد علماء السيطرة الذي قال فيه: أنه لا بدّ من وجود نظام للسيطرة على هذا الكون الذي تجري فيه بلايين العمليات بناءاً على أن تصميم أي جهاز بسيط يحتاج إلى التحكم والسيطرة، فكيف بهذا الكون الذي تجري فيه بلايين الأنواع من العمليات البايلوجية والكيماوية والفيزياوية فوق الذرية ودون

الذرية؟ فضلاً عن ولادة المجرات والنجوم. ألا يحتاج كل هذا إلى ضبط ونظم سيطرة؟ بالطبع أن أي عاقل يفترض وجود مثل نظم السيطرة هذه بلا نقاش.

والقرآن الكريم يقدّم لنا هذه الحقيقة بصورة مجملة تعضده في بيان التفاصيل الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

فهذه المخلوقات هي التي تدبر الكون وتدبر الحياة، وتشرف على الاعتقاد والولادة والموت والرزق، وتحمل الوحي الذي ينظم العلاقات بين البشر ومع الطبيعة ومع السماء، أنّها وجه وأداة السيطرة الإلهية على الوجود برمته، وهو الوجه الفعلي لسيطرة الله على هذا الوجود.

الأمر الذي دفعنا إلى اختيارها لتكون موضوعاً للاطلاع من زاوية العلم الحديث تهدف إلى التوصل إلى اكتشاف مدى التباعد والتقارب بين العلم والدين في ما يخصّ هذه الكائنات بالاعتماد على الجزء السادس والخمسين من كتاب بحار الأنوار الذي خصصه المصنف لهذه المخلوقات.

ومن حسن الحظ أن هذه الدراسة جاءت في زمن أصبح فيه البحث عن الماورائيات والقوى الغيبية حالة مألوفة وفرعاً من فروع العلم المحترمة، الأمر الذي يسهّل علينا المهمة.

كما أنه من الطريف أن نجد أن الإسلام قد قدم صورة لعالم متطور أكثر قابلية للتعقل مما يريد أن يرسمه العلم أو الخيال العلمي بالخصوص، وأن هذا سيلمسه القارئ بين طيات الكتاب إن شاء الله.

ولعل هذا سيكون حافزاً لإعادة النظر في بعض التصورات التي التصقت في الأذهان عن الإسلام وعن عالم الماورائيات من رواسب مرحلة الغرور العلمي، ذلك أن القارئ سيجد أن الإسلام طرح فكرة وجود إدارة عليا

للكون، هذه الإدارة تتمثل بالملائكة، فهي التي تنقل التشريعات إلى الإنسان وتساهم مباشرة في تنظيم حياته عند نقلها للوحي الذي يلائم كل مقطع تاريخي، فهي مدبرة للإنسان تشريعياً كما أنها مدبرة تكوينياً وكل ذلك يتم بإرادة الله سبحانه ومشيئته.

وهذا الطرح بالطبع يعكس تفوق الإسلام وسبقه لبقية الأفكار التي تحاول ادّعاء العلمية، وأنه أكثر علمية من سواه لتأكيده بشدّة على إحدى الحقائق التي لا تزال الدراسة العلمية في مجال التنظيم تثبت ضرورتها لبقاء الكون.

ومن أجل هذا الغرض عمدنا إلى طرح الأفكار الواردة في الأحاديث عن الكائنات المدبرة للكون وعرضناها على العلم الحديث دون أن نسقط أي من الرؤيتين على الأخرى، بل إننا سنقوم بعرض الحقيقة الواردة عن طريق النقل، ثم عرض الرؤية العلمية التي يمكن أن تلتقي معها أو تتعارض معها سواء بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة.

وهكذا سنجد الكثير من التصورات يتفوق بها الإسلام عند حديثه عن الحقائق الكونية، ولعل ما سيرد في متون الكتاب سيدلل على ضرورة اتخاذ الوحي الإلهي أساساً في البحث العلمي، لأن الذي أوحاه إنّما هو مؤسس هذا الوجود وخالقه هو الأكثر علماً بما فيه، وليس العلم الذي لا يزال يحبو بغية الوصول إلى حقائق هذا الوجود.

وقبل أن نستعجل في تقرير النتائج فإننا سنترك لصفحات الكتاب وما يرد في متونه للقارئ ليحكم عليه وأن يصل بنفسه إليها. والله من وراء القصد.

٢ ـ المنهج والمنهج المشترك

من المعلوم أن للدين أهدافاً خاصة به يسعى إلى تحقيقها، من خلال ارتباطه مع أشكال المعرفة الأخرى، لأنّه قبل كل شيء ينطوي على موقف معرفي من الكون والحياة، وإذا كان أن العمود الفقري في الدين هو الإيمان، فإن الإيمان ليس سوى موقف معرفي قائم على إدراك خاص للعالم والوجود.

وحين نتأمل العلم فإننا سنجده مشابهً للدين من هذه الناحية، لأن العلم ليس إلا محاولة معرفية تريد التقدم باتجاه تركيب إدراك أكثر يقينية عن الكون والحياة، والقوانين العاملة فيهما. وعلى هذا فإن الدين والعلم متحدان من هذه الناحية ولا يضر في ذلك اختلاف المنهج الديني عن المنهج العلمي أو الفلسفي.

ومن الطبيعي أن يرتبط كل ذلك بالإنسان لأنه الأداة والهدف في آن واحد. فالعلم والدين والفلسفة ما هي إلا أنماطاً خاصةً من الإدراك لا يمكن لها أن تتحقق في الواقع بدون الإنسان، كما أنها تهدف أولاً وآخراً لإشباع حالاته المعرفة.

فالدّين نمط معرفي يمتاز بالجاهزيّة والثبات في الأطر العامّة، والفلسفة هي أيضاً نمط آخر يمتاز بعمومية تفصلها عن الدين والعلم وتشترك معهما في بعض الجوانب، ونفس الشيء ينطبق على العلم وإنه حال أكثر خصوصية من الدين والفلسفة.

فالإنسان حينما يقف إزاء الطبيعة فإنّه يمارس عملية الإدراك بصورة فطرية متواصلة لأنها تستدعي المزيد من البحث والاستقصاء دائماً، إذ لا يوجد إدراك مطلق ونهائي وذلك لسببين:

الأول: محدوديّة الحواس

حواس الإنسان محدودة ولا تكون فاعلة إلا في دائرة ضيّقة. أما أعماق الوجود والتي تقع خارج تلك الدائرة فسوف تبقى مجهولة. ومن المعلوم أن العالم خارج دائرة الحواس أوسع بكثير من العالم الذي تلتقطه الأبصار والأسماع، ومع ذلك فإن هذه الدائرة تكون مفيدة وأساس هام في الإدراك إذا سلمت عن الغلط أو الاشتباه.

الثاني: الوجود المحدود للإنسان

إنّ الإنسان الفرد لا يشغل سوى حيز ضئيل من المكان والزمان وبالتالي فإن الحواس التي يمتلكها سوف لا تعمل إلا ضمن هذا الحيّز الصغير الزماني المكاني، ولهذا فإن أجزاء في الوجود ستبقى بعيدة عن حواس الإنسان. ونعني بها التي تبعد عنها مكانياً في أعماق الكون والتي تبعد عنها زمانياً أي في الماضي والحاضر. ولهذا فإنّه يخسر إدراكه المباشر للعالم مع حركة الزمن. فالأمم التي كانت في بدء التأريخ أدركت الطبيعة المعاصرة لها بصورة مباشرة كما أدركت الأحداث التأريخية، فلما مرت هذه الأحداث فإنها خرجت عن الإدراك المباشر وصارت مدركة بواسطة الذاكرة الجماعية وبالتالي فإن الكثير من الملامح صارت غائبة.

ومن هنا فإن الإنسان صار يجهل ما كان يعرفه حسياً، فالجيل الذي عايش مثلاً حادثة الطوفان خلّف لنا صوراً عنها وهي صور جزئية نضطر إلى تركيب بعض ملامحها من خلال الاستنتاجات والصور المنطقية المعقلنة، وليست بالضرورة أن هذه الصور تمثل الحقيقة مهما كانت درجتها من المعقولية والمنطقية.

ولهذا فإننا مضطرّين للاعتماد على قابلية الذهن لتركيب صور عن بداية الوجود وعن نهايته مثلاً، وعن الأعماق البعيدة مكانياً عنا كالكواكب والسدوم بناءً على ما في أيدينا من معلومات جزئية. وهكذا فإن عدم القدرة على الإدراك المباشر بسبب الفواصل الزمنية أو المكانية سيصبح سمةً رئيسيةً للإدراك البشري .

وهذا يعني أن تصورنا عن العالم سيبقى دائماً عبارة عن لوحة تمزقت أجزاؤها، فنقوم نحن بالبحث عنها مجدداً عن طريق تركيب هذه الأجزاء تباعاً وفي كل مقطع إذن نضيف جزءاً أو ملمحاً جديداً.

ثم إن إدراك مجموعة أفراد سيبدو متفاوتاً عن إدراك الفرد الواحد لما تتيحه الجماعة وتمنحه من امتداد للحسي والعقلي، فلو واجه فرد واحد عمارة كبيرة فإنّه سيرى جزءاً منها إما الأعلى أو الخلفي أو أحد الجوانب، لكن لو كان هناك عدد من الأفراد فإن كل منهم سيرى جانباً منها وسيحصل المجموع على إدراك أعمق من إدراك الفرد بسبب التكامل الذي يوفره الامتداد الجماعي. وهذا سيتضاعف لو أتيح لهؤلاء الأفراد إعادة عملية الوصف والتدقيق مرات ومرات في نفس الصورة، وهذا طبعاً يعني الاستفادة من نفس العدد عدة مرات، وهو يعادل إضافة أفراد جدد والنتيجة أن الإدراك يتأثر بالمدة المتاحة للإدراك وبالعدد المشارك في عملية التكامل، فهناك تكامل ناتج عن استمرار عملية الإدراك في زمن أطول وهناك تكامل ناتج عن استمرار عملية الإدراك من خلال أفراد أكثر.

هذا بالنسبة للمعرفة التي يحصلها الإنسان بواسطة الحس أو بواسطة العقل، ولكن هناك سبيل آخر للمعرفة هو سبيل المعرفة الدينية الذي لازم الإنسان منذ بداية وجوده وقد حاولت الدراسات التاريخية التوصل إلى بداية معينة لنشوء الفكر والمعرفة الدينية فلم تستطع وانتهت إلى الإقرار بالتلازم بين

وجود الإنسان ووجود هذا الشكل من المعرفة حتى بالنسبة للأطوار التي لم يعرف فيها الإنسان الكتابة، فإن الرسوم والآثار التي وجدت في الكهوف تدل على وجود الدين بكل أبعاده بما في ذلك البعد المعرفي للدين الذي هو موضوع اهتمامنا هنا.

والخلاصة أن أحداً ما لا يستطيع الجزم ببداية معينة للتفكير الديني. والنتيجة المترتبة على هذا الإقرار هو التلازم التاريخي بين المعرفة الدينية والإنسان. وعليه فإنّ الإنسان الذي هو مفطور على تكوين المعارف من خلال ما يمتلكه من حواس وهو الذي نسميه بالتفكير العلمي لم يخلُ في أي مقطع تأريخي عن تفكير ديني فهو إذاً عاش دائماً مع هذين النوعين من المعارف.

فهناك المعرفة المحصّلة وهناك المعرفة الجاهزة. ومن الواضح أنّ كلا هذين المصدرين يتناوبان في احتلال موقع الصدارة في تركيب الصورة عن العالم، وأحياناً يتحدان في تكوينها وفي أحيان أخرى يفترقان لكنهما في النهاية يشكلان مصدرين لتركيب تصوري عن العالم، وبالتالي فإنّهما دافعان ومحركان ومساهمان في حركة مستمرة لا تعرف التوقّف نسميها المعرفة.

وبالطبع أن هناك دائرة محددة يمكن للإنسان إصدار قرارات وأحكام حاسمة إزاءها فتخرج عن دائرة البحث والجدل وتدخل في إطار القضايا المتفق عليها ولو مقطعياً. إلاّ أن هناك الكثير مما لا يمكن البتّ بشأنه ويبقى في النهاية مثار جدل وبحث ونقاش مما يفضي إلى تعدد في الآراء بخصوصها.

كما أنه من جهة أخرى تختلف العصور، فحين يهيمن الدين فإن العلم سيكون منهجاً معتمداً عليه، وإن نظرته التي قد تبدو تجريبية ستكون مؤطرة بإطار الدين. أما إذا حصل العكس فإننا نجد أن النظر العقلي هو الذي سيبقى أساساً لكل الأشياء.

وعلى هذا فإن ما نسميه بالتقاطع في عصرنا الحاضر بين الدين والعلم أي بين إطار الرؤية الدينية إلى العالم، ووجهة النظر التي يكونها الإنسان عنه بالاعتماد على منهج العلم، ليس أمراً خالداً لأنّه حالة خاصة بهذا العصر الذي نعيش فيه، وبالتالي فإنّ التقاطع أو اللقاء ليس حالة أبديّة بل إنه يرتبط بعصره، ففي مرحلتنا التاريخية صار التقاطع هو السمة إلا أن اللقاء سيبقى ممكناً ولو في بعض الدوائر الخاصة.

وبالنسبة للدائرة التي نحن بصددها وهي دائرة الملائكة، تلك المخلوقات التي انفرد الدين بالحديث نلاحظ أنهما اشتركا في بيان بعض ما يرتبط بها ويمكن أن نجمل هذا الارتباط بما يلي:

١- الحياة بصورة عامة والكائنات والتي تشكل الملائكة بينها موضع اهتمامنا.

٢- الفضاء وامتداده باعتباره الوعاء الذي تعيش ضمنه هذه الكائنات جميعها.

فالعلم قدّم تصوّرات حول هذا الموضوع، والدين خاض فيه أيضاً بصورة مفصّلة مع فارق ينحصر في كون العلم لم يقدّم تصورات حاسمة وقطعية إزاء الكثير من المواضيع في هذه الدائرة، لكنه لا يزال يسعى للحصول على هذه التصورات القاطعة. بينما حسم الدين آراءه إزاءها دفعة واحدة.

ولكل ذلك فإننا لا نعدم إمكانيات لقاء بين العلم والدين بالنسبة لبعض المواضيع، كما أن هناك اختلاف وتباين بينهما وعليه فإن المشكلة قائمة في بعدين هما:

أولاً: اختلاف المنهج في كل من العلم والدين، ولذلك فإن كل منهما يضع وصفاً خاصاً لما يسميه حقيقة، وأن بعض هذه الأوصاف تُخرج بعض ما عند الآخر من دائرة الحقيقية وتنسبه إلى دائرة الوهم. وبالطبع لا يمكن التوصل إلى موقف مشترك ما لم يصار إلى الاعتماد على منهج موحد،

وبالتالي فإن سؤالاً يطرح تلقائياً هو: هل بالإمكان التوصل إلى هذا المنهج المشترك؟ أم لا؟.

ثانياً: هناك أيضاً اتحاد واختلاف بالنسبة للقضايا التفصيلية وهذا طبعاً لا يقع ضمن الدائرة العامة بل ولا بد أن يعالج أيضاً في الدوائر الخاصة.

ومن هذا المنطلق فإن البحث الذي بين أيدينا بحث معقّد لأنّه يحاول الاستناد على شيئين انفصلا عن بعضهما البعض منذ فترة طويلة. وصار من المستعصي تناول أحدهما بطرق الآخر لأنهما قد صنفا على حقلين هما الميتافيزقيا والفيزيقيا.

وقد غالى البعض في تصوير الطلاق والفراق بين الاثنين واستحالة اللقاء، لأن ميدان أحدهما: هو المحسوس والمدرك مباشرة، والثاني: غير المرئي وغير المدرك ولا سبيل إليه سوى القرآن والسنة.

ولا نريد الخوض في مدى دقة هذا التصور رغم ضرورته للبحث إلاّ أننّا نريد القول أن هذا التصوير ينتمي إلى قرون سابقة وإلى العقد التي خلّفها الصراع بين العلوم الحديثة وبصورتها التجريبيّة، وبين المعتقدات الدينية للكنيسة التي كانت تحارب العقل وترفض معطيات التجربة والمشاهدات لصالح المعتقد والقداسة التي ترى أنها أعلى من البرهان والدليل. وتطالب بالتسليم لها بلا أية مماراة.

وبالطبع أن هذا النمط من التعارض لم يعد قائماً في الزمن الحاضر، أما وبعد أن تقدِّمت العلوم وصارت تلتفت إلى الماضي وتحاول نفض الغبار عما رفضت أن تضعه في دائرتها لتعيد إليه الاعتبار، وتحاول أن تعطيه أهمية مستجدة إلى جانب سعيها لاكتشاف أساليب ملائمة لبحثه واستجلاء غوامضه فإن هذه الانطباعات لم تعد ذات مورد.

كما أنّه من جهة أخرى فإن الإيمان الإسلامي يختلف عن الإيمان الكنسي حيث أن الإسلام يقدم الدليل ويرفض أي إيمان بدون دليل لكنّه في بعض الملازمات يرى عدم الحاجة إلى البرهان المباشر ويكتفي لإثبات أحد اللوازم من خلال اللوازم الأخرى.

وعليه فإن الدائرة التي يطلق عليها مصطلح (علم) أصبحت في عصرنا الحاضر أوسع بكثير من الدائرة التي أطلق عليها (علم) في عصر النهضة وعصر الصراع مع الكنيسة، وبالتالي لم يعد مبرراً أن نقول أن القضيّة الفلانية غير داخلة في إطار البحث العلمي بسبب الاتساع في دائرة (العلم) وأيضاً لأن الكثير من القضايا التي صارت علوماً مستقلة بدأت كحواشي لعلوم وبمرور الزمن وبتجدد التساؤلات واتساع الإجابات صارت علوماً بذاتها.

وعلى سبيل المثال يكفي أن نعلم أن كثيراً مما بأيدينا اليوم من علوم إنّما نما وترعرع في أحضان الفلسفة وكان جزءاً منها ثم تدرج قليلاً قليلاً حتى صار علماً قائماً بذاته.

وعلى هذا فإن الاستحالة المزعومة غير موجودة ويمكن الإقرار بوجود صعوبة ولا غبار عليه، خصوصاً في البداية، فالبدايات دائماً صعبة وقد تمر سنين طويلة حتى يعثر البحث على خطوطه الجدية، ولطالما ظلت بعض العلوم مجرد ملاحظات مبعثرة لا يجمعها جامع، وربما ظلت بعض التساؤلات بلا إجابة قرون طويلة ثم صارت في النهاية علوماً مستقلة.

ومن هنا فإن البحث في هذه المسائل الاعتقادية كمسألة «الملائكة» من زاوية العلم، ليس بالضرورة أن يكون بحثاً وفق ما وصل إليه العلم بالفعل، بل مجرد إثارة تصلح لأن تكون بحثاً لعلم من علوم المستقبل، خصوصاً أننا لا نزال نرى اطراد التقدم العلمي نحو آفاق كانت في زمن ما تعتبر تخيلاً ووهماً لا يفكر فيه عاقل، وحين نريد قراءة قضية الملائكة بالاستناد إلى العلم

نحتاج إلى مقارنة فقط بين حقائق العلم وحقائق الدين والاعتقاد، ولا تكون فيها للمسلّمات العلميّة والحقائق المحضة أي سلطة على المسائل الاعتقادية، وستبقى مجرد مؤشر وتبقى كل قضية على حالها وهذا طبعاً في حال الافتراق والتخالف لكن في حال التوافق والائتلاف، فإن المسألة ستكون أكثر تشجيعاً للانطلاق منها إلى سواها، دون أن تنسى أن كل ذلك لا يعني أكثر من فهم خاص تأسّس على رافدين معرفيين التقيا إذ أن العلم في حال تغير مستمر، فإذا ثبت خطأه أو إذا تم تعديله فإن القضية الاعتقادية لا يمكن لها أن تلاحقه في حركته تلك، بسبب تأسيسها على الوحي الثابت الذي لا يتغير.

وهكذا علينا بدءاً أن لا نقر بالتداخل أو الاتحاد وأن يبقى فهمنا مجرد فهم خاص بنا حتى لو بدا صائباً ومنطقياً عملاً بواجب الاحتياط وإفساح المجال للأجيال القادمة للعمل والتفكير والتطور، ولعل في قضية حركة الشمس مثال جيد، ففي البداية ساد اعتقاد مفاده أن الشمس متحركة وأنها تدور حول الأرض ولهذا كان البعض ينظر إلى الآية التي تقول ﴿ ***والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم*** ﴾[1] على أنها متطابقة مع العلم في تلك الفترة، فلما أكتُشف أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، والشمس هي الثابتة، حاول البعض أن يسقط هذا الكشف أيضاً على النص القرآني، وأن ينظر إليه بارتياب لكن بعد فترة اكتشف العلم أن الشمس متحركة أيضاً ولكن حركتها في محور آخر، وأنها بالنسبة للأرض ثابتة، فأسقط بيد هؤلاء.

ومن هنا فإن تقلب الأنظار وتسارع الكشوف قد يقودنا إلى مزالق خطرة لكن الإفادة من التشابهات دون إسقاط أحد الإفهام على سواه أو تخطئته سيكون مفيداً. لأنّه يشجع البحث ويساعد على التفكير في ملكوت الله. وفي

---

(١) سورة يس: ٣٨.

الصورة النهائية لا بد من تطابق العلم الحقيقي مع الإيمان الحقيقي لأنهما وجهان لحقيقة واحدة هي خلق الله وإبداعه للوجود، الأوّل: ما حصّله الإنسان بجهده، والثاني: ما أوحاه الله إليه بواسطة الأنبياء والرسل، ولا يمكن أن يختلف ما أخبره الله للإنسان عن العالم وعن العلم الحقيقي الذي أدركه الإنسان بنفسه، وإذا أمكن الاحتجاج بالخطأ الذي وقعت فيه الكنيسة، فإنه مردود لأنه ليس ناشئاً عن الوحي الذي أوحاه الله، بل ناشئ عن الأساطير اليونانية التي تسربت إلى الكتاب المقدس ثم صارت جزءاً منه وتلبست بقداسته.

وإذا عرفنا فعلاً منشأ الغلط أمكننا حينئذٍ تجنبه، ومنشأه هنا هو بإضافة الإنسان تصوراته، وأوهامه، وتفسيراته، وإلصاقها بالوحي، ثم تحولها إلى جزء منه بمرور الزمن.

وهذا هو بالضبط ما نريد الإشارة إليه تجنباً له، فعلى الإنسان أن لا يحمل فهمه الخاص للعالم، وللنص المقدس على النص المقدس بل لا بد من الإشارة إلى كل منهما وتأكيد وجود فاصلة بينهما وهي فاصلة هائلة، فشتّان بين وحي الله وبين عقل الإنسان القاصر رغم كل ما يقال عن عظمته.

وعليه فإن فكرة اللقاء لا تقوم على أي إلغاء بل على جمع دقة المناهج العلمية إلى جانب سعة أفق الوحي، الجمع بين قوة العلم وتعامله مع المحسوس والثابت تجريبياً مع الآفاق النظرية باعتبارها مواضيع قابلة للإثبات والدراسة. إنّه مجرد توسيع لتعريف العلم وإضافة مواضيع جديدة إليه ليست لأنها قابلة للإثبات تجريبياً بل لأنها غير قابلة للنفي فعلاً ويمكن أن تكون قابلة للإثبات مستقبلاً.

٣ ـ اللقاء وبداية القطيعة

ومن هنا فإن اللقاء سيأتي من خلال اعتماد أساسين هما:

أولاً: يمكن النظر إلى ما يرد من تصورات عن طريق الوحي على أنها وجهات نظر وآفاق نظرية قابلة للإثبات وغير قابلة للنفي. ولهذا فإنها داخلة في موضوعات العلم ويمكن أن نصل إلى إثباتها عندما تتطور قدرات العالم وتصل إلى أبعاد كافية، ويساعد على ذلك سعي العلم جاهداً إلى إثبات خطأها وعجزه عن ذلك.

ثانياً: توسيع دائرة العلم والحدود الفعلية التي تحدد موضوعاته على أساس التجارب والمناهج الفعلية لتشمل المغيبات التي صارت تدرس بشكل عملي، كعلوم في طور الإنشاء أطلق عليها علم دراسة الظواهر الشاذة، فإذا تم توسيع هذا النوع من التغير بشكل عملي، فإنّه على المدى البعيد يتاح إحداث تغير فيها نصطلح عليه (حقيقة) والأسس التي تتبع في الوصول إليها وبغض النظر عن كونها مسوّرة بالتجربة أو بالفعل فقط أو بأسوار جديدة.

وهكذا سنصل إلى الحفاظ على دقّة العلم وصرامة مناهجه دون أن نخسر حقائق الدين.

ثالثاً: اتساع دائرة الرؤية التي يقدمها الوحي.

وكل الخطوات المنهجية السابقة ستبدو ممكنة إذا حاولنا قبل كل شيء تفهم أسباب القطيعة التأريخية التي حصلت بين العلم والميتافزيقيا، فمن المعلوم تأريخياً أن القطيعة بين العلم والميتافزيقيا إنّما ولدت في «عصر الأنوار» ولغرض تأكيد وجود الحقيقة الموضوعية وقدرة الإدراك على اكتشافها، وهو صراع كان محتدماً في حينها. ولهذا كانت المحاولة تهدف إلى

إبراز «أهمية التعارض بين ما يسميه الميتافزيقيا اللاهوتية القديمة أو الميتافزيقيا بالمعنى الحقيقي للكلمة والميتافزيقيا الفلسفية الحديثة أو الأيديولوجيا»[١]. فالأيدلوجيا (علم الأفكار) كانت تهدف إلى نقد ما هو قائم عندما حاولت صياغة نظرية معرفية جديدة قائمة على «أسس تتناسب مع حالة المد العلمي والعقلاني التي اجتاحت الفكر الأوربي منذ مطلع القرن السابع عشر»[٢].

وعلى هذا فإن أصل ولادة حدود العلم أو حدود المعرفة جاءت من خلال تأكيد وإبراز هذا التعارض، ولذلك فإن شيئاً من الأحكام المسبقة أثرت على عملية التحديد، وبعبارة أخرى إن العلم في نشأته المعاصرة ولد في إطار إيديولوجي محدد متعارض مع إطار إيدلوجي آخر، ومن هنا فإن طبيعة الصراع أثّرت على النتائج حيث عمد كل من الطرفين إلى إلغاء الآخر استجابة لنزعة البقاء الكامنة في أعماق الطبقات المتصارعة والمترسة بهاتين الأيدلوجيتين.

ومن هنا فإنّ الدقة والصرامة في المنهج حتى لو كانت من الناحية العملية قد أدّت إلى قفزة علمية عظيمة إلاّ أنها تستبطن الخوف من منح الآخر فرصة إثبات الذات حين يتاح له تأكيد مقولاته. وهذا نمط من المواقف المسبقة من المعرفة المستند إلى ذاتيات الإنسان.

وإذا جمعنا إلى ذلك أن الطبقات الجديدة هي التي ربحت جولات الصراع فإن النتيجة المترتبة على ذلك وبشكل آلي هو سيادة المنهج، ليس لأنه استطاع تقديم إنجازات كبيرة بل لأنه صار يملك سلطة فرض الرأي من خلال حصر الحقيقة بعد تعريفها بأنّها التي تأتي بواسطة المناهج المتبناة من قبل

---

(١) العلم الإيديولوجيا دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي: ١٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٦.

الطبقات الجديدة. وكمثال على هذا النمط من الصراعات فإن صراعاً ما دار بين (الأيدلوجيين) وهم الذين كانوا يمثلون تياراً خاصاً وبين (نابليون) لأنهم (عارضوا مطامحه إلى الانفراد بالسلطة)[١].

وهكذا فإنّ الصرامة العلمية جاءت لعلاج اللاعقلانية التي كانت سائدة في القرون الوسطى فوضعت العقل كقيد للحقيقة. وبالتالي فإنها قيدت العقل نفسه وأدت إلى حجب النظر عن دائرة واسعة من المعارف عندما أخرجت اللامعقول عن المعرفة العلميّة وإضافته إلى الأسطورة أو الخرافة.

وبالنظر لهذه الصرامة فإننا لا نستطيع التشكيك في نفس الحقيقة رغم أن هذا جائز في ما عدا التجريبيات لكننا نستطيع التشكيك في الأسس التي قامت عليها، وإذا كانت «المعرفة بأدق معانيها وأكثرها قبولاً، لا تختلف في شيء قط عن قبول الإنسان لقرارات يراها جائزة القبول»[٢] وهذا يعني أن الإنسان يساهم في تأطير الحقيقة ورسم أبعادها وأنه حاضر في بناء أسها.

إذن فالإنسان وحضوره المذكور يعادل نفي الموضوعية الكاملة لأنه يربطها بذاتياته، فتسمى في النهاية مركبة من جزء موضوعي وآخر ذاتي لا يظهر إلا عند التدقيق في الأسس والحدود والأطر.

ومن هنا فإن تداخلاً سينشأ بين الذاتي والموضوعي في النهاية يؤدي إلى تعدد الحقيقة بتعدد المناهج أو تعدد الذاتيات، ذلك أن «المبرر الوحيد لمفاهيمنا وأنظمتنا المفهومية، هو أنها تخدم في تمثيل مركب خبراتنا ـ عدا عن هذا ـ فإنها لا تملك أية شرعية»[٣].

---

(١) العلم الإيديولوجيا دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي: ١٧.

(٢) المنطق نظرية البحث: ٣٥٦.

(٣) معنى النسبية: ٤.

ولكي نحصل على حقائق موضوعية كاملة لا بد لنا من فصل الذاتي عن الموضوعي في عملية الإدراك، وإذا كان بإمكاننا الإشارة إلى جملة مدركات موضوعية، فإننا نحتاج إلى الاستفادة من المشترك الذي يقلّص دائرة الذات فإنّنا نستطيع أن نسمي الإدراكات «التي تكون مشتركة بين أشخاص مختلفين - إلى حد ما - المدركات اللاشخصية»[1]. التي يمكن أن تكون موضوعية لأنّها موضع إقرار من قبل هؤلاء الأفراد، وعلى العكس من ذلك فإن انعدام التطابق يقود إلى افتراض الشك وحيث أن في موضوعنا ينعدم هذا التطابق فإنّنا لابّد أن نشك بوجود خطأ، ولكي نصل إلى الحقيقة فلا بد من افتراض عدم وجود حقيقة غير قابلة لأن تكون موضوعاً للشك «فشرط من شروط البحث المنضبط هو أن يكون الباحث على أهبة الاستعداد واليقظة فيخضع نتائج البحوث السابقة مهما كانت متانة الأساس الذي قامت عليه لإعادة تمحيصها»[2] من باب الشك مقدمة اليقين.

ولهذا فإنّ الشك في أي حقيقة مبرر وينشأ من الاعتقاد بوجود ذاتية الإنسان خاصة في إدراكاته ولو بحدود ضيّقة، وأن الاطلاقية تعتبر ضرباً من ضروب الوهم في النظر إلى العالم «وقد يكون (نيتشه) أكثر حزماً منا حين اعتبر كبرى الإنسان الفلسفية مؤسسة على قيم عملية يعتمل الفكر المتفلسف في قرارتها دون أن يتوعى حقيقتها فيصعد منتجاته «خصائص» بدل أن يسميها باسمها الصحيح «منافع».. لكن الفلسفة حتى في هذه الحالات التي تتحول فيها إلى ضرب من ضروب «ايدلوجيا الدفاعية» الصريحة - لا تفقد ما لابد منه لممارسة نظرية مميزة أعني علاقتها بالعلوم وتعاملها معها مهما

---

(١) معنى النسبية: ٤.

(٢) المنطق نظرية البحث: ٢٥٣.

كان نوع هذا التعامل ومهما كان مستواه وإلا سقطت إلى مستوى دون فلسفي، وقد لا نخشى هذا السقوط بقدر ما يخشى ذهاب مصداقيتها وفعاليتها»[١].

وعلى هذا فإن كل شيء يكون مؤسس على أفكار قبلية يعبرها الإنسان ويؤمن بصحتها دون أن يعيد تمحيصها، وبالتالي فإن العلم والثقافة تدور دائماً في مساحة أيديولوجية تؤسس مسبقاً وتصبح أساساً لجميع شؤون الحياة.

ومن المؤكد أن الرؤى والتصورات في عالمنا المعاصر مؤسسة على أساس من أيدلوجية النهضة والصراع مع الكنيسة، والتي طبعت العلوم وحدودها وأطرها بطابعها، مع أن الأيدلوجية ليست «معرفة خاطئة لأنها ليست معرفة وأن وظيفتها العملية المجتمعية تفوق أهمية وظيفتها النظرية المعرفية، فالناس لا يعكسون ظروف عيشتهم الواقعية ولا عالمهم الحقيقي في التمثيلات الايدلوجية أنهم يعكسون قبل كل شيء علاقتهم بظروف عيشهم»[٢].

«فإذا كان العلم معرفة بالواقع ووسيلة لتحويله لا ينبغي أن نفهم التحويل هنا على أنه تحويل تقني يجعلنا سادة على الطبيعة ممتلكين لها، بل إنّه تحويل معرفي تحويل من شأنه أن يخلق موضوعات للمعرفة فإن الايدلوجية تعمل منذ نشوء المعرفة»[٣].

«الأيدلوجية إذن وسيلة تكرار وتعرّف. إنها لا تعرف الواقع إلا للتصرف فيه على رؤاها الخاصة ولا تعرفه إلا لتتجاهل ما يضايقها فيه»[٤].

---

(١) دراسات فلسفية من العلم والفلسفة: ١٣.

(٢) الميتافزيقيا العلم الإيديولوجيا: ١٠٤.

(٣) الميتافزيقيا العلم الإيديولوجيا: ١٠٥.

(٤) المصدر نفسه: ١٠٦.

«العلم لا يعدو أن يكون ممارسة نظرية في حين أن الأيدلوجيا تشكل مستوى من مستويات كل تشكيلة اجتماعية»[١].

ولقد أصدرت أيدلوجية النهضة أحكاماً على الدائرة التي تمنح الحياة للكنيسة وللمجتمع الإقطاعي، وظلت هذه الأحكام صائبة في ظل النجاحات التي كانت تقطعها الثورات الاجتماعية ومعها تتواصل الكشوف العلمية فجاء كل ذلك كمصداقية لصحة الأحكام الصادرة.

ومن تلك اللحظة صارت الميتافزيقيا تدخل إلى دائرة الأساطير وخرجت عن دائرة العلم، ورغم أن هذا الحكم كان سيئاً ولم يترك حيزاً للمراجعة ومزيد من التأمل، إلاّ أنّه في نفس الوقت ضروري لحسم الجدل حول الموضوعات التي لا تنطوي على إمكانات حسم ذاتية وتلقائية.

فالعلم بهذا التحديد الضيق سبب انفجار العلوم، إلاّ أنه قاد إلى حجب دائرة واسعة من الموضوعات عن فرصة البحث العلمي، خوفاً من تسرب الأساطير والخرافات واللايقين، ومن ثم لجأ إلى تقسيم الأفكار إلى علوم وأساطير أو حقائق وأوهام وقصر الحقائق على التجريبات والمحسوسات والمعقولات، غير أن التقدم الكبير الذي حقّقه العلم في دائرة التجريبات، صار يقود بصورة أو أخرى إلى إعادة النظر في حدود العلم، وجرت محاولات لإدخال هذه الجوانب المهملة من القوى الكونية إلى ساحة العلم مجدداً.

ونحن إذ نسأل عن «المعايير التي في ضوءها تكتشف الخطوط المحددة لطبيعة التفكير الأسطوري عن سواه ؟»[٢] وهل أن الأسطورة في زمن ظهورها

---

(١) المصدر نفسه: ١٠٧.

(٢) الجانب العقلاني من اللامعقول: ٩.

كانت أسطورة ؟ أم أنها كانت رؤية علمية منسجمة مع الظروف التاريخية التي ولدت فيها؟ وعلى هذا فهي علم قديم ولعل العلم الذي بين أيدينا سيصبح أسطورياً في المستقبل وبصورة عملية فإنه بدأ يغادر المثالية التي انطلق منها، وانطلقت دعواته إلى التعامل مع ما عرف بالميتافزيقيا وتناولها تناولاً معاصراً للتوصل إلى حقيقة التصورات التي تكونت عنها، فهل سيقودنا البحث إلى تأكيد ما توصّل إليه بشأنها أم لا؟ أم أننا سنتوصل من خلال هذه البحوث إلى نتائج أخرى مغايرة لا هذه ولا تلك؟.

وقد تم التوصل إلى نتائج في هذا المجال وتم إعادة النظر في الكثير من أحكامنا السابقة، وتم الفصل بين بعض المجالات التي كانت إلى زمن قريب محسوبة على الشعوذة، واكتشفنا أنها ترتبط بقوى مودعة داخل النفس الإنسانية، ولكنها مجهولة كما أن نفس الفرضيات العلمية بدأت تتسع لتضم بين جوانبها بعض ما كان محسوباً على العوالم المغلقة والخرافية للميتافزيقيا.

وبالنسبة لنا سنكون معنيين بتقديم تصورات حول المعتقدات الإسلامية، ومدى قابليتها للتوائم مع مرتكزات العلم الحديث حتى لو كانت هي من الأشياء التي تقع خارج دائرة التجريبيات، فما «لا يقبل للتجربة من مظاهر الروح الإنسانية، لا يعني أنه غير قابل لأن يبحث ويفهم منها تجريدياً وعقلياً وميتافزيقياً»[1].

وعلى هذا الأساس فإن أصل القطيعة مع الميتافيزقيا إنما جاء متأثراً بالصراعات الاجتماعية والسياسية في عصر النهضة الأوربية، وبالتالي فإن الصراحة لا تعكس الصراحة العلمية بقدر ما تعكس الصراعات التي أشرنا إليها.

---

(١) الروح: ١٠.

فتكون النتيجة النهائية هي أن القطيعة لم تعد مبررة بعد أن قطع العالم كل هذا الشوط، والتفت كثير من العلماء إلى أهمية إعادة النظر في هذه القطيعة، وظهرت آراء تدعو إلى دراسة العوالم الميتافيزيقية وفق المناهج العلمية. «وهناك محاولات لإجراء تجارب في ميدان الدين للتخلي عن شكلية التقاليد القديمة، ويجد هذا الاتجاه تعبيراً له في الانتشار السريع للحركات الدينية الجديدة والفلسفات الجديدة، كما هي عليه الحال في التجارب الجريئة مع المذاهب الحديثة والكنائس والطقوس، ويمكن مقارنة مرحلتنا بالنضج الفكري في عصر النهضة الذي آل إلى تطور العلم الحديث حتى صاغ موروث حضارتنا الحالية»[1].

فهنا يكاد الدين أن يعود مرة أخرى ليعطي العلم صورته الجديدة ويمنحه دفقة أخرى لسبرغور عوامل الميتافزيقيا التي حرم من ريادتها، لأنه أجبر بدءاً على إنكارها عندما وضعت في دائرة اللامعقول.

ووفق هذه المعايير يمكننا أن نصل إلى اللقاء في منهج مشترك بمجرد تجاوز أسباب القطيعة.

ولعل محاولتنا في الصفحات القادمة تمثل ممارسة علمية وفق هذا المنهج المشترك حيث نحاول بحث موضوع الملائكة، وهو موضوع غيبي من خلال الأسس العلمية ومقارنة ما جاء عن طريق الوحي حولها، بطرائق العلم، فهناك الحقائق العلمية التي كونت تصورات عن بعض المعالم المتعلقة بالملائكة، هل تستطيع أن تواكب ما جاء من الوحي؟ وإلى أي مدى تتعارض أو تتطابق؟ وفي النتيجة النهائية إلى أي مدى يمكن لهذا المنهج المشترك الذي

---

(١) تدريب الإدراك الحسي الفائق: ١٠.

قلنا أنه يجمع بين الصرامة العلمية والامتداد الذي يأتي عن طريق الوحي دون التفريط بأي من الاثنين أو إسقاط أحكام العلم على الدين أن يعطي ثمار مهمة؟

لا شك أننا سنرى من خلال هذه المحاولة إمكانية قيام هذا المنهج أم لا. والحكم طبعاً متروك للمهتمين الذين سيرون مدى نجاح هذا المنهج أو فشله أو يصار إلى إعادة النظر فيه.

الفصل الأوّل

الماهيّة والصّفات

- المعنى اللغوي
- خلق الملائكة
- فرضيّة التطور
- الملائكة أجسام
- النشاطات الحيويّة للملائكة
- مسكن الملائكة
- امتداد الكون بين الوحي والعلم
- الجنس المقارب للملائكة

المعنى اللّغوي

«والملائكة جمع اختلف في اشتقاقه، فذهب أكثر العلماء إلى أنّه من الالوكة وهي الرسالة، وقال الخليل: الألوك الرسالة وهي المألكة، والمألكة على مفعلة، وقال غيره إنما سميت الرسالة الوكا لأنّها تولك في الفم أي تمضغ والفرس تألك اللجام وتعلك، فالملائكة على هذا وزنها معافلة لأنّها مفاعلة مقلوبة جمع ملأك ومن العرب من يستعمله مهموزاً. وعلى هذا يكون الملك اسم جنس ولا يكون من الرسالة والجعل والخلق والفعل والأحداث نظائر إلا أن الجعل قد يتعلق بالشيء، لا على سبيل الإيجاد بخلاف الفعل والاحداث، تقول: جعلته متحركاً، وحقيقة الجعل تغيير الشيء عما كان عليه وحقيقة الفعل والأحداث: الإيجاد، والخليفة والإمام واحد في الاستعمال إلاّ أن بينهما فرقاً، فالخليفة من استخلف في الأمر مكان من كان قبله»[١].

ثمة تطابق بين المعنى الوارد لمفردة ملائكة في القرآن مع المعنى اللغوي، إذ أن اشتقاقها في العربية يأتي من الرسالة، بينما نرى أنها في لغات أخرى تشتق من كلمة روح، فتكون المفردة العربية أقرب إلى المضامين التي جاء بها القرآن الكريم حول طبيعة هذه المخلوقات الكريمة. بينما تعكس المفردات الأخرى غير العربية بعض الضبابية، إذ أن نفس كلمة روح كلمة غائمة ليست لها أبعاد واضحة محددة، فهي ربما تدل على القوة التي تدفع الفاعلية في جسد الإنسان أو أنّها تطلق على الكائنات غير المرئية بلا أي تحديد لطبيعة هذه الكائنات، ولهذا فإنّ هذا التصور يسقط على عالم الغيب جزافاً، فيسمى بعالم الأرواح في العديد من الثقافات، فيسفر عن اختلاط كبير في التصورات حول الموضوع.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١/ ٧٢ - ٧٣.

مع أن الصورة التي ستراها والتي ترسمها الآيات والأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام صورة مختلفة تماماً، فالملائكة نوع من المخلوقات ذات طبيعة خاصة وهي مكلفة تماماً مثل كل الكائنات في هذا الوجود، كما أوضحت ذلك الآيات التي تذكرها ذكراً خاصاً وملفتاً للنظر. كقوله تعالى: ﴿ *آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورُسله لا نفرّق بين أحد من رُسُله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير* ﴾[1].

فالإيمان الذي آمن به الرسول والمؤمنون هو إيمان بالله، وكتبه، ورسله، وملائكته، وقد جاء مضمون مشابه في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ *يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً* ﴾[2].

فهذه الآيات تشير إلى محورية الإيمان بالله وبالملائكة التي هي رسل الله في هذه الحياة، وأن الكفر بهذه المخلوقات يقود الإنسان إلى متاهات خطيرة توقعه في أفدح الضرر.

ولعل أحد أهداف هذا البحث هو الوصول إلى الإيمان بالملائكة، ومع الإيمان عموماً بما جاء من حقائق الوحي، من خلال اكتشاف أن ما نقله القرآن الكريم وما نقلته روايات أهل البيت عليهم السلام، إنّما هو منطلق من أساس متين ومتكئ إلى ركن ركين، وليس فيه شطحات أو تقولات أو أوهام أو أضغاث أحلام.

ولكي لا نستعجل النتائج فإننا نترك للبحث أن يسير بنا مع هذه المخلوقات الكريمة، فنتعرّف عليها من خلال ما جمعه كتاب بحار الأنوار، فنخرج بالصورة الكلية التي تتركب تدريجياً من مجمل ما سيرد من آيات

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) سورة النساء: ١٣٦.

وأحاديث مما نقله العلامة المجلسي ﷺ إلى جانب المقارنة ببعض ما جاء في العلم الحديث.

خلق الملائكة

إنّ البحث في التأريخ يشكل مدخلاً مهماً لباقي أجزاء البحث، وعليه فإنّ تأريخها يعني العود إلى نقطة وجودها ولحظة خلقها وهي مهمة، لأنها تلقي الضوء على الكثير من المعالم الحيوية بالنسبة لعالم السماء الذي تشكّل فيه الملائكة أكبر عناصره المتحركة داخله.

ورغم هذه الأهمية فإننا نجد إشارات عابرة وأحاديث قليلة واردة عن الرسول وأهل البيت ﷺ بهذا الخصوص، إلا أنها مع ذلك تحظى بدور مهم في بحثنا لعدم وجود سواها، ثم إنها كافية لتسليط الضوء على ما نتوخاه من التعرف على طبيعة نشوء هذه المخلوقات الكريمة، والتي تعتبر من أساسيّات نظام الخلق كما يفهم من الآيات والروايات التي ستمر علينا لاحقاً.

الأحاديث تؤكد على أن الملائكة خلقت من نور وجاءت هذه الروايات في زمن لم يكن الإنسان يعرف الكثير عن النور وعن طبيعة تكوينه، وهل بالإمكان أن توجد كائنات يصبح النور مادتها الرئيسية كما يشكّل التراب مادة رئيسية بالنسبة للبشر؟. وهذا ما يؤكد صحة الأحاديث وسبقها للعلم في إدراك طبيعة النور وإمكان إنتاج كائنات حية منه.

غير أن تقدم العلوم وتوسع المعلومات وضع النور في دائرة غير الدائرة التي كان الإنسان يضعه فيها، فتبين أن النور هو صنف من أصناف الطاقة يقابل الأجسام، وأن الإنسان صار يفهم وجود علاقة أساسية بين الطاقة والمادة وأنهما وجهان لشيء واحد.

وفي هذا الإطار توجد روايات نورد منها ما يلي:

روى أحمد ومسلم عن رسول الله قوله: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق الإنسان مما وصف لكم»[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عز وجل خلق الملائكة من نور[٢].

ومن المعروف أن النور جنس تقع تحته أنواع عدة، وهذا يدفعنا إلى أن نتصور أن الملائكة خلقوا من مركبات النور مثلما أن الإنسان خلق من مركبات التراب التي تتركب بدورها من عدد كبير من العناصر، كالكربون، والهيدروجين، والحديد، والأملاح ومن العناصر التي توجد في التراب. وعليه فإن الملائكة يمكن أن يكونوا قد خلقوا من أصل نوري مركب، وهذا يقودنا للبحث عن العلاقة بين النور والأجسام.

فقد أثبت العلم أن النور والأجسام وجهان لشيء واحد، فالالكترونات حين تنفجر تتحول إلى ضوء وحرارة، وهناك أنواع من الأشعة ليست منفصلة عن المادة بل هي ذات طبيعة مشتركة. والضوء عبارة عن فوتونات عُرفت بأنها جسيمات يقودها في سيرها مجال موجي، فهناك أيضاً جسيمات تسلك وكأنها أشعة، وهكذا فإن الفاصلة بين الجسيم والأشعة تتقلص ولكن هذا لا يعني أنها تضيع تماماً، بل هناك حدود تجعل لكل منهما وجوده المستقل لكن المهم في ذلك أن «العالم كما تبين أخيراً، بدأ كله من فوتونات ثم تحوّلت هذه الفوتونات إلى كل هذا الغنى الذي تحدثنا عنه»[٣].

فالنّور في العربية يطلق على الأطياف التي تجعل الأشياء مرئية، وهو مرادف لكلمة ضوء في العربية لكن هناك تفاوتاً في الدلالة، ولهذا فإن الله

---

(١) آدم عليه السلام فلسفة تقويم الإنسان وخلافته: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٩١، عن الاختصاص.

(٣) قوانين المادة اكتشافات خارقة: ٢٦.

سبحانه قال: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ﴾[(١)] وهكذا يلوح أن النور والضوء لا يختلفان إلاّ في الشدّة، لأن أصل نور القمر هو ضوء الشمس بعد أن تذهب شدته بالانعكاس عن سطح القمر.

وهكذا سيبدو أن الضوء هو عبارة عن الأطياف التي تبصرها العين البشرية، وأن النور هو الضوء الذي امتص بعضه وتشتّت شدته، وهنا لا يمكن الجزم بأن المادة التي تركبت منها الملائكة، ستكون هي الطيف المرئي ضعيف الشدة، أو أنها يمكن أن تكون الأشعة بالمعنى الفيزياوي المعاصر، فتدخل في إطارها أعداد كبيرة من الأشعة منها: الأشعة السينية، وأشعة إكس، وأشعة الليزر، والأشعة فوق البنفسجية، وتحت الحمراء، وأشعة بيتا وكاما، وبقية الأنواع.

وهكذا فإننا أمام احتمالين، الأول: أن الله خلقهم من هذا الضوء المرئي الذي يعرف بالنور. والاحتمال الآخر: هو أنهم خلقوا من شكل أو أكثر من الأشعة غير المرئية، وفي كل الأحوال فإنهم باتوا غير مرئيين للإنسان ولعل هذا يرجح كونهم خلقوا من أشعة غير مرئية، خصوصاً إذا وضعنا في الحسبان بأن النور في القرآن يستخدم للدلالة على الهدى، وهي الحالة المعنوية للرؤية، والرؤية أساساً تعتمد على العقل أكثر مما تعتمد على الأشعة، لأن الذي يرى حقاً ويبصر هو العقل وليس العين ولكن العين مجرد واسطة في الرؤية، وهكذا فإننا أمام شكلين من أشكال النور هما: النور غير المادي، أي النور المعنوي، والنور الآخر هو المادي. وكما يقول البعض أن هناك أنواعاً من طاقات الإدراك أكبر من الطاقة العادية وهي التي تعمل في حالات الظواهر الباراسيكولوجية ولكنه صنف خاص من الطاقة مجهول. ولعل قول الله

---

(١) سورة يونس: ٥.

سبحانه وتعالى: ﴿اللهُ نورُ السَّمواتِ والأرضِ﴾[1] يلقى ضوءاً على هذه القضية. فإن النور الإلهي الذي هو النور الفعلي والنور المعنوي أو قوة الإدراك إنّما هو من الله سبحانه، فالمدَرك والمدِرك والمادة والطاقة وكل شيء هو من الله أي أن هذا الشيء برمته من الله وجميع هذه الأشكال إنما تنتمي إلى الإفاضة النورية الإلهية.

ويترتب عليه أننا لابدّ أن نحتمل وجود أشكال أخرى من النور، وبغض النظر عن انتمائه إلى هذا الأصل الذي نعرفه أو إلى أصل آخر أو أن كلاهما ينتميان إلى أصل مشترك، فيكون انتماء الملائكة إليه بعد أن تتركب منه كما يتركب البشر من التراب، فالملك هو ناتج عن مركبات نورية ولذا يجب أن نضع نصب أعيننا أن الطاقة (الضوء ـ الأشعة) إنّما تتفاعل لتنتج المادة وأن كل مادة تتفتت تتحول إلى أشكال الطاقة وخصوصاً أنّ العلم أثبت أنّ الفوتونات إنّما هي جسيمات تتصرف وكأنّها موجات، وتكون النتيجة أنّ المادة أو الجسيمات كالبروتونات وما دونها. إنّما هي عبارة عن تكاثف في الطاقة وهي حين تتحلل تعود إلى أصلها (الطاقة).

وهكذا يمكن لنا أن نتصور أنّ ولادة الكون بدأت من الأشكال البسيطة من الطاقة ثم صارت تتكتلَ في جسيمات، وبذلك تختفي جسيمات النور مع تخلق الجسيمات، ولهذا لابد من افتراض أشكال بسيطة من الطاقة قابلة للاتحاد مع سواها لتركب أشكالاً أكثر تعقيداً، ونستطيع تخيّل أكثر من اتّجاه لتواصل مسيرة التركيب أو نفترض القفزات وأن كل عدد (×) من التركيبات ينتهي إلى خلق قفزة لإنتاج أشكال بعيدة وغريبة عن الأصل، إلاّ أنها في الحقيقة هي نفسه ولعل ظهور جسيمات المادة يمثل قفزة في الوجود نتجت عن عدد (×) من تفاعلات الطاقة.

---

(١) سورة النور: ٣٥.

ومن هنا فإننا نفترض ثلاثة أطوار:

الطور الأول: هو الإشكال المعنوية للطاقة وهي أشكال لا تظهر إلاّ بعد أن يتم تحليل الأشعة إلى أبسط أشكالها.

والطور الثاني: هو الطور الذي ظهرت فيه الطاقة بالشكل الذي نعرفه نحن، وبعض أشكاله هي الطاقة التي ذكرناها. وأخيراً القفزة التي ظهرت بظهور المادة وهذا طبعاً لا يعني أنّ ظهور شكل معين أو وصول طور يعني اختفاء الأشكال التي ظهرت في الطور السابق بل لعلها تتفاعل معه فتشكل أشكالاً جديدة.

فرضيّة التطوّر

وبناءً على هذه التصوّرات يمكننا أن نتخيل أن تطوراً حصل في الوجود شبيه بالتطورات التي حصلت في عالم الأحياء. كما تشير إلى ذلك نظرية التطور المعروفة، ولكن هذا التطور الذي نفرضه هنا هو شكل التخلّق التدريجي الذي تقتضيه المشيئة الإلهية، كما يحصل مع تخلّق الجنين في الرحم حيث يقطع عدّة مراحل حتى يصبح طفلاً ويخرج إلى العالم.

ومفاد هذه الفرضية الآتي:

أنّ الكون وهو يتخلّق فإنّه مرّ بعدّة أطوار وأنّه في كل طور من أطواره ينتج أحياءً مشابهة لحالته، فالكون وهو يمر بمرحلة الطاقة حيث لم تكن هناك سوى الأشعة فإن الله خلق من هذه الأشعة مخلوقات الطاقة، ولهذا فإن مرحلة النور أنتجت الملائكة، وهذا معناه أن الملائكة خلقوا من شكل بسيط من أشكال الطاقة.

وحين تواصل الموجودات عمليات التخلّق فإنّ الطور الثاني يصل وهو طور ظهور النار، وهو في العادة أكثر تعقيداً من طور النور لأن النور هو جزء من النار ذلك أنّ النار مركّبة من فوتونات وأمواج حرارية وهي في العادة تشعها المادة قبل الوصول إلى درجة إطلاق الضوء، وهي تقع في الأطوال غير المرئية وأن هذه المرحلة شهدت ظهور مخلوقاً آخر من نفس الطبيعة النارية وهو الجن وهم مخلوقات أكثر تعقيداً بالطبع.

ثم وأخيراً حين ظهرت الجسيمات يظهر الإنسان المركّب من جسيمات المادة بصورة رئيسية.

وإذا صحت هذه الرؤية فإن سؤالاً يطرح حول طبيعة الضوء الذي خلقت منه الملائكة هل هو نفس الضوء الذي نعرفه والذي تطلقه المادة أم هو ضوء آخر ذو طبيعة خاصة مختلفة؟.

الحديث السابق الذي أوردناه في بداية البحث يدل على أن الملائكة خلقوا من طاقة أبسط في تركيبها من الطاقة التي خلق منها الجن، وإذا حاولنا المزج بين النظريات الحديثة وبين مفاد الحديث، فإننا نستطيع القول بأن الانفجار الكوني (الانفجار الكبير) أنتج في أطواره الأولى المادة الرئيسة في الكون وهي الطاقة، ولهذا فإن الملائكة خلقوا في تلك الفترة، وحين تفاعلت أشكال الطاقة. وهذه العملية لم تستغرق زمناً طويلاً خلق الجان بعد ظهور النار وحين ظهرت المادة خلق منها الإنسان وهذا معناه أن الكون يفرز أشكالاً من الحياة مساوقة لتطوره، وهذا يفتح الأفق للتساؤل حول الإنسان فهل هو آخر المخلوقات؟ أم أن الله يزيد في الخلق ما يشاء وهم في لبس من خلق جديد؟.

لكن التصور يصطدم بكون الملائكة هي مدبرات الخلق وتشرف على الفعاليات في الوجود كما في الآيات الآتية:

﴿ وهو الذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً ولئن قلت إنّكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إنّ هذا إلاّ سحر مبين ﴾[1].

﴿ إنّ ربّكم الله الذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيام ثمّ استوى على العرش يُغشي الليل النّهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنّجوم مسخّرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين ﴾[2].

---

(١) سورة هود: ٧.

(٢) سورة الأعراف: ٥٤.

﴿ *إنّ ربّكم الله الذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيام ثمّ استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكمُ الله ربّكم فاعبدوه أفلا تذكّرون* ﴾[١].

﴿ *الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وسعتَ كلّ شيءٍ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم* ﴾[٢].

﴿ *والملك على ارجائها ويحمل عَرشَ ربّك فوقهم يومئذ ثمانية* ﴾[٣].

تشير إلى أنّ العرش تحمله الملائكة وإذا كان العرش بهذه الكيفية كما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿ *وترى الملائكة حافّين من حول العرش* ﴾، فلا بد حينئذ من وجودهم قبل العرش إلاّ إذا افترضنا أنّ لحظة الخلق لم يكونوا موجودين، لأنّ العرش لحظة الخلق كان على الماء كما مر في الآيات السابقة، وهذا أيضاً لا يحل الإشكال لأنّ الماء أيضاً من أشكال الوجود الجامدة ولابد أن يكون وجوده قبل وجود الملائكة.

لكن يمكن أن نحل ذلك على أساس تعدد الأكوان، فيكون العرش والماء الذي معه قد وجد في كون آخر وقبل وجود الملائكة الذين وجدوا مع ولادة هذا الكون.

ولعل الإجابة على كل هذه التساؤلات تعتمد على الإجابة على سؤال مركزي واحد هو أنّ الكون إذا كان واحداً أو كانت هناك أكوان متعددة هل هو مؤلّف من نفس الوحدات البنائية؟ أي بمعنى أنّ الضوء واحد أم هناك أنواع منه؟ أم بعضها من ضوء وبعضها الآخر من أشياء أخرى؟.

---

(١) سورة يونس: ٣.

(٢) سورة غافر: ٧.

(٣) سورة الحاقة: ١٧.

هناك افتراضات كثيرة يمكن أن تقدّم كإجابة إذا ما تم تحديد الوحدات الأساسية للكون فهل هي الفوتونات؟ أم هي الأبعاد الأربعة؟ أم هي أشياء مجهولة؟ ووفق أي إجابة تأتي النتائج مختلفة وهذه النقاط لم يجيب عليها العلم ولا الوحي بوضوح. ولهذا لا بد من إفساح المجال لجميع هذه الفروض فيكون المهم إذا كان هناك ضوء وطاقة لكل عالم ولكل كون خاص به فيمكن أن تكون الملائكة غير مرتبطة بهذا الضوء المعروف في عالمنا، ولهذا فإنها أصلاً غير مرتبطة بصيرورة عالمنا لأنّها لا تنتمي إليه وإن كانت من نفس هذا الضوء والطاقة فإنّها تحل الإشكالية بأحد الطرق السابقة التي أشرنا إليها.

فتكون لحظة الانفجار ولحظة ولادة النور هي لحظة خلق الملائكة ثم يتم خلق العرش فتحمله الملائكة بناء على أن الوجود ليس متجانساً. إذ تظهر المادة في أماكن منه فيخلق العرش، أما إذا قلنا بأن العرش ليس جرماً وأنه أيضاً عرش من نور وأن الماء غير هذا الماء أو ماء النور كثلج النور الذي تحدثت عنه الروايات فإن الفرضية تكون سهلة.

ويمكن أيضاً أن نقول أن الكون انطلق من نقطة واحدة وتطور باتجاهين: الأوّل: اتجاه الطاقة. والثاني: هو اتجاه المادة، ولهذا فإن هناك منظومتان تتفاعلان فيما بينهما.

ويمكن أن نحصل على مؤيدات لهذا الأمر من أحاديث مثل حديث نسيم العرش.

وهو ما يلي: «اعلم أنه أجمعت الإمامية. بل جميع المسلمين إلاّ من شذ منهم من المتفلسفين الذين أدخلوا أنفسهم بين المسلمين لتخريب أصولهم وتضييع عقائدهم على وجود الملائكة، وأنهم أجسام لطيفة نورانية أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع وأكثر، قادرون على التشكل بالأشكال المختلفة، وأنه سبحانه وتعالى يورد عليهم بقدرته ما شاء من الأشكال والصور على حسب الحكم والمصالح ولهم حركات صعوداً وهبوطاً. وكانوا يراهم الأنبياء

والأوصياء﵈ والقول بتجردهم وتأويلهم بالعقول والنفوس الفلكية والقوى والطبائع وتأويل الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة تعويلاً على شبهات واهية واستبعادات وهمية زيغ عن سبيل الهدى، واتباع لأهل الجهل والعمى»[١].

يؤكد العلاّمة المجلسي﵀ المعالم العامة التي يؤمن المسلمون بها جميعاً والشيعة خصوصاً فيما يتعلق بالملائكة ويستثنى منهم من يسميهم بالمتفلسفين، وهؤلاء دخلوا في هذا الفضاء العقائدي دخولاً مقصوداً لتخريب العقائد، وهؤلاء فقط هم الذين شذوا في أقوالهم بخصوص الملائكة إلا أن بقية المسلمين متفقون على أن الملائكة بالصفات التي أوردها المؤلف، أما التأويلات التي تخرجهم عن هذه الكيفية فإنها زيغ وضلال واتباع لأهل الجهل والعمى.

وهكذا يحصر العلاّمة المجلسي﵀ القول بالملائكة بشقّين، الأول: هو الشق الذي عليه كل المسلمين، والشق الثاني والذي عليه المتفلسفة وأهل التأويل: وهو جزء من الاعتقادات الباطلة التي لا يراها المصنف مطابقة للمنقول ثم يبدأ بنقل أقوال العلماء فبدأ بما قاله المحقق الدواني:

قال المحقق الدواني في شرح العقائد: الملائكة أجسام لطيفة قادرة على التشكلات المختلفة، وقال شارح المقاصد: ظاهر الكتاب والسنة وهو قول أكثر الأمة أن الملائكة أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكلات بأشكال مختلفة. كاملة من العلم والقدرة على الأفعال الشاقة شأنها الطاعة ومسكنها السماوات. هم رسل الله تعالى إلى أنبياءه.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

الملائكة أجسام

الأجسام المادية تعرف بأنها التي تشغل حيّزاً من الفراغ ولا يمكن لها أنَ تتداخل كالغازات، بالنسبة للأجسام النورية فمن غير الممكن البت بشأن خصائصها، فهل تتداخل مع بعضها أم أنها لا تتداخل؟ وهل يمكن لها أنَ تتخلل الأجسام المادية أم لا؟ والعلماء لم يجزموا بأي من هذه الحقائق، وقد نقل المجلسي تتنّ جملة من آراء العلماء بهذا الخصوص كما يلي:

هم رسل الله تعالى إلى أنبيائه وأمناءه على وحيه، يُسبّحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون[1].

في هذه الأقوال تبرز أساسيات العقيدة الإسلامية في الملائكة فهم أولاً: أجسام لطيفة ونورانية، وثانياً: قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، وثالثاً: كاملة في العلم والقدرة على الأفعال الشاقة، ورابعاً: شأنها الطاعة، وخامساً: مسكنها السماوات، وسادساً: الملائكة رسل الله إلى أنبيائه وأمناؤه على وحيه. وإلى هنا أكّد المصنف أساسيّات العقيدة بحسب ظاهر الكتاب والسنة. ثم يعرج على الشق الثاني من القول في الملائكة وهو قول الفلاسفة فيقول:

«الملائكة عند الفلاسفة هم العقول المجردة، والنفوس الفلكية، ويخص باسم الكروبيين ما لا تكون له علاقة مع الأجسام ولو بالتأثير. وذهب أصحاب الطلسمات إلى أن لكل فلك روحاً كلياً يدبر أمره. ويتشعب منه أرواح كثيرة مثلاً للعرش أعني الفلك الأعظم روح يرى أثره في جميع ما في جوفه يسمى بالنفس الكلية والروح الأعظم. ويتشعب منه أرواح كثيرة متعلقة بأجزاء العرش وأطرافه كما في النفس الناطقة تدبر أمر بدن الإنسان ولها قوة

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٣.

طبيعية وحيوانية نفسانية بحسب كل عضو. وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿ *يوم يقوم الروح والملائكة صفاً* ﴾ وقوله تعالى: ﴿ *وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم* ﴾ وهكذا سائر الأفلاك. وأثبتوا لكل درجة روحاً يظهر أثره عند حلول الشمس تلك درجة وكذلك من الأيام والساعات والبحار والجبال والمفاوز والعمران وأنواع النبات والحيوانات وغير ذلك. على ما ورد في لسان الشرع من ملك الأرزاق، وملك البحار، وملك الأمطار، وملك الموت، ونحو ذلك. وبالجملة فكما ثبت لكل من الأبدان البشرية نفس مدبّرة، فقد أثبتوا لكل نوع من الأنواع بل لكل صنف روحاً يدبره يسمى بالطبائع التام لذلك النوع تحفظه عن الآفات والمخافات ويظهر أثره في النوع ظهور أثر النفس الإنسانية من الشخص»[1]. وفي الشق الثاني يعرج على اتجاه الفلاسفة الذين يعتقدون أن الملائكة عقول مجردة، والاتجاه الثاني أصحاب الطلسمات الذين لجأووا إلى تأويل الآيات بالشكل الذي يساوق مذهبهم فجعلوا الأرواح متصرفة في كل شيء.

ويمكن النظر إلى هذه المحاولة كشكل من أشكال تأويل الوحي بعلوم العصر رغم كون تلك العلوم ليست علوماً خالصة أو ثابتة، وهي مجرد مزيج بين بقايا معتقدات دينية وتجارب الإنسان، ولذلك يجب أن لا تحمل على النص أو معناه بل هي مجرد تصورات وانطباعات بشرية لفهم النص ومحاولة استجلاء معناه، ولذلك فإن كل ما تحمله من رواسب العقائد والأفكار يجب أن يبقى مرتبط بحذره البشري وليس بالوحي الإلهي.

وفي هذا المجال ينقل المصنف قدس سره أيضاً أقوال الرازي فيقول: «إنّه لا خلاف بين العقلاء من أن أشرف الرتب للعالم العلوي هو وجود الملائكة فيه.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٤.

كما أن أشرف الرتب للعالم السفلي هو وجود الإنسان فيه. إلا أنّ الناس اختلفوا في ماهية الملائكة وحقيقتهم وطرق ضبط المذاهب أن يقال: الملائكة لابد وأن تكون ذوات قائمة بأنفسها. ثم إن تلك الذوات إما أن تكون متحيزة أو لا تكون. أما الأول ففيه أقوال. أحدها: أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السماوات وهذا قول أكثر المسلمين. وثانيها قول طائفة من عبدة الأوثان وهو أن الملائكة في الحقيقة هو هذه الكواكب الموصوفة بالأسعاد والأنحاس فإنها بزعمهم أحياء ناطقة وأن المسعدات منها ملائكة الرحمة، والمنحسات منها هي ملائكة العذاب. وثالثها: قول معظم المجوس والثنوية وهو أن هذا العالم مركب من أصلين أزليين وهما النور والظلمة وهما في الحقيقة جوهران شفافان حساسان مختاران قادران متضادا النفس والصورة مختلفا الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل خير نقي طيب الريح كريم النفس يسر ولا يضر، وينفع ولا يمنع، ويحي ولا يبلي، وجوهر الظلمة على ضد ذلك. ثم أن جوهر النور لم يزل يولد الأولياء وهم الملائكة لا على سبيل التناكح بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم والضوء من المضيء، وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء وهم الشياطين على سبيل تولد السفه من السفيه لا على سبيل التناكح، فهذه أقوال من جعل الملائكة أشياء متحيزة جسمانية[1].

وما يفيده قول الرازي أن العالم العلوي فيه موجودات سوى الملائكة إلا أن أشرفها هم الملائكة كما أن الإنسان هو أشرف الرتب في العالم السفلي بنفس الكيفية، وهذا قد لا يساوق القول بوحدة العالم، وأن الإنسان هو أشرف المخلوقات جميعاً، وأن أهل البيت هم أشرف المخلوقات جميعاً.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

أما الاختلاف في ماهية الملائكة فقد أرجعه ذلك إلى العقائد الوثنية والديانات غير السماوية وبذلك قسم الأقوال فيها إلى ثلاثة بدلاً عن الحصر السابق والذي كان يتردد بين أقوال أهل النقل وأقوال المتفلسفين. وكان من المفترض فيه أنّ يستعرض المذاهب التأريخية الأخرى ولكنه لم يفعل ثم يعرج على ما تركه فيقول:

«أن الملائكة ذوات قائمة بأنفسها وليست بمتحيزة ولا أجسام فهنا قولان أحدهما: قول طوائف من النصارى وهو أن الملائكة في الحقيقة هي الأنفس الناطقة بذاتها المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء والخيرية، وذلك لأن هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة فهي الملائكة، وإن كانت خبيثة كدرة فهي الشياطين. وثانيها: قول الفلاسفة وهي أنها جواهر قائمة بأنفسها ليست بمتحيزة البتة. وإنها بالماهية مخالفة لنوع النفوس الناطقة البشرية. وأنها أكمل قوة منها. وأكثر علماً وأنها للنفوس البشرية جارية مجرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء ثم أن هذه الجواهر على قسمين. منها، ما هي بالنسبة إلى أجرام الأفلاك والكواكب كنفوسنا الناطقة بالنسبة إلى أبداننا، ومنها ما هي أعلى شأناً من تدبير أجرام الأفلاك، بل هي مستغرقة في معرفة الله ومحبته ومشتغلة بطاعته. وهذا القسم هم الملائكة المقربون ونسبتهم إلى الملائكة الذين يدبرون السماوات كنسبة أولئك المدبرون إلى نفوسنا الناطقة. فهذان القسمان قد اتفقت الفلاسفة على إثباتهما ومنهم من أثبت أنواعاً أخر من الملائكة وهي الملائكة الأرضية المدبرة لأحوال هذا العالم السفلي. ثم أن مدبرات هذا العالم إن كانت خيرة فهم الملائكة وإن كانت شريرة فهم الشياطين، ثم اختلف أهل العلم في أنه هل يمكن الحكم بوجودها من حيث العقل أو لا سبيل إلى إثباتها إلا بالسمع؟ فالفلاسفة على الأول»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

ويلاحظ هنا توحيد القول في الملائكة والشياطين وأنها أرواح ولا تختلف إلا في أنها خيرة أو شريرة وهذا لم يرد في الأدلة النقلية لأن الملائكة كائنات تختلف في كل شيء عن الشياطين فالأولى من نور والثانية من نار وأن الأولى مسكنها السماء والثانية مسكنها الأرض وهكذا بقية الاختلافات. من قبيل كون الشياطين مخلوقات لها شهوة وتعصي الله، والثانية لا تعصي. وهكذا فإن أقوال الفلاسفة تعد عودة إلى مذهب حيوية الطبيعة بينما يشير الإسلام إلى أن الملائكة هي المشرفة على الطبيعة والمحافظة عليها والموجهة لسيرها حتى لو كانت قادرة على السير بذاتها تبعاً لما أودع فيها من قوى تسيرها، فهما موجودان متباينان وبينهما علاقة، فكما أن للملائكة علاقة بالإنسان فإن لها علاقة بالطبيعة وتتدخل في ظروف خاصة في تعديل هذا المعلم أو ذاك تبعاً للمصالح، وفي نهاية المطاف فإن هذا المذهب يؤكد أن الشياطين والملائكة هي مدبرات هذا العالم.

وهكذا نلاحظ المزج بين أقوال المذاهب الدينية القديمة وبين النظر العقلي وعلم التنجيم وينقل الرازي بعض الأدلة فيقول: وأما الدلائل النقلية فلا نزاع البتّة بين الأنبياء في إثبات الملائكة. بل ذلك كالأمر المجمع عليه بينهم ثم ذكر أن النبي صلى الله عليه وآله حين عرج به رأى الملائكة في موضع بمنزلة سوق بعضهم يمشي تجاه بعض، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله أنهم إلى أين يذهبون؟ فقال جبرائيل عليه السلام: لا أدري إلا أني أراهم منذ خلقت، ولا أرى واحداً منهم قد رأيته من قبل ذلك، ثم سألوا واحداً منهم وقيل له مذكم خلقت؟ فقال: لا أدري غير أن الله تعالى يخلق كوكباً في كل أربعمائة ألف سنة. فخلق مثل ذلك الكوكب منذ خلقني أربعمائة كوكب))[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٦.

وأقول: وإن قال في أول كلامه أن أكثر المسلمين قالوا بتجسيم الملائكة لكن يظهر من آخر كلامه أن المخالف في ذلك ليس إلا النصارى والفلاسفة الذين لم يؤمنوا بشريعة وتكلموا في جميع أمورهم عن آرائهم السخيفة. وعقولهم الضعيفة»[١].[٢]

القدرة العقليّة

إنّ مستوى الذكاء عند الكائنات الحية متفاوت، فهناك اختلاف بين أبناء الجنس الواحد فالقردة مثلاً تزيد نسبة بعض أنواعها عن أنواع أخرى، وبالنسبة للإنسان فإن بعض أفراده ذوي قدرات عقلية تفوق أفراد آخرين.

وقد بينت الأحاديث تمايز الملائكة في مستوى الذكاء كما في الحديث المنقول عن أبي جعفر عليه السلام: «إن الله خلق إسرافيل وجبرائيل وميكائيل من سبحة واحدة، وجعل لهم السمع والبصر وجودة العقل وسرعة الفهم»[٣].

وقد خصص هذا الحديث عظماء الملائكة، فذكرهم مشعراً بوجود خصوصية لديهم تميزهم عن باقي الملائكة كمصاديق لموارد التكريم وأشار إلى خلقهم من طبقة واحدة (سبحة) أو كما نقول نحن من نفس الطيف (النور)، أو أي شيء من هذا القبيل وهذا لا ينافي أنهم مشتركون مع بقية الملائكة في مادة الخلق، ولكنه من باب أخص الخاص، فهناك إذن جانب

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٩.

(٢) وفي حاشية البحث إشارة إلى إحدى الحقائق العلمية وهي عملية خلق الكواكب المستمرة التي أثبتها العلم وقد سبق إليها الإسلام وذكرها القرآن لكن الحديث هنا يشير بوضوح تام إلى استمرارية ولادة الكواكب، وبطريقة لا تحتمل أي تأويل.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٤.

افتراق عمن سواهم سواء من حيث الإمكانات، أو من حيث مبدأ الخلق، ولهذا ركز على الجانب الخاص من وجودهم المتعلّق بالسمع والبصر والعقل.

وذكر سرعة الفهم أيضاً ممّا يوحي بوجود قدرة خاصة لديهم في هذا الجانب فلو كان هذا الأمر مشتركاً لدى الجميع فلا موجب عندئذ لذكره. وهذا يصدق على السمع والبصر والعقل أيضاً مما يؤكد تميز الملائكة عن بقية المخلوقات بالقدرات الهائلة سواء البدنية أو العقلية، وبالتالي ليس من المعقول ألا يمتلكوا قوى رهيبة في أجسامهم مع كونهم بُلهاء !!.

ويمكن استنتاج اختلاف قدرات الملائكة الشديد عن قدرات البشر من خلال نموذج محسوس نلمسه عند مقارنة حواس البشر بحواس بعض الحيوانات، فناحية الاشتراك لا تدل على التساوي أو حتى على التقارب في هذه القدرات، فالإنسان يرى والحيوان يرى كذلك لكن بعض الحيوانات تكون حاسة البصر لديها متطورة إلى الدرجة التي تتمكن فيها من الرؤية في الظلام كما أن بعضها كالطيور تتمكن من رؤية الفرائس على مسافات شاسعة، ونفس القاعدة تصدق على حاسة السمع وعليه فإن البشر يملكون قدرات والملائكة كذلك تتملك قدرات كما أن هذه القدرات متشابهة لكنها تتفاوت بشدة في الدرجة، فالملائكة يستطيعون الرؤية في الظلام الكوني الذي بين المجرات كما أن رؤيتهم من أكثر من جهة.

وإذا كانت جميعها ترتبط بالعقل فإن عقل الملاك لابد أن يكون عقلاً هائلاً لكي يستطيع التعامل مع هذا الحس المتطور فضلاً عن ضرورة تطورها التي يمليها قربها من الله تعالى، فلا يعقل أن تنشأ رابطة بين عقل الله اللامتناهي وبين كائنات ضعيفة الإدراك ثم يفوضها في إدارة الوجود.

وحتى إذا كان هذا الوصف يعكس خصوصية الملائكة المقرّبين، إلا أنه يعكس بدرجة أضعف قدرات جميع الملائكة، وأنّ التفاوت بينها وبين البشر

لا بد أن يكون هائلاً ولا يضر ذلك بأفضلية لأنها أفضلية البشر أفضلية من ناحية مجموع الصفات كما أنها لا تعني أنّ جميع أفراد البشر هم أفضل من الملائكة والأفضلية تخص بعض أفراد البشر الذين خصهم الله بالكرامة أما البعض الآخر فقد يكونوا أقل من الحيوانات وأرخص وأن الله يصفهم بالبعد واللعن بينما يصف جميع أفراد الملائكة بالعصمة والكرامة.

وفي نفس الإطار يأتي وصف قدرة الملائكة البدنية التي هي أيضاً قدرة كبيرة جداً كما يصفها المجلسي تتّئُ بناءً على الآيات والأحاديث حيث قال:

«وصف قدرتهم وذلك بوجوه: الأول: أن حملة العرش وهم ثمانية يحملون العرش والكرسي الذي هو أصغر من العرش أعظم من جملة السّموات السبع لقوله تعالى: ﴿ ***وسع كرسيّه السّموات والأرض*** ﴾[1] والثاني: أن علوّ العرش شيء لا يحيط به الوهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ ***تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة*** ﴾[2] ثم إنهم لشدة قدرتهم ينزلون منه في لحظة واحدة. والثالث: قوله تعالى: ﴿ ***ونفخ في الصور*** ﴾[3] فصاحب الصور بلغ في القوة إلى حيث إنّه بنفخة واحدة منه يصعق من في السّموات والأرض، وبالثانية منه يعودون أحياءً. والرابع: أن جبرائيل بلغ من قوته أن قلع جبال آل لوط وبلادهم دفعة واحدة»[4].

فمثل هذه الإمكانات البدنية الهائلة لابد أن تتوافق مع قدرات عقلية ليوجد التناسق العقلي والبدني الذي يعطي لها قدرة متوازنة وإلاّ فإنّ عدم التوازن سيؤدي إلى كارثة.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) سورة المعارج: ٤.

(٣) سورة يس: ٥١.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٨.

النشاطات الحيويّة للملائكة

قال الإمام الصادقعليه السلام: ((إنّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون وإنّما يعيشون بنسيم العرش))[١].

كما جاء عن العلل في حديث عن محمد بن علي بن إبراهيم: سئل أبو عبد اللهعليه السلام عن الملائكة يأكلون ويشربون وينكحون؟ فقال: لا، إنّهم يعيشون بنسيم العرش، فقيل له: ما العلّة في نومهم؟ فقال: ((فرقاً بينهم وبين الله عز وجل، لأن الذي لا تأخذه سنة و لا نوم هو الله))[٢].

وعن قال أمير المؤمنينعليه السلام في خلقة الملائكة: وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك، فليس فيهم فترة، ولا عندهم غفلة، ولا فيهم معصية. هم أعلم خلقك بك، وأخوف خلقك منك وأقرب خلقك إليك. وأعملهم بطاعتك، ولا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، لم يسكنوا الأصلاب، ولم تضمهم الأرحام، ولم تخلقهم من ماء مهين، أنشأتهم إنشاءاً، فأسكنتهم سماواتك، وأكرمتهم بجوارك، وائتمنتهم على وحيك وجنبتهم الآفات، ووقيتهم البليّات، وطهرتهم من الذنوب، ولولا تقويتك لم يقووا، ولولا تثبيتك لم يثبتوا، ولولا رحمتك لم يطيعوا، ولولا أنت لم يكونوا، أما إنهم على مكانتهم منك وطواعيتهم إيّاك، ومنزلتهم عندك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا ما خفي عنهم منك لاحتقروا أعمالهم، ولأزروا على أنفسهم، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك سبحانك خالقاً ومعبوداً ما أحسن بلاءك عند خلقك[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦ / ١٩٣.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٦.

وفي هذا الحديث تفصيل لصورة الملائكة في جوانب مرّ بعضها ولكنها جاءت أكثر تفصيلاً، فأول ما بدأ الإمام بالإشارة إليه هو أن الله خلقهم ليكونوا سكان السماء مثلما خلق البشر ليسكنوا الأرض وهم يتصفون بعدم الفتور والفترة في العادة تنشأ عن التعب والكلل، وهي حالة تصيب البدن وهذا يدل على أن لهم أبداناً قادرة على التجديد واستعادة القوة دون أن تمر بحالة الفتور التي تعني طلب الراحة، ولهذا فإن أبدانهم قادرة على بذل الجهد واستعادة النشاط، فالتعب في العادة يعني نضوب الطاقة في العضلات والخلايا المكونة للبدن ولهذا تحتاج إلى راحة تستعيد فيها الخلية ما فقدته من سكر. أما بالنسبة للغفلة «ولا عندهم غفلة» فإنها تعني إما عدم الإحاطة أو عدم قدرة الذهن والحواس على مواصلة الانتباه، وهو الشكل الآخر من أشكال التعب ولكنه تعب الحواس وليس جميع الجسم البشري وانعدامه يعني بالنسبة للملائكة امتلاكها لنمط من الحواس قادرة على مواصلة اليقظة والمتابعة بلا كلل، فهو طبعاً يؤول إلى قدرة العقل الذي يقف وراء هذه الحواس على مواصلة بذل الجهد والمتابعة.

أما عدم ارتكابهم للمعصية فهو يدلل على عدم وجود نوازع المعصية أصلاً عندهم لانعدام أغلب الغرائز التي تدفع الإنسان إلى ارتكاب المعصية، فهم بلا شهوة للاقتراب إلى الإناث لأنهم لا يتكاثرون كالإنسان ثم إنهم بلا شهوة للطعام ولا يتنافسون في الحصول عليه لأنه متوفر لهم من خلال ما سبق ذكره من نسيم العرش وكذلك بالنسبة للشهوات الأخرى فضلاً عن أن عقولهم التي تحكم وجودهم كبيرة جداً.

وطبعاً إن لهذه الصفات آثار من جملتها قدرة هذه الكائنات العالية على ضبط الأفعال والتصرفات بميزان العقل الذي إذا ما ضبط فعل أداه أحسن

أداء، لأنه يوازن بين المصالح والمفاسد ويستخرج بالنتائج مضافاً إلى عدم وجود الغواية أو الشهوة لديهم، مما يساعد بالتضامن مع هذا النمط من العقل الوصول إلى أفضل النتائج بالنسبة للسلوك.

ولهذا السبب صار الملائكة من أعلم خلق الله به وهذا بدوره يدل على أن علمهم بالله متناسب مع قدرتهم وليس كعلم الله بنفسه أو علم بعض أولياءه به من الذين أطلعهم على مكنون غيبه وأسراره. فالملائكة يعلمون عن الله وعن العالم ما علمهم الله وأطلعهم عليه ﴿*لا علم لنا إلا ما علمتنا*﴾[1] وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من كون التسبيح والتحميد والذكر ولزومهم له يعادل طريقتهم في رؤية الله واستحضار صفاته بواسطة عقولهم ونفوسهم المبرئة عن الشهوات والأوهام ولذلك صاروا أعلم خلق الله اعتماداً على ما يوحيه لهم عن ذاته.

ويترتب على عمق معرفتهم بالله تعالى بهذه الدرجة شدة خوفهم منه خوفاً يفوق ما عند بقية عباده، خوفاً يتناسب مع علمهم به، فهؤلاء الذين يرون الجحيم ويرون النعيم ويروا عجائب خلق الله ويرون أنفسهم وما تنطوي عليه يعتريهم الخوف من ذلك الجلال وذلك الجبروت الذي لا شبيه له فيكونوا أخوف عباد الله له.

أما قربهم من الله فهو قرب رتبي لأنّهم الأساس في بناء هذا الكون وهم المشرفون عليه وهم الوسائط بين الله وعباده، جعلهم كذلك بمشيئته ولهيمنته عليهم وعلى كل شيء، فهذا لا يعني أنهم الأعبد لله بل أن الله جعل أنبياءه وأولياءه من البشر أقرب خلقه إليه بما ابتلاهم من أنواع البلاء وخرجوا منه أطوع له حتى من الملائكة، ولكن هذا القرب هو قرب أفراد وليس قرب

---

(١) سورة البقرة: ٣٢.

الجنس وبالتالي فإنّ جنس الملائكة يبقى الأقرب، رغم كون بعض البشر أكثر قرباً منهم.

وعن الطاعة فإنهم الأطوع، فالطاعة الشكل الإيجابي للعبارة السابقة التي تقول «ليس فيهم معصية» فالمعصية هي حالة سلبية وعدمها يعني عدم السلب، والطاعة تعبر عن الشكل الإيجابي حيث ينعدم وجود أي دافع للمعصية في نفوسهم فهم كائنات معصومة سباقة إلى تنفيذ إرادة الله وأوامره.

ثم يعود الإمام فيصفهم بعدم النوم، والنوم هو صفة من صفات البشر حيث يفقد الإنسان سيطرته على بدنه ويستسلم إلى غيبوبة يرقد فيها ويستعيد حيويته وهي غير موجودة عند الملائكة كما يقول الحديث، وكذلك بالنسبة لسهو العقول أو فترة الأبدان وكلها يعبر انعدامها عن شكل خاص من الحيوية المتواصلة التي لا تعرف الانقطاع، فنحن يمكننا أن نتصور أن عقل الإنسان عقلاً نبضياً تماماً مثل بدنه الذي يشبه التيار المتناوب فكل فترة من التعب والفاعلية والنشاط تعقبها فترة أخرى من فترات الراحة والسكون وانقطاع عمل العقل والحواس، بينما تكون حالة الملائكة تشبه التيار المستمر الذي لا يعرف الانقطاع كما يقتضيه طبيعة دورهم في العالم، فإذا كانوا عصاة فإن النظام في الكون يختل وكذلك إذا أصابهم النوم والسهو فإذا نام الملائكة حدث ما لا يراد حدوثه أثناء النوم أو السهو وهذا جزء من حكمة الله الذي جعل وسائطه تعكس بعض صفاته ولكنها بقدرها كمخلوقات ويدل عدم سكونهم في الأصلاب.

(ولم تضمهم الأرحام) أي أن نظام التكاثر لديهم يختلف عن نظام البشر وطبعاً فهم لم يخلقوا من ماء مهين. وعليه فقد أنشأهم إنشاءاً أي أفراداً ونالوا الكرامة لأن الله اختارهم وسائط بينه وبين مخلوقاته جميعاً.

وجعلهم أمناء على الوحي وهو ليس فقط الرسالات بل جميع ما يخص البشر والطبيعة وكما تمت الإشارة إليه جميع ما يوحيه الله إلى ملائكته لأن الله يبلغ الرسالات والخيرات والكرامات إلى الملائكة، فهم أوّل من يعلم بالبشائر وبمكارم الله لعباده ثم يبلغونها إلى أنبيائه ونفس الشيء إذا اقتصر معنى الوحي على الرسالات السماوية فإنّه أيضاً الأمناء عليه كذلك.

أما كونهم لا يصابون بالأمراض والآفات فإنها مشيئة الله لجعلهم أهلاً للمهمة العظيمة التي اختيروا لها، وهو أيضاً يعادل الطهارة من الذنب لأن الذنب هو الفساد ولا يعقل أنه يدب الفساد في أساس الكون لأنه عندئذ سيدب في الكون كله.

والإمام عليه السلام يشير أصلاً إلى أن الله شاء لهم أن يكونوا كذلك فكانوا كما شاء أقوياء ثابتون على الطاعة.

وأهم ما في الحديث أنهم رغم هذا الوصف يجهلون الكثير عن الله وعن عظمته وجهل الملائكة يؤكد أن العلم بالله ذا آفاق متعدد وأنه سبحانه وتعالى غير معروف بصورة مطلقة حتى من قبل الملائكة وذوي الأفق الخاص من الطاعة والمكانة والقرب، وهذا يدلنا على إمكان وجود معرفة تفوق معرفة الملائكة كما أن المعرفة بالله ممتدة إلى آفاق لا نهائية مثله الله سبحانه وتعالى.

ولعل كل طبقة من الملائكة تختلف في قربها ومعرفتها عن الطبقات الأخرى بالله تعالى، ولهذا فإن الملائكة المقربون غير سواهم وكما ينطبق على البشر كذلك فعلم أولياء الله به يختلف عن سواهم.

أما بالنسبة للحديث الذي تحدث عن طبيعة الملائكة جواباً لمن تسأل عنهم هل أنهم يشربون ويأكلون وينكحون؟ فجاء الجواب بنفي هذه الفعاليات عنهم

فلا يأكلون أو يشربون إلا أنّهم يعيشون بنسيم العرش وهو المادة التي تهبهم القابلية على الحياة.

وطبعاً سيكون نوع من الأغذية ولكن طريقة الحصول عليها لا تشبه الطريقة التي يتبعها البشر في الحصول على الغذاء، ويمكن أن تشبه طريقة الشجر عندما تتعرض لنور الشمس والأوراق منها على وجه الخصوص، أو كما تتنفس بعض الأحياء حيث يقوم الجلد بوظيفة التنفس بنفس الطريقة التي تؤديها الرئتان في الإنسان.

أما بالنسبة للنوم فإنّه مرّ في بعض الأحاديث أنهم لا ينامون وجاء في أحاديث أخرى أنهم ينامون والتعليل لنومهم بأنه فرق بينهم وبين الله، فإن عدم نومهم لا يعني أنهم أصبحوا كالله تعالى فهم في كل حال مخلوقات لله معلوله لعلة وهم ضعفاء بالنسبة له حتى لو كانت أجسامهم عظيمة فهذا هو الفرق الأهم، فالمخلوق المحتاج إلى الله لا يمكن أن يكون كالله تعالى لنضع له فرقاً بينه وبين خالقه حتى لو تشابه في بعض جوانبه أو كلها لعظم الفاصلة بينهما فإن لنا بصر ولله بصر، ولكن هذا لا يعني أن نحتاج إلى فرق بيننا وبينه لأن الفرق قائم وموجود أصلاً ولهذا يمكن ترجيح عدم نومهم على نومهم لأنه أكثر اتساقاً مع مهامهم وأن النوم يضاد بقية صفاتهم.

لكن يبقى الوجهان جائزان لأن الحديث موجود وأن تأويله لا يلغي مضمونه كاحتمال، كما لا يمكن القطع به أو بضده.

وقد كانت أولى الإيضاحات التي نقلها الإمام هي أن الملائكة خلقت مختلفة، وهذا يلفت نظرنا إلى إمكان اختلاف البنى والأعضاء ونظام التغذية بوساطة ما سماه نسيم العرش، والنسيم؛ هو عبارة عن تيار هواء هادئ الحركة ولكن هنا لا يمكن أن يكون من هواء لأن الملائكة لا تتغذى بالهواء فلا بد من افتراض تيار من مواد مغذية منطلق من العرش بصورة متواصلة، وهو

يعادل الغذاء للبشر الذي يحصل عليه الإنسان من الشمس بواسطة النباتات التي تمتص أشعتها وتحولها إلى مواد سكرية.

إننا نفترض أن الملائكة هنا مزودة بأجهزة وتقوم بهضم نسيم العرش لتديم وجودها، أما بالنسبة للتكاثر فإن الحديث أشار إلى طريق في التكاثر شبيه بما عند الأحياء أحادية الجنس إذ يحصل التكاثر هناك بالانشطار، فجبرائيل ترتعد فرائصه فيخلق الله منه ملائكة في كل رعدة عدد من الملائكة، وهنا أيضاً احتمال أن عملية التكاثر ليست لعموم الملائكة بل لبعضها كما في عالم النحل حيث تختص الملكة بوضع البيض دون بقية النحل، ولربما كان هذا حال الجميع ولا دليل يؤكد أي منها هو السائد.

مَسكن الملائكة

السَّماء والملائكة

ثمة ترابط بين السَّماء وبين الملائكة فمن المعروف أن الملائكة هم سكان السماء ولعل التعرف على مسكن الملائكة يساعدنا في معرفة طبيعتهم كذلك، وقد وردت تصورات قرآنية خاصة تحدد مفهوم السماء في القرآن والحديث، كما وردت تصورات عنها في العلوم الحديثة، فما مدى الاختلاف والاتفاق بين المفهومين؟

مفهوم السَّماء

استخدم مصطلح السَّموات والأرض في آيات عديدة نذكر منها ما يلي:

﴿ *قال بل ربّكم ربّ السّموات والأرض...* ﴾[1].

﴿ *الحمد لله فاطر السّموات والأرض...* ﴾[2].

ولا يوجد مؤشر هنا على حدود معينة تبين لنا حدود السماء ومساحة امتدادها مكانياً، لكننا عموماً نعلم بواسطة الأحاديث وخصوصاً حديث الكساء، أن السماء هي عالم الملائكة الذي يقابل عالم الجن والإنس الذي هو

---

(١) سورة الأنبياء: ٥٦.

(٢) سورة فاطر: ١.

الأرض أو الأرضين. وفي كل الأحوال يمكن من خلال المقارنة اكتشاف الأبعاد التقريبية لمفهوم السماء القرآني مقارنةً بمفهوم الكون المستخدم في العلوم الحديثة التي عرفت الكون بأنه «كل ما هو موجود وما وجد وما سيوجد»[1].

ويلاحظ على هذا التعريف أنه أيضاً لا يعطي حدود للكون لا في الزمان ولا في المكان، فهو زمانياً الوجود الممتد من الماضي إلى المستقبل مع الاعتراف بإمكان وجود موجودات جديدة يمكن أن يضمها الكون. ومكانياً فإن التعريف كذلك خالي من أي تحديد.

أمّا الوحي فيضع أمام أعيننا مشهداً للكون (للخلق) مغايراً للمشهد الذي نطالعه بحواسنا، فالذي نراه بأعيننا عالم صغير جداً بينما ترسم الآيات والأحاديث صورة ممتدة في الزمان والمكان تعجز العقول عن الإحاطة بها. وبعبارة أخرى أن الآية تطالبنا بدءاً بالخروج عن دائرة الحواس، فهنا بعد زماني يسبق ولادة الإنسان ويستمر إلى ما بعد يوم القيامة وهكذا يكون امتداداً لا يصل إليه الذهن بأي تحديد، ونفس الشيء بالنسبة للمكان الذي يمتد كذلك تصبح الأرض نقطة في بحر لا متناهٍ ويتظافر الدليل العلمي مع الدليل النقلي في تأكيد هذه الصورة، غير أنّ هذا الامتداد متماسك ويشكّل حالة عالية من الترابط من خلال نقطة ارتكاز قد تكون هي الأخرى تتجاوز الظاهر المعلوم في ذهن الإنسان ألا وهي الطاعة لخالق الكون التي تمنح الوجود التماسك ووحدة الطابع والانسجام.

فهنا ترابط بين مخلوقات حية عاقلة وفضاء زمكاني ذو أبعاد ممتدة إلى ما شاء الله ترتبط مع هذا الإنسان المحدود، الأمر الذي يدعونا إلى الاستغراب

---

(١) الكون: ٢١.

والتساؤل عندما يرسم لنا الوحي مسرحاً بهذا الامتداد يتحرك فيه الملاك والجن والإنسان، وكأنّه يريد شدّنا إلى واقع بهذا الامتداد ويعيد انتماءنا إليه بعد أن ينتزعنا عن حدود المحسوس الضيقة، وهو حين يخاطب الإنسان يناغي الأبعاد الشاسعة التي ينطوي عليها وإلا فإنّه خطاب بلا طائل إذ لا بد من افتراض تناسق بين الخطاب والمخاطب والأهداف المتوخاة من الخطاب وهذا هو بالفعل ما هو قائم.

وإذا أردنا البحث عن مصدر تفصيلي يصور لنا هذا الامتداد فإن حديث المعراج له أهمية على هذا الصعيد، إذ أنه يعرض لنا صورة عن عالم السماء توضح تفاصيلها التي لم تتعرّض لها الآيات.

السمَّاء والملائكة في حديث المعراج

عن أبي عبد الله عليه السلام في خبر المعراج، قال النبي صلى الله عليه وآله: وصعد جبرائيل، وصعدت معه إلى السماء الدنيا وعليها ملك يقال له «إسماعيل» وهو صاحب الخطفة الذي قال الله عز وجل «إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب» وتحته سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك، ثم مررت- وساق الحديث إلى قوله- حتى دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً، حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر خلقاً أعظم منه كريه المنظر ظاهر الغضب فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ قال: هذا مالك خازن النار- ثم ساق الحديث إلى قوله- ثم مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس وإذا جميع الدنيا بين ركبتيه. وإذا بيده لوح من نور مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً مقبلاً عليه كهيئة الحزين. فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ فقال هذا ملك الموت: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ثم رأيت ملكاً من الملائكة جعل

الله أمره عجيباً، نصف جسده النار والنصف الآخر ثلج. فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، وهو ينادي بصوت رفيع ويقول: سبحان الله الذي كفّ حرّ هذه النار فلا تذيب الثلج. وكفّ برد هذا الثلج فلا يطفئ حرّ هذه النار. اللهم يا مؤلف بين الثلج والنار ألّف بين قلوب عبادك المؤمنين. فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ فقال: ملك وكلّه الله بأكناف السماء وأطراف الأرضين وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين. يدعو لهم بما تسمع منذ خلق. ورأيت ملكين يناديان في السماء أحدهما يقول: اللهم أعط كل منفق خلَفاً. والآخر يقول: اللهم أعط كل ممسك تلَفاً. ثم مررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل خلقهم الله كيف شاء. ووضع وجوههم كيف شاء ليس شيء من أطباق أجسادهم إلا وهو يسبح الله ويحمده من كل ناحية بأصوات مختلفة، أصواتهم مرتفعة بالتحميد والبكاء من خشية الله، فسألت جبرئيل عنهم فقال كما ترى خلقوا أن الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلمه كلمة قط، ولا رفعوا رؤوسهم إلى ما فوقها، ولا خفضوها إلى ما تحتها، خوفاً لله وخشوعاً ـ ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا فيها من الملائكة وعليهم الخشوع. وقد وضع الله وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك إلا يسبح الله ويحمده بأصوات مختلفة وكذا السماء الثالثة ثم صعدنا إلى السماء الرابعة وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات فبشروني بالخير لي ولأمتي، ثم رأيت ملكاً جالساً على سرير وتحت يديه سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك ـ وساق الحديث إلى قوله ـ ثم صعدنا إلى السماء السابعة، قال: ورأيت من العجائب التي خلق الله وصوّر على ما أراده ديكاً رجلاه في تخوم الأرضين السابعة ورأسه عند العرش. وهو ملك من ملائكة الله خلقها الله كما أراد رجلاه في تخوم الأرضين السابعة أقبل مصعداً حتى خرج في

الهواء إلى السماء السابعة، وانتهى فيها مصعداً حتى انتهى قرنه إلى قرب العرش وهو يقول سبحان ربي حيث ما كنت لا تدري أين ربك من عظم شأنه وله جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب، فإذا كان في السحر نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح يقول: سبحان الله الملك القدوس. سبحان الكبير المتعال لا إله إلا الله الحي القيوم. وإذا قال ذلك سبحت ديوك الأرض كلها. وخفقت بأجنحتها وأخذت بالصراخ. فإذا سكت ذلك الديك في السماء سكتت ديوك الأرض كلها، ولذلك الديك زغب أخضر، وريش أبيض كأشد بياض رأيته قط. وله زغب أخضر أيضاً تحت ريشه الأبيض كأشد خضرة رأيتها قط»[1].

لقد تطرقنا إلى بعض المقاطع من هذا الحديث في الصفحات السابقة، واخترنا هنا أن ننقله كاملاً كما نقله المجلسي تتئ في هذا الجزء من كتاب بحار الأنوار تفادياً للتكرار ولأننا نريد أن نصف الامتداد الذي تم فهمه من خلال ما ورد فيه من إشارات.

في رحاب حديث المعراج

يعتبر حديث المعراج من أهم الأحاديث التي نقلت صوراً كثيرة عن عالم الغيب بصورة مفصّلة وخصوصاً ما يتعلق بأحوال الملائكة وأشكالهم ومهامهم، ولهذا فإنّه نقل ما يستحق الدراسة والعناية خصوصاً أن بعض الصور تتكرر في الأحاديث الأخرى، كما أنه يكشف الكثير من الأسرار والمجاهيل فيساهم في بناء التصورات عن هذا العالم الذي تفصلنا عنه الحجب. وعلى هذا الأساس فإن الكثير من الدقة تلزمنا للوصول إلى مرامي الحديث

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٣.

كما نحتاج إلى الابتعاد عن الفهم الحرفي والالتفات إلى العلاقات بين الدلالات ولو بصورة ظنية وغير قطعية.

الدنيا والقصوى

إنّ أوّل ما يلفت النظر مفردة السماء الدنيا في الحديث التي يرد ذكرها في القرآن كثيراً مثل ﴿ *إنّا زيّنا السّماء الدنيا بزينة الكواكب*... ﴾[١]. أو ﴿ *وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً*... ﴾[٢]. فهل المنظور في دنّوها قربها من الأرض ومن الإنسان أم قربها من مركز معين لهذا الكون كأن يكون هو العرش فتكون السابعة هي القصوى أم العكس هو الصحيح؟ ثم ما هي الضوابط التي على أساسها حدد الوحي أن هذه السماء هي الدنيا فرقاً بينها وبين بقية السموات هل هي حدود خاصة تفصل كل سماء عن سواها أم توجد معايير أخرى وما هي؟.

وللإجابة عن هذه التساؤلات يمكن لنا للإستعانة بفرضية الأكوان المتعددة العلمية.

فرضيّة تعدد الأكوان

«لقد كنا نعتقد حتى زمن قريب أن الكون دائم ومطلق. وكنا نعتقد منذ سنوات معدودة أننا قد اكتشفنا كيفية تكوين الكون وأخذنا نناقش بشأن المستقبل على المدى البعيد. مثل ما إذا كان الكون سيتمدد ويبرد أم أنه سيعاني من الفناء بالحرارة إذ يتقلص. ولكننا اتفقنا على شيء واحد: إن كوننا هو الكون الوحيد الموجود. وقد تحدث كوارث المادة التي في داخل كوننا، أما

---

(١) سورة الصافات: ٦.

(٢) سورة فصلت: ١٢.

الكون نفسه ـ أي المكان والزمان اللذان تدور الدراما فيهما ـ فسيظل مستمراً. والآن فإن هذه العقيدة أصبحت موضع شك. بل إن العالم السوفيتي البارز (أندريه لند) يرى أن كوننا يتكون من عدد لا يحصى من أكوان صغيرة منفصلة، قد تختلف قوانينها اختلافاً جذرياً عن الكون الذي اتّفق أننا نوجد فيه»[1].

وتعتمد هذه الفكرة على: «أن كوننا انتفخ في أول جزء من الثانية انتفاخاً هائلاً قبل أن يستقر على تمدده ببطء في العشرين بليون سنة الأخيرة. وهذه النظرية عن «الكون الانتفاخي» تفسر بعض الألغاز التي كانت مصدر إزعاج بالنسبة للنماذج المبكرة للانفجار الكبير كما تعطي النظرية تنبؤات قابلة للاختبار عن حالة الكون حالياً وهي تنبؤات ظلت ناجحة حتى الآن وحسب لنظرية الانتفاخية»[2].

«إنّ النظرية التي تطرح ذلك تمثل حقيقة علمية يبدو أنّها تدل أيضاً على أننا سنكون آمنين إذا كانت هناك أكوان جديدة تنشأ، فهذه الأكوان تصنع مكانها وزمانها الخاصين بها دون أن تتدفق بتدخل من مكاننا وزماننا وهكذا فإنها لن تدمرنا. وفي حدود علمنا الحالي فإن جدار الفقاعة سيكون مثل سطح ثقب أسود»[3].

«والواقع أنّ من الصعب تخيل هذه الفكرة عن كون يظهر فيما يبدو من لا مكان، ومع هذا فإنه مفصول على نحو ما عن المكان والزمان اللذين نوجد فيهما، فهذا كله يحدث في أبعاد تتجاوز خبرتنا المباشرة»[4].

---

(١) النهاية ـ الكوارث الكونيّة وأثرها: ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩٠.

ويمكن لهذا الفهم أن يقرب لنا فكرة وجود السماوات على أساس ما تفيده الآية ﴿ *فقضاهنّ سبع سموات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها* ﴾[1]. فلعل وحيه سبحانه وتعالى لكل سماء أمرها يشير إلى هذا الانفصال، وبالتالي إن ما نطلق عليه لفظة كون والذي عرفناه سابقاً سيعادل سماء واحدة، لأنه فضاء متصل في الزمان والمكان وفي القوانين، ولكن ذلك سيبدو مختلفاً بالنسبة لزمان ومكان آخر مختلف.

نظام الحراسة الكونيّة

كما يلفت النظر في حديث المعراج الحديث ما ورد عن الملك «إسماعيلﷺ» ومنحه لقب صاحب الخطفة الماعاً لما ورد في الآية ﴿ *إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب* ﴾[2] إشارة إلى منع الملائكة للشياطين من الاستماع وحين يخطف أحدهم خطفة فإن الشهاب الثاقب له بالمرصاد وفي الحديث دلالات أولها:

أن حركة الشياطين محصورة في السماء الدنيا فلا يتعدونها إلى الملأ الأعلى ويتحقق ذلك من خلال نظام حراسة هيكلي معتمد على طبقة من الملائكة عددهم «٤٩٠٠,٠٠٠.٠٠٠» ملك مسؤولون عنها، وبناءاً على أن الرقم الوارد في الحديث ليس لمجرد بيان الكثرة بل إنه مقصود بحد ذاته، وفي كل الأحوال فإن عدد هؤلاء الملائكة عدد كبير جداً وموزع على خط أول يفصل بين الشياطين وبين الملأ الأعلى مؤلف من سبعين ألف من الملائكة، وخط ثاني مؤلف من ملائكة تحت إشراف الخط الأول، وكل واحد من هؤلاء يشرف

---

(١) سورة فصلت: ١٢.

(٢) سورة الصافات: ١٠.

على سبعين ألف ويرأس الجميع «إسماعيل». وبذلك يعطى الحديث فكرة عن وجود نظام حراسة هيكلي مخصص لحماية السماء من تجاوزات الشياطين ويهدف إلى بقائهم ضمن حدود السماء الدنيا وبدوره يعني امتلاك الشياطين قدرة على تجاوز هذه الحدود إلى الملأ الأعلى لو كانت بدون حماية.

وهنا يوجد أمر مسكوت عنه وهي طبيعة الملائكة ومدى ما يمتلكونه من قدرات للتلائم مع الغرض الذي وضعوا لتحقيقه فمثلاً كيف يمكن للملك أن يحافظ على المنطقة المكلف بحراستها من خروقات الشياطين؟ وكم هي المسافة التي يستطيع الملك الواحد حراستها؟ وما هي الأدوات التي يمتلكها لأداء هذا الغرض؟.

وإذا لاحظنا المسافات الهائلة في الكون فإن ما تصفه الأحاديث من أبعاد الملائكة تجعل هذه المسافات صغيرة بالنسبة لأحجام الملائكة، كما تصف ذلك الأحاديث التي سنوردها وربما نتصور أنّ الملائكة أكبر من المكان كما في حديث (أطت السماء) الذي سيأتي لاحقاً.

وقد جاء ذكر نفس المضمون عن أبي سعيد الخدري إنّ رسول الله حدّثهم عن ليلة أسري به، قال: «فصعدت أنا وجبرائيل إلى السماء الدنيا، فإذا أنا بملك يقال له «إسماعيل» وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف»[1]، وتلا هذه الآية: ﴿***وما يعلم جنود ربك إلاّ هو***﴾[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٠.

(٢) سورة المدّثر: ٣١.

انسجام المهام مع الصفات

وترد في حديث المعراج عبارة:
«دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً» التي توحي:
أولاً: أن الحديث لا يزال ينقل أحداث تدور في السماء الدنيا.
ثانياً: أن الملائكة مخلوقات سعيدة إما دائماً أو لأنها سعدت بلقاء الرسول ﷺ.

وهناك استثناء في مالك خازن النار ذو الهيئة الغاضبة والمنظر الكريه. ومما يدلك على أن صفات الملائكة ترتبط بمهامهم، ففي النموذج الذي أشار إليه الرسول ﷺ أي مالك عليه السلام جاءت الإشارة إليه لتميزه عن بقية الملائكة بغضبه وقبح منظره. ذلك أنّ الله أراد له هذه الصورة إمعاناً بالتنكيل بأهل النار ولأجل إحاطتهم بجميع وسائل الرعب، وهذا أبلغ في إيقاع الأذى بهم ثم إنه يؤدي إلى خلق التناسب بين مهمة هذا الملك المقرب وبين صفاته.

وقد جاءت هذه الصورة لتتّسق مع ما نقله القرآن عن ملائكة النار حيث ورد ذلك في الخطاب لمالك عليه السلام: ﴿ ***ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك...*** ﴾[1] وكذلك في الآية الأخرى ﴿ ***عليها تسعة عشر*** ﴾[2]. وقد أورد المصنف عنها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ ***عليها تسعة عشر*** ﴾ قال الطبرسي رحمه الله: أي من الملائكة وهم خزنتها، مالك وثمانية عشر أعينهم كالبرق الخاطف أنيابهم كالصياصي. يخرج لهب النار من أفواههم. ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة. تسع كف

---

(١) سورة الزخرف: ٧٧.
(٢) سورة المدّثر: ٣٠.

أحدهم مثل ربيعة ومضر. نزعت منهم الرحمة، يرفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم[1].

وفي هذا إشارة إلى: إما إلى طبقات النار أو إلى أقسامها، فكل قسم يرأسه أحد الملائكة الثمانية عشر ويرأس الجميع مالك عليه السلام الذي ورد ذكره في آيات أخرى من الذكر الحكيم.

على أن تسمية ملك لا يعني بالضرورة قيامه بكل شيء بل ربما هو مشرف على عدد من زبانية النار، وهم من الملائكة الذين تصفهم الآيات بالغلاظ الشداد الذين ينفذون ما يؤمرون بلا أي تردد!.

وعلى هذا فإن النظام يكون هيكلياً حيث يكون مالك هو الرئيس الأعلى لملائكة النار فيشرف على ثمانية عشر ملكاً آخر، وكل ملك يشرف على عدد كبير من الملائكة الذين يباشرون تعذيب الكفار ومتابعة أحوالهم.

وهنا تدخل النار أيضاً ضمن سلطة الملائكة كما هي الجنة. والفارق بين ملائكة النار والجنة هو حسن المعاملة وخشونتها، وبذلك تكشف الآية عن مسؤوليات الملائكة فضلاً عن إشارتها إلى وجود النظام الهيكلي في الإدارة والذي يمكن استنتاج شموله لجميع أرجاء الكون بحسب تفصيلاته، ومزاياه هي شبيهة بالتخصصات التي نراها في عالمنا الذي نعيشه حيث يمارس كل عمل فرد ملائم لمهام العمل وطبيعته.

وجاء عن رجل من بني تميم قال: كنا عند أبي العوام فقرأ هذه الآية: ﴿ *عليها تسعة عشر*﴾ ألفاً؟ قلت: لا، بل تسعة عشر ملكاً. فقال: ومن أين أنت علمت ذلك؟ قلت: لأن الله يقول: ﴿... *وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة للذين كفروا*...﴾[2] قال: صدقت هم تسعة عشر ملكاً بيد كل ملك منهم مرزبة من

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦٦.

(٢) سورة المدّثر: ٣١.

حديد لها شعبتان فيضرب بها الضربة يهوي بها سبعين ألفاً، بين منكبي كل ملك منهم مسيرة كذا وكذا»[1].

وهذا الحديث تفسير لآية تتحدث عن الملائكة الذين يشرفون على النار ورأسهم مالك خازن النار ولعلهم الطبقة الثانية من ملائكة النار، ولا دليل على عدم وجود سواهم، وقد يفهم منه الإشارة إلى وجود عدة طبقات في النار ككل طبقة ملك من هؤلاء ومعه عدد آخر يعملون تحت سلطته من الملائكة عظيمي البنية كما أكدت أحاديث أخرى.

أهميّة السماء الدنيا

ينقل حديث المعراج تصوراً عن أهمية السماء الدنيا لأنّه أشار أولاً إلى نظام الحراسة الدقيق فيها بقيادة «صاحب الخطفة» وثانياً أكد وجود اثنين من أعاظم الملائكة وهما عزرائيل ومالك خازن النار عليهما السلام.

ولعل هذا يجعلنا نعتقد بقرب هذه السماء إلى الملأ الأعلى خصوصاً أن وجود نظام حراسة فيها يركز هذا الانطباع.

كما يلفت النظر وجود إشارة غامضة إلى انشغال عزرائيل بكتاب بين يديه مقبل عليه. وهذا الإقبال يمكن أن يفسر بتفسيرات كثيرة منها: أهمية ما بين يديه، أو أنه أيضاً يستدعي المتابعة المتواصلة.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٠.

التطوّر التقني

والحديث يشير إلى أن لوحاً من نور بين يدي عزرائيل واللوح كتاب وهذا يدل على أنه من نوعية خاصة من الكتب متداولة في ذلك العالم، وأن النور بدلٌ عن الورق كما أن الكتابة التي كتبت فيه من نور أيضاً، فالكتابة إذن على النور بالنور، وهنا نتساءَل عن الكيفية التي تمت بها ويمكن تقريبها إلى أذهاننا بواسطة تصور كومبيوتر أكثر تطوراً من الكومبيوترات المعروفة عندنا.

وإذا اعتبرنا ذلك نموذجاً لبقية الأدوات، فإننا سنلاحظ نمطاً من الحياة المتطورَة جداً عن حياتنا خصوصاً إذا جمعنا ذلك إلى الإشارات الأخرى من حيث التخصص ومطابقة الصفات للمهام، وغير ذلك من المبادئ التي تنم عن عالم غاية في التطور حتى لو كان شبيهاً بعالمنا من جهات معينة، فإن التشابه لا يدل على التطابق.

غرابة التركيب

ويصف الحديث أشكالاً من الملائكة غريبة التركيب وخارجة عن المألوف لدى البشر حيث أنّ المألوف، هو أن تكون المواد المركبة لمخلوق ما غير متضادة في حين أن هذا الملك مؤلف من الثلج والنار، وهناك غرابة أخرى إذ أن هذا التضاد أنتج انسجاماً فجاء هذا الملك دائم الذكر لله والدعاء للمؤمنين حتى بات أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من المؤمنين.

وهنا إشارة إلى علاقة الحب بين الملائكة وبين المؤمنين فضلاً عن وجود تخصص لم تُوَضح طبيعته، وكيف أن هذا الملك وكِلَ بأكناف السماء

وأطراف الأرضين بالجمع، وما هو السبب الذي جعل التضاد فيه غير فعال وغير مؤثر فهل أن نفس التضاد غير مؤثر أم أن المواد المتضادة قادرة على استيعاب التأثيرات كأن تكون كتلة الثلج كبيرة جداً فيكون أثر النار فيها ضعيفاً سرعان ما تعود الكتل الذائبة منه إلى الانجماد مرة أخرى على غرار تحلل وتركب الهليوم في الشمس؟

وهذا يحدث في الكون بصورة عادية في المذنبات حيث تصل المواد التي تمر في المناطق المظلمة إلى درجات عالية من التجمد. وحين تمر قريباً من الشمس فإن بعض أجزائها تتبخر وتلتهب ولكنها تبقى مرتبطة بالجسم «ففي الظلام لما وراء الكواكب داخل الفضاء الذي بين النجوم وعندما يكون النجم التالي ما زال بعيداً وأنت تسافر خلال الظلام. إنه ليل أبدي. وليس هذا فراغاً خاوياً فهناك في أعماق الفضاء المتجمد مذنبات هي جبال ثلج عرضها عدة أميال. ولا تُرى من الأرض وليس لأي منها ضوء خاص به فهي تعكس كسائر المنظومة الشمسية ضوء الشمس فحسب. وهناك في هذا الظلام يكون من الصعب رؤيتها مثلما كان من الصعب رؤية جبل الثلج الذي أغرق السفينة تيتانيك ـ هذا المستودع الذي يحوي ١٠٠ بليون جبل ثلج يسمى «سحابة أورت» وعابرو السبيل الكونيّون هؤلاء، أو تلك الشاحنات الموسوقة التي تجوب المنظومة الشمسية. تقوم بالدوران ببطء حول الشمس فيما وراء الكواكب على مسافة جد بعيدة حتى أنها تظل ثابتة في مسارها بالكاد، وأوهى اضطراب في الفضاء يمكن أن ينحرف بملايين من جبال الثلج هذه للداخل متجهة إلينا»[1].

ولعل هذا النموذج يسهّل علينا تصور وجود ملائكة مكوّنين من ثلج ونار، ويمكن تصوره في حال وجود كتل كبيرة بالنسبة لفرضية تكونه من الماء

---

(١) النهاية ـ الكوارث الكونية وأثرها: ٧٣ ـ ٧٤.

بصورته المعروفة لدينا أو النار التي نعرفها لكن القضية تكون أسهل عندما نفترض وجود عازل سواء من الهواء أو أية مواد أخرى تمنع التواصل بين الثلج والنار وتديم بقاءهما معاً.

وإذا وضعنا في حساباتنا ما أسلفناه من أن تراكيب الملائكة تتناسب مع مهامهم، يمكننا أن نقول أن هذه التركيبة المتضادة لها علاقة بمهمة هذا الملاك المتعلّقة بأكناف السماء والأرض والتي يمكن أن نتصور أنها تتعلّق بحدود المكان إمّا لضبطه، أو لشيء آخر مجهول.

ولكننا بناءً على ما نعرفه من أن الملائكة مركبة من نور سنتصور أن هذا الثلج والنار من طبيعة مغايرة للثلج والنار الذي نعرفه نحن، والذي هو مؤلف من المواد الجامدة، وبالتالي فإن الثلج والنار يمكن أن يكونا ثلجاً وناراً مشابهين لما عندنا وليسا مطابقين له لأنهما مكونان من نور.

وهكذا نلاحظ عناية الملائكة المشتركة بالإنسان وبالطبيعة مع الارتباط بالله بواسطة التسبيح.

وفي المقطع التالي للحديث يرد ذكر عن ملكين يدعوان للمنفق بالخلف ويدعوان على الممسك بالتلف وفيه إشارة إلى ارتباط هؤلاء بالدعاء للإنسان. دون الإلماع إلى وجود مهمة أخرى أو أن هذه المهمة هي الأولى والأخيرة.

وهنا يجدر القول بعدم وجود ما يخصص الأحوال المذكورة بالمورد الذي ذكرت له فمثلاً، إن عدم ذكر ألواح النور عند ملائكة آخرين لا يعني أنها من خصوصيات ملك الموت بل وقد تكون مستخدمة عند آخرين. لكن الحديث اكتفى بذكر ذاك النموذج للإشعار بما يوجد في ذلك العالم الغيبي، ووجوده مرة يعني إمكان تكراره في أماكن أخرى بنفس الصورة أو بصورة أخرى.

عجيب خلقة الملائكة

وحين يصل إلى وصف جنس الملائكة يتوصل إلى ذلك بوصفهم بالأشكال المتعارفة لدينا، ولهذا يقول خلقهم كيف شاء ووضع وجوهم كيف شاء، مشيراً بذلك إلى وجود مبدأ شائع هو مبدأ وجود وجه وقفا رغم أنه ليس بالضرورة أن يكون بالشكل المألوف، فلو أخذنا مثلاً بعض المخلوقات البحرية كالأخطبوط أو نجم البحر فإننا نلاحظ وجود وجه وقفا، رغم غرابة الشكل ويشير الحديث بالعرض إلى أن أجسادهم فيها أطباق تتفاوت رغم ارتباطها لتكوين الكل وهذه الأطباق تصدر أصوات مختلفة تشترك بالتحميد والتسبيح.

نظام الحراسة مَرّة أخرى

ثم ينقلنا إلى السماء الثانية فيشير إلى وجه الاشتراك فيها فقط مع السماء الدنيا، وهو وجود ملائكة يشبهون آخر ما وصفهم في السماء الدنيا يمارسون التحميد والتسبيح بنفس الكيفية لذا يمكن استنتاج أن آخر السماء الدنيا يشبه أول السماء الثانية ويستمر الحال على ما هو عليه في السمائين الثالثة والرابعة، وعندها يشير إلى ما به الامتياز في السماء الرابعة وهو وجود ملك على سرير. وتحت يديه سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك وهو مشهد يشابه المشهد الذي نقله عن السماء الدنيا من صاحب الخطفة إلاّ أنّه لم يذكر ما إذا كانت مهمتهم هي نفس المهمة وإذا كانت كذلك فإننا سنتخيّل خطين: الأول في السماء الدنيا والثاني في السماء الرابعة يقومان بحماية المنطقة بين

الخطين وهذا يذكرنا بطبقة الأوزون التي وضعت لحماية الأرض من الأشعة الضارّة بالطبيعة والإنسان.

وفي السماء السابعة يطلعنا على وجود عجائب من الخلق أهمها الملك الذي على صورة ديك رجله عند تخوم الأرضين، ولفظ أرضين يشعر بوجود العديد من الأجرام الأرضية في تلك السماء التي سمّاها بالسابعة، رأس الملك بعيد حتى يصل إلى تخوم العرش مخترقاً السماء السابعة.

نظام السماوات

يمكن تخيل صورة كروية للسماوات لأن العرش كان قريب من السماء الدنيا وهو أيضاً بعد السماء السابعة وهذا لا يمكن بغير النظام الكروي حيث تصبح كل سماء حلقة حول العرش أو أن العرش حلقة حول كل السموات المتحلقة حول بعضها ويؤيد هذا ما جاء حول الملك الديك من أنّه إذا فرش جناحان جاوز المشرق والمغرب. وفي السحر يصرخ هذا الملك بالتسبيح، فتصرخ كل ديوك الأرض، وهذا يفيد وجود الارتباط بين أفعال الأحياء ومنها الديوك، وبين هذا الملك. لكنه لا يذكر إذا كانت بقية أجزاء الكون، كذلك ترتبط به أم لا كما أننا يجب أن لا ننسى ما جاء في الحديث من وجود زغب أخضر شديد الخضرة وريش أبيض شديد البياض لهذا الديك.

وهكذا ينطوي حديث المعراج على تصورات حول العالم الغيبي، ومدى ارتباطه بعالمنا، فهناك الارتباط بين المؤمنين والملائكة، وهناك ارتباط الملائكة مع مفردات الطبيعة كما في الملك الديك، وهناك أيضاً أنظمة الحراسة الهرمية وفي كل هذا إلماعة إلى وحدة العالم وأن الاثنينيّة ناشئة عن وجود حجب وأستار في الأذهان وهي إما ناشئة عن ضعف الحواس وعدم قدرتها على

التعامل مع عالم الغيب، أو أن الغيب صار غيباً لبعد المسافة التي تفصله عنا، وبالتالي لا بد من وجود وسائط للوصول إليه فيمسي مشهوداً أو غاب لوجود حاجب من نوع ما لا يمكن خرقه إلا بالتحول إلى كيفيات خاصة أيضاً.

ويمكن أن نفهم ما ورد في حديث المعراج عن الإسراء بالرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى الذي يعني قطع مسافات كبيرة بزمن قصير بتصور الاستفادة من وسائط نقل خاصة والسفر في عالم الغيب بواسطة وسيلة هي البراق، وسميت كذلك مقارنة بالوسائل السائدة في ذلك الزمن كالخيل، وهنا يجب الالتفات إلى أن جبرائيل عليه السلام كان ينتقل دون الإفادة من أية وسائط مما يدل على وجود أهلية ذاتية لديه تمكنه من الحركة بينما كان رسول الله ﷺ انتفع من البراق لمرافقة جبرائيل عليه السلام.

ويلفت النظر أيضاً كثرة عدد الملائكة التي تقوم بمهمة متابعة الحراسة في الطبقتين الثانية والرابعة، وهذا يعكس سعة دائرة المنطقة المراد حمايتها لأننا لا نفترض هذه الكثرة بلا داعٍ، بل لا بد من أسباب موجبة. كما أن وجود الملك الديك يشبه الساعة الكونية التي تتأثر بها الديكة في الأرض.

وهكذا فإن جميع مقاطع الحديث مثلت تفسيراً لبعض الآيات القرآنية فالنسبة لذكر الملائكة المسبحين يذكرنا بالآية ﴿ ***يسبحون الليل والنهار لا يفترون*** ﴾[1]. وفي الحديث تصوير لمالك ملك النار وهو أيضاً نوع من التوضيح لصوره ومهمة الملك وكذلك جبرائيل ونفس الشيء بالنسبة للآية ﴿ ***إلا من خطف الخطفة...*** ﴾[2] ونفس الشيء بالنسبة للإنفاق والبخل وكذلك ﴿ ***...ويستغفرون لمن في الأرض...*** ﴾[3]. وهكذا فإن الحديث في أغلب مقاطعه عبارة عن تفسير لبعض الآيات.

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٠.

(٢) سورة الصافات: ١٠.

(٣) سورة الشورى: ٥.

وفي النهاية يمكن إجمال ما ورد في هذا الحديث بما يلي:

١ ـ عجيب خلقة الملائكة.

٢ ـ عبادة الملائكة ودعائهم وتسبيحهم.

٣ ـ حبهم للمؤمنين ودعاؤهم لهم.

٤ ـ أنهم ذوو مهام وتخصصات.

٥ ـ أنهم طبقات.

٦ ـ أن السماء مرتبة وفق نظم خاصة.

٧ ـ هناك تطور هائل من قبيل ألواح النور المكتوبة، وفيها دلالة على عدم وجود الاعتباط في الاجتهاد في السلوك والتصرف حتى بالنسبة للملائكة فضلاً عن احتمال وجود أشياء تجنب الحديث ذكرها. ولعل السبب يكمن في عدم وجود قدرة عقلية لاستيعابها وخصوصاً في ذلك الزمن.

امتداد الكون بين الوحي والعلم

نلاحظ أن هناك تفاوتاً بين العلم والدين في النظر إلى العالم من ناحية الامتداد المكاني والامتداد الزماني ووجود المخلوقات، كما يلاحظ فرقاً في المرئي وغير المرئي.

أ. الكون علمياً

١ ـ الامتداد المكاني

إذا كان العلم لا يمد نظره إلا إلى الأشياء الموجودة بالفعل فإنّه أشار إلى أبعاد معينة لامتداد الكون حتى لو كانت مبهمة فكما يقول العلماء: «إن حجم الكون وعمره خارج إدراك الإنسان العادي ففي مكان ما بين اتساع الفضاء وخلود الزمن يضيع كوكبنا الأرض»[١].

«ولو افترضنا أننا وقفنا عند نقطة عليا لنا بأوسع أفق للرؤية بين المجرات فسوف نرى أجزاءً متناثرة من الضوء تبدو كالزبد فوق الفضاء، وبأعداد لا تحصى، وتلك هي المجرات التي يجول بعضها وحيداً معزولاً، بينما يشكل أغلبها عناقيد مجمعة تتحرك معاً مندفعة إلى ما لا نهاية عبر الظلام الكوني الكبير ونرى أمامنا الكون في أكبر اتساع نعرفه فنحن الآن في عالم الغيم السديمي الذي يبعد عن الأرض ثمانية مليارات سنة ضوئية أي يقع في منتصف المسافة إلى حافة الكون المعروفة حالياً»[٢].

---

(١) الكون: ٢١.

(٢) الكون:٢٢.

فهذا الكون «يوجد فيه $(١٠)^{١١}$ مليار مجرّة، وفي كل منها مائة مليار نجم في المعدل وهكذا يوجد في كل المجرات عدد من النجوم يبلغ تقريباً $١٠^{١١} \times ١٠^{١١} = ١٠^{٢٢}$ أو عشرة مليارات تريليون»[1].

٢ ـ الامتداد الزماني

فإن العلم يعتقد بوجود بداية لهذا الكون وهي التي تسمى بالانفجار الكبير لكن يتأرجح بين الاعتقاد بوجود نهاية والاعتقاد بالوجود الخالد على أن هذه النهاية ليست تلاشي وزوال بل هي حالة انتقال من وضع إلى آخر لأن الولادة والوفاة بالنسبة للكون دوريتان، فهناك تمدد وانكماش متواصلان والاستنتاج قائم على أساس الفرضية التي ترى أن الكون يتمدد و«إذا كانت المادة جميعها تبتعد عن بعضها بسرعات متناسبة مع المسافات النسبية فلا بد ـ ومنذ وقت طويل مضى ـ أن تكون هذه المادة منضغطة بشكل كبير إلى بعضها»[2].

«ولقد اتّضح وباختيار مناسب لهذه المقادير المتنوعة إمكانية وجود نماذج توسع متعددة. كأن يكون الكون قد ابتدأ بالتوسع اعتباراً من حالة الضغط الهائل أو اعتباراً من حالة «آينشتاين» أو أنّ الكون يمكن أن يتوسع بصورة لا نهائية، أو أن يتقلّص بعد مضي فترة زمنية معينة إلى الحالة المرتصّة ثم يعاود التوسع بما يسمى (الكون النائي)»[3].

---

(١) الكون: ٢٢.

(٢) طبيعة الكون: ١١٨.

(٣) طبيعة الكون: ١٢٣.

وهناك تقديرات لعمر الكون «لقد قدر هذا العمر في زمن نشرة ديراك الأولى بحدود (٢٠٠٠) مليون سنة ولكن التقديرات الحالية أعلى من ذلك بكثير»[١].

٣ ـ أمّا بالنسبة للمخلوقات

فإن العلم لا يزال يحتمل وجود مخلوقات ولا يستطيع البت في هذه القضية فالعلماء يؤكدون أنه «يوجد في نظامنا الشمسي عدة أماكن يمكن أن تصلح لحياة من نوع ما»[٢] بناءً على دراسة الأطياف الواردة من مناطق في الكون حيث ساد الاعتقاد بوجود إمكانات لنشوء الحياة وهي طبعاً يمكن أن تكون مشابهة للحياة في الأرض وليست مطابقة لها إلاّ أنها قد تكون متقدمة عليها من ناحية التطور العلمي أو التقني أو بالعكس قد تكون في أبسط أشكالها.

ولكي يستطيع العلماء التوصل إلى أدلة تثبت هذه الفرضيات صار العلماء يبحثون «عن رسائل من حضارة سحيقة غريبة» فإذا تسلمنا رسالة راديو من حضارة خارج الأرض فكيف نفهمها؟.

ولذلك استخدم مرصد (اريسيبو) للبحث عن إشارات عاقلة قادمة من حضارات أخرى من الفضاء، بالإضافة إلى بث رسالة ولمرة واحدة فقط إلى «م ـ ١٣» التي هي مجموعة نجوم كروية بعيدة وذلك لكي تكون إمكاناتنا التقنية في العمل على جانبي الحوار النجمي واضحة بالنسبة إلينا على الأقل[٣].

---

(١) طبيعة الكون: ١٢٣.

(٢) الكون: ٢٥٧.

(٣) الكون: ٢٥٣.

ومن الواضح أن أقصى ما يمكن للعلماء تصوره بالنسبة لوجود حياة مشابهة للحياة الأرضية هو تصور نفس الحياة مع مقدار من الاختلاف بالزيادة أو النقصان وهذا يعني عدم افتراض وجود مبادئ للحياة مغايرة للمبادئ التي قامت عليها في الأرض.

الطبيعة وما فوق الطبيعة

تقوم نظرة العلم إلى العالم من وجهة الأبعاد الأربعة والتي يمكن حدها بالأبعاد (الزمانية والمكانية). وخارج هذه الأطر فإنه يدخل في إطار الميتافزيقيا (فوق الطبيعة) وهو عالم إن كان محسوس أو غير محسوس فإن العلم لا يستطيع إلا التعامل معه مخبرياً، ولا يستطيع التحقق من أي من الفرضيات بخصوصه، لأنه عالم يقع خارج دائرة الطبيعة، وهو وفق وجهة النظر هذه عالم غير موجود لأن جميع هذا العالم هو الطبيعة ولا سبيل للعبور إلى عالم خارج الطبيعة.

وإذا كان ثمة عالم آخر خارج الطبيعة فإنه عالم مغلق لا يستطيع الإنسان التواصل معه وحتى لو استطاع فإن الذي يتم التواصل معه سيكف أن يكون جزءاً من عالم فوق الطبيعة وينتمي إلى عالم الطبيعة.

ب. الامتداد في الوحي

١ ـ الامتداد المكاني

إنّ أحد المشاكل التي تواجهنا ونحن نسعى للوصول إلى حدود الكون في الرؤية الدينية، هي وحدات القياس القديمة حيث بقيت بشكلها القديم. وغالباً

ما تعطي صورة تقريبية، لأنه لم يكن وارداً في تلك الفترة التوصل إلى حدود دقيقة بالصورة المعروفة في عصرنا الحاضر، خصوصاً أنه لم يكن هناك مبرر للدقة في هذه الأمور.

ومن المعروف أن الوحي استخدم مفردة السموات ومفردة الأرض للدلالة على الامتداد المكاني فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ ***الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً...*** ﴾[١]. وقال أيضاً: ﴿ ***... ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات...*** ﴾[٢]. وقال أيضاً: ﴿ ***يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب...*** ﴾[٣].

كما ذكر العرش فقال: ﴿ ***الرحمن على العرش استوى*** ﴾[٤]. وقال: ﴿ ***فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون*** ﴾[٥]. وكذلك قوله: ﴿ ***وسع كرسيّه السموات والأرض*** ﴾[٦]. وهناك أيضاً سدرة المنتهى ﴿ ***عند سدرة المنتهى*** ﴾[٧].

فهذه العالم جميعها هي ما يتركب منها العالم من ناحية الامتداد المكاني، ولسنا نعلم إن كان العرش والكرسي هو شيء واحد أم لا؟ كما أنّ القرآن لا يذكر هل أنّ سدرة المنتهى هي جرم أو أي شيء آخر؟ لكن السموات والأرض هي جزء يسير بالنسبة للكرسي، لأن الكرسي وسع السماوات والأرض.

غير أن هذه الأشياء ليست مجرد أماكن، بل هي عالم شبيه بالعالم الأرضي فيه سكان وعمار وفيه معالم تعمد الآيات والأحاديث إلى توضيحها بطريقة مثيرة سنمر عليها تباعاً.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٩.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٤) سورة طه: ٥.

(٥) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٦) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٧) سورة النجم: ١٤.

ثمّ إن الوحي يؤكد أن الكون في حالة توسع كما جاء في الآية ﴿ ***والسماء بنيناها بأييد وإنّا لموسعون*** ﴾[1]. وهذا التوسع سينتهي في يوم ما إلى حالة من الانطواء ﴿ ***يوم نطوي السماء كطيّ السّجلّ للكتب..*** ﴾[2]. ولكنه يذكر بأن الانطواء ليست حالة نهائية بل هي مقدمة لعودة أخرى أكثر ثباتاً لدرجة وصفه بالخلود ﴿ ***يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّموات...*** ﴾[3].

والسّموات والأرض هي سبع سموات متفاوتة في بعض المعالم فإن كل سماء مختلفة عن الأخرى بحيث يمكن تصورها كطبقات بقول الوحي: ﴿ ***الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ...*** ﴾[4]. وكذلك ﴿ ***الذي خلق سبع سموات طباقاً...*** ﴾[5].

ويمكننا أن نطل على حدود تقريبية أشارت إليها الآية ﴿ ***في يوم كان مقداره خمسين الف سنة*** ﴾[6] فهذه الآية تشير إلى صورة مقطعية، فهنا عملية عروج وهي أصلاً عملية صعود والعروج خاص بالملائكة والروح ورغم أن الآية لم تشر إلى مبدأ الحركة لكنها تشير إلى نهايتها حيث حددت بكلمة إليه وهي تعني إلى الله، وإن كان الله غير محدود بمكان، لكن الإشارة تعني وجود موضع معين يكون الوصول إليه مساوياً للوصول إلى الله لأنه منسوب إلى الله مثل الأشياء التي ينسبها إلى نفسه سبحانه ولعلنا نفترض أنها نقطة اقتراب من عرش الله وإذا فرضنا أن مبدأ الحركة أيضاً من مكان مألوف فيه وجود

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٣) سورة إبراهيم: ٤٨.

(٤) سورة الطلاق: ١٢.

(٥) سورة الملك: ٣.

(٦) سورة المعارج: ٤.

الملائكة والروح فيه، فهذا المكان أي مبدأ الحركة إلى منتهاها يستغرق خمسين ألف سنة من سني الأرض.

فإذا كان هذا الزمن محدد فإن سرعة الحركة لم تحدد مع العلم أن حركة الروح والملائكة ليست حركة اعتيادية وإذا أخذنا حديث المعراج معياراً، فإننا نلاحظ أن الذهاب والإياب من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات السبع ثم إلى العرش وحتى سدرة المنتهى كان في جزء الليلة فأي مكان هذا الذي يستغرق الوصول إليه بسرعة الملائكة خمسين ألف سنة؟.

وهناك مكان آخر أشارت الآيات إلى أن العروج إليه يستغرق ألف سنة فهنا موضعين في الكون، أحدهما بعده يساوي خمسين ألف والثاني ألف سنة مع العلم أن الملائكة ليست ذات سرعة واحدة لأنّها متعددة الأجنحة وأن زيادة الأجنحة لا يعني إلا زيادة السرعة.

كما أنّ هناك روايات كثيرة تشير إلى أبعاد الكون منها رواية تقول بوجود بحار في السماء عمق أحدها مسيرة خمسمائة عام، فهذه مواضع من الكون ذات أبعاد شاسعة فإذا كان عمقها بهذه الصورة فكيف هو طولها وعرضها فلا شك أنه أكثر اتساعاً.

وهكذا فإن الكون أو (الخلق) وفق الوحي بهذا الامتداد الهائل وأنه عالم غريب فيه معالم تشبه ما هو موجود عندنا لكنها تختلف عنه في معالم كثيرة.

وجاء في التفسير عن نفس الآية:

﴿ *في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة* ﴾[1] قيل: أي كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة، وذلك من أسفل الأرضين إلى فوق السماوات

---

(١) سورة المعارج: ٤.

السبع، وقيل: امتداد ذلك اليوم على بعض الكفار كذلك، وقيل: ومعناه أن أول نزول الملائكة في الدنيا بأمره ونهيه وقضائه بين الخلائق إلى آخر عروجهم إلى السماء، وهو القيامة هذه المدّة.

لعلّ التغيير بالزمن إشارة إلى المسافات التي تفصل بين الأرض والأماكن التي تحفظ فيها أعمال البشر كما هو ثابت في الآيات والأحاديث، وهذا بواسطة حركة الملائكة بين الموضعين فهو معادل لخمسين ألف سنة من سنوات الأرض بينما هو بالنسبة للملائكة معادل ليوم واحد فعملية عروجهم تستمر يوم واحد لكن عروج سواهم إن أمكن يستمر خمسين ألف سنة وبطريقة من الطرق يمكن التوصّل إلى المسافة الافتراضية لهذه الحركة التي تسمّى بالعروج.

على أن المطلوب فيه الكثير من الدقة إذ لا يمكن لنا هنا أن نفترض اتجاه وتحديد الأعلى والأسفل حتى يشار إلى الأماكن لأن العالم متحرك باستمرار ويمكن أن تنقلب فيه هذه الأماكن عدة مرات في كل مقطع زمني معين.

ولهذا فلا بد من تفسير العروج بصورة أخرى وهي صورة الخروج من قوانين الطبيعة بصورتها الحالية المعروفة والانتقال إلى صورة أخرى بواسطة معينة تتيح هذا الخروج وطبعاً لا علاقة لهذا بالتصورات الاعتبارية للمكان. وكما هي الإشارات في كثير من الآيات، فمثلاً إن الموت يتيح للإنسان الإطلاع على حقائق الغيب والموت ليس انتقالاً في المكان بل هو تحول في بنية الإنسان.

ويمكن أن يكون إشارة إلى وجود أفلاك متفاوتة يساوي أحدها خمسين ألف ضعفاً مثل الآخر وهذا ممكن في عالم النجوم والكواكب.

٢ ـ الامتداد الزماني

يشير الوحي إلى أزمان سحيقة فالله سبحانه وتعالى هو القديم الذي خلق الوجود، ولا يزال يضيف إلى مملكته موجودات جديدة وإن السموات والأرض التي نعيش عليها الآن ستنتقل من المرحلة المؤقتة وسرعان ما تدخل في الطور الدائم الذي يصفهُ الله بالخلود ويوم القيامة هو المدخل إلى هذا الخلود، فالأرض حين تتبدل ﴿ *يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّموات* ﴾[1]. فإنها لا تتلاشى فحسب بل تتلاشى ليعاد تركيبها بصورة دائمة وهذا يعني وجود مراحل وأطوار وحركة متواصلة.

وعلى هذا الأساس إننا نفترض وجود إضافة عند التحول من العالم المؤقت إلى العالم الدائم وهذا التبدل ربما كان عملية متواصلة أي أن الوجود يمر بعدة أطوار ثم يصل إلى الطور المؤقت وأخيراً يلتحق بالعالم الدائم والذي ملحقاً بالعرش لأن وجود العرش سبق خلق السموات والأرض وربما كان العرش هو أول جزء من هذا العالم خلقه الله ثم تواصلت عملية خلق السموات والأرض من بعده.

وفي كل الأحوال إن عملية الانتقال ستكون قاعدة يسير على أساسها الوجود، فهناك بداية متجهة من الطور المؤقت إلى الدائم، وهذا يعني استمرار عملية الخلق والإيجاد، وهناك أدلة تؤكد الاستمرارية التي أشرنا إلى بعضها في ما سبق.

---

(١) سورة إبراهيم: ٤٨.

٣ ـ أمّا بالنسبة للمخلوقات

فإن الوحي يؤكد على أن السماء تعج بالمخلوقات وهي أصناف عديدة فإن أول موجود ظهر في الطبيعة هي المادة الجامدة وهي التي اعتمدت عليها عملية الخلق ومنها تركبت جميع المخلوقات.

ثم ظهر أول مخلوق سمي «الملائكة» وفي فترة مبكرة عندما كان الوجود كما تصفه الخطبة الأولى من نهج البلاغة في حال تخلق، ويشير القرآن أيضاً إشارة ضمنية إلى هذه القضية فيقول: ﴿ *والجانّ خلقناه من قبل من نار السّموم...* ﴾[1]. وهذه القبل تعود على الإنسان فالجانّ سابق في الخلق على الإنسان، وإذا كان خلق الملائكة قبل خلق الإنسان هذا يدفعنا إلى احتمال خلق الملائكة والجن في فترة واحدة. وهذا ما لا يؤيده شيء بينما توجد أحاديث تؤكد أسبقية الملائكة في الوجود، أما بالنسبة لأسبقية النبي وأهل بيته، فإن وجودهم كان على شكل أنوار وهذا لا يناقض الترتيب الظاهري الذي نشير إليه قبل الخليقة وبعد الخليقة.

فتكون المحصّلة التي نصل إليها: أن المادة الجامدة هي الأسبق في الوجود، ثم إنّ الملائكة هي التي سبقت في عالم الأحياء، أما ما ورد من ذكر الروح والتي ذهبت بعض الآيات إلى أنه نوع من الخلق ليس من الملائكة، فهؤلاء لا دليل على أنهم أسبق من الملائكة أو خلقوا بعدهم، إذا صدق هذا المذهب وثبت أنهم ليسوا من الملائكة فهم ضمن الغيب الذي لم يخبر عنه الله سبحانه وتعالى. كما أن هناك احتمالاً أيضاً آخر بوجود أحياء من أجناس أخرى من طبقات متعددة أي: من طبقة الإنسان أو من طبقة الروح، الأمر الذي يعطي

---

(١) سورة الحجر:٢٧.

انطباعاً بأن الخلق أكثر امتداداً من التصور الذي يقوم على الشواهد رغم أن هذه الشواهد هائلة وتفوق الحصر، لكن الانطباع الذي نخرج منه من القرآن بأن حالة من الامتداد أكبر بكثير من الحدود الهائلة المعروفة، ويمكن أن نقول أن الخلق من ناحية التنوع هو حالة قريبة من اللانهاية سواء بالنسبة للزمان والفضاء والقوانين.

وعلى هذا الأساس نفهم أن وجود الملائكة باحتمال مرتبط بجزء خاص من الخلق ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً كما شاء الله له ذلك، ومن هنا جاءت الآيات لترسم هذا الدور والارتباط.

الجنس المقارب للملائكة

الرّوح

لقد أشار القرآن إلى الروح في بعض الآيات بالصورة التي يفهم منها أنه مخلوق خاص ليس من الملائكة، وقد ورد ما يؤيد ذلك في بعض الأحاديث، ولهذا فإنه قد يكون مخلوقاً ذا خصائص مختلفة مجهولة بالنسبة لنا.

وقد أورد المصنف حول هذه القضية ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ *يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً* ﴾[1] قال الطبرسي رحمه الله اختلف في معنى الروح هنا على أقوال: أحدها أن الروح خلق من خلق الله تعالى على صورة بني آدم وليسوا بناس وليسوا بملائكة، يقومون صفاً والملائكة صفاً. هؤلاء جند وهؤلاء جند ـ وقال الشعبي: هما سماطا[2] يوم القيامة، سماط من الروح، وسماط من الملائكة، وثانيها: أن الروح ملك من الملائكة، وما خلق الله مخلوقاً أعظم منه. فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفاً، وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً فيكون عظم خلقه مثل صفهم. وثالثها: أنه جبرئيل عليه السلام عن الضحاك، وقال وهب أن جبرائيل واقف بين يدي الله عز وجل ترعد فرائصه يخلق الله عز وجل من كل رعدة مائة ألف ملك، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكّسو رؤوسهم. فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت

---

(١) سورة النبأ: ٣٨.

(٢) السماط: الشئ المصطف، وسماط القوم صفهم.

(وقال صواباً) أي لا إله إلا الله. وروى علي بن إبراهيم بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: هو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل.

ورابعها: أنه أرواح الناس تقوم مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الأرواح إلى الأجساد.

وخامسها: أن الروح بنو آدم. عن الحسن وقوله ((صفاً)) معناه مصطفين[1].

إن ذكر الروح يشعر بأن وجوده ذا ميزة خصوصاً إذا قرنا ذلك بمشهد يوم القيامة، فإننا نعلم بوجود الارتباط بين هذا الحضور وأهميته بالنسبة ليوم القيامة. لذلك فإن الله وصف هذا الحضور إشعاراً بأهميته،

وإذا كان الروح ليس من الملائكة فإن استدعاءه في هذا اليوم لا بد أن يشكل أهمية، ولكن ورغم الأهمية فإنهم غير مخوّلون بالحديث إلاّ بعد أن يأذن الرحمن لهم وأن يكون الحديث صواباً. هذه المخلوقات هي مخلوقات خاصة تحضر إما ضمن حضور جميع المخلوقات لأن يوم القيامة هو يوم الحشر، وإما أن يكون حضورهم مثل حضور الملائكة أي لا علاقة له بالحساب لأنه مختص بالجن والإنس والحيوانات كما ذكرت الآيات.

ما ورد في الآية: ﴿ ***تعرج الملائكة والرّوح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة*** ﴾[2]. فإنه يلفت النظر إلى ما يلي:

أولاً: اتساع الكون وثانياً كلمة (إليه) تفيد وجود نقطة معينة تبلغها الملائكة والروح وينسبها إليه وكأن الوصول وصولاً إليه سبحانه، ولعلها تكون موضعاً لاستلام الأوامر أو شيئاً من هذا القبيل، وفي العادة لا يجب أن يكون المنطلق الأرض بل ربما مكان آخر، وهذا المكان ينزل فيه الروح والملائكة لأن

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) سورة المعارج: ٤.

مسكن الملائكة السماء، وكذلك الروح ومن هناك إلى ذلك المكان (٥٠) ألف سنة كما أن ذكر كلمة معارج بالجمع يفيد أن هناك معارج أخرى.

الكروبيّين

وهناك صنف آخر خاص ذكرته الأحاديث ولم يؤيد بأي نص قرآني. وهذا يجعل من الحديث الآتي هو المستند من الإشارة إليهم:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم الله خلف العرش، لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم. ثم قال: إن موسى عليه السلام لما أن سأل ربه ما سأل أمر واحداً من الكروبيين فتجلى للجبل فجعله دكاً[1].

وفي هذا الحديث إشارة إلى أنّ الكروبيين ليسوا من الملائكة ولكنهم أصبحوا كالملائكة بل لعلهم سموا إلى مكانة خاصة جعلتهم ذوي أنوار.

والحديث يفسر أيضاً تجلّي النور للجبل (فجعله دكاً) فالتجلي كان لمخلوقات الله ولكنه تجلي لله بواسطة مخلوقاته لأنّ الله هو الذي منح النور لهؤلاء المخلوقات لأنّهم من شيعة أهل البيت وفي هذا إشعار بمكانة الشيعة عند الله وهو ضمناً توضيح لمكانة أهل البيت بحيث أنّ شيعتهم لهم هذه المكانة فما هي مكانة الأئمة إذن؟.

ويمكن أن تتضمن تفسيراً لآية ﴿*أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبس من خلق جديد*﴾[2] كما أنّه يعني أن للأئمة عليهم السلام شيعة من الخلق الأوّل وأنّهم معروفون منذ القدم.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) سورة ق: ١٥.

الغيب والشهود

وإذا عدنا إلى المفهوم القرآني في تقسيم العالم فإنّه يقسمه إلى عالمين أحدهما عالم الغيب والآخر عالم الشهود. وهذا الغيب غيب واسع الدرجة بالنسبة للإنسان وغيب آخر بالنسبة للملائكة ولربما هناك غيب بالنسبة للمخلوقات الأخرى بحسب مقاماتها، فالإنسان ذو الحواس المحدودة جداً يصبح الغيب بالنسبة إليه واسعاً، لكنه غيب مؤقت ينتهي في يوم ما وعندما يدخل الوجود في الطور الدائم وهو الآن في هذا الطور ليس سواء بالنسبة لجميع البشر بل أن الأنبياء والأئمة تحولت عندهم كثير من معالم الغيب وصارت مشهودة فهم مطلعون عليها. وهناك أحاديث ستأتي تؤكد وجود حالات خاصة بأهل البيت والأنبياء وأبسط تلك الحالات هي مشاهدة الملائكة وتلقي الوحي أو الاطلاع على حقيقة الجنة أو النار أو غير ذلك من الوقائع المستقبلية.

وعلى هذا فإن الغيب ما غاب عن حواس الإنسان وهو على أنواع: الأول: هو الأحداث الماضية التي لم يشاهدها الإنسان لم يطلع على حقيقة وقوعها بصورة كاملة. والثاني: الوقائع المستقبلية التي لا يمكن للإنسان الاطلاع عليها وهذا يصدق بالنسبة للملائكة عندما أخطأوا في تقدير آدم عليه السلام فقال لهم رب الكون ﴿... *الم اقل لكم إنّي اعلم غيب السّموات والأرض*...﴾[1]. وهذه أيضاً تبدو دائرة اشتراك بين الملائكة والبشر.

---

(١) سورة البقرة: ٣٣.

كما أن هناك غيباً ليس الماضي وليس في المستقبل وهو موجود الآن في العصر الحاضر، لكن لا يتاح للناس الإطلاع عليه لأسباب عديدة مثل: بُعد المسافة أو عمق الحدث ودقّته ونفوذ المكروب إلى جسم الإنسان أو غير ذلك وربما حتى الملائكة عندها دائرة من المغيبات، لأن الله سبحانه وتعالى يؤكد على أن هناك جزءاً من الغيب لا يطلع عليه أحداً كما في الآية التالية: ﴿ ***عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصداً*** ﴾[1].

يمكن أن يطّلع عليه بعض خلق الله ولعل هناك أجزاء لا يطّلع عليها أحداً إطلاقاً، كما تشير الآيات السابقة حيث أن الملائكة لم يكونوا يعرفون حقيقة المخلوق الجديد رغم كونهم من أقرب خلق الله إليه.

فهناك إذن غيب مؤقت يزول بزوال أسبابه وهناك غيب لا يزول لأنّه غير متعلق بالإنسان ولا يرتبط به من قريب أو بعيد، مثل شؤون الخلق في أكوان أخرى مثلاً على فرض وجودها وهناك غيب لا توجد أهلية الإطلاع عليه أصلاً عند المخلوقات.

وهكذا فإن هذه الدوائر المتعددة للغيب مترتبة وتحقق مصالح الإنسان وبحسب موقعه ولغير الإنسان كذلك، وهي في أغلبها قابلة للانتقال من دائرة الغيب إلى دائرة الشهود بمجرد توفر الظروف تفرض انتقالها من دائرة الغيب إلى دائرة الشهود.

---

(١) سورة الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

صورة السماوات بين العلم والدين

لكل ذلك نلاحظ وجود فرق بين مفهوم الدين عن الكون ومفهوم العلم، فالعلم لا يشير إلى وجود فواصل في الكون بينما يؤكد الدين على وجود عالم أكبر من السماوات والأرض هو الكرسي وهناك أيضاً العرش الذي يمكن أن يكون أكبر من الكرسي بناء على التصور العرفي للعروش التي تكون أكبر من العادة من كراسي الحكم، أو لعل كلاهما شيء واحد وهناك أيضاً سدرة المنتهى، كما يلاحظ أن الدين لا يتردد في حديثه عن هذه الأبعاد ويحزم بوجود الفواصل بين السماوات، لكن العلم ينظر بتردد إلى كل ذلك لأنّه لا يستطيع الحديث إلاّ عما يقع في مقدوره إثباته وما عدا ذلك فإنه يحتمله وهذا يجعل فرقاً كبيراً في التصوّرات.

وهناك أيضاً فرق بالنسبة للكائنات الحيّة الموجودة، فالدين يجزم بوجود عدد معين من المخلوقات بينما لا يزال العلم يحتمل وجود كائنات لا يستطيع البت في شأنها.

الفصل الثاني

الملائكة ـ العلاقات والمهام

- نشوء العلاقة (الملائكة وخلق الإنسان)
- الاعتراض الملائكي
- الملائكة أجناس متعدّدة
- التسبيح الإرادي القهري
- عبادات الملائكة ومقاماتهم
- خوف الملائكة
- مهام الملائكة
- عقاب الملائكة وثوابها

نشوء العلاقة (الملائكة وخلق الإنسان)

الآيات التي وردت بخصوص خلق الإنسان تعرّضت إلى ارتباطه بالملائكة ويمكن اكتشاف أبعاد هذه القضية من خلال بحث الآيات التي نقلت لنا الحدث وهي تنقسم إلى قسمين:

أ ـ الآيات التي تناولت الحديث عن آدم قبل خلقه ومنها ﴿ ***وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون*** ﴾[١].

هذه الآيات تعرض حواراً دار في الملأ الأعلى بين الله وملائكته ربما المقرّبون منهم فقط، ولربما شارك في الحوار سواهم فاستمعوا إلى خبر قرب ظهور مخلوق جديد يأخذ موقع الخلافة في الأرض، والخلافة ستكون من طورين: الطور الأول: هو الخلافة في الأرض الحالية، والطور الثاني: طور الخلافة الدائمة في الجنة وهي خاصة بفئة من البشر هم المؤمنون المطيعون فقط. ولعل رد الملائكة كان ناظراً إلى الطور الأول حين ذكروا وصف الفساد، أو كان النظر موجهاً إلى نفس المخلوق وأنّه ليس معصوماً فيصدر عنه الخطأ.

وتكررت هذه الأخبار في آيات أخرى هي:

١ - ﴿ ***إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين ❖ فإذا سوّيته ونفخت فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين*** ﴾[٢].

٢ - ﴿ ***وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ❖ فإذا سوّيته ونفخت فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين*** ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة ص: ٧١ ـ ٧٢.

(٣) سورة الحجر: ٢٨ ـ ٢٩.

فهذا الخطاب الموجه للملائكة يتضمن أمراً بالسجود، لكنه ليس أمراً فعلياً لأن الأمر صدر قبل خلق الإنسان ويصبح فعلياً إذا مرّت مرحلة الخلق ثم مرحلة التسوية ثم مرحلة النفخ للروح عندئذٍ يتوجب على الملائكة القيام بالسجود.

مما يشعر بأهمية السجود ويثير السؤال حول منشأ هذه الأهميّة كفعل، وهل هو من باب المقدمة لتكليف آخر؟ أم أنه نوع من الطاعة الخاصة على غرار سجود النجم والشجر لله ﴿ *والنجم والشجر يسجدان* ﴾[1]؟

ومن جهة أخرى يمكن أن يكون هو طبيعة الوظيفة المحوّلة للملائكة إزاء الإنسان بعد وصول التكليف إلى الفعلية. ولكي نتفهم حقيقة الأمر لابد أن نضع في الحسبان ما يلي:

القرآن لا يعتني بالفواصل الزمنيّة

الآيات التي مرّت لم تعتنِ بالفاصلة الزمنية ولم تبين كم من السنين قد مرّت بين وجود الإنسان كفكرة، وبين تحوله إلى حقيقة موجودة بالفعل أي أننا لا نعلم من النصوص الفاصلة بين اللحظة التي أخبر الله فيها ملائكته بقرب ظهور الإنسان وبين ظهوره فعلاً.

ولهذا يمكن افتراض وجود فواصل زمنية بين مرحلة الخلق ومرحلة التسوية، وأخيراً مرحلة النفخ وصولاً إلى سجود الملائكة، ولا ندري هل هي مراحل أم ليست كذلك؟.

وعدم ذكر الفترة الزمنية يفسح المجال واسعاً لافتراض عدم المباشرة في خلق الإنسان وهذا يفتح أفقاً للقاء النص القرآني بالفرضيات العلمية كما يأتي:

---

(١) سورة الرحمن: ٦.

خلق الإنسان بين الوحي والعلم

تفيد النظريات العلمية أن ظهور الإنسان لم يكن عملاً فجائياً بل جاء نتيجة تطورات طويلة. إذ ظهرت الحياة بشكل بسيط جداً ثم تنوّعت وكثرت أشكالها، وظهرت المخلوقات الحية تباعاً ويشير العلم إلى هذه النظرية فيقول:

إن الحياة مرتبطة بالمواد العضوية وهي تتألف بصورة رئيسية من عنصر الكربون والهيدروجين والأوكسجين ولم تظهر الحياة حتى ولدت هذه العناصر بعد الانفجار الكبير الذي ظهر بعده العالم. «فالحياة في كوكبنا مؤلفة من جزئيات عضوية أو بنى ميكروسكوبية معقدة يؤدي الكربون فيها دوراً رئيسياً وقد مرّ زمن قبل الحياة ذاتها على الأرض وهي عارية ومهجور تماماً»[1].

وإذا كانت الحياة معدومة في زمن ما «فكيف صنعت الجزئيات العضوية ذات الأساس الكربوني في غياب الحياة؟ ثم كيف نشأت أولى المواد الحية؟ وكيف تطورت الكائنات الحية إلى وضعها الحالي الدقيق والمعقد الذي نمثله نحن الجنس البشري ؟»[2]

إنّ ما حدث هنا على الأرض يمكن أن يكون نموذجاً بدرجة أكبر أو أقل لتطور الحياة في عدة عوالم، ولكن إذا أخذنا التفاصيل من نوع كيمياء البروتينات أو طب الجهاز العصبي (الدماغ). فإن قصة الحياة على الأرض

---

(١) الكون: ٣٧.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧.

يمكن أن تكون فريدة من نوعها في مجرة درب التبانة كلها. فالأرض تتكثف من الغاز والغبار الموجودين بين المجرات منذ ٤,٦ مليار سنة تقريباً. ونحن نعرف من سجل الأحافير أن الحياة نشأت بعد ذلك فوراً. وربما قبل ٤ مليارات سنة في مستنقعات ومحيطات الأرض الوليدة. كانت الأشياء الحية الأولى غير معقدة على غرار ما هي عليه وهي: العضوية ذات الخلية الواحدة التي تعد شكلاً معقداً من أشكال الحياة. أما المتحركات الأولى فكانت أكثر تواضعاً، ففي تلك الأيام المبكرة كان البرق والأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس تحطم جزئيات الجو الأولى الغنية بالهيدروجين. ثم لا تلبث هذه الشظايا أن تتحدد تلقائياً لتشكل جزئيات أكثر تعقيداً. وكانت نواتج هذه الكيمياء المبكرة تنحل في المحيطات مشكلة نوعاً من الماء العضوي يزداد تعقيداً بالتدريج إلى أن جاء يوم بمحض المصادفة نشأت أو تشكلت فيه تلك الجزيئة القادرة على صنع نسخ مماثلة لذاتها مستخدمة جزيئات الماء الأخرى (أحجار بناء).

ذاك كان هو الجد الأقدم للحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسجين الذي يعرف باسم (دي آن أي) DNA ويشكل جزيئة الحياة الرئيسية على الأرض وهو في شكل السلم المطوي حلزونياً للرمز الوراثي تدعى هذه الدعائم النوكليوتيدات وهي التي تعطي التعليمات الوراثية لصنع عضوية معينة. ولكل شكل من أشكال الحياة على الأرض مجموعة مختلفة من التعليمات هو السبب في اختلاف الكائنات العضوية. والتحول أو الطفرة الوراثية هي تغير في النوكليوتيد يعاد نسخه في الجيل التالي الذي يولد فعلاً[1].

---

(١) الكون: ٤٦ ـ ٤٧.

وهكذا يصور العلم تخلّق أوّل موجود حي وهو عبارة عن سائل هلامي مكون من أحماض نووية تم تطوره، وصار قادراً على تكرار نفسه خلال فترات زمنية طويلة كانت فيها الأرض تشهد تطوراً مشابهاً وفر الظروف الملائمة لظهور هذا الموجود الذي يمثل حلقة بين الأحياء والمواد الجامدة.

«فقد كانت الأرض قبل أربعة مليارات من السنين حديقة عدن مليئة بالجزيئات. ولم توجد حتى ذلك الوقت أي حيوانات مفترسة وعملت بعض هذه الجزيئات على التكاثر (التوالد الذاتي) دون مهارة وتنافست على «أحجار البناء» وبالتالي خلقت نسخاً غير متقنة من ذاتها»[1].

فهناك إذن نقلة حصلت جعلت هذا الموجود قادر على تكرار نفسه وهي أهم نقلة جعلت هذا الموجود يصنّف ضمن الأحياء لأنّها ميزة الحياة الرئيسية، فضلاً عن قدرته على التغذية، ولربما بطريقة التمثيل الضوئي وهي أحد أهم مميزات الحياة النباتية.

«فقبل ثلاثة مليارات من السنين: أن عدداً من النباتات الوحيدة الخلية انضمت معاً، ربما بسبب أن أحد التحولات منع إحدى الخلايا من الانفصال بعد أن انقسمت إلى خليتين. وعن ذلك تطورت أولى العضويات المتعددة الخلايا»[2].

و«قبل مليار سنة استطاعت النباتات التي عملت متعاونة فيما بينها أن تحدث تغيراً مذهلاً في بيئة الأرض، فالنباتات الخضراء تولد الأوكسجين الجزيئي. وبما أن المحيطات كانت آنذاك مليئة بالنباتات الخضراء، فإن الأوكسجين بدأ يصبح مكوناً رئيسياً في جو الأرض»[3].

---

(١) الكون: ٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩.

«ولكن ظهرت عندئذ الحيوانات البحرية الثديية التي هي أجداد الحيتان والدلافين. وفي الفترة نفسها ظهرت الرئيسيات التي هي أجداد السعادين والقرود والبشر ومنذ أقل من عشرة ملايين سنة ظهرت المخلوقات الأولى التي تشبه البشر ورافقت ذلك زيادة ملموسة في حجم الدماغ، ثم ظهر أول إنسان حقيقي قبل بضعة ملايين فقط من السنين»[1].

هذه ببساطة هي الفرضية العلمية لظهور الإنسان بعد أن مر بكل هذه الأطوار متطوراً من الأشكال البسيطة للحياة وسائراً معها حتى ظهر بصورته الفعلية في النهاية.

وهكذا تلوح جملة فروق بين هذه الرؤية والحقيقة القرآنية لخلق الإنسان، إلا أنّ هذه الفروق يمكن أن تعالج بواسطة جمع الرؤية القرآنية مع الرؤية العلمية من خلال ما يسمح به النص القرآني.

فوفق التدريج في الخلق يمكن النظر إلى ظهور أول إنسان بمواصفات قريبة من الإنسان الفعلي على أنه هو الإنسان الأول أو هو آدم.

فمن خلال عدم اعتناء القرآن ببيان الفواصل الزمنية يمكن أن تكون الأطوار التي مرت قبل ظهور الإنسان الأول، وهي مراحل الخلق ثم التسوية ثم مرحلة نفخ الروح هي نفس الأطوار التي أشارت لها النظرية العلمية ويساعد على هذا الفهم جملة آيات:

﴿ *ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين* ﴾[2].

فهذه الآية تفيد في نفي المباشرة في الخلق، فهناك سلالة لم تكن فيها عملية خلق الإنسان عبر النطفة، أي أن هناك مرحلة تبدأ من الطين يكون الخلق فيها

---

(١) الكون: ٥١.

(٢) سورة المؤمنون: ١٢ - ١٣.

خارج الأرحام وهي تبدأ من الموجود الهلامي ثم مرحلة الخلية الواحدة حتى ظهور مرحلة التكاثر الجنسي الذي يتم بين الخلايا الذكرية والأنثوية. وهذا تكاثر خارج الرحم بالنسبة لبعض الكائنات حتى نصل إلى التكاثر داخل الأرحام حتى ظهر الإنسان الأول الذي يسميه الوحي آدمعليه السلام، ومثل إمام الملائكة فهذه المراحل ربما تمت على الأرض بأمر الله وبإذنه وحين ظهر آدم حملته الملائكة إلى حضرة القدس وعرضه الله على الملائكة لأنه يمثل نقلة تطورية تختلف عن الأصل الذي ولد منه ويستحق التكريم لأنه مبدأ سلالة جديدة كريمة قصدت منذ البدء وكانت مراحل الخلق تهدف الوصول إليها.

ولعل ما يدعم هذا الرأي أن الآيات لا تشير إلى زوجة آدم بل تتحدث عن آدم في لحظة المثول ولا تذكر حواء إلاّ بعد أن يصل الحديث إلى السكن ﴿ *ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة...* ﴾[1].

وهذا يفسح المجال لاحتمال عدم وجود زوجة آدم في البدء وربما اختارها الله له من بين البشر المتطورين عن أجناس بسيطة أو أنهما خلقا معاً.

وهناك أيضاً احتمال آخر لجمع الرأي العلمي بالوحي وهو أن يكون آدمعليه السلام خلق مباشرة كما يتبادر من الآيات لكنه أرسل فيما بعد ليعلّم البشر الذين نشؤوا من كائنات بسيطة. ولذلك فهو نبي ولا يعقل أن يكون نبياً على نفسه ومن الناحية العلمية يكون هو الذي شكل حلقة التطور بين الكائنات البشرية الوضيعة، وبين الإنسان الحالي. أي أن هذا المخلوق السماوي كان السبب في تواصل تطور الإنسان.

وإذا تقبلنا هذا الرأي فإن مشكلة الحلقات المفقودة في نظرية التطور تحل حيث لاحظ علماء الأحياء وجود فواصل بين الأنواع فالإنسان يختلف عن

---

(١) سورة الأعراف: ١٩.

أقرب فصيلة قردية اختلافاً كبيراً رغم التشابه بينهما، وإذا كان الإنسان قد تطور عن القرود العليا فإنه من المفروض أن المخلوقات التي تقع بين القرد والإنسان موجودة ولو بشكل حفريات غير أنه لا يوجد دليل علمي على هذا الانتقال وأن حلقة الوصل بينهما مفقودة. هذه المشكلة تحل عن طريق افتراض دخول الأنواع السماوية، فآدم هنا هو الحلقة المفقودة التي حولت الكائنات البسيطة إلى كائنات متطورة، ويمكن افتراض وجود شيء مشابه بالنسبة لكل الكائنات الأخرى من قبيل حلقة الوصل بين الزواحف والطيور على سبيل المثال. غير أن هذا الجمع تواجهه استحالات عديدة وأهمها استحالة ظهور الحياة عن الجماد!! .

وبهذه الكيفية يمكن جمع رأي الخلق الفوري مع الرأي العلمي دون أن يتغير أي شيء من معالم الرأيين وحتى بالنسبة لنبوة آدم عليه السلام فإننا نفهم نبوته لأن النبوة في الواقع تكون موجهة إلى قوم ويمكن أن تكون إلى الذريّة التي تولدت منه أو إلى القوم الذين تطوروا والذين سوف يبعث إليهم آدم عليه السلام فيعلمهم وهكذا تنحل قضية زواج أولاد آدم ولا يحتاجون إلى الزواج من أخواتهم أو من حوريات الجنة وحتى صراعهم الذي سيكون من أجل خلافة آدم وليس لمجرد الزواج من أختهم كما جاء في بعض المصادر.

ففي كل الأحوال أن النص القرآني يمكن أن يبقى متطابقاً مع النظرية العلمية في جوها العام ولربما قدمت كشوفات علمية جديدة مزيداً من الضوء. إذ يحتمل أن تتغيّر هذه النظرية بعد أن كشفت الحفريات عن أن البشر الأقدمون ليسوا أقل من البشر المعاصرين من ناحية مستوى التطور.

وهناك زاوية أخرى يمكن النظر إليها بالنسبة لعدم اعتناء القرآن بالزمن فالعالم الذي تعيش فيه الملائكة مختلف عن عالم البشر من ناحية القوانين وأن

ذلك العالم لا يشكل فيه الزمن بعداً فالسرعة بمعنى قطع المسافة في وحدة زمن معينة أو حصول تغيرات وتفاعلات في وحدة زمن معينة أيضاً أي السرعة بكلا معنييها المذكورين تختلف، لأن الزمن في ذلك العالم متقلصاً أي أن الدقيقة هي أقصر من الدقيقة عندنا، فالتأريخ الإنساني بكل ما فيه من أحداث يبدو بالنسبة لعالم الملائكة أسرع بنسبة معينة يمكن التوصل إليها أو حسابها بناء على معلومات معينة، ولهذا فإن قول الله سبحانه وتعالى الذي مرّ عليه لحد الآن ألف وأربعمائة سنة تقريباً ﴿ *إنهم يرونه بعيداً* ❁ *ونراه قريباً* ﴾[1]، المقصود به يوم القيامة.

ثم إن هذا حتى لو تم بالبطء المعهود فإن السرعة قد لا تكون منظورة بل المنظور هو الطواعية أي أن معنى ﴿... *كن فيكون*... ﴾[2] هو حتمية استجابة المواد لأمر الله وبغض النظر عن أن هذه الكينونة ستحتاج إلى زمن طويل أم قصير وخصوصاً إذا فهمنا الزمن بأنه ليس بعداً من أبعاد عالم الغيب، فإن الله لا يعجل فيرى الزمن قيداً ووفقاً لما ذهبنا فإن ألف سنة ستبدو بالنسبة للملائكة ولعالم الغيب ومضة أو ساعة أو يوم، ولهذا فإن الطواعية البطيئة هي عندنا بطيئة وعندهم سريعة.

وبناءً على هذا الفرض يمكن لنا تخيل كلا الوجهين أي الطواعية الفورية أو الطواعية البطيئة بناءً على افتراض اختلاف زوايا النظر كما أسلفنا وعليه فإن وجود الفاصلة الزمنية بين لحظة الحوار في الملأ الأعلى وبين مرحلة الخلق تعني أن الله لم يباشر خلق آدم إلا بعد مرور زمن قد يطول أو يقصر، وكذلك يمكن أن تكون مرحلة الخلق ليست مرحلة واحدة بل هي مرحلة الخلق ومرحلة التسوية وبين مرحلة التسوية ومرحلة النفخ يمر زمن أيضاً.

---

(١) سورة المعارج: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة البقرة: ١١٧.

فهناك تشابه بين الفرضية العلمية وبين الرؤية الدينية، حيث أن الدين يؤكد أن آدم جاء إلى الأرض من السماء، ولكنه لا يؤكد أن خلقه كان كذلك ولا يشير إلى خلق بقية المخلوقات إلاّ حين يقول ﴿ ***هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً...*** ﴾[1].

ولا يشير بعد ذلك إلى كيفية خلق النبات والحيوان ويمكن أن نفهم ما ورد في الآية ﴿ ***ومهدت له تمهيداً*** ﴾[2]. أنه إشارة ضمنية إلى خلق جميع ما في الأرض لأنه يمهد لظهور الإنسان وبقائه.

كما أن القرآن يشير إلى أن خلق الإنسان جاء من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها ﴿ ***يا أيها الناس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نَفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً*** ﴾[3]. فإذا فهمت هذه الآية بأن المقصود منها الخلق المباشر فإنه يعني خلق آدم من حواء أو بالعكس وهذا لم تشر إليه آيات خلق آدم، وإذا فهمت بطريقة غير مباشرة فإنه يفهم بأن الحياة بدأت من الكائنات وحيدة الخلية والتي هي ليست ذكراً ولا أنثى ثم تطورت إلى إناث وذكور ثم تطورت فصارت إنساناً وأخيراً صار هذا الإنسان هو آدم وحواء عليهما السلام.

كما أن هناك تشابهاً من حيث أصل الإنسان الذي يقول القرآن أنه ﴿ ***قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصال من حمأ مسنون...*** ﴾[4]. والحمأ المسنون: هو الطين الذي اسودّ من كثرة اتصاله بالماء، وهذا أيضاً يقول به العلم وكما مر في الصفحات السابقة ولكن ليس للإنسان بل لأصل الحياة وعليه إذا فهم بطريقة غير مباشرة فإنّه أيضاً أصلاً للإنسان.

---

(١) سورة البقرة: ٢٩.

(٢) سورة المدثر: ١٤.

(٣) سورة النساء: ١.

(٤) سورة الحجر: ٣٣.

ويساعد على ذلك بأن القرآن لا يفهم في كل مرة فهماً حرفياً، فمثلاً يقول مرّة أنه خلق الإنسان من نطفة وهذا لا يعني بدءاً أنه خلق من نطفة لأن آدم لم يخلق من نطفة وأحياناً يقول خلقه من الماء ﴿ ***وهو الذي خلق من الماء بشراً...*** ﴾[1].

وهكذا يساعد الفهم غير الحرفي على أن الإنسان يمكن أن يجمع بين الآراء الصادرة من خلقه بين الرؤية العلمية والرؤية الإسلامية بدون تغير لأي رأي منهما.

الشَّيطان ونبأ خلق الإنسان

هناك ملاحظة يمكن الالتفات إليها من خلال التمعّن في الآيات تؤثر في النتيجة التي نريد الوصول إليها، وهي أن الآيات التي نقلت الخطاب لم تذكر الشيطان في هذا المقطع وهذا فيه احتمالات هي:

١ ـ أن يكون الشيطان لم يكن قد خلق في فترة الحوار، وأن الله خلقه فيما بعد بناءً على أن زمن الحوار والاخبار هو غير زمن السجود، وقد علم فيما بعد أنه سيخلق مخلوقاً ويجب عليه السجود له. وحين جاء زمن التنفيذ رفض وإذا كان حاضراً بدءاً فلماذا لم يأتِ منه اعتراض مثل الملائكة كما نقلت الآيات السابقة؟

٢ ـ أن يكون الشيطان جزءاً من الملائكة الذين خوطبوا وكان مع طبقة أخرى غير مشمولة بالخطاب لكنها مشمولة بالتكليف ولهذا عصى عندما جاءت لحظة التنفيذ.

---

(١) سورة الفرقان: ٥٤.

٣ـ أنه كان في جملة المخاطبين ولم يذكر تغليباً لأنه كان معهم ويشبههم من حيث الطبيعة المتقاربة، فالشيطان هو من الجان والجان خلقوا من نار والملائكة كما جاءت الأحاديث هم من نور وأن الجان أعطوا عهد الطاعة ونفذوا عهدهم إلا إبليس أبى ولذلك لعن وطرد وقد سماه الإمام علي ﷺ في خطبة يذم بها المتكبرين في نهج البلاغة بالملك (بذنب طرد به ملكاً).

الإخبار بخلق الإنسان

وفي هذا المقطع يلفت النظر أيضاً إخبار الله للملائكة بخلق الإنسان فلماذا يخبر جبار السموات مخلوقاته بهذا الحدث وقبل حصوله؟.

بالطبع نحن نعلم أن الله ليس في أفعاله أي فضول أو زيادة بل أن جميع أفعاله هي أفعال كمال وتأتي بالحق وبناءً على هذا فإننا سنتصور وجود حكمة ولهذا لا بد من افتراض أسباب عميقة موجبة لهذا الاخبار.

وهنا يمكن أن نتصور أولاً: أهمية هذا الإنسان على صعيد الكون خصوصاً أنه مرشح لخلافة الأرض، كما يرجّح العلاّمة الطباطبائي هذا الأمر على الأقوال الأخرى التي تقول بأن الخلافة هي خلافة الإنسان لإنسان آخر أو خلافة كل جيل للجيل الذي يليه أو خلافة الإنسان للجان الذين عمروا الأرض ثم أفسدوا فحرمهم الله من الخلافة في الأرض.

ثانياً: لابد من تصور ارتباط عملية الخلق بالملائكة خصوصاً أن الملائكة كما سيتضح فيما بعد مسؤولة عن الملكوت برمته، وأن دورهم واسع وأن إضافة مخلوق جديد يرتبط حتماً بالملائكة التي تلعب دوراً واسعاً في تدبير الوجود.

أما سبب الأهمية فيبدو أنهُ العلاقة الخاصة بين الإنسان والملائكة فهي علاقة متميزة جداً كما يتجلّى من الأحاديث التي تصدّت لبيان هذه العلاقة

والتي ستمر فيما بعد فتؤكد على أن الملائكة تلعب الدور الرئيسي في حياة الإنسان كفرد وجماعة والتي تبدأ من السجود له وتتواصل إلى يوم القيامة وبعد القيامة إلى ما شاء الله.

فهو أمر يعادل الترابط الأبدي غير القابل للانفكاك فالإنسان في الحياة الدنيا يرتبط بالملائكة وفي القيامة هي التي تؤدي كافة ما يتعلّق بالإنسان وهي معه أيضاً بعد القيامة سواء في الجنة أو الجحيم.

الاعتراض الملائكي

لا بد من تفهم دوافع الاعتراض من قبل الملائكة وهل هو اعتراض أو استفهام؟ ذلك أن الملائكة مخلوقات يصفها الله بالطاعة له ولا تعصي له أمراً إطلاقاً، فكيف يمكن أن تعترض؟ كما أن عصمة الملائكة ناشئة من انعدام الشهوة لديها وبالتالي لا دافع يدفعها للاهتمام بالشهوات على اختلافها، ولهذا يجب أن يرجح تفسير الاعتراض بأنه استفسار وليس خروجاً على قضاء الله ولهذا فإن الله رد عليهم بأن العلة تكمن في علم الله ﴿...إِنّي أعلم ما لا تعلمون﴾[1].

ويساوق هذا ما قالته الملائكة ﴿سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا...﴾[2] ذلك أن الملائكة معتادة على الاطلاع على قضايا الكون بالمقدار الذي يعلمهم الله لكن هناك الكثير من الأشياء التي لا تعلمها الملائكة، فهناك دائماً غيب ولهذا وصف الله نفسه بعلام الغيوب. وهو جمع غيب أي ما غاب عن العين أو الإدراك.

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة البقرة: ٣٢.

وأن ما ورد بصيغة اعتراض هو في الأصل استفهام عن طبيعة الاختيار مقارنةً بين طاعة الملائكة وطاعة الإنسان، فما معنى اختيار خليفة يفسق ويسفك الدماء، ولعل تشديد الله على طاعة مخلوقاته له يناقض اختياره خليفه يفسد ويسفك الدماء، إذ أن الخلافة تختلف عن الإيجاد المجرد لأن فيها معنى من التكريم، وبالتالي يمكن أن تكون الملائكة مستغربة من هذا الأمر، ولهذا فإن الردّ الإلهي جاء متعلقاً بوجود جوانب خفية على الملائكة من خصوصيات هذه المخلوقات يعلمها الله فجاء قوله تعالى: ﴿ *إني أعلم ما لا تعلمون* ﴾.

أما حكم الملائكة على هذا المخلوق بالفساد وسفك الدماء فإنّه ربما جاء لأن الله شرح لهم طبيعة هذا المخلوق الذي سيخلفهُ الله وهذا هو الأرجح، ولكن الآية لم تتعرض لهذه القضية وأن القرآن أضمرها كعادته في اضمار الكثير من الجوانب، لكنه أكد أن الملائكة مطلعين على هذه القدرة لدى الإنسان، ومما يرجح هذا الأمر ارتباط الملائكة بالإنسان وخصوصاً في عملية منع الفساد حيث تقوم الملائكة بمنع الفساد عن طريق نقل رسالات الله إلى البشر أو عن طريق الإيحاء، وكما هو معروف أن الكثير من أفكار الخير والعزم على تنفيذها تأتي من الملائكة كما أن أفعال الشر وإثارتها في النفس تأتي من الشيطان.

أو كما تقول بعض الروايات هناك دورات بشرية سبقت آدم وأن الملائكة شاهدت هذه الدورات، وهناك احتمال آخر أن الملائكة مطلعة أصلاً على اللوح المحفوظ وهو يعادل في حياة البشر بنك المعلومات، أو المشاريع المستقبلية حيث لدينا أحاديث تشير بدقة إلى هذا الأمر وهي التي تتحدث عن أن الأئمة عليهم السلام كانوا أنواراً في ساق العرش قبل خلق آدم بأزمنة بعيدة.

وكعادة القرآن يختم الحديث عن التداول بين الملائكة وبين الله سبحانه بخصوص الإنسان وينتقل إلى الحديث عنه، وهو حقيقة ماثلة بعد أن أضيف إلى الملكوت موجوداً آخر اسمه الإنسان أو ابن آدم وهنا أيضاً لا يعتني القرآن بالتفاصيل أو الزمن، إما لأنها ليست موضع الغرض أو أنها مما لا يريد الله للإنسان الاطلاع عليه وهكذا نصل إلى المقطع الثاني.

وقال تعالى: ﴿ *وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ❖ قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم ❖ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ❖ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين* ﴾[1].

آدم وحقيقة الاعتراض

إنّ أوّل ما عرضته السورة هو الرد على الاعتراض، فالله سبحانه وتعالى رغم عظمته لم يكتف باسكات الملائكة بل رد على تساؤلاتهم وبين لهم الحكمة من خلافة هذا المخلوق. ولعل الله سبحانه وتعالى رد عليهم في البداية بعدم علمهم يشبه ما فعله الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام، أي: سيأتيك الجواب في حينه ﴿ *قال فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتّى أحدث لك منه ذكراً* ﴾[2] وهكذا ترك الله سبحانه عملية تفهيم الملائكة لحكمة استخلاف آدم مؤجلة لحين تحوله إلى جزءٍ من الملكوت.

---

(١) سورة البقرة: ٣١ - ٣٤.

(٢) سورة الكهف: ٧٠.

وكان مدار الاعتراض الاستفساري هو عدم أهلية هذا المخلوق للخلافة، لأنه كما قالت الملائكة يفسد فيها ويسفك الدماء فشاء الله سبحانه وتعالى أن يثبت لهم غلط التصور السابق من خلال بيان الخصوصية التي تلغي شبهة عدم الأهلية للخلافة.

والأهلية كما تفهمها الملائكة هي العبادة والطاعة أما الأسماء فهي من متعلقات آدم وبها تثبت أهليته، ولهذا جاء في التفسير ﴿ ***قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء*** - إلى قوله - ***ونقدّس لك***﴾ مشعراً بأنهم إنما فهموا وقوع الإفساد وسفك الدماء من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ***إنّي جاعل في الأرض خليفة*** ﴾ حيث أن الموجود الأرضي بما أنه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية معرض للإخلال بالحياة. وانتظامها وإصلاحاتها في مظنة الفساد ومصب البطلان ولا تتم الحياة فيها إلا بالحياة النوعية ولا يكمل البقاء إلاّ بالاجتماع فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء.

((ولعل الفساد المراد هو الانحلال الحاصل قياساً على بقاء الملائكة، وسفك الدماء هو القتال والصراع في مقابل عدم التنازع بين الملائكة ولهذا ظنت الملائكة أنها أفضل))[1].

وقوله تعالى: ﴿ ***علّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم***﴾ مشعراً بأن هذه الأسماء أو إنّ مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء محجوبين تحت حجاب الغيب وأن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلا كانت الملائكة بأنباء آدم إياهم بها عالمين وصائرين مثل آدم مساوين معه، ولم يكن في ذلك إكرام لآدم ولا كرامة حيث علمه الله سبحانه أسماء ولم يعلمهم، ولو علمهم إياها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، ولم يكن في ذلك ما يقنعهم أو

---

(١) تفسير الميزان: ١/ ١١٥، تفسير سورة البقرة الآية: ٣٠.

يبطل حجتهم، وأي حجة تتم في أن يعلم الله تعالى رجلاً علم اللغة ثم يباهي به ويتم الحجة على ملائكة مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون بأن هذا خليفتي وقابل لكرامتي دونكم»[١].

«فقط ظهر مما مرّ أن العلم بأسماء هؤلاء المسميات يجب أن يكون بحيث يكشف عن حقائقهم وأعيان وجوداتهم، دون مجرد ما يتكفله الوضع اللغوي من إعطاء المفهوم، فهذه المسميات المعلومة حقائق خارجية، ووجودات عينية وهي مع ذلك مستورة تحت ستر غيب السموات والأرض والعلم بها على ما هي عليها كان أولاً ميسوراً ممكناً لموجود أرضي لا ملك سماوي، وثانياً دخيلاً في الخلافة الإلهية»[٢].

«فتحصّل أن هؤلاء الذين عرضهم الله تعالى على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم في العالم بخيرها وبركتها واشتق كل ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها، وأنهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعدّدون تعدد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الأشخاص، وإنما يدور الأمر هناك مدار المراتب والدرجات ونزول الاسم من عند هؤلاء إنّما هو بهذا القسم من النزول»[٣].

«وفي المعاني عن الصادق عليه السلام أن الله عز وجل علّم آدم أسماء حججه كلّها ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم فقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال الله تبارك

---

(١) تفسير الميزان: ١ / ١١٦.

(٢) تفسير الميزان: ١ / ١١٧.

(٣) تفسير الميزان: ١ / ١١٨.

وتعالى: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله عز ذكره، فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم، وقال لهم: ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»[١].

«ويناسب هذا المقام عدة من أخبار الطينة كما رواه في البحار عن جابر بن عبد الله، قال: قلت لرسول الله ﷺ: أوّل شيء خلقه الله ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير، ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً، فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وسكنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثم جعله أجزاء، فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر من جزء وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثم جعله أجزاء، فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثم نظر إليه بعين الهيبة فرشح النور وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء، والشهداء والصالحين»[٢].

فيتضح من التفسير ومن الرواية أن مدار إثبات صلاحية آدم ليس في معرفة الأسماء وقابليته للتعلم بل المدار على شيء آخر، وهو علاقة آدم بهذه

---

(١) تفسير الميزان: ١ / ١٢٠.

(٢) تفسير الميزان: ١ / ١٢١.

الأسماء وأصحاب الأسماء معروفون لدى الملائكة بحيث أن مجرد معرفة الملائكة بانتساب هذه الأسماء إلى آدم يثبت لهم مقام آدم عند الله، وهو ليس مقام يناله بدون تسبيح أو تقديس بل بها وبالطاعة والمخافة فيتفوق آدم على تسبيح الملائكة بأن هؤلاء الأشباح الذين يعرفونهم ويتشفَعون بهم دون أن يعرفوا منهم علموا أنّهم من ذرية آدم وهم بالتالي حججه على عباده.

فالرد لا بد أن يكون مداره مدار السؤال وبالتالي فهو يتعلق بنقض شبهة الفساد وسفك الدماء، ولهذا إن علم آدم أسماء ذريته ممن لا يفسدون ولا يسفكون الدماء رغم أنهم ليسوا مثل الملائكة، ففيهم الشهوة ولكنها تذوب كأنها غير موجودة فإذا ربطنا ذلك بالحديث السابق أو حديث الكساء، الذي يؤكد على أن أهل البيت عليهم السلام كانوا أنواراً في ساق العرش قبل أن يخلق الله الخلق، فمعنى هذا أن الملائكة كانوا يرون هذه الأشباح المكرمة عند الله ويعرفون أنها لمخلوقات ستخلق لكنهم لا يعرفون حقاً مَن هُم على وجه التفصيل، وحين خلق آدم عرّفه بأن ذريته سيكون منها العباد المكرمون الذين لأجلهم خلق السماوات والأرض وربما لم يعلمه هذا لغرض إحباط حجة الملائكة بل لعلاقته بالأمر وحين علم الملائكة أن هؤلاء هم ذرية آدم سجدوا له طوعاً لأنّهم منذ البدء اعتادوا التشفع بهم دون أن يعرفوا منهم ولنفس السبب نال آدم التكريم ولأنه ينطوي على تلك الحقائق المقدسة.

وعلى أية حالة فإن هذا هو توجيه للآيات وهو مدعوم بأدلة قوية وفي النهاية وفي المحصلة أن الملائكة عرفوا أن آدم يستحق الخلافة دونهم. ثم يعرض حادثة السجود بصورة منفصلة وأنها ليست جزءاً من الحدث ولعلها وقعت مقارنة لخلق آدم وقبل إثبات أهليته وكجزء من البلاء والامتحان لمدى طاعة الملائكة ومعهم الشيطان وإثبات التفاوت بين المخلوقات الرئيسة في الوجود.

المستقبل والحاضر

في الحديث السابق وأدلة أخرى يستفاد أن الحاضر والماضي والمستقبل توجد متزامنة في عالم الغيب، وأن ترشح المخلوقات من عالم الذر إلى عالم الفناء يتم بصورة تدريجية، ولعل هذا يعد أحد الخصائص الذي تميز عالم الغيب عن عالم الشهود، وهنا يجب أن نعرف أن عالم الشهود هو هذا العالم الذي يعيشه الإنسان والباقي هو عالم الغيب، والغيب نوعان: نوع ما كان لقصور حواس الإنسان، فهو إما قصور نتيجة لبعد المسافات أو قصور لأنه خارج متناول الحواس والإدراك، أما الغيب الآخر: ما يحتاج إلى كيفية خاصة للوصول إليه وهو الذي يعني اختلاف القوانين وهذه القضية التي غالباً ما كانت غير معقولة صارت في العصر الحاضر معقولة رغم أنها لا تزال فرضية قائمة على أساس وجود «الثقوب السوداء في الكون» هذه الثقوب تولد عندما تكون الجاذبية عالية بما فيه الكفاية. لا يمكن لأي شيء، حتى الضوء أن يفر منها. وعندما تصبح الكثافة والجاذبية كبيرتين بما فيه الكفاية، فإن الثقب الأسود ينتهي ويختفي من الكون. وقد سمي ثقباً أسود لأنه لا ضوء يستطيع أن يهرب منه أما في داخله حيث يكون الضوء محتجزاً فيمكن أن تكون الأشياء مضاءة بشكل رائع وحتى إذا كان الثقب الأسود غير مرئي من الخارج يمكن الإحساس بوجوده الجاذبي[1].

«إن أحد الطرق المساعدة في فهم الثقوب السوداء هي أن نفكر بانحناء الفضاء ولنتصور سطحاً مسطحاً مرناً ذا بعدين كقطعة من الورق البياني المصنوع من المطاط فإذا أسقطنا عليها كتلة صغيرة نجد أن السطح يتشوه أو

(١) الكون: ٢١٤.

يتجعّد. كرة رخامية تتدحرج حول التجعد في مدار مماثل لمدار أحد الكواكب حول الشمس وفي هذا التفسير الذي ندين به (لآنشتاين) تكون الجاذبية عبارة عن تشوه في نسيج الفضاء وفي مثالنا نرى فضاء ذا بعدين ملفوفاً بكتلة تشكل بعداً مادياً ثالثاً، وتصوروا أننا نعيش من كون ثلاثي الأبعاد. وقد شوّه محلياً بواسطة مادة ما إلى بعد مادي رابع لا نستطيع أن ندركه بشكل مباشر كلما ازداد حجم الكتلة المحلية ازدادت شدة الجاذبية المحليّة وازدادت بالتالي حدة تجعد أو تشوه أو التفاف الفضاء وفي هذا التشبيه يكون الثقب الأسود نوعاً من الحفر التي ليس لها قعر فماذا يحدث لو سقطت فيه؟ إنك ستحتاج حسبما يُرى من الخارج إلى فترة زمنية لا نهائية للسقوط لأن كل ساعاتك الميكانيكية والبيولوجية سوف تبدو بشكل طبيعي. وإذا استطعت بشكل ما أن تنجو من المد والجزر الجاذبين ومن التدفق الإشعاعي. وإذا كان الثقب الأسود يدور في مكان آخر من المكان فمن الممكن تماماً أن نخرج من الطرف الآخر للمكان ـ الزمان، في مكان آخر من المكان، وفي زمن ما آخر من الزمان، ومع أن افتراض وجود هذه الثقوب الدودية في الفضاء التي تشبه قليلاً الثقوب التي يفتحها الدود في التفاحة كان قد قدم بشكل جدي ولكن لم يكن ممكناً إثبات وجودها بأي شكل. فهل يمكن لأنفاق الجاذبية أن تقدم نوعاً من الطرق التحتية بين النجوم أو بين المجرات تسمح لنا بالسفر إلى أماكن لا يمكن الوصول إليها بسرعة أكبر مما يتاح لنا في الطرق العادية؟

وهل يمكن للثقوب السوداء أن تقوم بدور ماكينات الزمان التي تحملنا إلى الماضي السحيق أو إلى المستقبل النائي؟ إن واقع مناقشة هذه الأفكار يبين لنا مدى السريالية التي يمكن للكون أن يكون متسماً بها»[1].

---

(١) الكون: ٢١٦ ـ ٢١٧.

فالكون ووفق بعض الفروض يمكن أن يكون منفتحاً على الماضي والمستقبل إلا أن العلم لم يستطع لحد الآن أن يؤكد أو ينفي هذه الفرضيات لأن بينه وبين الوصول إلى الثقوب السوداء والعبور منها إلى عوالم أخرى صعوبات تقرب من الاستحالة لكن الدين يؤكد هذه القضية في مواضع كثيرة ومنها وجود الأئمة عليهم السلام قبل خلقهم وإذا كان قد تحدث عن الأئمة فهذا لا ينفي أن المستقبل برمته موجود ولهذا السبب فإن القرآن أخبرنا بعدد من الوقائع المستقبلية وكذلك النبي أخبر ووقعت الحوادث كما أخبر القرآن والرسول صلى الله عليه وآله.

وفي النهاية يستفاد بأن عالم الغيب ليس فيه القوانين التي نتعامل بها، وأنه يختلف بصورة أساسية رغم وجود تشابه من بعض المعالم بين العالمين بل بناءاً على فرضية الدورات أن الانفجار الكبير الذي ولد فيه الكون هو ليس نهاية فحسب بل هو بداية لدورة جديدة ويكون الكون يعيش تمدد وتقلص متوالية، فعلى هذه الفرضية «فإن مسائل أغرب سوف تنشأ أيضاً ويظن بعض العلماء أنه عندما يعقب التقلص التمدد، وعندما تتغيّر أطياف المجرات البعيدة كلها نحو اللون الأزرق فإن السببية سوف تعكس اتجاهها وتسبق النتائج الأسباب، فموجات الماء تنتشر من نقطة ما على سطحه أولاً ثم ارمِ الحجر في البركة. والمصباح الكهربائي يضيء أولاً ثم أشعله ولا تستطيع الادعاء إننا نفهم ماذا يعني عكس هذه السببية. فهل سيولدون عندئذٍ في القبر، ويموتون في الرحم؟ وهل يسير الزمن إلى الوراء، وهل لهذه الأسئلة أي معنى؟»[1].

---

(١) الكون: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

ووفق هذه التصورات فإن الكون وتبعاً لهذا المستوى الذي يلوح للناس أكثر غرابة مما يمكن تصوره يشير إلى تغير القوانين أو انقلابها وأن كل ذلك سيغدو محتملاً بناءً على فروض علمية محترمة ولكن لا يسع العلم في هذا الطور إثباتها بشكل تجريبي.

العلاقة بين الأجناس الثلاثة

لقد جاء الإعلان وبعده الأمر بالسجود ليرسم إطار العلاقة بين الله ومخلوقاته الرئيسة من جهة وبين هذه المخلوقات مع بعضها البعض ولعل هذا هو الهدف من الإعلان، فالسجود يعني الحب للإنسان والتبجيل والطاعة لله سبحانه وتعالى، وهنا ترابط بين طاعة الله ومحبة الإنسان، وبالعكس بين طاعة الإنسان لله ومحبة الملائكة.

فهذه العلاقة نشأت منذ لحظة تجسد الإنسان كمخلوق حي يتحرك وما يترتب على وجوده من وظائف، ومهام تقوم بها الملائكة، فالملائكة كما تشير الآيات والأحاديث وكما سيأتي أنها حضن للإنسان غير حضن الطبيعة بل إنها أيضاً حضن للطبيعة، وهي تحافظ على الطبيعة وحركتها باعتبارها حضناً مادياً للإنسان، كما تحافظ في نفس الوقت على الإنسان وتعنى ببقائه وفي تطوره الروحي والفكري وليس كالطبيعة التي تعنى بالجسد والحواس.

الملائكة أجناس متعدّدة

هناك آيات وأحاديث تنفي وحدة جنس الملائكة وتؤكد تعدد أجناسهم بناءً على معطيات كثيرة منها اختلاف الأجنحة وأنحاء البدن وإذا وضعنا نصب أعيننا معايير التصنيف بالنسبة للبشر فإننا نستطيع أن نحكم بهذا التعدد.

فالبشر حين يختلفون في لون البشرة وقسمات الوجه وتجاعيد الشعر فإنهم ينقسمون إلى ثلاثة أجناس رئيسية: وهي الجنس الأبيض، والأصفر والأسود. ولعلنا ومن خلال الأحاديث والآيات نجد تفاوتات من هذا النوع عند الملائكة ولهذا يمكن لنا أن نقول أنّهم أصناف.

قال الرسول ﷺ: الملائكة على ثلاثة أجزاء: فجزء لهم جناحان، وجزء لهم ثلاثة أجنحة، وجزء لهم أربعة أجنحة[1].

بيان: لعل المراد أن أكثر الملائكة كذلك، فلا ينافي ما ورد من كثرة أجنحة بعض الملائكة.

إذا حمل الحديث على أنه أكثر الملائكة هم بهذه الكيفية فإنه يعني أن الأجناس الرئيسة منهم، كذلك وأغلب الباقين كعظماء الملائكة الذين ورد ذكرهم كجبرائيل الذي له ستمائة جناح فإنهم أقلية إما بحكم الوظائف المتعلقة بهم، أو بحكم كونهم جنساً، أو أجناساً قليلة العدد، أو لنفرض التنويع في الخلق والإبداع الدال على كمال الخلق. وقد أشارت الأحاديث إلى التفاوت بين الملائكة أو النظام الهرمي. ويمكن أن نتخيل وجود علاقات تشبه علاقات النحل، حيث أن ذكر النحل والإناث قليلون جداً بالنسبة إلى

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٧، عن الخصال.

العاملات، كما أنها تختلف في الحجم والوظيفة، وحتى في نوعية الغذاء مع أن الجميع داخل ضمن النحل.

ويمكن تصور أن الكثرة هي من طبقة تشبه طبقات العاملات، وربما أن طبقة الملائكة العاملة هي من هذه الأجناس الثلاث. وهناك نوعيات خاصة منهم عظماء الملائكة، وربما سواهم ممن لم يرد ذكرهم بالقرآن أو الأحاديث لأن آية ﴿... *وما يعلم جنود ربك إلا هو*...﴾[1] فيها دلالة على أن هناك الكثير مما يبقى غيباً من الجنود أو سواهم.

الثلج والنار

وردت أحاديث أشارت إلى أن بعض ملائكة الله هم مركبون من الثلج والنار وهؤلاء هم جنس وليس فرداً، والحديث الذي أثبت أنهم جنس هو الآتي:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن لله تبارك وتعالى ملائكة أنصافهم من برد، وأنصافهم من نار، يقولون «يا مؤلفاً بين البرد والنار ثبّت قلوبنا على طاعتك»[2].

وقد بين الحديث أن ملك الثلج والنار ليس ملكاً واحداً لأن الوصف جاء بلفظ الجمع رغم أنه لم يتطرق إلى وظيفة هذه الملائكة لكنه أشار إليها في مواضع أخرى.

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٠، عن التوحيد.

الأجسام المختلفة

وهنا سنذكر نماذج من تفاوت أجسام الملائكة تفاوتاً كبيراً يوحي بأن كل شكل خاص بملك إنما هو خاص بجنس من الملائكة، كما أن الشيء المهم والذي يجب الفات النظر إليه هو أن أجسام الملائكة ليست حالة ثابتة، فهي تتغير تبعاً لمشيئة الله، وتبعاً لبعض ما يوجب ذلك من موجبات الرفع أو الوضع كما سيأتي لاحقاً في حديث قادم.

وهذا الحديث الآتي يوضح شكل أحد الأجناس كما يلي:

عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن لله ملكاً رجلاه في الأرض السفلى مسيرة خمسمائة عام ورأسه في السماء العليا مسيرة ألف سنة يقول: «سبحانك حيث كنت فما أعظمك. قال: فيوحي الله عز وجل إليه: ما يعلم ذلك من يحلف بي كاذباً»[1].

فهذا النوع من الملائكة يستوعبون الكون من الأرض السفلى إلى السموات العليا، وهذا شكل جديد لم يرد وصفه في الأحاديث السابقة وإن جاء وصف ما يشبههُ وهو مندرج ضمن الإشارة إلى عظمة خلقة الملائكة، وكون هذه المخلوقات العظيمة لا تعلم بعظمة خالقها، وأنها رغم عظمة خلقتها فإنها تعلم بضآلة وجودها بالنسبة للخالق ، ولكن لفظة (كنت) في الحديث لا يراد بها الإشارة إلى المكان، لأن الله لا يحد بمكان ولا يقال كان هنا أو هناك فإن ذلك يعني أنه لم يكن هناك وهذا بالنسبة لله عز وجل محال ولهذا فإن المقصود به مهما كانت عظمته.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٧، عن الكافي.

وأخيراً عرج على أهل المعصية ويحلفون به كذباً بلغوا درجة من الجهالة والعماء والضلال أنهم يعمون عن عظمة خالقهم وهو الذي يستوعب السماوات والأرض مخلوق واحد من مخلوقاته وهذا المخلوق حيران بعظمة خالقه وعاجز عن الوصول إلى شيء من وصفه.

لكن عظمة الخلقة هي صفة عامة لجميع الأجناس، وقد جاء هذا في الحديث التالي:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن لله تبارك وتعالى ملكاً بُعد ما بين شحمة أذنه إلى عنقه مسيرة خمسمائة عام خفقان الطير[1].

بيان: قال الجوهري: خفقت الراية وتخفق خفقاً وخفقاناً، وكذلك القلب والسراب: إذا اضطربا، ويقال: خفق الطير أي طار، وأخفق إذا ضرب بجناحيه.

لقد ورد هذا الحديث ضمن توضيح كون الملائكة هم ذوو خلقة عظيمة وإن الأبعاد الهائلة التي لهم لا تقاس على الأبعاد المعروفة وإذا كانت الفاصلة بين شحمة الأذن والعنق هي بهذا البعد فكم هي الأذن وكم هو الرأس وأوصال الجسم إذا قسنا ذلك على أبعاد الإنسان أما إذا لم تكن أبعاد الإنسان هي التي تقاس عليها فهذا يعني إمكان أن تكون النسب مختلفة ومع ذلك فإنها هائلة أيضاً ويترتب عليه أن نفك الارتباط في تصورنا لذلك العالم مع عالمنا.

ولدى المقارنة بين أجسام الملائكة والطبيعة فإننا سنعرف أن هذه الأبعاد الكبيرة جداً هي صفة لعالم الأسماء ولعل العلم والوحي من هذه الجهة متحدان فالعلم يشير إلى أبعاد مقاربة لتلك التي حددها الوحي.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٠، عن التوحيد.

عن زيد ابن وهب، قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قدرة الله جلت عظمته، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن لله تبارك وتعالى ملائكة لو أن ملكاً منهم هبط إلى الأرض ما وسعته لعظم خلقه وكثرة أجنحته، ومنهم من لو كلفت الجن والإنس أن يصفوه ما وصفوه لبعد ما بين مفاصله وحسن تركيب صورته، وكيف يوصف من ملائكته من سبعمائة عام ما بين منكبيه وشحمة أذنه ومنهم من يسد الأفق بجناح من أجنحته دون عظم يديه ومنهم من في السموات إلى حجزته ومنهم من قدمه على غير قرار في جو الهواء الأسفل والأرضون إلى ركبتيه، ومنهم من لو ألقي في نقرة إبهامه جميع المياه لوسعتها، ومنهم من لو ألقيت السفن من دموع عينيه لجرت دهر الداهرين، فتبارك الله أحسن الخالقين[1].

إذا كانت دموع عينيه تجري بها السفن إلى أبعاد بعيدة تستعصي على الحصر، فهذا يدل على أن الفضاء يمتد إلى آفاق بعيدة جداً أكبر من أن تحصر أو تحصى إلى جانب أن للملائكة عيون تدمع كعيون البشر.

ثم إن هذه الأحجام الكبيرة بهذا العدد الهائل يجعل من الكون خارج حد التصور ويطرح سؤالاً كيف يمكن أن هذا الكون المادي المعروف بأبعاده الفعلية الهائلة مرتبطاً بذاك العالم الذي تكون أبعادهِ أكبر من الكون المادي؟ لكي نتصور هذا الأمر لا بد من افتراض انتظام الكون في طبقات وأن عالمنا الفعلي هو مجرد طبقة منه تشترك معه في بعض المعالم والصفات والقوانين وتتفاوت مع الطبقات الأخرى كذلك في الصفات الأخرى والقوانين بنسب مختلفة.

ويشترك العلم مع الوحي في تأكيد امتداد الفضاء إلى أبعاد لا متناهية ولكن ليس بالضرورة أن الأبعاد التي يشير إليها العلم هي نفس الأبعاد التي

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٧، عن التوحيد والخصال.

يشير إليها الوحي، فلعل العلم يشير إلى الأبعاد المحسوسة أو التي بحكم المحسوس مؤكداً وجود كواكب ونجوم أكبر من الشمس بملايين المرات، وتبعد عنا بملايين السنين الضوئية ومع ذلك فهو يؤكد أن خارج هذه الدائرة المقدرة، امتداداً هائلاً لا يصل إليه التقدير.

أما الوحي فإنه يصف لنا سعة الكرسي بأوسع من سعة السموات والأرضين، وهذا بلا شك بعد هائل ولا بد له من فضاء أوسع منه، فيكون فضاء الوحي بالصورة هذه فقط ضعف الكون المعروف، فضلاً عن أن الآيات تشير إلى أن السماء بحال توسع مستمر ﴿ ***وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ*** ﴾[1] ونفس الأمر يؤكده العلم.

لكن الحديث يصور لنا ملكاً أكبر من الأرض وهو ليس ملكاً واحداً بل هم أصناف من الملائكة كما جاء في الروايات أكثر من تراب الأرض، كما أن منهم من لا تستطيع وصفه الجن والإنس مجتمعة لبعد مفاصله، وهو كذلك ليس واحداً بل أعداد كبيرة. أو على فرض إمكان التداخل بين الأجسام الشفافة فإن الفضاء المادي المعروف، يمكن أن يحتوي الجميع وعلى فرض تداخل الشفافة مع الأجسام غير الشفافة فإن النتيجة ستكون كذلك، إما على فرض عدم التداخل فإن الامتداد أكبر من أي خيال.

عدم ثبات خلقة الملائكة

ويدل على هذه الحقيقة الحديث الوارد في «إكمال الدين» عن مجاهد، قال: قال ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن لله تبارك وتعالى ملكاً يقال له «دردائيل» كان له ستة عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

هواء، والهواء كما بين السماء والأرض، فجعل يوماً يقول في نفسه: أفوق ربنا جل جلاله شيء؟ فعلم الله تبارك وتعالى ما قال، فزاده أجنحة مثلها، فصار له اثنان وثلاثون ألف جناح. ثم أوحى الله عز وجل إليه أن طر، فطار مقار خمسمائة عام. فلم ينل رأسه قائمة من قوائم العرش، فلما علم الله عز وجل أتعابه أوحى إليه: أيها الملك عد إلى مكانك فأنا عظيم فوق كل عظيم وليس فوقي شيء ولا أوصف بمكان، فسلبه الله أجنحته ومقامه من صفوف الملائكة، فلمّا ولد الحسين عليه السلام هبط جبرائيل في ألف قبيل من الملائكة لتهنئة النبي صلى الله عليه وآله فمر بدردائيل فقال له: سلْ النبي صلى الله عليه وآله بحق مولوده أن يشفع لي عند ربي، فدعا له النبي صلى الله عليه وآله بحق الحسين عليه السلام فاستجاب الله دعاءه ورد عليه أجنحته ورده إلى مكانه.

بيان: «أفوق ربنا» لعله كان ذلك بمحض خطور البال بغير شك، لئلا ينافي العصمة والجلالة[1].

وفي هذا الحديث دلالات رئيسية وأخرى فرعيّة فأما الدلالات الرئيسية فهي أن خلقة الملائكة ليست ثابتة (الأجنحة ومعها المقام) وهو طبعاً بما لا ينافي العصمة. فجميع الملائكة معصومة لكن لها بعد العصمة درجات، والدلالة الأخرى هي أن الملائكة لها مستويات مختلفة في معرفة الله سبحانه وتعالى، وجميعها تعتمد على الوحي، وإنهم يتوهمونه كما يتوهمه البشر ويرسمون له صورة في أذهانهم بحسبهم.

أما الدلالات الفرعية فهي كثيرة منها أن الملائكة تسعى إلى معرفة الله، ويدل على ذلك تساؤلهم (أفوق ربنا شيء) فالملك يسأل إما عن قدرة الله، أو عن مكانه. أما بالنسبة للأمكنة فمن غير المحتمل أن يفترض الملك أن لله فوق

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٤ ـ ١٨٥.

أو تحت، وأما بالنسبة للقدرة فإنها كذلك. وهكذا يكون معنى السؤال هل يمكن أن يكون فوق قدرة الله شيء؟ وهذا محظور، لاحتمال من باب (ليطمئن قلبي) ولهذا فإن الله أرى هذا الملك بعض من معالم قدرة الله.

وهناك دلالة فرعية حول الفاصلة الكبيرة جداً بين العرش وبين السماوات والأرضين، وأن للعرش قوائم والدلالة الكلية هي الامتداد بين هذه العوالم، وأن العرش عالم آخر كبير جداً، مثل الكرسي الذي يسع السموات والأرض.

كما أن الحديث يدل على ارتباط مكانة الملائكة ارتباطاً مباشراً بعملية التنزيه كما أن الخلقة متغيرة تبعاً للمكانة وأن العلاقة بين الله والملائكة علاقة محبة، وحين يخطئ الملك في التنزيه لا عن قصد فإن مكانته تتغيّر فيعلّمه الله علماً كما فعل مع هذا الملك، إذْ أتاح له التغير كي يعلم عظمة خلق الله فيعلم منها خطأ التوهم ولما علم طرد من مكانته السابقة واللاحقة معاً.

وهكذا نطل على الارتباط بين التسبيح ومكانة الملك ونفهم كيف أن الملائكة هم في حال تسبيح دائم، ولعل ذلك يعني الحصول على درجة أعلى حين يأتيهم الله بالرضى أو بالسخط. وربما يكون الخوف من ضياع المكانة والقرب أحد أهم أنواع الخوف عند الملائكة، والتي قد يترتب عليها حال من فقدان اللذائذ التي يكرم بها الملائكة والتي يمكن افتراضها بناء على أن اللذة ليست محصورة باللذات الحسية، بل هناك اللذات الروحية التي قد تكون الملائكة تحصل عليها لأن الله كريم ولا يعقل أن يبخل على أقرب خلقة منه وأعبدهم له في الكرامات والعطايا التي لا ندركها نحن بحكم ارتباطنا بالأجساد على أن العُبّاد من البشر أيضاً يستشعرون لذة القرب في قلوبهم ولذة المناجاة كما تشير إلى ذلك أحاديث عدّة، ويمكن أن تكون منح الله للملائكة بصيغة مشابهة، وقد لا يكون أي شيء من ذلك.

وهنا أيضاً إشارة إلى الشفاعة فالنبي ﷺ تشفّع لهذا الملك المتقرب بالحسين ﷺ، وأن الله استجاب للمتشفّع بالحسين واستجاب لدعوة الرسول ﷺ، وكل ذلك يفيد عظم مكانة الحسين ﷺ وجده ﷺ عند الله وأنهم يشفعون لسكان السماء والأرض، وبالتالي جدير بالناس البحث عن سر هذه المكانة، عدا عن الصورة الظاهرية التي توحي بها الآيات والأحاديث، فإنها لا بد أن تنطوي على أسرار خاصة ترتبط بصميم الخلقة والوجود لأن الله سبحانه وتعالى لا يفعل إلا كل حكيم وعدل حتى لو كان مؤطراً بالكرم والعطاء الجزيل.

((إن لذّات الملائكة هي العقلية لا غير، ولذّات البهائم هي الحسية فقط. وحال الملائكة ألذ وأبهج من حال البهائم وكذا الألم العقلي أشد وأقوى من الألم الحسي))[1].

الثلج والنار جنس تحته أنواع

جاء ذكر الملك الديك مرتبطاً بآية ﴿... *والطير صافّات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه*...﴾[2] في الحديث قد يفسر ما أوردناه من وجود الذكر القهري الذي يشمل جميع المخلوقات على ما جاء في الحديث ما عدا الإنسان لأن الديك تسمعه جميع المخلوقات فتعلم صلاتها وتسبيحها، فيكون ذكر الطير دون سواه من المخلوقات ذكراً للنموذج الأجلى أو الأقرب، والطير هي التي تسمع قبل سواها يسمع بدءاً قبل سواه من المخلوقات، أو لوجود سبب اقتضى ذكره دون سواه في الآية لكنه في الحديث ذكر المخلوقات أجمع وهو تفسير للآية.

---

(١) مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين: ١٤٠.

(٢) سورة النور: ٤١.

ويختلف هذا الحديث عن حديث آخر في الإشارة إلى وجود جناح من الثلج وجناح من نار ولم يذكر الزغب ولا الريش، وفصل في الذكر الذي تردده الملائكة والكائنات وكجزء منه ذكر أهل البيت عليهم السلام.

أما باقي العالم فهي متحدة، فهو الذي تتبعه ديوك الأرض، كما أنه عظيم الخلقة بنفس الكيفية وهذا يجعلنا نفهم أنه لا يتقاطع مع الأجرام الأخرى ربما لأنّه شفاف فتنفذ فيه الأجرام أو بالعكس أنه قادر على النفاذ فيها.

أما مسألة الريش فهل هو كريش الطير، أم أنه يسمى ريشاً لشبه ما بريش الطير تماماً مثل ذكر الجناح أو العين واليد؟ وهذا طبعاً أرجح لأن الملائكة مخلوقات نورانية شفافة ولا بد أن الريش أو الأعضاء هي من نفس طبيعة بدن الملائكة وهكذا يكون الحديث مجرد توضيح وتفصيل في الحديث السابق، ويبين لنا أن التركب من الثلج والنار ليست حالة مفردة كما أشار إليها المقطع السابق بل إن الملك الديك هو الحالة الأخرى، وهكذا يمكن لنا تصور جنس أو أجناس من الملائكة بهذه الكيفية بدليل اختلاف المهام التي أوكلت للملك الأول وهو الأشراف على أكناف الأرضين وأطراف السماء وبغض النظر عن قيامه بذلك عن طريق الواسطة أو بنفسه مباشرة، أما الملك الديك فهو يسبح فيثير تسبيحه ديوك الأرض ولعلَّ هذا أيضاً ليس خاصاً بالديوك بل هو بالطيور عموماً بعد أن ربط الحديث بين هذا الملك وبين الآية التي أوردها في ذيل الحديث، حيث عممت بذكر كافة الطير ولم تخصص بذكر الديك.

التسبيح الإرادي والقهري

وفي الحديث الوارد في العيون يمكن أن نتتبع تنوّع التسبيح فضلاً عن احتمال وجود نتائج مترتبة على كل منهما. عن دارم بن قبيصة، عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((إن لله ديكاً عُرُفه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى إذا كان في الثلث الأخير من الليل سبّح الله تعالى ذكره بصوت يسمعه كل شيء ماخلا الثقلين الجن والإنس، فتصيح عند ذلك ديكة الدنيا))(١).

ويمكن لنا الوصول إلى فهم هذه القضية من خلال مقدّمات هي:

أولاً: إذا كان معروفاً لدينا أن الجن والإنس هي من المخلوقات التي تسبح الله طوعاً واختياراً دون باقي المخلوقات.

ثانياً: إن الحديث أشار إلى أن جميع المخلوقات تسمع هذا التسبيح ما عدا الجن والإنس.

ثالثاً: إذا كان الكون ليس فيه زائد أو فضول فإن سماع كل الكائنات دون الجن والإنس يرتبط بفائدة معينة.

وإذا أردنا أن نفترض هذه الفائدة فإننا نستطيع القول، أن جميع الكائنات ترتبط بهذا الملك من خلال الصوت فتصيح بصياحه وتسبّح مع تسبيحة ما عدا الجن والإنس. ويرتبطون به ارتباطاً غير مباشر من خلال صياح الديكة، ترتبط به بالواسطة وهذا الفرق يمكن أن نعزوه إلى أن هذه الكائنات تسبّح اختياراً، أما بقية الكائنات فتسبح قهراً.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٧٨ - ١٧٩.

وإذا أردنا أن نفترض أن التسبيح من لوازم الطاعة، فإن الطاعة ستكون هي الهدف وأن الإعلان عنها يتم من خلال التسبيح.

وهكذا فإن هذا الملك سيكون هو المشرف على تلقين المخلوقات تسبيحها ضمن مقاطع زمنية محدّدة، وهذا طبعاً إشارة إلى هيمنة الملائكة على الطبيعة، وهو شكل من أشكال التدبير الذي يمثل المهمة الرئيسة لها في الوجود.

وإذا كان الصوت هو عبارة عن ذبذبات معيّنة يسمعها الإنسان إذا كانت في حدود الذبذبات المسموعة فإن تسبيح هذا الملك سيكون خارج هذه الذبذبات، إمّا لأن أطوال موجاتها أطول أو أقصر.

وتكون الدلالة أن هذا الملك يطلق ذبذبات معيّنة تصل إلى جميع الموجودات، ولفظ جميع يدل على الأحياء والجمادات. وهكذا فإن الدلالة الأعمق تعكس نظام سيطرة يشرف عليه هذا الملك وأنه يصدر ذبذبات معيّنة تتم بواسطتها السيطرة على جميع أجزاء الطبيعة ما عدا الإنسان والجان لأنهما إراديان ومختاران في جميع أفعالهما.

وهذا الأمر يفتح أفقاً إلى فهم الكثير من الحركات المنظمة في الكون، وبعبارة أخرى احتمال كون هذا الملك يسيطر على الكون بواسطة هذه الإشارات فيكون دوره العمل كنظام سيطرة العمليات الكونية الكثيرة، التي ربما تتم بنفس الطريقة، فإن الآية التي تقول أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ربما لمحت إلى التعقيد في خلقها وبقاءها أن حاجتها إلى نظام سيطرة معقد ذلك أن الأخطاء تكون كارثية، ولهذا فإننا نفترض أن هذا الامتداد والتعقيد في الكون يحتاج إلى نظام سيطرة دقيق، ولعله يتم بهذه الطريقة التي أشار إليها الحديث أي الإشراف من خلال مراكز على الفعاليات

وينسجم مع هذا الفهم كون هذا الملك المشرف ممتد على رقعة واسعة جداً بين السموات والأرض كما يصفه الحديث.

ويمكن التوصل إلى أبعاد أخرى من خلال التمعّن في الأحاديث الآتية:

عن الأصبغ، قال: جاء ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين والله أن في كتاب الله تعالى لآية قد أفسدت عليّ قلبي وشككتني في ديني! فقال له عليه السلام ثكلتك أمك وعدمتك وما تلك الآية؟ قال: هو قول الله تعالى: ﴿ *والطير صافّات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه* ﴾ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا ابن الكوا: إنّ الله تعالى خلق الملائكة في صور شتى. ألا أنّ لله تعالى ملك في صورة ديك أبج أشهب، براثنه في الأرضين السابعة السفلى، وعرفه مثني تحت العرش، له جناحان: جناح في المشرق، وجناح في المغرب واحد من نار والآخر من ثلج. فإذا حضر وقت الصلاة قام على براثنه ثم رفع عنقه من تحت العرش ثم صفق بجناحيه كما تصفق الديوك في منازلكم، فينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً سيد النبيين، وأن وصيه سيد الوصيين وأن الله سبوح قدوس رب الملائكة والروح. قال: فتخفق الديكة بأجنحتها في منازلكم فتجيبه عن قوله، وهو قول عز وجل: ﴿... *والطير صافّات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه*...﴾[1] من الديكة في الأرض.

بيان:(ديك أبج) في بعض النسخ بالباء الموحدة والجيم. وهو واسع مآقي العين ـ ذكره الجوهري ـ وفي بعضها بالحاء المهملة من البحة وهي غلظة الصوت وقد مر في التفسير «أملح» والملحة بياض يخالطه السواد، فالأشهب تفسير، إذ الشهبة بياض يصدعه سواد، والبرثن الكف مع الأصابع، ومخلب الأسد. والصفق الضرب يسمع له صوت[2].

---

(١) سورة النور: ٤١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: قال: إن لله تبارك وتعالى ديكاً رجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه عند العرش باقي عنقه تحت العرش، وملك من ملائكة الله خلقه الله تعالى ورجلاه في تخوم الأرض السابعة مضى مصعداً فيها مد الأرضين حتى خرج منها إلى أفق السماء ثم مضى فيها مصعداً حتى انتهى قرنه إلى العرش وهو يقول: سبحانك ربي. ولذلك الديك جناحان إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب. فإذا كان في آخر الليل نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح وهو يقول: سبحان الله الملك القدوس الكبير المتعال، لا إله إلا هو الحي القيوم. فإذا فعل ذلك سبّحت ديكة الأرض كلها وخفقت بأجنحتها، وأخذت في الصراخ، فإذا سكن الديك في السماء سكنت الديكة في الأرض، فإذا كان في بعض السحر نشر جناحيه فجاوزا المشرق والمغرب وخفق بهما وصرخ بالتسبيح سبحان الله العزيز سبحان الله العظيم، سبحان الله العزيز القهار، سبحان الله ذي العرش المجيد، سبحان الله ذي العرش الرفيع. فإذا فعل ذلك سبّحت ديكة الأرض، فإذا هاج هاجت الديكة في الأرض تجاوبه بالتسبيح والتقديس لله تعالى، ولذلك الديك ريش أبيض كأشد بياض ما رأيتهُ قط، له زغب أخضر تحت ريشه الأبيض كأشد خضرة ما رأيتها قط. فما زلت مشتاقاً إلى أن أنظر إلى ريش ذلك الديك.

بيان: قال الجوهري: «التخم منتهى كل قرية أو أرض. والجمع تخوم »أو ملك» أي وهو ملك. وفي بعض النسخ «وملكاً» فيكون عطف تفسير لقوله «ديكاً» والصراخ: الصوت. والزغب: الشعيرات الصفر على ريش الفرخ[1].

وفي رواية عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن لله عز وجل ديكا رجلاه في الأرض السابعة وعنقه مثنية تحت العرش، وجناحاه في الهواء إذا كان في

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨١ ـ ١٨٢.

نصف الليل أو الثلث الثاني من آخر الليل ضرب بجناحيه وصاح: سبوح قدوس، ربنا الله الملك الحق المبين، فلا إله غيره رب الملائكة والروح. فتضرب الديكة بأجنحتها وتصيح»[١].

عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين: إن لله ملكاً في صورة الديك الأبج الأشهب براثنه في الأرض السابعة وعرفه تحت العرش له جناحان جناح بالمشرق وجناح بالمغرب فأما الجناح الذي في المشرق فمن ثلج، وأما الجناح الذي في المغرب فمن نار، وكلما حضر وقت الصلاة قام على براثنه ورفع عرفه من تحت العرش ثم أمال أحد جناحيه على الآخر يصفق بهما كما تصفق الديكة في منازلكم فلا الثلج يطفئ النار ولا الذي من النار يذيب الثلج ثم ينادي بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، وأن وصيه خير الوصيين، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، فلا يبقى في الأرض ديك إلا أجابه ، وذلك قوله ﴿ ***والطير صافّات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه*** ﴾[٢].

أما بالنسبة لهذا الديك الملك فقد صرح الحديث بأنه يصفق بجناحيه عند كل صلاة دون إشارة لتخصيص ذلك بصلاة الصبح لذا يرد احتمال أنهما أكثر من ملك، لأنه قد ورد أنهم أجناس فضلاً عن الاختلاف في اللون فقد مر في حديث سابق وحديث المعراج أنه ذو ريش ناصع البياض وهنا ذكر أن ريشة أملح.

كما أن رأسه مثني تحت العرش وبراثنه في الأرض السابعة السفلى وذكر السفلى هنا فيه دلالة غير التي في الدنيا فهناك القرب والبعد أو الخسة والرفعة

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٤.

لكن السفلى هي التي تقارن العليا، وهذا سيفرض علينا افتراض وجود مركز يحدد من خلاله الأسفل والأعلى وبالتالي لابد من فهم القضية بطريقة تساوق ما مر من افتراض الكروية بالنسبة للطبقات. بحيث يكون مفهوم السماء مقصود به جزء محدد من الفضاء بالنسبة إلى جرم معين كالأرض الأولى أو الأرض الثانية إلى السابعة أو بالعكس فإن النسبة تكون تبعاً للسماء.

وجدير ذكره أن الآيات لم تذكر أن الأرضين فيها بشر مثلنا أو أنها خالية من السكان بحيث أن التطرق إلى ذكر هذه الأرضين جاء لأنها تشترك مع أرضنا في الملامح التي تسمح بقيام حياة فيكون معنى الآية ﴿ *والأرض وضعها للأنام* ﴾[1] شاملاً بعمومه الأرضين، أو أن الذكر جاء لمجرد الإشعار بوجود جرم شبيه بالأرض ويترتب على كل من المعنيين فرقاً إذ على الثاني سيصدق لفظ أرض على أي جرم وبالتالي فجميع الأجرام المتكونة من حجارة ومعادن مقصودة بالذكر فيتسع مفهوم الأرض الوارد في القرآن ليشمل أي جرم وبغض النظر عن كونه مسكون بالإنسان أم لا.

وهكذا يمكن أن نفهم أن هذا الجنس من الملائكة متخصص بإطلاق إشارات التسبيح فبعضها لصلوات النهار وبعض لصلوات الليل وتحديد الأزمنة، أو لعل العكس هو الصحيح حيث أن الزمان يحدده إطلاق الإشارة من الملك.

ويلفت النظر هنا أن هذا الملك إذا نشر جناحيه جاوز المشرق والمغرب وهذا طبعاً يعني أنه يخرج عن إطار الحدود المعروفة لامتداد الأشعة المرئية التي تحدث ظاهرة الشروق والغروب.

فإذا كانت هذه الظاهرة منسوبة إلى أرض معينة فهذا معناه امتداد الجناحين إلى خارج النظام الشمسي أو الأنظمة الشمسية التي تقع فيها الظاهرة.

---

(١) سورة الرحمن: ١٠.

ثم إن هذا الحديث يشير إلى تعدد مد الجناح وإطلاق التسبيح وهذا فيه دلالة مختلفة عن دلالته السابقة حيث ورد أنه يفعل ذلك مرة واحدة والتعدد يعني: إما انتظام هذه الإشارات الصوتية، أو عدم انتظامها وهل تحدث في النهار، أم أنها تحدث حصراً في زمن الليل وهو ظاهرة، خاصة بالأرض، أو الأجرام المشابهة لها في النظام بحيث تعطي نفس التأثيرات فكما هو معروف عدم تطابق الأزمنة فإذا صدرت قد لا تصادف سحر الأرض أو نصف ليلها هذا إلا إذا افترضنا وجود عدد من مراكز إطلاق يضطلع كل جزء بالتطابق مع مجموعة مشابهة من الأجرام فتكون الأرض وما يشبهها في النظام تستلم إشارات خاصة عند الثلث الأخير من كل ليلة وكذلك عند الأسحار.

أما بالنسبة للألوان فإنه قد يدل على اختلاف الألوان هناك عن الألوان الموجودة عندنا وإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله قد رأى اللون بالعين العادية وبدون إجراء أي تحوير على العين أو على الجسم المرئي ـ وهذا مستبعد لأنه يناقض الفروض السابقة ـ ففي هذه الحالة ستكون الذبذبات التي رآها الرسول صلى الله عليه وآله مختلفة بحيث يبدو الأبيض ذا بياض مختلف عن البياض العادي وكذلك الأخضر أما إذا كان ثمة تحوير قد وقع فيكون رآه كذلك بواسطة التحوير عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إن لله تبارك وتعالى ملكاً من الملائكة نصف جسده الأعلى نار، ونصفه الأسفل ثلج، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، وهو قائم ينادي بصوت له رفيع: سبحان الله الذي كف حر هذه النار فلا تذيب هذا الثلج، وكف برد هذا الثلج فلا يطفئ حر هذه النار، اللهم يا مؤلفاً بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين على طاعتك»[1].

وهو تكرار لما ورد في الحديث السابق مع اختلاف في صورة التركيب أو وردت إشارة الأعلى والأسفل وهو لم يلاحظ في الروايات السابقة.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٢.

وفي حديث عن أبي جعفرعليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى خلق ديكاً أبيض عنقه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة له جناح في المشرق وجناح في المغرب لا تصيح الديوك حتى يصيح فإذا صاح خفق بجناحيه ثم قال: سبحان الله، سبحان الله العظيم الذي ليس كمثله شيء. قال: فيجيبه الله تبارك وتعالى فيقول: لا يحلف بي كاذباً من يعرف ما تقول[1].

وفيه إشارة إلى مضمون حديث سابق وإلى حديث الملك الديك وقد مر البحث فيه عندما أشرنا إلى أن الإنسان في العصور الحديثة وبسبب تقدم العلوم صار أقدر على فهم الصورة التي يرسمها الحديث يقترب من الصورة التي يرسمها الحديث حيث مر أنه يؤكد الدقة في تسجيل الوقائع بالإضافة إلى سرعة استنساخ الأعمال كما أن أعمال الإنسان تستنسخ خلال سنين حياته مرتين في كل يوم.

الكثرة. العبادة. المقامات

هنا جملة أحاديث أشارت إلى أوصاف الملائكة (الكثرة، العبادة، والمقامات) مجتمعة وأحياناً بصورة منفردة بحيث بينت أن الملائكة يمتازون بكثرة عددية هائلة بلغت حداً تكاد السماء تتهشم منها أو تنخسف بهم، ثم من ناحية العبادة فإن العبادة جزء أصيل من وجودهم وهم كالبشر مشتغلين بنوعين من العبادة وهي العبادة التي تعتمد على الدعاء والذكر والنوع الآخر هو أداء المهام بالدقة والمثابرة وبذل الجهد اللازم.

فضلاً عن أن هذه العبادة بنوعيها مؤشر على رتبة الملاك ومقامه فإن مهام الملاك العبادية تؤدي به إلى حيازة الرتبة وحيازة الرتبة تؤهله لمهام أخرى

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٧ - ١٩٨.

وهكذا إلى مزيد من القربى، وفي هذا الإطار لدينا طائفتان من الأحاديث، الطائفة الأولى هي:

عن العلا بن سعد، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوماً لجلسائه: أطّت السماء وحق لها أن تئط، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد، ثم قرأ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[١].

وعن مجاهد: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ قال: أطّت السماء، وما تلام أن تئط! إن السماء وما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه[٢].

وعن سعيد بن جبير: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ قال: الملائكة، ما في السماء موضع إلا عليه ملك إما ساجد، وإمّا قائم حتى تقوم الساعة[٣].

وعن حكيم بن حزام قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ((هل تسمعون ما أسمع؟)) قلنا: يا رسول الله ما تسمع؟ قال: أطيط السماء، ما تلام أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد[٤].

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((إنّي أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطّت وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك واضع جبهته ساجداً لله))[٥].

وعن أبي ذر(رضي الله عنه) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم

---

(١) سورة الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه:٥٦/ ٢٠١.

(٤) المصدر نفسه: ٥٦/ ٢٠٢.

(٥) المصدر نفسه: ٥٦/ ٢٠٢.

قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله. لوددت إني كنت شجرة تعضد.

بيان: (أطّت السماء) قال في النهاية: الأطيط: صوت الاقتاب، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها، أي كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطّت. وهذا مَثَلٌ وإذان بكثرة الملائكة وأن لم يكن ثم أطيط، وإنما هو كلام تقريب أريد منه تقرير عظمة الله. وقال: الصعدات: الطرق جمع صُعُد وصعُد جمع صعيد كطريق وطرق وطرقات وقيل: هي جمع «صعدة» كظلمة، وهي فناء باب الدار وممر الناس بين الأندية[1].

وقال الطيبي في شرح هذا الحديث: أي فخرجتم إلى الطرقات والصحارى وممرّ الناس، كفعل المحزون الذي يضيق به المنزل، فيطلب الفضاء لبث الشكوى، وقال: في قوله: «لوددتُ أني شجرة تعضد» وهو بكلام أبي ذر أشبه، والنبي ﷺ أعلم بالله من أن يتمنى عليه حالاً أوضع عما هو فيه[2].

تصور لنا الأحاديث عالم السماء وكأنه مسجد مكتظ بالمصلين وهم من الكثرة بمكان تكاد السماء أن تئط منهم فأهم وصفين هنا هما الكثرة والخضوع لله ولا شك أن ذلك ناجم عن إطلاعهم على عوالم الغيب والتي اطلع رسول الله ﷺ عليها فقال: لو علمتم بها لخرجتم إلى الصعدات خوفاً من المصير وخوفاً على العاقبة، فالملائكة وهم عباد الله المعصومون سجود يتبارون بالطاعة والخضوع فكيف بالبشر؟!.

غير أن الحديث يشير ضمناً إلى أن السماء ليس فيها فراغ فالملائكة سجود متراصو الصفوف، ولعل هذا يذكرنا بما ورد في آية الصافات التي وصفت.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٩٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦/ ٢٠٠.

وما سماه الحديث بالأطيط يشير إلى أن السماء بالنسبة للملائكة كالأرض بالنسبة للإنسان لكنها ليست مانع عن نفوذهم منها. وهل هذا يعني أن هناك مواضع منها قابلة للنفوذ وأخرى ليست كذلك، وإذا كان الجسم لا تجذبه قوة معينة، فيتحرك باتجاهها، فإنه حينئذٍ قد يتمكن من الاستقرار في مكان ما من الفضاء بسبب انعدام القوى التي تفرض عليه الحركة إلى الأعلى والأسفل أو الشمال واليمين، وهذا يمكن أن يكون أساس علاقة الملائكة بالسماء، أو صورة مكيفة منها بشكل آخر.

أما بالنسبة للمقام فقد ورد في حديث آخر تفسير هذه الآية ولكنه ورد أنها طبقة من طبقات القرب. وهنا جاء المقام بمعنى السجود وهكذا يكون السجود طبقة من طبقات القرب، لأن الملائكة تتباين في هذا الأمر، وبمقدار ما تعبد، فإنها تقترب إلى الله حتى تحصل على وحي (علم) يختلف عما كان لها في الطبقة السابقة، وبذلك تتغير مقامات الملائكة وقد مرت أحاديث تشير إلى أن الله قد يحكم بإنزال الملك إلى مقام أقل، وهذا يعني عدم الثبات في المقامات.

الكثرة

وفي حديث، عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه سئل: هل الملائكة أكثر أم بنو آدم؟ فقال: والذي نفسي بيده لملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التراب في الأرض، وما في السماوات موضع قدم إلاّ وفيها ملك يسبحه ويقدسه، ولا في الأرض شجر ولا مدر إلا وفيها ملك موكل بها يأتي الله كل يوم بعملها والله أعلم بها، وما منهم أحد إلا ويتقرب كل يوم إلى الله بولايتنا

أهل البيت، ويستغفر لمحبينا ويلعن أعداءنا ويسأل الله أن يرسل عليهم العذاب إرسالاً[(١)].

وعن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما خلق الله خلقاً أكثر من الملائكة وأنه لينزل كل يوم سبعون ألف ملك، فيأتون البيت المعمور فيطوفون به، فإذا هم طافوا به نزلوا فطافوا بالكعبة، فإذا طافوا بها أتوا قبر النبي صلى الله عليه وآله فسلموا عليه، ثم أتوا قبر أمير المؤمنين عليه السلام فسلموا عليه، ثم قبر الحسين عليه السلام فسلموا عليه ثم عرجوا وينزل مثلهم أبداً إلى يوم القيامة»[(٢)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ليس خلق أكثر من الملائكة إنه لينزل كل ليلة من السماء سبعون ألف ملك، فيطوفون بالبيت الحرام ليلتهم وكذلك في كل يوم»[(٣)].

وفي هذه الأحاديث عناصر هي:

أولاً: عدد الملائكة وانتشارهم وثانياً: أنهم مشرفون على جميع ما في الأرض والعنصر الثالث: ارتباطهم بأهل البيت عليهم السلام.

أما بالنسبة للكثرة فإنهم أكثر من أن تحصى أعدادهم، فيشبههم بعدد ذرات التراب دلالة على أن عددهم كبير إلى حد بعيد جداً، بالإضافة إلى أنهم بنفس الكثرة في الأرض، حيث لا يوجد مدر ولا شجر إلا عليه ملك موكل به يأتي الله بعمله في كل يوم وهذا معناه الإشراف والرقابة.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٧٦.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ٥٦/ ١٩١.

الرقابة عامّة شاملة

وهنا إشارة إلى أن جميع ما يوجد على الأرض عليه رقابـة وإشراف من خلال النموذج المشار إليه (كالمدر والشجر فأحدهما من الجوامد والثاني من الأحياء مما يفيد سراية الرقابة إلى كل شيء).

ومعناه أن الرقابة لا تتعلق بالذنوب وإحصاء الحسنات، إذ لا يوجـد لدينا ما يؤكد ابتلاء الأشجار بالتكليف على غرار البشر بل التكليف سيكون السير وفق البرنامج الإلهي الموضوع للموجودات وتفرعاته التي تخص كل موجود على حده وهذا يعني أن الملائكة هي الجهاز المشرف على تنفيذ البرنامج الإلهي وبقاء الموجودات ضمن الأطر المرسومة لها.

وهكذا فإن كثرة الملائكة جاءت لإشباع ضرورة الحاجة إلى الإشراف الدقيق ومتابعة حركة العدد الهائل من الموجودات والحفاظ عليها ضمن الأطر المخلوقة لأجلها وهي بالتالي تتدخل في مواضع معينة لتصحيح المسار.

الارتباط بأهل البيت عليهم السلام

ولاية أهـل البيـت هـي جزء مـن الولايـة التـي أشـارت إليـها الآيـات والأحاديث وبينت أنهم خلاصة الوجود وهذا الأمر تعرفه الملائكة بسبب إطلاعهم الواسع على الحقائق التي تعد مكانة أهل البيت عليهم السلام من أهمها.

وهذه الزيارات لأهل البيت عليهم السلام تعكس أيضاً أهمية الأرض لأنّها أصبحت مسكناً لأحباء الله الذين قبورهم محج الملائكة عليه فإنها ليست

موضعاً خاصاً بالإنسان بل هي متعلقة بجميع الوجود، ولهذا فإن الملائكة تحج إليها باستمرار حباً بأهل البيت عليهم السلام.

وهذا يعكس صورة الوحدة المعنوية للوجود ولعب الأرض لدور المركز المعنوي له لأنّها كانت موطن أحياء الله الذين فضلهم على الملائكة وتتنافس هذه المخلوقات الكريمة على زيارة قبورهم وحضورهم.

كما أن البيت المعمور الذي تزوره الملائكة يؤكد هذا التصور وهذه الأهمية على صعيد الوجود برمته فيأتي طواف الملائكة كتأكيد لكل ذلك.

عبادات الملائكة ومقاماتهم

صرح القرآن الكريم أن الملائكة هم أعبد خلق الله وأطوعهم له وأن عبادتهم كما تفيد الأحاديث على نوعين:

النوع الأول: هو التسبيح والذكر والاستغفار والدعاء.

والثاني: هو العبادة العملية حيث تلتزم الملائكة بأداء مهامها على صعيد الكون والحياة.

وكلٌ من هاتين العبادتين يترتب عليها مقام للملاك، لأن الملائكة ليست كالبشر مؤجلة بل هي تحصل على المقام مباشرة عندما يشاء الله أما البشر، فإن مقامهم يحصلون عليه يوم القيامة وبعد الحساب، وقد جاءت هذه التصورات في جملة الآيات والأحاديث التي نورد منها ما يلي:

المقامات

جاء في تفسير المصنف لآية: ﴿فاستفتهم الربك...﴾[١] يتعلق بآية: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[٢] حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية بالرد على عبدتهم، والمعنى: وما منا أحد إلا له مقام معلوم من المعرفة والعبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى في تدبير العالم ﴿وإنا لنحن الصافون﴾[٣] في أداء الطاعة ومنازل الخدمة ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ المنزهون الله كما يليق به. ولعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف.

وقال الطبرسي ﷺ: في قوله تعالى ﴿وما منّا إلا له مقام معلوم﴾ هذا قول جبرئيل للنبي ﷺ وقيل: «إنه قول الملائكة. وفيه مضمر: أي وما منا معشر الملائكة ملك إلا وله مقام معلوم في السماوات يعبد الله فيه، وقيل: معناه أنه لا يتجاوز ما أمر به ورتب له، كما لا يتجاوز صاحب المقام مقامه الذي حد له. فكيف يجوز له أن يعبد من هو بهذه الصفة وهو عبد مربوب؟ ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ حول العرش ننتظر الأمر والنهي من الله تعالى، وقيل: القائمون صفوفاً في الصلاة. قال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض، وقال الجبائي: المنزهون الرب عما لا يليق به ـ ومنه قيل: فزعت من سبحتي أي من صلاتي، وذلك لما في الصلاة من تسبيح الله وتعظيمه والمسبحون القائلون سبحان الله على وجه التعظيم لله»[٤].

---

(١) سورة الصافات: ١٤٩.

(٢) سورة الصافات: ١٦٤.

(٣) سورة الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦١.

وهنا تصرح الآية بأن الملائكة ذوو مقامات عبادية وهي ذاتها مقامات القرب ومقامات الذكر والتدبير كما جاء في التفسير الذي أورده المصنف أما بالنسبة لآية:

﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾[1]، ((معناه ومن عجائب أمور الآخرة أنك ترى الملائكة محدقين بالعرش يطوفون حوله ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق به، ويذكرونه بصفاته التي هو عليها وقيل: يحمدون الله تعالى حيث دخل الموحدون الجنة))[2].

لعل الملائكة الذين أذن الله لهم بأن يحفوا بالعرش هم طبقة خاصة ولها هذا المقام بالقرب، لأن العرش درجة عالية من القرب سواء كان مكاناً فعلياً أو مكاناً معنوياً، وقد يكونوا هم من غير الملائكة الثمانية الذين يحملون عرش ربك يوم القيامة.

كما أن من الأمور التي تتكرر دائماً مع ذكر الملائكة هو التسبيح لله، وهكذا تشعر أغلب الآيات بأن الملائكة في أغلب أوقاتهم يمارسون التسبيح، رغم قوة الارتباط والقرب بالله تعالى، فإن التسبيح مستمر. وهذا يقوي الاعتقاد بأن أسلوب ارتباطهم بالله من خلال التسبيح الذي يعطيهم حالة من التنزيه لله بذكر صفاته، تشبه حالة المشاهدة، فالله سبحانه وتعالى غير قابل للرؤية سواء بالنسبة للملائكة أو لسواهم فيكون التسبيح شبيهاً باستحضار صورة من خلال التكرار المتواصل وهي صورة صحيحة لأنها مركبة بإذن الله ووحيه، وبالشكل الذي يلائم وضع الملائكة وقوة أذهانهم، ولهذا فإنه نحو رؤية تناسب وضع الملائكة كما أن الإنسان له نحو رؤية لله تناسب قدراته ترسمها آيات الكتاب والوحي والأحاديث الشريفة.

---

(١) سورة الزمر: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦٢.

أما العرش فهو شيء أو مكان أو جرم تصدر منه الأوامر الإلهية وإحاطتهم به تشعر بأهمية صدور الأوامر عن الله تعالى فتظل الملائكة في حال دائمة من الانتظار والترقب لها وخصوصاً في حال الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، وصار الناس في لحظة الحساب، فإن هذا التبدل الواسع لعله يحمل معه بعض التبدل في حركة الملائكة وصدور أوامر جديدة أو انتظارها بحيث يبدون استعدادهم لفعل ذلك.

أو أن هؤلاء صنف من الملائكة دائمو البقاء حول العرش ولا يتعلق الأمر بزمن القيامة بل هو موقف دائمي لهم، لكن التغير سيقع للإنسان حيث يتاح له رؤية هذا المشهد الغريب الذي طالما حجب عنه وعندئذ يرى الجلال والعظمة الإلهية حين يرى الإنسان العرش.

خوف الملائكة

وصف المصنف خوف الملائكة بوجوه:

الأول: أنهم مع كثرة عبادتهم وعدم إقدامهم على الزلات يكونون خائفين وجلين حتى كأنّ عبادتهم معاصي، قال تعالى: ﴿ ***يخافون ربّهم من فوقهم*** ﴾[1] وقال: ﴿ ***هم من خشية ربّهم مشفقون*** ﴾[2].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ ***حتى إذا فزّع عن قلوبهم*** ﴾[3] روى في التفسير: أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعه أهل السماوات مثل صوت السلسلة على

---

(١) سورة النحل: ٥٠.

(٢) سورة المؤمنون: ٥٧.

(٣) سورة سبأ: ٢٣.

الصفوان، ففزعوا فإذا انقضى الوحي قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق فهو العلي الكبير.

الثالث: روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بناحية ومعه جبرائيل ﵇ إذ انشق أفق السماء فأقبل جبرائيل يتضاءل ويدخل بعضه في بعض إلى آخر ما سيأتي برواية السيوطي[١].

ثم قال المصنف: واعلم أن الله ذكر في القرآن أصنافهم وأوصافهم، وأما الأصناف فأحدها: حملة العرش ﴿ ***ويحمل عرش ربك...*** ﴾[٢] وثانيها: الحافون حول العرش ﴿ ***وترى الملائكة حافين...*** ﴾[٣] وثالثها: أكابر الملائكة: فمنهم جبرئيل وميكائيل لقوله تعالى ﴿ ***جبرئيل وميكال*** ﴾[٤] ثم وصف جبرئيل بأمور: الأول: أنه صاحب الوحي إلى الأنبياء ﴿ ***نزل به الروح الأمين*** ﴾[٥] والثاني: أنه قدمه على ميكائيل، والثالث: جعله ثاني نفسه ﴿ ***فإن الله هو مولاه وجبريل*** ﴾[٦] الرابع: سماه روح القدس، الخامس: ينصر أولياءه ويقهر أعداءه مع آلاف من الملائكة مسومين. السادس: أنه مدحه بصفات ستة ﴿ ***إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين*** ﴾[٧].

ومنهم إسرافيل صاحب الصور وعزرائيل قابض الأرواح وله أعوان عليه، ورابعها: ملائكة الجنة ﴿ ***والملائكة يدخلون عليهم من كل باب*** ﴾[٨]، وخامسها:

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٠٩.

(٢) سورة الحاقة: ١٧.

(٣) سورة الزمر: ٧٥.

(٤) سورة البقرة: ٩٨.

(٥) سورة الشعراء: ١٩٣.

(٦) سورة التحريم: ٤.

(٧) سورة التكوير: ١٩ - ٢١.

(٨) سورة الرعد: ٢٣.

ملائكة النار ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة ﴾[١] ورئيسهم مالك ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾[٢] وأسماء جملتهم «الزبانية» ﴿ سَنَدعُ الزبانية ﴾[٣] وسادسها: الموكلون بني آدم لقوله تعالى: ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ❖ ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ له معقبات ﴾[٥] وقوله ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾[٦] وثامنها: الموكلون بأحوال هذا العالم ﴿ والصّافات صفّاً ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿ فالمدبّرات أمراً ﴾[٨].[٩]

﴿ فالذين عند ربك... ﴾ أي جميع الملائكة أو طائفة مخصوصة منهم. وعلى الأول دوام تسبيحهم لا ينافي اشتغالهم بسائر الخدمات، مع أن تلك الخدمات أيضاً نوع من تسبيحهم ﴿ وهم لا يسأمون ﴾[١٠] أي لا يملّون ولا يفترون.

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿ والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ﴾[١١] اعلم أن مخلوقات الله نوعان: نوع عالم الجسمانيات وأعظمها السماوات، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة، فبين سبحانه كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات، فقال: ﴿ تكاد السّماوات يتفطّرن من فوقهنّ ﴾[١٢] ثم انتقل إلى ذكر

---

(١) سورة المدثر: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سورة الزخرف: ٧٧.

(٣) سورة العلق: ١٨.

(٤) سورة ق: ١٧ ـ ١٨.

(٥) سورة الرعد: ١١.

(٦) سورة الأنعام: ٦١.

(٧) سورة الصافات: ١.

(٨) سورة النازعات: ٥.

(٩) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(١٠) سورة فصلت: ٣٨.

(١١) سورة الشورى: ٥.

(١٢) سورة الشورى: ٥.

الروحانيات فقال: ﴿والملائكة يُسَبّحون بحمد ربهم﴾ والجواهر الروحانية لها تعلقان: تعلق بعالم الجلال والكبرياء وهو تعلق القبول فإن الأضواء الصمدية إذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها، وأشرقت ماهياتها، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الربانية قويت بها على الاستيلاء على عالم الجسمانيات، وإذا كان كذلك فلها وجهان: وجه إلى حضرة الجلال، ووجه إلى عالم الأجسام، والوجه الأول أشرف من الثاني. إذا عرفت هذا فنقول: أما الجهة الأولى وهي الجهة المقدسة العلوية فقد اشتملت على أمرين: أحدهما التسبيح والثاني التحميد. لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي والتحميد عبارة عن وصفه بكونه معطياً لكل الخيرات. وكونه منزهاً في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات. لأن وجود الشيء وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره. فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد ولهذا قال ﴿يُسَبّحون بحمد ربهم﴾، أما الجهة الثانية وهي الجهة التي لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات، فالإشارة إليها بقوله ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ والمراد منها تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب فيها.

واستدل بالآية على عصمة الملائكة، لأنهم لو كانوا مذنبين كانوا يستغفرون لأنفسهم قبل استغفارهم لغيرهم[1]. فالتسبيح هنا جاء مقروناً بحالة عدم السأم وعدم الفتور وهذا من خصائص الملائكة الجديرة بالاعتبار والاطلاع، فهو فرق بينها وبين الأنس أو الجن حيث يصابان بالتعب والفتور والملل من أي أداء مستمر فنفس التواصل غير مقدور بالنسبة لبني البشر أو الجن لأنهم يصابون بالسأم وتتناقص القدرة لديهم وبغض النظر عن كون الملائكة جميعاً هم بهذه الكيفية أم أنه خاص بطبقة منهم.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦٣ ـ ١٦٥.

ولهذا الدوام أيضاً دلالة لابد من الانتباه إليها تكمن في الأثر الفعلي للرؤية فإن لنفس القدرة على التنزيه آثار على المنزه وطبعاً هذه الآثار تتناسب مع طبيعته، فالتنزيه عند البشر المحكومين بقيود الأجساد تخلف آثاراً لكنها لا تصل إلى الآثار التي تحصل للملائكة، ويمكن أن نربط بين قدرات الملائكة الكبيرة وبين التسبيح والتحميد، لأن التوهمات تكبت قدرات الإنسان وتضعفها إلى درجة كبيرة، كما هو موجود في أبحاث خاصة وأحاديث تشير إلى الآثار والفيوضات التي تحصل نتيجة تسبيح الإنسان الذي هو التنزيه عن كل التوهمات والتصورات التي لا تليق بشأنه سبحانه وتعالى ويمكن أن يكون وضع الملائكة بهذه الكيفية معلول لدوام التسبيح. أما القلة من البشر الذين فضّلوا على الملائكة فإنهم استطاعوا أن ينزهوا الله ويسبّحوه وكأنهم أرواح بلا أبدان، وبهذا صاروا أفضل من الملائكة وهؤلاء هم الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام ومن شاء الله من عباده.

ولعلّ قول الإمام في نهيه عن الكبر في أحد خطبه (إنّ الله سبحانه له سنن واحدة في الخلف) يساعد على هذا القول فمتى حصل التنزيه بدرجة معينة حصلت آثاره ولعله يحصل حين تبطل الموانع. وأما الاستغفار فإنه ناشئ عن المكانة التي لهم عند الله ثم إنه لا يسري إلا لعبادة الله الذين يرضى الله بالغفران لهم لكن رضى الله بهذا القدر له انعكاسات على المشركين والكفار إذ تعمهم رحمة الله كما يعم أحياناً غضب الله بعض الصالحين حين يغضب على الكفار.

وفي هذا المقطع جملة من الآيات والأحاديث تشير إلى مركزية التسبيح في وجود الملائكة، الذي هو الشكل المفترض لارتباط الملائكة بالله سبحانه وتعالى وسبيلهم إلى تحقيق معالم شخصياتهم، نفهم ذلك من خلال كثرة التأكيد عليه بالآيات والأحاديث التي منها ما يلي:

عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا محمد! إن لله عز ذكره ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما تسقط الريح الورق من الشجر في أوان سقوطه، وذلك قوله عز وجل: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1] والله ما أراد بهذا غيركم[2].

ففي الآية ورد الاستغفار ضمن التسبيح، لكن الإمام أراد أن ينبّه الشيعة إلى العلاقة بين استغفار الملائكة والمؤمنين من البشر باعتباره جزءاً من التسبيح أو مضموماً إليه لكي يتم الالتفات إلى جملة من العلاقات منها:

١ ـ أن إسقاط الذنوب يدل على حالة خاصة من القرب.

٢ ـ هذه الحالة الخاصة ترتبط بالتسبيح وتؤثر في قبول الاستغفار.

ففي هذا الحديث تفسير الآية التي وردت ضمنه توضيحاً من قبله عليه السلام لأثر الاستغفار إذ قد يرد على الأذهان أنه حالة ربما تصيب وربما لا تصيب، لكن الحديث أشار إلى هذا الشكل منه الذي يصيب حتماً وهو طبعاً يقع ضمن شروط هي:

أ ـ أن الذي يؤديه فئة خاصة من الملائكة.

ب ـ أن المستغفر لهم أيضاً فئة خاصة من البشر.

وبالتالي فإنه نوع خاص من الاستغفار، وهو ضمن الشروط العامة التي وضعها الله لقبول الاستغفار، أي أن يكون الإنسان غير مصرّ على الذنب، والمؤمن طبعاً يتوفر فيه هذا الشرط، وهذا طبعاً يختلف عن النوع الآخر الذي ورد ذكره في الآيات التالية: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾[3].

---

(١) سورة غافر: ٧.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٩٦.

(٣) سورة المنافقون: ٦.

﴿ *استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم* ﴾[١].

وهكذا يمكننا أن نرى في هذا تخصيص للآية التي تقول ﴿ *ويستغفرون لمن في الأرض* ﴾ أو أنه النوع المقبول منه، وعليه يترتب الاستغفار على شكل خاص من التسبيح الذي هو من مختصات طبقة خاصة من الملائكة لها مقام، وهو مقام عدم رد الاستغفار، فلو استغفرت لأحد من المؤمنين استجاب الله لها. وهكذا نلتفت إلى الشكل الخاص من التسبيح.

ويرتبط هذا المقام أيضاً باستمرارية التسبيح الذي تتصف به جميع الملائكة، إذ لا يمكن لنا أن نجد حالاً لدى الملائكة تنقطع به عن التسبيح كما في الآية الآتية:

﴿... *والملائكة يُسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض* ...﴾[٢].

كلمة تسبيح الملائكة تتكرر في الآيات بصورة مكثفة وكذلك في الأحاديث وكعلامة على الإيمان والطاعة و العلم بحقيقة العالم حتى كان ذلك استمراراً لعهد الطاعة الذي لا تنقضه الملائكة فيكون الله تعالى قد أحكم السيطرة مباشرة وبالواسطة على هذا الوجود حيث يخضع له كل شيء طوعاً وكرهاً.

وعلى هذه الأرضية تمارس عملية الاستغفار لأهل الأرض على أن هذا الاستغفار كما يلوح عاماً إلا أن آيات أخرى تخصّص هذا العموم بالمؤمنين الذين قد يفلت منهم الزمام بعض هنات لا عن الإصرار والعمد، وبناءً على الرابطة الحميمة بين الملائكة وبين البشر وبناءاً على علمهم بشدة عقاب الله لعباده أما عقوبة الآخرة أو عقوبة ابتلاء في الدنيا، ابتلاء على بعض التقصير

---

(١) سورة التوبة: ٨.

(٢) سورة الشورى: ٥.

وكما هو معلوم كلما علت درجة الإيمان كلما ازداد الحساب فيأتي استغفار الملائكة فيكون أثر هذا الاستغفار عفو الله عن كثير من الأخطاء.

وهذا طبعاً جزء من مهام الملائكة فهم وجه من وجوه رحمة الله وانعكاس لها وتجلٍ من خلال هذا الاستغفار وتدور هذا المدار الآية التالية:

﴿ *وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربّهم* ﴾[1]. ((الحف: الأحداق، والإحاطة بالشيء، والعرش هو المقام الذي يصدر منه الأوامر الإلهية التي يدبر بها العالم، والملائكة هم المجرون لمشيئة العاملون بأمره، ورؤية الملائكة على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك وقد طويت السمارات))[2].

تعرض الآية مشهداً ليوم القيامة بعد انتهاء الحساب وبعد أن توفى الأنفس حقها كما عملت، فإن ذلك لا يعد نهاية لدور الملائكة بل إن دورهم يستمر، فهم حتى في تلك اللحظات حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم وقيل الحمد لله رب العالمين.

والعرش حال أو شي ينسب إلى الله تحف به الملائكة وهو ينطوي على شيء من التشابه مع العروش البشرية، ولعل ذلك يكمن في كونه مصدر للأوامر الإلهية، ومن هذه الجهة يأتي التشابه فهو تشابه في الغرض وليس في التركيب، فقد ورد في آية الكرسي: ﴿... *وسع كرسيّه السّماوات والأرض*... ﴾[3] وهذا شيء عظيم ويبلغ أبعاداً شاسعة الامتداد ولا أمل لإدراك الإنسان لها. أو التوصل إلى حقيقتها إلاّ من حيث المقارنة مع ما هو موجود في حياة الإنسان من صور باهتة لتلك الحقائق.

---

(١) سورة الزمر: ٧٥.

(٢) تفسير الميزان: ١٧/ ٢٩٨/ ٢٩٩.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥.

على أن بعض الآيات تشير إلى وجود العرش والكرسي في الحياة الدنيا والآخرة، وهذا يعني ديمومتها وعدم ارتهانها بظرف معيّن كظرف القيامة.

ربّما تتضمن تأكيد على انطواء الوجود على مركز وهذا المركز تصدر منه الأوامر الإلهية وفيه معلومات كبيرة عن الحياة والكون وأنه محروس حراسة مشدّدة بل إن حياة الإنسان إنما تسير على غرار ما هو قائم في ذلك العالم.

عن داود بن فرقد، قال: قال لي بعض أصحابنا: أخبرني عن الملائكة أينامون؟ قلت: لا أدري فقال: يقول الله عز وجل: ﴿ ***يسبّحون الليل والنّهار لا يفترون*** ﴾[1] ثم قال: ألا أطرفك عن أبي عبد الله ﷺ بشيء؟ فقلت: بلى، فقال: سئل عن ذلك، فقال: ما من حي إلاّ وهو ينام خلا الله وحده عز وجل والملائكة ينامون، فقلت: يقول الله عز وجل ﴿ ***يسبّحون الليل والنّهار لا يفترون*** ﴾ قال: أنفاسهم تسبيح[2].

في هذا الحديث تفسير لآية يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ولكنه يناقض حديث مر حول عدم نوم الملائكة، وهذا التناقض يمكن حله بافتراض خطأ الناقل أو بأن الذين ينامون هم صنف من الملائكة، ونوم الملائكة يعني تعطيل الحواس وتعطيل الحواس يعني عدم التسبيح مع القصد وبالتالي فإنه ليس تسبيحاً حقيقياً بل هو سيكون نوع من التكريم بأن يعدّ الله ذلك منهم تسبيحاً كما هو بالنسبة لنوم الصائم، وإذا كان كذلك فإن المهام الملقاة على الملائكة ستكون مدارة بواسطة التناوب.

وطبعاً هذا يناقض كونهم لا يتعبون فيحتاجون إلى الراحة والغذاء لأن من يجوز له النوم فيمكن له أن ينام في أوقات العمل وهذا فيه ضرر على نظام الكون خصوصاً أن الملائكة كما مرّ مشرفة على كل شيء في الوجود وأن

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٥.

لحظة وسن تجعل من الحوادث التي لا يراد وقوعها تقع، كما قد يذنب المرء فلا يراه الملك الموكل لأن النوم حالة قهرية تتسلط على الأبدان، ولكل ذلك فإن عدم نومهم أوفق، إلا إذا قلنا إنهم ينامون بكيفية ليس فيها أي محذور، كأن ينام جزءاً ويستيقظ جزءاً وبالتالي فهو ليس نوم حقيقة بالمعنى المعروف، وحتى لو كان نومهم بكيفية مغايرة تماماً لما نعرفه.

إلاّ أن عدم نومهم يأتي مساوقاً لبقية صفاتهم التي مرت ويمكن تأويل هذا الحديث بصورة تلائم ما مر.

كما يمكن أن يكون للملائكة أنس ولذة في الاستغفار وعندئذ لا يوجد محل للسأم في تلك النفوس، وربما يمكن افتراض أن فطرتهم كذلك، وهذا يدل على أن هذا الأداء فطري، وبالتالي فهو لا يتأثر بالملل كما أن الكثير من الموجودات تؤدي فعاليات فطرية كثيرة بلا ملل ويكون خارج عن دائرة الملل واللذة.

لكن ذكره في الآية لعل فيه إشارة إلى وجود القابلية للملل والفتور لكنها لا تحصل لأسباب أخرى.

وفي النتيجة لا يمكن لنا أن ننسب الفائدة لله في التسبيح لأن الله كامل وغني، وبذلك لا مناص من افتراض الفائدة للمخلوق المسبح نفسه، وأنها وسيلة من وسائل كمال المخلوق جعلها تعالى أداة لهذا الأمر.

أما دلالة الاستغفار على عصمة الملائكة، وعدم ارتكابهم للمعاصي، لأنهم حين يرتكبون الذنوب سيكون استغفارهم أولى من استغفارهم للغير، فإن الآية تخبر أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهذا فيه تأكيد لهذه العصمة.

ويمكن افتراض أن طاعتهم معلولة لعدم وجود دواعي الذنب أصلاً لديهم، كالشهوة، أو أنهم مخلوقون لكي يطيعوا الله قسراً وقهراً، ولو جاز

لهم العصيان كالبشر لترتب على ذلك مفاسد كثيرة، فلعل الهداية تنقلب إلى ضلال والخير ينقلب شراً، لأنهم سيعصون الله ويغيرون ما أمرهم، وبالتالي لا يبقى شيء في محله خصوصاً أننا قلنا أنهم مسؤولون عن انتظام الكون برمته أجرامه وأحيائه وجماده، وكل ما فيه، وهم بمثابة أساس للوجود وحين يكون الأساس غير مستقر فإن البناء كله يتعرض للانهيار.

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((إن لله تبارك وتعالى ملائكة ليس شيء من أطباق أجسادهم إلاّ وهو يسبح الله تعالى ويحمده من ناحيته بأصوات مختلفة لا يرفعون رؤوسهم إلى السماء، ولا يخفضونها إلى إقدامهم من البكاء والخشية لله عز وجل))[1].

في هذا الحديث إشارة إلى حديث مرْحول وجود ملائكة بهيئات غير معروفة وأشير إليهم بما سماه أطباق، ويمكن تصورها بصورة تشبه أطباق الإنسان، حيث يتركب من طبقة أولى وهي الجلد وهو مكون بدوره من ثلاثة طبقات وتحتهُ غشاء البريتون، ثم تأتي الأنسجة التي هي عبارة عن عدة أغشية، وعلى شكل طبقات ويمكن تصور النظام نفسه ولكن بأنحاء أوسع وأجزاء أكبر، أو أن النظام برمته مغاير، فالطبقات يمكن أن تكون كطبقات الغيوم وأن الأشكال مبنية وفق صيغ غير معروفة خصوصاً أن الحديث يشير إلى الأصوات المختلفة والتي تصدر عن كل طبقة بحالها وكأن لها استقلالية عن بقية أجزاء الجسم وإلاّ فإن الأصوات موجودة ولو بدرجات غير مسموعة، فالتفاعلات تصدر أصوات لأنها تؤثر في المحيط وتحدث فيه تموّجات، لكنها غير محسوسة بسبب صغر تأثيرها، ولعل المقصود صور مشابهة لهذه الحالة من الأجسام المادية ولكن بصورة الملائكة، أو كما قلنا فإن

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٢.

كل جزء له قدرة على التعقل بمفرده والتسبيح بصوت خاص وكلاهما يصدق عليه الحديث فضلاً عن تحقق العبودية فيه، فأجزاء بدن الإنسان تسبّح حتى لو كان الإنسان المجموع كافراً، لأنه مركب من أجزاء مطيعة لله وترفض كفر صاحبها ولا تشاركه في ذنوبه إلاّ أنها مأمورة بطاعته إلى حين.

أما لزومهم لحالة واحدة فإنه بالنسبة لهم ممكن بناءً على ما ورد من صفاتهم حيث لا يكلّون ولا يتعبون من أي شيء وغالباً ما تكون العبادة مصاحبة لقيامهم بالمهام الموكلة إليهم.

عن جميل بن دراج، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام هل في السماء بحار؟ قال: نعم أخبرني أبي عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن في السموات السبع لبحاراً عمق، أحدها مسيرة خمسمائة عام، فيها ملائكة قيام منذ خلقهم الله عز وجل، والماء إلى ركبهم ليس فيهم ملك إلا وله ألف وأربعمائة جناح، في كل جناح أربعة وجوه، في كل وجه أربعة ألسن، ليس فيها جناح ولا وجه ولا لسان ولا فم إلا وهو يسبح الله تعالى بتسبيح لا يشبه نوع منه صاحبه[1].

لعل في هذا الحديث تفسير لشيء ورد في الآية وكان عرشه على الماء، فقد ذكرت وجود الماء تحت العرش، وهذه الإشارة لا تؤكد وجوده فعلاً بل ربما تشير إلى وجوده في الماضي وحين تكون السماوات والأرض، لكن يمكن أن يكون وجوده بشكل دائم لعلاقته بالعرش، والعرش وجوده كما يبدو سابق على خلق السماوات والأرض، وليس بالضرورة أن يكون الماء المذكور هو نفس الماء الموجود على الأرض فهناك أنواع من المياه كما أن هناك أنواع من الثلج، فتركيب الماء الذي على الأرض هو من ذرتين هيدروجين وذرة أوكسجين

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٢، عن التوحيد.

بينما هناك مياه ذات تراكيب أخرى يدخل في تركيبها الكاربون أو النتروجين على أن الأوضاع في السماء تختلف عن الأوضاع على الأرض إذ أن الماء في الأرض، يسقط دائماً باتجاه الأرض بحكم الجاذبية الأرضية، لكن في الفضاء يمكن أن يوجد جرم أغلبه من الماء أو من الماء والثلج، إذ أن جزيئات المادة يجذب بعضها بعضاً لعدم وجود جاذبية تشدها باتجاهات أخرى، أو أنها جاذبية ضعيفة التأثير وربما أيضاً يمكن أن توجد أجرام هائلة الأبعاد كما هو ثابت، تغمر المياه أغلب أجزاءها وهذا طبعاً إذا كان هو مرمى الحديث، فإن المنظور هو عالم الحياة الدنيا أو الكون وقد ثبت علمياً وجود البحار في الأجرام ولكن أغلب هذه المياه ليست كمياه الأرض. وبذلك يكون القرآن والحديث قد سبق إلى الأخبار بهذه الحقائق.

وقد أشار الحديث إلى عمق هذا البحار بما وصفه ٥٠٠ عام وهو عمق كبير جداً إلا أنه رغم كبره لا يصل إلا لرُكب صنف من الملائكة وهو في هذه الحالة يمثل ثلث طولهم تقريباً، ثم إن أجنحتهم عددها ألف وأربعمائة جناح وهو طبعاً عدد هائل، كما يوجد في أي جناح أربعة وجوه، وهو يدل أن هذه الملائكة ذات نمط خاص من الخلق غريب يختلف عن خلق الإنسان أو الطير بالصورة المعروفة، فهنا وجوه وكل وجه يمكن أن يكون تابع رأس أو يكون الرأس هو جزء من الجناح كأن يكون مسطحاً إذا كان الجناح مسطحاً أو كجناح الطير لكن إذا كان الجناح في صورة أخرى فإن الوجوه هي جزء من تلك الصورة مهما كانت سواء كروية أو محرشفة أو غيرذلك من الأشكال، وفي كل وجه أربعة ألسن، واللسان طبعاً هو المسؤول عن إبراز الصوت، وبهذا تكون وظيفة لسان الملك كوظيفة لسان البشر أو كلسان آخر أي مجرد آلة ذات أوتار يصدر عنها الصوت، وهي يمكن أن تكون بصور عديدة، والمهم

هنا الجهاز الذي يتحكم بالأوتار وكما يقول الحديث أن كل جناح أو وجه أو لسان أو فم ألا وهو يسبح الله تعالى بتسبيح لا يشبه الآخر[١].

وعدم التشابه يؤكد وجود أجهزة إدراك مختلفة بحيث يستطيع الحديث بهذا العدد الهائل من اللغات أي ١٤٠٠ × ٤ = ٥٦٠٠ لسان، وبالتالي خمسة آلاف وستمائة لغة في آن واحد وحتى لو لم تكن اللغات مختلفة فإن الكلمات حينئذ هي التي ستختلف، وهنا لا يختلف الحال بالنسبة إلى الحاجة إلى وجود أجهزة إدراك بهذه الإمكانية.

وهؤلاء الملائكة على هذه الحالة منذ خلقهم الله، وهي حالة القيام لله مع العلم أن الحديث لا يحدد زمن وقوع الخلق، ولعل المراد به طول الزمن الذي كانوا فيه قيام وامتداده في أعماق الماضي. وبالتالي فإنه ينطوي على تركيز استمرارية التسبيح في وجود الملائكة ومركزيته بالنسبة لهم كما أسلفنا.

أما الحديث التالي فإنه يشير إلى أسبقية ظهور شكل خاص من أشكال العبادة عند الملائكة، وهو التلبية وهو كالآتي:

عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول من لبّى الملائكة. قال الله: ﴿ ***إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك...*** ﴾[٢] قال فرادّوه، فأعرض عنهم فطافوا بالعرش ست سنين يقولون: «لبيك، لبيك، اعتذاراً إليك. لبيك، نستغفرك ونتوب إليك»[٣].

فالحديث يشير إلى ان التلبية كشكل عبادي ظهر عند الملائكة ولعله الصورة الملائمة لعدم الإصرار لجميع السلوكيات التي لا تلقى قبولاً من الله تعالى، وهكذا فإنه انتقل بعد خلق الانسان ليكون جزءاً من عبادة الحج.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٣.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٩٨، عن الدر المنثور.

وفي سياق عبادة الملائكة يأتي الحديث التالي:

عن ابن جبير، أنّ عمر سأل النبي ﷺ عن صلاة الملائكة فلم يرد عليه شيئاً، فأتاه جبرائيل، فقال: إن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون: «سبحان ذي الملك والملكوت، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون:سبحان ذي العزة والجبروت، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون: سبحان الحي الذي لا يموت»[١].

إن السجود طبعاً هو جزء من أفعال الصلاة، و لا يشير الحديث إلى أن أهل السماء الدنيا هم مقيمون على هذا الجزء من الصلاة، أو أنهم يصلون بالسجود دون غيره من الركوع والقيام أما بالنسبة للبقاء إلى يوم القيامة فهو بالنسبة للملائكة شيء قليل لأن أزمانهم طويلة وهذا أيضاً لا يشير إلى أن هؤلاء هم غير الملائكة الذين يكلفهم الله بأداء مهام في الأرض أو أنهم معهم، أما بالنسبة لما يرددونه فإنه أيضاً لا يعلم إن كان شيئاً ثابتاً أم أنه من مضامين التسبيح والتحميد، أو أن هذا جزء يسير يتغير قبل هذه الحالة أو بعدها؟.

عن نوف البكالي، قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: أيها المتكلف لوصف ربّك، فصف جبرئيل وميكائيل وجنود الله المقربين في حجرات القدس مرجحنّين متوالهة عقولهم أن يحدوا أحسن الخالقين.

بيان: «التكلف» التجشم وارتكاب الشيء على مشقة، وحجرة القوم - بالفتح - : ناحية دارهم، والجمع حجرات كجمرة وجمرات، وفي بعض النسخ «حُجُرات» بضمتين، جمع حجرة بالضم وهي الغرفة، وقيل: الموضع المنفرد وارجحن الشيء كاقشعرّ أي مال من ثقله وتحرك. قال في النهاية: أورد الجوهري هذا الحرف في حرف النون على أن النونين أصلية، وغيره يجعلهما

---

(١) المصدر نفسه.

زائدة من رجح الشيء كمنع إذا ثقل. قال ابن أبي الحديد: أي مائلين إلى جهة التحت خضوعاً لله سبحانه. وقال الكيدري: الارجحنان الميل، وارجحن الشيء اهتز (انتهى).

ولعل المراد بحجرات القدس المواضع المعدة لهم في السماوات، وهي محال القدس والتنزه عن المعاصي ورذائل الأخلاق، والوله: الحزن والحيرة والخوف، و«متولهة عقولهم» على صيغة اسم الفاعل أي محزونة أو حائرة أو خائفة، وفي بعض النسخ على صيغة اسم المفعول والأول أظهر. «أن يحدوا أحسن الخالقين» أي يدركوه بكنهه أي يدركوا مبلغ قدرته وعلمه، أو مقدار عظمته[1].

في نفس الوقت الذي يشير فيه أمير المؤمنين إلى جزافية تجشّم وصف الله ومعرفة كنهه، لأن الإنسان عاجز عن وصف المخلوقات ومنها الملائكة فإنه يشير أيضاً إلى بعض الحقائق عن الملائكة فهم مثلاً عاجزون بدورهم رغم قرب المكانة عن معرفة كنه الله بل هم في خوف من التوهم، ولهذا يصفهم بالارجحنان على كل معانيه المذكورة، ومن الوله أو الخوف حذرين من توهم الله سبحانه بصورة تبتدعها عقولهم رغم أنهم أقرب إلى الله وأكثر اطلاعاً على حقائق الوجود من الإنسان، لكن هذا القرب يجعلهم في حالة من الحذر عن الخروج عما يوحيه الله لهم عن ذاته، فهذا الحذر يمثل حالة من الإدراك الأدق للذات إذ أن الإنسان لا يملك هذا الحذر وغالباً ما يتبع التوهمات والخطرات فينسب إلى الله تصورات من بنات خياله بينما تكون الملائكة في حالة حذر من أن يتوهموا ربهم ولو بالقليل مما ليس موحىً به إليهم.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

لكنه في معرض هذا الوصف يشير إلى معلومتين جديدتين هما وجود ما سماه جنود الملائكة المقربين، وكذلك حجرات القدس، وإذا عدنا إلى البيان فإن حجرات القدس هي مواضع أو غرف لهؤلاء الملائكة، لكن الإمام وصفها بأنها حجرات القدس، وهذا يلفت النظر إلى أن هذه المواضع ذات خصوصية من الطهر والقرب، فهل أن هؤلاء الملائكة هم طبقة خاصة من الملائكة المقربين فيكون الملائكة المقربون عدة طبقات وليس طبقة واحدة، فهناك الجنود، وهناك الحملة، وهناك طبقات وصفتها الأحاديث الأخرى؟

ولعل الإمام عليه السلام حين ضرب لنا مثلاً بهؤلاء الملائكة لأنهم ذوو درجة عالية من القرب، وبالتالي من المفترض فيهم أن يكونوا الأكثر علماً بالله لكنهم مع كل ذلك في حالة من الاضطراب والخوف من توهم الله بما ليس فيه، وهذا يعني أنهم يجهلونه ولا يعرفون عنه إلا ما أوحي به إليهم من صفاته وهي أيضاً تقريبات وليست حقائق، كما أننا نعلم عن الله سبحانه وتعالى ما ذكره عن نفسه بواسطة الآيات والأحاديث التي أوحى بها إلى أنبيائه في كتبه ومثل هذا في الآية:

﴿ *وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ...* ﴾[1].

فالتسبيح الذي هو واجب لجميع المخلوقات يؤديه الرعد الذي هو مخلوق قد لا تلتفت إلى كينونته، وكذلك الملائكة التي تخاف الله وتسبح بحمده فتكون الطبيعة برمتها مسبحة لله من خلال هذين المصداقين اللذين قد لا يلتفت إليهما الإنسان. لأن الأول وجوده عابر ووقتي والملائكة غير مرئية أصلاً.

فالملائكة جزء من مهامها غير التي تختص بالإنسان أنها كائنات مسبِّحة لله ولعل التسبيح هنا يحتاج إلى نظر خصوصاً أن الرعد أو الملائكة كائنات

---

(١) سورة الرعد: ١٣.

خاصة فما أثر التسبيح عليها؟ كما تؤكد الآيات أنه لا يوجد شيء في الوجود يؤدي فعل اضافي أو زائد أو كمالي، فكل شيء محسوب بدقة وذا آثار مطلوب لكثرة ما تورد الآيات من التأكيد على كون كل شيء بالحق وفيه إشارة إلى وجود العلل والأسباب الموجبة.

ولهذا فإن عدم تسبيح الإنسان هو حالة خروج على الضرورة، وآثار التسبيح تلك الآثار التي هي آثار حق ومطلوبة، وليست مجرد عبارات أو كلمات، بل التسبيح سوف لا يكون كلمة لأنه من الشجرة والنجم والملك والرعد وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده.

فهذا الجامع هو الذي يعطي الإنسان آثار خاصة يحتاجها.

مهام الملائكة

أما بالنسبة للنوع الثاني من العبادة، وهي المهام التي يستعبد الله بها ملائكته فقد ذكرت الآيات والأحاديث طائفة منها، فهذه جملة آيات تشير صراحة إلى بعض المهام للملائكة على صعيد الحياة البشرية وعلى صعيد الطبيعة ومنها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ *فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً* ﴾[1] أي: الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به. قال الطبرسي رحمه الله: روي أن ابن الكوا سأل أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب على المنبر، فقال: ما الذاريات ذرواً؟ قال: الرياح، قال: فالحاملات وقراً؟ قال: السحاب. قال: فالجاريات يسراً؟ قال: السفن. قال: فالمقسّمات أمراً؟ قال: الملائكة وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد[2].

---

(١) سورة الذاريات: ٤.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٦٥.

القسم هنا جاء بأشياء مختلفة فمرّة قسم بالذاريات ذرواً. وهي الرياح، والحاملات وقراً وهي السحب، والجاريات يسراً وأخيراً المقسّمات أمراً هي الملائكة.

غير أنه لا يوجد ما يمنعه أن يكون لها مصداقاً غير الملائكة ثم أن السحُب كما مر تتحرك بأمر الملائكة، وكذلك الرياح كما أن حركة السفن بواسطة الرياح، ولهذا فإن الحديث يمكن أن يؤول بحركة الملائكة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وحين يكون المصداق غير الملائكة فإنها أيضاً تكون متعددة أو واحدة، فإذا كانت مجموعة الأقسام هذه بصفات متعددة لشيء واحد فإنه الذاريات هي نفسها الحاملات وقراً ثم تجري يسراً لكي تقسم أمراً فتكون كل المقاطع السابقة بمثابة مقدمات لنتيجة هامة هي تقسيم أمر. ويلفت النظر التعبير بالتنكير، فإن التنكير يشير إلى الأهمية ولو جاء بالألف واللام لكانت إشارة إلى أمر معروف أو معهود. وعدم المجيء بها يشير إلى أنه غير معروف وغير معهود وللأهمية أشار إليه القرآن وكأنها دعوة لنا لنتطلع إلى هذا المجهول الهام.

غير أنه يمكن أن تكون الملائكة هي التي تجري هذه الأمور جميعاً بنفس التراتب السابق لكن لا يوجد شيء يمكن أن يؤكد أي من المحتملات ومثله ما جاء في قوله تعالى:

﴿ ***والمرسلات عرفاً*** ﴾[1] روى الطبرسي: عن أبي حمزة الثمالي، عن أصحاب علي، عنه ﷺ أنها الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه

---

(١) سورة المرسلات: ١.

﴿ **فالعاصفات عصفاً** ﴾[(١)] يعني: الرياح الشديدات الهبوب ﴿ **والناشرات نشراً** ﴾[(٢)] الملائكة تنشر الكتب عن الله ﴿ **فالفارقات فرقاً** ﴾[(٣)] هي آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿ **فالملقيات ذكراً** ﴾[(٤)] الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء وتلقيه الأنبياء إلى الأمم.

وقال البيضاوي: أقسم بطوائف من الملائكة أرسلهن الله متتابعة. فعَصفن عصف الرياح في امتثال أمره ـ ونشرن الشرائع في الأرض. أو نشرن النفوس الميتة بالجهل بما أوحين من العلم ففرقن بين الحق والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً، عذراً للمحقين، ونذراً للمبطلين، أو بآيات القرآن المرسلة بكل عرف إلى محمد ﷺ فعصفن سائر الكتب أو الأديان بالنسخ. ونشرن آثار الهدى والحكم في الشرق والغرب، وفرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكر الحق فيما بين العالمين أو بالنفوس الكاملة المرسلة إلى الأبدان لاستكمالها، فعصفن ما سوى الحق، ونشرن أثر ذلك في جميع الأعضاء. وفرقن بين الحق بذاته والباطل بنفسه، فرأين كل شيء هالكاً إلاّ وجهه.

فألقين ذكراً بحيث لا يكون في القلوب والألسنة إلا ذكرهم أو برياح عذاب أرسلن فعَصفن، ورياح رحمة نشرت السحاب في الجو، ففرقن فألقين ذكراً أي لتسبّبن له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها أو آثارها ذكر الله تعالى، وتذكّر كمال قدرته. و﴿ **عرفاً** ﴾ إما نقيض النكر وانتصابه على العلة. أي أرسلن للإحسان والمعروف أو بمعنى المتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحال.

---

(١) سورة المرسلات: ٢.

(٢) سورة المرسلات: ٣.

(٣) سورة المرسلات: ٤.

(٤) سورة المرسلات: ٥.

﴿ عذراً او نذراً ﴾ مصدران لعذر إذا محا الإساءة. وأنذر إذا خوف. أو جمعان لعذر بمعنى المعذرة ونذر بمعنى الانذار. أو بمعنى العاذر والمنذر، ونصبهما على الأولين بالعلية أي عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين، أو البدلية من ﴿ ذكراً ﴾ على أن المراد به الوحي أو ما يعمّ التوحيد والشرك والإيمان والكفر، وعلى الثالث بالحالية ـ وقرأهما أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص بالتخفيف[1].

هنا يتعدد التفسير ولعل تفسيرها بطوائف الملائكة أنسب حيث أن النتيجة النهائية هي إلقاء الذكر وهو الاعذار والانذار. فتكون الآيات متضمنة للفت أنظار البشر إلى أهمية الدور العظيم الذي تلعبه الملائكة في العمل على الهداية وحمل الرسالات إلى الأنبياء الذين تتوقف حركة الحياة الإنسانية على رسالتهم فبدون هذه الرسالات تتردى الحياة ويصل الإنسان إلى أدنى مستويات التردي حيث لا يستطيع العقل البشري إنقاذ الإنسان من الضلالات والأوهام التي يصنعها ثم تكبلهُ وتلتف على عنقه فلا يتاح له الانفلات إلاّ بقوة الوحي وحركة السماء التي تمارسها الملائكة فتعيد إليه القوة على الانطلاق وهذا يعني أن حركة التأريخ ترتبط ارتباطاً مباشراً بفعل الملائكة.

ومن جهة أخرى فإن الآيات التي تقع بين الإرسال عرفاً وإلقاء الذكر إنّما هي مراحل حركة الملائكة بين عالم الغيب وعالم الشهود وهي من الآيات الكبرى وبعبارة أخرى إن هذا الأمر الذي يقف منه الجاحدون موقفاً إنكارياً إنّما هو من الآيات الكبرى من ناحية أدائه أو نتائجه.

فالملائكة حين ترسل بالمعروف إلى البشر تعصف عصفاً وتنشر نشراً ثم تفرق فرقاً حتى تلقي ذكراً فالملائكة حين تلقي الذكر لا تنشره بل تبلغه إلى

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦٦ ـ ١٦٧.

رسل الله من الأنبياء وهم الذين ينشرونه بين النـاس ثـم إن الفرق يعنـي الفلق فهي تفرق فرقاً في أوساط الحركة قبل أن تصل إلى الأنبياء، وكل ذلك من المعجزات التي تستدعي الكثير من الشكر والتأمل لا الوقوف موقف اللامبالاة من هذا الأمر العظيم الذي هو أصلاً معجزة في الطبيعة، فالحركة بين عالم الغيب وعالم الشهود أمر عظيم، وكذلك هو عظيم بعيد وصوله إلى عالم الشهود حين يفرز التأثيرات العظيمة بقيادة الإنسان إلى أفق الكمال وبدونه فإنه يبقى حبيس أفق الكائن الأرضي الحيواني.

وهذا طبعاً مجرد أحد المحتملات وليس أكثر.

قوله تعالى: ﴿ *وَالصَّافَّاتِ صَفّاً* ❁ *فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً* ❁ *فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً* ﴾[1].

الصافات على ما قيل: جمع صافة وهي جمع صاف، والمراد بها على أي حال: الجماعة التي تصطف أفرادها، والزاجرات من الزجر وهو الصرف عن الشيء بالتخويف بذم أو عقاب، والتاليات من التلاوة بمعنى القراءة. فأما الصافات فقيل: إن المراد الملائكة تصف أنفسها في السماء صفوفاً كصفوف المؤمنين في الصلاة، وقيل: إنها الملائكة تصف أجنحتها في الهواء، إذا أرادت النزول إلى الأرض واقفة في انتظار أمر الله تعالى، وقيل: إنها الجماعة من المؤمنين يقومون في الصلاة أو في الجهاد مصطفين.

وأما الزاجرات فقيل: إنها الملائكة تزجر العباد عن المعاصي، فيوصله زجر الله إلى قلوب الناس في صورة الخطرات كما يوصل وساوس الشياطين، وقيل: إنها الملائكة الموكلة بالسحاب تزجرها وتسوقها إلى حيث أراد الله سبحانه. وأما التاليات فقيل: هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى إليه، وقيل: هي الملائكة تتلوا الكتاب الذي كتبه الله وفيها ذكر الحوادث[2].

---

(١) سورة الصافات: ١ ـ ٣.

(٢) تفسير الميزان: ١٧/ ١٢٠/ ١٢١.

إذا صدق التفسير فإن المذكور بالآية هم الملائكة وليست مخلوقات أخرى فإن الآية تشير إلى طبقات من الملائكة وهي: الطبقة الأولى التي تجمعت كصفوف، والثانية طبقة الزاجرات ثم طبقة التاليات ذكراً، وبحسب ما بعدها من الآيات فإن الذكر قد يكون الحوادث كما ورد في التفسير. وهذا الذكر الذي يأتي من الملأ الأعلى. والملأ الأعلى هم أعلى طبقات الملائكة والتي هي أخص الطبقات ونفس الشيء بالنسبة للذكر الآخر (النبوة) الذي ينزل من الملأ الأعلى إلى طبقة التاليات ومنه إلى طبقة الصافات ومنه إلى كل ما يتعلق به من الإشراف على الوجود.

وبهذه تكون الآية قد رسمت لنا العلاقة والحوادث وهي في اللوح المحفوظ، ومن ثم نزولها إلى طبقة التاليات، ومنها إلى طبقة الصافات، والحماية للعملية من طبقة الزاجرات التي هي صنف من الملائكة تمنع استماع الشياطين الذين يعمدون من خلال الإطلاع على ما في الذكر من الحوادث على إضلال الناس.

وهكذا فإن هذه السورة تضطلع بإلقاء الضوء على جزء هام من حركة الكون حيث النظام والتخصص في طبقات الملائكة التي هي الطبقات المركزية في الكون كما تشرح السورة وكيفية ارتباطها بالسماء الدنيا، فهناك الملأ الأعلى ولعله يمثل هيئة إشراف عليا، وتليها هيئة الكتبة الذين يستلمون حوادث اللوح المحفوظ، فيسلمونه إلى الملائكة الصافات والتي تقع في آخر مرحلة قبل التنفيذ، وما يلزم ذلك من عملية حماية للمعلومات الهامة من تدخل الشياطين المخربين، والذين يقودون إلى الفساد.

ولعل النموذج الهام للحوادث هي حوادث النبوة التي تسردها الآيات اللاحقة، والآيات الباهرة، وفي النهاية تعرج توضح أن الصافون هم الملائكة، وأنهم ذوو مقامات من السماء، وهذه المقامات ترتبط بمهامهم.

على أن ذلك لا يحسم القضية ويترك فسحة للقول بأن هؤلاء هم مخلوقات أخرى سوى الملائكة، أو على الأقل طبقات خاصة جداً ومميزة منهم تميزت بخصوصية الدور والإشراف، ونلاحظ القرآن في معرض هذه الآيات أنه أشار إلى بعض العقائد الضالة في الملائكة، حيث يعتقد البعض أن الملائكة هم إناث، فتنفي الآيات هذا التقول الجزافي بشدة، وتؤكد أنّه قول لا دليل عليه سوى التخرص والتقول، وهو من الباطل.

وقال تعالى: ﴿ *والصّافات صفّاً * فالزّاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً* ﴾[1] قال في قوله تعالى: ﴿ *والصّافّات صفّاً* ﴾ هذه الأشياء الثلاثة المقسم بها يحتمل أن تكون ثلاث لموصوف واحد، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة أما على التقدير الأول ففيه وجوه:

الأول: إنها صفات الملائكة، وتقريره أن الملائكة يقفون صفوفاً إما في السماوات لأداء العبادات كما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿ *وإنّا لنحن الصافون* ﴾[2]، وقيل: إنهم يصفون أجنحتهم في الهواء ويقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم، ويحتمل أيضاً أن يقال: معنى كونهم صفوفاً أن لكل واحد منهم مرتبة ودرجة معينة في الشرف والفضيلة، أو في الذات والعلية، وتلك الدرجات المترتبة باقية غير متغيرة، وذلك نسبة الصفوف. وأما قوله تعالى: ﴿ *فالزّاجرات زجراً* ﴾ فقال الليث: زجرت البعير أو زجره زجراً إذا حثثته ليمضي، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر أي نهيته فانتهى. فعلى هذا الزجر للبعير كالحث، وللإنسان كالنهي، فنقول في وصف الملائكة بالزجر وجوه:

الأول: قال ابن عباس: يريد الملائكة الذين وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى أنه يأتون بها من موضع إلى موضع.

---

(١) سورة الصافات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة الصافات: ١٦٥.

الثاني: المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهامات. فهم يزجرونهم عن المعاصي زجراً.

الثالث: لعل الملائكة أيضاً يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء.

وأقول: قد ثبت في العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وهو أشرف الموجودات، ومتأثر لا يؤثر، وهو عالم الأجسام وهو أخس الموجودات. وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء آخر وهو عالم الأرواح. وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله، ثم إنها تؤثر في عالم الأجسام، واعلم أن الجهة التي باعتبارها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التي باعتبارها تستولي على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها. وقوله ﴿ *فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً* ﴾ إشارة إلى الأشرف من الجهة التي باعتبارها يقوى على التأثير في عالم الأجسام. إذا عرفت هذا فقوله: ﴿ *وَالصَّافَّاتِ صَفّاً* ﴾ إشارة إلى وقوفها صفاً صفاً في مقام العبودية والطاعة والخضوع والخشوع. وهو الجهة التي باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية. وقوله تعالى: ﴿ *فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً* ﴾ إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية في تنوير الأرواح القدسية البشرية، وإخراجها من القوة إلى الفعل وذلك أنه كالقطرة بالنسبة إلى البحر، وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القوة إلى الفعل في المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظير قوله تعالى: ﴿ *يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ* ﴾[1]، وقوله: ﴿ *نَزَلَ بِهِ*

---

(١) سورة النحل: ٢.

﴿ الرّوح الأمين ❁ على قلبك ﴾[١]، وقوله: ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾[٢]. إذا عرفت هذا فنقول: في هذه الآية دقيقة أخرى، وهي أن الكمال المطلق للشي إنما يحصل إذا كان تاماً وفوق التام. والمراد بكونه تاماً أن تحصل الكمالات اللائقة به حصولاً بالفعل. والمراد بكونه فوق التام أن يفيض منه أصناف الكمالات والنوالات على غيره، ومن المعلوم أن كونه كاملاً في ذاته مقدم على كونه مكملاً لغيره. إذا عرفت هذا فقوله: ﴿ والصّافّات صفا ﴾ إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها وقت وقوفها في مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة. وقوله تعالى ﴿ فالزّاجرات زجراً ﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزالة ما لا ينبغي عن جواهر الأرواح البشرية. وقوله تعالى: ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأنوار الناطقة البشرية. فهذه مناسبات عقلية واعتبارات دقيقة تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة.

الثاني: أن تحمل هذه الصفات على نفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض، وبيانه من وجهين: أن قوله ﴿ والصّافّات صفّاً ﴾ المراد به الصفوف الحاصلة عند أداء الصلاة بالجماعة. وقوله: ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ إشارة إلى قراءة *(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)* كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس في قلوبهم في أثناء الصلاة. وقوله: ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾، إشارة إلى قراءة القرآن في الصلاة وقيل: إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت.

---

(١) سورة الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) سورة المرسلات: ٥.

والوجه الثاني: أن المراد بالأول: الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين، الذين يدعون إلى دين الله تعالى. وبالثاني: اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات. وبالثالث: اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله، والترغيب في العمل بشرائع الله.

الوجه الثالث: أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، فالمراد بالأول: صفوف القتال، كقوله تعالى: ﴿ *إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا* ﴾[1] وبالثاني: رفع الصوت بزجر الخيل، وبالثالث: اشتغالهم وقت شروعهم في محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله بالتهليل والتقديس.

والوجه الرابع: أن نجعلها صفات لآيات القرآن: فالأول المراد به كونها أنواعاً مختلفة بعضها في دلائل التوحيد. وبعضها في بيان التكاليف والأحكام، وبعضها في تعليم الأخلاق الفاضلة. وهذه الآيات مترتبة ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل، فهي تشبه أشخاصاً واقفين في صفوف معينة. وبالثاني: الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة. وبالثالث: الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير ووصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال: شعر وشاعر وكلام قائل، قال تعالى: ﴿ *إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ* ﴾[2]، وأما الاحتمال الثاني: فهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة، فقيل المراد بقوله: ﴿ *وَالصَّافَّاتِ صَفًّا* ﴾ الطير من قوله تعالى: ﴿ *وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ* ﴾[3] والزاجرات كل ما زجر عن معاصي الله، والتاليات كل ما يتلى من كتاب الله.

وأقول: فيه وجه آخر، وهو أن المخلوقات إما جسمانية وإما روحانية، أما الجسمانية فإنها مترتبة على طبقات ودرجات لا يتغير البتة، فالأرض وسط

---

(١) سورة الصف: ٤.

(٢) سورة الإسراء: ٩.

(٣) سورة النور: ٤١.

العالم وهي محفوفة بكرة الماء، والماء محفوف بالهواء، والهواء بالنار. ثم هذه الأربعة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسماني. فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى «وأما الجواهر الروحانية الملكية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين:

أحدهما التأثير في عالم الأجسام بالتحريك والتصرف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ *فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً* ﴾ فإنا بيّنا أن المراد من هذا الزجر: السوق والتحريك والثاني: الإدراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله والثناء عليه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ *فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً* ﴾، ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المشتغلة بالتصرف في الجسمانيات وهي أدون منزلة من الأرواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال ﴿ ***وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ*** ﴾[١]، لا جرم بدأ في المرتبة الأولى بذكر الأجسام، ثم ذكر الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم، ثم ذكر أعلى الدرجات وهي الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه، فهذه احتمالات خطرت بالبال والعالم بأسرار كلام الله ليس إلا الله»[٢].

إذا كانت هذه الآيات تنطوي على عدة احتمالات فإنه لا يمكن الخروج بنتيجة قطعية فهي أولاً يمكن أن تكون أوصاف لموصوف واحد أو لا تكون ولهذا فإن تفسيرها بأنها أوصاف للملائكة سيكون أحد المحتملات، وربما كان جزءاً منها يخص الملائكة وجزءاً لا يخصّها، ولهذا فإن الحديث عن المهام هو الذي يعدّ محرزاً، لكن الآيات الأخرى التي تحدثت عن الملائكة تشير إلى أن هذه المهام هي من مهام الملائكة. كما أن عدم التعبير الصريح بأنها هي الملائكة يفسح مجالاً لتفسيرها بأنها مخلوقات أخرى.

---

(١) سورة الأنبياء: ١٩.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٥٦ ـ ١٦٠.

﴿ *وَالصَّافَّاتِ صَفًّا* ﴾[1] يمكن أن تكون هي المصطفة أو أنها تقوم بجعل سواها صفاً وكما هي العادة وعلى كلا الاحتمالين فإن القرآن لا يعتني بالأشياء الصغيرة لكنه يعتني بالأشياء الهامة، ولهذا فإن نفس ذكر هذا الصف هو آية عظيمة من آيات الله اقتضت لفت نظر البشر إليها، لأن كل الحديث أصلاً إنما هو لهداية البشر إلى عظمة الله وإطلاعهم على بعض النقاط الهامة في الوجود.

فهناك إذاً صف وهناك صافات فما هي طبيعة هذا الصف الذي اقتضى من الباري ذكره؟ وما هي الصّافّات صفّاً؟ فإن كانت هي الملائكة، فهي جزء هام من الملائكة. وإن كانت جزءاً من سواها فإنها لكذلك، قد يصدق عليه صفوف العلماء أو المجاهدين، أو صفوف في ضمير الغيب سيّرها الله، فتحدث بأثرها أعاجيب بناءً على أن بعض القرآن يفسره المستقبل وإن كانت هي التي تصف فربما أن هذا الصف طبقة من الملائكة أو البشر، ولعظمة هذه الكائنات والدور الكوني الهام الذي تؤديه ولغموضه فإن القسم جاء هنا للتنبيه إلى وجود هذا الأمر وعظمته.

وكذلك بالنسبة للزجر فإنه ربما يكون زجراً لكل الموجودات لكي تلزم مساراً معيّناً فإنه أيضاً يمكن أن يفسر بالموجودات جميعاً أو بعضاً منها، وهو يشبه ما يعرف بالفيزياء بالمجال، حيث أن لكل قوة حيزاً معيناً من الفعل، وتخسره خارجة وتفقد فاعليته، إلا أن عمومية الآية يجعله شاملاً حتى للأرواح، حيث أن تأثيرها وتأثرها كذلك محدود بحدود، ولعل كلمة زجر لا تعني سوى الحركة ضمن حد أو حيز خاص، والافتقار إلى الإطلاق وبنفس الطريقة فإن عملية الزجر إنما تقوم بها هذه الزاجرات وهي التي تحافظ على هذه الحدود، فكما يتم زجر الغيوم بحيث تلزم مساراً، أو زجر الخيل، أو

---

(١) سورة الصافات: ١.

زجر الشياطين، فإنه يمكن أن يكون عاماً لكل الموجودات لكي تلزم أطراً معينة.

قوله تعالى: ﴿ *فالتاليات ذكراً* ﴾[1]، يمكن أن يكون تعبيراً عن تلاوة آيات الله وهداه، وهي كما قلنا لا تختص بالإنسان والكتب التي نزلت على الأنبياء بل هو ذكر عام وهو كله ذكر من الله، لأن الله مصدر العلم والهدى وبالتالي فإن عملية الزجر إنما تتم تبعاً لهذه التلاوة.

وإذا كانت هذه مترابطة فإن الصافات تشكل صفاً تزجر به الموجودات عن المروق عن الهدى الذي تتلوه، وإن كانت منفصلة فإنها عمليات هامة بنفس الكيفية.

وإذا ثبت أن هذه الموصوفات ليست للملائكة فإنها تكون لكائنات أخرى مكلفة بهذا الأمر الهام على صعيد الكون ولا شك أنه دور خطير على صعيد الوجود، إذ بدونه لا يبقى لشيء وجود وبالتالي فإن البناء الكوني ينهار لانهيار الحدود بعد إقرار هذه الحدود فالآيات أشارت إلى طبيعة الوظيفة، ولكنها لم تشر إلى شيء آخر خصوصاً أن هذه موصوفة بالتأنيث والقرآن غالباً ما يصف الملائكة بصفة التذكير، وهذا يفتح الأفق لأن نرى فيها قوى الطبيعة التي تلزم الأشياء حدودها وأبعادها وهي مهام تمارسها الطبيعة بإشراف الملائكة.

ويمكن تصور التلاوة على أنها برنامج لحركة الموجودات من البداية والنهاية ذلك أن النتيجة النهائية ستكون حركة الوجود عبارة عن صفوف مضبوطة الخطوات وفقاً لبرنامج، أي أنها خالية من العشوائية والشذوذ، والزجر بمعنى الحث، والنهي هو المحافظة على هذه الصفوف فهو حث الموجودات على الحركة ونهيها عن الخروج على الآفاق المرسومة وهذا لا

---

(١) سورة الصافات: ٢.

يمكن بدون العلم والهدى الذي يسميه القرآن بالذكر فهو الذي بين الحدود في كل مقطع زمني وهذا نلاحظه في حركة الأجرام جميعها سواء الذرات أو المجموعات الشمسية والمجرات.

ويأتي في هذا السياق الآيات التالية:

قوله: ﴿ **والنازعات غرقاً** ﴾(١) اختلف في معناه على وجوه: أحدها أنه يعني الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار عن أبدانهم بالشدة، كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد. روي ذلك عن علي عليه السلام وغيره وقال مسروق: هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم. وقيل: هو الموت ينزع النفوس، عن مجاهد، وروي ذلك عن الصادق عليه السلام.

وثانيها: أنها النجوم تنزع من أفق إلى أفق أي تطلع ثم تغيب، قال أبو عبيدة: تنزع من مطالعها ونفرق في مغاربها.

وثالثها: النازعات القسي تنزع بالسهم، والناشطات الأوهاق فالقسم بفاعلها وهم المجاهدون.

﴿ **والناشطات نشطاً** ﴾(٢) فيه أيضاً أقوال:

أحدها: ما ذكرناه.

وثانيها: أنها الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافهم بالكرب والغم عن علي عليه السلام والنشط الجذب يقال: نشطت الدلو نشطا نزعته.

وثالثها: أنها الملائكة تنشط أنفس المؤمنين فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنها، عن ابن عباس.

---

(١) سورة النازعات: ١.

(٢) سورة النازعات: ٢.

ورابعها: أنها أنفس المؤمنين تنشط عند الموت للخروج عند رؤية موضعه من الجنة، عن ابن عباس أيضاً.

وخامسها: أنها النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي تذهب يقال: حمار ناشط.

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴾[١]، فيه أقوال أيضاً:

أحدها: أنها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رفيقاً ثم يدعونها حتى تستريح كالسابح بالشيء في الماء يرمى به، كما ورد عن علي عليه السلام.

وثانيها: أنها الملائكة ينزلون عن السماء مسرعين. وهذا كما يقال للفرس الجواد السابح إذا أسرع في جريه.

وثالثها: أنها النجوم تسبح في فلكها وقيل: هي خيل الغزاة تسبح في عدوها كقوله: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾[٢] وقيل : هي السفن تسبح في الماء[٣].

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾[٤] فيه أيضاً أقوال:

أحدها: أنها الملائكة لأنها سبقت ابن آدم بالخير والإيمان والعمل الصالح وقيل: إنها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، وقيل: أنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، عن علي عليه السلام.

وثانيها: أنها أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها وقد عاينت السرور، شوقاً إلى رحمة الله ولقاء ثوابه وكرامته.

وثالثها: أنها النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير.

---

(١) سورة النازعات: ٣.

(٢) سورة العاديات: ١.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦٨ - ١٧٠.

(٤) سورة النازعات: ٤.

ورابعها: أنها الخيل يسبق بعضها بعضاً في الحرب.

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾[1] فيها أيضاً أقوال:

أحدها: أنها الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة. كما ورد عن علي عليه السلام.

وثانيها: أن المراد بذلك جبرئيل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل عليهم السلام يدبّرون أمور الدنيا، فأما جبرئيل عليه السلام فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو يتنزّل بالأمر عليهم.

وثالثها: إنها الأفلاك يقع فيها أمر الله تعالى فيجري بها القضاء في الدنيا رواه علي بن إبراهيم[2].

فليس ينتظر أن تصف بالسيف الخيل، لأن الخيل جميعاً تسبق بعضها ولذلك لابد أن يختص السبق ببعضها ولهذا لا يصح أن تفسر بالخيل عموماً، بل بالخيل السريعة منها، وعلى هذا فلا بد من افتراض سبقها للّتي من جنسها أو من عداه إلى شيء، بينما إذا ارتبطت بغيرها فإن الصورة هي السبق لتدبير أمرها وليس لمجرد السبق ولعل ذكر حرف ألف في ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ ﴾ أمر يفيد هذا المضمون.

ولكي تبقى كذلك قابلة لأكثر من مصداق.

جميع هذه الآيات من اللاتي تستقبل أكثر من محتمل وتدور نفس مدار الآيات السابقة وهي فسّرت بالخيل، أو النجوم، أو الملائكة، ولكن هذا لا يتنافى بأنها غير ذلك كله.

---

(١) سورة النازعات: ٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٧٠.

ولكن التفسير بأنها الملائكة تنزع أرواح الكفار عن أبدانهم بالشدة فإن الآية التالية فسرت بنفس التفسير، وهذا يثير التساؤل فلماذا يكرر القرآن في آيتين نفس الصورة حول نزع أرواح الكفار؟ وحتى لو فسرت بأرواح المؤمنين فإن المضمون لا يتغير كثيراً، وكذلك بالنسبة للآية الثالثة، وهذا طبعاً مشكل فلماذا يعبر القرآن عن صورة واحدة بثلاثة تعابير؟.

ولهذا فإن اختيار تفاسير أخرى سيكون أنسب، ولابد أن كل مقطع يحتوي على دلالة هامة تتفاوت عن الأخرى، فلو كانت جميع الصور تخص الملائكة فإن هذه الصورة صور النزع غرقاً تفيد الإمعان في الفرق والفرق ليس بالماء فقط. وبعد هذا الإمعان تنشط نشطاً فتسحب هذا الذي من أجله غرقت وأمعنت في الغرق ثم تسبح سبحاً، وإن صورة من هذا النوع يمكن أن يكون لها مصاديق كثيرة، ولعلها تنطبق على وصف حال الملائكة من مهام غامضة في أعماق الكون، أو أنها المخترعات الحديثة كالغوّاصات التي تمعن في الفرق في أعماق البحر ثم تنشط نفسها من الأعماق حتى السطح فتسبح فيه كالسفن.

ومع كل ذلك فإن الذي يمكن أن يتأكد الصورة الكلية وهي النفوذ في الأعماق، ثم الخروج، ثم الحركة الهادئة، ولذلك فإن حسم المسألة يحتاج إلى قرائن أخرى لتحديد المقصود الأكيد من هذه الآيات العظيمة.

وقال في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾[1]، أي هذا القرآن أو هذه التذكرة في كتب معظمة عند الله، وهي اللوح المحفوظ، وقيل: يعني كتب الأنبياء المنزلة عليهم، ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾[2]، في السماء السابعة، وقيل مرفوعة قد رفعها الله عن دنس الأنجاس، ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾، لا يمسها إلاّ المطهرون، وقيل:

---

(١) سورة عبس: ١٣.

(٢) سورة عبس: ١٤.

مصونة عن أن تنالها أيدي الكفرة لأنها في أيدي الملائكة، في أعز مكان، وقيل: مطهرة من كل دنس وقيل: مطهرة من الشك والشبهة والتناقض، ﴿*بِأَيْدِي سَفَرَةٍ*﴾[١]، يعني الكتبة من الملائكة، وقيل: السفراء بالوحي بين الله تعالى وبين رسله من السفارة، وقال قتادة: هم القراء يكتبونها ويقرؤونها، وروي فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام قال الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة كرام على ربهم، بررة مطيعين. وقيل: كرام عن المعاصي يرفعون أنفسهم عنها بررة أي صالحين متقين[٢].

في الآية إشارة إلى تجانس بين الرسل والرسالة وكلاهما كريم طاهر وحتى اللوح المحفوظ فإنه طاهر من جميع أشكال الدنس، فهذا طريق طاهر يمتد من اللوح المحفوظ مروراً بالملائكة سفراء الوحي، ثم إلى رسل الله من البشر، ولعل اللوح المحفوظ أوسع من احتوائه على الرسالات فقط، بل لعله يحتوي على البرنامج الكوني بجميع تفاصيله ودقائقه. وبما أنه متحرك فإنه يتابع هذه الحركة التي تحتوي على أعداد هائلة من خطوط المعلومات التي تتابع الأحياء والجمادات بما فيها من أجرام وأشعة وغير ذلك.

فضلاً عن إفادته إلى أن عملية النقل تكون سليمة ولا تخضع إلى أي استغلال كما هو معروف في عالم البشر، إذ يمكن أن تكون المعلومات عن البشر أو المشاريع أو عن المستقبل عرضة للتلاعب والتوجيه لمصلحة الناقل أو من يربطه به هوى، وهذا أيضاً يفيد عظمة الكون خارج دائرة الإنسان من النزعات الخطرة الشريرة وصلابته ضد التلاعب.

---

(١) سورة عبس: ١٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧١.

الملائكة، عقابها وثوابها

أما بالنسبة لعقاب وثواب الملائكة فقد أورد المصنف ما يلي:

«عن المرتضى أيضاً: إذا حصل أهل الجنة في الجنة ما حكم الملائكة؟ هل يكونون في جنة بني آدم أو غيرها؟ وهل يراهم البشر؟ وهم يأكلون ويشربون مثل البشر أو تسبيح وتقديس؟ وهل يسقط التكليف وكذلك الجن.

فأجاب ﷺ أنه يجوز أن يكونوا في الجنة مع بني آدم، ويجوز أن يكونوا في جنة سواها، فإن الجنان كثيرة: جنة الخلد، وجنة عدن، وجنة المأوى، وغير ذلك ممّا لم يذكره الله تعالى. فأما رؤية البشر لهم فلا يصلح إلا على أحد وجهين. إما أن يقوي الله تعالى شعاع بصر البشر، أو يكثف الملائكة. فأما الأكل والشرب فتجوز، والله تعالى يثيبهم بما فيه لذتهم فإن جعل لذتهم في الأكل والشرب جاز، وأما التكليف فإنه يسقط عنهم، لأنه لا يصح أن يكونوا مكلفين مثابين في حالة واحدة. والكلام في الجن يجري هذا المجرى»[1].

وهنا جاء ببيان عن حال الملائكة بعد يوم القيامة فهو ما لم تبينه صراحة الآيات أو الروايات أسوة بحاول أخرى من قبيل الترحاب بالمؤمنين وبسوقهم إلى الجنة زمراً، وأنهم بعد أن يحلّوا فيها تحييهم بالسلام. ومن الواضح أن الملائكة لا تتغير عما هي عليه فهي لا تأكل أو تشرب أو تنكح. وهذا خاص بالبشر، وليس في الجنة إلا الأكل والشرب والنعيم والرفاه من متع بني آدم فهذا طبعاً لا يصح للملائكة ما لم يتغير تركيبها وهذا لا دليل عليه. والجنة

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢١٠ - ٢١١.

والنار تحتاج إلى استمرار دور الملائكة ما عدا الكتبة والحافظين، أنهم المشرفون على الأجرام وليس على الجن ذلك لأن الجن مكلفين كالبشر بصريح القرآن، وإن الخطاب لهما معاً وهذا يعني أنهم مثابون كالبشر.

الفصل الثالث

أشكال علاقات الملائكة وتفاصيلها

- أشكال العلاقات
- علاقة الحب والبغض والأساس الإيماني
- التجاذب والتنافر في الطبيعة والحياة
- الإيمان كأساس لعلائق الملكوت
- أشكال علائق الحب
- ضرورة الارتباط بالملائكة
- الاصطفاء والهداية
- البشارة والارتباط بين الغيب والشهود
- علاقة الحفظ والهيمنة
- العلاقات المنحرفة
- التصورات المنحرفة

أشكال العلاقات

لقد قلنا في الفصل السابق أنّ أصل عملية إخبار الملائكة بخلق آدم ﷺ إنما جاءت لإشعارهم بطبيعة العلاقة الجديدة التي ستنشأ بينهم وبين هذا المخلوق، بما أنها مهمة إضافية تقوم بها ضمن المهام الأخرى التي كانت مسؤولة عنها بالأصل، وتتجسد بثلاثة أشكال كالآتي:

١ ـ علاقة الحب والبغض وهي علاقة تعتمد أساساً على الإيمان.

٢ ـ علاقة الرسالة (الرسل الملائكة، الرسل البشر، تأتي مقترنة بعلاقة الحفظ).

٣ ـ علاقة الهيمنة والحفظ.

٤ ـ العلاقة المنحرفة بالملائكة.

علاقة الحب والكره والبغض والأسس الإيماني

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ❁ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾[1].

«قال الطوسي ﷺ روي: إنّ ابن صوريا وجماعة من يهود فدك أتوا النبي ﷺ فسألوه عن مسائل فأجابهم. فقال له ابن صوريا، خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك: أي ملك يأتيك بما أنزل الله عليك؟ قال: فقال: جبرئيل. قال: ذلك عدونا وينزل بالقتال والشدة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنا بك، فأنزل الله هذه الآية ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لا من تلقاء نفسه وإنما إضافة إلى قلبه لأنه إذا أنزل عليه كان يحفظه ويفهمه بقلبه، ومعنى قوله ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾: بأمر الله. وقيل: أراد بعلمه أو بإعلام الله إياه: ما ينزله على قلبك ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾، أي من الكتب موافقاً لها ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناه كان فيما أنزله من الأمر بالحرب والشدة على الكافرين فإنه هدى وبشرى للمؤمنين ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ معناه من كان معادياً لله أي يفعل فعل المعادي من المخالفة والعصيان. وقيل المراد معاداة أوليائه ﴿ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ أعاد ذكرهما لفضلهما، ولأن اليهود خصّوهما بالذكر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ إنما لم يقل (لهم) لأنه قد يجوز أن ينتقلوا عن العداوة بالإيمان»[2].

---

(١) سورة البقرة: ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) بحار الأنوار: ١٤٨ ـ ١٤٩.

لقد بين النص السابق أن سبب نزول الآية هو اليهود الذين رفضوا قبول الوحي، اعتذاراً بأن الذي جاء به هو أحد أعدائهم من الملائكة الذين يأتونهم بالحرب، فهو لذلك مكروهاً عندهم، ولما ينطوي عليه قول من هذا النوع من تجاوز حقيقة مهمة في وجود الملائكة هي كونهم لا يقدمون ولا يؤخرون شيئاً إلا بأمر الله تعالى، وهكذا فإن علاقة الكره تسري من خلال الواسطة (الملائكة) إلى العلة الأصلية إلى (الله سبحانه وتعالى)، ولهذا فإن الله كشف هذه المغالطة المبطنة في مدعيات هؤلاء. والظاهر أن التعبير بالكافرين عنهم لبيان أن هذا أيضاً من موجبات كفرهم وتدل الآية على أنه يجب محبة الملائكة وأن عداوتهم كفر.

وهذه النقطة نقطة مركزية في البحث لأن النص يؤكد وجوب محبة الملائكة وأن بغضهم يضع المبغض في الاتجاه الآخر، وهكذا ننفتح على نوع من التقابل بين معسكر الحب ومعسكر البغض فحب الملائكة يضع الإنسان في دائرة المؤمنين وهم معسكر خاص يضاد معسكر آخر يكره الملائكة، وهم الذين وصفتهم الآية بالكفر، ولنا أن نتخيّل وجود فئة من البشر تحب الملائكة وتحبها الملائكة، وفئة أخرى تكرهها الملائكة وهي بدورها تكره الملائكة، وإذا أضفنا إلى هذه المعسكرات طائفة الجن الذين يشبهون البشر من جهة الحب والبغض فإن العلاقة تتعدد فهناك جن يحبون الملائكة وجن يكرهون الملائكة ومثلهم من البشر، ويتفرع عن ذلك علاقة حب بين بعض البشر تؤدي بهم إلى التحول إلى فئة بذاتها، تبغض فئة مقابلة، ويمكن تخيل المعادلة بهذه الصورة.

١ ـ علاقة حب:

أ ـ الملائكة ⇔ تحب بشر

ـ الملائكة ⇔ تحب جن

ب ـ جن ⇔ يحب جن

ـ بشر ⇔ يحب بشر

٢ ـ علاقة بغض:

أ ـ ملائكة ⇔ تبغض بشر

ـ ملائكة ⇔ تبغض جن

ب ـ جن ⇔ يبغض جن

ـ بشر ⇔ يبغض بشر

٣ ـ حب:

ـ جن ⇔ يحب بشر

٤ ـ بغض:

ـ جن ⇔ يبغض بشر

فهنا حالات من المحبة وحالات من التباغض تسفر عن وضع مستقطب بين الجماعات الحية (البشر والجن والملائكة) وهي تشبه ما هو موجود بين المواد الجامدة من قوى التجاذب والتناحر وكأنها شكل متكيف (الحب والكره).

وإذا صدق هذا الأمر فإننا سنجد نوعاً من الوحدة في القوانين بالنسبة للأحياء والجمادات، فإن علاقة الجسيمات المادية ما دون الذرية التي هي مخلوقات تدخل بمجرد وجودها ضمن علاقات الاستقطاب (التنافر ـ التجاذب) وأن البشر بمجرد أن ولدوا آدمعليه السلام دخلوا في علاقة استقطاب، إذ نشأت علاقة حب بين آدم والملائكة وعلاقة بغض بين الجن (الشيطان) وآدم (الإنسان).

وهكذا فإن قوانين الطبيعة تكيفت لتنتج الشكل الملائم من القوى للكائنات الإرادية الحية، وإذا تأملنا في إحدى الذرات فإننا نلاحظ أن علاقة التجاذب بين الالكترون والبروتون فعالة ضمن أبعاد شاسعة، وأن قوى الكهرباء تملأ هذه الفاصلة بينهما فيكون الوجود كله مشحون، وعلى ذلك يتأسس البناء الكوني.

وإذا عدنا إلى الأحياء فإن الحب والكره متأسس بنفس الطريقة ويؤدي في النهاية إلى تشكل الوحدة الجنسية للنوع، لأنه يخلق التماسك داخل كل نوع حي من جهة وبين بقية الأنواع من جهة أخرى فيؤدي مهمة صغيرة داخل النوع ومهمة أخرى على صعيد الكون برمته. وفي نفس الوقت يؤجج الصراع بين الأطراف المتباغضة وبالتالي فإن هذه المشاعر ستتحول إلى أداة التفاعل بالنسبة للأحياء.

ومن هنا نرى أن الإنسان ومنذ اللحظة الأولى لخلقه دخل في حالة تفاعل واستقطاب، فكانت لحظة وجوده عبارة عن اللحظة التي استيقظ فيها الملكوت، وبدأت الأحياء فيها تفاعلها الذي لا يزال مستمراً بالاعتماد على القوى العاطفية باعتبارها المحرك الرئيسي.

لقد انتقل الوجود الحي بعد خلق الإنسان إلى طور خاص من التفاعل تلعب العواطف فيه الدور الأساسي، ولذلك فهو دور يتجسد تبعاً لنوعية

العواطف، فإن كانت عواطفَ منضبطة تخضع لميزان العقل وتدار بواسطته، فإن التفاعل هنا سيكون إيجابي يخلق حالة من النماء والثراء للحياة، وإن كانت العواطف منفلتة لا تخضع لقيود فإن التفاعل هنا سيكون سلبياً وأن نتائجه تؤدي إلى الاضطراب والتدهور.

إنها في جميع أحوالها تشبه القوى المغناطيسية التي تجعل من قطعة المغناطيس قادرة على البروز كمغناطيس وكدلالة على انسجام قوى جزئياتها، وبروز الاستقطاب المغناطيسي عليها، وفي حال اضطراب هذه الجزئيات فإنها ستكون مجرد قطعة جديدة لا مغناطيسية فيها.

فالحب ينتج قطعة متحابة من البشر وكذلك بالنسبة للجن أو الملائكة، ونفس الشيء بالنسبة لعاطفة الكره لكنه غير متصور داخل جماعة الملائكة لأنها جماعة مؤمنة بالكامل، أما الجماعة البشرية المؤمنة فانه موجود بينهم لكنه موجه ضد الجزء الكافر منها ويصدق هذا على الجن أيضاً كما أنه موجود داخل كل جماعة كافرة وضد بعضهم بعضاً كما تقول الآية ﴿*الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين*﴾[1].

ومن هناك تبدأ عملية التفاعل في وعاء الموجودات الواعية الذي تصل به المخلوقات إلى الأفق التكاملي المرسوم لها وتبعاً للإمكانات التي تمتلكها. وبعبارة أخرى تتحول القوى الكامنة إلى حالات فعلية، فهنا علاقة تنافي أو تباغض بين الشيطان والإنسان، وعلاقة محبة وتآزر بين الملائكة والإنسان. يقول مؤلف كتاب آدم﵇ البهي الخولي: «يطول بنا المقام إذا مضينا نحصي خصائص الملائكة وعلاقتها بنا، فنكتفي بخصوصيتين لهما أوثق الصلة بالخلافة التي أسندت إلينا، أما الأولى: فهي أن النور ما برح سلاحاً من

---

(١) سورة الزخرف: ٦٧.

أسلحة الرجل المستقيم وعوناً له ولأمر ما جعل الله الملائكة وهم من نور عوناً لأهل الحق. أما الثانية: فهي أن من خصائص النور الهداية إلى الخير والنفع))[1].

وهكذا يعرض القرآن لنا صورة لتيار كوني يعتمد التعاضد والتآزر بين المخلوقات الرئيسية في الكون، فالإنسان ليس مخلوقاً وحيداً في هذا الكون بل هناك ملائكة وجن، جن يحبون الإنسان وهناك ملائكة يحبون الإنسان. وهناك بشر يحبون الجن وكذلك جن يحبون الإنسان وكل ذلك مؤسس على أرضية الإيمان أو الكفر، فهناك بشر كفار يعادون الملائكة كما ورد في النص الثاني وهناك أيضاً جن (شياطين) يكرهون البشر المؤمنين والملائكة.

تيار من المحبة والتعاضد بين المخلوقات في مقابل تيار آخر، فدائرة الوجود بهذه السعة مترابطة متشابكة العلاقات علاقات داخل دائرة الإنسان وعلاقات داخل دائرة الجن وكلا الدائرتين ترتبطان بالملائكة إما بالحب أو بالكره. بينما لا يحدثنا القرآن عن دائرة من التضاد داخل دائرة الملائكة ويمكن الاستفادة من النصوص التي جاءت في الكتاب العزيز لتأييد هذه المعالم جميعاً.

فقد جاء من تفسير الآية: ﴿ ***قل من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك..*** ﴾ السياق يدل على أن الآية نزلت جواباً عما قالته اليهود وأنهم تأبّوا واستنكفوا عن الإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلّلوه بأنهم عدو لجبريل النازل بالوحي إليه. والشاهد على ذلك أن الله سبحانه يجيبهم في القرآن وعن جبريل معاً في الآيتين وما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم: إنّا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به أولاً: إن جبريل إنما نزل به على

---

(١) آدم عليه السلام فلسفة تقويم الإنسان وخلافته: ٨١ - ٨٢.

قلبك بإذن الله لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا ينبغي أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله وثانياً: أن القرآن مصدقاً لما في أيديهم من الكتاب الحق، لا معنى للإيمان بأمرٍ والكفر بما يصدقه. وثالثاً: أن القرآن هدى للمؤمنين به. ورابعاً: أنه بشرى وكيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية ويغمض عن البشرى ولو كان الآتي بذلك عدواً له[1].

فهذا العداء واضح نابع عن عدم الإيمان والطاعة لله وهو قائم بين بعض البشر وبين الملائكة وقد سمى هؤلاء أعاظم الملائكة فيكون أساس الحياة العاقلة الحية قائم على الحب والكره كمقابل للتنافر والتجاذب في الجوامد (الكائنات العاقلة هي الملائكة والجن والبشر) تتفاوت في تكوينها فالملائكة تشترك مع الجن والبشر بالعقل والشعور وتختلف عنهم في أنها بلا شهوة. لذا فإن الحب فيها نابع من العقل فهو موضوعي خالي من الذاتيات والمشاعر السلبية وكذلك البغض عندها، بينما يكون الحب والبغض في الإنسان والجان ذا منشأ مشترك عقلي شهواني في آن واحد.

وإذا كان ذلك صحيحاً فإننا نتخيل وجود مثلث علاقات محبة يشمل (ملائكة، بشر، جان) مقابل مثلث علاقات البغض ويشمل أيضاً (ملائكة، بشر، جان) هذان المثلثان يتقابلان ليشكلا الوجه المتحرك لعالم الحياة.

التجاذب والتنافر في الطبيعة والحياة

يكاد الكون يعتمد اعتماداً كلياً على علاقات التجاذب والتنافر بين أجزائه. فهو الأساس الذي بنيت عليه المادة، لكنه في عالم الحياة يتخذ طابعاً خاصاً مغايراً لما عليه في الحياة الجامدة، فبالنسبة للأجرام دون الذرية اكتشف

---

(١) تفسير الميزان: ١/ ٢٢٩، تفسير سورة البقرة.

العلم وجود قوى هائلة تسمى بقوى الربط وهي التي تربط البروتونات بالنيوترونات تعمل في المسافات القصيرة، بينما تعمل القوى الكهربائية في الأبعاد خارج النواة حيث تربط بين الالكترونات والبروتونات لتحتفظ بها على شكل سحابة تحيط بنواة الذرة، ولكنها سرعان ما تغادر مداراتها عندما تمتص أحد الفوتونات أو تتعرض لتأثير حراري أو تؤثر عليها قوة تنافر من الكترونات مشابهة، وهناك أيضاً القوة المغناطيسية والتي توجد دائماً متعامدة مع القوة الكهربائية وهي أيضاً تشكل قوة تجاذب بين الأقطاب المختلفة وتنافر بين الأقطاب المتشابهة.

غير أن هذه القوى تعمل ضمن حدود معينة وتضعف خارجها حتى يتضاءل فتصل في النهاية إلى درجة لا تكاد تكون محسوسة، ولهذا نشأت فكرة المجال للدلالة على تأثير هذه القوى في حدود معينة وانعدامها تقريباً خارجها.

وإذا تأملنا ذلك فإننا بالنسبة للأحياء نلاحظ تشابهاً كبيراً، وأن هذا التجاذب في إطار عالم الحياة نسميه الحب والكره، وأنه أيضاً في أمدية معينة، فإن العلاقة بين الذكر والأنثى يؤدي إلى تركيب جزيئة حياة وبين عدة جزيئات لتشكل جماعة، ثم بين هذه الجماعات، ولا يمكن أن تظهر أية آثار إذا لم تقع في المجال، فإن الأسرة لن تنشأ ما لم يلتقي الذكر والأنثى، وكذلك لنشوء الجماعة، ولا تبدأ عملية البغض كذلك إلا في وجود جماعة أو أفراد. والنتيجة النهائية لهذه القوى هي نشوء الروابط السلبية أو الإيجابية فإن الحب يؤدي إلى التماسك والكره يؤدي إلى التفكك والتباعد.

وهكذا فإن مجال الحب والكره بين البشر محدود بحدود مجال تواجد الإنسان وحركته والحب والكره بين الإنس والجن أيضاً قائم في حدود وجودهما معاً، ونفس الشيء بالنسبة للحب والبغض بين الملائكة والإنس

والجن، ولذلك فهو ممتد في الفضاء الذي تتواجد فيه هذه الكائنات وأنه يمتد زمانياً منذ خلق الإنس والجن وإلى حدود لا يعلمها إلا الله لأن الحياة تبدأ ولا تنتهي تؤكد ذلك الآيات.

الإيمان كأساس لعلائق الملكوت

تعتمد العلائق في الملكوت اعتماداً رئيسياً على الإيمان الذي تمثل (الطاعة) صورته الفعلية والعملية وقد عرضت الآيات مصداقاً لعلاقة البغض والذرائع التي يتذرع بها الكفار.

أما هذه الآيات فإنها تضع بأيدينا أحد أهم أدوار الملائكة على صعيد الوجود الإنساني، وهو دور الهداية وترسيخ الإيمان الذي يتوقف عليه تصحيح مسار حركة التأريخ باتجاه أهداف الوجود الرامية إلى إدامة التكامل فتقول الآية: ﴿ ***وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم * وقال لهم نبيّهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إنّ في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين*** ﴾[1].

وجاء في مجمع البيان: «أي جعله ملكاً وكان طالوت من ولد بنيامين بن يعقوب ولم يكن من سبط النبوة ولا من سبط المملكة، وكانت المملكة في سبط يهوذا بن يعقوب وقيل: في سبط يوسف، وقوله: ملكاً يعني أميراً على الجيش، عن مجاهد، وقيل: بعثه نبياً بعد أن جعله ملكاً ﴿ ***قالوا أنى يكون له الملك علينا*** ﴾ أي من أين له الملك؟ وهذا أول اعتراضهم إذ أنكروا ملكه ﴿ ***ونحن***

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

احق﴾ أي أولى ﴿*بالملك منه*﴾ لأنّا من سبط النبوة والمملكة وأوتينا المال ﴿*ولـم يؤت سعةً من المال*﴾ أي لم يعط أولى ما يمتلك به الناس وهو المال إذ لا بد للملك من المال يحصل به الممالك، وقيل: معناه ولم يؤت سعة من المال فيشرف به ويجبر نقصا لو كان فيه حتى يساوي أهل الأنساب، فأعلمهم الله أنه أعرف بوجوه الحكمة منهم، فإن المقصود من الملك والرئاسة هو العلم و الشجاعة وأخبرهم بذلك عن لسان نبيهم.

﴿*وقال لهم إنّ آية ملكه*﴾ أي علامة تمليك الله إياه وحجة صحة ملكه ﴿*أن يأتيكم التابوت*﴾ وفي هذا دليل على أنهم قالوا لرسولهم: إن كان ملكه بأمر الله ومن عنده فأتنا بعلامة تدل على ذلك فأجابهم بهذا. ﴿*تحمله الملائكة*﴾، قيل: حملته الملائكة بين السماء والأرض حتى رآه بنو إسرائيل عيانا. معنى تحمله الملائكة: تسوقه»[1].

وفي هذه القضية يتجلى دور الملائكة في الصراعات التأريخية والأحداث المفصلية في التأريخ من قبيل إيقاظ المجتمع المؤمن الذي كان متمثلاً بني إسرائيل وفي الفترة التي سيطر فيها الترهل عليهم، ولذلك تدخلت السماء في تحريك الأجواء واختار الله لهم ملكاً لكنهم رفضوا هذا التعين وقد أدت المعجزة إلى إنهاء الصراع الداخلي والإعلان عن عدم مطابقة بعض المعايير التي تبدو صحيحة من وجهة نظر بعض الجماعات كالسلالة العريقة، أو سعة المال لكن الله اختار العلم الذي به تحسن الإدارة والتوجيه إلى جانب القوة البدنية التي كانت في ذلك الزمن ضرورة وميزة تفوق واضحة.

---

(١) تفسير مجمع البيان:٢ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

الإيمان ومجال القوى

إذا وضعنا قطعة مغناطيس صغير على بعد متر من قطعة مغناطيس مشابهة، فإننا لا نلاحظ أي أثر للقوة المغناطيسية ولكن حين نقربهما من بعضهما قرباً كافياً، فإن أثر القوة سيظهر على شكل تجاذب أو تنافر، وهذه المسافة التي تظهر فيها آثار القوة هي التي تسمى في الفيزياء مجال القوى، وخارج هذه المسافة يكون للقوة تأثير لكنه ضعيف، وكلما زادت الفاصلة فإنه يزداد ضعفاً لكنه لا ينعدم.

ويعمل الإيمان في الوسط البشري على تأجيج القوى في الجماعات البشرية، لأنه يقوم بتجميع الجماعة المؤمنة وفق نظام خاص شبيه بقطعة الحديد الممغنطة لأنّه يزيل المنافرات داخل هذه الجماعة، ويخلق قوة للمجموع فتكون جماعة المؤمنين مثل قطعة المغناطيس «مثل المؤمنون في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى». وببروز الإيمان ينشأ الترابط داخل الجماعة الإنسانية ومع الملائكة قوة الحب يتم الاتصال بالملائكة في نفس الوقت الذي تفرز قوة الكره داخل الجماعات الكافرة من الجن والإنس عوامل التنافر.

فقبل الإيمان لا يحصل استقطاب مركزي بين الأفراد فتكون الجماعة مبعثرة تماماً كقطعة الحديد غير الممغنطة، وبعد حصول الإيمان تبدأ القوى بالعمل فيكون الإيمان مثل الشحنة التي تستقطب أفراد الجماعة حولها وتفرض تأثيرها في كل دائرة تتصل بها تماماً كمجالات القوى الفيزياوية.

وعلى هذا فإن الإيمان هو عبارة عن الشحنة التي تحرك الكائن الاجتماعي (الملكوتي) الحي وتجعلنا قادرين على تشبيه عالم الملكوت على

شكل ذرة تعمل الملائكة داخلها عمل النواة داخل الذرة لأنّها تتمتع بنوع من الثبات وترتبط بها جسيمات مثل «الإنس والجن»، وهكذا يمكن أن نتصور عالم الحياة عبارة عن ذرة هائلة الأبعاد الزمانية والمكانية، نواتها الملائكة ويدور حولها نوعين من الجسيمات إحداها سالبة (جن) والثانية موجبة (الإنس).

أشكال علائق الحب

وللحب أشكال تبرز عبر النماذج التي أوردتها الأحاديث والآيات الكريمة، فقد صرحت بعض الآيات بهذا الحب وأنه حب متواصل لا يتوقف إلاّ عند توقف أسبابه، وكما جاء في الآية التالية: ﴿ ***إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدُنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون*** ﴾[1].

في هذه الآية تصريح بعلاقة الحب بين المؤمنين والملائكة، وهي علاقة لا تكتفي بالإحساسات والمشاعر بل يتم إبراز هذا الحب من خلال أفعال التعاضد وخصوصاً في أصعب المواقف، وهي مواقف القيامة يتصاعد فيها الخوف من التردي بالعذاب أو خسارة الفوز بالجنة في هذا الموقف البالغ الخطورة والهلع يبرز دور الملائكة في طمأنة المؤمنين وإشعارهم بالأمن وقرب النجاة والفوز بالجنة. في إطار حالة التبني أو التولي التي دأبت عليها الملائكة منذ الحياة الدنيا والنتيجة هي التواصل والاستمرار في الحب على قاعدة الإيمان.

---

(١) سورة فصّلت: ٣٠ ـ ٣١.

وجاء في تفسير هذه الآية:

«يعني عند الموت، روي ذلك عن أبي عبد الله ﷺ وقيل: تستقبلهم الملائكة إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة من الله تعالى، وقيل: إن البشرى تكون في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث ﴿*نحن أولياؤكم*﴾ أي نحن معاشر الملائكة أنصاركم وأحباؤكم ﴿*في الحياة الدنيا*﴾ نتولى إيصال الخيرات إليكم من قبل الله تعالى ﴿*وفي الآخرة*﴾ نتولاكم بأنواع الإكرام والمثوبة وقيل: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا أي نحن نحرسكم في الدنيا، وعند الموت، وفي الآخرة، عن أبي جعفر ﷺ»[1].

وعلّق المصنّف على نزول الملكين على أصحاب القبور «وقال: القول في نزول الملكين على أصحاب القبور ومساءلتهما الاعتقاد، وأقول: إن ذلك صحيح وعليه إجماع الشيعة وأصحاب الحديث، وتفسير مجمله أنّ الله تعالى ينزل على من يريد تنعيمه بعد الموت ملكين اسمهما مبشر، وبشير فيسألونه عن رب جلّت عظمته وعن نبيّه ووليه ﷺ فيجيبهما بالحق الذي فارق الدنيا على اعتقاده والصواب، ويكون الغرض في مساءلتهما استخراج العلامة بما يستحقه من النعيم فيجد لذّتها منه في الجواب. وينزل جل جلاله على من يريد تعذيبه في البرزخ ملكين اسمهما ناكر ونكير، فيوكلهما بعذابه. ويكون الغرض في مساءلتهما له استخراج علامة استحقاقه من العقاب بما يظهر في جوابه من التلجلج عن الحق أو الخبر عن سوء الاعتقاد أو ابلاسه وعجزه عن الجواب. وليس ينزل الملكان من أصحاب القبور إلاّ على ما ذكرناه»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٦٢.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢١١ - ٢١٢.

«وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿نحن أولياؤكم﴾ هذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال: ﴿وقيّضنا لهم قرناء فزيّنوا لهم﴾[(١)] ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية بالإلهامات والمكاشفات اليقينية، والمقامات الحقة كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها، وتخييل الأباطيل إليها، وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات، فهم يقولون كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي باقية في الآخرة، فإن تلك العلائق لازمة غير قابلة للزوال، بل كأنّها تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس والقطرة بالنسبة للبحر والتعلقات الجسدية هي تحول بينها وبين الملائكة كما قالﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات فقد زال الغطاء والوطاء، فيتصل الأثر بالمؤثر والقطرة بالبحر. والشعلة بالشمس، فهذا هو المراد من قوله: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدّنيا وفي الآخرة﴾ ثم قال: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ إشارة إلى الجنة الجسمانية ﴿ولكم فيها ما تدّعون﴾ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين﴾[(٢)]».[(٣)]

إذا كانت كلمة ولي في كل معانيها نحو ارتباط فإن الملائكة تؤكد هذه الرابطة للمؤمنين، ونفس تأكيد الارتباط نوع بشارة لأنه ارتباط لمن بيده

---

(١) سورة فصّلت: ٢٥.

(٢) سورة يونس: ١٠.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٦٢ ـ ١٦٣.

التصرف، فالمؤمنون يرتبطون بالملائكة الذين يعني الارتباط بهم ارتباط بالله بالواسطة، ولذلك فهو يحمل الطمأنينة لهؤلاء في لحظات الخوف والتي تكون أشدها يوم يقوم الأشهاد لأنّه يوم المصير يوم الفوز أو الخسران المبين.

والجنبة الأخرى إن هذا الارتباط غير قابل للزوال وتأكيده يعني تأكيد استمراره في الدنيا والآخرة، فهو متواصل والملائكة تقوم بحراسة المؤمنين من المخاطر والشرور ومن إيحاءات الشياطين وكل ذلك إما خطر على الجسد أو خطر على الروح أو عليهما معاً وبعضها خطر على مصير الإنسان وآخرته.

فالآية إذن مكرسة لبيان فضاء لعلاقة مستمرة غير قابلة للتفكك لأنها علاقة بين أقران ليسوا قرناء سوء، ولعل القرآن أشار إلى العلاقة مع الشيطان الذي يعد الإنسان ويمنيه ثم ينكص كما تؤكد الآيات الكثيرة، فهنا مقارنة بين علاقة خيِّرة وثابتة تستمر في كل لحظات الحياة في الدنيا والآخرة وعلاقة ظاهرها الحب والتآزر ولكن في حقيقتها علاقة خداع حيث يستدرج الشيطان أولياءه ليصبحوا من أهل النار بعد أن يوغلوا في ارتكاب الجرائم فيحقَّ عليهم العذاب.

فهذه جملة أبعاد لهذه العلاقة الأساسية التي يجب أن يطلع الإنسان عليها للإفادة منها من حركته في الواقع كما يستفيد من أي حقيقة أخرى يؤدي الجهل بها إلى خسارة فرص ثمينة تماماً كالقوانين الطبيعية حيث يؤدي العلم بها إلى الإفادة منها والبناء على أساسها، وأن الاطلاع على أي قانون طبيعي يؤدي إلى في الحياة الإجتماعية والسياسية والاقتصادية ونفس الشيء بالنسبة لبناء الأجهزة والتقنيات.

وهكذا تتضح طبيعة العلاقة بين الإنسان والملائكة، كما تتضح أهمية معرفتها من قبل البشر حيث تعطيهم القوة والطمأنينة، لأنها في علاقة مستمرة مع استمرار الإيمان فإذا استمر حتى لحظة الموت فإنها لا تنقطع بعد الموت،

لأن الموت يعادل تحول الإنسان إلى حالة من الدوام يؤشر رسوخ الكمالات التي نالها في الحياة الدنيا، ولهذا فإن حالة الحب عند الفرد الإنساني لا بد أن تتواصل من البلوغ إلى الموت، لكي يصبح الإنسان مثل المغناطيس الدائم أي أن شحنة الحب المنبثقة عن الإيمان تصبح حالة ثابتة وتتخلص من حالة الأرجحة التي تتعرض لها في فترة الحياة الدنيا بسبب تأثيرات القوى الأخرى.

عدم تساوي الشحنة

ويتفرع عن هذا عدم تساوي شحنة الإنسان إذ أن هناك أنواعاً من المعادن التي منها ما يكون غير قابلة للمغنطة أصلاً، وبعضها تقبل المغنطة لكنها لم تحصل على الحث الكافي والنتيجة هي عدم تساوي القوة المشحونة في الإنسان، ولهذا جاء في الحديث «عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ ***إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا*** ﴾[1] فقال: أما والله لربما وسّدناهم الوسائد في منازلنا. قيل: الملائكة تظهر لكم؟ فقال: هم ألطف بصبياننا منا بهم، وضرب بيده إلى مساور في البيت فقال: والله لطالما اتكأت عليه الملائكة، وربما التقطنا من زغبها».

بيان: في القاموس، المسور كمنبر: متّكأ من أدم كالمسورة[2].

فهذا الحديث يعرض لحالة من التنزل خاصة بأهل البيت ﷺ لأنهم بلغوا درجة من الإيمان جعلت الارتباط والحب بينهم وبين الملائكة قوية إلى درجة

---

(١) سورة فصلت: ٣٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٦.

تسقط حجب الغيب، كما جاء في الأحاديث والآيات أن حجب الغيب ليست ثابتة بل إنها تزول في ظروف خاصة، وكما مرّ سابقاً أن جميع البشر يمكن أن ينظر إلى ملكوت السماوات إذا بلغوا درجة من القرب والإيمان.

وقال الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب المقالات: «القول في سماع الأئمة عليهم السلام كلام الملائكة الكرام وإن كانوا لا يرون منهم الأشخاص. وأقول بجواز هذا من جهة العقل، وأنه ليس بممتنع في الصدِّيقين من الشيعة المعصومين من الضلال، وقد جاءت بصحته وكونه في الأئمة عليهم السلام وكذا سميت من شيعتهم الصالحين الأبرار الأخيار واضحة الحجة والبرهان. وهو مذهب فقهاء الإمامية وأصحاب الآثار منهم. وقد أباه بنو نوبخت وجماعة من أهل الإمامة لا معرفة لهم بالأخبار، ولم يمعنوا النظر، ولا سلكوا طريق الصواب»[1].

فالإيمان شحنة متفاوتة التأثير كلما قويت أعطت نتائج مختلفة حتى تبلغ أقصى حالة لها فتزيل الحجب بين الغيب والشهود وهي حالة مألوفة لدى أهل البيت وعند الأنبياء عليهم السلام.

ولهذا فإن الحديث جاء تفسيراً لهذه الآية من خلال تقديم المصداق الأجلى وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام. وإن نزول الملائكة عليهم محسوس وقريب ومتكرر يحصل في منازلهم. ولم يرد الإمام عن السؤال بنعم، بل رد برد أقوى حين أقسم بالله وأشار إلى لطفهم بأبناء الأئمة والجلوس على وسائدهم والأخذ من زغبهم.

والإشارة الهامة: هي إغراء المؤمنين بأهمية القرب إلى الله وأن هذه الآيات تتحدث عن واقع قائم وأن الأئمة الذين بلغوا درجة الاستقامة الحقة انكشفت عنهم الحجب ليصلوا إلى عالم الشهود.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢١١.

وفي الأحاديث التالية إشارة مشابهة لما مرّ هنا:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: نحن الذين تختلف الملائكة إلينا، فمنا من يسمع الصوت ولا يرى الصورة، وأن الملائكة لتزاحمنا على تكآتنا. وإنا لنأخذ من زغبهم فنجعله سخاباً لأولادنا.

بيان: «التكأة» كهمزة ما يتكأ عليه، قاله الجوهري. وقال: السخاب: قلادة تتخذ من سك وغيره ليس فيها من الجوهر شيء، والجمع: سخب[1].

فيه إشارة إلى نمط العلاقة بين الأئمة وبين الملائكة، فكل الناس عليهم حفظة وكتبة ورقباء، لكن الأئمة يسمعون الصوت وهذا كناية عن وضع خاص لا يشاركهم فيه أحد من الناس، فضلاً عن رغبة الملائكة في إدامة القرب منهم، ولعل المقصود بهؤلاء الملائكة هم غير الحفظة والكتبة لأن هؤلاء موجودون بصورة مستمرة مع الأئمة ومع سواهم، أو لعلهم نفس الكتبة لكن علاقتهم بالأئمة مميّزة، أو أنهم من الكتبة ومن سواهم.

فالملائكة تختلف إليهم أي أنها تكثر من الذهاب والإياب وتزاحمهم على التكأة كناية عن محاولة القرب والتقرب، وكذلك من زغب الملائكة ولعله أجزاء من أجنحة الملائكة يشترك مع زغب الطيور في المهام التي يؤديها بالنسبة لأجسامهم، بينما يصبح لأبناء الأئمة قلائد والقلادة قد تكون عواذة. وربما تكون الملائكة فيها مشابهة مع الطيور من حيث هي كائنات تطير في الفضاء، فيكونوا كالطيور لكن بصورة أكثر تعقيداً باعتبار أنّ الطيور تطير في فضاء محدود، والملائكة تطير في فضاء لا محدود.

وهنا أيضاً يلفت النظر عبارة (تزاحمنا على التكأة) يمكن أن نفهمها بعد أن تتحول إلى أشكال شبيهة بأشكال البشر، وسيمر حديث يشير إلى أنهم كثيرون في بيوت الأئمة وقد أصبحوا على صورة بشر.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٥ - ١٨٦.

وقد أورد المصنف عن تصور الملائكة بصور البشر ما يلي:

«سئل المرتضى: نزول جبرئيل بالوحي في صورة دحية الكليلي كيف كان يتصور بغير صورته؟ هو القادر عليها أو القديم تعالى يشكّل صورة وليست صورة جبرئيل ﵇؟ فإن كان الذي يسمع من القرآن من صورة غير جبرئيل ففيه ما فيه وإن كان من جبرئيل فكيف يتصور بصورة للبشر؟ فهذه القدرة قد رويت أن إبليس يتصور وكذلك الجن أريد أن توضح أمر ذلك. وما كان يسمعه جبرئيل من الوحي من الباري تعالى أو من حجاب وكيف كان يبلغه؟ وهل جبرئيل يعلم من صفات الباري أكثر مما نعلمه أو مثله؟ وأين محله في السماء؟ وهل القديم إذا خطر ببال جبرئيل يكون متحيراً فيه مثلنا ويكون سبحانه لا تدركه الأوهام أو ميّزه علينا وجميع الملائكة أيضاً؟.

فأجاب ﵀، بأن نزول جبرئيل بصورة دحية كان بمسألة من النبي ﷺ لله تعالى في ذلك. فأما تصوره فليس بقدرته بل الله يصورهُ كذلك صورة حقيقة لا تشكيل، والذي كان يسمعه النبي ﷺ من القرآن كان من جبرئيل في الحقيقة.

أما إبليس والجن فليس يقدرون على التصور وكل قادر بقدرة فحكمهم سواء في أنهم لا يصح أن يصوروا نفوسهم، بل إن اقتضت المصلحة أن يتصور بعضهم بصورة صوّره الله للمصلحة، فأما جبرئيل ﵇ وسماعه الوحي فيجوز أن يكلمه الله بكلام يسمعه فيتعلمه، ويجوز أن يقرأه من اللوح المحفوظ فأما ما يعلم جبرئيل من صفات الله ـ فطريقة الدليل، وهو والعلماء فيه واحد فأما محله في السماء، فقد روي أنّه في السماء الرابعة فأما ما يخطر بباله فلا يجوز أن يتحير فيه لأن جبرائيل معصوم لا يصح أن يفعل قبيحاً (انتهى) وفي بعض ما أفاده نظر لا يخفى على متأمل»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٩ ـ ٢١٠.

وإلى هنا فإن المصنف لا يتبنّى ما روي عن الشريف المرتضى ويبدو أن مسألة التصور ليست خاصة بالرسول ﷺ، لأن الملائكة تصوروا لإبراهيم عليه السلام، كذلك بالنسبة لداود عليه السلام، أما بالنسبة لإبليس والجن فإنها تتصور ولكنها عاجزة عن التصور بصورة الأنبياء والأولياء كما هو معروف.

والتصور هذا طبعاً ناشئ من أن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لم يتطرق بالإجابة عن كل الأسئلة التي تدور في أذهان الناس حول الملائكة ولعل بعض الروايات لم تصل أو لم يطلع عليها البعض، ولهذا فإن هناك مساحة من عدم اليقين توجد دائماً ولهذا فإن الأشياء التي يجب أن تثبت هي التي بيّنها الوحي والتي تأتي الأحاديث لتضيف لها تفاصيل.

وفي رواية عن ابن عمر، قال: «كان على الحسن والحسين عليهما السلام تعويذتان حشوهما من زغب جبرائيل عليه السلام»[1].

والتعويذة من العياذ والحديث يعبّر عن قرب آل بيت الرسول من الملائكة المقربون عليهم السلام حتى أن بعض زغب جبرائيل عليه السلام في عواذة عند الحسن والحسين ومن المحتمل أن يكون هذا الزغب غير مرئي في الأحوال الاعتيادية وجاء العلم به عن طريق الأخبار حتى لو استطاع أهل البيت رؤيته بطريقة إعجازية فإن الآخرين قد لا يستطيعون ذلك لأنّه جزء من عالم الغيب وإذا كانت الإشارة رمزية وإنه ليس الزغب الفعلي الرمزي فقد يكون كناية عن شدة القرب والحضور المتواصل زغباً فعلياً وهو الغرض الرئيس المتحقق من خلال هذه الأدوات كالزيارة والزغب في العواذة وما إلى ذلك من أشكال الكناية للقرب والاتصال الحميم، وبعبارة أخرى أن الغيب بالنسبة للأئمة من أهل البيت عليهم السلام كالشهود بالنسبة لنا ومألوف وعادي.

---

(١) المصدر نفسه: ٥٦/١٧٧، عن الخصال.

أما بالنسبة للعوافذة فإن معناها الاحتماء وهي في العادة تحتوي على أدعية أو آيات وأن الأئمة عليهم السلام إذا مارسوا ذلك فهو من باب تعليم الناس للأخذ بالأسباب الغيبية والأسباب المادية كما هو وارد في سورة يوسف عندما وصّى يعقوب عليه السلام بعدم الدخول من باب واحد رغم القرب الذي يتمتع به الأنبياء إذ يكون حضور أي منهم بشخصه عواذة للآخرين، فدعاؤهم مسموع ومستجاب والملائكة تحوط بهم وتدافع عنهم، ولعل وراء فعل الأئمة هذا إطلاعهم على خصائص أخرى يعرفونها ويريدون تعليمها للناس للإفادة منها فإن لزغب الملائكة ذلك الأثر وهو طبعاً أمر غير متاح للناس ولكن لديهم أشياء شبيهة بها متاحة، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى خصوصية أهل البيت عليهم السلام حتى في هذه المجالات وهي أيضاً نوع من أنواع تحقق آية ﴿ ***نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا*** ...﴾[1].

عن مجالس ابن الشيخ الصادق عليه السلام قال: «من زار أمير المؤمنين عليه السلام عارفاً بحقه غير متجبر ولا متكبر كتب الله له أجر مائة ألف شهيد، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبعث من الآمنين. وهون عليه الحساب، واستقبلته الملائكة، فإذا انصرف شيعته إلى منزله، فإن مرض عادوه، وإن مات تبعوه بالاستغفار إلى قبره»[2].

وهنا أيضاً يعرض الحديث نمط من أنماط علاقة الحب تتمثل بالتآزر على أداء العمل الصالح عن طريق شرح مصداق من مصاديق القاعدة التي تقول بعدم خلو أي بقعة من بقاع الأرض من الملائكة لكنه يضرب مثلاً بالأماكن

---

(١) سورة فصّلت: ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٦ - ١٧٧.

المقدسة، وهي طبعاً ليست كأي أرض فإن كانت الأماكن العادية تحرسها ملائكة فلماذا لا توجد ملائكة عند قبور كقبور الأئمة ﷺ وقبور الأنبياء ﷺ والأماكن التي سمّاها الله إنها طبعاً تكون من باب أولى محاطة بالملائكة.

وهكذا يشير الحديث إلى وجود هؤلاء الملائكة في القبور يستقبلون الزائرين ويودعونهم ويستغفرون لهم ويعودونهم إذا ما مرضوا، كجزء من العلاقة العامة بين المؤمنين وبين الملائكة هي علاقة الاستغفار والمحبة والحفظ لكن الإيمان نفسه متوقف على الأفعال لأنَّه ما وقر في القلب فصدّقه العلم فتكون الزيارة وهي فعل عبادي مقرب لله يؤدي إلى حصول ما يترتب على أدائه من جزاء، ولعل الاستغفار والاستقبال جزء من الجزاء الإلهي العظيم الذي وعد به المطيعين.

فيكون الحديث مجرد توضيح لصورة من صور العلاقة المفترضة بين المؤمنين التي ذكرتها الأحاديث الأخرى.

ومثله ما جاء في الحديث عن يونس بن ظبيان، قال: استأذنت على أبي عبد الله ﷺ فخرج إليَّ معتب، فأذن لي، فدخلت ولم يدخل معي كما كان يدخل فلما أن صرت في الدار نظرت إلى رجل على صورة أبي عبد الله ﷺ فسلمت عليه كما كنت أفعل، قال: من أنت يا هذا؟ لقد وردت على كفر أو إيمان، وكان بين يديه رجلان كأن على رؤوسهما الطير، فقال: أدخل فدخلت الدار الثانية فإذا رجل على صورته ﷺ وإذا بين يديه خلق كثير كلهم صورهم واحدة، فقال: من تريد؟ قلت: أريد أبا عبد الله ﷺ فقال: قد وردت على أمر عظيم إما كفر أو إيمان. ثم خرج من البيت رجل حين بدء به البيت فأخذ بيدي فأوقفني على الباب وغشي بصري من النور، فقلت: السلام عليكم يا بيت الله ونوره وحجابه، فقال: وعليك السلام يا يونس، فدخلت البيت فإذا بين يديه طائران يحكيان. فكنت أفهم كلام أبي عبد الله ﷺ ولا أفهم

كلامهما، فلما خرجا، قال يا يونس: سل نحن محل النور في الظلمات ونحن البيت المعمور الذي من دخله كان آمناً. نحن عترة الله وكبرياؤه، قال: جعلت فداك. ورأيت شيئاً عجيباً رأيت رجلاً على صورتك، قال: يا يونس إنا لا نوصف، ذاك صاحب السماء الثالثة يسأل أن استأذن الله له أن يصير مع أخ له في السماء الرابعة قال: فقلت: فهؤلاء الذين في الدار؟ قال: هؤلاء أصحاب القائم من الملائكة. قال: قلت فهذان. قال: جبرئيل وميكائيل نزلا إلى الأرض فلن يصعدا حتى يكون هذا الأمر إن شاء الله وهم خمسة آلاف يا يونس، بنا أضاءت الأبصار، وسمعت الآذان، ووعت القلوب الإيمان.

بيان: «على كفر أو إيمان» أي إن أنكرت ما رأيت كفرت، وإن قبلت آمنت (كأنّ على رؤوسهما الطير) أي لا يتحركان[1].

يشعرنا المتن بمستوى خاص وهنا تأكيد للمستوى الخاص من القرب ويفيد مدى اتصال أهل البيت بعالم الغيب ومدى مكانتهم عند الله فالملائكة تتشفع بهم ليقضي الله لهم حاجات، وهنا نلاحظ أن الأحاديث تتفاوت في نقل التفاصيل فمرة تنقل تفاصيلاً كثيرة وعجيبة وأحياناً تكتفي بنقل معلم معين ويبدو أن النقل متوقف على نوعية الشخص الذي يراد إعلامه فإن كان قد هضم الأوليات فإنه يطلع على حقائق جديدة، أما إذا لم يكن كذلك فإنه حينئذ أعجز من أن هضم الأوليات، ولا يمكن إعطاؤه المزيد لأنّه يعجز عن إدراكها وقبولها.

ولهذا وردت في هذا الحديث حقائق سبقت الإشارة إليها لكن مع ذكر تفاصيل إضافية مهمة. فمثلاً قد مرّ في الأحاديث أن الملك الذي توهم في خطراته صوراً عن ذات الله وعوقب بسبب ذلك تشفع بالرسول ﷺ عند ولادة الحسين ﷺ لكي يعيده الله إلى مقامه، وهذا الحديث فيه مضمون مشابه

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٦ - ١٩٧.

ولكن هنا صاحب السماء الثالثة يريد أن يتشفع الإمام له في أن يكون مع أخيه في السماء الرابعة.

أما بالنسبة لأصحاب القائم(عليه السلام) الذين تطرق الحديث إلى ذكرهم فربما لأن الإمام(عليه السلام) يريد الإشعار بقرب الحدث (الظهور) وأن هؤلاء جاؤوا للإمام لكي يمثلوا بين يديه وربما تكرر هذا الأمر لبقية الأئمة، ولكنه لا يذكر لعوام الناس وعامتهم ولكن تعلمه الخواص، ثم إن مثولهم يعني اقتراب الظهور وبذلك أشار إلى أن جبرائيل وميكائيل سيمكثان في الأرض حتى يظهر الإمام. وبالنسبة لأزمنة السماء فإنَّ الوقت قصير لأن اليوم وهو قد يعني النهار فقط أي ما يعادل خمسين ألف سنة أو ألف سنة وبالتالي فإن الزمن بين زمن وقوع الحديث وزمن الظهور سيكون قصيراً لأنّه يوم أو بعض يوم.

ثم إن الله يدخر هؤلاء حتى لحظات الظهور، وفيه إشعار بأهمية الحدث الذي أراده الله سبحانه وتعالى لإعلاء كلمته ونصر دينه ومحو الباطل، ولذلك فإنه لا يقل في أهميته عن الأحداث العظيمة في الوجود حيث يمحي الباطل بل هو أكثرها على أهمية على الإطلاق.

وعن كتاب النوادر لعلي بن أسباط: عن أبي جعفر(عليه السلام)، قال: لما قبض رسول الله(صلى الله عليه وآله) بات آل محمد بليلة أطول ليلة ظنوا أنهم لا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم مخافة، لأن رسول الله(صلى الله عليه وآله) وتر الأقربين والأبعدين في الله، فبينما هم كذلك إذ أتاهم أت لا يرونه ويسمعون كلامه فقال: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته، في الله عزاء من كل مصيبة ونجاة من كل هلكة، ودرك لما فات، إن الله اختاركم وفضلكم وطهركم وجعلكم أهل بيت نبيه(صلى الله عليه وآله) واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه وعصا عزه وضرب لكم مثلاً من نوره وعصمكم من الزلل. وأمنكم من الفتن فاعتزوا بعزاء الله فإن الله لم ينزع منكم رحمته ولم يُدل منكم عدوه فأنتم

أهل الله الذين بكم تمت النعمة، واجتمعت الفرقة، وائتلفت الكلمة، وأنتم أولياء الله، من تولاكم نجا ومن ظلمكم يزهق، مودتكم من الله في كتابه واجبة على عباده المؤمنين، والله على نصركم إذا شاء قدير فاصبروا لعواقب الأمور فإنها إلى الله تصير فقد قبلكم الله من نبيه ﷺ وديعة واستودعكم أولياءه المؤمنين في الأرض، فمن أدى أمانته أتاه الله صدقه فأنتم الأمانة المستودعة، والمودة الواجبة ولكم الطاعة المفترضة وبكم تمت النعمة وقد قبض الله نبيه ﷺ وقد أكمل الله به الدين، وبين لكم سبيل المخرج فلم يترك للجاهل حجة فمن تجاهل أو جهل أو أنكر أو نسي أو تناسى فعلى الله حسابه والله من وراء حوائجكم فاستعينوا بالله على من ظلمكم، واسألوا الله حوائجكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فسأله يحيى بن أبي القاسم، فقال: جعلت فداك، ممّن أتتهم التعزية؟ فقال: من الله عز وجل[1].

وهو يدل على أن الله سبحانه وتعالى عزى أهل البيت إما مباشرة فسمعوا صوته أو بواسطة الملائكة وهذا يدل على أن أهل البيت يستطيعون سماع صوت الملائكة وهي منزلة خاصة بهم وقد سبق لأحاديث أن جاءت بهذا المضمون.

عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يغدو إليه علي عليه السلام في الغداة وكان يحب أن لا يسبقه إليه أحد، فإذا النبي ﷺ في صحن الدار وإذا رأسه في حجر دمية بن خليفة الكلبي، فقال: السلام عليك كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: بخير يا أخا رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: جزاك الله عنا أهل البيت خيراً، قال له دمية: إني أحبك وإن لك عندي مديحة أهديها إليك، أنت أمير المؤمنين وقائد الغرّ المحجلين وسيد ولد آدم إلى يوم القيامة ماخلا النبيّين والمرسلين، ولواء الحمد بيدك يوم القيامة، تزف أنت وشيعتك مع محمد

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٤ ـ ١٩٥.

وحزبه إلى الجنان فقد أفلح من والاك وخاب وخسر من خلاّك، بحب محمد أحبوك، وببغضه أبغضوك، لا تنالهم شفاعة محمدﷺ ادن من صفوة الله فأخذ رأس النبيﷺ فوضعه في حجره فانتبه النبيﷺ فقال: ما هذه الهمهمة؟ فأخبره الحديث فقال: لم يكن دحية الكلبي كان جبرائيل، سماك باسم سماك الله تعالى به وهو الذي ألقى محبتك في قلوب المؤمنين، ورهبتك في صدور الكافرين[1].

والمعنى عرض نمط العلاقة بين رسول اللهﷺ وبين عليعليه السلام وكذلك علاقة عليعليه السلام والرسول مع جبرائيلعليه السلام وأن عليعليه السلام منصّب من قبل الله تعالى في وصايته على المسلمين بعد رسول الله، فهنا عليعليه السلام يسبق إلى رسول اللهﷺ ولا يجب أن يسبقه إليه أحد، وكذلك جبرائيلعليه السلام يضع رأس الرسول في حجره وفيه دلالة على شدة الملازمة من جبريل لرسول الله ﷺ حتى أنه معه في الغداة.

وإذا تجاوزنا الوضع الأجلى للحب فإن هناك أشكالاً أخرى أكثر عمومية منها ما يتعلق بالمجتمع الإسلامي كالنصرة التي وردت في ما يلي:

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٢ ـ ١٩٣.

الشكل الأوّل

النصرة

إنّ من معالم الحب، التناصر، وهو الأمر الذي عرضته الآيات والأحاديث حيث تعمد الملائكة إلى التدخل المباشر لنصرة المؤمنين باعتباره شكل من أشكال الحب والتولّي الذي ذكرته الآية السابقة. والذي عرضه القرآن من خلال نموذج صارخ هو المشاركة في المعارك الإيمانية كما في الآية:

﴿ *إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألف من الملائكة مردفين* ﴾[1].

في هذه الآية إشارة إلى دور الملائكة المباشر في حياة الإنسان وتدخلهم في المعارك حتى لو كان هذا الدور لمجرد البشرى، لأن النصر من عند الله وهو منسوب إليه مباشرة وبلا واسطة رغم وجودها الذي ذكرته الآية، وحتى لو كانوا هم بواسطة الملائكة الذين هم من عباد الله الذين يفعلون ما يؤمرون وأن كل ما يفعلونه هو بإذن الله، ومع ذلك فإن الله حتى هذه يريد أن ينفيها وينسب الفعل مباشرة إليه ﴿ *وما جعله الله إلّا بشرى ولتطمئنّ به قلوبكم وما النصر إلّا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم* ﴾[2]، والمعنى أن الامداد بالملائكة إنّما كان لغرض البشرى واطمئنان نفوسكم لا ليهلك بأيدي الكفار كما يشير إليه قوله تعالى بعد ﴿ *إذ يوحي ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا*

---

(١) سورة الأنفال: ٩.

(٢) سورة الأنفال: ١٠.

الرُّعب...﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ *وما النَّصر إلاّ من عند اللّه إنّ اللّه عزيز حكيم* ﴾[٢] بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى وإنه لو كان بكثرة العدد والقوة والشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة والقوة على المسلمين على ما بهم من القلة والضعف.

ولعل هذا إشارة إلى وقوع حالات الالتحام بالقدرة الإلهية بصورة مباشرة لا بصورة الوسائط والأسباب، فالملائكة الذين هم عباد الله يأتيهم المدد من الله كما تشير الآية ﴿ *إذ يوحي...* ﴾، والملائكة يثبتون المؤمنين فيكون الالتحام مباشر يصاحب القوة الحقيقي، فإذا كان هذا بيان الآية ﴿ *وما النصر إلا من عند الله* ﴾ فإنه يكون شرحاً لكيفية النصر، وإذا لم يكن فمعناه أن الله ينظر في المصلحة فينصر من يشاء بغض النظر عن موازين القوة والضعف والكفر والإيمان وعلى الوجهين ممكن.

والمهم في الأمر أن الله يشرك الملائكة في معارك الحق والباطل ولكنه هنا أشركهم لإرعاب الكفار، وإخافتهم وليس إشراكاً بالقتال وهو طبعاً نوع من الإشراك غير المباشر لأن الروح المعنوية هي الأساس في النصر كما ثبت في المعارك والعلوم العسكرية. وهذا جزء من مهام الملائكة وعلاقتها بالإنسان ﴿ *إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد* ﴾[٣] وفيه تأكيد لانحصار النصر بالله سبحانه.

وعن ابن عباس، قال: لما تواقف الناس يوم بدر أغمي على رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه فبشر الناس بجبرائيل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر،

---

(١) سورة الأنفال: ١٢.

(٢) سورة الأنفال: ١٠.

(٣) سورة غافر: ٥١.

وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك المدلجي يؤيد المشركين ويخبر أنّه لا غالب لكم اليوم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون فتشبت به الحرث بن هشام وهو يرى أنّه سراقة لما سمع من كلامه فضرب في صدر الحرث فسقط الحرث وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال: يا رب موعدك الذي وعدتني[1].

معركة بدر أهم معركة في تاريخ الإسلام لأنها غيرت مسار التأريخ الإنساني الذي تلاها وفيها وقعت أكبر هزيمة منيت بها قوى الجاهلية، ولهذا فإن الوحي ذكرها بالقرآن كما ذكرها في الحديث مفسراً الآيات التي وردت بهذا المضمون ضمن هذا الحديث، وبينت نكوص الشيطان وتخليه عن أوليائه في ساعات الشدة في مقابل النصر والوفاء الإلهي المتجلى بنصر الله أولياءه وإرساله للملائكة من السماء، وأن ما شاهده الرسول كان وحياً رأى فيه إبليس بتلك الصورة التي نقلها وفيها بشارة طبعاً بأن الشرك مهزوم وأن إبليس وجنوده مهزومون، وقد أطلع الله رسوله على نتائج المعركة قبل وقوعها.

وفيها دلالة أيضاً على أن الشيطان مخلوق ضعيف جداً ولا يمكن أن يفكر بمواجهة الملائكة، وإنّه ينهزم فور المواجهة لعلمه حقيقة القوى الهائلة التي يمتلكها عباد الله وأنصار المؤمنين، ولهذا نرى وصف القرآن له بالضعف وأنه لا يملك أكثر من الدعوة، أما القوى التي نراها فإنها قوى الإنسان الذي يزجه الشيطان في مواجهة مع المؤمنين وفي النتيجة النهائية فإنه وحزبه سرعان ما ينهزمون.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٨ - ١٩٩، عن الدر المنثور.

وفي نفس السياق تأتي الآية:

﴿ ***يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً*** ﴾[1].

تفسَّر كلمة جنود في الآية بالملائكة لأنها هي التي تقذف في قلوب المشركين وحلفائهم الرعب، قوله: ﴿ ***يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ*** ﴾ ظرف للنعمة أو لثبوتها ﴿ ***جاءتكم جنود*** ﴾ من طوائف كل واحدة منهم حي كغطفان وقريش وغيرهما ﴿ ***فأرسلنا*** ﴾ بيان للنعمة وهو الإرسال المتفرع على مجيئهم ﴿ ***عليهم ريحاً*** ﴾ وهي الصبا وكانت باردة في ليالي شاتية ﴿ ***وجنوداً لم تروها*** ﴾ وهي الملائكة لخذلان المشركين ﴿ ***وكان الله بما تعملون بصيراً*** ﴾.

لقد بينت الآية أن النعمة هي نعمة النصر وهي تتركب من جزئين الأول: إرسال الريح، والثاني: إرسال الجنود، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أن الله سبحانه وتعالى بقدرته يمكن أن يحوّل كل شيء إلى أداة أو جندي فكما أن الريح أصبحت جندياً مسخراً لصالح المؤمنين، فإن جنوداً آخرين لعلهم هم الملائكة أو بإنضمام فكرة الخندق التي أشار بها سلمان أو ما فعله الصحابي من تفريق صف اليهود والمشركين الذين اتحدوا على حرب رسول الله ﷺ واستئصال شأفته، فهذه كلها كانت من أدوات النصر فالتفوق الهائل في موازين القوى لصالح القوى المشركة تحوّل إلى عدم بسبب الجنود الذين حركهم الله سبحانه وكف أيديهم عن المسلمين القلة الذين كانوا خائفين. وكما حملت هذه العملية نصراً آخراً حيث استطاع المسلمون فرز المنافقين الذين كانوا أشد خطراً على الإسلام من المشركين.

---

(١) سورة الأحزاب: ٩.

فالتقارن بين فعل البشر وفعل قوى الطبيعة كالريح وفعل قوى الملائكة إنّما تكاملت في هذه الآية بما أنها تعبر عن إرادة الله النافذة ومشيئته التي لا ترد.

وعن الحسن في قوله: «إني أرى ما لا ترون» قال: رأى جبرئيل(ع) معتجراً بردائه يقود الفرس بين يدي أصحابه ما ركبه[1].

وهذا أيضاً تفسير للآية من خلال مصداق بارز تمثل في معركة بدر حتى لو كان في الآية عمومية أكبر، وتدل على إطلاع إبليس على بعض المغيبات ومنها هذا الأمر.

أشكال أخرى للنصرة

وهناك أيضاً أشكال أخرى للنصرة أكدته الآيات والأحاديث لا يقل أهمية عن سواه تمارسه الملائكة عبر تأييد أفعال ونوازع الخير، فمن المعلوم أن الملاك ينفث في قلب المؤمن نفثات الخير ويوحي له بفعل الخير كما مر، وكذلك ينفث الشيطان في قلب الإنسان نفثات الشر ويدفعه إلى ارتكاب المعاصي وقد جاء في تفسير الميزان.

«قد مرّ كراراً أن الألفاظ موضوعة لمعانيها من حيث اشتمالها على الأغراض المقصودة منها. وأن القول أو الكلام مثلاً إنّما يسمى به الصوت إذا أعطى معنى مقصوداً يصح السكوت عليه، فما يفيد ذلك كلام وقول سواء صوتاً واحداً أو أصواتاً متعددة مؤلفة أو غير صوت كالإيماء والرمز، والناس لا يتوقفون في تسمية الصوت المفيد فائدة تامة كلاماً وإن لم يخرج عن شقّ فم، وكذلك في تسمية الإيماء قولاً وكلاماً وإن لم يشتمل على صوت.

---

(١) تفسير الميزان: ١٦/ ٣٨٥، تفسير سورة الأحزاب.

والقرآن أيضاً يسمى المعاني الملقاة في القلوب من الشيطان كلاماً له وقولاً منه. قال تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿ ***ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام*** ﴾[1] وقال: ﴿ ***كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان اكفر*** ﴾[2] وقال: ﴿ ***يوسوس في صدور النّاس*** ﴾[3] وقال: ﴿ ***يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول*** ﴾[4] وقال أيضاً حكاية عن إبليس: ﴿ ***إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم*** ﴾[5] وقال: ﴿ ***الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً*** ﴾[6] ومن الواضح أن هذه هي الخواطر الواردة على القلوب، نسبت إلى الشيطان وسميت بالأمر وللقول والوسوسة والوحي والوعد، وجميعها قول وكلام لم يخرج عن شق فم ولا تحريك لسان.

ومن هنا نعلم: أن ما تشتمل عليه الآية الأخيرة من وعده تعالى بالمغفرة والفضل قبال وعد الشيطان هو الكلام الملكي في قبال الوسوسة من الشيطان. وقد سماه الله تعالى الحكمة ومثلها قوله تعالى: ﴿ ***ويجعل لكم نوراً تمشون به*** ﴾[7] وقوله: ﴿ ***هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السّموات والأرض*** ﴾[8] وقد مر بيانها في الكلام على السكينة في ذيل قوله تعالى: ﴿ ***فيه سكينة من ربّكم*** ﴾[9]. وعند قوله: ﴿ ***فمن يرد الله أن يهديه***

---

(١) سورة النساء: ١١٩.

(٢) سورة الحشر: ١٦.

(٣) سورة الناس: ٥.

(٤) سورة الأنعام: ١١٢.

(٥) سورة إبراهيم: ٢٢.

(٦) سورة البقرة: ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٧) سورة الحديد: ٢٨.

(٨) سورة الفتح: ٤.

(٩) سورة البقرة: ٢٤٨.

يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره حرجاً ضيقاً كأنّما يصّعّد في السّماء كذلك يجعل الله الرّجس على الذين لا يؤمنون﴾[1]، وقد سمى الوسوسة رجزاً فقال: ﴿*رجز الشيطان*﴾[2]. فمن جميع ذلك يظهر أن الشياطين والملائكة يكلمون الإنسان بإلقاء المعاني في قلبه[3].

وعلى صعيد الأفعال أيضاً فإن الملاك يبادر إلى شد المؤمن إلى العمل الصالح وكما جاء في الأحاديث التالية:

نصرة العباد

عن يونس بن ضبيان، قال: (قال أبو عبد الله عليه السلام: من صام لله عز وجل يوماً في شدة الحر فأصابه ظمأ وكل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشرونه)[4].

في هذا الحديث تكريم خاص بنوع من أنواع الصوم ، ويتم عن طريق توكيل ألف ملك سوى أولئك الذين يدعون لعموم الصائمين كما مر في حديث سابق ، وهؤلاء يمسحون وجه الصائم ويبشرونه دون أن يشار إلى أن هذا الصوم هو الصوم الواجب أم هو الصوم المستحب.

وهكذا نلاحظ تصاعد وتائر الكرم على الأعمال الحسنة وبالخصوص المشقة التي يتحملها الصائم ليوم قائض ، مما يلفت النظر إلى أن مشاركة الملائكة تحمل دلالة معينة لخصوصيتهم ، واستجابة دعائهم ، وقربهم من الله، في نفس الوقت تعد هذه الأحاديث تأكيداً للآية التي قالت بأن الملائكة تتنزل

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) سورة الأنفال: ١١.

(٣) تفسير الميزان: ٣ / ١٨١.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٠عن الكافي.

على المؤمنين تبشرهم ، ولكن هنا ليس نحو بشارة بل هو أكبر من ذلك ، حيث تمسح وجوههم وهو نحو من أنحاء الحب والقرب أكثر من المعتاد بياناً لشدة محبوبيّة هذا العمل، كما أنه نوع من الجزاء على عمل فيه عناء أكثر من الأعمال المعتادة.

ويمكن لنا إذن أن نتخيل أنحاء عدة من التكريم تصاعدية ، تتدرج بحسب الأعمال تكون الملائكة مساهمة فيه ذات آفاق مفتوحة كما تشير إليها أحاديث الجزاء على الأعمال والتي تعد بالكثير الكثير.

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا كان أيام الموسم بعث الله ملائكة في صورة الآدميين يشترون متاع الحاج والتجار، قلت: فما يصنعون؟ قال: يلقونه في البحر»[1].

إنّ أوضح ما يستفاد من هذا الحديث هو أن الملائكة تساهم في الأفعال المادية كما أنها تساهم في الجوانب الروحية ، فعملية البيع والشراء تساهم فيها الملائكة لكي لا يصاب التاجر بضرر وخسارة لكن الإلقاء في البحر يحتاج إلى تأمل ويحتمل أن يراد به عكس المطلوب ، أي أنه لا يلقى في البحر أو وقوع تصحيف في الحديث لأن فعل من هذا النوع فيه هدر والملائكة لا يمكن أن تمارس هذا الفعل وبإذن الله تعالى.

إلاّ أن الشيء الذي يعامل به الحاج والزائر هو البركة وعدم الخسارة ، وأن ذلك بفعل مباشر من الملائكة وليست العملية تعويل على شيء معنوي ، ولعل هذا المعنوي واقع أيضاً، لكن القضية تعني ارتباطاً بين الجزاء المعنوي والمادي بحيث تصبح عملية ربح التاجر القادم إلى موسم الحج ، والحاج عملية مضمونة وعلى درجة عالية من الوثوق.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٠ - ١٩١، عن الكافي.

ولعل فيه إشارة إلى جانب من الآية ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾[1]، فهو جانب الفائدة والربح وضمان تصريف البضاعة المحمولة ، ومع ذلك فإن هذه القضية الكلية لا بد من ارتباطها بالكثير من المخصّصات حتى تبدو وفق السياق الطبيعي للحياة فتكون هي الحالة الغالبة.

عن أبي عبد الله قال: قال رسول الله: إن جبرائيل أتاني فقال: ((إنّا معشر الملائكة لا ندخل بيتاً فيه كلب، ولا تمثال جسد، ولا إناء يبال فيه))[2].

بيان: لعله مخصوص بغير الحفظة، مع أنه يمكن أن يكونوا مع عدم الدخول أيضاً مطلعين على ما يصدر عنه[3].

إن انقطاع الملائكة عن مكان يعني كونه مكان فاقد لأسباب الرحمة وتعشش فيه الشياطين ويخيم عليه الضلال ، لأن وجود الملائكة بالصفات التي مرت توحي إلى الناس فعل الخير وتعترض من يهم بالمعاصي وتلقي في قلبه خواطر الخير ، ثم إنها تحفظ الإنسان عن الحوادث وتبعد عنه الشياطين وما إلى ذلك وأن خسارة كل هذه النعم إنّما هي خسارة فادحة لا تعوض.

وهناك موانع تمنع الملائكة من البقاء في بعض الأماكن وذلك بحكم تركيبهم المعصوم والذي لا ينسجم مع الأشياء المبغوضة ذكر الحديث نوعان منها هما: ـ التماثيل والنجاسات ، كنجاسة الكلب ونجاسة الإناء الذي يبال فيه.

وعدم البقاء يوحي بأن النجاسات مؤذية للملائكة كما هي مؤذية للإنسان ، وبغض النظر عن نوعية الأذى فالعلم الحديث مثلاً استطاع أن

---

(١) سورة الحج: ٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٧، عن الخصال.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٧.

يكشف لنا بعض مناحي الأذى وأثبت أن هذه النجاسات هي بيئة تعشّش فيها الجراثيم التي تصيب الإنسان بالأمراض ، وربما كانت هناك جوانب أخرى مؤذية كذلك قد يكشفها تطور العلوم أيضاً بالنسبة للإنسان على أن نفس الحرمة لا ترتبط بهذه الأشياء ، فحتى لو تم قتل الجراثيم فإن الحرمة باقية وذلك لأن العلة الأصلية للتحريم مجهولة.

ومن هنا فإن عدم حضور الملائكة يكشف عن وحدة القوانين بالنسبة للملائكة والإنسان ، فالحرمات والنجاسات واحدة لهما حتى لو تفاوتت الدرجة ، فالملائكة وبحكم مستواها من الإطلاع وعدم عصيانها تكون أشد حساسية من الحرمات الشرعية والنجاسات.

وهناك طبعاً أشياء أخرى وردت في الأحاديث تنفر منها الملائكة وهذا قد يفيد أن أصل النفور والمنع بدأ من عالم الملائكة ثم صار الإنسان يحذو حذوها بحكم أسبقية الخلق وقرب الملائكة من منابع المعرفة وتمكنها من إدراك مستوى الأذى والضرر.

فالكبر الذي هو ذنب بدأ في السماء وعلى أساسه طرد الشيطان من الجنة ثم حرّم على الإنسان يدل على أن العالم الأرضي أو البشري هو شبح لذلك العالم ، وبالتالي فإن الشبح يحتفظ بالكثير عن المعالم للأصل وحتى لو وجد التفاوت الذي قد ينشأ من حالة شبيهة بتفاوت الأقل والأكثر ، فمثلاً إن عقل الملائكة وعمرها يخلق فرقاً أساسياً في القوانين الموضوعة إزاء كل منهما ولكنها متشابهة من حيث الأهداف والغايات.

ولعل ذلك يخلق لدينا الرغبة لقلب التصورات حيث ينزع البعض إلى جعل عالم البشر هو الأصل وبالتالي يخلق التفاوت حالة من الاستغراب وأحياناً يخلقها التشابه لكن إذا قلبنا التصور عندئذٍ يكون الفهم أيسر.

بإسناده عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله أتاني جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد كيف ننزل عليكم وأنتم لا تستاكون ولا تستنجون بالماء ولا تغسلون براجمكم؟)[١].

بيان: قال في النهاية: فيه من الفطرة غسل البراجم - هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ. الواحدة (برجمة) بالضم .

لعل في ((ننزل)) الإشارة إلى المهام التي تقوم بها الملائكة بصورة مستمرة مع البشر من قبيل الحفظة والكتبة وسوى ذلك مما ورد ذكره سابقاً ، ويمكن أن يكون إلى عموم النزول لأنّه أيضاً ممكن ، والذي يحتاج من الإنسان إلى الأفعال التي يوصي بها الإسلام من أفعال الطهارة والنظافة وقد نقل ذلك من قبيل المثال أو حتى لو كان خصوص الأعمال هذه.

ولعله يعني تناقض هذه مع أعمال الحفظ ، فالملك قد لا يحفظ الإنسان إذا سمح للقذارة أن تسيطر على بدنه فيصاب بذلك في الأمراض بعد ابتعاد الملائكة خصوصاً أن الإسلام يؤمن بالأسباب والملائكة تحفظ الإنسان ، وحين تبتعد عنه أو أنها لا تحفظه بصورة كُلية.

ويمكن أن يسبب أذى لها لأن أصل المنع والحرمة من السماء ، فأغلب ما ينهى البشر عنه هو مرفوض في السماء ، ولهذا فإن الملائكة تكرهه بدءاً وتعودت كرهه ، فحين جاء البشر وهم يخطؤون ويصيبون ويحسنون ويسيئون فإنّ ما تكرههُ الملائكة صار مكروهاً عند البشر فهم بحكم السبق أكثر إدراكاً للصواب ، ويراد من الإنسان اللحاق بهم في كل شيء ومنها تلك الأشياء.

---

(١) بحار الأنوار: ١٩١ - ١٩٢، عن نوادر الراوندي.

ولهذا جاءت الروايات تحض المؤمنين على النظافة والطهارة وعلى اللبس الحسن والعطر وخصوصاً في أماكن التجمع لأن آثارها على البشر قد تكون مضاعفة عن ما لها عند الملائكة.

وفي رواية منقولة عن درست، قال: سمعت أبا إبراهيم عليه السلام يقول: (إذا مرض المؤمن أوحى الله عزّ وجلّ إلى صاحب الشمال: لا تكتب على عبدي ما دام في حبسي ووثاقي ذنباً. ويوحي إلى صاحب اليمين أن اكتب لعبدي ما كنت تكتب له في صحته من الحسنات)[1].

إن الله يمنع كاتب السيئات من كتابتها عليه ما دام في حال المرض وهو أيضاً خاص بالمؤمن ، لأن المؤمن غالباً ما يسعى لتجنب السيئات فإذا وقعت فإنها تقع في حال غير الإصرار والعمد ، وفي حال المرض تكون غالباً معدومة أو قليلة ثم إنّه دائم السعي لفعل الحسنات ، فإذا قدر عليها عملها فهو دائم النية أيضاً ولهذا يقال: نية المؤمن خير من عمله ، فهو ينوي فعل الخير ولا يتاح له فعله ، ولذلك فإن الله يمنحه أجر فعل الخير لأنه سلبهُ تلك القدرة بابتلائه بالمرض.

وروي عن صفوان الجمّال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (من عاد مريضاً من المسلمين وكل الله به أبداً سبعين ألفاً من الملائكة يغشون رحله ويسبحون فيه، ويقدسون ويهللون ويكبرون إلى يوم القيامة، نصف صلاتهم لعائد المريض)[2].

وهذه أيضاً من الأحوال التي يأمر الله فيها الملائكة بالقيام بعمل استثنائي إذ ليس شيء من مهام الملائكة مهمة محددة ثابتة هي الاستغفار والتسبيح والتهليل لصالح البشر ، لكنها مهمة عامة كما ورد في الآية ويستغفرون لمن في الأرض ، فالاستغفار بصورة عامة قد تكون إحدى صورة ما ورد في هذا الحديث.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٧، عن الكافي.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٨٧، عن الكافي.

ثم إنه ينطوي على إشعار بأهمية عيادة المريض عند الله لما له من آثار نفسية على المريض تساهم في سرعة شفائه وفي تقوية الروابط الاجتماعية بين المؤمنين، ذلك أن المواقف في حال الشدة تترك آثاراً نفسية كبيرة ولهذا فإن الله يكافئ المؤمنين بها ويخصص هذا العدد في الملائكة للبقاء في حال التسبيح ويقدسون ويهللون ويكبرون ونصف صلاتهم له، ولعل هذا الفعل من الملائكة له آثار عظيمة على حياة الإنسان من حيث حلول البركة وذهاب الشياطين والحماية من الحوادث والاستغفار الذي بمفرده ذو آثار دنيوية وأخروية كثيرة.

وفي رواية عن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): حدّثني جبرائيل أن الله عز وجل أهبط إلى الأرض ملكاً فأقبل ذلك الملك يمشي حتى وقع إلى باب عليه رجل يستأذن على رب الدار. فقال له الملك: ما حاجتك إلى رب هذه الدار؟ قال: أخ لي مسلم زرته في الله تبارك وتعالى، قال له الملك: ما جاء بك إلا ذاك ؟ فقال: ما جاء بي إلا ذاك، قال: فإنّي رسول الله إليك، وهو يقرئك السلام ويقول: وجبت لك الجنة، وقال الملك: إن الله عز وجل يقول: أيما مسلم زار مسلماً فليس إيّاه زار، إياي زار وثوابهُ عليّ الجنة[1].

ربما تدخل هذه الواقعة في دائرة الآية ﴿ *إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ...* ﴾[2] فهذه واقعة تؤكد أن الإنسان الذي يقوم بعمل صالح يحصل على مكافأة يبشره الملك بها له، أو كما مر تأتي الملائكة لتستغفر له أو تسبح أو تهلل. وإذا تمعنا في الخصوصية الموجبة للبشائر فإننا نجد التلميح إلى الأعمال الخالصة التي يراد بها وجه الله دون سواه من الخلق، وهنا لا يتوضح ما إذا كان هذا الملك مختص بهذا الأمر أم أنه حالة طارئة أمر الله بها هذا

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٨.

(٢) سورة فصّلت: ٣٠.

الملك تعظيماً لهذا الفعل الخير وإعلاءً لشأنه عند الناس كي لا يزهدوا في مثل هذه الأعمال.

ولعل فيه أيضاً توضيح إلى أن هبوط الملائكة إنّما يكون بأمر الله وهذا إن صح فلا بدّ من تصور الطريقة التي تصدر بها الأوامر إلى الملائكة من قبل الله وهل هي بالواسطة أم مباشرة؟ وكيفية صدورها هل هو بالوحي كما عند البشر أو مباشرة كما حصل مع موسى عليه السلام إذ كلّمهُ الله تكليماً ؟

وفي النتيجة يفيد الحديث وجود أعمال يراها الله موجبة لنزول الملائكة بالبشائر للعباد، ولعل نفس نزول الملك هو نوع من التكريم للعبد ويحمل معهُ خيراً له.

وفي حديث عن أبي قرّة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من زار أخاه في الله في مرض أو صحة لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً وكّل الله به سبعين ألف ملك ينادون في قفاه أن طبت وطابت لك الجنة، فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن حتى يأتي منزله. فقال له يسير: جعلت فداك، فإن كان المكان بعيداً؟ قال نعم يا يسير وإن كان المكان مسير سنة، فإن الله جواد والملائكة كثير يشيعونه حتى يرجع إلى منزله[1].

يعد الحديث زيارة المؤمن قربة إلى الله بمثابة زيارة لله وكما يبدو أن سبعين ألف ملك هم غير الألف ملك الذين جعلهم لعيادة المريض وغير الملك الفرد الذي يرسله الله بالبشارة لمن يزور أخاه يقصد القربى لله، فإن هناك سبعين ألف ملك ينادون في قفاه طبت وطابت لك الجنة حتى يصل إلى منزله مهما بعد منزله فهنا بشارة للمؤمن مشفعة بتشييعه والنظر إليه كمن زار ربه، وهم وفد الرحمن لأنّهم وفدوا إلى ما وفدوا إليه رضاءً لله واستجابة لطلبه

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٨ ـ ١٨٩، عن الكافي.

دون أي غرض آخر فيكون هؤلاء الملائكة من كرم الله سوى ما ذكر في الأحاديث السابقة.

وفيه أيضاً تأكيد على كرم الله غير المحدود بالحدود القصيرة التي يستطيع الإنسان في العادة القيام بها من قبيل تشييع الضيف إلى مسافات معينة فضلاً عن الناس لديهم مشاغل تمنعهم عن القيام بهذا النمط من الكرم، ولكن الله لا تمنعه هذه الموانع فضلاً عن أن الملائكة عنده كثير، وهذه الكثرة تسمح بقيام سبعين ألف ملك بتشييع الزائر مهما كانت الفاصلة وهؤلاء طبعاً غير الملائكة الموكلون بالمهام الأخرى الذين وردت في الأحاديث أوصافهم وهكذا فإننا مع كل حديث نطلع على تفاصيل جديدة تؤكد كثرة أعداد الملائكة.

بإسناده عن أبي جعفر قال: إنّ المؤمن ليخرج إلى أخيه يزوره، فيوكل الله عز وجل به ملكاً فيضع جناحاً في الأرض وجناحاً في السماء يطلبه فإذا دخل على منزله نادى الجبار تبارك وتعالى: «أيّها العبد المعظم لحقي المتبع لآثار نبيي! حق عليّ إعظامك، سلني أعطك. ادعني أجبك اسكت أبتدئك فإذا انصرف شيّعه الملك يظله بجناحه حتى يدخل إلى منزله، ثم يناديه تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقي! حق علي إكرامك قد أوجبت لك جنتي، وشفعتك في عبادي»[1].

البحث هنا حول زيارة المؤمن للمؤمن بدون تخصيص لعيادة في مرض أو بدونها وهو أكثر تفصيلاً من الأحاديث السابقة، وإن كان يحمل نفس المضامين فهنا ملك يختلف أيضاً عن الملائكة فهو يضله بجناحيه ويشيعه وفي الأحاديث الأخرى يبشره بالجنة ويقول له: إنّها زيارة لله وهنا أيضاً بشارة بالجنة وبيان لدلالة الزيارة إنها تعظيم لحق الله واتّباع للسنة النبوية، وكل ذلك

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٩، عن الكافي.

مما يوجب رضا الله ورحمته وبالتالي فإن الله يكرم هذا العبد في الذهاب وفي الإياب مع إضافة جديدة وهي منحه حق الشفاعة للعباد دون بيان من هم العباد هل هم أهل بيته وإخوته أم أنهم غير هؤلاء من خاصة الرجل الزائر؟.

ومن الظاهر أيضاً أنها وكالة تأتي مع العمل الصالح تكريماً للقائم به، وهي ليست تكليفاً دائماً يقوم به الملك لهذا العبد وأنه سوى عمل الحفظة، ولذلك اقتضى ذكره بإشارة مستقلة وإن كان الملك الموكل أحد الحفظة فكان لا بد وجود ما يفيد ذلك في متن الحديث فضلاً عن أن الحفظ عملية دائمية لا ترتبط بالأعمال الصالحة، لكن الحفظ هنا لخصوصية هذا العمل وشدة مطلوبيته.

بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أنزل الله عز وجل الرحمة عليهما، فكانت تسعة وتسعين لأشدهما حباً لصاحبه، فإذا توافقا غمرتهما الرحمة وإذا قعدا يتحدثان قالت الحفظة بعضها لبعض: اعتزلوا بنا فلعل لهما سراً وقد ستره الله عليهما . فقلت: أليس الله عز وجل يقول: ﴿ *ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد* ﴾[1] فقال: يا إسحاق إن كانت الحفظة لا تسمع فإن عالم السر يسمع ويرى[2].

الحديث يشير إلى أن الحفظة وإن كانوا هم الأكثر تتبعاً لأعمال المؤمنين وغير المؤمنين إلا أنّ ذلك يأتي في ظل الرقابة الحقيقية التي يقوم بها الله عز وجل كما يبين لنا ذيل الحديث، ومع ذلك فإن هذه الإشارة لحالة استثنائية لخصوصية المؤمنين ولمكانتهم عند الله ومع ذلك فإن من ينال هذه الخصوصية برفع الرقابة يكون في الواقع أهل لعدم ارتكاب الذنب خصوصاً أنّه في معرض العمل الصالح الذي به تغمره الرحمة ولأجله حاز على هذه الكرامة.

---

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٩ ـ ١٩٠، عن الكافي.

ثم إن فيه دلالة على الأدب الجم الذي يتحلى به الملائكة وشدة مراعاة المؤمنين ومع ذلك فإنه ليس بخارج عن إذن الله فالله الذي يعظم عباده يلهم ملائكته القيام بهذا النوع من التكريم سواء كان مباشراً وبأمر خاص يصدر مع نفس الواقعة أم أنه من نوع التربية التي تأتي من تواصل الالتزام بأداء ما يرضي الله وعدم ارتكاب ما يغضبه بحيث يتحول إلى طبع عند الملائكة الذين لا يعصون الله على الإطلاق فيقومون بما يرضيه، ولعلّ الأذن هو الأوجه إذ أن الأحاديث التي مرت تقول غالباً وكل الله به ملكاً أو أمر ملكاً فإذا تخلى الحفظة عن مهمتهم لا يكون إلاّ بصدور أمر جديد بهذا الخصوص.

بإسناده، عن جابر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: استأذن ملك ربّهُ أن ينزل إلى الدنيا في صورة آدمي، فأذن له، فمر برجل على باب قوم يسأل عن رجل من أهل الدار، فقال الملك: يا عبد الله أي شيء تريد من هذا الرجل الذي تطلبه؟ قال: هو أخ لي في الإسلام أحببته في الله جئت لأسلم عليه قال: ما بينك وبينه رحم ماسه. ولا نزعتك إليه حاجة؟ قال: لا، إلاّ الحب في الله عز وجل، فجئت لأسلم عليه. قال: فإني رسول الله إليك، وهو يقول: قد غفرت لك بحبك إياه فيّ[1].

في هذا الحديث تفصيل جديد هو أن الملائكة تستأذن الله للنزول إلى الدنيا، وهذا يدل على إمكان نزول الملائكة برغبتهم إلى الدنيا، وإلاّ فإنّ الملك نزل إلى الأرض من أجل مهمة مكلف بها، ولكنه في الطريق صادف هذا الرجل، وهذا يعني أن الملك يترك مهمته ويتصرف خارج إطارها، وهذا لا يعني إلا التصرف بدون إذن، لأن الإذن كان لأجل المهمة وليس للمرور بهذا الرجل، والحديث معه حول الزيارة، أو أننا نفترض أن هذا الملك طلب الأذن

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩١، عن الاختصاص.

لقصد هذا اللقاء لعلمه بوقوعه، ولكن لا شيء يدلنا على هذا الأمر في متن الحديث، إلاّ إذا افترضنا أن أصل طلب النزول هو لأغراض من هذا النوع، وليس لهذا الأمر وحده وبخصوصه، وهذا يعني وجود طائفة من الملائكة مخصصة لمتابعة وقائع من هذا النوع هي غير الحفظة والكتبة وهم رسل الله للبشائر.

ويمكن أن يكون الأذن لأجل تمحيص نوايا الرجل وإذاعتها، وبالتالي فإن نزول الملك يأتي لأجل خصوص هذا الأمر لأن الملك لا يستطيع أن يقول إني رسول الله إليك إلاّ إذا كان مرسلاً من الله، وهذا يعني أن الأذن جاء للقاء هذا الرجل ثم إعلامه بأهمية الحب في الله، وبالتالي تكون مهمة إرشادية خاصة ببعض البشر، لأن الملائكة لا تظهر بصورة آدمي إلاّ لبعض الناس كما هو ثابت، وهذا يعني أن هذا الرجل من المقربين إلى الله وليس أي رجل، ومن غير هذه الحالة فإننا نفترض أن الملائكة تلقى كل البشر بصورة بشر سواء بشرتهم بذلك أم لا.

وإسناده، عن أبي جعفر عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: لقي ملك رجلاً على باب دار كان ربها غائباً، فقال له الملك: يا عبد الله ما جاء بك إلى هذه الدار؟ فقال: أخ لي أردت زيارته، قال: الرحم ماسة بينك وبينه؟ أم نزعتك إليه حاجة؟ قال: ما بيننا رحم أقرب من رحم الإسلام وما نزعتني إليه حاجة، ولكني زرته في الله ربِّ العالمين. قال: فأبشر فإنني رسول الله إليك وهو يقرئك السلام ويقول لك: إياي قصدت، وما عندي أردت بصنعك، فقد أوجبت لك الجنة، وعافيتك من غضبي ومن النار حيث أتيته[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٩٢، عن مجالس الشيخ.

هذا الحديث مر بصيغة مشابهة ولكن مع وجود فرق في الألفاظ، ولعل هذا الملك غير ذاك فيكون معناه توجيه طائفة من الملائكة لحمل البشائر إلى أصحاب الخير وأهل العمل الصالح، وأن الله أعطاهم أمر كلي بتبشير كل من يجدونه على هذا الحال وهو يفيد مدى قرب الملائكة من حياتنا ومتابعتهم لكل ما نقوم به من أعمال ولعل ظهورهم للصالحين نادر.

وعن مهران بن محمد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الميت إذا مات بعث الله ملكاً إلى أوجع أهله فمسح على قلبه فأنساه لوعة الحزن، ولولا ذلك لم تعمر الدنيا»[1].

وللملائكة أيضاً دور في مساعدة أهل المصائب على السلوى وقد سمى الحديث هذه العملية بالمسح على القلب، ويراد بالقلب مركز العواطف كعاطفة الحزن على فقد الأحبة، وقد يكون المراد التدخل في تحقيق عملية النسيان وقد أشار إلى أشد أهل المتوفى تفجّعاً لأن سواه هم أقدر على النسيان فلا يحتاجون إلى تدخل خارجي، وشدة الحزن قد تفضي إلى إصابة الحزين بأنواع البلاء وهذا بدوره يدل على أن هؤلاء الملائكة هم من الحفظة لأنّهم يحفظون هذا الحزين من الحزن الذي يضر به وربما يكون الحفظ بالمعنى العام، وأنهم ربما كانوا طائفة مختصة بهذا العمل.

إن هذه الرواية هي إحدى الروايات التي توضّح جانب إضافي من مجالات تدخل الملائكة فهنا نرى أنها تتصرف في عواطف الإنسان، وهكذا نلاحظ سعة المجالات التي تشرف عليها الملائكة وتتصرف فيها.

ولهذا فإن فرضية كون هذا التدخل مقطعي ويتّم في ظروف خاصة وإلاّ فإن أغلب الدوائر ستكون تحت توصية الملائكة مما يوحي بالقدرية وهو أمر مرفوض في العقائد.

---

(١) المصدر نفسه: ٥٦ / ١٨٨، عن الكافي.

الشكل الثاني

علاقة الرسالة والهداية

إنّ من أهم العلائق التي تترجم رابطة الحب بين الملائكة والبشر هي علاقة الهداية وحمل الرسالات، فالملائكة رسل الله إلى البشر والرسالة هي معنى واسع تشكل الهداية بواسطة الشرع والدين جزء مهم منها وليس كل شيء فيها، ولهذا يمكن تقسيم مهمة الرسل الملائكة إلى نوعين:

الأول: رسالة توجيه الوعي من خلال الديانات ومد الأنبياء من البشر الذين بعثوا إلى أقوامهم بالتوجيهات والخطط الإلهية.

والثاني: توجيه حركة الوجود برمته نحو الأهداف الكونيّة.

ومن الصفحات التالية سنمر على الأحاديث والآيات التي تأتي في هذا الإطار وأوّلها ما يتعلق بتوجيه الوعي وهي أحاديث وآيات الهداية.

ضرورة الارتباط بالملائكة

﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السّماء ملكاً رسولاً﴾[1].

تؤكد هذه الآية أن الارتباط بالملائكة ضرورة لا مناص منها ولو كان في الأرض ملائكة بدلاً عن البشر فلا بد حينئذ من إرساء الارتباط بهم بواسطة

---

(١) سورة الإسراء: ٩٥.

أحدهم، وعلى هذا فلا مبرّر لمطالبة البشر إثبات صحة الرسالة عن طريق إثبات الاتصال المباشر والحسي بالملائكة لعدم تصديق ارتباط السماء بأحد من البشر، مع التأكيد الضمني لحقيقة كون الرسول من نفس الجماعة المرسل إليها.

لكن الملفت للنظر هنا تأكيد الآية على مسألة الاطمئنان الأمر الذي ينطوي على احتمال كون الملائكة لا تتمتع بالاطمئنان في الأرض، فهل المقصود أن عدم اطمئنانهم كون الأرض ليست موطناً لهم؟ أم أنها بهذه الخصوصيات لا يتاح لهم الحركة المطمئنة؟ فتكون السماء هي المكان الوحيد الذي يطمئنون فيه، فيكون معنى مطمئنين مستقرين فيها وليس كما هو حاصل الآن إذ يزورون الأرض بسرعة ثم يغادرونها إلى موطنهم في السماء.

«والعناية في الآية الكريمة متعلقة بجهتين إحداهما: كون الحياة أرضية مادية، والأخرى كون الهداية الواجبة بالعناية الإلهية بوحي نازل من السماء برسالة ملك من الملائكة»[1].

فإذا كان معنى الاطمئنان هو القابلية للتواجد بصورة متواصلة في الأرض على نمط الحياة البشرية، فإنّه قد يعني عدم إمكان وقوعه لا لوجود معوّق في طبيعة الأرض، بل لأن الله حكم وسمح للبشر بإعمار الأرض واتخاذها مسكناً ولم يأذن للملائكة بذلك رغم مطالبتهم بدءاً بأعمارها بدلاً عن البشر في حادثة خلق آدم عليه السلام.

أما إذا كان هناك عائق طبيعي فهذا يعني أن أصل خلافة الملائكة في الأرض ممتنعة وهم لم يكونوا يدركون هذا الأمر قبل أن يبينه الله لهم.

وقد نقل المصنف بعض آراء العلماء في مسألة الوحي كما يلي:

---

(١) تفسير الميزان: ١٣ / ٣٠٥.

جاء عن (السيّد الداماد) الذي يقترب من آراء الفلاسفة قوله: من الدائر على الألسن أن وصف القرآن بالنزول الذي لا يتصف به إلاّ المتحيز بالذات دون الأعراض وسيما غير القارات، كالأصوات وإنّما هو بتبعية محله، سواء أخذ حروفاً ملفوظة أو معاني محفوظة، وهو الملك الذي يتلقف الكلام من جانب الملك العلام تلقفاً سماعياً، أو يتلقاه تلقياً روحانياً، أو يتحفظه من اللوحِ المحفوظ ثم ينزل به على الرسول، ولا يتمشى هذا النمط إلاّ على القول بتجسّم الملائكة. وإنّما الخارجون عن دائرة التحصيل ممشاهم ذلك، فأما ما هو صريح الحق وعليه الحكماء الإلهيون والمحصلون من أهل الإسلام أن الملائكة على قبائل سفلية وعلوية أرضية وسماوية، جسمانية وقدسانية. وفي القبائل شعوب وطبقات، كالقوى المنطبعة والطبائع الجوهرية، وأرباب الأنواع، والنفوس المفارقة السماوية والجواهر العقلية القدسية بطبقات أنواعها وأنوارها. ومنها روح القدس النازل بالوحي النافث من أرواح أولي القوة القدسية بإذن الله سبحانه ﴿ *وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو*... ﴾[1]. وفي الحديث عنه «أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلاّ وفيه ملك ساجد أو راكع» فالأمر غير خفي اللهم إلاّ أن يسمى ظهورهم العقلاني لنفوس الأنبياء عليهم السلام نزولاً، تشبيهاً للهيولي العقلي والإعتلاق الروحاني بالنزول الحسي والاتصال المكاني، فيكون قولنا: نزول الملك استعارة تبعية، وقولنا: نزل الفرقان مجازاً مرسلاً بتبعية تلك الاستعارة التبعية. قلت: لا يطمئن مني أحد من الناس إن استصح ذلك بجهة من الجهات، وأن فيه شقاً لعصا الأمة بفرقها المفترقة، وأحاديثها المتواترة، وخرقاً للقوانين العقلية الفلسفية، ونسخاً للضوابط المقررة البيّانية، فالأمة مطبقة على أنّ النبي صلى الله عليه وآله يرى جبرائيل عليه السلام

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

وملائكة الله المقربين ببصره الجسماني، ويسمع كلام الله الكريم على لسانهم القدسي بسمعه الجسماني، وقوائم الحكمة قائمة بالقسط إنه إنّما ملاك الرؤية البشرية والأبصار الحسيِ انطباع الصورة في الحس المشترك وإنما المبصر المرئي بالحقيقة من الشيء الماثل بين يدي الحس الصورة الذهنية المنطبعة أما ذو الصورة بهويته العينية ومادته الخارجية فمبصر بالعرض، مرئي بالمجاز وإن كان مثوله العيني شرط الابصار، والجليديتان هما مسلكا التأدية لا لوحا الانطباع وعلى هذه السنة شاكلة السمع أيضاً والإفاضة مطلقاً من تلقاء واهب الصور فإذا كانت النفس واغلة الهمة في الجنبة الجسدانية طفيفة الانجذاب إلى صقع الحق وعالم القدس لم يكن لنبطا سياها سبيل إلى التطبع بالصورة من تلقاء واهب الصور إلاّ من مسلك الحاسة الظاهرة. ومثول المادة الخارجية بين يديها. فأما إذا كانت قدسية الفطرة. مستنيرة الغريزة في جوهر جبلتها المفطورة ثم في سجيتها المكسوبة، صارت نقية الجوهر، طاهرة الذات، أكيدة العلاقة بعالم العقل، شديدة الاستحقاق لعالم الحس قاهرة الملكة، قوية المنة على خلع البدن ورفض الحواس. والانصراف إلى صقع القدس حيث شاءت ومتى شاءت بإذن ربّها، وقوتها المتخيلة أيضاً قليلة الانغماس في جانب الظاهر قوية التلقي من عالم الغيب. فإنها تخلص من شركة الطبيعة، وتعزل اللحظ عن الجسد في اليقظة فترجع إلى عالمها. وتتصل بروح القدس، وبمن شاء الله من الملائكة المقربين، وتستفيد من هنالك العلم والحكمة بالانتقاش على سبيل الرشح كمرآة مجلوة حوذي بها شطر الشمس، ولكن حيث أنها يومئذ في دار غربتها بعد بالطبع، ولم تنسلخ عن علاقتها الطبيعية بتدبّر جيوشها الجسدية وأمورها البدنية، تكون مثلها فيما تناله بحسب ذلك الشأن وتلك الدرجة تحول الملك لها على صورة مادية متمثلة في شبح بشري ينطق

بكلمات إلهية مسموعة منظومة كما قال عزّ من قال: ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً ﴾[1] وأعني بذلك ارتسام الصورة في لوح الانطباع لا من سبيل الظاهر والأخذ عن مادة خارجية. بل بالانحدار إليه من الباطن والحصول عن صقع الإفاضة، فأذن في السماع والإبصار المشهورين يرتفع المسموع والمبصر من المواد الخارجية إلى لوح الانطباع، ثم منه إلى الخيال والمتخيلة ثم يصعد الأمر إلى النفس العاقلة، وفي إبصار الملك وسماع الوحي وهما الأبصار والسماع الصريحان ينعكس الشأن، فينزل الفيض إلى النفس من عالم الأمر فهي تطالع شيئاً من الملكوت مجردة غير مستصحبة لقوة خيالية أو وهمية أو غيرهما ثم يفيض عن النفس إلى القوة الخيالية، فتخيله مفصلاً منظماً بعبارة منظومة مسموعة، فتمثل لها الصورة في الخيال من صقع الرحمة وعالم الإفاضة ثم تنحدر الصورة المتمثلة والعبارة المنتظمة من الخيال والمتخيلة إلى لوح الانطباع وهو الحس المشترك، فتسمع الكلام، وتبصر الصورة، فهذا أفضل ضروب الوحي والإيحاء، ويقال إنه مخاطبة العقل الفعال للنفس بألفاظ مسموعة مفصلة، وله أنحاء مختلفة، ومراتب متفاصلة، بحسب درجات للنفس متفاوتة، وقد يكون في بعض درجاته لا يتخصص المسموع والمبصر بجهة من جهات العالم بخصوصها، بل الأمر يعم الجهات بأسرها في حالة واحدة. وفي الحديث أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانا يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال: وأحياناً يمثل إلى الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول. وربما تكون النفس المتنورة صقالتها في بعض الأحايين أتم، وسلطانها على قهر الصوارف الجسدانية والشواغل الهيولانية أعظم فيكون عند

---

(١) سورة مريم: ١٧.

الانصراف عن عالم الحس والاتصال بروح القدس استئناسها بجوهر ذاته المجردة منه بالشبح المتمثل فتشاهده يبصر ذاته العاقلة ويستفيد منه وهو في صورته القدسية كما ورد في الحديث أن جبرائيل أتى النبي ﷺ مرة في صورته الخاصة كأنه طبق الخافقين. ثم دون هذه الضروب لسائر درجاته ما يتفق له من القوة القدسية نصيب مرتبة النبوة أن يرى ملائكة الله ويسمع كلام الله ولكن في النوم لا في اليقظة. وسبيل القول فيه أيضاً ما دريت، إلاّ أن الأمر هناك ينتهي إلى القوة المتخيلة ويقف عندها بمحاكاتها وتنظيمها وتفصيلها لما قد طالعته النفس من عالم الملكوت، من دون انحدار الصورة المتمثلة والعبارة المنتظمة منها إلى الحس المشترك. فأما الرؤيا الصالحة لنفوس العرفاء فواقعة في هذا الطريق، غير واصلة إلى درجة النبوة وبلوغ الغاية. وفي الحديث: إنّها جزء من ستة وأربعين أو سبعين جزء من النبوة، على اختلاف الروايات. وقصاراها في مرتبة الكمال وأقصاها للمحدثين ـ بالفتح على البناء للمفعول من الحديث ـ وهم الذين يرفضون عالم الشهادة ويصعدون إلى عالم الغيب. فربما يسمعون الصوت في اليقظة عن سبيل الباطن، ولكنهم لا يعاينون شخصاً متشبحاً[1]. وفي كتاب الحجة من كتاب الكافي لشيخ الدين أبي جعفر الكليني (رضي الله عنه) باب في الفرق بين الرسول والنبي ﷺ والمحدّث. وأن الأئمة ﷺ محدّثون مفهّمون. وإذ قد انصرح لك من المسألة من سبيلها فقد استبان أن قولنا «نزل الملك» مجاز عقلي مستعمل طرفاه في معنيهما الحقيقيين والتجوز فيه في الإسناد، إذ النزول حقيقة منسوب إلى الصورة المتشبحة المتمثلة وقد أُسند بالعرض إلى الجوهر المجرد القدسي وهو الملك، وليس هو من الاستعارة في شيء أصلاً، كما قولنا (تحرك جالس

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢١٢ ـ ٢١٥.

السفينة) وقولنا «أنا متحرك» و«أنا ساكن» وقولنا (رأيت زيداً) إذا عنينا به شخصه الموجود في الخارج بهويته العينية لا صورته الذهنيّة المرئية المنطبعة في الحس المشترك وسائر المقولات في وجود الاتصافات بالعرض كلها على هذه الشاكلة. وأما «نزل الفرقان» فمجاز مرسل لاتباعه استعارة تبعية، بل من حيث أن النازل على الحقيقة محله وهو تلك الصورة البشرية المتشبحة النازلة أو تجوز عقلي لا في شيء من الطرفين بل في الإسناد، على أن الأصوات والحروف والألفاظ ليست أعراضاً حالة في لسان المتكلم، بل هي تقطيعات عارضة للهواء من تلقاء حركة اللسان[1].

ويركز هنا على موضوع التلقي والوحي وكيف هو يبدي فيه نظر عقلي ولا يجري مجرى مع ما عليه الأمّة لكن هذا فيه تكلّف في تفسير النصوص القرآنية والأحاديث لتقديم هذا الرأي وتبنّيه ثم يعقّب: «إن قلت: بنيتَ الأمر فيما أفدت على القول بالانطباع في باب الرؤية، فما سبيل القول هناك على المذهبين الآخرين وهما خروج الشعاع أي في فيضانه من المبدأ الفيّاض منبثّاً في الهواء المتوسط بين الجليدية وسطح المرئي على هيئة المخروط وحصول الإفاضة الإشراقية للنفس المستوجبة للانكشاف الإبصاري ما دامت المقابلة بين المرئي والجليدية على تلك الهيئة.

قلت: لست أكترث لذلك، إذ إنما يسمى ذلك الخلاف وتثليث القول في المواد الخارجية والرؤية من مسلك الجليدية ومن مذهب الظاهر لا في الإبصار من سبيل الباطن ومذهب الغيب من دون الأخذ من مادة خارجية. ثم الآراء الثلاثة متحاذية الاقدام في تطابق اللوازم واتحاد الأحكام، حذو القذة بالقذة والسواد الأعظم على مسلك الانطباع، ويشبه أن يكون الحق لا يتعداه وما يتجشمه فرق من فرق الإضافة الإشراقية من إثبات صور معلقة خيالية في

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢١٥ ـ ٢١٦.

عالم معلق مثالي ليستتب الأمر في صور المرايا والصور الخيالية وأمور الإيحاءات ومواعيد النبوات. قلت: لا أجد لاتجاه البرهان إليه مساقاً بل أجده بتماثيل الصوفية أشبه منه بقوانين الحكماء، وحق القول الفصل فيه على ذمّة كتبنا البرهانية.

فلعله ﷺ حاول تحقيق الأمر على مَذاق المتفلسفين، ومزج رحيق الحق بموّهات آراء المنحرفين عن طريق الشرع المبين، مع تباين السبيلين ووضوح الحق من البين، وقد اتّضح بما أسلفنا صريح الأمر لذي العينين وسنذكر ما يكشف أغشية الشبه رأساً عن العين[1].

الاصطفاء والهداية

إنّ علاقة الهداية تعتمد بدءاً على عملية اصطفاء لبعض الملائكة وبعض البشر، ذلك أن هذه العملية غاية في الأهمية ولا يستطيع إلاّ نوع خاص من ذوي المؤهلات أداءها بعد أن يتحولوا إلى أقطاب الحركة الكونيّة ويتم من خلالهم: ١ ـ الارتباط بالسماء. ٢ ـ توجيه حركة التأريخ وجهة خاصة ومقصودة.

وسنمر بدءاً على عملية الاصطفاء البشرية من خلال النموذج الآتي:

قال تعالى: ﴿ ***وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين*** ﴾[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢١٦.

(٢) سورة آل عمران: ٤٢.

الاصطفاء الأوّل:

لقد سبق الإشارة إلى مبدأ التدخل الإلهي في مقاطع تأريخية لصالح أهداف معينة، وعملية الاصطفاء تأتي ضمن هذا المبدأ لأن الله سبحانه وتعالى يمارس اختيار بعض البشر لأدوار تأريخية متميزة. وهذا الاصطفاء يعتمد على قضية الطهارة التي هي ذات مناشئ ذاتية أي احتواء الشخص المصطفى على قدرات خاصة يتعلّق جانب منها بالوراثة، وفعل القانون الطبيعي ويكمل بالظروف الإجتماعية والثقافية، التي تتولى إيصال الفرد إلى حالة الطهارة وبمعنى تظافر البيئة والوراثة على خلق الأهلية وهي تنسب إلى الله من باب أن الله سبحانه وتعالى أفسح المجال لوصول النزعات الموجودة في الفرد إلى مداها، ولكن هذا ليس خارج الشروط وهي اختيار الإنسان للسير في هذا الاتجاه بناءً على انتفاء القسر بالنسبة للإنسان وكل ما يفعله هو نتيجة لعمله وبالتالي مسؤوليته عن ذاته، تبعاً لنظام معقد هو نظام الأمر بين الأمرين.

والاصطفاء الثاني:

هو الذي جاءت به الملائكة ومثاله اصطفاء مريمﷺ على نساء العالمين وهو ما قامت به تنفيذاً لأمر الله من الاختيار لأدوار خاصة، وحينما يحصل الإنسان على قدر من الأهلية بالفعل بعد أن يصطفيه الله بناءً على ملكات معينة يمكن أن تعطيه الأهلية لأداء الدور المعين، ولهذا فإن الاصطفاء الثاني يترتب على اختيارات الإنسان ثمّ سعيه للوصول للأهلية ولو كان قهراً لكان الاصطفاء الأول كافياً، وفي العادة تتوّج المساعي الناجحة لحيازة الأهلية

بنزول الملائكة وكما أسلفنا حين يتعلق الأمر بأهداف التاريخ وكما هو معلوم أن اصطفاء مريم ترتب عليه ظهور عيسى(ع) وبالتالي ظهور المسيحية.

وجاء في تفسير الميزان:

﴿ ***إذ قالت الملائكة يا مريم...*** ﴾ معطوفة على قوله: ﴿ ***إذ قالت امرأة عمران*** ﴾ فتكون شرحاً مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ ***إنّ الله اصطفى...*** ﴾[1].

وفي الآية دليل على أن مريم محدثة تكلمها الملائكة وهي تسمع كلامهم كما يدل عليه أيضاً قوله في سورة مريم: ﴿ ***فأرسلنا إليها روحنا...*** ﴾[2].

فتدخل الملائكة بالحديث إلى مريم يعكس أهمية ما يترتب على هذا التدخل من نتائج هامة وإشارة إلى دور الملائكة في المقاطع الهامة في حياة الإنسان والتي يستخدم القرآن إزاءها في العادة مصطلح الهداية ﴿... ***فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون*** ﴾[3].

﴿... ***فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى*** ﴾[4].

فإذا كان الهدى يترتب عليه ذهاب الخوف والحزن عن البشر في الدنيا والآخرة ذهاب الضلال والشقاء، فإنّه إذن في غاية الأهمية لحياة البشر الدنيوية ومستقبلهم الأخروي كما أن الملائكة تضطلع بخلق الشكل العملي لهذه الأهمية وإعطائها قالبها.

---

(١) تفسير الميزان: ٣/ ١٨٨.

(٢) سورة مريم: ١٧.

(٣) سورة البقرة: ٣٨.

(٤) سورة طه: ١٢٣.

وهذا هو الذي بينته الآية حيث يأتي إخبار مريم باصطفاء الله لها من قبل والاصطفاء الفعلي كتمهيد لما يترتب على ذلك من مسؤوليات وظروف لا بد من تحملها خصوصاً أنها كما تذكر سورة مريم شاقة.

قوله تعالى: ﴿ *فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً* ﴾[1].

في هذه الآية يصف القرآن لنا حالة تحول الملائكة إلى صورة البشر، وهذا يأتي إذا كان المقصود بكلمة روحنا هو أحد الملائكة. على ما جاء في بعض التفاسير التي تقول أن المقصود هو جبرائيل عليه السلام أما إذا كان المقصود بها مخلوقات أخرى كما يذهب إليه بعض المفسرون فإن الذي تحول إلى بشر سيكون هو أحد تلك الكائنات وهو بعيد.

ومن هنا فإن الآية على كل الفروض تتحدث عن حالة تحوّل متاحة لهذه المخلوقات من صورها الأصلية إلى صورة بشر (تمثل لها بشراً سوياً) والتمثل ربما لا يعني التحول، بل يكفي أن تحدث الصورة بأي شكل بواسطة فعل (الروح) فالتحوّل قد يفيد الانقلاب التام أما التمثل بصورة البشر فلا يحمل هذا المضمون ويمكن أن يتم بأية طريقة.

فانعكاس هذه الصورة وبروز هذه القدرة كنوع من أنواع الاتّصال بين البشر وبين الكائنات السماوية كما تفيد الآية جاء قريناً لعملية الإرسال وهو يجيب على تساؤل حول مدى حرية الكائنات في الحركة والتصرف ووجود حدود وقيود تقيدها والجواب طبعاً أن التحول يحدث عند الإرسال بدليل عدم حدوثه إلاّ في هذه الحالات الخاصة وهذا ما نوّه به القرآن الكريم.

---

(١) سورة مريم: ١٧.

قوله تعالى: ﴿ *فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ اللّه يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمةٍ من الله وسيّداً وحصوراً ونبيّاً من الصّالحين* ﴾[١].

هذه البشارة التي ذكرتها الآية موضوع إنساني عام ولا يتعلّق بالوضع الخاص للنبي حتى لو كان استجابة لدعائه أن يرزقه الله الولد. وإذا كنا نعود لتذكير الآيات المشابهة في سورة مريم وهي: ﴿ *قال ربّ إنّي وهن العظم منّي واشتعل الرّأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً * وإنّي خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لّدنك وليّاً* ﴾[٢]. فإننا نرى الدعاء والرغبة بأن يكون للنبي ولد لم يأت لإشباع غزيرة الأبوة والأغراض الشخصية، بل لأسباب أخرى عامة تتعلّق بترسيخ الإيمان كجزء من المهمة الرئيسية للنبي. ومن هنا فإن هذا النوع من البشائر يتجاوز الأوضاع الفردية فيصل إلى الأوضاع الاجتماعية العامة. وهذا يلقي الضوء على الجانب الأهم من حركة الملائكة، والبشائر التي تنقلها إلى تلك التي تتعلق بالشأن العام وتتعلق بأصل الرابطة وسر الاحتضان الذي أرساه الله في بداية ظهور الإنسان فهنا نلاحظ تناسق بين اهتمامات الأنبياء التي تتجاوز الشؤون الفردية الخاصة واهتمامات القرآن نفسه الذي لا ينقل إلا الشأن الهام والمفصلي في حركة التأريخ الإنساني، أو ما يؤول إليه من الأوضاع الفردية.

وبناءً عليه نكتشف ومن خلال طبيعة الطرح عنصراً جديداً من عناصر عقيدة الملائكة ذلك أنها لو كانت من أفكار الإنسان ومبتدعاته فإنّها حينئذ لا بد أن تعكس طبيعة مؤلفها، وتعكس الظروف الثقافية التي تنتجها، وبالتالي فإنّها لا تستطيع الصمود أمام ظروف تأريخية بعيدة لأنّ العقل الذي أنتجها سيتجاوز ذاته وبالتالي ستبدو في النهاية خارج إطار المعقول إلاّ إذا افترضنا

---

(١) سورة آل عمران: ٣٩.

(٢) سورة مريم: ٤ ـ ٥.

أن الثقافة ثابتة لا تتغير، وكما أن هناك معيار آخر وهو أنها إذا قرئت من خلال عدسات ثقافية أخرى فإنَها ستبدو غير معقولة أيضاً لأن عدسات الثقافة تتباين. وحين ننظر من خلال ثقافة إلى بعض الأفكار المنتجة في ثقافة أخرى مغايرة فإنّها لا تبدو كذلك، لأنه إذا كانت فكرة ما مقبولة ومعقولة لدى عدد كبير من الثقافات المختلفة والمتباينة فإنّها تعكس لا شخصية هذه الأفكار وهذا طبعاً يصدق على الأعمال الأدبية التي تستطيع أن تعبر إلى عدد كبير من البيئات أو الأزمنة معبّرةً عن شيء في الإنسان أكبر من الزمان وحدود الثقافة والبيئة الشخصية لهذه الجماعة أو تلك. أي أنها تناغي الذات الإنسانية الأعم. وحين نطبق هذا على ما ورد حول الملائكة في القرآن والحديث نكتشف طبيعة الطرح العلمي خصوصاً إذا قارنّا ذلك بآلهة اليونان وكيف تهاوت سريعاً بمجرد أن تطورت الحياة، بينما خلق التطور المعاصر والثورة العلمية مزيداً من فرص الثبات بالنسبة للعقائد الإسلامية عموماً وبالنسبة لخصوص عقيدة الملائكة، وهكذا فإن عقيدة الملائكة تزداد تألقاً مع تألق العلوم فتكشف عن تخلف الإنسان عنها.

وقد جاء في التفسير ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ دليل على أن تسميته بيحيى إنّما هو من جانب الله سبحانه وتعالى كما تدل عليه نظائر هذه الآيات من سورة مريم، قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[1] فإن هذه الآيات تدل أن الله سبحانه وتعالى هو الفاعل سواء كان فعله من غير وسائط الملائكة وحياً أو بواسطة الملائكة الذين كانوا ينادونه فالقول كان على أي حال قوله تعالى لكن الظاهر أنّه منسوب لله تعالى بواسطة الملك فالقائل هو الملك[2].

---

(١) تفسير الميزان: ٣/ ١٧٦، تفسير سورة آل عمران.

(٢) سورة مريم: ٧.

وقد نسب إليه تعالى لأنه بأمره، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾[1].

وتختلط البشارة بالإعجاز وكلاهما مدخل للأحداث الهامة في ذلك المقطع التأريخي الذي جرت فيه. ولقد أسفرت عن إصابة النبي بحالة من الاندهاش من قدرة الله سبحانه وتعالى.

فالنص يطرح التدخل الإلهي غير المباشر في ظروف خاصة لتغير الأوضاع فوفق القوانين الطبيعية، يجب أن لا يصبح زكريا أباً لكن هذا الوضع قررت المشيئة الإلهية تغييره لصالح أهداف مستقبلية تتعلق بحركة التأريخ التي هي حركة موجهة وتتجه نحو نهايات محددة.

وعلى هذا فإن حركة الطبيعة الحية والجامدة تتم بإشراف إلهي تقوم الملائكة بتنفيذ أغلب معالمه بأمر الله، وهي تمثل الجانب الحي من جند الله المتألفين من مجموعة كبيرة من القوى (كقوانين الطبيعة والملائكة) و(الجن والإنس الذين يطيعون الله) فيصبحون جزءاً من جند المكلفون بأداء مهام كونية ومن أداء فعاليات خاصة أسوة بمخلوقات أخرى كثيرة.

اصطفاء الملائكة

تعتمد عملية اصطفاء البشر ذوي المواصفات الخاصة على عملية اصطفاء سابقة وممهدة، قد أشار القرآن إليها وسماها كجزء من عملية الرسالة على إطلاقها سواء ما يتعلق منها بتوجيه الوعي أو بالمعنى العام لها، ولهذا فإن هذه الرسالة تقتضي توفر خصائص معينة بالملائكة لأداء مهام الرسالة بوجهيها تؤكدها الآية التالية:

---

(١) سورة مريم: ٧ ـ ٩.

﴿*الله يصطفي من الملائكة رُسلاً*...﴾[1].

تتحدث هذه الآية عن قضية من أهم القضايا التي تواجه الإنسانية ألا وهي قضية الرسالات ذات الأهمية الخاصة ليست على صعيد الإنسان الفرد وصلاحه الخاص ونجاته في الدنيا والآخرة، بل أهميتها المتجلية بالنسبة للجماعات التي تشكل حضناً يولد فيه الفرد ويتكامل نضجه وتعاليه أو تحوله إلى حضن ينتج تخلفه وفساده. وبالتالي فإنّها العنصر الأساس في نشوء الحضارات والمفاهيم الإنسانية كما أنها الأصل في تواصل السيرورة البشرية نحو التكامل.

وحيث أن الرسالات بهذه الأهمية، فإن القرآن تحدث عنها وبيّن أنها تعتمد على عملية اصطفاء ليست اعتباطية أو عشوائية إنما هي دقيقة وحاسمة غير أنها مجهولة بالنسبة لنا، وإذا كنا نعلم بكيفية اصطفاء الله لرسله من البشر فإننا لا نعلم كيفية اصطفاء الله لرسله من الملائكة وما هي الكيفيات والمواصفات التي تقف وراءها، إلاّ أن الآية تتحدث عن وجود هذه الحالة في البشر والملائكة على حد سواء.

لكن الآية لا تبين ما إذا كان الملائكة الذين يصطفيهم الله برسالاته هل هم رسل إلى الملائكة أو إلى مخلوقات أخرى لا نعرفها؟ أم هم رسله الذين يحملون رسالات الله إلى البشر خاصة؟ وبالتالي فإن مهمتهم الرئيسة هي نقل أوامر الله تعالى ونواهيه إلى الرسل البشر فيكون الاصطفاء هذا كمقدمة للاصطفاء البشري وليس بمعزل عنه.

وعلى أية حال يمكن أن نقول أن اختيار الملائكة لحمل رسالة السماء إلى الأرض تتم بناءً على مرتكزات مشابهة لعملية اصطفاء الرسل من الناس،

---

(١) سورة الحج: ٧٥.

ومن هنا تنشأ دلالة على وجود صفات خاصة في الذين يتم اصطفاؤهم تؤهلهم لأداء المهمة بالنسبة لكل جنس من المخلوقات بحسب ضرورات وقواعد وجوده، ولعلنا نجد أن كل جنس يختلف عما سواه بالكثير من المعالم وليس الاختلاف هنا كاختلاف البشر المحصورة بلون البشرة والشعر وألوان العيون وحجمها والطول والقصر بل الاختلاف في الأنحاء والأحجام والأجنحة فضلاً عن كثرة العدد.

وتضرب لنا الأحاديث التي ستمر لاحقاً بجبرائيل﵇ والملائكة المقربين مثالاً فجبرائيل﵇ له ستمائة جناح وعلى ساقه الدر كالقطر على البقل. وهذا الأمر يلفت نظرنا إلى أن النور يمكن أن يركب مواد مشابهة تماماً للمواد التي نراها في عالمنا المادي من قبيل الدر وكذلك الثلج والنار.

أما حجم جبرائيل فإنّه قد ملأ ما بين السماء والأرض وهذا يدل على كبر حجمه، ثم يثنّي بذكر ميكائيل﵇ فيقول إذا همّ بالهبوط إلى السماء الدنيا صارت رجله اليمنى في السماء السابعة والأخرى في الأرض السابعة وهذا أيضاً يدل على كبره، وبذلك إشارة إلى أن الملائكة ذوو أحجام هائلة جداً وهم أكبر من الأجرام التي نعرفها.

وهناك جنس آخر من الملائكة أنصافهم من البرد وأنصافهم من النار، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه في الحديث السابق من كونهم جنس أو أجناس تشترك في هذه الصفة وأنهم أيضاً دائمو الذكر والدعاء.

وجاء أيضاً إن لله ملكاً ما بين شحمة إذنه إلى عينه مسيرة خمسمائة عام للطير، مما يدل على وجود الفواصل الهائلة بين الأعضاء فضلاً عن دلالته على وجود أعضاء تشبه أعضاء البشر.

بصورة عامة فإن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون وإنّما يعيشون بنسيم العرش، وهذا يعكس شدّة التفاوت بين البشر والمخلوقات

الأرضية وبين الملائكة، فهم يختلفون في نظام التغذية ونظام التكاثر كما يختلفون في البنى والأعضاء، وأشار بالخصوص إلى نظام التغذية وهو ما سمّاه نسيم العرش والنسيم عبارة عن التيار الهادي في الهواء، لكنه منطلق من العرش بصورة متواصلة، وهو يعادل الغذاء البشري عند الملائكة، ويمكن تصوره كنور الشمس الذي نحصل عليه بواسطة عملية التمثيل الضوئي الذي تقوم به النباتات وتحوله إلى مواد سكرية، لذا فإننا نفترض أن لدى الملائكة أجهزة تحصل عليه مباشرة وتقوم بهضمه لتديم وجودها. أما بالنسبة للتكاثر فإن الأحاديث الأخرى أشارت إلى طريقة تكاثرهم كما تتكاثر الكائنات أحادية الجنس، ولا يتكاثرون من خلال اجتماع الذكر والأنثى بل إن كل ملك يرتعش فيختلق من رعشته ملائكة كما تذكر الأحاديث التي ستأتي فيما بعد.

ويلفت النظر انتفاع الإمام من مقياس (سنة طير)، فالطير ذو سرعة معيّنة (س×كيلومتر/ ساعة × ٢٤ ساعة × ٣٦٥ يوم) = مقدار سرعة الطير في السنة مضروب في ٥٠٠ عام. فإذا فرضنا أن الطير يقطع ٤٠ كيلومتر في الساعة فإنّه يقطع في السنة (٤٠ × ٢٤ × ٣٦٠ = ٣٤٥٦٠٠ كم مضروب ٥٠٠ فيساوي ١٧٢٨٠٠٠٠٠ كم)، وهو مقدار الفاصلة بين أذن الملك وعينه تقريباً التي وردت في الحديث.

وهناك أيضاً قضية ركوع الملائكة إلى يوم القيامة، وكذلك سجود القسم الآخر منهم زمن القيامة، وهو زمن محدد ومعروف في السماء وقد وصفه الله بالقرب، وإذا عقدنا مقارنة بين أزمنة الأرض وأزمنة السماء، فإن السجدة تكون كذلك أمر عادي، فإذا كان يوم السماء يعادل (٥٠ ألف سنة) من أزمنة الأرض، فلتكن ركعة الملائكة هي ربع يوم أو نصف يوم من أيامهم وهذا أمر لا يعد كبيراً. أما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الملائكة كائنات لا تسأم

ولا تمل ولا تتعب، فإنّنا أيضاً نكتشف عدم تأثير طول السجود على الملائكة فضلاً عن عدم حاجتهم مثل البشر إلى العمل لتأمين العيش أو القيام ببعض الشواغل وهذا يعني فرصة السجود متاحة لهم.

وإلى جانب كل ذلك فإن نزول سبعين ألف كل يوم وكل ليلة إلى السماء الدنيا، يدل على كثرة عددهم بحيث لا يستطيع الهبوط إلى الأرض إلاّ مرة واحدة في الدهر كله، فإذا ضربنا عدد سبعين ألف في كل يوم إلى الأبد، فإننا نصل إلى أن عددهم لا نهاية له لأن الأبد هو اللانهاية مضروب بسبعين ألف.

وإذا التفتنا أيضاً إلى أن نزولهم يعني ارتباطهم بالأرض وبالخصوص بمراقد النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والحسين عليهما السلام فإننا نفهم فكرة مركزية هؤلاء المعصومين من الخلق، وأنّهم قطب الخلق، وإلا ما معنى هذه الزيارة وإقبال الملائكة عليها ثم إن مكوثهم عند قبر الحسين عليه السلام إلى الفجر يعكس عظمة هذا الإمام عند الملائكة وأن معراجهم من عنده.

أما إشارة الحديث إلى ضرب معراج لهم يعرجون منه يفيد أن مسألة العروج ليست إليه وتحتاج إلى عملية خاصة ولسنا ندري أن كان ذلك عام لجميع أصناف الملائكة؟ أم أنه خاص ببعضهم ولا يشمل عظماء الملائكة أو الملائكة المقرّبون كما يذكّرنا بالآية التي تقول ﴿ ***قل لّو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السّماء ملكاً رّسولاً*** ﴾[1] مع أن التواجد في الأرض بصورة طبيعية ومستمرة غير متاح إما لأن الملائكة تحتاج إلى نسيم العرش للاستمرار في البقاء مثلاً أو لوجود عوامل أخرى تمنع مثل هذا الاستمرار وبالتالي فإن التواجد سيكون لزمن محدود، ولعله يحتاج إلى توفير ظروف خاصة.

---

(١) سورة الإسراء: ٩٥.

ومن هنا فإن مسألة العروج تشعر بوجود أنفاق أو ممرات خاصة تتيح للملائكة الانتقال بواسطتها إلى أماكنهم فهل هي بسبب الأحجام الكبيرة لهم؟ أو لتقاطعهم مع بعض المخلوقات؟ فهذا غير واضح.

أما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿***الحمد لله فاطر السّموات والأرض جاعل الملائكة رُسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع..***﴾[1] قال الصادق عليه السلام: «خلق الله الملائكة مختلفة، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل وله ستمائة جناح على ساقه الدر مثل القطر على البقل، قد ملأ ما بين السماء والأرض. وقال: إذا أمر الله ميكائيل بالهبوط إلى الدنيا صارت رجله اليمنى في السماء السابعة والأخرى في الأرض السابعة. وإن لله ملائكة أنصافهم من برد وأنصافهم من نار. يقولون: يا مؤلف بين البرد والنار، ثبت قلوبنا على طاعتك. وقال: إن لله ملكاً بعد ما بين شحمة أذنه إلى عينيه مسيرة خمسمائة عام خفقان الطير. وقال: إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، وإنّما يعيشون بنسيم العرش، وإن لله ملائكة ركعاً إلى يوم القيامة، وإن لله ملائكة سجداً إلى يوم القيامة، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما من شيء خلقه الله أكثر من الملائكة. وأنّه ليهبط في كل يوم وفي كل ليلة سبعون ألف ملك، فيأتون البيت الحرام فيطوفون به، ثم يأتون رسول الله صلى الله عليه وآله ثم يأتون أمير المؤمنين عليه السلام فيسلّمون عليه، ثم يأتون الحسين عليه السلام فيقيمون عنده فإذا كان السحر وضع لهم معراج إلى السماء ثم لا يعودون أبداً»[2].

هذا الحديث يتطرق من خلال تفسيره للآية إلى الكثير من المعالم المهمة في خلق الملائكة، وأهمها إن ما ذكرته الآية ليس الحد الأعلى للأجنحة بل

---

(١) سورة فاطر: ١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٤ ـ ١٧٥.

لعله إشارة إلى اختلاف الملائكة من خلال اختلاف الأجنحة، ولعل ما به الاتحاد هو نفسه ما به الامتياز فالملائكة جميعاً تشترك في كونها ذات أجنحة الأمر الذي منحها أهلية الجعل كرسل.

وقد كانت أولى الإيضاحات التي نقلها الإمام ﷺ هو أن الملائكة خلقت مختلفة وهذا يلفت نظرنا إلى إمكان كونها رسل لله تعالى إلى العباد. أما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مَثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنّ الله على كلّ شيء قدير﴾[1].

في هذه الآية يعالج القرآن الكريم قضيتين بخصوص الملائكة الأولى هي قضية إحدى مهامهم في الوجود وكونهم رسلاً بدون تخصيص للمرسل إليه. وهل هو الإنسان حصراً أم أن هناك رسالات يحملها الملائكة إلى مخلوقات أخرى غير الإنسان؟ بناءً على أن وجود كائنات أخرى سوى الإنسان تبقى قضية محتملة، وهناك إشارات غير مباشرة في بعض المتون القرآنية، وحين يتم القطع بعدم وجود غير الإنسان فإن الإنسان سيكون هو الوحيد المعني بهذه الرسالات.

والقضية الثانية هي طبيعة خلق هذه المخلوقات، ولعل هذه المسألة أيضاً ترتبط مع الأولى، فالأجنحة وسيلة حركة ولا يفترض طبعاً أن تكون الأجنحة تشبه أجنحة الطير من ناحية البناء البيولوجي بل لعله في الطبيعة الفسيولوجية فالوظيفة هي الحركة والانتقال السريع والتحليق في الجو وفي الفضاء.

هذه الأجنحة هي مثنى وثلاث ورباع الأمر الذي يشير إلى عدم تساوي الملائكة في هذه الناحية، وعدم التساوي قد يشير إلى عدم تساوي قابلياتهم على الحركة والطيران تبعاً لعدد هذه الأجنحة، ولكن ربما لا يؤثر العدد على

---

(١) سورة فاطر: ١.

أهل العملية فإن الملك صاحب الأجنحة الكثيرة يطير بنفس القوة التي يطير بها صاحب الجناحين وبالتالي سوف لن يكون هناك فرق.

وفي النهاية إن ذكر هذا العدد من الأجنحة لا يعني الحصر بل ربّما وجدت أصناف أخرى من الملائكة لها أجنحة أكثر، ولعل ذكر الزيادة في متن الآية يؤكد أن الله يزيد في الخلق كما يشاء. ولعل الترابط بين خلق السموات والأرض والذي تسميه الآية (بالفطر) وبين وجود الملائكة بهذه الكيفية وثيق حيث تدل الآيات والروايات على أن عملية فطر السموات والأرض من مهام الملائكة الموكلة بكل شيء في الكون مما يستدعي قدرتها على التحرك في المسافات الشاسعة والهيمنة على الحوادث، لهذا الغرض بحيث لا يخرج عن حيز قدرتها أي موجود بعد إذن الله لها.

قوله تعالى: ﴿ ***جاعل الملائكة رُسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع*** ﴾ الملائكة جمع ملك بفتح اللام وهم موجودات خلقهم الله وجعلهم وسائط بينه وبين العالم المشهود، وكلّهم بأمور العالم التكوينية والتشريعية عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون[1].

قوله تعالى: ﴿ ***جاعل الملائكة رُسلاً...*** ﴾ قال الطبرسي رحمه الله: «أي إلى الأنبياء بالرسالات والوحي ﴿ ***أولي أجنحة*** ﴾ جعلهم كذلك ليتمكنوا بها من العروج إلى السماء ومن النزول إلى الأرض، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة أجنحة، عن قتادة وقال: ﴿ ***يزيد فيها ما يشاء*** ﴾ وهو قوله: ﴿ ***يزيد في الخلق ما يشاء*** ﴾، قال ابن عباس: «رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح، وقيل: أراد بقوله: ﴿ ***يزيد في الخلق ما يشاء*** ﴾ حسن الصوت، وقيل: هو الملاحة في العينين، وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن».

---

(١) تفسير الميزان: ١٧ / ٦.

وقال الرازي: «أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان، وما بعدهما زيادة وقال قوم فيه: أن الجناح إشارة إلى الجهة، وبيانه هو أن الله ليس فوقه شيء، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمة ويعطون من دونهم ما أخذوا بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وقوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وقال تعالى في حقهم: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فهما جناحان وفيهم من يفعل الخير بواسطة، وفيهم من يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات. وفيهم من له أربع جهات وأكثر، والظاهر ما ذكرناه أولاً وهو الذي عليه إطباق المفسرين»[1].

وفي هذا المتن إشارة إلى خصيصة من خصائص الملائكة وهي كونهم رسل الله تعالى إلى العباد على مختلف خلقهم وأجناسهم ومشرفون على الكون. فالرسالة قد لا تختص بالرسالات أو الأديان بل هناك رسالات إلى المخلوقات الأخرى وهي من قبيل إمساك السماء أن تقع على الأرض، أو الإشراف على الغيوم وسوقها، فالملائكة تحمل أوامر الله تعالى إلى مخلوقاته، ولعل هذا البعد من أبعاد الرسالة بين الله وخلقه لا يقل خطورته على إرسال الرسل بالأديان، بل أنه من أهم مصاديق الرسالة، فالدين يهدف إلى وضع الإنسانية في الإطار الذي يريده الله لها من خلال طاعة الإنسانية لأوامر الله تعالى، وبالتالي انتظام المجتمع في الخطة الكونية، أما البعد الآخر فإنه يؤدي إلى وضع الكائنات ضمن الخطة الكونية في البعد التكويني.

وكما هي العادة فإن القرآن الكريم يعمد إلى بيان المفاصل المهمة في كل ما يتعرض له ولذلك أكد على أن الملائكة رسلاً من الله مشيراً ضمناً إلى أهم أدوار الملائكة على مستوى الوجود الإنساني وعلى مستوى الطبيعة، فالطبيعة

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ /١٥٥ ـ ١٥٦.

إنّما تستقيم من خلال طاعتها لخالقها وحين لا تكون كذلك فإنّها تفسد وتفنى وهو الأمر الذي تشير إليه الآيات العديدة. إذن إن وجود الكون ودوامه يعتمد على بركة طاعة المخلوقات لله عاقلة كانت أو غير عاقلة. فالكائنات غير العاقلة تطيع الخالق قهراً وبلا اختيار فتقوم الملائكة في تحويل الطاعة هذه إلى أمر واقع وحقيقة فعلية.

أما بالنسبة للكائنات العاقلة فإن فعل الملائكة يؤدي إلى وضعها في إطار هداها، ذلك أن الكائنات العاقلة تمتلك حيزاً محدوداً من الاختيار وخارج هذا الحيّز فإنها أيضاً تعيش بحسب الأوامر الإلهية والتي تشرف على تنفيذها الملائكة في الحيز القهري من الحياة من قبيل الموت والأرزاق والأفعال اللاإرادية من الكائن الحي، أما بالنسبة لحيز الاختيار فإن دور الملائكة سيختلف وستقوم ببيان مواضع الهدى ومواضع الضلال حتى تختار الكائنات المهدية للهدى وتتردى الكائنات الضالة من الضلال بعد أن تختاره.

وبهذا يتضح مدى هيمنة الملائكة على الوجود برمته بأمر الله وهو أمر يوسّع ما ورد من الإشراف السابق ذكره إلى كل الآفاق الممكنة في الوجود وتنفتح لذلك دائرة حركة الملائكة في الهيمنة على المخلوقات صغيرها وكبيرها وأفعالها جليلها وحقيرها.

ويمكن القول أن هذا الدور من أهم أدوار الملائكة وأعمها.

البشارة والارتباط بين الغيب والشهود

اصطفاء المسيح عليه السلام

قال تعالى: ﴿ *إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدُّنيا والآخرة ومن المقرّبين* ﴾[1].

هذه الآية تأتي لتمثل نهاية مقطعية للبداية التي اضطلعت السورة بدور بناءها منذ أن بدأت بالحديث عن اصطفائه سبحانه لآل عمران في إطار عملية الاصطفاء العامّة ﴿ *إنّ اللّه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرّيّة بعضها من بعضٍ والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم* ﴾[2].

البداية بدأت من النذر ثم انتهت بولادة عيسى عليه السلام وهذا الاصطفاء مرتبط بما جاء من أن أصل علاقة الملائكة بالإنسان علاقة هادفة تقوم على أساس الإيمان، ولغرض ترسيخه فهي قائمة به ولهُ. به: لأنه الأساس. وله: لغرض امتداده وهذا الامتداد يأتي من الهداية.

والبشرى في الآية، كانت تشير إلى لحظة التحقق وهي في أن مريم ستدخل إلى عالم من خلال صدمة الوعي القائم على المألوف، فالمألوف أن المرأة لا تحمل من غير زوج ومريم حملت ولم يكن هناك مناص للمرور

---

(١) سورة آل عمران: ٤٥.

(٢) سورة آل عمران: ٣٣ ـ ٣٥.

بمعاناة منذ الصدمة وحتى لحظة التقبل خصوصاً أنها كانت في موقع اجتماعي وديني بارز ويحظى بقداسة.

فلحظة التواصل بين عالم الغيب وعالم الشهود لتأكيدها حسياً وعبر عملية الصدمة التي مارستها الملائكة عبر ارتباطها بهذه الطبقة من البشر الذين اصطفاهم الله لأداء دور معين ومحدد لا يستطيع الناس العاديون تحمله فضلاً عن أدائه وتبليغه. والعملية برمتها كانت تهدف إلى تأكيد حقيقة عالم الغيب وعدم اختلافه عن عالم الشهود، وأنه مؤثر في عالمنا وقادر على إفراز تأثيراته وبغض النظر عن مستوى تقبل البشر عبر الصدمة وتحطيم المألوف والاعتماد على الحس في تقرير تصور عن العالم.

هذه القضية كانت تديرها الملائكة بالكامل، واستغرقت جيلين لتنقل مستوى خاص من الإيمان والاعتقاد كان محصوراً عند طبقة من الناس المصطفين إلى عموم الناس وتحوله إلى وضع عام ينسف التردد عند الناس.

ولذلك يجب الانتباه إلى اضطلاع الملائكة بدور الوسيط بين عالم الغيب والشهود نابع من أسباب موضوعية نفهمها من خلال الآيات التي نقلت طلب موسى عليه السلام من الله (النظر إليه) وعند استجابة الله له بالتجلي للجبل نلاحظ سقوطه مغشياً عليه، مما يؤكد صعوبة الاتّصال بين البشر وبين عالم الغيب لأن موسى خرّ صعقاً، والجبل صار دكّاً، ومعنى هذا لا بدية وجود كيفية خاصة أو واسطة تستطيع حفظ التواصل بين الغيب والشهود دون أن تنتج التأثيرات المدمرة التي حصلت من تهشم الجبل، فكانت هي الملائكة.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن نظام الحياة وقوانينها بهذه الصورة التي نألفها ونعيشها لا تسمح بمواكبة عالم الغيب بما فيه من قوى وقدرات هائلة. ولعل هناك قوى وقدرات كبيرة تدمر الإنسان أو أجزاء من الطبيعة في حال الاتصال المباشر وبلا وسائط، مما يقتضي أن يكون الإنسان والعالم الذي

يعيش فيه منفصلاً عن عالم الغيب، لكنه ليس انفصالاً تاماً بسبب حاجته وافتقاره إلى عالم الغيب، ولهذا فإن وسيلة الارتباط كانت هي الملائكة.

وبالنسبة لاصطفاء مريم عليها السلام فإنها كانت تهدف من خلال صدمة تجاوز المألوف والاعتماد المطلق على الحواس في تركيب تصور عن العالم يخرج الأبعاد الغيبية عنه والنتيجة المترتبة على هذه الصدمة تأكيد وجود عالم الغيب وتأكيد ارتباطه مع عالم الشهود.

هذه العملية كانت تدبّرها الملائكة بالكامل، وتم التحضير لها عبر التواصل بين جيلين من البشر ذوي الإيمان الخاص الذين اصطفاهم الله وأسس لاتصالهم المباشر بالغيب بواسطة الملائكة من أجل تحويل هذا الإيمان إلى حالة عامة معروفة في اللحظة المناسبة عند عموم الناس، وهذا يعني إحداث نقلات اعتقادية بعد إيجاد نوع من الاستدلالات المنطقية التي تبدأ من المحسوسات وصولاً إلى المعقولات، فعملية الولادة عملية محسوسة والطفل عيسى المسيح عليه السلام أيضاً حقيقة محسوسة لكنه يقود إلى تعقل وجود الغيب بعد أن أثبت للناس إنه طفل خاص، فكما أنّه جاء من غير أب وهذا أمر غير مألوف ويخالف ما اعتاده الناس فإنّه أيضاً قادر على الكلام والنطق، وهذا أيضاً مخالف للمألوف والنتيجة المترتبة هي تصديق المدعى وهو أمر عقلي.

الملائكة واسطة بين عالم الغيب والشهود

لعلنا نتساءل عن طبيعة الرابطة بين عالم الغيب والشهود ولماذا جعل الله الملائكة تجسيداً لها؟ والجواب: بناءً على ما سبق الإشارة إليه من أنه ليس في أفعال الله زيادة أو نقصان، وأن كل شيء كامل وحكيم فإننا نفترض وجود أسباب كافية فرضت هذا الإطار للعلاقة لأننا لا يمكن أن نعتقد بأن وجود

إطار أفضل وأكمل تركه الله سبحانه ليأخذ الأدنى منه أو أنه مجرد حالة ترفيه شاء الله أن يبرز بها عظمته مثل عظماء البشر جل الله عن ذلك وعلا علواً كبيراً.

وإذا عدنا إلى تسمية الملائكة فإننا نجد أنه مشتق من كلمة رسالة كما مر سابقاً في بداية البحث، وقد صرّحت به الآية الأولى من سورة فاطر ﴿ *جاعل الملائكة رُسلاً* ﴾ وإذا تصورنا أن خلق الملائكة كان سابقاً على خلق الجن والإنس وجميع أشكال الحياة وأنّهم أول ما خلق الله من الأحياء بعد خلق الجوامد، فمجموع هذه المقدمات يعني أنّهم رسل ليس للبشر والأحياء فقط بل هم رسل قبل خلق البشر والنبات والجن والحيوان فهم أيضاً رسل للطبيعة، فإذا كانوا كذلك فإننا نفترض ضرورة أملت وجود هؤلاء الرسل.

ولعلنا لا نجد تفسيراً لهذه المسألة إلاّ في سورة الأعراف ﴿ *ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً فلمّا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين* ﴾[1] وقد مر كل ذلك في الصفحات السابقة.

ففي الآية يلفت النظر استخدام مفردة تجلّى وهو من الجلاء والظهور وقد ترتب على هذا الظهور انصعاق موسى ﷺ والصعقة أشد من الإغماء كما أن الجبل اندكّ إثر هذا الظهور.

وبحسب الآية فإن التجلّي لم يكن لذات الله سبحانه لأنّ الله قال: لن تراني، وكلمة لن تفيد النفي المؤبد أي استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى ولهذا فإن عملية الجلاء ورفع الحجاب عن شيء من عالم الغيب أحدثت كل هذه الآثار على الطبيعة الجامدة وعلى الأحياء وهذا يعني استحالة قيام الجلاء والمكاشفة بين عالم الغيب وعالم الشهود.

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

ولعله يمكن استنتاج كون عالم الغيب هو عالم القوى الهائلة وأن عالم الشهود هو عالم الهدوء والثبات النسبي، ومن هنا فإنه لا يتحمل التواصل وبسبب من طبيعة المادة التي يتركب منها عالم الغيب فهي مادة فاعلة تحدث تأثيرات مخربة مثل ما نقلته الآية، ولهذا فإن الضرورة فرضت وجود الوسيلة الملائمة فكانت هي الملائكة.

وبناءً عليه فإن الملائكة ذات طبيعة ثنائية وقادرة على التلاؤم مع عالم الغيب لأنّها من جنس غيبي وقادرة أيضاً على التلاؤم مع عالم الشهود بحيث لا تحدث فيه تأثيرات مخربة.

العوالم على ضوء العلم

إن ما تكاد تتفق عليه جميع الاتجاهات الدينية والفلسفية أن هذا الكون يمتد بامتداد هائل يتراوح بين أنه لا نهائي أو في حدود تقترب من اللا نهاية، ومن الواضح أن التصورات القديمة والتي لفظت أنفاسها على أعتاب عصرنا الحاضر صارت تستيقظ لتعيد صياغة تصور عن الكون تختلط فيه الآراء القديمة والحديثة،س ولكن على ضوء الأسس العلمية التي يقوم عليها العلم الحديث. وهكذا يحل التواصل بين العوالم التي كانت في البداية منفصلة كعالم الطبيعة وما بعد الطبيعة، وقد كانت البداية الفعلية نشأت من الشك في الصرامة العلمية التي ولدت في عصر النهضة وبدأت بتساؤل حول «التفاعل بين وعي الإنسان وكل ما يحيط به من طبيعة ندعوها مادية ووجود كوني ندعوه لا مادياً؟». وهل أن التعابير والمصطلحات التي تتحدث عن «ما بعد الطبيعة»، أو «ما بعد الفيزياء» ،«الميتافزيقيا» ، أو «ما بعد علم النفس - البارابسيكولوجي» ، وهو العلم الذي يعالج الظاهرات التي تجاوزت نطاق

علم نفس السلوك أو علم النفس العام ـ هي تعابير ومصطلحات دقيقة وصحيحة ، أم أن هناك حقيقة واحدة، هي علم واحد تتفاعل مقوماته أو أبعاده المرئية وغير المرئية، المعلومة وغير المعلومة، المحسوسة وغير المحسوسة، المعروفة بالوعي والطاقة والمادة؟[1].

فهنا شك بالظواهر وشك بانتمائها إلى عالم واحد أو إلى أكثر من عالم، وبغض النظر عن الإجابة فإن هذه الظواهر تشير إما إلى وجود واحد ذي مستويات متعددة أو إلى أكثر من وجود. والمهم في كل ذلك هو وجود الاتصال والتفاعل «فإذا كانت الطاقة تتفاعل مع الكتلة، بمعنى أنها تتحول إليها. وهذه الثانية، بدورها، تتفاعل مع الطاقة بمعنى أنّها تتحول إليها، فيتكامل الطرفان، فلا نخطئ إذ نقول: إن الوعي الإنساني يتفاعل مع الطبيعة الحية وغير الحية. والحق أنّه لا يوجد ما ليس حياً في الطبيعة التي تحيط بهذا الوعي وذلك لوجود حقيقة مشتركة أو وجود واقع مشترك بينهما ويتفاعل الوعي الإنساني مع الكون بكامله أو مع مستويات الكون»[2].

فهنا جانب اشتراك وجوهر واحد من حيث الانتماء إلى طبيعة واحدة وجوانب انفصال من حيث وجود الحقائق المتكثرة للأشياء. وهناك تفاعل ولكن الانتماء إلى ما به الاشتراك لا يلغي إمكانيات وجود الفواصل الهائلة بين الموجودات فهناك فاصلة بين الأحياء فما بين الإنسان والكائنات وحيدة الخلية فواصل هائلة رغم اشتراكهما في الانتماء إلى عالم الحياة، وإذا نظرنا إلى الامتداد الهائل في الوجود أمكن لنا تصور الفواصل بين الموجودات خصوصاً إذا قلنا أنّه وجود يمتد إلى درجة قريبة من اللا نهاية.

---

(١) ما بعد الباراسايكولوجي أو علم نفس الظاهرات الخارقة: ١٣.

(٢) ما بعد الباراسايكولوجي أو علم نفس الظاهرات الخارقة: ١٤.

وحين نريد أن نقرر ما هي الصيغة النهائية فإننا حينئذٍ نعود إلى ما قرره القرآن من وجود عالم الغيب وعالم الشهود بالصفات التي حددها لكلٍ منهما وأن التواصل يتم بينهما بأكثر من صيغة.

ولما كانت الفاصلة بين بعض طبقات عالم الغيب وبين عالم الشهود هائلة فإن الحاجة اقتضت وحفاظاً على ضرورة التواصل إيجاد رابطة قادرة على الانتقال بين هذه الطبقات دون أن تتعرض للتأثيرات التي قد تنشأ بسبب الجاذبية أو التأثيرات التي نسميها روحية إذا ما فرضنا بأن الروح متكوّنة من مواد بدائية للكون ذات صفات خاصة تؤثر فيما عداها.

الرسالة بوجهها السلبي

قال تعالى: ﴿ونبّئهم عن ضيف إبراهيم﴾[1].

تنقل هذه الآية مقدمة حادث جلل قامت بها الملائكة يمكن أن تكون نموذجاً لنوع خاص من أسباب نزول الملائكة عليهم السلام إلى الأرض يقابل الأنواع التي مر ذكرها في مقاطع سابقة، هذه الأنواع جاءت من النزول بالبشارة لنبي الله إبراهيم عليه السلام فبشروه بولادة ابنه الذي طلبه من الله. وهو طبعاً إنسان عظيم لا يختلف عن والده من حيث أهميته للحياة الإنسانية فهنا النزول يحمل مبررات قوية نزول على نبي وبشارة بولادة اسماعيل عليه السلام أما ما يقابل ذلك فهو ما حملته الملائكة وأخبرت به إبراهيم وهو خبر دمار قوم لوط. فهنا أيضاً قضية غاية في الأهمية هي هلاك قوم من البشر بعد صدور حكم السماء عليهم وأخذهم الله وهم متلبسون بالجرم، ومصرون عليه كما نقلت السورة في مقطع آخر الحديث عن مهمة مشابهة مع أصحاب الإيكة.

---

(١) سورة الحجر: ٥١.

وإذا جمعنا إلى ذلك ما ورد في سورة هود من تقديم الطعام لهم وعدم وصول أيديهم إليه نلاحظ أن إبراهيم خاف، وهذا الخوف يعكس أن الرؤية كانت لأطياف وهذا يشير إلى أحد أشكال تعامل الملائكة مع الملائكة من حيث الظهور والتي قد تكون شكلاً وحيداً له ولكن هذا معارض ببعض الروايات التي تشير إلى أن ظهور الملائكة كان تجسيداً كاملاً وهذا طبعاً يرتبط بطبيعة الرواية أو درجة صدقها.

والمهم الذي تناولته الآية هو أن الملائكة تنزل بالرسالة وتنزل بالبشرى كما في بشارة زكريا وبشارة مريم وبشارة إبراهيم وكذلك بالعذاب على الأقوام التي ذكرها القرآن كمصاديق لصدور حكم السماء بإفناء قوم أو أقوام في حال خاصة يقدرها الله تعالى ولا ترتبط بمشيئة البشر.

علاقة الحفظ والهيمنة

تنقل سورة الأنعام بعض مهام الملائكة التي تؤكد على لعب الملائكة جهاز سيطرة كونية يحقق هيمنة الله على الخلق سواء بالحفاظ على الحياة، أو بإنهائها في موعد نهايتها مع تعدد أشكال هذا الحفاظ واستيفاء الروح كما سيتضح فيما يأتي أو الحفاظ على الطبيعة ضمن مسار معين وهو الشكل الآخر للحفظ والذي سترد بعض مصاديقه في الآيات والأحاديث كالآتي:

قال تعالى: ﴿ *وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظةً حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون* ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: ٦١.

بين القهر والرسل

يلوح في مطلع الآية مبدأ أساسي حاكم في الخلق وهو مبدأ الخضوع المطلق لله وهو نوع من الخضوع القهري ، ولعل في لفظة ﴿فَوقَ﴾ الواردة في الآية إشارة إلى التسلط والإشراف، ومن هنا يأتي إرسال الرسل ليكونوا جزءاً من عملية الإشراف على الخلق ، وهي نفسها عملية إخضاعه لإرادة الله سبحانه بحيث أن الأجل يستمر تحت نظر الملائكة وبمجرد انتهائه فإنّ الملائكة يتوفون البشر.

أما عملية الحفظ فستكون ذات بعدين: الأول: هو الحفظ أثناء الحياة أي حفظ الحياة والثاني: الحفظ في إنهاء الحياة فتكون جزءاً من عملية القهر، فالحياة التي يسمح بها الأجل تتواصل ضمن مبدأ القهر وبواسطة حفظ الملائكة للمخلوق عبر منع أسباب إنهاء الحياة من فعل فعلها، ثم القيام بإنهاء الحياة بحيث لن يسمح لها بالاستمرار، حتى لو كانت تمتلك قابلية الاستمرار فيها، وكل ذلك يتم في إطار الدقة وعدم التماهل.

فهنا وجها الدقة: الدقة في الحياة والدقة في الوفاة وكلاهما وجهان من أوجه القهر الإلهي الصارم الذي يصدر به القضاء وهو شكل التحكم في الوجود حتى لو كان المصداق هنا «العباد» وهو ينصرف في العادة إلى الأحياء من خلق الله.

فالرسالة التي تضطلع بها الملائكة هي رسالة حفظ وإلزام للحدود حد الحياة أو حد الوفاة منعاً لأي تمدد خارجها وهي لذلك تشبه جهاز التحكم.

فالقهر إلهي وسيكون متعدد الطبقات، الأول هو المباشر والذي هو جزء من ذات الله المهمين الذي يقهر الوجود والطبيعة والبشر وكل شيء. ومستوى

آخر من خلال جهاز تحكم إضافي لا يلغي الأول ولكنه يأتي في طوله هو إشراف الملائكة طبقاً لوجود مقتضيات هذا التحكم، لأن في الوجود لا يوجد فضل أو زيادة وبعد ذلك قوانين الطبيعة فهنا ثلاث مستويات من القهر الإلهي:

١ ـ **المستوى الأول**: هو القهر الطبيعي وهو الذي ينتج عن تسلط طبائع الأشياء عليها بحيث أن الطبائع تفرض مسارات خاصة على الأشياء، فالنار طبيعتها الاحراق وهو يتبع القوانين الفيزيائية التي أودعها الله في الأشياء فتفرض نتائج خاصة عليها، فالماء مكون من ذرات الهيدروجين والأوكسجين فإذا اتحدت هذه الذرات أنتجت ماءاً قادراً على إطفاء النار، أما في نفس لحظة الاتحاد والتفاعل فإن الذرات تولد ناراً وحرارة شديدة نتيجة احتراق أحدهما بالآخر.

٢ ـ **أما المستوى الثاني**: فهو طبقة القهر الإلهي بواسطة الملائكة، حيث تقوم الملائكة بتوجيه القوانين ذلك أن القوانين محدودة الفعل، فقانون الجذب لا يعتني بالآثار الناتجة عن فعله ومستوى الأضرار أو المنافع الناجمة عن فعله، وأثر كل ذلك على مصلحة الكون، إنها تفعل فعلها بمجرد توفر الشروط الموضوعية لذلك، ولهذا فإنها لوحدها لا تضع في الحسبان الآثار بعيدة المدى، وبالتالي فإنها تفتقر إلى الإشراف والتوجيه فلو تركت لذاتها فإنها يمكن أن تقود إلى نتائج غير مطلوبة فلو اتحد مثلاً كل أوكسجين الأرض بالهيدروجين لتحول إلى ماء وبالتالي فإن فرصة الحياة تنعدم ولهذا فإن الملائكة تمثل الاشراف على حدود التفاعلات وتقودها، وخصوصاً بالنسبة لكتل المادة الهائلة بالكون التي لو تركت لقادت إلى نتائج، الله يعلم بها.

٣ ـ **المستوى الثالث**: فهو الإشراف الإلهي وهو أشرف الهيمنة النهائية التي تتسلط على الأشياء وتراقب الصور النهائية ضمن العلم الكلي بالبدايات

والنهايات والأول والآخر والظاهر والباطن وبغيرها فإننا لن نرى هذا الإبداع العظيم لهذا الفناء من الأشكال والوجودات التي تتشكل من وحدات بنائية مشتركة.

وهكذا فإن الملائكة هم رسل الله للإشراف على الطبيعة وإلزامها حدودها ولهذا يسمّي الله ملائكة الموت رسل لأنّه يرسلهم لإستيفاء الأرواح.

قال الطبرسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ **ويرسل عليكم حفظة** ﴾: أي ملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ويكتبونها وفي هذا لطف للعباد لينزجروا عن المعاصي إذا علموا أن عليهم حفظة من عند الله يشهدون بها عليهم يوم القيامة «توفته» أي تقبض روحه «رسلنا» أي أعوان ملك الموت، عن ابن عباس وغيره: قالوا: وإنما يقبضون بأمره. ولذا أضاف التوفي إليه في قوله: ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت** ﴾ ﴿ **وهم لا يفرّطون** ﴾ أي لا يضيعون أولا يغفلون ولا يتوانون أو لا يعجزون[1].

إن قهر الله للموجودات هو قهر يتم بالمباشرة حيث يحكم الله كل شيء ويهيمن عليه بالإضافة إلى القهر غير المباشر الذي تكون الملائكة أحد أدواته. ووفق هذا المفهوم أن الملائكة هي أحد أدوات الله القهار، حيث يرسلهم على العباد حفظة فتكون عملية الحفظ هي مصداق من مصاديق القهر الإلهي للعباد.

والحفظ الذي تمارسه الملائكة على أنواع وهو حفظ لحياة الإنسان منذ البداية وحتى النهاية، وهذا يعني استمرار وجود الإنسان بإشراف الملائكة وهذا يتأكد إذا جمعناه مع الآيات الأخرى التي تشير إلى أن حياة الإنسان

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٤٩ ـ ١٥٠.

فرداً وجماعةً مهيمن عليها ولكن عبر اختيارات معينة فهو متروك له الاختيار لكن مبدأ الاختيار ونتائجه تقع ضمن دائرة مرسومة محددة.

وهذا يؤكد على وجود نوع من التراتب بين مسار الحوادث وبين اختيارات الإنسان ضمن نظام معقد ومسيطر عليه بواسطة الملائكة.

ثم إن النوع الثاني من الحفظ، هو الحفظ من الحوادث، فإن الحوادث ليست طليقة بل إن هذه الحوادث لا تصيب الإنسان إلا إذا سمحت الملائكة بذلك، وضمن دائرة هي دائرة البلاء التي لها معايير أيضاً تعرفها الملائكة، وحتى يأتي الحدث الأهم وهو الموت إذ تأتي الملائكة لتقبض روح الإنسان وتتوفاه بنفس الطريقة التي جاء الإذن بها بوجوده.

وهناك أيضاً نوع آخر من الحفظ هو حفظ الأعمال وتسجيلها، فكل ما يقوم به الإنسان ويمارسه من أفعال صحيحة وخاطئة فإنه يسجل ويحفظ في سجلات خاصة كما ورد في كتب تنشر يوم القيامة وهنا لا يفرطون سواء في توفي الأنفس أو في حفظها وتسجيل الأعمال والأفكار والخطرات والسيئات وخصوصاً أننا نعلم بأن الأعمال ترتبط بالفؤاد وبالنيّات لأنها في البداية نية.

وهكذا سنصل إلى حقيقة هامة وهي أن وجود الإنسان بالكامل مرتبط بحركة الملائكة في الحياة الدنيا والآخرة ووجود نظام معقد لهذه العلاقة يحتاج إلى مزيد من التعمّق من أجل إدراكه ومعرفة أبعاده.

وهذا الأمر أشبه بالتجارب الفردية للبشر حيث تحصل النجاة من الحوادث في اللحظة الأخيرة وبدون فعل الإنسان الذي يندهل غالباً في الحوادث وقد سجلت الكثير من الكتب تجارب من هذا النوع.

فهذا الدور الذي تضطلع به الملائكة هو دور الحفظ كجزء من مهامّها الكونية الخطيرة.

الشكل الأوّل للحفظ

استيفاء الرّوح-الشّدة

قال تعالى: ﴿ *ولو ترى إذ الظّالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون* ﴾[1].

في هذه الآية توضيح لنوع من أنواع الاستيفاء للروح، فالآية السابقة أشارت إلى الحالة الكلية ومن زاوية كون الملائكة رسلاً من الله وهم جزء من أدوات تسلطه على عباده وقهره لهم، فحين تصل لحظة النهاية تعمد الملائكة إلى استيفائها لكن الاستيفاء ليس نوعاً واحداً فهناك رقة ورحمة للمؤمنين ويقابلها الشدة المشفوعة بإشعار الكافرين بقرب العذاب بعد نهاية المهلة التي استغرقوها في الحياة.

ففي لحظة النزع يتقرر وضع الإنسان النهائي لأن أعماله انتهت إلى وضع ثابت إما إلى الشقاء أو إلى النعيم. وهؤلاء الذين تصفهم الآية بالظلم أخذت حياتهم وضعها النهائي ولم يعد فيها متسع لتغييره.

فالآية تشير إلى تردد هؤلاء في الخروج من الحياة بعد أن بانت لهم علائم العذاب وتضاعفت لديهم الرغبة للمكث في الحياة، فنفهم أن أسلوب استيفاء الروح كان نذير هلع وعذاب تصفه الملائكة بأنه عذاب الهون في مقابل البشائر التي تنقلها للمؤمنين في لحظات من هذا النوع.

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣.

وإذا جمعنا هذه الآية إلى آيات أخرى نفهم ملازمة الملائكة للإنسان منذ ولادته وحتى وفاته التي يسلب بعدها منه الإختيار ويعود إلى الوقوع تحت سيطرة الملائكة فيفعلون فيه ما يأمرهم الله به.

وقال البيضاوي في قوله سبحانه: ﴿*ولو ترى إذ الظالمون*﴾ حذف مفعوله لدلالة الظرف عليه. أي ولو ترى الظالمين ﴿*في غمرات الموت*﴾ أي في شدائده، من «غَمَره الماء» إذا غشيه ﴿*والملائكة باسطوا أيديهم*﴾ لقبض أرواحهم كالمتقاضي الملظ (أي الملازم الملّح)، أو بالعذاب ﴿*أخرجوا أنفسكم*﴾ أي يقولون لهم، أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا ﴿*اليوم*﴾ يريد به وقت الإماتة أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له ﴿*تجزون عذاب الهون*﴾ أي الهوان يريد العذاب المتضمن لشدة وإهانة[1].

ويفرد هنا مشهداً خاصاً للموت، هذا الحدث الهام في حياة الإنسان الذي يفضي إلى نهايتها وبداية حياة أخرى وما تحمله من أحداث وتطورات قد تكون شقاءاً أبدياً أو سعادةً أبديةً ، والذي يرتبط بالملائكة أيضاً فهذه الآية مجرد عرض أكثر تفصيلاً لحال الموت عند الكافرين ، حيث تكون عملية استيفاء الروح عملية قاسية خالية من الرقة بناءً على كونها مقدمة لعذاب أشد قسوة هو عذاب القبر، أو عذاب جهنم وهو عذاب مهين.

غير أن عبارة ﴿*أخرجوا أنفسكم*﴾ تعكس ضمن إفادتها للتردد في إخراج الروح إلى وجود أثر ما في إخراج الروح لإرادة البشر، وإلاّ كان إخراجاً مباشراً للروح فإذا كانت الروح وهي معنى مرادف للنفس ، لأن الآية قالت أخرجوا أنفسكم، أو هي الحاملة للنفس (سيكولوجي) وهي «ما وراء الجسد والنفس

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٥٠.

أي ما وراء البيولوجيا والسيكولوجيا عند الإنسان وكل حي»[1]. فإنها إذن الذات الحقيقية التي تقف وراء كافة أنواع الاستجابات وبالتالي فهي مخاطبة وتنفعل بالدعوة، وقد تسرع لإجابة الملائكة لأنّها سمعت البشائر أو تتردد فتنتزع انتزاعاً.

فهذه الآية تؤكد على وجود الروح التي تخرج من البدن وتأتي في سياق الآية التي تقول: ﴿ ***الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى*** ﴾[2].

ونلاحظ أن في كلا الآيتين استخدم لفظة نفس، وهذا يفتح أفقاً لأن تكون معناً مرادفاً لكلمة روح القرآنية التي وردت في ﴿ ***فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين*** ﴾[3].

وكذلك ﴿ ***ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه*** ﴾[4]. أو لا تكون كذلك ويكون المراد منها معناً آخر، لأنّه لم يستخدمها إلاّ مع آدم عليه السلام ومع المسيح عليه السلام عند إشارته إلى خلقهم عليهم السلام.

كما يحتمل أن إخراج الروح لا يعني أن يكون للإنسان دور ولإرادته تأثير وأن الآية تشير إلى عملية استيفاء الروح وكأنها إرادية لكنها ليست كذلك بل هي عملية قسرية ولا دور للإنسان فيها إلا الطاعة.

---

(١) الروح: ١٢.

(٢) سورة الزمر: ٤٢.

(٣) سورة الحجر: ٢٩، و سورة ص: ٧٢.

(٤) سورة السجدة: ٩.

الشكل الثاني للحفظ

الحفظ من الحوادث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفرعليه السلام في قوله: ﴿*له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله*﴾[1] يقول: بأمر الله في أن يقع في ركي، أو يقع عليه حائط، أو يصيبه شيء حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير. وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان يحفظانه بالنهار يتعاقبان.

بيان: الركي: جمع الركَيَة وهو البئر[2].

وهنا إشارة إلى حصول حادثة أو آفة أو وفاة خارج دائرة المقادير وهذه عملية السيطرة على اتجاه حركة حياة الأفراد وبالنتيجة هي سيطرة على حياة الأمم، فإذا كان عمر الإنسان محدداً والحوادث محددة أيضاً فإن حركة حياة الإنسان ستكون وفق أطر خاصة ومحددة، وهذا عبارة عن توجيه لحركة التأريخ وهي عملية ليست قدرية بالصورة، التي توحي للبعض بل هي عملية حساب معقدة وترتيب أفعال على أفعال ضمن إطار واسع مسموح به، وحين يخرج عن هذا المسموح فإن تدخل الملائكة يؤدي إلى منع أي حركة خارج هذا المسموح وهذا يختلف عن القسرية فهنا قد تواجه عشرة احتمالات لردود فعل معين مسموح بها وهناك احتمالات أخرى ممنوعة.

---

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٩.

وهنا طبعاً يمكن تعميم السيطرة بدءاً من الطبيعة، فمثلاً لو افترضنا أن درجات الحرارة عند الانفجار الكبير كانت مواتية لاتحاد عدد من العناصر بحيث يختفي الهيدروجين نهائياً في عمليات الاندماج النووي، كأن يتحول إلى هيليوم كله فهذا يعني انعدام وجود الأحياء الأرضية أو وجودها بكيفيات أخرى بالاعتماد على عناصر أخرى، وهذا طبعاً يترتب عليه وجود أحياء مختلفة عن الأحياء المعروفة، ولذلك فلا بد من السيطرة على التفاعلات وتوجيهها بالشكل الذي يعطي النتائج المقصودة إذ لو بقيت الكتل الملتهبة متقاربة لكان العالم عبارة عن وهج وحرارة لكن ابتعاد الكتل سبّب برودتها وجعلها صالحة لإنتاج المخلوقات ولهذا فإن الله أقسم بمواقع النجوم.

الشكل الثالث للحفظ

التعقيب

قوله تعالى: ﴿له معقّبات﴾ قال الطبرسي ﷺ اختلف في الضمير الذي في (له) على وجوه:

أحدها: أنّه يعود إلى «من» في قوله ﴿من أسرّ القول ومن جهر به﴾[1] والآخر: أنه يعود إلى اسم الله تعالى وهو عالم الغيب والشهادة.

وثالثها: أنه يعود إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿إنّما أنت منذر﴾[2] واختلف في المعقبات على أقوال: أحدها: أنها الملائكة يتعاقبون تعقب ملائكة الليل ملائكة النهار، وملائكة النهار ملائكة الليل، وهم الحفظة يحفظون على العبد عمله وقال الحسن: هم أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر، وهو معنى قوله: ﴿إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾[3] وقد روي ذلك أيضاً، عن أئمتنا ﷺ.

والثاني: أنّهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير فيحولون بينه وبين المقادير، عن علي ﷺ وقيل: هم عشرة أملاك على كل آدمي يحفظونه من بين يديه ومن خلفه «يحفظونه من أمر الله» أي يطوفون به كما يطوف الملك الموكل بالحفظ، وقيل: يحفظون ما تقدم من عمله وما تأخر إلى أن يموت فيكتبونه، وقيل: يحفظونه من وجوه المهالك والمعاطب ومن الجن

---

(١) سورة الرعد: ١٠.

(٢) سورة الرعد: ٧.

(٣) سورة الإسراء: ٧٨.

والإنس والهوام، وقال ابن عباس: يحفظونه مما لم يقدر نزوله فإذا جاء المقدر بطل الحفظ. وقيل: من أمر الله أي: بأمر الله وقيل: يحفظونه عن خلق الله، فتكون من بمعنى عن، قال كعب: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم ليخطفنكم الجن[1].

وقال الرازي في تفسيره: روي أنه قيل: يا رسول الله أخبرني من العبد كم معه من ملك؟ فقال صلى الله عليه وآله: ملك عن يمينك للحسنات هو أمين على الذي على الشمال. فإذا عملت حسنة كتب عشراً وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين. أكتب، قال: لا لعله يتوب فإذا قال ثلاثاً قال: نعم، أكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله واستحياءه منا: فهو قوله تعالى ﴿*له معقّبات من بين يديه ومن خلفه*﴾ وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لربك رفعك، وإن تجبرت قصمك. وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة، وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحيّة في فيك، وملك على عينيك، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي، ملائكة الليل وملائكة النهار فهم عشرون ملكاً على كل آدمي.

ثم قال: فإن قيل: ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا؟ قلنا: اعلم أن هذا الكلام غير مستبعد، وذلك لأن المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة. وكذا القول في كل ليلة، ولا شك أن تلك الكواكب لها أرواح عندهم، فتلك التدبيرات المختلفة في الحقيقة لتلك الأرواح. وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور في ألسنتهم ولذلك فإنّهم يقولون أخبرني طبائع التام لتلك الأرواح ومرادهم بالطبائع التام أن لكل إنسان روحاً فلكية تتولى إصلاح مهماته ورفع بليّاته وآفاته. وإذا كان هذا

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٥٠ - ١٥٢.

متفقاً عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام فكيف يستبعد مجيئه في الشرع؟ وتمام التحقيق فيه أن الأرواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها، فبعضها خيِّرة وبعضها شريرة وبعضها قويّة القهر والسلطان وبعضها سخيفة. وكما أن الأمر في الأرواح البشرية كذلك الأمر في الأرواح الفلكية، لكنه لا شك أن الأرواح الفلكية في كل باب وصفة أقوى من الأرواح البشرية، فكل طائفة من الأرواح تكون مشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة فإنها تكون في مرتبة روح من الأرواح الفلكية، ومشاكلة لها في الطبيعة والخاصية، وتكون تلك الأرواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروح الفلكي، ومتى كان الأمر كذلك فإن ذلك الروح الفلكي يكون معيناً لها على مهماتها، ومرشداً لها إلى مصالحها، وعاصماً لها من صنوف الآفات، فهذا كلام ذكره محققوا الفلاسفة وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن الذي وردت به الشريعة أمر معقول مقبول عند الكل، فكيف يمكن استنكاره من الشريعة؟.

فإن قيل: ما الفائدة في اختصاص هؤلاء الملائكة مع بني آدم وتسليطهم عليهم؟.

قلت: فيه وجوه:

الأول: أن الشياطين يدعون إلى الشرور والمعاصي. وهؤلاء الملائكة يدعون إلى الخيرات والطاعات.

الثاني: قال مجاهد: ما من عبد إلاّ ومعه ملك موكل يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته.

الثالث: إنا نرى أن الإنسان قد يقع في قلبه داع قوي من غير سبب ثم يظهر بالآخرة أن وقوع تلك الداعية في قلبه كان سبباً من أسباب مصلحته وخيراته. وقد ينكشف أيضاً بالآخرة أنّه كان سبباً لوقوعه في آفة ومعصية

ومفسدة فظهر أن الداعـي إلى الأمر الأول كـان مريـداً للخير والراحة. وإلى الأمر الثاني كان مريداً للفساد والمحنـة. والأول هـو الملك الـهادي. والثاني هـو الشيطان المغوي.

الرابع: أن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعـاصي أقـرب. لأن مـن آمـن يعتقـد جلالـة الملائكـة وعلـو مراتبـهم فـإذا حـاول الإقـدام على معصيـة واعتقـد أنّهم يشـاهدونها زجره الحياء منهم عـن الإقدام عليها كما يزجره إذا حضر من يعظمه من البشر وإذا علـم أن الملائكـة يكتبونها كان الردع أكمل.

فإن قيل: ما الفائدة في كتب أعمال العباد.

قلنا هاهنا مقامان:

المقام الأول: إن تفسير الكتبة بالمعنى المشهور مـن الكتـب قـال المتكلمـون: الفائدة في تلك الصحف وزنها. فإن رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائـق أنّـه من أهل الجنة، وبالضد، قال القاضي: هذا يبعـد لأن الأدلـة قـد دلـت علـى أنّ كل أحد قبل مماته عند المعاينة يعلم أنّه من السعداء أو من الأشقياء. فـلا يجـوز توقيف حصول تلك المعرفة على الميزان ثم أجاب وقال: لا يمتنع ما رويناه لأمر يرجـع إلـى حصـول سـروره عنـد الخلـق العظيـم أنّـه مـن أوليـاء الله فـي الجنـة وبالضد من ذلك في أعداء الله.

والمقـام الثـاني: وهـو قـول حكمـاء الإسـلام أن الكتبـة عبـارة عــن نقـوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريـف بعـض المعـاني المخصوصـة فلـو قدّرنـا تلك النقوش دالة على تلك المعاني لأعيانها وذواتـها كـانت تلـك الكتبـة أقـوى وأكمـل إذا ثبـت هـذا فنقـول: إن الإنسـان إذا أتـى بعمـل مـن الأعمـال مـرّات وكرات كثيرة متوالية حصلت في نفسه بسبب تكرارها ملكة قوية راسخة. فإن كانت تلك الملكة نافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجـه بـها بعـد المـوت،

وإن كانت تلك الملكة ضارة في الأحوال الروحانية عظم تضرّره بها بعد الموت، إذا ثبت هذا فنقول أن التكرير الكثير لما كان سبباً لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من تلك الأعمال المتكررة أثر في حصول تلك الملكة الراسخة، وذلك الأثر وإن كان غير محسوس إلا أنه حاصل في الحقيقة، وإذا عرفت هذا ظهر أنّه لا يحصل للإنسان لمحة ولا حركة ولا سكون إلا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة أو أثر من آثار الشقاوة قل أو كثر، فهذا هو المراد من كتبة الأعمال عند هؤلاء والله العالم بحقائق الأمور.

وإنما نقلنا كلامه لنطلع على تحريفات الفلاسفة وتأويلاتهم للآيات والأخبار من غير ضرورة سوى الاستبعادات الوهمية وعدم الاعتناء بكلام صاحب الشريعة[1].

وفي هذا المقطع من التفسير عرض من زاوية أخرى لمهمة الحفظ السابقة هي زاوية الاطلاع والخبرة وملاحقة ما يقوم به الإنسان من أعمال ولهذا سماها الذكر الحكيم بالمعقبات وفيها دلالة على استمرار الرقابة ومتابعة كل الأفعال التي يقوم بها الإنسان باستمرار إذا كان المقصود بالمعقبات هم الملائكة والراجح أنّه ليس هو المقصود لأن القرآن لا يخاطب الملائكة بصيغة التأنيث وهو يساوق الصافات والزاجرات ولكن الدور (الحفظ) نسبة القرآن للملائكة لكن ليس هناك ما ينفي الإشراك بين الملائكة وبين المعقبات على فرض كونهما نوعان.

ولعل المقصود من الحفظ إذا كان متعلق بالأخطار مختص بما لا يستطيع الإنسان تجنبها أما الأخطار التي بإمكان الإنسان تجنبها فإن الشريعة أمرته بتجنبها والابتعاد عنها ولعل النسبة إلى (أمر الله) أشار إلى العوامل الكونية التي تشكل خطراً على الإنسان من قبيل تصادم الكواكب وقد لا يكون الخطر

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٥٢ ـ ١٥٥.

خطراً جسمياً لأننا قد نفترض أنّ الإنسان مكون من جزء غير جسماني وهذا طبعاً يحتاج إلى وقاية وبما أن الإنسان لا يعلم أي شيء عن هذا الجزء فإنه عاجز عن وقايته.

أما على الفرض الذي يقول به أهل النجوم فإنه مرفوض في الإسلام بناءً على أن الإنسان مسؤول عن نفسه وعن أعماله ومكلف بالمحافظة على نفسه من الأخطار والابتعاد عن القذارات والنجاسات النفسية والبدنية بينما تطرح فكرة الأرواح قضايا أقرب إلى القدرية وهي مرفوضة.

ولا بد لنا أن نجمع هذه الفكرة بما تثبته الآية التي تقول إن نزول الملائكة إلى الأرض ليست عملية كمالية أو ترفيه أو بلا أسباب كافية ﴿ *ما ننزّل الملائكة إلّا بالحقّ* ﴾[1] ﴿ *وما نتنزّل إلّا بأمر ربّك* ﴾[2] والنزول أعم من أن يكون لمجرد تبليغ الرسالة بل أن نفس التعقيب والحفظ نزول ولكنه لمدة أطول مع العلم أن عمر الإنسان بالنسبة للأزمان سيكون قصيراً جداً.

أما كتابة الأعمال فإنّه يقع ضمن المفاهيم العامة وهي أن الحسبان والدقة في الكون قضية أساسية ﴿ *وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها* ﴾[3] وقد اتفق هذا المبدأ مع التجربة فإن كوناً بهذه الضخامة لا يمكن أن يترك للاعتباط، وجزء من الاعتباط ترك الإحصاء والتوثيق وكتابة الأعمال خصوصاً أن أعمال البشر ليست كما يلوح بالظاهر محدودة الأثر بل إنّها ذات آثار ضخمة وإن نتائجها تمتد بامتداد البشر وإذا وضعنا الجزء الخفي في الإنسان في الحسبان فإننا يمكن أن نفترض أن آثاراً أضخم وهذا يقتضي المراقبة والإشراف المباشر أما قضية توكيل الأمر إلى الملائكة مع أن الله هو القاهر فهو سبب مجهول يتعلّق

---

(١) سورة الحجر: ٨.

(٢) سورة مريم: ٦٤.

(٣) سورة الأنعام: ٥٩.

بحكمة ما قد يكشفها الزمن لكن الثابت أن الله لا يفعل شيء إلا بسبب موجب وهذا هو الأساس الذي يسمح لنا بفهم التوكيل من قبل الله للملائكة.

وبالنسبة لهذه الآية ينقسم التفسير إلى مقاطع حيث نقل لنا المصنف بعض الروايات التي توضّح المعاني التي وردت في الآية، وما هو المقصود بالمعقبات من وجهة نظر التفسير، كما نقل لنا آراء أخرى في المقطع الثاني حول أقوال الفلاسفة وأهل النجوم، وهو يريد القول بأن التشابه فيما ورد عن طريق القرآن مصدق بهذه الأقوال والأرواح المدبّرة هي شبيه بما يقال عن الملائكة وهذا فيه عنصر تصديق لما ورد في الشرع، على أنّه يصعب القول بأن الملائكة بالصورة التي وردت في القرآن تتطابق مع الصورة التي عليها الأرواح المدبرة عند القائلين بها، والأحوال الناشئة عن حركة الكواكب،، وبالتالي فإن التشابه لا أهمية له خصوصاً أن بعض الأئمة عليهم السلام رفضوا التنجيم وخصوصاً ما ورد عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة.

وفي النتيجة يريد المصنف الإشارة إلى التفسيرات العقلية والنقلية وهو على غير عادته بالنسبة للنصوص الأخرى التي سبقت.

قال تعالى: ﴿ ***له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم مّن دونه من والٍ * ويسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصّواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال*** ﴾[1].

في هذه الآيات دلالة تتعلّق بما قبلها وهي أن المعقبات سواء كانوا هم الملائكة أو غيرهم فإنّها تتعقب الإنسان في الليل والنهار وسواء الظاهر أو المستخفي فتطلع على ما يغيب عن الناس لأنّها جاءت بعد قوله من أسَر القول

---

(١) سورة الرعد: ١١ ـ ١٣.

أو من جهر به أو من هو مستخف بالليل أو سارب في النهار هؤلاء يعقبونه ويطلعون على سره وخفائه ويحفظونه من أمر الله باعتبار أن كل ما يقع في هذا الكون هو من أمر الله، وفيه أيضاً أن الله لا يتدخل في تغيير حياة الناس مباشرة بل هم يغيرون ما بأنفسهم أفراداً وجماعات.

وهذا يدل على أن الملائكة تقوم بوظيفة التعقب للإطلاع والعلم بكافة تصرفات البشر فضلاً عن وظيفة الحفظ.

قوله تعالى: ﴿*له معقّبات...*﴾ ظاهر السياق أن الضمائر الأربعة في (له) (يديه) (خلفه) (يحفظونه) مرجعها واحد ولا مرجع يصلح لها جميعاً إلا ما في الآية السابقة. أعني الموصول في قوله ﴿*من أسر القول*﴾ الخ، فهذا الإنسان الذي يعلم به الله سبحانه في جميع أحواله هو الذي له معقبات من بين يديه ومن خلفه وتعقيب الشيء إنّما يكون بالمجيء بعده والإتيان من عقبه فتوصيف المعقبات بقوله ﴿*من بين يديه ومن خلفه*﴾ إنّما يتصور إذا كان سائراً في طريق ثم طاف عليه المعقبات حوله وقد أخبر سبحانه عن كون الإنسان سائراً[1].

أما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿*له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله*﴾ أنها قرئت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال لقارئها: ألستم عرباً؟ كيف تكون المعقبات من بين يديه وإنما المعقب من خلفه؟ فقال الرجل: جعلت فداك كيف هذا؟ فقال: إنّما نزلت ﴿*له معقّبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله*﴾ ومن الذي يقدر أن يحفظ الشيء من أمر الله؟! وهم الملائكة الموكلون بالناس.

بيان: قال الطبرسي رحمه الله: في الشواذ قراءة أبي البرهشم ﴿*له معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه يحفظونه بأمر الله*﴾ وروي عن أبي عبد الله عليه السلام[2].

---

(١) تفسير الميزان: ١١ / ٣٠٨.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٩ - ١٨٠.

وهنا يراد إفادة التفريق بين الكتبة الذين يحصون أفعال الإنسان ويكتبونها عليه وله وبين الحفظة الذين يحفظونه ولا يختلف الأمر لأنه يعني الإحاطة بالإنسان وتدوين أفعاله الصالحة والطالحة بأمر الله، أو من الله فيأمرهم الله أن يحفظوه من أمر الله لأنّه لا شيء في هذا الوجود هو بغير أمر الله، فالحوادث التي تحدث جميعاً من أمر الله ولكن بعضها لا يريد الله لها أن تصيب بعض الناس بينما يأذن بأن تصيب بعضاً آخراً كالمرض الذي يصيب عدد من سكان قرية ولا يصيب بعضاً آخراً أو حادثة تقتل بعض ركاب السيارة ولا تقتل بعضاً أو تجرح بعضاً وتقتل بعضاً، فكل ذلك بأمر الله ونجاة البعض بأمر الله من أمر الله وإن أداة إنفاذ أمر الله هم الملائكة وهنا الإخلاء بينه وبين أمر الله هو قوانين الطبيعة فإن السيف إذا ترك ولم يمنع عن فعله مانع فإنّه يفطر الرأس ويقطع الذراع، وكذلك بالنسبة لقانون الزخم وهو القانون القاضي بتهشيم الهياكل المتصادمة بقوة تعادل وزن الجسم المتحرك مضروب بسرعته وهذا يعني أن الحجارة التي يبلغ وزنها (١) كيلو وتتحرك بسرعة (٦٠) كيلو متر/ ساعة)، فإن قوة زخمها تصبح ٦٠ كيلو وهي قادرة على تهشم الجسم الذي تصطدم به، وهكذا فإنها لو تركت لحالها فإنّها قتالة لكن من لا يريد الله إصابته يأمر الملائكة بالحيلولة دون فعل وآثار قانون الزخم وهكذا.

عن هشام بن الحكم، قال: سأل زنديق (فيما سأل) أبا عبد الله عليه السلام فقال: ما علة الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم ولهم والله عالم السر وما هو أخفى؟ قال: استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة، أو عن معصيته أشد انقباضاً، وكم من عبد يهم بمعصية فذكر مكانها فارعوى وكف. فيقول: ربي يراني وحفظتي علي بذلك تشهد. وإن الله برأفته ولطفه أيضاً وكلهم بعباده يذبّون

عنهم مردة الشياطين وهوام الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله، إلى أن يجيء أمر الله عز وجل[١].

بيان: «وكلهم بعباده» أي: جنس الملائكة أو هذا النوع يعني الكتبة والأول أوفق بسائر الأخبار الدالة على المغايرة.. وإن كان الثاني أنسب بسياق هذا الخبر[٢].

وهذا الحديث أيضاً مر أكثر من مرة وقد سبقت الإشارة إلى ما فيه من دلالات من حيث أن وجود الملائكة وجود يوصل الإنسان إلى حالة من التعادل والتوازن، سواء العلم بوجودهم أو محض الوجود وحتى بدون العلم لأنَّ دورهم الإيحائي مؤثر في هذه الناحية، وبدونه يختل التوازن لصالح انحراف الإنسان وهذا لا يتّسق مع عدالة الله إلى جانب الحفظ من الحوادث والآفات.

استعبدهم بذلك أي: جعل ذلك لهم وسيلة لعبوديته والعبودية هي الطاعة وهذا يدل على أن الله جعل ذلك واجباً عليهم أوكله لهم فيكونون شهوداً وهو رادع عن المعاصي وحافز على الخير، وهناك جانب آخر هو دفع حوافز الشيطان الذي يثبط عن الخير ويسرع بالشر إلى جانب دفع الهوام والآفات وهي كثيرة وهذا هو مصداق الآية: ﴿*قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا*﴾[٣] فالملائكة لا تسمح بوقوع حادثة إلاّ تلك التي أذن الله بوقوعها أمّا ما عداها فإن الله أمر الملائكة بدفعه.

وهنا لا يشير الحديث إلى أن الكتبة هم الحفظة، أم أن الكلام يعم جميع الملائكة بلا تميز بين الحفظة أو الكتبة، إلاّ أنه يؤكد حقيقة اعتماد حياة الإنسان

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦/ ١٩٦.

(٣) سورة التوبة: ٥١.

في كل مجالاتها عليهم وهذا يجرنا إلى التساؤل عن القوانين الفسلجية أو الفيزيائية هل هي جزء من فعاليات الملائكة أم أنها مشرفة فقط على استمراريتها وعدم تصادمها، الراجح هو الإشراف ومنع طغيان بعضها على بعض أو حصول تطورات خارج البرامج وبهذا يكون دور الملائكة هو دور الروح المقابل للمادة، فهناك المادة غير العاقلة التي تتحرك بصورة عمياء من خلال القوانين التي تحكمها فتكون الملائكة هي عقل المادة الذي يدفعها في مسارات خاصة من الحركة دون المسارات الأخرى لوجود عدة من المسارب كما في منعها لمرت بعض الأبطال التاريخيين قبل لعب أدوارهم. وهذا هو توجيه للتأريخ.

عن سعد بن معاذ قال: قال النبي ﷺ: نقوا أفواهكم بالخلال، فإنها مسكن الملكين الحافظين الكاتبين وإن مدادهما الريق وقلمهما اللسان وليس شيء أشد عليهما من فضل الطعام في الفم.

وهذا الحديث أشار إلى أن الحافظين والكاتبين هما نفس الملكين وأنهما يتأثران بفضل الطعام.

سعد السعود: قال: بعد أن ذكر الملكين الموكلين بالعبد. وفي رواية: أنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساءً ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك. فإذا صعدا صباحاً ومساءً بديوان العبد قابله إسرافيل بالنسخ التي انتسخ لهما حتى يظهر أنّه كان كما نسخ منه[1].

وهذا الحديث يشير إلى وجود عدة نسخ من أعمال العبد إحداها هي الأصل التي تبقى في يد إسرافيل الذي يلّوح أنّه هو المسؤول عن كتب أعمال العباد وهو يقابل الأرشيف في المعنى المعاصر، وأن الملائكة حين تنزل ينزل بنسخ لتكتب عليها أعمال اليوم، وحين تعود تقابل ما في أيديها بالأصل.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٢.

فإن الأصل يكون فيه كل المعلومات وهكذا فإن الحديث يؤكد على وجود أكثر من مصدر للمعلومات أحدها هو المصدر العام الذي يصل إلى الأرشيف والثاني هو ما يكتبه الملك.

وهذا فيه إشارة إلى دقة نظام تدوين الأعمال إذ أنّه مكون من عدة نسخ كما أنّه يراجع باستمرار أي مرتين في اليوم عندما يذهب الملكان وعندما يعودان وبذلك تضمن دقة المعلومات.

سأل الصادق عليه السلام أبا حنيفة: أين مقعد الكاتبين؟ قال: لا أدري. قال: مقعدهما على الناجذين، والفم الدواة، واللسان القلم والريق المداد.

بيان: يحتمل أن يكون المراد فم الملك ولسانه وريقه. ولو كان المراد تلك الأعضاء من الإنسان فيمكن أن يكون بمحض تكلمه ينقش في ألواحهم. فيكون مخصوصاً بالكلام[1].

طريقة تدوين الأعمال هنا مختلفة عن المألوف في حياة الإنسان بدءاً من عدم وجود حاجة إلى استخدام الصحف والأقلام والحبر وصولاً إلى استخدام الفم واللسان والريق كأدوات للتحرير وهي جميعاً محصورة في الفم. ومن غير المعلوم إن كانت أعضاءاً للإنسان الذي يصار إلى تدوين أعماله أم الملك القائم بعملية التدوين فإن كانت أعضاءاً للإنسان فإن حركة لسانه وفمه وريقه هي التي تكون وسائط الملك لتدوين الأعمال فتكون معبرة في نفس الوقت عن عملية استمرارية التدوين بنفس بساطة حركة اللسان والريق عند الإنسان، ويمكن أن نفهم حينئذ وجود نظام يرتبط بفم الإنسان ويمكنه تسجيل كل أفعال الإنسان بطريقة خاصة يمتلكها الملك دون سواه، كأن تكون معتمدة على نمط خاص من الذبذبات التي تلتقطها أجهزة تنصّت

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٦، عن المناقب.

حساسة جداً فتدونها، أو أي شيء آخر من هذا القبيل كالموجات الحرارية أو الكهربية التي في جسم الإنسان عموماً أو في فمه خاصة.

وأن وجود الملكين فوق الناجذين يكون لأجل تحقيق هذا الغرض. ولوجود شيء يتعلق بهما فكأنهما متكيفان بصورة لا تتناقض مع أجسامهم الكبيرة التي ورد ذكرها في الأحاديث السابقة، وربما كان الكتبة طبقة خاصة يمكن أن تحل في الإنسان رغم عظمة جرميهما كما أنه قد لا يختص بالكلام فقط لإمكان وجود ارتباط بين أفعال الإنسان برمتها والفم بحيث يمكن أن يستدل عليها به، وهذا قد يثبته العلم فيما بعد، لأن الكتابة لا تختص بالكلام.

أما إذا كان الفم واللسان عائدان للملك فيمكن تصور أجهزة تسجيل أتوماتيكية تتحرك وتعمل تبعاً لذبذبات أصوات الملائكة كما هو قائم في الأجهزة التي تستلم إشارة بواسطة أجهزة تحكم، فبمجرد أن يتحرك لسان الملك فإن الجهاز يسجل ويفترض أنّه يقوم بتدوين الصحائف فوراً ، وهي يمكن أن تكون مثل ملفات الكومبيوتر التي تدون الصور والأصوات وربما أكثر من ذلك ولكن عملها يرتبط بلسان الملك أو أنها أصلاً جزء من وجوده فيكون جزء صغير حساس موجود فوق الناجذان وجزء آخر يدوّن موجود في السماء.

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ليس أحد من الناس، إلاّ ومعه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء، فإذا حان أجله خلّوا بينه وبين ما يصيبه[1].

قد مر بحث هذا الموضوع مع فارق ذكر الأجل الذي ورد هنا ولم يرد هناك، ولعل المقصود به الحادث الذي يقود إلى الأجل فيموت به الإنسان. أما

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٤، عن التوحيد.

هناك فقد ذكر القدر، أي ما قدر له من ابتلاءات تصيبه دون أن يموت وكل ذلك يتناسب مع ما يريد الحديث تأكيده، وهذا يعني أن التكرار فيه تفصيل جديد.

وعن سعيد بن جبير في قوله: «فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً» قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبرائيل ليعلم (محمد) صلى الله عليه وآله أن قد أبلغوا رسالات ربهم قال: وما جاء جبرائيل بالقرآن إلاّ ومعه أربعة من الملائكة حفظة.

وعن الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿ ***إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً*** ﴾ [1] قال: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا بعث إليه الملك بعث ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان على صورة الملك.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ ***إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً*** ﴾ قال: هي معقّبات من الملائكة يحفظون النبي صلى الله عليه وآله من الشياطين حتى يتبين الذي أرسل إليهم[2].

وهذا يعني أن الوحي معرّض للسرقة من قبل الشياطين ولو كاحتمال ضعيف، ولكن الله سبحانه تعالى حتى هذا الاحتمال الضعيف يلغيه من خلال خلق هذا الجهاز الذي يؤمن الحماية للوحي في لحظة الإيحاء من قبل الله تعالى وحتى وصوله إلى الناس بواسطة الرسول لأن الحماية هي للرسول، والرسول هو من الملائكة مرة وأخرى من البشر وبالتالي ينطبق عليه مضمون الآيات السابقة، وأن الله سبحانه وتعالى يحافظ عليه حتى لحظة البلاغ وعلم الناس بما أرسله الله.

---

(١) سورة الجن: ٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠١، عن الدر المنثور.

وهذه الأحاديث الثلاثة هي تحمل نفس المضمون لكن في الحديث الأخير اختلاف، حيث ينظر إلى علاقة بين الرسل البشر والملائكة والأحاديث السابقة نظرت إلى الرسل الملائكة فقط وأشارت إلى إمكان تشبه الشياطين بصورة الملك عندما تحاول أن تدسّ في الوحي ما ليس فيه وهذا يدلنا على أن هذا كإمكانية، موجود ومحتمل ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى عمل على عدم وقوعه.

وعن ابن عباس، قال: ما أنزل الله على نبيّه آية من القرآن إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة يحفظونها حتى يؤدونها إلى النبيﷺ ثم قرأ: ﴿ ***عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً*** ﴾[1] يعني الملائكة الأربعة ﴿ ***ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم*** ﴾[2].

في الحديث تفسيراً لهذه الآية الواردة ضمنه ويدل أيضاً على أن الله سبحانه وتعالى يفرض رقابة مشدّدة على المعلومات ولا يسمح بتسربّها بطريقة عشوائية وأن الإطلاع عليها يتم وفق نظام غاية في الدقة، فحتى الآيات التي يقصد الله سبحانه وتعالى إيصالها إلى عباده، فإنه يوصلها من خلال ذلك كما يفيد الحديث أن كل آية تصل إلى الرسولﷺ بواسطة الملك المكلف بحملها فإن أربعة ملائكة يرافقونه حتى تصل إلى الرسولﷺ.

وهذا النظام موضوع لحماية المعلومات من الوقوع بيد غير أصحابها منعاً لإطلاع الشياطين عليها والإفادة منها بصورة غير لا يريدها الله.

ويمكن أن نفهم من الآية والحديث أن الغيب عالم عظيم لا متناهٍ وفيه من الأسرار ما يتيح التصرف بالوجود كما تشير الآيات ﴿ ***وقال الذي عنده علم من الكتاب*** ﴾ ولهذا فإن الإطلاع على الغيب يتم بحدود محددة ومدروسة وأن كل

---

(١) سورة الجن: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠١، عن الدر المنثور.

مخلوق يحصل على المعلومات بالقدر الذي يتناسب مع إمكانياته وحجمه، فالملائكة لهم من المعلومات ما ليس للجن وللبشر، وكذلك فإن بعض الملائكة أكبر إطلاعاً على الغيب من البعض الآخر تماماً كالبشر الذين تتفاوت درجة إطلاعهم على الغيب. ونفس الشيء بالنسبة للجن.

ولكل ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يسمح إلاّ بقدر معين من العلم وأن ما يعلمه عباده المقدار الذي سمح به. أما الغيب الكثير فإنه مجهول ولهذا يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ *وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً* ﴾[١].

عن ابن عباس، قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل وحافظين في النهار، يحفظان عمله ويكتبان أثره.

وهذا الحفظ يعني الكتابة وبذلك اشتراك في المعنى ولا يشير إلى الحفظ من الحوادث كما أنّه يشير إلى تعاقب الملائكة في أداء هذا الفعل وقد مرّ الحديث عنه.

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((إن الله ينهاكم عن التعرّي، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلاّ عند إحدى ثلاث حاجات: الغائط، والجنابة، والغسل))[٢].

وهنا يذكر لنا صفة أخرى من صفات الملائكة وهي أنّها تفارق الإنسان في بعض المواضع وهي: تعرّي الإنسان فإنّ صح ذلك فإن التعري يدفع الملائكة لمفارقة الإنسان، ولعل ابتعادها لا يعني أنها تعطل عملها في كتابة أفعال الإنسان وآثاره ولكن قد تقوم به بطريقة أخرى عن بعد.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٠٠، عن الدر المنثور.

ولذا قد يكون للتعري آثار غيبية غير الآثار التي تحصل بالفعل وفي عالم الشهود، ولهذا فإن الأمر جاء بالستر إلاّ عن المواضع التي أجاز الشرع كشفها في الرجل والمرأة.

وهذا يعني أن الآثار المادية في عالم الشهود والآثار المعنوية في عالم الغيب تتظافر في تقرير الحالة النهائية لوضع معين بالنسبة للإنسان، وعليه من الضروري أن يثار سؤال حول الآثار غير المحسوسة لبعض الأفعال التي يقوم بها البشر، خصوصاً أننا نعلم بدءاً أن الأعمال المنهي عنها في عالم الشهود هي انعكاس لمضار ومفاسد في عالم الغيب، وأن الجزء الأكثر أهمية هو ما يحدث هناك. وبما أن الملائكة تنتمي إلى ذلك العالم وأنّها معصومة فإنها أكثر تحسساً للأشياء التي لا تلائم الواقع هناك، ولذلك تنفر من تلك الأشياء حتى لو كانت معايشتها لعالم المادة وعالم الإنسان طويلة، وإن ذلك لا يعني تطبعها وتقبلها لما يقع فيه من الأشياء المرفوضة في عالم الغيب.

الشهادة الفعليّة والقوليّة

دليل على القيمومة

قوله تعالى: ﴿ *شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم* ﴾[1].

الرؤية والشهادة

تشترك الملائكة والعلماء من البشر في الشهادة والتي هي نتاج للعلم والاطلاع اليقيني، وهو أفق مشترك بين الملائكة وبني البشر الذين حصلوا على العلم لأنّه يجعلهم قادرين على معرفة الحقائق والاطلاع عليها. وبالتالي فإن الآراء المضادة للشهادة فاقدة للاعتبار لأنّها تقابل هذه العناصر التي تحدثت عنها الآية وهي لا يمكن أن تنجح في دحض رؤية يشهد بها الله والملائكة والعلماء من البشر.

وهذا دليل على أن العقل البشري قادر على الوصول إلى أفق مساوٍ للأفق الذي تصله الملائكة بما تمتلكه من إمكانيات وقرب محصلته معرفة حقيقة الوجود المستندة إلى أن الله هو الإله الواحد الذي لا يشارك في الألوهية هذه المعرفة تصل إلى درجة من الوثوق يمنح القدرة على الشهادة إذ لا يمكن لأحد أن يشهد بما يظن أو يتوهم أو ما لا يمكن له القطع والجزم به.

ومن هنا فإن الفضاء الذي يتحرك به الإنسان رغم كونه محدود وصغير نسبة إلى هذا العالم الواسع لكنه قادر على خلق الوثوق والجزم.

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

هذه الشهادة الصادرة عن الملائكة عن طريق اللمس والمباشرة، فإنّها تصدر أيضاً عن طريق الإنسان بواسطة استخدام قدرته الذهنية التي توصله إلى درجة قريبة من هذا الأفق، وعن ذلك يقول صاحب الميزان: ((أصل الشهادة هو المعاينة أعني تحمل العلم عن حضور وحس ثم استعمل في أدائها وإظهار الشاهد ما تحمله من العلم، ثم صار كالمشترك بين التحمّل والتأدية بعناية وحدة الغرض، فإنّ التحمل يكون غالباً لحفظ الحق والواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهادة تحفظاً على الحق والواقع، فبهذه العناية كان التحمل والتأدية كلاهما شهادة أي حفظاً وإقامة للحق، والقسط هو العدل، فالحقيقة الأصلية هنا هي قيمومة الله سبحانه وتعالى وهي قيمومة يتوصل إليها من خلال ما تؤديه الملائكة والبشر أهل العلم من شهادة مباشرة ـ والثاني هو وجودهم وحركتهم الذي هو انعكاس لهذه القيمومة فالملاك بسلوكه ووجوده العام يؤكد أن الله قيوم وأنّه قائم بالقسط وكذلك العلماء من البشر الذين نضج وجودهم وفكرهم وسلوكهم وصاروا في النهاية انعكاس آخر لتلك القيمومة. فإذاً: لا يستطيع امرئ ما أن يدرك هذه الحقائق ما لم يبلغ عمقاً في تلك القيمومة.

فالشاهد الأول (وهو الله عز اسمه): ((شهد على أنه لا إله إلا هو وإذا ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغني منه شيئاً في مال أو ولد))[1].

((والملائكة يشهدون بأنّه لا إله إلاّ هو. فإن الله يخبر في آيات مكية نازلة قبل هذه الآيات بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ربهم ويعملون بأمره ويسبحونه وفي تسبيحهم شهادة أن لا إله غيره))[2].

---

(١) تفسير الميزان: ٣ / ١١٣.

(٢) تفسير الميزان: ٣ / ١١٥.

«وقد ظهر مما تقدم أولاً: أن المراد بالشهادة شهادة القول على ما هو ظاهر الآية الشريفة دون شهادة الفعل، وإن كانت صحيحة حق في نفسها فإن عالم الوجود يشهد على وحدانيته في الألوهية بالنظام الواحد المتصل الجاري فيه، وبكل جزء من أجزائه التي هي أعيان الموجودات.

وثانياً: أن قوله تعالى: ﴿*قائماً بالقسط*﴾ حال من فاعل قوله: شهد الله، والعامل فيه شهد. وبعبارة أخرى قيامه بالقسط ليس بمشهود له لا له تعالى ولا للملائكة وأولي العلم بل الله سبحانه حال كونه قائماً بالقسط يشهد أن لا إله إلا هو يشهدون بالوحدانية كما هو ظاهر الآية حيث فرقت بين قوله: ﴿*لا إله إلا هو*﴾، وقوله: قائماً بالقسط بتوسيط قوله: ﴿*والملائكة وأولوا العلم*﴾[1]».

والإطلاق في أولي العلم ينفع في استيعاب غير البشر، فهذه الشهادة تفيد أن الناس أو الجن يدركون هذه الوحدانية كما أنّ الإطلاق في العلم يفيد بأنّه علم الدين أو العلم بالطبيعة لأن كلاهما يؤديان إلى إدراك الحقيقة ولعل استثناء الله لنفسه سبحانه وكذلك الملائكة بسبب إدراكهم المباشر لعلم الدين ولعلم الطبيعة، أما المخلوقات الأخرى كالجن والإنس فإنها تكتسب هذا العلم اكتساباً ولذلك صار وصفاً له، كما أن نفس العلم ليس ضرورة لله لأداء الشهادة لأن الله ذات خاصة وهي العلم الكلي بذاته، وكذلك لأن الملائكة الطاعة عندها ذات أسبقية على العلم لذلك اقتصر على الإنس والجن الذي تعتمد عليه الشهادة بالكلية.

وفي النتيجة يريد الله أن يمنح هذه الرؤية متانة الاستدلال لأنها قائمة في شهادة الله الذي لا تخفى عليه خافية والملائكة التي هي وجهة أخرى، وجهة الانكشاف، وفئات ثلاث تمكنت من ذلك بما تملكه من مواهب خاصة.

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ١١٥.

عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿ *يحفظونه من أمر الله* ﴾ ثم قال: ما من عبد إلاّ ومعه ملكان يحفظانه، فإذا جاء الأمر من عند الله خلّيا بينه وبين أمر الله[1].

الحفظ موقوف على صدور الأمر من الله تعالى، وصدوره لا يعني القدرية فإن الأمر يصدر في حينه. وبناءً على ترتب صدور الأوامر من الله تبعاً لتصرفات وأفعال الفرد، فكل فعل يختاره الإنسان يترتب عليه فعل من عند الله سبحانه، فإذا كان الإنسان يختار أفعالاً خيِّرة ترفع عنه بعض التبعات وإذا اختار أفعالاً سيئة تنزل عليه النقمات، فالحفظ ليس مطلقاً بل هو في الدائرة التي ليس فيها أمر محتوم وهذا يعني أن أمر الحفظ قد يلغى بأمر مغاير أو يستمر أو يعدل من جهة دون جهة أخرى.

وهكذا يمكن أن نتصور حالة من الصيرورة المتواصلة مبدوءة بالحفظ المتحرك تبعاً لعوامله الخاصة، فمثلاً إذا وصل الإنسان الرحم مد الله في عمره، فإن عق الوالدين محق رزقه، وهذا يعني تقلص الحفظ في دائرة العمر ورفعت الحماية عن الرزق، وهكذا باقي شؤون الإنسان مع مراعاة الإمهال والنظرة فقد يعود الإنسان عن الذنب ويستدرك بالغفران فيرفع عنه البلاء الذي أوشك أن ينزل وكذلك الدعاء أو دفع الصدقة.

ومن هنا فإن حالة الإنسان تتقرر في كل لحظة تبعاً لعوامل معينة منها فعل الخير وقبول الله لعمله، أو بالعكس فعله للسوء وصدور الأوامر الحتمية بامتحانه حتى يأتي الأجل الذي ينتهي فيه عمره وتأتيه الملائكة لتقبض روحه.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا صعد ملكا العبد المريض إلى السماء عند كل مساء يقول الرب تبارك وتعالى: ماذا كتبتما لعبدي في مرضه؟

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٦.

فيقولان: الشكاية، فيقول: ((ما أنصفت عبدي إن حبسته في حبس من حبسي ثم أمنعه الشكاية. اكتبا لعبدي مثل ما كنتما تكتبان له من الخير في صحته، ولا تكتبا عليه سيئة حتى أطلقه من حبسي فإنه في حبس من حبسي))[1].

وهنا مزيد من التوضيح حول عمل الكتبة فهم يكتبون كل شيء حتى الشكاية، ولا يختص عملهم بكتابة السيئات أو الحسنات، كما أن عملهم دائم ويستغرق جميع أوضاع الإنسان وحالاته بما فيها حال المرض التي يعجز فيها عن فعل الخير أو الشر، لذا يرأف الله بعبده فيكتب له في حال العجز حسنات مثل حال النشاط والقوة.

ولسنا ندري إن كان ذلك خاص بالمؤمنين أم أنّه عام لجميع العباد، وهل هو شامل لجميع أنواع السيئات أم لا؟ فمثلاً لو كان الإنسان مريضاً ببدنه لكنه قادر على ارتكاب ذنوب كالغيبة فهل أن حال المرض يعفيه من هذه الذنوب أم أن هذه الذنوب تكتب؟.

دلالة الحديث على أن الله سبحانه وتعالى حين يأذن بإصابة العبد بمرض فإنّه يأذن بأن يكتب له حسنات وكأنه في حال الصحة. أي أنه يتدّخل في كتابة الأعمال فيمحو بعضها أو ينسها وهذا بحاجة إلى بحث التدخل الإلهي في توجيه أفعال الملائكة، فهل هو تدخل في حالات وأوضاع خاصة ؟ أم يتعلّق بالعلاقة بين الإشراف المباشر لله على خلقه والإشراف من خلال الملائكة ؟ أو الطبائع والعلاقات من قبيل علاقات التنافر والتجاذب وعلاقات التعادل ومجموع الطبائع غير المرتبطة بالعقل؟ ثم وما هو الفرق بين نمط هذه العلاقات والأسباب الموجبة لها؟

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٧.

عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعته يقول: إن في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبر وضعاه»[1].

فهنا إلفات نظر إلى وجود ملكين مختلفين في طبيعة المهمة الأول يرفع والثاني يضع، وهذان غير الكتبة والحفظة ومنكر ونكير ومبشر وبشير، وهذا يدفعنا إلى استنتاج وجود جماعة من الملائكة تمارس مهام على شكل أزواج مثل الرفع والوضع أو البشارة والتخويف... إلخ بالنسبة للبشر.

الحديث لايبين طريقة الوضع أو الرفع لكن بالإمكان فهمها من خلال الإيحاء بحبهم أو كرههم وهذا بدوره يترتب عليه الكثير من المصالح، فإذا كان الإنسان محبوباً فإن الناس قد يوكلون إليه أداء بعض الأعمال ويحصل على مكانة اجتماعية ويرتفع في قومه على العكس من الإنسان المتكبر فإنّهم يوحون إلى الناس ببغضه، وهذا طبعاً يولّد له الكثير من المصاعب والمشاكل ولعل ذلك بتسليط من هم فوق المتكبرين بالأذى والإذلال والكره والنفور ممن هم دونهم وبالتالي يحيون حياة الضعة حتى لو كان ظاهرها الغنى والرفاه.

وهذا الأثر المضاعف للأخلاق السيئة والحسنة سوى الآثار الفعلية فالتكبر عادة يولد النفور في نفوس الناس من المتكبر، وحتى لو كان متسلطاً فإن الناس تبغضه لكنها لا تستطيع إبراز هذا البغض وبالتالي فإن دور الملائكة هو دور تضخيم الأثر.

ويترتب على هذا اكتشاف الإنسان آثار أفعاله وخصوصاً تلك الآثار التي لا تظهر بصورة مباشرة وتحتاج إلى تأمل، فإن الملائكة تؤدي دوراً مهماً من خلاله إيقاظ وعي الإنسان لمضاعفة الخير والأعمال الحسنة وترك الأعمال السيئة.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩١.

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: العلّة في الصيحة من السماء كيف يعلمها أهل الدنيا، والصيحة هي بلسان واحد ولغات الناس تختلف؟ فقال: إن في كل بلد ملائكة موكلون، فينادي في كل بلد ملك بلسانهم، وكذلك لإبليس شياطين موكلون بكل بلدة ينادون فيهم بلسانهم ولغاتهم[١].

الملائكة منتشرون في كل بلد وينادون أهله بلغاتهم عندما يأتي زمن الصيحة، ومعناه أن الملائكة يستطيعون التكلم بكل لغات العالم وهذا تأكيد لدورهم وإشرافهم على المفاصل المهمة في التأريخ الإنساني ومنها المفصل الذي يبدأ بالصيحة، ذلك العصر الجديد الذي تخرج فيه الملائكة عن وضعها المألوف حيث ولو من خلال استخدام الصوت بصورة تلتقطها إذ أن البشر وتدركه أسماعهم.

وفي المقابل ينشط الشياطين بغية الامتداد في هذا العصر الجديد الذي يمكن أن لا يكون لهم دور فيه، وهذا العصر أيضاً كسواه من العصور عبارة عن امتداد لصراع الإرادات بين الإنسان والشيطان فكل منهم يبذل جهده من أجل الوصول إلى الأهداف، وأن الملائكة تقوم بدور مساعد للإنسان للوصول إلى الغايات والأوضاع الموائمة له.

وفي تعقيبات نوافل شهر رمضان وغيرها: وصلّ على جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ومالك خازن النار ورضوان خازن الجنة وروح القدس والروح الأمين، وحملة عرشك المقربين، وعلى منكر ونكير وعلى الملكين الحافظين وعلى الكرام الكاتبين[٢].

هنا يلوح تبادل الحب بين الملائكة وأهل الأرض المؤمنين حيث يدعو كل منهم للآخر لتناله رحمة الله ورضاه الذي به ينال كل المنى وتتحقق الغايات.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٣.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٣، عن الإقبال.

كما يرد بيان وتعداد لأصناف الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم مع الإشارة إلى أن الروح الأمين هو غير روح القدس وكذلك وصفه لحملة العرش بالمقربين، مما يدلل على الصيغة العامة للقرب وليس القرب الخاص بطبقة معينة من الملائكة.

وروي عن أبي جعفر ﷺ قال: كان فيما ناجى الله عز وجل به موسى ﷺ قال: «يا موسى أكرم السائل ببذل يسير أو بردٍّ جميل. إنّه يأتيك من ليس بإنس ولا جان، ملائكة من ملائكة الرحمان يبتلونك فيما خولتك ويسألونك فيما نولتك، فانظر كيف أنت صانع يا ابن عمران»[1].

يلوح في هذا الحديث مشاركة الملائكة في ابتلاء المؤمن مثلما يشاركون في حمايته والإيحاء له بالخير أو تشييعه أو الدعاء له، فإنّهم كذلك يساهمون في امتحان مدعياته بشكل عملي ولا يعلم هل أن هذه المهام مؤقتة وفي ظرف خاص كأن يراد معرفة مدى إيمان شخص بعينه أم أن كل إنسان معرض إلى هذا النمط من الامتحانات، ثم هل أنها في مجال الصدقة فقط أم لا كما أن الحديث لا يشرح لماذا تقوم الملائكة بهذا الامتحان.

ولعله تغليظ في ضرورة إعطاء السائل، وفي سياق ما ورد من أحاديث حول الصدقة من قبيل أن الله يقبض الصدقات قبل أن يقبضها الفقير إلا أن ذكر الجمع يفيد الكثرة، فكثير من الملائكة يقومون بهذا الفعل مع كل الناس فيكون الحديث بعمومه شامل لقيام الملائكة بابتلاء جميع الناس مرة أو مرات.

وهذا يذكرنا بآية الحج التي يقول فيها: ﴿... *لَيَبْلُوَنَّكُمُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ*...﴾[2]. فربما أن بعض أنواع الابتلاء أو أغلبها أو كلها تقوم بها الملائكة على هذه الشاكلة لاكتشاف حالة اليقين ومستوى هذا اليقين.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٠، عن الكافي.

(٢) سورة المائدة: ٩٤.

وعن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من كتم صومه قال (الله) عز وجل لملائكته: «عبدي استجار من عذابي فأجيروه، ووكل الله عز وجل ملائكة بالدعاء للصائمين ولم يأمرهم بالدعاء لأحد إلا استجاب لهم فيه»[1].

نلاحظ أن كل فعل عبادي يأمر الله طبقة أو أفراد من الملائكة بالتعامل معه بنوع من الدعاء والاستغفار للقائمين به كنمط من التكريم، تتفاوت درجاتها ويستشف منها كرم الباري عز وجل، وقد مرّ بنا كيف أن الله يكافئ زائر المؤمن وزائر المريض والمصافحة بين المؤمنين، ومن يقرأ الحديث يستنتج مبالغة في الجزاء على فعل بسيط ولكنها أيضاً مبالغة تتفاوت من عمل إلى عمل.

وفي هذا الحديث نصل إلى طبيعة الجزاء على الصوم حيث يأمر الله طائفة من الملائكة بإجارة العبد الصائم الذي يخفى صومه والإخفاء دلالة على الخلوص من الرياء الذي يعني تكراراً للشرط الذي لاحظناه في الأعمال السابقة، إذ لا بد أن يكون لوجه الله بلا شائبة وعند توفر الشرط فإن الله يأمر الملائكة بإجارة العبد، لأن الصوم جنة من النار وهو معادل للاستجارة وكأن من يصوم يستجير بالله من حر النار فيقبل الله هذه الإستجارة ويكلف الملائكة بهذا الفعل، غير أن الأمر لا يقف عند هذا الحد إذ أن الله يحول الأمر إلى مجموعة ملائكة ذات خصوصية متميزة لا يرد لها دعاء وهي لا تدعوا إلا حين تؤمر بالدعاء الأمر الذي يدفعنا للتساؤل عن سبب عدم رد دعاء الملائكة هؤلاء، ولأي شيء تميزت به هذه الملائكة ولماذا يأمر الله الملائكة بالدعاء ولا يعطي للعباد بصورة مباشرة ما يجود به كرمه مع العلم أن الملائكة هم أولاً وآخراً يجسدون إرادة الله كما هي، ولكن نلاحظ أيضاً أنهم لا

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٩٠، عن الكافي.

يصبحون كذاته أبداً بل مخلوقات تنفصل عنه فأفعالها وإن كانت بأمر الله ومطابقة لإرادته مطابقة تامة فإنها تبقى أفعالهم، فإن جميع الملائكة معصومون وجميعهم عباد مكرمون لكننا لا ندري ما هي الخصوصية التي صار بها الملائكة المقربون كذلك؟ كما أننا لا ندري هل إنها درجة ما من الدرجات نالها هؤلاء الملائكة؟ وهل نالوها بأنفسهم أم أنهم خلقوا كذلك؟ وهل هم المقربون أي الطبقة الخاصة من عظماء الملائكة أم أن هؤلاء ملائكة فوق المقربين أم هي درجة أدنى منهم؟

وهكذا يتضح أن للملائكة مهمة إضافية تتعلق بمتابعة الأعمال الصالحة بالدعاء لفاعلها والاستغفار، وأن هؤلاء طبقات كطبقات الأعمال فالعمل الهام يكرم الله به عباده بتخصيص ملك بدرجة مشابهة للعمل.

وإن النماذج التي تعرضت لها الأحاديث السابقة تشعر بامتدادها إلى كل الأفعال الحسنة بنفس الصورة حتى لو لم تذكر بشكل مباشر، وهذا يقودنا إلى تصور الوجه الغيبي للفعل الحسن بحيث يمكننا تصوّر أكثر من وجه لأفعال الإنسان فأحد الوجوه هو الأثر النفسي للفعل، والثاني الأثر الروحي، والثالث الأثر الأخروي ولربما وجد غير ذلك وهو تدوينه بحيث يدخل به الجنة أو النار والوجه الغيبي الذي هو المذكور وهو وجه تتضاعف به آثاره الحسنة بأثر دعاء الملائكة.

وعن أبي أسامة، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال رجل: ما السنة في دخول الخلاء؟ قال: يذكر الله ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإذا فرغت قلت: الحمد لله على ما أخرج مني الأذى في يسر وعافية قال رجل: فالإنسان يكون على تلك الحال ولا يصير حتى ينظر إلى ما يخرج منه. قال: «إنه ليس في الأرض آدمي إلاّ ومعه ملكان موكلان به. فإذا كان على تلك

الحال ثنيا برقبته ثم قالا: يا ابن آدم انظر إلى ما كنت تكدح له في الدنيا إلى ما هو صائر»[١].

لا يوضح الحديث ما إذا كان الملكان هما الكاتبان أم الحافظان أم أنهما غيرهما فيكونان موكلين بالإيحاء إلى الإنسان بما ينفعه فيذكرانه بفناء الدنيا وفناء ما يكدح لهُ. ولعل ما ذكرنا ليس من قبيل انحصار التذكير بتلك الحالة، بل لعل هذا من باب المثال، ولأن الحديث كان حول الاستنجاء خصوصاً أن أحاديث مرت أكدت وجود خطرات، الباعث عليها هو الملك وهذه الخطرات هي عامة لا تختص بحال دون حال فإذا كان هذا الملكان يعملان بالاستقلال فيمكن أن يكونا هما المسؤولين عن الخطرات الصالحة التي تخطر على بال الإنسان سواء لدفعه نحو فعل الحسنات أو لدفعه لترك السيئات، أما إذا كانا هما الكتبة والحفظة معاً وهما أيضاً اللذان يدفعان الإنسان إلى فعل الخيرات.

الحديث يشير إلى تدخل الملائكة بطريقة غير محسوسة في خلق الإيحاءات، وهنا يبرز سؤال حول الحدود التي تمارس داخلها عملية الإيحاء وهل أن الإيحاءات الأخرى هي فعل الملائكة أو الشياطين؟ أم أن هناك مساحة متروكة للإنسان لإدراكه وخبراته؟ الأرجح هو أن تدخّل الملائكة تكميلي ويدور مدار العرض. أما تحول الفكرة إلى فعل أو قول أو سلوك أو رفضها أو قبولها فهو متروك للإنسان وإرادته، وهي فاعلة خلال الدائرة الأوسع ونفس الشيء بالنسبة للشيطان حيث تشير الآية إلى أن الشيطان يدعو فقد يجاب إلى دعوته أو ترفض ﴿***...وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي...***﴾[٢] والله تعالى يقول: ﴿***إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان...***﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٨٦ - ١٨٧، عن الكافي.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٢.

(٣) سورة الحجر: ٤٢.

العلاقات المنحرفة للملائكة

الاعتقادات الباطلة والمطالبة بالرؤية

هناك جملة من التصوّرات الخاطئة بخصوص الملائكة ويترتب عليها المطالبة بنزولهم أو برؤيتهم أو عيادتهم على أساس أنّهم أرواح جالبة للخير أو دافعة للشر، فكانت هذه الروايات والآيات المتعلقة بذلك تمثل المعالجة لمثل هذه التصوّرات، ومن هنا فإن الشهادة في بعض الأحيان تقابل هذه التصورات.

قال تعالى: ﴿ *وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثمّ لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون* ﴾[1].

في هذه الآية رد على الكافرين المطالبين بالرؤية، فهي تعالج بصورة مباشرة عدم إذن الله برؤية الملائكة أي بتغيير الوضع الطبيعي (غير المرئي للملائكة) ولو لمرة واحدة لملك واحد فقط.

فالملائكة هم وسيلة إثبات للنبوّة ويكون محور الحوار هو الإيمان، وقد رفض الوحي القبول بالرؤية كدليل إثبات لحقيقة الرسالة، والظاهر أن هذا الرفض كان لعدّة أسباب:

أ ـ أن المطلوب هو الإيمان بالأشياء غير الحسيّة، وهذا يعني أن تكون الحواس مقدمة لخلق الإيمان وهذه المقدمة مثلما هي تتحقق بالملائكة فإنّها

---

(١) سورة الأنعام: ٨ ـ ٩.

تتحقق بأشياء كثيرة وحين لا يكون الإيمان ناتجاً عن هذه الأشياء الملموسة في العالم من حولنا، فإن إضافة مفردة جديدة لما يناله الحس سوف لن ينفع في إنتاج ذلك الإيمان.

ب ـ إن الإيمان المطلوب يعتمد على العقل وليس على الحس، لأنّ دائرة حركته بمجملها غير حسية لكنها معقولة فلهذا فإن المطلوب إيقاظ العقل باعتباره الأداة المشرفة على الحس وهو القائد الفعلي للوجود الإنساني ومن هنا فإنّه هو المطالب بالإيمان.

جـ ـ إذا كان الحس لا يرى إلاّ حيّزاً ضيقاً من الوجود فإن الاقتصار عليه، يعني إخراج أغلب الكون من حيّز اهتمام الإنسان والحكم عليه بعدم الوجود وبما أن هذا الامتداد الواسع خارج الحس لا يدرك بالحس فإن الموائمة بين المُدْرَكْ والمُدْرِكْ يقتضي الاعتماد على الجهاز المساوق لهذا الاتساع وليس شيء لدى الإنسان يحقق هذه الموائمة سوى العقل.

د ـ ومن هنا فإن الإيمان بالغيب سيكون عبارة عن إيقاظ الإدراك خارج دائرة الإحساس وتهيئته للتعامل كعدسة واسعة تلائم اتساع العالم الذي لا تناله الحواس، فالكون باتساعه يرى بالعقل والطبيعة في الأرض ترى بالعين، ولهذا فإنّ كل دائرة لها ما يلائمها ولذا صار الإيمان بالاعتماد على الحس مرفوض ويمكن أن يفرضه الله بأكثر من معجزة كما يقول سبحانه: ﴿ *إن نشأ ننزّل عليهم من السّماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين* ﴾[1].

هـ ـ هناك عقبات أخرى عملية تلغي الفائدة من إخراج الملائكة من دائرة غير المرئي إلى دائرة المرئي والمحسوس وهي:

١ ـ إنّ الإيمان المطلوب هو إيمان نُظرة أي أنّ الله قدّر للإنسان فترة زمنية يصل فيها إلى درجة من الأهلية للتعامل مع الغيب وحقائقه وهذه الفرصة هي

(١) سورة الشعراء: ٤.

الحياة برمتها عبر الاستفادة من التجارب والتفكير، وحين يتعامل الإنسان حسياً مع الغيب فإن المبرر للنظرة والمهلة سيزول فالغيب موجود حسي إما أن يؤمن به الإنسان أو لا، ولكل حالة رد فعل فوري، أما الجنة أو النار وهذا طبعاً نقض لنظام الحياة المؤسس على مبدأ النظرة.

٢ ـ إنّ دخول الملك إلى دائرة الحس لا يعني سوى تشكله بأحد الأشكال المحسوسة، وهو شكل الرجل وحين يصبح رجلاً فكيف لهؤلاء المرتبطين بالحس أن يصدقوا أنّه كان في الأصل ملك وسيبقى شكهم على حاله.

وعلى هذا الأساس فإن القرآن يؤكد على أن التعامل مع الغيب لا يتم إلاّ من خلال الإدراك، وأن الحس أداة غير كافية لخلق الإيمان وأن دورها مقصور على خلق مقدماته.

الإيمان بالملائكة

الآية تشير إلى أن الإيمان بوجود الملائكة كان من المسلّمات، ولذلك فإنهم أخذوها كمقدمة ودليل على صدق الرسالة وهذا يعني أن الإيمان كان شائعاً ويعتمد على الثقافة السائدة قبل نزول الوحي، وأن ما أرادوه هو إثبات التواصل بين هذه الرسالة وبين ما كانوا يؤمنون به.

ثم إنّهم إن كانوا مؤمنين فإنّهم يعلمون بأن الملائكة غير مرئية وإنّها يمكن أن تصبح مرئية، وهذا شكل من أشكال الإيمان الذي يشبه ما جاءت به الرسالة.

قال تعالى: ﴿ *هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربّك أو يأتي بعض آيات ربّك يوم يأتي بعض آيات ربّك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنّا منتظرون* ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٨.

في هذه الآيات: «استفهام انكاري في مقام لا تنفع فيه موعظة. ولازم هذا السياق أن يكون المراد بإتيان الملائكة نزولهم بآية العذاب»[١].

الأجواء التي تتحرك فيها هذه الآية هي أجواء طلب نزول الملائكة فهنا جملة محتملات هي: «مجيء الملائكة أو يأتي ربك يوم القيامة أو بعض آيات ربّك».

فمجيء الملائكة إمّا بالعذاب أو بظهورهم عياناً أو مجيء الربّ يوم القيامة كما وصفته بعض الآيات أو مجيء بعض الآيات التي تصدّق إخبارات السماء مثل الدجّال أو ظهور الدابة أو ما شاكل ذلك مما يقع قبل القيامة، وعندها تبطل حجج هؤلاء ويتضح الباطل على أنّه يمكن مجيء الملائكة في حالات أخرى مثل مجيئهم بتابوت السكينة أو نصرهم للمؤمنين في مواقع كثيرة، أو مجيئهم مع الإمام الغائب كما ورد في أحاديث أن جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره وإسرافيل أمامه وهذا هو الأهم لأن فيه النصر للمؤمنين والهزيمة الكبرى للكافرين وعندها تبطل كافة حجج أهل الباطل.

ومهما تكن أحوال مجيء الملائكة فإنّهم آتون بما لا يفرح به هؤلاء لأن هذه الأحوال جميعها ستفرض الإيمان قهراً أو حساً وهو ما لا يريده الوحي ولهذا قال تعالى: ﴿*لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل*﴾ أي قبل الإيمان القهري والحسي.

ويقول الوحي إن لحظات تحول الغيب إلى حس أو ما ألح على وقوعه فإنه آت لكنه لن يأتي بما ينفع الكافرين فإن مجيء الملائكة يقع في أحوال منها مجيئهم بالعذاب والدمار، أو في ظلل من الغمام يوم القيامة، أو في أحوال لنصرة المؤمنين وتدمير الكافرين، أو مع آيات الله، وهذا معناه أنها لا تأتي في

---

(١) تفسير الميزان: ٧/ ٤٠٩.

كل الأحوال بما يحقق رجاء الكافرين، فالدمار والقيامة حتى لو أسفرا عن إيمان الكفار فإنه لا فائدة للإيمان منها لأنه متأخر، ولا يترك فرصة لكسب الخير أو تأتي الملائكة في حال المعارك فتأتي حينها هنا لدحرهم أو تأتي الآيات التي تقلب الغيب إلى حس، وهذا يعني عدم وقوع الإيمان إلا قسْراً وقهراً وهو غير نافع.

فالمطلوب إذن وقوع الرؤية القلبية لا الرؤية الحسية، لأن الرؤية الحسية إن وقعت فإنها تقع في أحوال لا تنفع الكافرين في شيء وهي لمصلحة المؤمنين بالكامل ممّا يملي عليهم التخلي عن طلب رؤية الملائكة وهي مع ذلك آتية في كل حال ولو بعد حين.

وهذا يلفت نظرنا إلى أن الآيات التي مرّت في هذه السورة متشابهة الأجواء وتحمل علاجات لتساؤلات ذات طبيعة مشتركة.

قال تعالى: ﴿ ***لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين * ما ننزّل الملائكة إلّا بالحق وما كانوا إذاً مُنظرين*** ﴾[1].

إنّ هذه الآية تعرض في معناها العام مقولات الكفار وحججهم واستهزاءهم، لكنها تبين عرضاً قضية هامة تتعلّق بحركة الملائكة وهي ما يسميها القرآن النزول بالحق.

فالكفار قرنوا صدق النبوة بنزول الملائكة، وعند عدم النزول فإنهم سيدعون كذب النبوة وهو يشبه ما ورد سابقاً، أو أنه نقل له بالمضمون ولكن في سياق جديد.

قوله تعالى: ﴿ ***ما ننزّل الملائكة***... ﴾ جواب عما اقترحوا على النبي أن يأتيهم بالملائكة حتى يصدقوه، ومحصّل الجواب أن السنة الإلهية جارية على

---

(١) سورة الحجر: ٧ ـ ٨.

ستر ملائكته عنهم تحت أستار الغيب فلو أنزلهم وأظهرهم لهم بناءً على اقتراحهم هذا كان ذلك آية سماوية خارقة للعادة نازلة عن اقتراحهم، ومن شأن الآية المعجزة النازلة عن اقتراح الناس أن يعقبها عذاب الاستئصال والهلاك القطعي إن لم يؤمنوا بها، وهؤلاء الكفار المعاندين ليسوا بمؤمنين فهو الهلاك[١].

ومع كون نزول الملائكة يقيم الحجة ويلغي الفرصة والمهلة التي تركها الله لعباده فإن النزول مربوط بحالة سمّاها القرآن بالحق، وهنا ورد اختلاف في معنى كلمة حق «قيل: المراد بالحق في الآية الموت». «وقيل: المراد بالحق الرسالة»[٢].

فهذه وجوه مذكورة في تفسير الآية ودونها وجوه مذكورة في مختلف التفاسير وهي جميعاً لا تخلو من شيء وهو أن شيئاً منها لا ينطبق على الحصر الموجود في قوله: ﴿*ما ننزّل الملائكة إلّا بالحقّ*﴾ فنزول الملائكة لا يختص بعذاب الاستئصال ولا بالموت، ولا بالوحي والرسالة، وتوجيه الآية بما يختص بأحد المعاني الثلاث المذكورة للحق يحتاج إلى تقييد بقيود كثيرة يدفعها إطلاق الآية كما هو ظاهر لمن راجع الوجوه المقررة آنفاً.

ويمكن أن يقرر معنى الآية باستمداد من التدبر في آيات أخر. إن ظرف الحياة المادية أعني هذه النشأة الدنيوية ظرف فيه الحق والباطل من غير أن يتمخض الحق في الظهور بجميع خواّصه وآثاره. أما عالم الملائكة وظرف وجودهم فإنّما هو عالم الحق غير مشوب بشيء من الباطل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿*...لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون*﴾[٣].

---

(١) تفسير الميزان: ٣ / ٩٨.

(٢) تفسير الميزان: ٣ / ٩٩.

(٣) سورة التحريم: ٦.

وعلى هذا فإن حركة الملائكة بجميع آفاقها ومنها أفق النزول إلى الأرض أو الظهور إلى الناس لا يحدث تبعاً لمشيئة البشر الذين يلعب الهوى دوراً كبيراً في حياتهم ولربما انساقوا وراء أمر ثم تبين فيما بعد أنه خطأ كبير بينما لا تكون حركة الملائكة تبعاً لشيء من ذلك، بل هي تبعاً للحق وهو طبعاً متعدد المعاني، ربما يعني وجود أسباب موجبة وهذا كرّره القرآن عن خلق الأرض ﴿...**وما خلقنا السّموات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ**...﴾[1].

ولذلك فإنّه يستخدمها لتقابل الدوافع الأخرى، كاللهو أو اللعب أو العبث فإذا كان اللهو واللعب والعبث ممتنعة على الله، لأنّه لا يسأم فيرتاح أو يضجر فيلهو، لذلك فإن الحال الأخرى المقابلة لهذا هي حال الحق وهو صفة من صفات الله سبحانه وتعالى معروفة لنا بالإجمال ويشبهها لما يحدث في عالم الإنسان من الجد والرصانة لكن مع التفاوت بين الخالق والمخلوق.

وبعبارة أخرى أن نزول الملائكة مرتبط بموازين الملكوت وهي موازين خاصة ترتبط بحكمة الله وعلمه وتقديره وقضاء ومعرفة بالعواقب وهذا طبعاً لا يمكن أن يتطابق مع تفكير البشر فضلاً عن سفهاء البشر ﴿...**لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السّعير**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوّاً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً**﴾[3].

وفي هذا تكرار لحقائق مرّت في متون الآيات السابقة والمطالبة برؤية الملائكة أمر يعكس اللجاجة والمحاججة الباطلة والواهية والتي تعلق كل شيء

---

(١) سورة الحجر: ٨٥.

(٢) سورة الملك: ١٠.

(٣) سورة الفرقان: ٢١ - ٢٢.

على الرؤية بالحواس، مع أنه أمر واضح البطلان تؤكده الممارسات اليومية، فكثيراً ما يؤمن الإنسان بما لا يرى استناداً إلى إخبار من يثق به أو لقيام دليل، ولهذا فإن الله يقول بأن هذا الأمر ناتج عن الطغيان والعتوّ وليس باعثه المطالبة الجادة بالدليل، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يؤكد وقوعه لاحقاً وأن رؤية الملائكة قضية حتمية ولكن هذه الرؤية سوف لن تحمل البشائر لهؤلاء.

«أصل الرؤية مفروغاً منه ومسلماً، أن هناك يوماً يرون فيه الملائكة غير أن وضع الأخبار عن وصفهم يوم الرؤية موضع الأخبار عن أصل رؤيتهم للإشارة إلى أن طلبهم لرؤية الملائكة ليس يجري على نفعهم، فإنّهم لا يرون الملائكة إلاّ يوم يحيق بهم عذاب النار وذلك بعد تبدل النشأة الدنيوية من النشأة الأخرى. أما ما هو هذا اليوم الذي أشار إليه بقوله: ﴿ ***يوم يرون الملائكة*** ﴾ فقد ذكر المفسرون أنه يوم القيامة لكن الذي يعطيه السياق مع ما ينضم إليه من الآيات الواصفة ليوم الموت وما بعده كقوله: ﴿... ***ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون...*** ﴾[1]»[2].

وهكذا ترتبط رؤية الملائكة بكل الأضرار والصعوبات لهؤلاء المعاندين وأصحاب اللجاجة وعلى العكس من أن رؤيتهم لأهل الخير والصلاح حيث تكون بالبشارة والمحبة سواء في الموت أو بعد الموت، فرؤية الملائكة تحمل السوء للكافرين لأنّهم سيرون النفور والبغضاء وأن الرؤية تشير إلى حدوث تحول عند البشر يمكنهم من ذلك، ولعل الرؤية ليست بالبصر المهم أنها حين تقع، فإنها تحمل السوء للكافرين، وإذا أمكن للملائكة أن تكون مرئية فإنها لابد أن تقع في دائرة الطيف المرئي بصورة عادية وهو مركب من عدد من

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣.

(٢) تفسير الميزان: ١٥ / ٢٠٠، الآية ٢١ من سورة الفرقان.

الأطياف التي يمكن أن نراها وهي الأطياف التي يمكن أن ينطوي عليها الضوء الأبيض المرئي.

«فعندما يمر شعاع قوي من الضوء الأبيض العادي عبر شق ضيق ثم عبر موشور أو محززة، فإنّه ينتشر إلى قوس من الألوان يعرف بالطيف ويتراوح هذا الطيف من الترددات العالية للضوء المرئي إلى ترددات منخفضة من اللون البنفسجي، والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر. وبما أننا نرى هذه الألوان فإنّها تعرف بطيف الضوء المرئي، ولكن يوجد ضوء أكثر من القسم الصغير من الطيف الذي نراه. ففي الترددات العالية خارج اللون البنفسجي، يوجد جزء من الطيف يعرف بما فوق البنفسجي، علماً أنّه نوع من الضوء حقيقي تماماً ويميت الميكروبات وهو غير مرئي، ولكن يسهل كشفه بواسطة النحل الطنان والخلايا الضوئية الكهربائية، وعموماً فثمة أشياء في العالم أكثر مما نستطيع أن نرى، فوراء الأشعة البنفسجية يوجد قسم الأشعة السينية (×) من الطيف ووراء هذه الأخيرة توجد أشعة غاما (Gamae) ومن الترددات المنخفضة، أي في الطرف الآخر الذي يوجد فيه اللون نجد قسم الأشعة تحت الحمراء في الطيف وقد اكتشفت أول مرة بوضع مقياس حرارة حساس في المكان الذي لا نراه بأعيننا خلف اللون فارتفعت درجة الحرارة فيه وبالتالي فقد كان هناك ضوء يسقط على مقياس الحرارة وإن لم يكن مرئياً من قبلنا. ويمكن للأفاعي المجلجلة وأشباه النواقل المعالجة بشكل خاص أن تكتشف الأشعة تحت الحمراء بشكل جيد. أما وراء الأشعة تحت الحمراء فتوجد منطقة الطيف الواسع لموجات الراديو وجميع الاشعاعات إلى الموجات الراديوية هي أنواع مختلفة من الضوء ولها أهمية متساوية، وتستخدم كلها في الفلك.

وبسبب الحدود المفروضة على أعيننا فلدينا تحيز ومحاباة لذلك القسم ((من الضوء)) الذي ندعوه طيف الضوء المرئي))[١].

وعلى هذا الأساس فإن الملائكة تقع خارج دائرة الطيف المرئي في منطقة الترددات على طرفيه وهذا بغض النظر عن النور الذي تركبت أبدانها منه والذي قد مرّ بحثه في موضوع تركيب الملائكة، فإنها إذا حاولت الظهور فلا بد أن تدخل إلى دائرة الطيف المرئي إما بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة بإبراز ما يكون مرئياً مما يمكن للبشر رؤيته على أنه هو صورة الملاك.

وقد أورد المصنف التفسير التالي:

قوله تعالى: ﴿ ***وقالوا لولا أنزل عليه ملك*** ﴾[٢] قال الطبرسي: أي نشاهده فنصدقه ﴿ ***ولو أنزلنا ملكاً*** ﴾ على ما اقترحوه لما آمنوا به فاقتضت الحكمة استئصالهم وذلك معنى قوله: ﴿ ***لقضي الأمر ثم لا ينظرون*** ﴾ وقيل: معناه لو أنزلنا ملكاً في صورته لقامت الساعة أو وجب استئصالهم ﴿ ***ولو جعلناه ملكاً*** ﴾ أي الرسول والذي ينزل عليه ليشهد بالرسالة كما يطلبون ذلك ﴿ ***لجعلناه رجلاً*** ﴾ لأنّهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته، لأن أعين الخلق تحار عن رؤية الملائكة إلاّ بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس، وكان جبرائيل يأتي النبي في صورة دحيّة الكلبي، وكذلك ﴿ ***نبؤا الخصم إذ تسوّروا المحراب*** ﴾[٣] وأتيانهم إبراهيم ولوط في صورة الضيفان من الآدميين ﴿ ***وللبسنا عليهم ما يلبسون*** ﴾ قال الزجاج: كانوا هم يلبسون على ضعفتهم في أمر النبي فيقولون: إنما هذا بشر مثلكم فقال: لو أنزلنا ملكاً فرأوا الملك رجلاً لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل

---

(١) كتاب الكون: ٨٤.

(٢) سورة الأنعام: ٨.

(٣) سورة ص: ٢١.

ما لحق ضعفتهم منهم. وقيل: لو أنزلنا ملكاً لما عرفوه إلاّ بالتفكّر فهم لا يتفكرون فيبقون في اللبس الذي كانوا فيه وأضاف اللبس إلى نفسه لأنّه يقع عند إنزاله الملائكة[1].

إن الصورة التي يؤكدها التفسير هي أن الملائكة كائنات غير مرئية من خلال رفض طلب الرؤية التي أراد الكفار حصولها لكي يؤمنوا ثم بين ما يترتّب على هذه الرؤية، فهو يستند على التعامل مع عالم الغيب من خلال الحس وهو أمر يتناقض مع أصل الغيبية وهي عدم قدرة الحواس على تناولها، وبالتالي لا بد من وجود طريقة أخرى لرؤية الغيب سوى الحس وهذه الطريقة إما أن تفضل الحواس في إحداث اليقين أو أنّها مثله، ثم إن القرآن يحدثنا عن وجود تسلسل في هذا المطلب فكلما حصلت رؤية استجابةً لطلب هؤلاء فإنهم سيطالبون بالمزيد حتى يصل الأمر إلى المطالبة بما لا يمكن رؤيته مطلقاً.

ثم إن مجاراتهم تعني إلغاءً للعقل الذي هو جهاز الرؤية الحقيقي، وأن الحواس مجرد وسائط لنقل الصور، وأن تعطيله يهبط بالإنسان إلى مستوى الكائنات المتدنية والتي لم تؤتى منه إلاّ شيء يسير، وهذا يلغي الغرض من الإيمان والرسالة معاً لأن الهدف منها هو إيصال الإنسان إلى مرتبته الكونية لا مجاراته للبقاء في الأفق البسيط والذي يشترك به مع الحيوانات الأخرى.

فالمنهج القرآني يريد أن يوقظ في الإنسان البعد الآخر، البعد غير المحدود الذي يعطيه حضوراً فاعلاً في الفضاء الزمكاني الحقيقي خارج إطار الحواس التي تضيق الوجود إلى درجة غاية في الضآلة، ثم إنها لن تؤدي إلى الإيمان وبالتالي فإن المشكلة تبقى قائمة ولا تحل إلاّ بالطريقة التي يريدها القرآن وهو

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٤٩.

استعادة البعد اللا محدود من الإنسان، لذا فإن الحواس سوف لن تبقى مداراً في عالم غير المرئيات.

ويضاف إلى ذلك استحالة رؤية الملائكة في الظروف العادية ستخرج كأداة للتعامل، إلاّ بإحداث تغيير في الفاعل أو القابل أي في العين المبصرة أو في الشيء الذي يقع عليه الإبصار وهو لا يحدث إلاّ للأنبياء، وفي حالات الضرورة يتحول الملائكة إلى صور رجال كما ورد في الرواية التي تقول بظهور جبرائيل لرسول الله صلى الله عليه وآله بصورة رجل يدعى دحية الكلبي وكذلك فيما نقله القرآن ﴿ *نبؤا الخصم إذ تسوّروا المحراب*﴾[1] وإتيانهم إبراهيم في صورة الضيفان من الآدميين، ونفس العملية تلغي الرؤية لأن رؤيتهم بهذه الصورة لا تختلف عن رؤية أي رجل آخر وهذا فيه نفس اللبس لأنّه أيضاً يحتاج إلى إيقاظ العقل، وإذا كان لا بد من إعمال العقل فإنّه من الأفضل إعماله منذ البدء وقبول الهدى بدون رؤية.

كما أن النتيجة ستكون واحدة وبالتالي فإن الكفر سيبقى قائماً، وسيكون بدرجة الإصرار وعند الإصرار فإن العقوبة هي الاستئصال، لأن لإنسان المصر على الكفر مع الاستجابة لطلبه لا بد من استئصاله لأن الغرض من الحياة هو الوصول إلى الهدى وحيث يثبت عجزه عن ذلك فإن الغرض من بقائه ينتفي فينتقل إلى الآخرة بعد إفنائه من قبل الله تعالى.

على أن نفس الاستجابة وظهور الملائكة بمظهر الرجال عمل لا يحصل إلا وفق حسابات وضرورات تختلف عن حسابات وأهواء البشر الذين لو اتبعت السماء والأرض أهواءَهم لفسدتا، لأن السماء والأرض قائمة على ثوابت وقوانين وحين تنفك عن هذه الثوابت ولا تراعى فإن الكون سيضطرب.

---

(١) سورة ص: ٢١.

بإسناده إلى أبي محمد العسكري عليه السلام فيما احتج رسول الله صلى الله عليه وآله به على المشركين: ((والملك لا تشاهده حواسكم لأنّه من جنس هذا الهواء، لا عيان منه، ولو شاهدتموه بأن يزداد في قوى أبصاركم لقلتم ليس هذا ملكاً بل هذا بشر))[1].

الآية التي نزلت بخصوص طلب المشركين متضمنة هنا. ولهذا فإن الجو يشير إلى خصوص هذه الواقعة وليس لطبيعة الملائكة عموماً فقد تناولت الآية ﴿ *وقالوا لولا أنزل عليه ملك* ﴾[2] التشابه بين الهواء من حيث هو موجود لكنه غير مرئي وإن عدم رؤيته لا تضر بوجوده فإن الملك كذلك موجود ولكن غير مرئي.

ولعل الجزء الآخر يتابع فكرة استحالة الرؤية لا استحالة مطلقة بل هي استحالة يمكن أن تزول بسبب إجراء تغيير على العين بزيادة قوة الأبصار مع الاقتران بتحول الملك إلى صورة رجل، لأنه بدون هذا التحول فإن الرؤية مستحيلة أيضاً فكما تشير الأحاديث إلى أن الملائكة لهم أبعاد خارقة، فلو رأى الإنسان الملك بصورته الفعلية فإنّه سوف لن يرى سوى جزءاً يسيراً جداً منه كما نرى نحن جزء من الأرض فكيف والملائكة تكون الأرض برمتها مثل الدرهم بيد أحدهم.

ولذلك لا بد من ظهوره بصورة تقريبية لكي يكون مرئياً، وحين يحدث ذلك فإنه سوف لا يخدم إيمان هؤلاء وهكذا فإن التعلّق بالرؤية مجرد محاججة للأسباب التي قدمها الحديث، وعليه لا يصح الربط بين الإيمان وبين الرؤية الحسية بل لا بد لمن يريد الإيمان أن يضع الرؤية الحسية جانباً بناءً على

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧١، عن الإحتجاج.

(٢) سورة الأنعام: ٨.

وجود أكثر من نموذج قائم في الواقع، وفي الحياة اليومية يقبل الناس بوجوده ولكنها لا تصرّ على رؤيته، وهكذا يريد القرآن أن تُترك للعقل حسم هذه القضايا بدلاً عن الحواس لأنّه هو أداة الرؤية الحقيقة بما في ذلك الرؤية الحسية فكثير من الإشارات الصغيرة يلتقطها العقل ويتابعها وإذا بها تفتح آفاقاً لعوالم غائبة،فلماذا يصل الإنسان إلى نقاط معينة ويرفض الإصغاء إلى صوت العقل وينكص عائداً إلى الحواس.

وهنا نطرح تساؤلات حول طبيعة الرؤية، فهل يفهم من لفظة الزيادة في الحديث إمكان حصول الرؤية بمجرد الزيادة في قوة البصر فإذا استطاع الإنسان استخدام آلة لزيادة البصر فإن الرؤية تكون ممكنة؟

فمن المعلوم أن الرؤية بالصورة الطبيعية تتم حين تسقط الأشعة المرئية أو الشمسية على الأشياء فتلتقط العين الأطوال الموجية من الحمراء إلى البنفسجية، وهي الأطوال التي يتركب منها ضوء الشمس، وكل الأطوال التي تقع تحت الحمراء أو فوق البنفسجية فإنها بالنسبة لعين الإنسان تكون غير مرئية كما أن هناك أجساماً غير مرئية بسبب صغر جرم هذه الأجسام ولهذا فإن الرؤية تتم بواسطة التكبير أما بالنسبة لبعد الأجسام فحتى لو كانت كبيرة فإنّها غير مرئية، وعلى هذا الأساس استخدمت أجهزة لعلاج هذه الحالات وهي أولاً: أجهزة التكبير التي تقوم بتكبير أبعاد الأجسام وثانياً: أجهزة التقريب التي تقوم بتقريب الأجسام البعيدة كالقمر والنجوم وثالثاً: الأجهزة التي تتيح الرؤية عبر الحواجز والتي تعتمد على أشعة (أكس) أو الليزر ورابعاً: هي الأجهزة التي تستفيد من الأشعة في الرؤية كالأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء والتي تمكن الإنسان من الرؤية في الظلام مثلاً.

في العصر الحاضر استطاع الإنسان الإفادة من بعض الأشعة غير المرئية وهي أطياف عديدة تجعل الاستفادة من دائرة الرؤية واسعة جداً قد يتاح

للإنسان آفاق أكبر إذا تم الاعتماد على أطياف أخرى عدا تلك التي تمت الإفادة منها لحد الآن.

على أن هذه الطرق الأربعة لا تعني عدم وجود سبل أخرى تمكّن الإنسان من الإفادة منها في المستقبل، وهكذا ينفتح أفق واسع لتغيير دائرة الرؤية البشرية سواء باستخدام أساليب جديدة ضمن هذه الطرق أو باستخدام طرق جديدة إضافية مثل طرق الإرسال عبر المسافات الشاسعة بواسطة الأقمار الصناعية مثلاً.

والمهم هنا أن قضية المشاهدة المباشرة لم تعد دليلاً حاسماً في إثبات وجود الشيء وعدمه فقد استطاعت الرؤية أن تمتد لتطال عوالم لم يكن في مقدور الإنسان مشاهدتها في العصور القديمة ولهذا فإن العلم أسقط هذه القضية.

ويبقى السؤال بالنسبة للملائكة دائراً حول الاستفادة من الأداة والآلة فهل يكون قادراً على إدخال الملائكة في دائرة الرؤية أم أن قضية رؤية الملائكة ترتبط بتحولات أخرى غير المذكورة، فإذا افترضنا ذلك فإن زيادة البصر التي يذكرها الحديث ستكون من طبيعة مختلفة ولعلها التي لمحت لها الآية ﴿ ***فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد*** ﴾[1] ويمكن فهم هذه الآية بافتراض نوعين من التحولات الممكنة. الأولى: تحصل بإجراء التغيير على الإنسان في أدوات رؤيته وبواسطة الموت يرى الإنسان الغيب. بينما لا يحصل ذلك في الحياة، وهذا معناه أن كون الإنسان حياً يعطل فيه أدوات الرؤية التي يؤدي الموت إلى منحها الفاعلية فالموت هو حالة تحوّل وهذا بدوره يتيح لنا التأكد من إمكانية تحريك هذه الأجهزة بواسطة من الوسائط، وبالتالي

---

(١) سورة ق: ٢٢.

تتم الرؤية دون الحاجة إلى موت الإنسان. أما الصيغة الثانية: فهي صيغة إجراء التغيير على القابل وهو المرئي هنا، فيدخل الملك بصورة من الصور في إطار الرؤية البشرية.

وهكذا تسقط الرؤية من دائرة الأدلة بعد أن عرفنا أن حدودها واسعة جداً وتمتد إلى آفاق كبيرة جداً ولكن بالاستعانة بوسائل وأدوات وهذه متوقفة على سعي الإنسان ومعرفته بالطبيعة والإمكانات الكامنة فيها لتوسيع حدود دائرة تسلط الإنسان.

التصوّرات المنحرفة

وإنَّ من النتائج التي ترتبت على عدم رؤية الملائكة تركيب تصورات منحرفة عنهم وهي غير ناشئة عن حجب الرؤية المباشرة للملائكة، بل عن الانحرافات في العقائد التي يتصورها الإنسان وهو يتعامل مع حقائق الكون حين يريد أن يقربها إلى إدراكه فيعطيها إشكالاً قريبة من الحس كنوع خاص من الأساطير التي يختلقها الإنسان أحياناً لفهم حقائق الطبيعة، وأحياناً لفهم الحقائق الموحى بها من السماء فيضيف لها من خياله فتسود لتتوسع وتترسخ بمرور الزمان.

قوله تعالى: ﴿ ***ويوم يحشرهم جميعاً ثمّ يقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون*** ﴾[1]. والغرض من السؤال تبكيت المشركين وتقنيطهم من نصرة الملائكة وشفاعتهم لهم وقد عبدوهم في الدنيا ﴿ ***قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون*** ﴾[2]. وهؤلاء من الجن الذين يعدّهم بعض الناس

---

(١) سورة سبأ: ٤٠.

(٢) سورة سبأ: ٤١.

مبادئ الشرور في العالم فيعبدونهم إتقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعاً في خيراتهم لما أنّهم مبادئ للخيرات[١].

فالآية تشير إلى حالة من الاختلاط في العبادة تسود في المعتقدات الفاسدة حيث يتصور هؤلاء أنهم يعبدون الملائكة بينما هم في الواقع يعبدون الجن، وهذه العبادة لا يقبلها الملائكة لأنّها نمط من الضلال فلا تساهم فيه بينما تقبل الجن بذلك.

فإن الآية توضح حالة الخلل في المعتقدات البشرية، في نفس الوقت الذي تكشف فيه عن أصل عملية التوهم الناشئة عن ارتباط غير صحيح بين بعض البشر وبين بعض الجن، وبذلك يراد نسف الأساس الذي قامت عليه، فالملائكة أصلاً ليست طرفاً في هذا الضلال بل على العكس أنّها أصل الهداية وحمل رسالات السماء إلى الأرض.

وكأن الآية تريد أن تركز التصور الإنساني الصحيح عن هذه المخلوقات المكرمة، وبذلك تعيد العلاقة بين الملائكة وبين البشر إلى أصالتها في نفس الوقت الذي تؤكد فيه الارتباط بين الأوهام وبين الجن كمقدمة للقضاء على هذه المعتقدات.

وقوله تعالى: ﴿ *ويوم يحشرهم جميعاً* ﴾ أي العابدين لغير الله والمعبودين ﴿ *أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون* ﴾ على الإنكار ليعترفوا بخلافه ﴿ *قالوا سبحانك* ﴾ أي تنزيهاً لك عن أن يعبد سواك ﴿ *أنت ولينا* ﴾ أي: ناصرنا وأولى بنا من دونهم، أي من دون هؤلاء الكفار وما كنا نرضى بعبادتهم إيانا ﴿ *بل كانوا يعبدون الجن* ﴾ إبليس وذريته حيث أطاعوهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة وغيرهم ﴿ *أكثرهم بهم مؤمنون* ﴾ مصدقون بالشياطين مطيعون لهم[٢].

---

(١) تفسير الميزان: ١٦/ ٣٨٦ ـ الآية ٤٠ من سورة سبأ.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٥٥.

وهنا يشير المصنف إلى أحد الظواهر غير السليمة للإيمان بالملائكة، فمرة نلاحظ الإنكار وعدم الإيمان بوجود الملائكة بصورة مباشرة أو جزء من إنكار الغيب كله وهو أمر سلبي، ومرة أخرى نشاهد وجود الإيمان ولكنه إيمان منحرف مثل إيمان اليهود الذين آمنوا بوجود الملائكة لكنهم قسّموهم إلى ملائكة أعداء وملائكة ليسوا كذلك. وهنا نشاهد حالة أخرى من الإيمان بهم وادّعاء عبادتهم وهو نمط آخر في التعامل لم ينشأ عن الملائكة كما تبين الآية بل نشأ عن الوهم لدى البشر وعامل اللبس الذي تمارسه الشياطين، فالملائكة نسبوا العبادة إلى الشياطين وهي نسبة نشأت عن فعل الشيطان وتقبل الإنسان لها ولهذا فإن القرآن الكريم يشير ضمناً إلى أن ما يحدث هنا لا علاقة له بالملائكة أصلاً، لأن الملائكة وجود رحيم لا ينشأ عنه إلا الخير المحض وأن هذه العبادة التي هي نوع من الضلال لا علاقة له بالملائكة.

ولعل في هذه الآية إشارة ضمنية إلى خاصة الملائكة الكلية وهي خاصة الوجود الرحيم الذي يأمر بالخير ويمارسه، والذي أنشأه الله كذلك وبالتالي فإن البشر الذي يدّعون شيئاً مغايراً لهذه الخصيصة، إنّما وقعوا بالانحراف والضلال وهم أولى بالردع فضلاً عن تضمنه الإشارة إلى الطبيعة الخاصة بالملائكة وهي عدم وجود دوافع الشر لديهم، بينما توجد دوافع الشر لدى البشر والجن على سواء ولذلك فإنهم اشتركوا في الضلالة، وحتى لو قيل بوجود الشهوة لدى الملائكة فإنها بلا شك أضعف من قدراتهم العقلية لذلك فإن عقولهم هي التي تمارس الفعل والنشاط.

قوله تعالى: ﴿ *فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون* ﴾[1].

قال البيضاوي: أمر باستفتائهم حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخرى:

---

(١) سورة الصافّات: ١٤٩.

التجسيم وتجويز الفناء على الله. فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة وتفضيل أنفسهم عليه على وجه القسمة حيث جعلوا أوضع الجنسين له، وأرفعهما لهم، واستهانتهم بالملائكة حيث أنّثوهم، ولذلك كرر الله إنكار ذلك وإبطاله في كتابه العزيز مراراً وجعله مما يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّاً. والإنكار ههنا مقصود على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما، ولأن فسادهما مما تدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل للاستفهام على التقسيم ﴿ ***أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون*** ﴾[1] وإنما خص علم المشاهدة لأن أمثال ذلك لا تعلم إلا به، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم ليمكن معرفته بالعقل الصرف، مع ما فيه من الاستهزاء والإشعار بأنهم لفرط جهلهم ينبؤون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم ﴿ ***ألا إنّهم من إفكهم ليقولون * ولد الله*** ﴾[2] لعدم ما يقتضيه وقيام ما ينفيه ﴿ ***وإنّهم لكاذبون*** ﴾ فيما يتبنون من هذا الاعتقاد، ﴿ ***أصطفى البنات على البنين*** ﴾ استفهام إنكار واستبعاد، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء ﴿ ***ما لكم كيف تحكمون*** ﴾ بما لا يرتضيه عقل ﴿ ***أفلا تذكّرون*** ﴾ أنه منزه عن ذلك ﴿ ***أم لكم سلطان مبين*** ﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته ﴿ ***فأتوا بكتابكم*** ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿ ***إن كنتم صادقين*** ﴾ في دعواكم ﴿ ***وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً*** ﴾ يعني الملائكة، ذكرهم باسم جنسهم وضعاً منهم أن يبلغوا هذه المرتبة، وقيل قالوا: إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة. وقيل: قالوا الله والشيطان أخوان ﴿ ***ولقد علمت الجنّة أنّهم*** ﴾ أن الكفرة أو الإنس أو الجنة أن فسرت بغير الملائكة ﴿ ***لمحضرون*** ﴾[3] في العذاب ﴿ ***وما منّا إلا له مقام معلوم*** ﴾

---

(١) سورة الصافّات: ١٥٠.

(٢) سورة الصافّات: ١٥١ - ١٥٢.

(٣) سورة الصافّات: ١٥٨.

حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية بالرد على عبدتهم، والمعنى: وما منا أحد إلاّ له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى في تدبير العالم ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[1] المنزهون لله عمّا لا يليق به، ولعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف.

وقال الطبرسي رحمه الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذا قول جبرئيل للنبي صلى الله عليه وآله وقيل: «إنّه قول الملائكة، وفيه مضمر أي. وما منا معشر الملائكة ملك إلاّ وله مقام معلوم في السماوات يعبد الله فيه. وقيل: معناه أنه لا يتجاوز ما أمر به ورتب له. كما لا يتجاوز صاحب المقام مقامه الذي حد له، فكيف يجوز له أن يعبد من هو بهذه الصفة وهو عبد مربوب؟ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ حول العرش ننتظر الأمر والنهي من الله تعالى. وقيل: القائمون صفوفاً في الصلاة. قال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض، وقال الجبائي: صافون بأجنحتنا في الهواء للعبادة والتسبيح ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المصلّون المنزهون الرب عما لا يليق به، ومنه قيل: فرَغت من سبحتي أي من صلاتي. وذلك لما في الصلاة من تسبيح الله وتعظيمه والمسبحون القائلون سبحان الله على وجه التعظيم لله[2].

هذه جملة آيات تحدثت عن الملائكة وبيّنت بعض التفاصيل عن وجودهم في الوقت الذي أبطلت فيه بعض ما كان يردده المشركون عنهم من تقولات. فأما التقولات فإنّها كون الملائكة إناثاً أولاً، وأنهم أولاد الله كما نسبوا الجن إلى الله ثانياً.

---

(١) سورة الصافّات: ١٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٦٠ - ١٦٢.

ولعل الخلط الأساسي الذي يحاول القرآن القضاء عليه هو الخلط بين عالم الإنسان وعالم الملائكة، والنظر إلى النظام الذي يحكم حياة الإنسان على أنه ليس خاصاً بالإنسان، بل يمتد إلى عالم الملائكة فالملائكة إذا كانوا إناثاً فإن ذلك ينطوي على إسقاط تصورات الحياة البشرية عليهم، فكما أن الإنسان كائن مركب من إناث وذكور فإن الملائكة هم إناث ولهذا جاءت الآيات تنزيهاً لهم عن (نظام الأنوثة والذكورة)، أي نظام التكاثر وبناء الوحدة الأساسية للمجتمع البشري وعدم التأنيث يعني عدم وجود بناء اجتماعي شبيه لبناء المجتمع البشري، أو أنه موجود ولكن بصيغ أخرى مغايرة تلائم طبيعة الفرد (الملك) وطبيعة المهام الموكلة إلى الملائكة في الوجود.

أما بالنسبة لكونهم أولاد الله فإنّه ينطوي على خلط مقامات أكبر وأشد خطورة بين الخالق والمخلوق، فالله الذي هو لم يلد ولم يولد أسبغ عليه المشركون صفة الولادة والتوالد وبغض النظر عن كون المولود من الملائكة أو الجن.

ولعل هذه الآيات تهدف إلى تصحيح التصورات البشرية عن عالم الغيب بعد أن كانت الرسالات السابقة قد أدّت مهمة المقدمة ألاَ وهي إقناع الناس بوجود عالم آخر غير عالم الشهود، هذا ثم أقنعتهم بوجود كائنات غيبية كالملائكة والجن ومثل ذلك الخالق الأعظم وبعد ذلك ساد الخلط في علاقات بين كائنات الغيب في أذهان البشر نتيجة للتحريفات والأباطيل.

وحين فندت الرواسب في الأذهان عمدت إلى بيان الصورة الصحيحة عن الملائكة، فهم مقامات في العبودية وأنهم الصّافون في مقام العبودية على ما مرّ من معاني الصف وأهميته في الفقرة السابقة، وإنّا لنحن المسبّحون

المنزّهون لله تعالى عن الأباطيل والخرافات وأوهام البشر وفي كل ذلك توضيح لطبيعة الملائكة، فالملائكة هم الصافون إذا كان معناه انتظار أوامر الله فإنّها دلالة على مستوى عال من الطاعة للباري وأن الملائكة ذوي مقامات أو طبقات، ولعلنا نتخيل نظام هرمي للعلاقات بين الملائكة وأن التسبيح هو الشغل الشاغل للملائكة، ولعلّ به دوام الارتباط بذات العزة جل جلاله ويمكن أن يكون المقام كناية عن أجناس من الملائكة تتحد في جنس أعلى وتختلف من ناحية المهام والقدرات والطاقات التي يتيحها الله. وكل ذلك يوضح التناقض الفاضح بين تصورات البشر عن الملائكة وبين الصورة الحقيقية التي تعكسها الآيات.

قال تعالى: ﴿ ***وجعلوا له من عباده جزءاً إنّ الإنسان لكفور مّبين * أم اتّخذ ممّا يخلق بنات وأصفاكم بالبنين * وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرّحمن مثلاً ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم * أو من يُنشّؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرّحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويُسئلون*** ﴾[1].

إذا كان الإسلام ليس الديانة الأولى فإن المعتقدات الأخرى كانت تذكر الملائكة ولكنها تذكرها من خلال تصورات مخترعة أو محرّفة. وتعد الوثنية التي هي بالأصل إحدى الديانات السماوية التي حُرّفت والتي تؤمن بوجود الملائكة ولكنها اعتقادات قائمة على تصورات غير صحيحة من قبيل الاعتقاد بأنهم إناث.

والأنوثة صفة للملائكة يؤدي الاعتقاد بها إلى جملة من التصورات التي تحاول خلق نظام كامل معقول ومقبول أسطوري يختلف النظام الحقيقي السائد في الوجود والذي يصعب على الأذهان والعقول البسيطة تقبله. وفي

---

(١) سورة الزخرف: ١٥ ـ ١٩.

النهاية والمحصلة نصل إلى وضع يتناول أساسيات العقيدة بالتبديل والتحويل ويفضي إلى إلغاء الهدف من البعث والرسالة.

ومن هذا المنطلق فإن القرآن صار يفنّد تفاصيل العقائد الوثنيّة ولم يكتف بتوجيه النقد لأسسها وبنائها بل دعا إلغاءها كلياً فضلاً عن أنه حاول تحصين التصورات الإسلامية. وحفظها من الانحراف.

وجاء في تفسير ﴿ *وجعلوا له من عباده جزءاً* ﴾ فقالوا الملائكة بنات الله وسمّاه جزءاً لأن الولد جزء الوالد. وهو يستلزم التركيب المنافي لوجوب الوجود ﴿ *لكفور مبين* ﴾ أي ظاهر الكفران ﴿ *وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرّحمن مثلاً* ﴾ أي بالجنس الذي جعله له مثلاً. إذ الولد لا بد أن يماثل الوالد ﴿ *ظل وجهه مسوداً* ﴾ أي صار وجهه أسود في الغاية، لما يعتريه من الكآبة ﴿ *وهو كظيم* ﴾ أي مملوء قلبه من الكرب ﴿ *أو من ينشأ في الحلية* ﴾ أي أو جعلوا له أو اتّخذ من يتربى في الزينة يعني البنات ﴿ *وهو في الخصام* ﴾ أي في المجادلة ﴿ *غير مبين* ﴾ أي غير مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي ﴿ *وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرّحمن إناثاً* ﴾ كفر آخر تضمنه مقالهم هذا. وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله أنقصهم عقلاً وأخصهم صنفاً ﴿ *أشهدوا خلقهم* ﴾ أي أحضروا خلق الله لهم فشاهدوهم إناثاً فإنّ ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل وتهكم لهم ﴿ *ستكتب شهادتهم* ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة ﴿ *ويسئلون* ﴾ أي عنها ﴿ *يوم القيامة* ﴾[1].

في هذه الآية تتجلى عملية نفي الشبهات والأوهام التي نسجتها أخيلة المشركين. وهو تكرار لما مرّ يتضمن المزيد من الجلاء للقضيّة السابقة وهو

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٦٥.

الاعتقاد بأبوته سبحانه وتعالى للملائكة التي هي إناث مع شدة نفور هؤلاء من الأنوثة، فإنّهم يرفضون الوضع الطبيعي لتكون المجتمع البشري من إناث وذكور. ويجعلون الإناث لله اختراعاً من تصوراتهم.

القرآن يشير إلى التناقض الذي يسود في هذه القضية كما أنها في الأصل لا تستند إلى أي دليل مقنع أو دليل يقيني ثابت، ومع ذلك فإنّها ذائعة ومنتشرة وهذا مدعاة للوقوف يوم الحساب الشديد.

الفصل الرابع

وصف عام للملائكة

- واستنتاجات -

- الدعاء
- استنتاجات
- وجود الملائكة
- صفات الملائكة
- الذاكرة الكونيّة وإشراف الملائكة
- الملائكة أجسام لطيفة
- عروج الملائكة وهبوطهم إلى الأرض
- كونهم من نور

الدعاء

لقد قدّم هذا الدعاء الكثير من المعالم العامة لوجود الملائكة، وكشف الكثير من المعالم التي لم تمر في الأحاديث السابقة، مما يعطيه أهمية فائقة في إكمال الصورة التي مرت سماتها في الآيات والأحاديث السابقة.

عن عليّ بن النعمان قال: وكان من دعاء علي بن الحسين عليه السلام في الصلاة على حملة العرش وكلّ ملك مقرّب: اللهم وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك، ولا يسأمون من تقديسك، ولا يستحسرون عن عبادتك، ولا يؤثرون التقصير على الجدّ في أمرك، ولا يغفلون عن الوله إليك وإسرافيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن، وحلول الأمر، فينبّه بالنفخة صرعى رهائن القبور، وميكائيل ذو الجاه عندك، والمكان الرفيع من طاعتك، وجبرئيل الأمين على وحيك، المطاع في أهل سماواتك، المكين لديك، المقرّب عندك، والروح الذي هو على ملائكة الحجب، والروح الذي هو من أمرك. اللهم فصلّ عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم، من سكّان سماواتك، وأهل الأمانة على رسالاتك، والّذين لا يدخلهم سأمة من دؤوب، ولا إعياء من لغوب، ولا فتور، ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات، ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات، الخشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك، النواكس الأعناق الذين قد طالت رغبتهم فيما لديك، المستهترون بذكر آلائك، والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنّم تزفر على أهل معصيتك: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك فصلّ عليهم وعلى الروحانيّين من ملائكتك، وأهل الزلفة عندك، وحملة الغيب

إلى رسلك، والمؤتمنين على وحيك، وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك، وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك، وأسكنتهم بطون أطباق سماواتك، والّذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك، وخزّان المطر، وزواجر السحاب، والذي بصوت زجره يسمع زجل الرعود، وإذا سبحت به خفيفة السحاب التمعت صواعق البروق، ومشيّعي الثلج والبرد، والهابطين مع قطر المطر إذا نزل، والقوام على خزائن الرياح، والموكلين بالجبال فلا تزول، والذين عرفتهم مثاقيل المياه، وكيل ما تحويه لواعج الأمطار وعوالجها ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء، والسفرة الكرام البررة، والحفظة الكرام الكاتبين، وملك الموت وأعوانه ومنكر ونكير، ومبشر وبشير، ورومان فتّان القبور، والطائفين بالبيت المعمور، ومالك والخزنة، ورضوان وسدنة الجنان، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يقولون ﴿ ***سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار*** ﴾ والزبانية الذين إذا قيل لهم ﴿ ***خذوه فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه*** ﴾ ابتدروه سراعاً ولم ينظروه ومن أوهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منك، وبأي أمر وكلته، وسكان الهواء والأرض والماء، ومن منهم على الخلق، فصلّ عليهم يوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد، وصلّ عليهم صلاة تزيدهم كرامة على كرامتهم وطهارة على طهارتهم اللهم وإذا صليت على ملائكتك ورسلك وبلغتهم صلواتنا عليهم فصلّ علينا بما فتحت لنا من حسن القول فيهم أنك جواد كريم[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢١٦ - ٢١٨.

تبيان: أقول: ((وإسرافيل)) هو ملك موكل ينفخ الصور والصور هو قرنه الذي ينفخ فيه كما قال سبحانه: ﴿ ***ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثمّ نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون*** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ ***إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون*** ﴾[2].[3]

((الشاخص الذي ينتظر منك الأذن)) أي شخص ببصره لا يطرف من يوم خلقته انتظاراً لما سوف يؤمر به بعد انقضاء أمر الدنيا. والمرتفع المادّ عنقه لذلك أو الرفيع الشأن. والأول أظهر قال الفيروز آبادي: شخص - كمنع - شخوصاً: ارتفع، وشخص بصره: فتح عينيه وجعل لا يطرف، أي رفعه. والأذن في النفخ والأمر أيضاً فيه. أو المراد أمر القيامة ((فينبّه بالنفخة صرعى رهائن القبور)) في القاموس: الصرع: الطرح على الأرض وكأمير: المصروع. والجمع صرعى (انتهى) و الصريع يُطلق على الميت، وعلى المقتول لأنّهما يطرحان على الأرض. وفي القاموس: الرهن: ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك. وكل ما احتسب به شيء فرهينه، وراهن الميت: القبر ضمّنه إياه والرهينة كسفينة واحد الرهائن))[4].

وفي الحديث بيان لأحوال الملائكة ففي مطلعه الإشارة إلى صنف من الملائكة وهم حملة العرش ولعل هؤلاء يحملون العرش بصورة دائمة وليس وصفاً خاصاً بيوم القيامة كما جاء في الآيات مقترناً بذكر يوم القيامة. أما بقية الأوصاف فإنّها عامة لكل الملائكة ولعل ذكرهم هنا جاء لخصوصية من هؤلاء متميزة عن ما يقوم به أشباههم بالصفة التي فسّرها المقطع السالف، ونفس

---

(١) سورة الزمر: ٦٨.

(٢) سورة يس: ٥٣.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢١٩.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٠.

الشيء بالنسبة لإسرافيل الذي هو عمله الانتظار للصيحة التي توقظ الموتى وتدعوهم إلى الحساب، وهذا يعني أن لا يفعل أي شيء بدون صدور الأمر وفيه إمكان العلم بلحظة الصيحة أو عدمها فعلم الملك لا يعني قيامه بالنفخة في الصور تبعاً لعلمه بل لا بد من صدور الأمر إليه من الباري عز وجل.

ويلفت النظر البدء بحملة العرش في الدعاء، الأمر الذي قد يفيد أن العرش هو البداية الكونية الأولى الذي هو مركز إدارة الوجود، ويؤيد هذا الفهم أن الخطوة التالية التي اتّجه إليها الدعاء هي الدعاء لاسرافيل أحد أعاظم الملائكة والذي هو مسؤول عن الصور، والذي يشرف على الوحي مما قد يتيح لنا فهم نوع من الترابط بين العرش والملائكة المقرّبين الذي يشكل اسرافيل أحد أبرزهم، ثم يشير إلى ميكائيل وجبرائيل وبقية الطبقة الأولى من أعاظم الملائكة مما يمكن أن يكون مؤيداً لما ذهبنا إليه.

أقول: يمكن أن يكون المراد برهائن القبور مودعاتها أي الذين أقاموهم فيها إلى يوم البعث أو من ارتهن بعمله في القبر كما قال تعالى: ﴿***كلّ نفس بما كسبت رهينة***﴾[1] وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم» ومثله في الأخبار كثير فيكون من قبيل الإضافة إلى الظرف لا إلى المفعول كقولهم: «يا سارق الليل أهل الدار»، وكما قيل في «مالك يوم الدين»، أي مالك الأشياء يوم الدين. ثم اعلم أن أكثر نسخ الصحيفة متفقة على نصب (الرهائن)، فهو إمّا بدل عن «صرعى» أو حال أو بيان أو صفة. لأن الإضافة لفظية وفي رواية «ابن أشناس» بالجر بالإضافة. والأول أصوب. ثم إنه عليه السلام اقتصر على ذكر النفخة الثانية لأنه أشد وأفظع لاتصالها بالقيامة

---

(١) سورة المدّثر: ٣٨.

واحتمال كون الكلام مشتملاً عليهما بأن يكون في الأذن والأمر إشارة إلى الأولى وقوله «فينبّه» إلى الثانية في غاية البعد[١].

وبهذا المقطع ينهي حديثه عن اسرافيل ثم ينعطف ليتحدث عن ميكائيل:

وميكائيل هو من عظماء الملائكة وروي أنه رئيس الملائكة الموكلين بأرزاق الخلق كملائكة السحب والرعود والبروق والرياح والأمطار وغير ذلك، وفي اسمه لغات قال الزمخشري: قرئ «ميكال» بوزن قنطار و«ميكائيل» بوزن «ميكاعيل» و«ميكئيل» كميكعيل و«كميكائل» كميكاعل «وميكئل» كميكعل. قال ابن جني: العرب إذا نطقت بالعجمي خلطت فيه (انتهى).

والجاه: القدر والمنزلة (والمكان الرفيع من طاعتك)، لعل المراد بالمكان المكانة والمنزلة. وبالرفعة العلو المعنوي و«من» ابتدائية أي رفعة مكانة بسبب إطاعتك أو تبعيضية أي له من درجات طاعتك منزلة رفيعة[٢].

والحديث هنا يلفت النظر إلى المكانة والدرجة ولسنا ندري خصوصية هذا الذكر مع أنّه في كل الأحوال أحد الملائكة المقربين، ولعله ليس أقربهم إلى الله وهذا يدفعنا إلى البحث عن سبب خصّه بهذه الصفات.

وجبرئيل من أعاظم الملائكة، وفي ساير روايات الصحيفة «جبرئيل» بالكسر أو بالفتح، وفيه أيضاً لغات، قال الزمخشري: قريء «جبرئيل» بوزن فقشليل و«جبرئل» بحذف الياء، و«جبريل» بحذف الهمزة و«جبريل» بوزن قنديل و«جبرالّ» باللام المشددة و«جبرائيل» بوزن جبراعيل، وجبرائل بوزن جبراعل (انتهى).

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٢١.

وقيل: معناه عبد الله، وقيل: صفوة عبد الله وقيل: صفوة الله وهو عليه السلام، حامل الوحي، إمّا على جميع الأنبياء أو إلى أولي العزم منهم، أو إلى بعض من غير أولي العزم أيضاً. «والمطاع في أهل سماواتك» أي هم جميعاً يطيعونه بأمر الله، والفقرتان إشارتان إلى قوله تعالى: ﴿ *مطاع ثمّ أمين* ﴾[1].

«المكين لديك» المكين: ذو المكان والمنزلة. و«لدى» ظرف مكان بمعنى «عند كلدن، إلاّ أنهما أقرب مكاناً من عند» وأخصّ منه فإن عند يقع على مكان وغيره، تقول «لي عند فلان مال» أي في ذمّته، ولا يقال ذلك فيهما.

«والروح الذي هو على ملائكة الحجب، قد مرّ ذكر الحجب ويدلّ على أن الروح رئيس الملائكة الموكّلين بالحجب والساكنين فيها، والظاهر أنه شخص واحد موكّل بالجميع، ويحتمل أن يكون اسم جنس، بأن يكون لملائكة كلّ حجاب رئيس يطلق عليه الروح»[2].

«الروح الذي هو من أمرك» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ *ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي...* ﴾[3] وظاهر هذه الفقرة أن الروح من جنس الملائكة أو شبيه بهم ذكر بينهم تغليباً لا الروح الإنساني. واختلف المفسّرون فيه كما سيأتي في باب النفس والروح، فقيل: إنّه روح الإنسان وقيل أنه جبرئيل وظاهر الدعاء المغايرة. وقيل: إنه ملك من عظماء الملائكة وهو الذي قال تعالى: ﴿ *يوم يقوم الرّوح والملائكة صفّاً...* ﴾[4] وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن له سبعين ألف وجه، لكلّ وجه سبعين ألف لسان، لكلّ لسان سبعون ألف لغة يسبح الله بتلك اللغات كلّها، يخلق الله تعالى بكلّ تسبيحه ملكاً يطير مع الملائكة

---

(١) سورة التكوير: ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢١.

(٣) سورة الإسراء: ٨٥.

(٤) سورة النبأ: ٣٨.

إلى يوم القيامة، ولم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبلع السماوات والأرضين السبع بلقمة واحدة لفعل. والجواب حينئذٍ أنّه من غرايب خلقه تعالى وقيل: خلق عظيم ليس من الملائكة وهو أعظم قدراً منها وهذا أظهر من سائر الأخبار كما رواه الكليني وعليّ بن إبراهيم والصفّار وغيرهم من الأسانيد الصحيحة، عن أبي بصير: قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ قال: خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة عليهم السلام وهو من الملكوت. وروى الكليني بإسناده، أنّه أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح: أليس هو جبرائيل؟.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: جبرئيل من الملائكة، والروح غير جبرئيل فكرر ذلك على الرجل فقال له: لقد قلت عظيماً من القول ما يزعم أحد أنّ الروح غير جبرئيل. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام إنك ضال تروي عن أهل الضلال، يقول الله عزّ وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿**وَيُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ**﴾ والروح غير الملائكة. وقد مرت الأخبار في ذلك. فذكره عليه السلام الروح في دعاء الملائكة إمّا تغليباً كما عرفت، أو بزعم المخالفين تقيّة ﴿**وعلى الملائكة الذين من دونهم**﴾ أي بحسب المكان الظاهري، لأن السابقين كانوا حملة العرش والكرسي والساكنين فيهما، وفي الحجب وتلك فوق السماوات السبع، أو بحسب المنزلة والرتبة أو بحسبهما معاً[1].

وهنا يشير إلى بعض صفات جبرائيل عليه السلام فمعنى اسمه كما جاء صفوة الله وهو من أعاظم الملائكة وربما هو أعظمهم وهو الذي يحمل الوحي ولا يردّ ذكر هل أنه خاص به أم مع ملائكة آخرين. أما وصفه بالطاعة فلسنا

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٢.

ندري هل أنه مطاع من جميع أهل السماء أم أنّه هو مثل باقي الملائكة رئيس على جماعة منهم؟ كما جاء ذكر إسماعيل الذي ورد ذكره في حديث المعراج. والمكين ذو المكانة عند الله.

وهنا يرد ذكر الروح على أنه مخلوق خاص ليس جبرئيل ولا الملائكة، وهذا يفهم من سياق الدعاء بوضوح لأنّه أفرد الملائكة بالذكر بعد الإشارة إلى الروح. ولكنه وقد ورد ذكره في عدة آيات كما في ﴿ *فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً* ﴾[1] وهنا هو غير المقصود (بالروح من أمر ربّك) ولعل في ذكره بصورة مستقلة ﴿ *يوم يقوم الرّوح والملائكة صفّاً* ﴾[2] وإذا صدق كونه من غير الملائكة فإن هذا يعني أن هناك مخلوقات لله أعظم من خلق البشر والجن والملائكة وكما نعلم أن الجن والإنس كانوا معاً مع الملائكة لو أنهما لم ينفذا ما قطعوا عليه في عهد الطاعة، ولهذا فإن عالم الغيب يمكن أن يضم أجناساً من المخلوقات المختلفة وبناءً على الرواية المنقولة فإن الروح غير الملائكة.

وهكذا ينفتح أفق آخر لوجود كائنات أخرى غير الروح وعوالم أخرى في عالم الغيب وربما في عالم الشهود.

«وأهل الأمانة على رسالاتك» يدلّ على عدم انحصار التبليغ في جبرئيل عليه السلام فيمكن أن يكون نزولهم على غير أولي العزم أو إليهم أيضاً نادراً كما يدل عليه بعض الأخبار أو المراد بهم الوسائط بينه تعالى وبين جبرئيل، كالقلم واللوح وإسرافيل وغيرهم كما مرّ، وفي بعض الأخبار القدسية عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرئيل، عن ميكائيل، عن اسرافيل، عن اللوح، عن القلم، عن الله عز وجل. أو المراد بهم الرسل إلى ملائكة السحاب والمطر والعذاب والرحمة وغيرهم من الملائكة الموكلين بأمور العباد، والملائكة

---

(١) سورة مريم: ١٧.

(٢) سورة النبأ: ٣٨.

الحافظين للوّحين الذين أثبت فيهما جميع الكتب السماوية، أو الذين ينزلون على الأنبياء والأوصياء في ليلة القدر[١].

«والذين لا تدخلهم سأمة من دؤوب ولا إعياء من لغوب ولا فتور» السأمة الملالة والتضجر، والدؤوب التعب والاعياء والعجز، واللغوب أيضاً الإعياء، ومنه قوله: ﴿ *وما مسّنا من لغوب* ﴾[٢] ويمكن الفرق باختلاف مراتب التعجب والعجز، وهذه الفقرة إمّا تعميم بعض التخصيص، فإن هذا وما سيأتي حال جميع الملائكة، فتشمل ملائكة الأرض أيضاً، بل ملائكة الحجب والعرش والكرسي، أو تخصيص بعد التعميم لذكر بعض الصفات الظاهرة الاختصاص بالبعض فيما بعد، ولا ينافي عموم هذه الصفات، لأنّها كمال لهم أيضاً، ومجموع الصفات مختصة بهم، أو يكون العطف التفسير لبيان بعض الصفات الأخر الثابتة لهم ولذكر ما يستحقون به الصلاة من الفضائل[٣].

«ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات» أي ليست لهم شهوة حتى تشغلهم «ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات» إضافة السهو إلى الغفلات من قبيل إضافة المسبّب إلى السبب. أو الجزء إلى الكلّ، أو بيانيّة أي لا يمنعهم عن ذكر عظمتك، أو العبادات المستلزمة لتعظيمك السهو الحاصل من الغفلات، أو السهو الذي هو من جملة الغفلات، أو هو عينها «الخشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك». (في النسخ المشهورة: «فلا يرمون النظر إليك») والخشوع: الخضوع، وخشوع العين: التذلّل بها وعدم رفعها عن الأرض أو غمضها، والروم: الطلب ولعلّ المراد أنّهم ينظرون إلى جهة

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٣.

(٢) سورة ق: ٣٨.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

أقدامهم حياءً أو خوفاً أو إلى الجهة التي جعلها الله قبلتهم ولا يرفعون أبصارهم إلى جهة العرش ويحتمل أن يكون المراد النظر القلبي أي لا يتفكّرون في كنه ذاتك وصفاتك، وما لا يصل إليه عقولهم من معارفك «النواكس الأعناق» الذين قد طالت رغبتهم فيما لديك في أكثر الروايات «النواكس الأذقان» وعلى التقديرين هو أن يطأطئ رأسه وهو أزيد تذللاً من الخشوع، والمراد بما لديه الدرجات العالية المرتفعة، ويحتمل أن يكون لهم بعض اللذات غير الطعام والشراب. والظاهر أن الوصفين لطائفة مخصوصة من الملائكة كما مر في خبر المعراج، ويحتمل التعميم.

وأهل الأمانة على رسالاتك كما يبدو أنهم طائفة من الملائكة تتميز عن سواها ولعلّ المقصود هنا احتمالات هي: أولاً: أنهم هم الذين يحافظون على رسالات الله قبل أن يولد الأنبياء. وقبل أن يبعثوا وهذا يعني أنهم حفظة على اللوح المحفوظ، ولعله اسمه المحفوظ لأن هؤلاء يحفظونه وهناك احتمال أيضاً أنّهم كما جاء في بعض الأحاديث أنّهم الذين يرافقون السورة النازلة من اللوح المحفوظ (بيد جبرائيل ﷺ) وحتى تصل إلى النبي أو أنهم الذين يحفظونها حتى يبلغها النبي إلى الناس وهناك احتمال ثالث هم الذين يحملون الوحي كما جبرائيل ﷺ.

والاحتمالات هذه كلها تدخل في إطار مهام هذه الطبقة من الملائكة ثم إنّهم لا يسأمون وهذه صفة عامة للملائكة كما ورد ولكنها لعلّها هنا أكثر بروزاً في هؤلاء من سواهم ولذلك جاء الوصف خاصاً بهم وكما ورد في الإشارة السابقة، أما بالنسبة للشهوة فهنا يوجد احتمالان: الاحتمال الأول: هو أنّهم لا توجد لديهم شهوة أصلاً، أو أن شهوةً كالبشر ليست لديهم من قبيل شهوة الطعام أو النساء وعلى هذا المعنى أنّه لديهم شهوات ولكنها تختلف فهم مثلاً لديهم شهوة فيشتهون العلم ويرغبون فيه أو يرغبون بأن

يطيروا في أجواء السماء وسوى ذلك مما ترغب به هذه المخلوقات وهنا ستكون هذه الشهوات محكومة بإرادة فلا تتغلب عليها فتشغل هؤلاء عن التسبيح، وقد وردت لدينا أحاديث تشير إلى وجود رغبة لدى الملائكة في البقاء إلى جانب أخ فتشفع بالإمام إلى الله وهذا يعني وجود رغبة من نوع خاص لديهم ولكنها لا تفارقهم فيقصروا في التسبيح أو يغفلوا عنه أو أنهم أصلاً بلا شهوة فلا ينشغلون عن التسبيح كما أن الغفلة تعني الاستغراق في عمل معين فلا يلتفت الإنسان إلى سواه، ولعلّ مصلحة تفوت أثناء الغفلة وهذا يعني أن حس الملائكة يتمايز بنوع من اليقظة، والقدرة على أداء أكثر من فعل بنفس الكفاءة ولذلك فإن الملائكة وهم يراقبون الإنسان يستطيعون التسبيح بنفس الكفاءة وهم يعظمون الله فيخشعون، ولعل الإشارة بعدم رمي الطرف لإبراز مستوى الخضوع من خلال التشبيه لأن رمي الطرف إلى مكان والله ليس في مكان كما يفعل الإنسان في الأطراف إلى موضع السجود في الصلاة ونفس الشيء بالنسبة لنكس العنق وطول الرغبة تؤكد مذهبنا السابق.

(المستهترون) بصيغة المفعول قال الجوهري: فلان مستهتر بالشراب أي مولع به لا يبالي ما قيل فيه. والآلاء: النعم واحدها «ألى» بالفتح وقد يكسر مثل معي وأمعاء، أي هم ـ ملتذّون حريصون في ذكر نعمائك الظاهرة والباطنة عليهم وعلى غيرهم. «والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك» التواضع: التذلّل، و«دون» معناه أدنى مكان من الشيء، ثم استعمل بمعنى قّدام الشيء وعنده وبين يديه مستعاراً من معناه الحقيقي وهو ظرف لغو متعلق بمتواضعين، والجلال والكبرياء: العظمة والعطف والإضافة للتأكيد والمبالغة، ويمكن أن يخصّ العظمة بالذات والكبرياء بالصفات «والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك» قال الجوهري: الزفير اغتراق النفس للشّدة، والزفير أول صوت الحمار، والشهيق آخره. وقال الفيروز

آبادي: زفر يزفر زفراً وزفيراً: أخرج نفسه بعد مدّه إيّاه، والنار سمع لتوقدّها صوت (انتهى) أي إذ سمعوا زفير جهنّم على العاصين خافوا من أن يكونوا مقصرين في العبادة. فقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، أي ننزّهك تنزيهاً عن كون عباداتنا لائقة بجنابك، فإنّهم لما رأوا شدة عقوباته تعالى ـ نظروا إلى أنفسهم وأعمالهم وإلى عظمته وجلاله فوجدوا أعمالهم قاصرة عمّا يستحقه سبحانه ففزعوا إليه واعترفوا بالتقصير، ولجؤوا إلى رحمته وعفوه وكرمه أو أنه لّما طرأ عليهم الخوف عند سماع صوت العذاب. وكان ذلك مظنة أن يكون خوفهم من أن يعاقبهم ظلماً من غير استحقاق لعصمتهم نزّهوه تعالى عن أن يكون الخوف منه من تلك الجهة، وعلّلوا الخوف بالتقصير فيما يستحقه من العبادة.

قال الوالد ﵀: يمكن أن يكون قولهم ذلك للتعجب من مخالفتهم حتى استحقوا العذاب أو من الصوت المهول على خلاف العادة، فهذا توبة لهم من المكروه، ويمكن أن يكون ذلك على سبيل الشفاعة لهم بأن ضمّوا أنفسهم مع العاصين، فكأنّهم يقولون: نحن وهم مقصرون في عبادتك فارحمنا وإيّاهم.

«فصلّ عليهم» يمكن أن يكون خبراً أو كالخبر لقوله ﵇: «والذين لا تدخلهم» مع ما عطف عليه وأن يكون الموصول في محل الجرّ عطفاً على «سكان سماواتك» ويكون قوله «فصّل» تأكيداً للسابق وتمهيداً لأن يعطف عليهم غيرهم وعلى هذا يكون قوله «الخشع» و«المستهترون» مرفوعين على المدح[1].

والمستهترون معناها الولع وهو غالباً فيه إشارة إلى الرغبة فيكون المعنى أنّهم مولعون بذكر الله متلذذون به، وهنا أيضاً يؤكد المذهب السابق فهناك

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

رغبة ولكنها رغبة في ذكر الله وفي ذكر نعمائه وآلائه. وهم في ولعهم هذا وقربهم ينظرون إلى أنفسهم نظرة العبد الذليل إلى ربه لعلمهم أنّهم صغار أمام عظمة الباري.

أما بالنسبة لرؤيتهم جهنم فهذا يدل على خوفهم من العقاب وأن عبادتهم ليست كافية لتجنبهم العذاب ومعناه أنهم يتوقعون أن يطالهم العذاب أم أنّهم حين علموا أنّهم لا يطالهم العذاب، علموا أن نجاتهم كانت بمنّة من الله تعالى وليست بعبادتهم لأنّها ليست بالدرجة اللائقة بجلال الله، واستحقاق النجاة من نار جهنم فضلاً عن أن جهنم موجودة بالفعل وليست أنها سيخلقها الله يوم القيامة. أو أنّهم يرون المستقبل متجسداً للملكة خاصة بهم حيث يتداخل هناك الزمن لأنّه زمن واحد ولا يتبع نفس النظام الذي نراه في عالمنا وهذه قضية ملفتة للنظر وتحتاج إلى بحث وهذا معناه إمكان وجود الشيء في المستقبل والحاضر في آن واحد.

فهؤلاء يدعو الإمام لهم بالرحمة والشفاعة والغفران من الزلات والهنات.

«وعلى الروحانيين، كأنّه نسب إلى الروح والروح، وهو نسيم الريح، والألف والنون من زيادات النسب، ويريد به أنّهم أجسام لطيفة لا يدركهم البصر (انتهى). وما قيل من أنّهم الجواهر المجرّدة العقلية والنفسية فهو رجم بالغيب وإنّما المعلوم أنّهم نوع من الملائكة: «وأهل الزلفة عندك» قال الجوهريّ: الزلفة والزلفى: القرب والمنزلة (انتهى). وهو إمّا صفة أخرى للروحانيّين، أو طائفة أخرى غيرهم. «وحملة الغيب إلى رسلك والمؤتمنين على وحيك» في أكثر النسخ «وحمال الغيب» والحمال جمع الحامل، والغيب يطلق على الخفي الذي لا يدركه الحسّ ولا يقتضيه بديهة العقل، وهو

قسمان: القسم الأوّل لا دليل عليه وهو المعنى بقوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...﴾(١) وقسم نصّب عليه دليل كالصانع وصفاته واليوم الآخر وأحواله كذا وذكره البيضاويّ. والمراد هنا إمّا الأعمّ أو الأوّل، «المؤتمنين» إمّا تأكيد أو عطف تفسير لسابقه، أو المراد بهم طائفة أخرى شأنهم تبليغ الأحكام والشرائع فقط، أو مع الثاني إن حملنا الأولى على الأول، والظاهر أن هاتين الفقرتين مؤكدتان لما سبق من قوله «وأهل الأمانة على رسالتك» ويمكن تخصيص ما سبق ببعض المعاني التي ذكرناها هنا وهاتان بالبعض الآخر، إذ يمكن أن يكون لحمل الغيب طائفة مخصوصة كملائكة ليلة القدر وغيرهم، والأول أظهر، وتكرير المطلب الواحد بعبارات مختلفة في مقام الدعاء والخطب والمواعظ ممّا يؤكّد البلاغة»(٢).

وهنا أيضاً احتمال أنّهم طائفة خاصة أكثر شفافية من جميع الملائكة أو أنّهم ليسوا منهم وخلق خاص كما في الروح ولذلك وصفوا بأنّهم روحانيون نسبة إلى الروح أم أنّهم ملائكة يرتبطون بالروح التي وصفها الله بأنّها من أمر ربّك وهذا يؤكد أن الملائكة هم أقرب طبقات الخلق إلى الله لأنّهم أيضاً مسؤولون عن الروح ولعلّها غير النفس التي وصفها الله في آيات ﴿أن اقتلوا انفسكم أواخرجوا من دياركم﴾(٣).

«وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك» القبائل جمع القبيلة وهي الشعوب المختلفة، والكلام في التأكيد والتأسيس كما مرّ، والمراد بالاختصاص به تعالى أنّهم مشغولون بعبادته بخلاف ما سيأتي ممّن له شغل

---

(١) سورة الأنعام : ٥٩ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٢٥.

(٣) سورة النساء: ٦٦.

في النزول والعروج وسائر الأمور، وإن كانت هذه الأمور أيضاً عبادة لهم، أو أنّهم سبحانه يطلعهم على أسرار لم يطلع عليها غيرهم من الملائكة.

«وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك» أي خلقتهم خلقة لا يحتاجون في بقائهم إلى الغذاء، وكما أنّا نتقوّى بالغذاء فهم يتقوّون بتسبيحه وتقديسه وعبادته.

«وأسكنتهم بطون أطباق سماواتك» الأطباق جمع طبق، يقال: السماوات أطباق وطباق، أي بعضها فوق بعض. قال الراغب: المطابقة هو أن يجعل الشيء فوق آخر بقدره ومنه: طابقت النعل، ثمّ يستعمل الطباق في الشيء، الذي يكون فوق الآخر تارة وفي ما يوافق غيره تارة كسائر الأشياء الموضوعة لمعنيين ثم يستعمل في أحدهما دون الآخر كالكأس والراوية ونحوهما، قال الله تعالى: ﴿...*سبع سماوات طباقاً*...﴾[1] أي بعضها فوق بعض (انتهى) ويدل على الفرجة بين السماوات وكونها مساكن الملائكة كما مرّ.

«والذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك» إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿***انشقت السّماء فهي يومئذٍ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية***﴾[2] قال الطبرسي رحمه الله: «على أرجائها» معناه على أطرافها ونواحيها والملك اسم يقع على الواحد والجمع، والسماء مكان الملائكة، فإذا وهت صارت في نواحيها، وقيل: إن الملائكة على جوانب السماء تنتظر ما يؤمر به في أهل النار من السوق إليها، وفي أهل الجنة من التحية والتكرمة فيها (انتهى) وقيل: إنّه تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان وانضواء أهلها إلى أطرافها وحواليها، ولفظة «إذا» ظرفيّة للمستقبل، والباء صلة للأمر، ويحتمل

---

(١) سورة الملك : ٣.

(٢) سورة الحاقة : ١٦ ـ ١٧ .

السببيّة، وتمام الوعد تمام مدّة الدنيا وانقضاؤه وحلول القيامة، أو المراد إتمام ما وعد الله من الثواب والعقاب للمطيعين والعاصين، وكلمة «هم» ليست في الروايات المشهورة[1].

ولعلّ الحديث هنا يشير إلى تراتب في ذكر الملائكة وأنّه ذكرهم بحسب مقاماتهم فوصل إلى «قبائل الملائكة» الذين هم عموم الملائكة والذين اختصّهم الله لنفسه، وهؤلاء مكلفون بوظائف أكثر خصوصيّة لله مع أن جميع الملائكة هم ممن اختصّهم الله لكن يحتمل أن يكون هؤلاء لا علاقة لهم بالخلق وهذا طبعاً سراً من الأسرار لم يرد له ذكر.

وهنا ذكر استغنائهم عن الطعام والشراب وهذا الاستغناء طبعاً ليس خاصاً عن بقية الملائكة ولكن بذكر التقديس فلعله إشارة إلى خصوصية أخرى سوى أنّهم يتغذون بنسيم العرش أو أنّه ترابط بين الاثنين، فكأن التقديس يساهم بوصول نسيم العرش وهو ليس طعام كطعام البشر ولا شرابهم.

(وأسكنتهم بطون أطباق سماواتك) فهذه العبارة تشير إلى أنّهم عموم الملائكة، لأنّه يتطابق مع الأوصاف التي مرّت وهؤلاء بدورهم أيضاً ليسوا طبقة واحدة.

ثم يشير إلى طبقة خاصة من هذا العموم، وهم الذين على أرجائها فكأن هؤلاء المكلفون بطي السماء كطي السجل للكتب، كما ورد في ذكر القيامة والذي يقوم بهذا الأمر هم هؤلاء الطبقة وهذا يلفت النظر إلى أن المكان ليس من خصائص العالم الآخر بالمفهوم المعروف لدينا، كما أن الوجود لا يرتبط بالمكان لأنّه حين تنطوي السماء فكيف يبقى الملائكة وهذا قد يعيد النظر

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٦ - ٢٢٧.

بطبيعة الملائكة، ويلفت النظر إلى أن النور الذي خلق فيه ليس من النور الذي نعرفه لأن هذا النور يرتبط بهذا العالم الذي يعدّ من أهم أبعاده الزمان والمكان.

«وخزّان المطر» أي الملائكة الموكلين بالبحر الذي ينزل منه المطر كما يظهر من بعض الأخبار، أو الموكلين بتقديرات الأمطار، أو الذين يهيّجون السحاب بأمره تعالى ولو كان من بخارات الأرض والبحار كما هو المشهور، فيكون قوله: «وزواجر السحاب» عطف تفسير له، أي سائقتها من «زجر البعير» إذا ساق، وبه فسّر قوله تعالى: ﴿ ***والزاجرات زجراً*** ﴾ كما مرّ، والسحاب: جمع السحابة، وهي الغيم «والذي بصوت زجره يسمع زجل الرعود» قال في النهاية: في حديث الملائكة: «لهم زجل بالتسبيح» أي صوت رفيع عال. وفي القاموس: الرعد صوت السحاب، أو اسم ملك يسوقه كما يسوق الحادي الإبل بحدائه (انتهى) والرعد هنا يحتمل الوجهين، وإن كان كونه اسماً للملك أظهر وصيغة الجمع هنا تدل على أن الرعد اسم لنوع هذا الملك إن كان اسماً له، وإضافة الزجل إلى الرعود، بيانيّة إن أريد به الصوت، ولاميّة إن أريد به الملك[1].

«وإذا سبحت به خفيفة السحاب التمعت صواعق البروق» أقول: النسخ مختلفة في هذه الفقرة اختلافاً فاحشاً، ففي بعضها: «سبّحت بتشديد» الباء، وفي بعضها بتخفيفها، و«خفيفة» في بعضها بالحاء المهملة والفائين، وفي بعضها بالخاء المعجمة ثمّ الفاء ثمّ القاف وفي بعضها بالمهملة ثمّ الفاء ثم القاف. والسبح الجري والعوم. والخفيف أنسب، وعلى التشديد يحتمل أن يكون إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ***هو الذي يسبح الرعد بحمده*** ﴾ قال الفيروز آبادي:

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

سبح بالنهر وفيه كمنع سبحاً وسباحة بالكسر عام، وأسبحه عوّمه، وسبحان الله تنزيهاً له عن الصاحبة والوالد، ونصبه على المصدر أي أبرئ الله من السوء براءة، أو معناه السرعة إليه والخفة في طاعته، وقال: حف الفرس حفيفاً سمع عند ركضه صوت، وكذلك الطائر والشجرة إذا صوّتت. وقال: الخفق صوت النعل، وخفقت الراية تَخفق وتُخفق خفقاً وخفقاناً ـ محرّكة ـ: إذا اضطربت وتحركت، خفق فلان: حرك رأسه إذا نعس، والطائر: طار، والخفقان ـ محركة ـ: اضطراب القلب، وأخفق الطائر: ضرب بجناحيه. وفي النهاية: خفق النعال صوتها. وأمّا المهملة ثم الفاء ثم القاف كما كان في نسخة ابن إدريس بخطّه فلم أجد له معنى فيما عندنا من كتب اللغة، ولعلّة من طغيان القلم. وفي الصحاح: لمع البرق لمعاً ولمعاناً أي أضاء، والتمع مثله. ولا يخفى أنّ هذه الفقرة من تتمة الكلام السابق، وليس وصف الملك الآخر وضمير «به» إمّا راجع إلى الملك، أو إلى زجره، أو إلى الزجل والباء للمصاحبة أو للسببية وإضافة الخفيفة إلى السحاب على التقادير من إضافة الصفة إلى الموصوف والتأنيث باعتبار جمعية السحاب، وإذا حمل على المصدر فإسناد السبح إليه مجازي أو هو مؤوّل بذات الخفيفة. وعلى المعجمة والفائين أي السحاب الخفيفة سريعة السير، والحاصل على التقادير: إذ زجرت بسبب الملك أو زجره أو صوته السحاب ذات صوت أو الاضطراب أو نار تسقط من السماء، وصعقتهم السماء كمنع صاعقة مصدراً كالراعية أصابتهم بها (انتهى).

في رواية ابن شاذان: وإذا ساق به متراكم السحاب التمعت صواعق البروق[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

ويشار في هذا المقطع إلى أن المطر يمكن قبل كل شيء أن ينزل بمقدار ووفق حساب وليس أنّه مخزون في مكان بل إنه يمكن أن يوجه في مقداره وكمية نزوله ومكان نزوله من قبل الملائكة وهم أيضاً فئة مكلفة بهذا الواجب، وبنفس الطريقة فإن زجر السحاب يعني توجيهه إلى مناطق دون أخرى، والرعود هي أصوات تجمّع المطر وتراكمه قبل نزوله وهي عملية موجهة من قبل الملائكة.

وهكذا يشير الدعاء إلى إشراف كامل من قبل الملائكة على المطر، وهو أهم عملية حيوية تحيا بها الأرض وبالتالي معها الأحياء بمجموعها فضلاً عن ممارسة العبادة إلى جانب هذه العملية الهامة.

فإذن هذا تفصيل لمهام القبائل من الملائكة ومقاماتهم.

«ومشيّعي الثلج والبرد والهابطين مع قطر المطر إذا نزل» أي إذا نزل المطر إلى الأرض لا عند نزوله إلى السحاب، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى كل من الثلج والبرد والمطر لكنه بعيد. وقال الوالد: الظاهر أنه عليه السلام أراد بقوله: «إذا نزل» العموم، أي كلّما نزل، ليفيد فائدة يعتّد بها، وتغيير العبارة في التشييع والهبوط إمّا لمحض التفنّن، أو لأن الغالب في الثلج والبرد في أكثر البلاد أنّهما للضرر، فلم ينسب الضرر إليهم صريحاً بخلاف المطر.

وأقول: يمكن على ما سيأتي في الخبر أن البرد ينزل من السماء إلى السحاب فتذيبه حتّى تصير مطراً، أن يكون إشارة إلى ذلك، فإنّ الثلج والبرد يشايعونهما من أول الأمر بخلاف المطر، فإنّهم يهبطون معه بعد الذوبان، أو يقال: النكتة إسناد الخير إلى الله والضرر إليهم، لأنّ في التشييع نوع معاونة بخلاف الهبوط[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

وهنا يشير الحديث إلى أمر غاية في الدقة وهو أن الثلج والمطر عندما ينزل فإنه ينزل بصحبة الملائكة دون أن يوضح ما العلّة في هذا التشييع، وإذا جاز لنا أن نتصوّر علة لمثل هذا الأمر فإننا يمكن أن نفترض وجود فائدة ومصلحة معقولة لأي فعل من أفعال الملائكة، لأن الله لا يعبث ولا عبث في الكون لهذا فإن هذه الفائدة يمكن أن تكون عبارة عن التحكم في مسار الثلج والبرد والقطر ولسنا ندري إن كان لنقطة سقوطه على الأرض أهمية الحفاظ على وجه التربة وبنائها أو لا؟.

ومن المعلوم أن الزجر واختيار مكان النزول فعل الملائكة من السماء وهي قضيّة سابقة على النزول، وينحصر عمل هؤلاء الملائكة بمرافقة الثلج والمطر إذا نزل من السحب إلى الأرض ويمكن أن نتصور أن السبب يكون في عدم السماح باندماج قطرات المطر بكتل أكبر وكذلك بالنسبة للثلج لأن هذا يؤثر على وجه التربة ويضر بالزرع بسبب الزخم المتولد عن نزوله وهو وزن القطرة مضروب بالتعجيل الأرضي.

«القوام على خزائن الرياح» القوّام جمع قائم ككفار وكافر. أي الحافظين لها في خزائنها لها قدر الحاجة بأمره تعالى، ويمكن أن يكون كناية لها عن كون أسبابها بيدهم، وقيل: كلّ ما ورد في الكتاب الكريم الرياح بلفظ الجمع فهو في الخير كقوله تعالى: ﴿ ***ومن آياته ان يرسل الرّياح مبشرات*** ﴾[1] وكلّما كان بلفظ المفرد فهو للشرّ كقوله سبحانه: ﴿... ***إذ أرسلنا عليهم الرّيح العقيم*** ﴾[2] وأقول: إذا اطّردت القاعدة في تلك العبارة فالنكتة في تخصيص الخير بالذكر ظاهرة.

---

(١) سورة الروم : ٤٦ .

(٢) سورة الذاريات : ٤١ .

«فلا تزن» أي الجبال بسبب حفظ الموكَّلين لها، أو هم دائماً فيها لا يزولون عنها، والأول أظهر. «والذين عرَّفتهم مثاقيل المياه» المياه جمع الماء، وأصلها «ماه» وقيل «موه» لهذا يردّ إلى أصله في الجمع والتصغير، فيقال «مياه» و«مويه» و«أ مواه» وربّما قالوا «أمواء» بالهمزة، وماهت الركيّة كثر ماؤها «وكيل ما تحويه» أي مقدار ما تجمعه وتحيط به «لواعج الأمطار» أي شدائدها ومضرّاتها «وما تحزن النبات وتخرب الأبنية» كما أفيد «وعوالجها» أي متراكماتها. قال السيّد الداماد رحمه الله: اللواعج جمع لاعجة أي مشتداتها القوية. يقال: لاعجه الأمر إذا اشتدّ عليه، والتعج من لاعج الشوق ولواعجه ارتمض واحترق، وضرب لاعج أي شديد يعلج الجلد أي يحرقه. وكذلك «عوالجها» جمع عالج يعني متلاطماتها ومتراكماتها، وفي الحديث: إنّ الدعاء ليلقي البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة. يعني أنّ الدعاء في صعوده يلقى البلاء في نزوله فيعتلجان قال في الفائق: أي يصطرعان ويتدافعان وفي النهاية في حديث الدعاء: ما تحويه عوالج الرمال. هي جمع عالج وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض[1].

وخزائن أي أن الريح موجودة في حالة من الكمون ومخزونة وهؤلاء الملائكة هم الذين يتحكمون بها، لأنها يمكن أن تكون مدمرة كالأعاصير أو هادئة كالنسيم أو تسكن وهم أيضاً موكلون بالجبال فلا تزول وكميات الماء وكيل ما تحويه الأمطار. وهنا يمكن ملاحظة الترابط بين نزول المطر والجبال الذي ثبت علمياً أن السحاب تصطدم بالجبال فتهطل الأمطار كما أن أغلب المياه الجوفية تتواجد في المناطق الجبلية ولعل هؤلاء الملائكة يكونون مسؤولين عن عملية واحدة هي عملية نزول الأمطار التي ترتبط بالرياح وبالجبال كما

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٠ - ٢٣١.

فيه إشارة إلى أن جميع ذلك محدد المقادير. أن الملائكة يعلمون هذه الموازين، وهذا العلم يمكن أن يشكل تأثيراً في مجمل الإنزال النازل منها أو المخزون وتأثيره على الغير في حالة السقوط.

«ورسلك»: جمع الرسول «من الملائكة» بيان للرسل أو من للتبعيض، وقيل: إن الملك اسم مكان، والميم فيه غير أصلية بل زائدة، فالأصل «ملئك ولذلك يجمع على الملائك والملائكة» تقلت حركة الهمزة إلى اللام، ثم حذفت لكثرة الاستعمال، فقيل: ملك، وقال بعضهم: أصله مألك بتقديم الهمزة من الألوكة الرسالة فقلبت الهمزة مكاناً ثم حذفت في كثرة الاستعمال للتخفيف فقيل ملك، وجمع على الملائكة، وقد يحذف الهاء فيقال ملائك. «إلى أهل الأرض» متعلق برسلك «بمكروه ما ينزل» الباء للملابسة أو السببية، أي بالذي ينزل، وهو مكروه للطباع.

«من البلاء» بيان للمكروه والنازل، وإنّما سميّ المكروه النازل على العباد بلاء لابتلاء الله تعالى العباد وامتحانهم به هل يصبرون أم لا؟ وإن كان على المجاز «ومحبوب الرخاء» وهو أيضاً من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي الرخاء المحبوب، وقيل: الإضافة بيانيّة، والرخاء: النعمة، يقال: رجل رخي البال، أي واسع الحال، والمراد إمّا نزولهم لأصل حصول البلاء والرخاء وتسبب أسبابهما، أو للإخبار بهما في ليلة القدر وغيرها والسفرة الكرام البررة، السفرة كالكتبة لفظاً ومعنى، جمع «سافر» والسفر الكتاب، قال الجوهري: السفرة: الكتبة قال الله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾[1] وقد يظنّ أنّه جمع سفير، وهو المصلح بين الناس لكن الغالب في جمع السفير السفراء. والكرام: ضد اللئام وقيل: الكرام على الله الأعزاء عليه، وقيل: الأسخياء

---

(١) سورة عبس : ١٥ .

الباذلين الاستغفار للعباد مع تماديهم في العصيان. والبررة: الأتقياء، وقد مرّ الكلام فيها، والمراد هنا الملائكة الكاتبون للوحي، المؤدّون إلى غيرهم، أو الموكّلون باللوح المحفوظ. وقيل: هم الكاتبون لأعمال العباد، وما بعده تأكيد له، ولا يخلو من بعد، إذ التأسيس أولى من التأكيد، وأيضاً الظاهر أنّه إشارة إلى ما ورد في الآية، وهي في سياق وصف القرآن كما عرفت سابقاً. ينفي هذا الدعاء ما مرّ من الأقوال في الآية سوى القول بأنّهم الملائكة[1].

وهؤلاء أيضاً صنف خاص من الملائكة ينزلون بالبلاء على أهل الأرض سواء كان بلاءً خير أم بلاء شر وهذا يعني وجود نظام خاص لنزول البلاء ويمكن أن نتصور إدارة خاصة وإشرافاً كما مرّ وهناك فئة مختصّة بنزول بلاء الخير وفئة مختصة بلاء الشر وتبعاً لما بينته الأحاديث من سلوكيات وعبادات وحسنات وسيئات فضلاً عن المصالح الكونية التي يتقرّر تبعاً لها نزول البلاء.

والإشارة هنا إلى وجود الحسابات الدقيقة في تقدير جميع شؤون الإنسان وهذا الصنف هم الرسل النازلون بالبلاء.

أما السفرة فهم الذين يحملون الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام وقد مرّ ذكر طائفة منهم ولسنا ندري هنا تكراراً أم هم صنف جديد وسفارتهم هي غير تلك السفارة أم هي نفسها؟.

«والحفظة الكرام الكاتبين» إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿ *وإنّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون* ﴾[2] وقال الطبرسي رحمه الله: وإنّ عليكم لحافظين من الملائكة يحفظون عليكم ما تعملون من الطاعات والمعاصي، ثم وصف الحفظة فقال: كراماً على ربّهم كاتبين يكتبون أعمال بني آدم. ويدل على

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) سورة الانفطار : ١٠ ـ ١٢ .

تعددهم لكلّ إنسان قوله تعالى: ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد ❖ ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد** ﴾[(١)] ويدلُ كثير من الأخبار على أنّ ملائكة الليل غير ملائكة النهار، كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ **... إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾[(٢)] أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار والحكمة في خلقهم وتوكيلهم على العباد مع كونه سبحانه أعلم بهم منهم كثيرة قد مرّ بعضها في بعض الأخبار[(٣)].

وهؤلاء هم الصنف الذي تكرر ذكره في الأحاديث التي مرّت ومهمته هي حفظ الأعمال وكتابتها أو حفظ الإنسان أو أنها الحفظ بعمومه، حفظ الإنسان وحفظ أعماله وحفظه من الحوادث ولعل تأخر ذكرهم لا يعني أنّهم في رتبة أقل مما ورد ذكرهم وهو ما أشرنا إليه في بداية الحديث عن الدعاء.

«وملك الموت وأعوانه» اسم ملك الموت «عزرائيل» ويدلّ على أنّ له أعواناً كما دلت عليه الآيات والأخبار، فإنه تعالى قال: ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها** ﴾[(٤)] وقال سبحانه: ﴿ **قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم** ﴾[(٥)] وقال جل وعلاّ: ﴿ **توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون** ﴾[(٦)] وقال عزّ وجلّ: ﴿ **الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين** ﴾[(٧)] وقال تعالى: ﴿ **الّذين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم** ﴾[(٨)] وروى الصدوق في التوحيد أنّ أمير المؤمنين ﷺ قال في جواب الزنديق المدعى للتناقض في القرآن المجيد حيث سأل عن هذه الآيات: إن الله يدبّر الأمور

---

(١) سورة ق : ١٧ ـ ١٨

(٢) سورة الإسراء : ٧٨ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٢.

(٤) سورة الزمر : ٤٢.

(٥) سورة السجدة : ١١.

(٦) سورة الأنعام : ٦١.

(٧) سورة النحل : ٣٢.

(٨) سورة النحل : ٢٨.

القرآن المجيد حيث سأل عن هذه الآيات: إن الله يدبّر الأمور كيف يشاء ويوكّل من خلقه من يشاء، بما يشاء أما ملك الموت فإنّ الله عزّ وجل يوكله بخاصة من يشاء من خلقه، ويوكّل رسله من الملائكة خاصة بمن يشاء من خلقه تبارك وتعالى والملائكة الذين سماهم الله عز وجل يوكلهم بخاصة من يشاء من خلقه، والله تعالى يدبّر الأمور كيف يشاء وروى الطبرسي رحمه الله: هذا الخبر في الاحتجاج: والجواب فيه هكذا: هو تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن يتولى ذلك بنفسه، وفعل رسله وملائكته فعله، لأنّهم بأمره يعملون، فاصطفى جلّ ذكره من الملائكة رسلاً وسفرة بينه وبين خلقه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ *الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن النّاس* ﴾[1] فمن كان من أهل الطاعة تولت قبض روحه ملائكة الرحمة، ومن كان من أهل المعصية تولت قبض روحه ملائكة النقمة، ولملك الموت أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة النقمة يصدرون عن أمره، وفعلهم فعله، وكل ما يأتونه منسوب إليه، وإذا كان فعلهم فعل ملك الموت وفعل ملك الموت فعل الله لأنّه يتوفّى الأنفس على يد من يشاء، ويعطي ويمنع ويثيب ويعاقب على يد من يشاء وإن فعل أمنائه فعله كما قال: ﴿ *وما تشاءون إلّا ان يشاء الله* ﴾[2].

وروى الصدوق في الفقيه عن الصادق عليه السلام أنّه قال في ذلك: إنّ الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة، له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه فتتوفيهم الملائكة ويتوفيّهم ملك الموت عن الملائكة مع ما يقبض هو، ويتوفّاهم الله عز وجلّ عن ملك الموت[3].

---

(١) سورة الحج : ٧٥ .

(٢) سورة الإنسان : ٣٠ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٣٣.

وهنا إشارة صريحة إلى أن ملك الموت له أعوان وأنه ليس لوحده يقوم بعملية قبض الأرواح ولكنه يشرف على جميع هذه العمليات وكما ورد بالآية فإن ملك الموت موكل بهذه العملية ومعه هؤلاء الملائكة الذين يفعلون ما يأمرهم رئيسهم ولهذا يصدق أنّه هو الذي يقبض الأرواح لأن قبض الروح بأمره.

«ومنكر ونكير، ومبشر وبشير» الأخيران لم يكونا في أكثر الروايات، وأن الأسماء لملكين أو لنوعين من الملائكة يأتيان الميّت في قبره للسؤال عن العقائد، أو عن بعض الأعمال أيضاً، فإن كان مؤمناً أتياه في أحسن صورة فيسميّان مبشراً وبشيراً، وإن كان كافراً أو مخالفاً أتياه في أقبح صورة فيسميان منكراً ونكيراً، ويحتمل مغايرة هذين النوعين للأولين، لكن ظاهر أكثر الأخبار الإتحاد، ويؤيده ترك الآخرين هنا في أكثر الروايات، بل في أكثر الأخبار عبر عنهما بمنكر ونكير للمؤمن وغيره. وقد مضت الأخبار في ذلك، وتحقيق القول فيه فيمن يسأل وفيما يسأل عنه وكيفية الإحياء والسؤال[1].

وهذان هما من الملائكة الذين يرافقون الإنسان بعد الموت أي ملائكة عذاب وملائكة بشرى وهذا يعني أن كل مرحلة من وجود الإنسان يمارس الإشراف عليها طائفة من الملائكة فملائكة الموت غير ملائكة الحياة وملائكة العذاب غير ملائكة النعيم.

«ورومان فتان القبور» أي ممتحن القبور والمختبر فيها في المسألة، ولم أر ذكر هذا الملك في أخبارنا المعتبرة سوى هذا الدعاء، وهو مذكور في أخبار المخالفين روى مؤلف كتاب زهرة الرياض عن عبد الله بن سلام أنّه قال: سألت رسول الله عن أوّل ملك يدخل في القبر على الميت قبل منكر ونكير، قال ﷺ: يا بن سلام يدخل على الميت ملك قبل أن يدخل نكير ومنكر يتلألأ وجهه كالشمس اسمه «رومان» فيدخل على الميّت، فيدخل روحه ثم يقعده

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٤.

فيقول له: اكتب ما عملت من حسنة وسيئة. فيقول: بأي شيء أكتب؟ أين قلمي: وأين أدواتي؟ فيقول: قلمك إصبعك، ومدادك ريقك، اكتب. فيقول: على أي شيء أكتبه وليس معي صحيفة؟ قال: فيمزق قطعة من كفنه فيقول: اكتب فيها، فيكتب ما عمل من الدنيا من حسنة، فإذا بلغ سيئة، استحيى منه، فيقول له الملك: يا خاطئ أفلا كنت تستحيي من خالقك حيث عملتها في الدنيا والآن تستحي منّي؟ فيكتب فيها جميع حسناته وسيئاته، ثم يأمره أن يطويه ويختمه، فيقول: بأي شيء أختمه وليس معي خاتم؟ فيقول: اختمها بظفرك. ويعلقها في عنقه إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿ *وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه* ﴾[1] ثمّ يدخل بعد ذلك منكر ونكير وروى شاذان بن جبرئيل رحمه الله في كتاب الفضائل عن أصبغ بن نباته، قال: إن سلمان رضي الله عنه قال لي: اذهب بي إلى المقبرة، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي: يا سلمان! سيكلّمك ميّت إذا دنت وفاتك. فلمّا ذهبت به إليها ونادى الموتى أجابه واحد منهم، فسأله سلمان عما رأى من الموت وما بعده فأجابه بقصص طويلة، وأهوال جليلة، وردت عليه ـ إلى أن قال ـ: لما ودعني أهلي وأرادوا الإنصراف من قبري، أخذت في الندم فقلت: يا ليتني كنت من الراجعين! فأجابني مجيب من جانب القبر: كلاّ! إنـها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون، فقلت له: من أنت؟ قال: أنا «منبه» أنا ملك وكلني الله عزّ وجل بجميع خلقه لأنبههم بعد مماتهم ليكتبوا أعمالهم على أنفسهم بين يدي الله عزّ وجل، ثم إنّه جذبني وأجلسني وقال لي: اكتب عملك، فقلت: إني لا أحصيه، فقال لي: أما سمعت قول ربّك: ﴿ *أحصاه الله ونسوه* ﴾[2] ثم قال لي: اكتب وأنا أملي عليك فقلت: أين البياض؟ فجذب جانباً من كفني، فإذا هو ورق فقال: هذه

---

(١) سورة الإسراء : ١٣ .

(٢) سورة المجادلة : ٦ .

صحيفتك، فقلت: من أين القلم؟ فقال: سبّابتك، قلت: من أين المداد؟ قال: ريقك. ثم أملى عليّ ما فعلته في دار الدنيا، فلم يبق من أعمالي صغيرة ولا كبيرة إلا أملاها كما قال تعالى: ﴿ ***ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحداً*** ﴾[1] ثم أنّه أخذ الكتاب وختمه بخاتم وطوقه في عنقي فخيّل لي أن جبال الدنيا جميعاً قد طوّقوها في عنقي. فقلت له: يا منبه! ولم تفعل بي كذا؟ قال: ألم تسمع قول ربك: ﴿ ***وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً*** ﴾[2] فهذا تخاطب به يوم القيامة، ويؤتى بك وكتابك بين عينيك منشوراً تشهد فيه على نفسك. ثم انصرف عنّي - تمام الخبر - وإذا كان كذلك فمعناه أن هذا الملك يختم سجل الأعمال وتمنع عنه أي إضافة بعد الموت مباشرة.

قوله تعالى: ﴿ **والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ عطف تفسير لقوله: «مالك والخزنة» إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿ ***يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون*** ﴾[3]. «والذين يقولون» عطف تفسير لقوله: «رضوان وسدنة الجنان» فالنشر على ترتيب اللفّ، ويحتمل أن يكون هذا حال بعض سدنة الجنان، فيكون تخصيصاً بعد التعميم، كذكر الزبانية بعد خزنة النيران، وتقديم أحوال أهل النار فيهما لأنّ الخوف أصلح بالنسبة إلى غالب الناس من الرجال لغلبة الشهوات الداعية إلى ارتكاب السيئات عليهم (سلام عليكم) إشارة إلى قوله تعالى في وصف أهل الجنة : ﴿ ***والملائكة يدخلون عليهم***

---

(١) سورة الكهف : ٤٩ .

(٢) سورة الإسراء : ١٣ - ١٤ .

(٣) سورة التحريم : ٦ .

من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾[١] وقال البيضاوي: ﴿سلام عليكم﴾ بشارة بدوام السلامة ﴿بما صبرتم﴾ متعلق بعليكم أو بمحذوف، أي هذا بما صبرتم، لا بسلام فإنّ الخبر فاصل. والباء للسببية أو البدلية[٢].

﴿فنعم عقبى الدار﴾ العقبى: الجزاء، أي نعم العقبى عقبى الدار لكم خاصة أيّها المؤمنون. وروى الكليني وعلي بن إبراهيم بأسانيد معتبرة، عن أبي جعفر عليه السلام في وصف حال المتقين في القيامة وبعد دخولهم الجنة قال: ثم يبعث الله إليه ألف ملك يهنئونه بالجنة ويزوّجونه الحوراء. قال فينتهون إلى أول باب من جنانه، فيقولون للملك الموكّل بأبواب جنانه: استأذن لنا على وليّ الله فإن الله بعثنا إليه نهنئه. فيقول لهم الملك: حتى أقول للحاجب فيعلمه مكانكم، قال: فيدخل الملك إلى الحاجب وبينه وبين الحاجب ثلاث جنان حتّى ينتهي إلى أوّل باب فيقول للحاجب: إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العالمين ليهنأوا وليّ الله وقد سألوا أن آذن لهم عليه، فيقول الحاجب: إنّه ليعظم عليّ أن أستأذن لأحد على وليّ الله وهو مع زوجته الحوراء. قال: وبين الحاجب وبين ولي الله جنتان. قال: فيدخل الحاجب إلى القيّم فيقول له: إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم رب العزة يهنئون ولي الله فاستأذن، فيقدم القيم إلى الخدام فيقول لهم: إن رسل الجبّار على باب العرصة وهم ألف ملك أرسلهم الله يهنئون ولي الله فأعلموه بمكانهم، قال: فيعلمونه فيؤذن للملائكة فيدخلون على وليّ الله وهو في الغرفة ولها ألف باب، وعلى كل باب من أبوبها ملك موكل به، فإذا أذن للملائكة بالدخول على ولي الله فتح كل ملك بابه الموكّل به قال: فيدخل القيم كل ملك من باب من أبواب الغرفة، قال: فيبلّغونه رسالة الجبار عز وجل، وذلك

---

(١) سورة الرعد: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٦.

قول الله عزّ وجل: ﴿ *والملائكة يدخلون عليهم من كل باب* ﴾[1] أي من أبواب الغرفة ﴿ *سلام عليكم* ﴾ - إلى آخر الآية. قال: وذلك قوله عز وجل: ﴿ *وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً* ﴾[2] يعني بذلك ولي الله، وما هو فيه من الكرامة والنعيم، والملك العظيم الكبير أن الملائكة من رسل الله عز ذكره يستأذنون عليه فلا يدخلون عليه إلاّ بإذنه، فذلك الملك العظيم الكبير - الخبر[3].

وهكذا يتعاقب الوصف وكأنَ هؤلاء طبقة واحدة لم ينس منهم أحداً ولذلك ذكرهم جميعاً.

وفي رواية ابن شاذان: «ومنكر ورومان فتان القبور» وسائر الفقرات فيها بالرفع على سياقة صدر الدعاء «والطائفين بالبيت المعمور» قد مرّ وصف البيت وطائفيه «ومالك والخزنة» أي خزّان النار من الملائكة الموكّلين بها وبتعذيب أهلها ومالك رئيسهم. ورضوان بالكسر وفي بعض النسخ بالضم وهو اسم رئيس خزنة الجنان وخدمتها، والمشهور في الإسم الكسر والمصدر، وجاء بهما في القرآن واللغة «وسدنة الجنان» أي خدمتها، في القاموس: سدن سدناً وسدانة: خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة، فهو سادت والجمع سدنة[4].

ومع فئات هذه الطائفة التي ورد ذكرها في أكثر من حديث حيث يطوفون بالبيت المعمور ولعلّ هؤلاء هم طائفة خاصة من الملائكة عملهم الطواف ربّما لحراسة البيت أو الحفاظ عليه أو تعظيمه وتبجيله.

---

(١) سورة الرعد : ٢٣ .

(٢) سورة الإنسان : ٢٠ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٧ .

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٨.

وعند هؤلاء فإنّه يتطرق إلى ذكر طائفتين هم سدنة الجنان وخزان النار وهؤلاء رؤساؤهم مالك ورضوان وقد ورد وصفهم بالطاعة جميعاً مع العلم أنَ جميع الملائكة هم ممن لا يعصون.

مع أنّه بدأ بمالك وبخزنة جهنم وعقب على رضوان وسدنة الجنة ثم وصف الذين لا يعصون ويفعلون ما يؤمرون وكأنّهم طبقة بحد ذاتها وهم طبعاً الذين مع مالك من خزنة النار الذين وصفتهم الآية بالوصف الآنف ثم ذكر صفة سدنة أهل الجنة ثم عاد إلى ذكر أهل النار وهم الزبانية.

«الزبانية الذين إذا قيل لهم: خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه، الزبانية هم الملائكة التسعة عشر الموكّلون بالنار، وهم الغلاظ الشداد، قال الجوهري: الزبانيّة عند العرب الشرط وسميّ بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها، قال الأخفش: قال بعضهم: واحدها زبانيّ، وقال بعضهم: زابن، وقال بعضهم: زبنية مثال عفرية، وقال: والعرب لا تكاد تعرف هذا وتجعله من الجمع الذي لا واحد له: مثل أبابيل وعباديد. وقال: صليت اللحم وغيره أصليه صلياً مثل رميته رمياً إذا شويته. وفي الحديث: «إنّه أتي بشاة مصلية» أي مشوية. ويقال أيضاً: صليت الرجل ناراً إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنّك تريد الإحراق. قلت: أصليته بالألف وصليته تصلية. وقريء و«يصلى سعيراً» ومن خفف فهو من قولهم صلي فلان النار - بالكسر - يصلى صليّاً: احترق. ويقال أيضاً: صلي بالأمر، إذا قاسى حرّه وشدّته. «ابتدروه سراعاً» أي حال كونهم مسرعين جمع سريع «ولم ينظروه» أي لم يمهلوه[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٨.

ولربما كان الزبانية هم غير الخزنة مع العلم أن عملهم جميعاً مرتبط بالنار أو لعل هؤلاء عملهم من الحساب وحتى إدخاله في النار وأولئك يتولونه من دخوله إلى النار فما بعد.

((ومن أوهمنا ذكره)) أي الملائكة الذين تركنا ذكرهم على الخصوص وإنْ كانوا داخلين في العموم. قال الجوهري: أوهمت الشيء تركته كلّه، يقال: أوهم من السحاب مائة أي أسقط، وأوهم من صلوته ركعة ولم نعلم مكانه منك، أي منزلته عندك أو نسبته إلى عرشك ((وبأي أمر وكلته)) عطف على قوله ((مكانه)) والظرف متعلق بوكّلته قدّم عليه لمزيد الإهتمام، لأن المجهول هذا القيد لا أصل التوكيل، والمعنى: ولم نعلم توكيلك إياه بأي أمر من أمورك. وفيه بعض المنافاة لما يظهر من أكثر الأخبار من سعة علمهم عليهم السلام واطّلاعهم على جميع العوالم أو المخلوقات وأن الله أراهم ملكوت الأرضين والسماوات إلاّ أن يقال إنه عليه السلام قال ذلك على سبيل التواضع والتذلّل، أو المعنى لا نعلمهم من ظاهر الكتاب والسّنة وإن علمنا من جهة أخرى لا مصلحة في إظهارها، أو لا نعلم في هذا الوقت خصوص مكانه وعمله، فإنه لا استبعاد في عدم علمهم عليهم السلام ببعض تلك الخصوصيات الحادثة، أو قال عليه السلام ذلك بلسان غيره ممن يتلو الدعاء، فإنّه عليه السلام جمع الأدعية وأملاها لذلك، بل هو من أعظم نعمهم على شيعتهم عليهم السلام[1].

قد يظهر للمتأمل في هذا الدعاء أنّه تقريباً لم ينس أي جماعة أو فرد من الملائكة لم يرد ذكره. ولكن الرواية هنا قد تشير إلى أصناف من الملائكة لم يرد ذكرها في الأحاديث أو الآيات وفي هذا معنى أن الصورة التي نطلع عليها من جوانب الغيب صورة مقتضبة أشارت إلى أشياء وتركت أشياءَ

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

أخرى وهنا أيضاً، ولعله يظهر من جانب آخر أن هناك الكثير ممن لم يذكر كما أن هناك إشارة إلى المذكورين فهم ذوو مكانات خاصة أطلعهم الله عليها كما أن هناك وظائف أوكل به كل صنف من الملائكة ليؤديها.

وهكذا فإنّ من خصائص الملائكة اللازمة لذواتهم أنّهم ذوو درجات وذوو وظائف وواجبات على مستوى تدبير الكون ومن هنا فإن غير المذكورين يمكن أن نعمم عليهم كونهم ذوو مكانات وذوو وظائف كما يفهم من عبارات الدعاء.

«وسكان الهواء والأرض والماء» يدلّ على أنّ لكلّ منها سكاناً من الملائكة كما روى الشيخ بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّه نهى أن يبول الرجل في الماء الجاري إلاّ من ضرورة، وقال: إنّ للماء أهلاً. وفي وصيّة النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قال: كره الله لأمتي الغسل تحت السماء إلاّ بمئزر وكره دخول الأنهار إلا بمئزر فإنّ فيها سكاناً من الملائكة. وفي رواية أخرى رواها الصدوق في المجالس قال: في الأنهار عمّارو سكان من الملائكة. وروى أيضاً في العلل بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله عزّ وجل وكلّ ملائكة بنبات الأرض من الشجر والنخل فليس من شجرة ولا نخلة إلاّ ومعها من الله عزّ وجلّ ملك يحفظها وما كان فيها، ولولا أنّ معها من يمنعها لأكلها السباع وهوام الأرض إذا كان فيها ثمرها ـ الخبر[1].

ولأول مرة يطلعنا الدعاء على أن هناك سكان من الملائكة في الهواء وكذلك في الأرض والماء ولسنا ندري إن كان سكنهم مجرد أداء لمهام تتعلّق بالهواء والأرض والماء، أم أنّه مسكنهم الدائم كما هو مسكنهم في السماء على أن الأحاديث التي أشارت إلى سكنهم في السماء ربّما كانت تتحدث

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

عن الأعم الأغلب ولو أمكن قبول الحديث فهذا يعني أن وجود هؤلاء هو وجود لأجل الوكالة التي وكلها الله سبحانه وتعالى لهذه الأنواع من الملائكة.

ويمكن أيضاً التأمل في طبيعة المهام الموكلة لهم بالنسبة للهواء فهل يرتبط بنواحٍ تنظيمية أم بتواجد الكائنات غير المرئية خارج الحدود المسموح بها. وكل هذه محتملات لكنها في النهاية تبقى تحتاج إلى إجابة ولا يمكن التعول فيها على الاستنتاجات.

«ومن منهم على الخلق» أي الملائكة الذين هم مع الخلق أو مستولون عليهم أو موكلّون بهم من جملة سائر الملائكة، وهم أصناف شتّى قد مرّ أكثرها كالمعقبّات، ومن يثني برقبة المتخلّي ليعتبر بما صار إليه طعامه، والمشيعين لعائد المريض ولزائر المؤمن، ومن يأتي منهم للسؤال ابتلاء، ومن يمسح يده على قلب المصاب ليسكّنه، والموكلّين بالدعاء للصائمين والذين يمسحون وجه الصائم في شدة الحر ويبشرونه والملائكة الساكنين في حرم حائر الحسين عليه السلام يشيعون الزائرين ويعودون مرضاهم ويؤمنون على دعائهم، والذين يدفعون وساوس الشياطين عن المؤمنين وأمثال ذلك كثيرة في الأخبار. وهذا بناء على أنّ الخلق بمعنى المخلوق، ويمكن حمله على المعنى المصدريّ، فيكون إشارة إلى ما روي في أخبار كثيرة أن للّه ملكين خلاّقين، فإذا أراد أن يخلق خلقاً أمر أولئك الخلاقين فأخذوا من التربة التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿ *منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى* ﴾[1] فعجنوها في النطفة المسكنة في الرحم، فإذا عجنت النطفة بالتربة قالا: يا رب ما تخلق؟ قال: فيوحي الله تبارك وتعالى ما يريد من ذلك ـ الخبر «فصل عليهم يوم تأتي كل نفس» «يوم» ظرف للصلوة، وربما يوحى، إلى أنّ هذا الحكم يعمّ الملائكة أيضاً غير السائق والشهيد، وذكر اليوم بهذا الوصف لبيان أن

---

(١) سورة طه : ٥٥.

الملائكة في هذا اليوم أيضاً لهم أشغال عظيمة، أو لبيان أن هذا اليوم يوم الاحتياج إلى الملائكة «معها سائق وشهيد» هما ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد بعمله، وقيل: ملك واحد جامع للوصفين، وقيل: السائق كاتب السيئات، والشهيد كاتب الحسنات، وقيل: السائق نفسه، والشهيد جوارحه وأعماله، ومحل «معها» النصب على الحالية من «كل» لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة، ذكره البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿ *وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد* ﴾ وفي بعض النسخ: «قائم» مكان السائق والسائق أوفق بالآية، ولا يتغير المعنى إذ المراد بالقائم من يقوم بأمره ويسوقه إلى محشره، ولعل المراد أقلّ من يكون مع كلّ أحد، أو المراد بهما الجنس إذ ورد في كثير من الأخبار أنّه يشايع الأخيار آلاف من الملائكة، ومع بعض الأشرار أيضاً كذلك لشدة تعذيبهم، وكذا الشهداء من الملائكة في أكثر الأخبار أكثر من واحد ﴿ *وصلّ عليهم* ﴾ تأكيد لما سبق «صلوة تزيدهم كرامة على كرامتهم» أي تصير سبباً لمزيد قدرتهم ومنزلتهم عند ربهم «وطهارة على طهارتهم» أي موجباً لمزيد عصمتهم وتقدسهم وتنزههم، وإن كانت العصمة عن الكبائر والصغائر لازمة لهم. ويمكن أن يكون فائدة هذا الدعاء راجعة إلينا لا إليهم «اللهم وإذا صليت» في بعض النسخ «إذ» بدون الألف و«عليهم» مكان «علينا» فعلى الأول المعنى: كل وقت صليت عليهم وبلغتهم صلواتنا عليهم فصل علينا وارحمنا بسبب أنّك وفقتنا لذلك وصرنا سبباً لهذه الرحمة. وأيضاً الجواد الكريم يشفع كل نعمة منه بأخرى، ولا يكتفي بواحدة منها، وعلى النسخة الأخرى المعنى:لمّا صليت عليهم وبلغتهم صلواتنا عليهم فصلّ عليهم تارةً أخرى بسبب أنهم صاروا سبباً لتوقيف إيانا للصلاة عليهم، وحسن القول فيهم. وفي بعض النسخ «إذ» و«علينا» وهو أظهر. والجواد في أسمائه تعالى هو الذي لا يبخل بعطائه، ويعطى كلاً ما يستحقه، والكريم فيها

هو الجواد المعطي الذّي لا ينفد عطاؤه، أو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل. والكريم أيضاً الصفوح[1].

هؤلاء هم الملائكة الذين هم عن الخلق مسؤولون وهذا يعني أنّهم سوى من ذكروا في الأحوال السابقة وهم أصناف كثيرة قد مرّ ذكرها.

والظاهر أنّ الصلاة التي يطلبها لهم في الدعاء هي لأجل رفع منزلتهم عند الله كما أن الملائكة في كل ما قاموا به وما ذكر هو لمصلحة الإنسان من الحياة الدنيا وأن استغفارهم للناس يكون سبباً لغفران ذنوبهم وبالتالي ارتفاع مكانتهم فهنا تقابل في طلب الخير بين الملائكة والمؤمنين من الناس كل يطلب الخير لطرفه وهذا تأكيد لما ذهبنا إليه وهو ما قام به الإمام﵇ بصورة عملية بينما أخبرنا القرآن عن قيام الملائكة بالدعاء والاستغفار.

وأقول: إنّما أوردت هذا الدعاء الشريف هنا وأعطيت في شرحه بعض البسط لكونه فذلكة لسائر الأخبار والآيات القادرة في أصنافهم ودرجاتهم ومراتبهم مع تواتره سنداً ومتانته لفظاً ومعنى.

وقال النيسابوري في تفسيره: روي أن بني آدم عشر الجّن، والجن وبنو آدم عشر حيوانات البر، وهؤلاء كلّهم عشر الطيور، وهؤلاء عشر حيوان البحر وكلّهم عشر ملائكة الأرض الموكلين بها، وكل هؤلاء عشر ملائكة سماء الدنيا وكلّ هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية، وعلى هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة. ثم الكلّ في مقابلة الكرسيّ نزر قليل. ثم كلّ هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد من سرادقات العرش التي عددها ستمائة ألف، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السماوات والأرض وما فيها فإنّها كلّها يكون شيئاً يسيراً وقدراً قليلاً، وما مقدار موضع قدم إلاّ وفيه ملك

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ساجد أو راكع أو قائم، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، ثم كل هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة في البحر، ولا يعرف عددهم إلاّ الله. ثمّ مع هؤلاء ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل، والملائكة الذين هم جنود جبرائيل، وهم كلّهم سامعون مطيعون، لا يستكبرون عن عبادته ولا يسأمون[1].

وفيه إشارة إلى وجود نسبة عددية بين المخلوقات، وأن كل طبقة من المخلوقات تساوي عشر الطبقة التي تلتها وهذا الأمر يدل على وجود نظام إذا ثبت من خلال التقديرات ولربّما يعني أن هذه المسالة صادقة بشكل تقريبي. ولسنا ندري مدى الأهمية لوجود هذه النسبة العددية مع العلم أنّ الأحاديث تشير إلى أن الملائكة يتفوقون على جميع المخلوقات الجامدة وغيرها من الناحية العددية لأنّها هي مشرفة على هذه المخلوقات.

وقال بليناس في كتاب: «علل الأشياء» إنّ الخالق عزّ وجلّ لما ضرب الخلقة بعضها ببعض وطال مكثها خلق الأرواح المتفكرة القادرة، فخلقهن من حرارة الريح ونور النار، فمنهم خلق خلقوا من حر الريح الباردة، ومنهم خلق خلقوا من نور النار الحارة، ومنهم خلق خلقوا من حركة الماء البارد، ومنهم خلق خلقوا من حركة الماء الحار، ومنهم خلق خلقوا من الماء المالح، فخلق الله الخلقة العلوية من هذه الثلاث طبائع وليس فيهم من طبيعة التراب شيء ومن خلق منهم في السفل فإنّها خلقت من الطبائع الثلاث التي ذكرت مفردات غير مركبات، إذ لو كانوا مركبّين إذا لأدركه الموت والافتراق، فهذه جميع أجناس المتفكرة من الملائكة والجن والشياطين وسكان الريح الباردة والبحر والأرض السود والبيض، والكواكب العلوية تشرق بنورها عليهم،

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤١ - ٢٤٢.

فتتصل أنوارهم بنورها ولا يشغلون مكاناً لأنّهم نور، ولا يأخذون مكان غيرهم فهم ملؤوا الطبائع يدبرونها ويقبلون عليها، وكل طبيعة من الطبائع فيها خلق عظيم من الروحانيين، ولا يقع عليهم التفصيل والفناء، لأنّهم ليسوا مركبين، وإنّما هم من جوهر واحد فلذلك صاروا أكثر شيء عدداً لا يسأمون ولا ينامون ولا يملون، يعملون دائبين بالليل والنهار بما وكلّوا به من حركة الفلك، وإدخال بعضها في بعض، وحركة الشمس والقمر والكواكب والأمطار والرياح والحرّ والبرد والإقبال والإدبار في النبات والحيوان والمعادن وأفاعيل الإنس والحيوان، وكلهم يعمل دائباً بالأمر الذي وكل به، وهم أجناس: جنس منهم في الفلك الأعلى، وهم قيام على أرجلهم لا يجلسون، لأن طبيعتهم روحانية لطيفة، فبلطافتهم لا يقدرون أن يجلسوا، لأنّها تجذبهم إلى العلو، وكلّهم يسبحون للذي خلقهم منذ يوم خلقهم لا يعملون ولا يتحركون يميناً ولا شمالاً، وليس لهم عمل غير التسبيح للرب، لهم غلظة وشدة لحدة طبائعهم، لأنهم خلقوا من حر النار، وعلى فلك المشتري خلق عظيم من الروحانين كذلك، وهم خلق معتدل ساكن لأنّهم خلقوا من روح الماء[1].

ليس لهم قسوة وفظاظة، يدبرون فلك المشتري، ويقبلون ويتحركون مع حركته ويمجدون الذي خلقهم، وفي فلك المريخ خلق عظيم من النورانيين، وهم غلاظ شداد، لأنّهم خلقوا من نور النار اليابسة. فلذلك لا رأفة لهم ولا رحمة، يدبرون ويقبلون مع المريخ في دوران الفلك لم يملكوا غير ذلك، لأنّهم لا رحمة لهم، ولذلك لم يوكلوا بشيء من أعمال الناس، وفي فلك الشمس خلق من الكروبيين لهم قسوة وفظاظة لشدة طبائعهم، لأنّهم خلقوا من الريح والروح، ولهم أناة ونور، فهم موكلون بأعمال بني آدم على الحرث

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٣.

والنسل، وهم الذين يحركون الشمس، وبحركتها يخرج البخار والدخان، فيرفعون ذلك البخار إلى القمر ثم إلى الشمس، ثم يصدونه إلى الكواكب العالية، فيكون لهم غذاء، وهم على الثمار والزروع وولادة الحيوان، وهم المسلطون على جميع الروحانيين من تحتهم يعملون بأمرهم، وهم لطاف نورانيون يدورون مع فلك الشمس، ويعملون معها ويعملون في إصلاح العالم وتوالد المواليد، وهم الذين يحفظون شيعة الشيطان وولده عن فساد العالم وخرابه، وحفظ الحيوان منهم، وإنّما سمّوا الملائكة لأنّهم ملكوا زمام الشيطان لئلا يخرّب العالم، وفي فلك الزهرة أيضاً خلق من الروحانيين لهم اعتدال وصلاح، فهم أحسنهم وجوهاً، ولهم ريح طيب وبشر حسن، يحبون الإنس وجميع ما تحتهم من الحيوان حباً شديداً، ولهم بهم رأفة ورحمة ورقة، وهم الذين يسعون في تأليف الذكران والإناث من كل شيء لمكان النسل والولادة وبذلك وكلّوا. وفي فلك عطارد روحانيون خلقوا من حرّ الريح الحارة، فاتصلوا بالروحانين الذين خلقوا من النور، وهم بين أيديهم مثل العبيد لا يغيبون عن أعينهم طرفة عين، يسارعون في خدمة ملائكة فلك الشمس، ويعملون بمسرتهم فهم لهم شبيه الوزراء، وهم الموكلون بالنبات وإصلاحه، وحفظ النبت إذا طلع عن وجه الأرض حتى يتم بتمامه، وهم أيضاً موكلون بصغار الحيوان، والحفظ لهم عن مردة الشياطين. وإن القمر جرمه من الشمس وضوؤه من نورها، وهما دائمان يعملان في الليل والنهار، وفلك القمر مملّو من الملائكة، وهم ملائكة الرحمن مستبشري الوجوه، لهم جمال وحسن صور، وليس فيهم غضب ولا شدة ولا قسوة على ولد آدم لقربهم منهم، وهم أشبه الروحانيين بالآدميين، وهم متعطفون على الحيوان

مصلحون للنبات، دائبون في مسيرة بني آدم، فلاتصالهم بهم ربما ظهروا لهم وكلّموهم، وهم مسلطون على السماء يحرسون السماء من الشيطان وولده أن يسترقوا السمع من الملائكة الأعلى المتصلين بفلك الشمس، وهم الموكلون أيضاً بالحب المبذور في الأرض، يحفظونه لئلا تعرض له الشياطين ليفسدونه فإن الشيطان وولده لهم قوة عظيمة في العالم والحرث والنسل، وكلما لطفت خلقة من الروحانيين ورقت كان أكثر أجنحة، ومنهم من له ستة أجنحة، ومنهم من له خمسة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة، وكذلك إلى جناح واحد. وأمّا المفكرة التي في الطبائع حين ظهرت لحقوا بالطبائع، فهم مستجنون في الماء والتراب والريح لأنّهم خلقوا من حر الماء المالح والريح العاصف والتراب المنتن، وهم يسمّون شيطائيل وولده، وهم عصاة جفاة مفسدون في الأرض، لهم خبث عظيم، وقوة شديدة، ومنظر قبيح، ووجوه سمجة، وأرواحهم قذرة، وهم على الفساد والطغيان، وفي خراب العالم، والخلقة العليا مسلطة عليهم، يمنعونهم من خراب العالم وفساده (انتهى).

أقول: إنّما أوردت ملخصاً من كلامه لتعلم أن أكثر كلمات قدماء الحكماء الذين أخذوا العلوم من الأنبياء موافقة لما ورد في لسان الشرع، وإنّما أحدث المتأخرون منهم ما أحدثوا بآرائهم العليلة الفاسدة[١].

فهذه الشروح فصّلت في جميع ما ورد ذكره في الأحاديث والآيات وتضع أمامنا تصورات كثيرة بحاجة إلى مراجعة من الزاوية التي هي مورد اهتمام البحث كما سيمر في أبحاثنا على التوالي.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٣.

استنتاجات

اضطلعت الأحاديث التي استعرضناها ببيان الجوانب التفصيلية بالإشارة إلى الصور والمصاديق التي وردت في الآيات، حيث أن الآيات غالباً ما تشير إلى المسائل الهامة جداً فترسم أساس التصورات وتترك التفصيل للأحاديث لتلعب دور مكمل، وهكذا تتظافر الآيات والأحاديث لتعطي التصور النهائي على أن هناك الكثير مما يجب استنتاجه من المجموع.

وكما أن آيات الكتاب الحكيم تفسّر بعضها بعضاً فقد تسلط الآية ضوءاً على جانب معين ثم يأتي ذكر الموضوع نفسه في آيات أخر ليكون المجموع الصورة الأدق فإن الأحاديث يفسر بعضها بعضاً أو يؤكد بعضها بعضاً.

غير أن الأهم هو فهم الإنسان لما يرد في الآيات والروايات والذي يجب أن يبقى فهماً ولا يشكل بالضرورة التصور النهائي، ففي عصور ما كان صعباً على البشر تصور وجود آلة يرى بواسطتها الإنسان الذي في الشرق، الإنسان الآخر في الغرب ولذلك فهمت الأحاديث في ذلك الزمن بالآلات الموجودة في ذلك العصر أو بالتصوّرات المؤسسة على ما هو قائم في الطبيعة من قبيل وسائل الطيران حيث كان الطير هو أقصى أدوات الطيران وهكذا.

ولهذا يجب المحافظة على فاصلة ثابتة بين النص وأبعاده، وما نفهمه من هذه الأبعاد وحتى لو وجد التقارب فإنه لا يعني التطابق أبداً، ولعل البحث المتواصل يمكن أن يقرب إلى الأذهان بعض الأفكار التي ترد في متون الأحاديث والتي قد ينكرها البعض لصعوبة تعقلها من قبلهم خصوصاً أننا نعلم أن الأفهام تتغير باستمرار وأن التطور العلمي يسهّل ويقرب المستعصي والبعيد.

وعليه فإنّ عقول الناس يجب أن لا تحكم في النصوص المقدسة بل عليها أن تجتهد في فهمها، وحين يحس الإنسان بالعجز عليه أن يترك النص مفتوحاً ولا يغلقه بنكرانه أو بتأويله بطريقة تربطه بذلك العقل أو ذلك العصر أو تلك البيئة الثقافية.

فإن حركة العلوم والتجريبات لا تزال تتقدم، لكنها لحد الآن لم تزد على أن جعلت من الأحاديث والآيات التي قبلها الناس في أزمان سابقة من باب التسليم مقبولة، ولكن عن طريق النموذج والبرهان وإدخالها إلى دائرة الممكن والمتعقل، ولهذا فإن عكس المعادلة هو المطلوب إذ يجب تحكيم النصوص في العقول بلا إملاء أو قسر بل يبقى الحديث محتفظاً بأفقه.

وهكذا نرى في الأحاديث التي تناولت الملائكة رسمت الكثير من الملامح التي وضع أساسها القرآن الكريم، فبعضها كان تفسيراً لآيات الكتاب الكريم أما البعض الآخر فإنّها تكمل بقية ملامح الصورة عبر توضيح الصفات التي لم تكن لآيات تناولتها، ولعلنا نتمكن من إرجاع الاختلاف بين الحديث والآية إلى مغايرة بين المفصّل والمختصر.

ولابدّ من التذكير بأن الآيات لا تتناول الكثير من القضايا التي يصعب على الذهن البشري تقبلها، ولكي لا تعطي انطباعاً بأن ما ورد خيالياً فإنّها تقدم كل شيء بصورة إشارات أو رموز وهنا تعد محاولة الفهم الحرفي تجنّياً على المعنى، ولعلّ الآيات التي تحدثت عن آخر الزمان وكذلك الأحاديث تمارس هذا النمط من الترميز، ولكل ذلك لا بدّ من فرز الوصف الفعلي والحقيقي والوصف الرمزي بخصوص الملائكة.

وفي النهاية إن البحث سيقودنا إلى الوصول إلى جملة استنتاجات أساسية وهي:

وجود الملائكة

تعد مسألة وجود الملائكة مما أجمع عليه المسلمون وغير المسلمون، ولكن مع اختلاف في تفاصيل الصفات وما سوى ذلك من لوازم الوجود ولهذا فإن الإيمان بوجود الملائكة يكاد يكون من القضايا الشائعة عند بني البشر على صعيد تاريخي أو صعيد معاصر، ولا توجد فئة منكرة للملائكة سوى التيارات المادية التي تنكر أصلاً الديانات والعقائد والله وما يترتب على الإيمان بالله.

وبالنسبة للمسلمين فإن القرآن هو الأساس الذي يعتمدون عليه في عقائدهم وتصوراتهم وهو الذي أكد وجود الملائكة ثم جاءت الأحاديث بعد القرآن لتؤكد أيضاً بأن الاعتقاد بالملائكة من أركان العقيدة الإسلامية، وتأتي تبعاً للإيمان بالله وكتبه ورسله وهذه المسألة مبحوثة في كتب العقائد أما إذا أردنا الوصول إلى تركيز الإيمان بالملائكة من خلال سبل أخرى فإننا يمكن أن نصل إلى هذا الإيمان عبر جملة استنتاجات منها:

أ ـ إن الطرح القرآني لوجود الملائكة لا يتناقض مع ثوابت المنطق.

فالقرآن يقول إن الملائكة كائنات حية غير مرئية ولا يوجد مانع عقلي يمنع عن افتراض هذا الوجود، كما أن عدم الرؤية ليست مانعاً أيضاً لعدم ربط الوجود بالرؤية فقد ثبت أن الرؤية محدودة وبالتالي فإنَ الجزء الأوسع من العالم لا تطاله العين وقدرتها.

وبما أن وجودها غير مستحيل فهو ممكن، وهذا الإمكان يضعنا أمام الرأي القائل بالوجود فإذا ثبت بأي طريقة فإنه يؤدي إلى ثبوت القول بوجود الملائكة.

أي لا بد من مراجعة الطرح القرآني الذي أشار إليهم بجملة من المعالم التي تقود في النهاية إلى الإيمان بها لأنّها خالية في جوهر فرضها من أي من الأفكار التي تدخل في دائرة الخرافة أو الأسطورة.

فالقرآن يساوق الأحاديث في طرح مفهوم دقيق عن الخلق وهو مفهوم الهيمنة والهدفية واستحالة الشذوذ أو الشرود عن الخط المرسوم له من قبل الإرادة الإلهية ويتم التوصل إلى التوجيه عبر طريقين هما:

أ- القوانين الطبيعية.

ب- الملائكة الذين يوجهون القوانين من حيث أداء نتائج مقصودة بعينها.

فالقوى الموجودة في الطبيعة بما أنّها غير عاقلة وتفعل فعلها فإنّها قد تقود إلى نتائج غير مقصودة، وإذا أخذنا قوانين الوراثة فإنها قد تنتج إنساناً بستة أصابع لكي يصبح الإنسان مخلوق بأصابع ستة بدلاً عن خمسة أو أنساناً يملأ وجهه الشعر وبدنه كالقرد أو إنتاج أجناس أخرى من الإنسان إذا قدر لهذا القرد الانتشار والسيادة، ولذا لا بد من إشراف وأن الذي يشرف على منع ظهور هذه الأشياء هي الملائكة ونفس الشيء بالنسبة للطبيعة الجامدة إذ يمكن أن تكون كالعناصر مشبعة كالهليوم أو إنتاج مركبات غير قادرة على بث الحياة وبهذا الإنتاج للنبات والحيوان من الظهور.

ومعنى هذا أن العقل والإرادة التي تمثل لب الوجود هي المشرفة على حركة الطبيعة الجامدة فتكون الطبيعة محكومة بالقوانين وبالعقل والإرادة وهذا العقل عقل الله الذي يشرف على كل شيء وعقل الملائكة الذي هو عقل بالنيابة وله تفويض في أداء وظائف معينة، وهكذا فإن الملائكة هي شكل من أشكال الهيمنة الإلهية على الخلق.

صفات الملائكة

ويترجم مبدأ الإشراف هذا من خلال الصفات التي جعلها الله متصفة بها ويمكن لنا إيجاز بعض منها بما يلي:

١ - إنّها رسل للخلق.

٢ - الملائكة حفظة.

٣ - مشرفة على الفاعليات البشرية.

٤ - مشرفة على الطبيعة.

٥ - إنّها ذات وجود تنظيمي.

٦ - إنّها تشرف على الذاكرة الكونية.

٧ - تمثل ساعة كونيّة.

٨ - إنّها كائنات ضخمة وعظيمة وكثيرة العدد.

٩ - إنّها ذات أشكال مختلفة وأجناس كثيرة.

١٠ - إنّها عاقلة وبدرجة عالية من الذكاء.

١١ - إنّها ذات قوى وقدرات عالية جداً.

١٢ - سابقة على وجود البشر.

١٣ - إنّها ذات أنظمة حيوية (بيولوجية) مختلفة.

١٤ - إنّها أجسام لطيفة.

١٥ - قدرتهم على التشكل.

إن جميع هذه الصفات والمواصفات والمعالم لا تتصادم مع أحد الثوابت المنطقية مما يجعل وجودها أقرب للقبول من الرأي المقابل المنكر، لأننا في حال الرغبة في بناء معمل تحتاج إلى جهاز إداري وخبراء وإشراف فكيف بهذا

الكون المترامي الأطراف الذي يعج بأنواع الموجودات الجامدة والحية والتي يمكن أن تتقاطع وتتصادم وتزول، فمن غير المعقول الادعاء بأن عالماً بهذه الكيفية التي كشفها العلم الحديث متروكة لذاتها وللقوانين الطبيعية وحدها.

ـ الملائكة رُسل للخلق

ترتبط عملية كون الملائكة رسل بوجود ظاهرة الدين وما يتعلق به من الإيمان بوجود حياة أخرى، وأن وراء هذا الإيمان ملائكة يمثلون الرابط بين الحياة الغيبية والعالم المرئي والمشهود، وهذه الرسالة ذات بعد تنظيمي للطبيعة ولحياة الإنسان وتكون حقيقتها هي توجيه الوجود برمته إلى هدف يعلو على كل الكائنات وهي تسير إليه وبغض النظر عن إدراكها له أو عدم قدرتها على هذا الأمر.

ويأتي في طول هذه الرسالة عملية الحفظ التي هي كالآتي:

ـ الملائكة حفظة

والحفظ كما يلوح بأشكال عدة هي:

١ ـ الحفاظ على الإنسان من الأخطار.

٢ ـ مراقبته.

٣ ـ تسجيل تصرفاته، ويمكن أن ندرج ضمن هذه الفقرة كون الملائكة يحفظون ويراقبون الكائنات الأخرى كما ورد في بعض الأحاديث، فعملية المراقبة أوسع من مراقبة الإنسان وهو فعل كوني تقوم به الملائكة، وهي عملية بينت الأحاديث أنها بالنسبة للإنسان تعني تدوين أعماله وهذا التدوين يشمل الطبيعة، ويمكن أن تعمم أيضاً مفهوم الحفظ بمعنى الوقاية من الأخطار على الكائنات الأخرى لكي

تكون مهمة الملائكة منسقة، وتعني وقاية الكائنات من الأخطار والاحتفاظ بسجل لأعمالها وهو طبعاً لا يمكن أداؤه ما لم يصار إلى الاحتفاظ برقابة مستمرة.

ومن وجهة نظر عقلية إن الوجود يحتاج إلى رعاية، والرعاية تحتاج إلى مراقبة والتدخل من حين لآخر لمنع طغيان بعض الموجودات على البعض الآخر وللحفاظ على التوازن اللازم للاستمرار أو لرعاية بعضها حتى تصل إلى طور معين يمكنها فيه الوقوف على أقدامها.

وحين تتأمل في الطبيعة التي هي ملك لله فإنّنا نرى ضرورة الحفظ والرعاية، فبالنسبة لعالم الأحياء الذي هو طبقة خاصة من الوجود يرتبط بعالم الجمادات، لأنه مؤلف من أجرام وذرات محسوبة ضمن الجوامد، وأن ما نطلق عليه أنه حي هو مجرد نمط خاص من العلاقة بين عدد من الجمادات، وهذه الجمادات تتفاعل فيما بينها، وبذلك فإنّه شبكة معقدة من العلاقات التي يجب أن تبقى منظمة وأن اضطرابها يؤدي إلى اضطراب الكائن الفرد وأحياناً إلى موته وزواله.

وليس بالإمكان الاعتماد على الأواصر الكيماوية فقط في هذه الناحية، بل لا بدّ من إشراف على سير هذه التفاعلات خصوصاً أنّها عشرات العمليات وإذا أمكن تكبير الإنسان، فإنّه سيلوح شبيهاً بالمجرات الكبيرة تتحرّك الأجرام داخله وتنفصل مجموعات منها وتدخل أخرى، ولعلنا نجد أن تبدّلات تحدث في الجسيمات ما دون الذرية، فإن هذه الحركة المتواصلة تحتاج إلى مراقبة للاطمئنان على حسن سيرها، حتى لو كانت قد وضعت عوامل تسيطر على هذه الحركة وتحفظ مسارها تماماً كالمعامل التي تدار بطريقة ذاتية، فهناك غرفة سيطرة ويوجد عليها مشرفون يراقبون سير العمليات ويتدخلون في حالات الطوارئ لإيقاف الحركة أو إصلاح عطب أو غير ذلك.

وبهذه الصورة يمكن وجود الملك وقيامه بعملية الحفظ ولا تناقض إطلاقاً بين هيمنة الله على كل شيء واشتراك الملائكة في نظام الهيمنة ويمكن تصور عدة طبقات من الضبط وضعها الله للحفاظ على بقاء العالم، الأولى: هي الأواصر والقوانين التي تعمل في الأجرام الصغيرة وما يقع دون الذرة والثانية: الأواصر التي تعمل في الذرات والثالثة: الإشراف على كل ذلك من قبل الملائكة وهذا يحافظ على بقاء الكون ويشكل عنصر من عناصر كمال بقائه وصعوبة تفكك مكوناته إلاّ بالمقدار الذي يراد تفكيكه.

ـ إنّها ذات وجود تنظيمي

في العادة يحتاج أي جهاز أو بناء أو أي تركيب إلى نظام يجمع بين أجزائه و بين أجهزة حماية لهذا النظام وقد صرحت بذلك الكثير من الأحاديث بأن الملائكة على صعيد الكون تقوم بضبط حركة أجزاء الكون ضمن البرنامج فالدين كما هو معروف يتحدث عن وجود برنامج للكون وهو دون بقية الرؤى يرفض العشوائية منذ بدء الخلق وحتى نهاية الكون التي هي ليست نهاية كما يفسر بعض المفسرون آية: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[1]، فهناك أهداف لحركة الوجود وبرنامج يتحرك في ضوئه نحو الأهداف وهذه الرؤية تتسق مع القول بوجود النظام والإشراف على النظام، والذي يشرف هو هيكل منظم من الملائكة الذين ينقسمون إلى طبقات ومنهم رؤساء ومرؤوسين وكل جماعة مكلفة بأداء معين، وهذا الأداء يصبّ في النظام الكوني، وأن مجموع هذا الإشراف هو النظام الكوني بحيث لا يقع الإفراط أو التفريط في أي جزء من الكون خصوصاً أنه كون من حال حركة متواصلة

---

(١) سورة ق : ١٥ .

وتفاعل بين أجزائه كما أن هناك حالات تفكك متواصلة فلو وقع اضطراب في حالات التفكك أو التركيب ولو من قبيل الخطأ لترتبت عليه نتائج هائلة وخصوصاً أن هناك قوى رهيبة مدمرة وأنّه عرضة للدمار رغم القوة والمتانة التي يتصف بها في الظاهر.

وعليه فإن الإشراف وتنظيم العمليات الذي تضطلع به الملائكة ذا أهمية حيوية بالنسبة لبقاء الوجود واستمراره إلى جانب أنّه استمرار هادف، فمجرد الوجود وبمعزل عن الهدف كان يمكن أن يقال بأن يترك لشأنه ليعطي أي نتيجة ومع ذلك فإنّه غير ممكن لأن النتيجة غير المحددة يمكن أن تكون هي الدمار والزّوال، وحيث أن الدمار غير مطلوب حتماً ولذلك فإن حركة محددة النتائج والأهداف تفرض على الوجود وجود كوابح احتياطية تستعمل في أي لحظة لغرض استمرار الاتجاه واستمرار التفاعل.

ـ الذاكرة الكونيّة وإشراف الملائكة

تنفرد الأحاديث الواردة عن الأئمة عليهم السلام عن كل الأفكار والمدارس التي تتحدث عن الكون بالحديث عن وجود ذاكرة كونية، إذ أننا لا نجد أي اتجاه فلسفي إلهي أو مادي يتطرق إلى هذه القضية، أو أنّها وردت في باله وهذه الذاكرة موجودة بصورة غاية في الدقة وبأكثر من نسخة وهناك مسؤول عن دخول المعلومات وخروجها، فأحد الأحاديث التي مرّت يطرح هذا الأمر بينما مرت أحاديث عدة عن تسجيل كل المعلومات، حتى بالنسبة للمخلوقات غير العاقلة كالشجرة فالملائكة يدونون كل ما يتعلق بهذه الشجرة وينقل إلى مكان ما فيسلم إلى مسؤول الذاكرة فيطابق الإضافة والمعلومات التي يجيء بها الملك كل يوم بالنسخة المحفوظة لديه ثم يضيف الجديد إلى النسخة الكونية

ويعيد النسخة التي بيد الملك، وكما يشير الحديث أن المقارنة تتم في اليوم مرتين، وعلى الظاهر أن اليوم هو يوم أرضي وليس يوم سماوي لعدم وجود إشارة إلى أنه يوم سماوي، حتى ولو كان الأمر كذلك فإن الفرق سيكون في كثرة وقلة المعلومات وهو لا يمس أصل الفكرة.

ومن الملاحظ أن الدقة هنا موجودة أيضاً فالملائكة من المخلوقات الموثوقة التي لا تغفل بسبب طبيعة تركيبها، ومع ذلك فإن الملك المسؤول لا يتكأ ويعتمد هذه الثقة بل يقارن النسخ مع بعضها.

ـ ساعة كونيّة

تفيد الأحاديث أن هناك ساعة كونيّة ذات تركيب عجيب هي جزء من الملائكة وهذه الفكرة طرحها العلم الحديث، إذ اعتبر وجود ساعة كونية حقيقة كونية ولو أن الحديث حدد الأرض، وأن الزمن تدركه الحيوانات، وهذه القضية أيضاً ثابتة علمياً، فقد ثبت أن بعض الحيوانات تتحسس بعض الظواهر التي لا يتحسسها الإنسان كالهزات الأرضية أو الأمطار أو الكوارث، وهذا الأمر يخرج عن نطاق بحثنا وما يهمنا هو أن الحديث يتحدث عن تحسس الديوك لإشارات صوتية تأتي من الكون فتتناغم معها بإطلاق أصواتها كما هو معروف.

وهنا نفترض أن الساعة عامة لكل الكون، وهذا قائم على أساس أن الحديث يصف هذا الكائن بامتداد يستوعب جميع الوجود من الأرض السابعة وحتى العرش، وهذا الامتداد قد يعني أن مهمته تتلاءم مع حجم الملك وأن تأثير صوته يؤثر في جميع الكون، والحديث لا يريد التحدث عن أبعاد هذه الفرضية ومدى تأثيرها على مخلوقات أخرى حية أو جامدة

لأسباب معينة، فإنه أشار إلى تأثيره على نوع خاص لمخلوقات ويمكن أن نجمع هذا مع الآية التي تقول: ﴿ وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنةٍ ممّا تعدّون ﴾[1] فهنا اليوم يعادل (٥٠٠) ألف سنة وفي آية أخرى كألف سنة، ولكي نتصور هذا فإننا نتخيل اليوم بطريقة أنّه دورة الأرض حول نفسها، فنتصور أن جرماً ما في الكون سواء كانت الأرض جزءاً منه أو تقع خارجه فإنّه يكمل دورته حول نفسه بزمن معادل لخمسمائة دورة للأرض حول الشمس وفي مكان آخر معادل لألف مرة.

إن عظمة بنية الملك يجعله قادر على التلائم مع التصور القائل بنسبة الزمان، فزمن كل جرم يختص به ويمكن استفادة ذلك بأكثر من طريقة ولعل هذا يفضي بنا للقول بنظام أكثر تعقيداً قد يكون هو الارتباط بين عالم المادة والعوالم الأخرى الذي قد يكون ما دون المادة أو عالم الأساس او أي اسم آخر يسمى به، وهذه القضية تحتاج إلى بحث أكثر تفصيل للتخلص من الظواهر المعقدة والتي لا يمكن تفسيرها بالنظريات الحالية ولا ضرورة للقول بالتطابق الحرفي بين المعروف لدينا وما تؤديه النصوص المقدسة من معان.

ـ إنّها كائنات ضخمة وعظيمة وكثيرة

أشارت الأحاديث إلى أن الملائكة غاية في الضخامة فكما ورد أن مسيرة ٥٠٠ عام بين شحمة أذن الملك ورأسه، وأن الملك الديك يستوعب الكون في الامتداد، وأن عزرائيل عليه السلام يده تستوعب السموات والأرض، وهكذا بقية الملائكة كما أن الكثيرة يصفها الحديث بأنّه لا يوجد موضع قدم ليس فيه ملك. بالإضافة إلى لزومهم حال واحدة من الركوع والسجود.

---

(١) سورة الحج : ٤٧.

وهنا لا بد من فهم لزوم حال واحدة بطريقة التخصص فبعض الملائكة متخصصون في أداء مهام معينة وهؤلاء لا يلزمون حال واحدة، أما الآخرون فإنّهم ملتزمون بحال واحدة أو أن الملائكة جميعاً حين لا يكونون ملتزمون بمهمة معينة فإنّهم يلتزمون بالعبادة أو أن الزمن الذي نحن نراه طويلاً جداً لا يشكل إلا جزء يسير من حياة الملائكة الذين لم يرد ذكر الفناء بالنسبة لهم، وإن كانوا يفنون فإن فناءهم في أزمنة طويلة جداً ولذلك فإن العبادة هذه ستكون شبيهة بنسبة عبادة البشر إلى أعمارهم.

أما الكثرة فإن الأحاديث تقول بأن الملائكة يخلقون بصورة مستمرة ولذلك فإنّهم لا يزالون يزدادون بلا انقطاع، ثم إن الموت معدوم وقليل الوقوع وبعيد ونفس الكثرة تساوي كثرة المهام الموكلون بها غير أن عظمة الخلقة مع الكثرة لا تستقيم لأنّنا في مثل هذه الحالة إمّا أن نقول بالتداخل أي أن الأجسام الشفافة قابلة للتداخل، وإمّا أن نقول بأن الفضاء في عالم الملائكة يختلف عن الفضاء المادي، وهو حالة تحتاج إلى تفسير بحيث يمكن افتراض الكثرة مع العظمة بدون تداخل، وهناك احتمال آخر هو أن الضوء يمكن أن يركب أجساماً ذات مواصفات خاصة قابلة للاجتماع في مكان واحد بدون تداخل وهذا معناه إما أن يكون التصرّف في الفضاء أو التصرف في جسم الملائكة وهذا يفسر ما سماهُ القرآن بالعروج، فالعروج هو التلبّس في حالة توائم مع الفضاء المادي، فالعروج ليس بالمكان وهو حالة الانتقال من الفضاء إلى الفضاء وبعبارة أخرى تغير القوانين وهذه القضية تفتح الباب للقول بالفضاءات فكل فضاء ذو قوانين مختلفة ولا يمكن في هذه الحالة تخيل الامتدادات في الوجود لأنّه يفرض امتداداً إلى حدود بعيدة ولا يمكن تخيلها.

ولعل ما ورد في الأحاديث بأن النور ليس واحداً وأن النار كذلك ليست واحدة، فنار جهنم ليست كنار الأرض بل هي نار بكيفية خاصة ولهذا

فإنّ التركب في الملك يمكن أن يكون من نور خاص فينتج حالة أخرى بعيدة عن تصوراتنا، وطبعاً كل هذه التصورات تفرضها الأحاديث التي قد تلوح في الظاهر غير متسقة مع بعضها البعض، لكنها بهذه الطريقة التي هي أعمق من التصور السطحي تكون منسجمة.

ـ إنّها ذات أشكال مختلفة

أما الشكل الملائكي الذي يفترضه البعض بصورة قريبة من صورة الإنسان فإن الأحاديث تلغيه تماماً، حتى لو قالت الأحاديث بوجود أعضاء للملائكة والأعضاء لا تحتم الشكل الآدمي فمثلاً: إن الأخطبوط له أعضاء من حواس ودماغ وأطراف لكنها تختلف عن الأعضاء البشرية وكذلك بقية المخلوقات وقد يكون التفاوت في أشكال المخلوقات التي تعيش في فضاء واحد هائلاً كما في التفاوت بين الحشرات مثلاً والحيوانات آكلة العشب، أما في حال تعدد الفضاء كالماء واليابسة فإن التفاوت سيكون أكبر حيث توجد مخلوقات لا يمكن تخيل التفاوت في أشكالها مهما بذل الإنسان من جهد في التصور والخيال، ومن هنا فإننا حين نفترض فضاءً ذا قانون مختلف فإن الفضاء الجديد سوف لا تحدّه نفس الحدود ولذلك فإنّ أشكالاً جديدة ولا داعي لأن نفترض أن قدرة الله على إبداع الأشكال محدودة بحدود قدرتنا خصوصاً أننا نقول أنّها لا نهائية.

ولهذا فإن الأحاديث صارت تفترض شكلاً غاية في الغرابة إنّها ذات أنحاء وكل نحو منها ذو طبيعة خاصة.

ولهذا من الطبيعي بالنسبة لنا أن نتصور الأشكال بعد أن نضع بعيداً عن أذهاننا الحالة المادية التي تعودنا رؤيتها، وحين نريد أن نتخيل شيئاً جديداً فإننا نجري تعديلاً عن طريق للجمع بين الأشكال المعروفة لتركيب هذا الشكل، أما

بالنسبة لإبداع شكل جديد فإن القضية ستكون مختلفة جداً، ومن الواضح أن تصميم الشكل ليست قضية اعتباطية، بل إن الشكل يرتبط بطبيعة الفاعليات التي يؤديها. فالسرعة تقتضي صورة معينة وعدم تصادم الشيء مع أجزائه وعدم تصادم الأجزاء مع بعضها وعشرات الشروط التي يراعيها المضمون، وهو علم مهم في تحسين أداء الآلات ونفس الشيء بالنسبة للكائن الحي، فمثلاً يقول العلماء بأن انتصاب قامة الإنسان لها دخل كبير في تفوق الإنسان على بقية الكائنات.

ـ إنّها عاقلة وذات درجة ذكاء عالية

هذه المعلومة نقلها حديث الإمام بصورة مباشرة ونفهم في بقية الأحاديث بصورة غير مباشرة، ولعل الذكاء العالي نابع من حالة التجرد، فإنّه مما تشير إليه العلوم الحديثة أن الإنسان يرتفع ذكاؤه بشدة في حالة التجرد لأنّه يصل إلى استخدام قوى عقلية مودعة داخله حسب ما أفادته الأبحاث الحديثة، وهي تظهر بشكل تلقائي عند بعض الناس الموهوبين وتظهر بعد التدريب عند فئة أخرى من البشر كالتي يمارسها العرفاء فيصبح لدى الإنسان قدرة عالية على الإدراك يستفاد منها أحياناً في عمليات الشعوذة أو فرض الإرادة على الآخرين، وقد حاول العلماء دراسة هذه القوى في الفترة الأخيرة وتوصلوا إلى نتائج باهرة.

وحين نفترض أن هؤلاء الناس وصلوا إلى درجة معينة من التجرد، فإننا نستطيع أن نقول إنه تجرد ناقص لبقاء الروابط مع المادة قوية وكثيفة، ولكن بالنسبة للملائكة فإنّ حالة التجرد ستكون تامة ولهذا فإن القدرة ستكون فائقة جداً وينطوي الملك على ذكاء خارق.

ومع كل ذلك فليس من الضروري إجراء هذه المقارنة فكما قلنا إن الطرق التي جعلت الملائكة ذوي قدرة عالية من الذكاء ترتبط أصلاً بعملية إبداع الخالق للمخلوقات، وهي يمكن أن تتم بكيفيات متعددة كما قلنا ولا تنحصر ولكن تذكّر أحد الأشكال لتقريب التصور لا أكثر.

أما نفس عملية العقل فإنّها أحد أهم الغوامض التي تحتاج إلى بحث، فالحواس هي مجرد وسائط. ونفس الشيء بالنسبة للدماغ. أما الجهاز الذي يمارس الإدراك فحسب الظاهر هو ليس الدماغ رغم وجود علاقة وثيقة بين الدماغ والإدراك، ولا يزال العلماء يلاحقون القضية لمعرفة أسرار عملية الإدراك.

- إنّها ذات قوى وقدرات عالية جداً

وهنا يمكن تكرار نفس الحديث عن الذكاء لأنّ البشر استطاعوا أداء فعاليات والحصول على قوى خارقة وهذه القضية يؤيدها القرآن والعلم الحديث فالقرآن نقل وعلل ذلك بالعلم ﴿ *قال الذي عنده علم من الكتاب...* ﴾[1] فالعلم له قدرة خارقة ليتحكم بالذات فاستطاع نقل العرش من مكان إلى مكان بدون زمن تقريباً وهي مسافة تبلغ الآلاف من الكيلومترات، وبرزت في هذا الإطار لدى كثير من الشر قدرات فائقة ويمكن افتراض حالة مضاعفة لدى الملائكة خصوصاً أنها مسخرة في خدمة البرنامج الكوني الذي تفترضه وتفترض أن الملائكة هم المكلفون بالمحافظة والمراقبة على سيرة وحسن أدائه.

وهذه الفرضية تقوم على أساس أن القوة تأتي من التصرف في المادة عن طريق تحريك الريح أو الصعق بالمجال الكهربائي أو قوى أخرى يمكن حثها

---

(١) سورة النحل : ٤٠ .

فتحدث تأثيرات هائلة في الطبيعة أو أن الملائكة هم أنفسهم قادرون على إنتاج قوى هائلة شبيهة بالقوة البشرية ويمكن أن يكون لا هذا ولا ذاك كما أسلفنا أو عن طريق التصرف بالقوانين من قبل تحرير بعض القوى على الطريقة التي ذكرها القرآن.

- إنّها مخلوقات قديمة

لا نعني بالقدم الذي يتصف به الله بل تاريخ ظهور الملائكة حسب ما تفيده الأحاديث والآيات، فالقرآن يشير إلى أسبقية خلق الملائكة وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام في خطبته الأولى في نهج البلاغة أن بعد خلق المادة كان الملائكة هم أول مخلوقات حية عاقلة ظهرت على الطبيعة، وهو أمر يتسق اتّساقاً كاملاً مع المنطق لأنها ستكون حجر الزاوية في الحياة العاقلة، فالعقل ظهر بعد المادة مباشرة وليس بالضرورة أنّها هي هذه المادة بهذه الكيفية بل لعلها كانت حلقة الوصل بين القوى المادية وغير المادية، كما أن الفيروس يمثل حلقة الوصل بين الحياة والجماد وهذا القدم له أثر كبير في تكوين حقيقة الملائكة وإطلاعهم على حقائق العالم الأمر الذي يجعل منهم علماء.

الملائكة أجسام لطيفة

لقد نصت الأحاديث على أن الملائكة ذوو أجسام، وأنها مكونة من نور وهذا هو الذي جعل البعض يقولون أنّهم أجسام لطيفة بدون تحديد دقيق لما تعنيه، فإن كان النظر إلى كونهم غير مرئيون من قبل البشر فإنَ اللطافة تعني عدم قدرة الأعصاب البصرية على تحسس الأطوال الموجية التي تصدر عنهم، أو أنّها لا تصدر عنهم أطوال موجية، أو إذا كان المقصود هو قدرتهم على

التشكل بأشكال غير محددة فإن هذا معارض بالأحاديث التي تؤكد وجود أجزاء ومفاصل وأحياء ثابتة، ولهذا يمكن أن يكون تقبل التغيير المؤقت وتعود من جديد إلى وضعها السابقة كالأجسام المطاطية.

وقد يكون المقصود بها أنّها غير متحيزة، أو أنّها قابلة للتداخل فيمكن أن يشغل اثنين منها أو أكثر حيزاً واحداً بما يشبه السحابة من النور، وليس بالضرورة أن تكون محكومة بالقوانين المعروفة لدينا، ولعلها فقط تكون كذلك حين تهبط إلى السماء الدنيا حيث تراعي في وجودها قوانين المادة، ولهذا يمكن تصور حالة تشبه التي تحدث عنها أنشتاين في نسبيته إذ لا يكون المكان والزمان مستقلاً عن المادة، ولهذا يمكن افتراض حيز خاص مختلف عن الحيز الذي يحكم المادة لدينا، أما إذا قلنا أن الضوء أو النور هو ليس هذا النور الذي ينتمي إلى مادتنا بل هو مجرد تقريب للتصور وفي هذه الحالة علينا أن نفترض أن النور الذي أوجد الملائكة هو نور آخر لا يمكن لنا الحديث عنه إلاّ بصورة تقريبية.

أما لو كانت من نفس النور، فإننا في هذه الحالة لا بد من افتراض وجود طبقة من الوجود تختلف في أحكامها. فمثلاً إن النور يمكنه أن يعبر من الذرة، وهكذا يمكن له أن يتخلل المادة دون أن يتضرر أو يوقع ضرر بالمادة خصوصاً إذا افترضنا أن العالم ما دون الذرة أو مادون الأجرام الذرية يحتفظ بفضاء كذلك يتيح للأجرام الصغيرة جداً العبور ببساطة خصوصاً إذا افترضنا أن المجال الذي يربط بين أجزاء الملك أقوى من المجالات بحيث لا ينتهي إلى تفكك أحدهما.

قدرتهم على التشكّل بأشكال مختلفة

ولعل المقصود بها بدرجة رئيسة الظهور بمظهر البشر، وهذا لا شك تعتمد على أكثر من أسلوب: الأول هو الإيحاء للناس بأن الذي يرونه هو إنسان وهذا يعني التصرف بالذهن وقوة الإدراك البشرية، والأسلوب الثاني هو أن الملائكة تعمل على الاكتساء بطبقة قادرة على عكس الضوء بحيث أن العين البشرية تفسر ما تشاهده بأنه بشر وهو واضح أنّه يختلف بحسب الحالة، فإن قلنا أنه يتم عن طريق التصرف بمادة الملك بحيث تبدو كإنسان أو بجزء من المادة أو إنتاج صورة على طريقة السينما ولكن بصورة أكثر اتقاناً وبدون الحاجة إلى شاشة، والطريقة الثالثة التصرف بتفسير المشاهد أو بطريقة الروح وما تنطوي عليه من إمكانات خارقة.

ولكل من هذه الحالات نمط خاص، هناك فرضيات أخرى خارج ما أوردناه وهكذا نقف أمام عدد كبير من السبل لإنتاج هذه الحالة وكما قلنا لا بد بدءاً من تحديد هل أن ما يحصل هو بأمر الملك وطبق طاقاته أي بتفويض سابق؟ أم أنه بأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى؟ وهنا تختلف الحالة حيث أن طاقة الملك مهما بدت كبيرة فإنّها محددة، وفي الحالة الأخرى تقف أمام امتداد لا نهائي. ولعل الافتراض الأول هو الأنسب لأنّ الله سبحانه وتعالى أعطى للمخلوقات نسبة معينة في التصرف لا يخرج عنها لأنّها محكومة بقيود فرضها الله سبحانه وتعالى.

عروج الملائكة وهبوطهم إلى الأرض

ولعل استخدام مفردة عروج فيه دلالة مستوحاة من نفس المفردة التي تعني الصعود إلى الأعلى بدون وسائل مادية، وهنا يلفت نظرنا إلى الصعود الذي يوحي بوجود مكان أسفل وأعلى، وهنا لا يمكن القبول بهذا بالنسبة للكون لأن المكان كروي، وبالتالي فإن أي نقطة لها نفس النسبة بالنسبة للنقاط الأخرى وهذا يجعلنا نفترض وجود مركز وسطح فإذا كانت الأرض في السطح فإن القرآن سيفترض أن السطح هو النقطة السفلى وأن المركز هو النقطة العليا ويمكن أن يكون العكس.

والقرآن يخبرنا عن وجود سبع سموات وسبع أرضين ويسمي السماء الدنيا، وهي من الدنو وهناك أيضاً العرش والكرسي وكل واحدة من هذه ذات سعة كبيرة، كما يفترضها القرآن ويمكن أن تكون ضمن هذا الكون وضمن طبقات سبعة كما هي بالنسبة لمستويات الذرة السبع التي تسبح فيها الالكترونات، ولتكن النواة هي الكرسي والعرش خصوصاً أن الكون ممتد إلى أبعاد هائلة سيكون معنى العروج هو قطع المسافات الشاسعة بسرعة كبيرة، أما إذا افترضنا أن الأعلى والأسفل هو طبقات مختلفة بالنسبة للقوانين فإن كل طبقة قوانينها تختلف عن الأخرى، فمثلاً بالنسبة للأحياء والجوامد فالعلو والتسافل نسبة إلى طبيعة القوانين، بحيث أن الطبقة التي يعيش فيها البشر سافلة، لأن القيود فيها كثيرة والبعد عن مركز الكون ومصدر العلم كبير، لذلك فإنها أصبحت طبقة تشبه المنفى، ولهذا فإن العروج يعني حصول

التحولات اللازمة للصعود إلى العالم المادي العالم الذي لا توجد هذه القيود. وكما ورد في بعض الأحاديث إن معارجاً تنصب للملائكة فيعرجون فيها إلى السماء.

ويتطرق المصنف بعد وجود الملائكة إلى موضوع كثرتهم وطول أعمارهم والكثرة التي تفوق التصور. وتفيد الروايات أن عملية الخلق لا تزال مستمرة وبشكل سريع، ولعل في الحديث إشارة إلى أن كثرة خلق الملائكة مواز لاتساع الخلق، فهو كما جاء في مقطع من حديث المعراج الذي يتحدث عن مكان يشبه السوق. الملائكة فيه بعضهم يمشي باتجاه بعض فسأل رسول الله إلى أين يذهبون، فقال جبرائيل: لا أدري إلا أني أراهم منذ خلقت ولا أرى أحداً منهم قد رأيته قبل ذلك. وإلى هذا الحد من الحديث تنعكس قضية الكثرة وفي المقطع التالي ينعكس طول العمر فيقول: »ثم سألوا واحداً منهم منذ كم خلقت؟ فقال: لا أدري غير أن الله تعالى يخلق كوكباً كل أربعمائة ألف سنة فخلق مثل ذلك الكوكب منذ خلقني أربعمائة ألف كوكب. وفي هذا إشارة إلى أن الله مستمر على خلق الكواكب، وهذه حقيقة علمية أثبتتها الأبحاث العلمية المعاصرة، وأن عملية توالد الكواكب مستمرة كما أن عملية الاتساع في الكون متواصلة أيضاً، وأن عملية خلق الملك متواصلة كذلك لأننا كما قلنا أن الملائكة تضطلع بعملية الإشراف والمراقبة على البناء الداخلي للكوكب وعلاقاته بأجزاء الكون الأخرى، وهذه ضرورة تفرضها عملية التواصل في اتساع الكون.

كونهم من نور

وهنا لا بد أن نفترض أولاً أن النور هو نفس هذه الفوتونات من النور، لكن النور منه مرئي ومنه أشعة غير مرئية، وحين نفترض أنه مرئي فإننا لا بد أن نفسر كيف أن الملائكة غير مرئيين، أما إذا قلنا إنهم مركبون من أشعة غير مرئية ابتداءً فإنها أيضاً ستكون غير مرئية، وبعد ذلك فإننا نقول هل أن الأشعة مركبة من عدة أنواع، كما أن الفاصلة بين التراب الذي يتركب منه الإنسان وبين الإنسان هائلة جداً.

أما إذا قلنا أنّهم مركبون من نور آخر فإن المسألة تصبح أكثر تعقيداً، لأنّنا لا نعرف مدى التفاوت بين النور الآخر والنور الذي نعرفه ولا بد أيضاً أن نفترض وجه تشابه بين الاثنين.

وفي نهاية هذا المقطع يمكن أن نلاحظ أن التفسير سار على خطى الآيات وحلول الحكاية عن عالم الملائكة الغيبي، وذلك العالم يتصور في خطين رئيسين الأول: هو هدم التصورات الخاطئة والسلبية، والثاني: تأكيد صفات الملائكة وهي صفات برزت من خلال الآيات التي مرت وبحثت:

١ ـ طبيعة الملائكة وكونهم كائنات غير مرئية. وأن رؤيتهم لا تحدث في الأوضاع العادية، وإن حدثت فإن ما يترتب عليها أشياء خطيرة جداً.

٢ ـ أن الملائكة يشرفون على أجزاء الكون، ويدبرون حياة الإنسان والجماد.

٣ ـ أنّهم يحافظون على صرامة الكون.

٤ ـ أنهم يطّلعون على البرنامج الكوني ويعملون على الحفاظ على سير الموجودات طبقاً له.

٥ ـ أنّهم كائنات منظمة متخصصة معصومة.

٦ ـ أن هناك فضاء من العلاقات بين الإنسان والملائكة والجن والبشر، وهذا الفضاء يعتمد على الحب ضمن دائرة الإيمان ويقوم على الوفاء والإخلاص، وعكسه الفضاء الذي يعتمد على الكفر الذي ظاهره الحب وحقيقته الخداع.

٧ ـ أن عملية العروج تعني الحركة في أفق عظيم من المسافات، أو أنّه الانتقال من العوالم والقدرة على التكيف وفق القوانين التي تختلف من عالم إلى عالم.

٨ ـ الملائكة هم البنية التحتية للوجود وكل ما بعدها يعتمد عليها، أو أنها كذلك في جزء من الملكوت الذي يمكن أن يمتد إلى آفاق أخرى مجهولة.

الفصل الخامس

الملائكة المقرّبون

- معنى القرب في اللّغة والاصطلاح
- مداليل ومقوّمات القرب
- الارتباط بين القرب والصفات
- من هم الملائكة المقرّبون؟
- مهام وفعاليات جبرائيل
- إسرافيل أثناء تلقّي الوحي
- إشراف جبرائيل على عزرائيل
- عصمة الملائكة
- المعنى اللغوي والموضوعي للعصمة
- إثبات العصمة بتأويل الآيات

لقد مرّت في البحث السابق أوصاف وشؤون الملائكة بحسب الآيات والروايات التي تناولت هذه الأوصاف وفصلتها تفصيلاً جعلتها أكثر وضوحاً، تبين من خلال ذلك أنّها كائنات مدبّرة للخلق اختارها وخلقها الله قبل الجن والإنس.

كما فهمنا من البحث أنّها أكثر من طبقة وأنها ذوات رتب مختلفة ومنازل متفاوتة، كما تتفاوت أشكالها وأحجامها، وهي بصورة عامة مقرّبة إلى الله وتستلم الوحي منه سبحانه وتعالى وتوصله إلى بقية مخلوقات الله لتسير عليه. وكما أسلفنا أن الوحي ليس بمعنى رسالات الأنبياء فحسب بل هو جميع ما يتعلق بشؤون الخلق سواء كان وحياً كأديان وشرائع أو وحياً يحدّد مسارها الوجودي من قبيل الآجال والأرزاق أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

وحتى لو كانت الملائكة بصورة عامة أقرب إلى الله من سواها لكن قربها يحتوي على رتب ودرجات مما يؤدي بالنتيجة إلى اختلاف درجة القرب، فهناك الأقرب والذين لا يفوقهم بالقرب من الملائكة أحد وهم الذين أطلق عليهم مصطلح «الملائكة المقرّبون»، وهنا تلوح جملة مواضيع كتفاصيل وتوضيحات لهذا الموضوع أولّها معنى القرب:

١ ـ المعنى اللغوي والاصطلاحي.

٢ ـ مداليل ومقومات القرب.

أ ـ القرب في المكانة والمكان والحجب.

ب ـ ارتباط القرب بالمواصفات وهل هو جازم ولازم أم لا؟

٣ ـ المقرّبون جهاز ارتباط بين اللانهائي والنهائي أو بين الله والوجود.

٤ ـ المقرّبون جهاز تنظيم وإدارة.

٥ ـ المقرّبون جهاز إنتاج الملائكة.

٦ ـ المقرّبون هم: (جبرائيل، إسرافيل، ميكائيل، عزرائيل).

معنى القرب في اللغة والاصطلاح

جاء في القاموس المحيط «قَرَبَ، قرباً وقُرباناً وقِرباناً: دنا فهو قريب للواحد والجمع»[1].

وفي المصطلح:

ورد مصطلح القرب في القرآن في الآية (١٧٢) من سورة النساء، فقال الله عزّ وجل: ﴿*لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون*﴾.

وقد جاء في تفسيرها ما يلي:

وقوله تعالى: ﴿*ولا الملائكة المقربون*﴾ تعميم للكلام على الملائكة لجريان الحجة بعينها فيها. وقد قال جماعة من المشركين ـ كمشركي العرب ـ بكونهم بنات الله. فالجملة استطرادية.

والتعبير في الآية أعني قوله: ﴿*لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون*﴾ عن عيسى ﷺ. وكذا توصيف الملائكة بالمقرّبين مشعراً بالعلّة لما فيها من معنى الوصف، أي أن عيسى لن يستنكف عن عبادته وكيف يستنكف وهو مسيح مبارك ﷺ ولا الملائكة وهم مقرّبون؟ ولو رجا فيهم أن يستنكفوا

---

(١) القاموس المحيط: ١٥٧ ـ مادة قرب

لم يبارك الله فيهم في هذا ولا قرب هـؤلاء. وقد وصف الله المسيح أيضاً بأنه مقرّب في قوله: ﴿ *وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين* ﴾[١].[٢]

ومن علامات القرب التي ورد في الآيات الكريمة ما يلي:

١ - ﴿ *نزل به الروح الأمين ❖ على قلبك لتكون من المنذرين* ﴾[٣].

٢ - ﴿ *إنّه لقول رسول كريم ❖ ذي قوة عند ذي العرش مكين ❖ مطاع ثم أمين ❖ وما صاحبكم بمجنون ❖ ولقد رآه بالأفق المبين ❖ وما هو على الغيب بضنين* ﴾[٤].

٣ - ﴿ *علّمه شديد القوى ❖ ذو مرّة فاستوى ❖ وهو بالأفق الأعلى ❖ ثم دنـا فتدلّى ❖ فكان قاب قوسين أو أدنى* ﴾[٥].

القرب في التفسير

قوله تعالى: ﴿ *نـزل بـه* ﴾ قال الطبرسي ﷺ: أي نزل الله بـالقرآن. الروح الأمين يعني جبرئيل ﷺ وهو أمين الله عليه لا يغيّره ولا يبدّله، وسمّاه روحاً لأنّه يحيي به الدين، وقيل: لأنّه يحيي به الأرواح بما ينزل من البركات، وقيل: لأنّه جسم روحاني ﴿ *علـى قلبك* ﴾ يا محمّد، وهذا على سبيل التوسع لأنه تعالى يسمعه جبرائيل فيحفظه، فينزل به على الرسول فيقرأه عليه، فيعيه ويحفظه بقلبه، فكأنه نزل به على قلبه، وقيل: معناه: لقّنك الله حق تلقينه (على قلبك) وجعل قلبك وعاءً له.

---

(١) سورة آل عمران: ٤٥ .

(٢) تفسير الميزان: ٤/ ١٥١ .

(٣) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) سورة التكوير: ١٩ ـ ٢٤

(٥) سورة النجم : ٥ ـ ٩ .

وقال البيضاوي: القلب إن أراد به الروح فذاك، وإن أراد به العضو فتخصيصه لأنّ المعاني الروحانيّة إنّما تنزل أوّلاً على الروح، ثمّ تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلّق، ثم تتصعّد إلى الدماغ فينتعش بها لوح المتخيلّة. والروح الأمين جبرئيل فإنّه أمين على وحيه ﴿لتكون من المنذرين﴾ عمّا يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك[1].

قوله تعالى: ﴿علّمه شديد القوى﴾ قال الطبرسي ﷺ: يعني (به) جبرئيل ﷺ أي القوي في نفسه وخلقه ﴿ذو مرّة﴾ أي ذو قوّة وشدة في خلقه، عن الكلبي، وقال: من قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود فرفعها إلى السماء ثمّ قلبها، ومن شدّة صيحته لقوم قرى ثمود حتى أهلكوا. وقيل: معناه ذو صحة وخلق حسن. عن ابن عباس وغيره. وقيل: شديد القوى في ذات الله ﴿ذو مرّة﴾ أي صحة في الجسم سليم من الآفات والعيوب، وقيل: ذو مرّة أي ذو مرور في الهواء ذاهباً وجائياً نازلاً وصاعداً. ﴿فاستوى﴾ جبرئيل على الصورة التي خلق عليها بعد انحداره إلى محمّد ﷺ وهو كناية عن جبرائيل أيضاً. ﴿بالأفق الأعلى﴾ يعني أفق المشرق، والمراد بالأعلى جانب المشرق، وهو فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء. قالوا: كان جبرئيل ﷺ يأتي النبي ﷺ في صورة الآدميين، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها، فأراه نفسه مرّتين: مرّة في الأرض، ومرّة في السماء، أما في الأرض ففي الأفق الأعلى، وذلك أن محمّداً ﷺ كان بحراء، فطلع له جبرائيل ﷺ من المشرق، فسدّ الأفق إلى المغرب فخرّ النبي ﷺ مغشياً عليه، فنزل جبرائيل في صورة الآدميين فضمّه إلى نفسه وهو قوله: ﴿ثم دنا فتدلّى﴾ وتقديره: ثم دنا أي قرب بعد بعده وعلوه في الأفق الأعلى، فدنا من محمد ﷺ قال الحسن وقتادة: ثم دنا جبرئيل بعد استوائه بالأفق الأعلى من

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٥.

الأرض فنزل إلى محمدﷺ وقال الزجّاج: معنى دنا وتدلّى واحد لأن معنى دنا: قرب، وتدلّى: زاد في القرب. وقيل: إن المعنى استوى جبرائيل أي ارتفع وعلا إلى السماء بعد أن علم محمّدﷺ عن ابن مسيّب، وقيل: استوى أي اعتدل واقفاً في الهواء بعد أن كان ينزل بسرعة ليراه النبيﷺ وقيل: معناه استوى جبرئيل عليه السلام ومحمد بالأفق الأعلى يعني السماء الدنيا ليلة المعراج. ﴿ *فكان قاب قوسين* ﴾ أي كان ما بين جبرئيل عليه السلام وبين رسول اللهﷺ قاب قوسين، والقوس ما يرمى به، وخصّت بالذكر على عاداتهم يقال: قاب قوس وقاد قوس، وقيل: معناه كان قدر ذراعين كما روي عن النبيﷺ فمعنى القوس ما يقاس به والذراع يقاس به ﴿ *او ادنى* ﴾ وقال الزجاج: إن العباد قد خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم، وقيل لهم في هذا ما يقال للذي يحزز، فالمعنى: فكان على ما تقدرونه أنتم قدر قوسين أو أقل من ذلك، وقال عبد الله بن مسعود: إن رسول اللهﷺ رأى جبرئيل وله ستّمائة جناح، وقال في قوله تعالى: ﴿ *إنه لقول رسول كريم* ﴾ أي أنّ القرآن قول رسول كريم على ربه، وهو جبرئيل عليه السلام وهو كلام الله أنزله على لسانه[1].

قوله تعالى: ﴿ *ذي قوّة* ﴾ أي فيما كلف وأمر به من العلم والعمل وتبليغ الرسالة وقيل: ذي قدرة في نفسه، ومن قوته قلع ديار قوم لوط بقوادم جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها ﴿ *عند ذي العرش مكين* ﴾ معناه متمكن عند الله صاحب العرش وخالقه، رفيع المنزلة، عظيم القدر عنده، كما يقال: «فلان مكين عند السلطان» والمكانة: القرب. ﴿ *مطاع ثمّ* ﴾ أي في السماء تطيعه ملائكة السماء، قالوا: ومن طاعة الملائكة لجبرئيل أنه أمر خازن الجنة ليلة المعراج حتى فتح لمحمدﷺ أبوابها فدخلها، ورأى ما فيها، وأمر خازن النار ففتح له عنها حتى نظر إليها. ﴿ *امين* ﴾ أي على وحي الله ورسالاته إلى أنبيائه، وفي

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٧ .

الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبرائيل: ما أحسن ما أثنى عليك ربك؟! ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين﴾! فما كانت قوتك؟ وما كانت أمانتك؟ فقال: أما قوتي، بعثت إلى مدائن لوط فهي أربع مدائن، في كلّ مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم من الأرض السفلى حتّى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب ثم هويت بهن فقلبتهن.

وأما أمانتي، فإني لم أومر بشيء فعدوته إلى غيره ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ أي رأى محمد صلى الله عليه وآله جبرئيل على صورته التي خلقه الله تعالى عليها حيث تطلع الشمس وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ قرأ أهل البصرة - غير سهل - وابن كثير والكسائي بالظاء، والباقون بالضاد، فعلى الأوّل: المعنى أنّه ليس على وحي الله تعالى وما يخبر به من الأخبار بمتّهم، فإنّ أحواله ناطقة بالصدق والأمانة. وعلى الثاني: أي ليس ببخيل فيما يؤدّي عن الله، إذ يعلمه كما علّمه الله تعالى[1].

مداليل ومقوّمات القرب

وبناءً على ما أورده المفسرون تكون جملة الصفات هذه هي من مداليل ومقومات القرب، لأنّ الله سبحانه وتعالى قد وصف صنف من الملائكة بها، ثم إن الصفات العامة التي وردت من قبيل مكين أي ذو مكانة عند ذي العرش وهو نفسه القرب كما أن وصف جبرائيل بالأمانة، وإن وصفه بالشدة في القوى والأخلاق أكثر دلالة على المطلوب؛ لأن القرب ليس سوى الشدة في الأخلاق الملائكية وهي المقوم الأساسي للمكانة عند الله.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٤٧ - ٢٤٨ .

فإذا كانت الملائكة بصورة عامة هي كائنات مدبرة للكون، فإن الملائكة المقرّبين هم المدبّرون لهؤلاء المدبرون، فهم نواة التدبير أو إدارة هذه الطبقة فهنا القرب مساوق لطبيعة المهمة الرئيسية وليست مجرد تشريف.

وهكذا فإن صلب القرب هو صلب المهمة الكلية الرئيسية لهذه المخلوقات الكريمة، فهم الأقرب بناءً على امتلاكهم لقدرات تمكنهم من هذا القرب فضلاً عن قدرتهم على تحمل تبعات هذا القرب، لأنّه قد يقود إلى الغرور والتمرد بحكم إمكانية التسلط على عدد هائل من المخلوقات وامتلاك مصيرها ومعرفة المداخل والمخارج ونقاط القوة والضعف، الأمر الذي لو كان فيه فسحة للتمرد لقاد إلى خراب كبير وواسع في الكون.

ولهذا فإن المطلوب من الطبقة الأولى حصانة شديدة بنفس شدة البناء والنظام الكوني الدقيق وأن هذه الشدة لا بد أن تتواصل لتعطي النتيجة الشديدة في النهاية، لأن الارتخاء والتحلل إن بدأ من الأساس فإنه ينتج فجوات رهيبة في البناء الفوقي، أما بالنسبة للأحاديث فقد فسرت بطريقة المصاديق معنى القرب، فبالنسبة لآية ﴿*لقد رآه في الأفق المبين*﴾ فعن ابن مسعود، قال: جبرائيل في رفرف أخضر قد سد الأفق[1].

وهذا يعني أن جبرائيل عظيم الخلقة يرفل بالنعيم كناية عن الكرامة التي له عند الله سبحانه وتعالى، وهذا تأكيد على جانب النعمة التي هي انعكاس لرضاء الله وأنه سد الأفق، فالمصداق الأول هو عظمة الخلقة وأنّه عبر عن هذه العظمة بأنّه سد الأفق، وبالنسبة للباسه فهو لباس النعمة الذي عادةً يوصف به أهل الجنة.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٣.

وعن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ قال: جبرئيل ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[١] قال: على سبعين حجاباً يدخلها بغير إذن[٢].

والأمانة هنا هي مصداق للقرب ومن معانيها أن جبرائيل عليه السلام مطّلع على غيب الله ما لم يطّلع عليه سواه فهو متقدم سبعين حجاباً عن سواه وله أن يدخلها بغير إذن. وهذا الحديث يعكس أفقاً من آفاق النظام في الملأ الأعلى، فالغيب درجات منها درجة من الغيب في الحياة الدنيا تحدد الإنسان وحين يأتي يوم القيامة فإن درجة أخرى تتحول إلى الشهود أي ترفع عنه الحجب وهو ما عبّرت عنه الآية: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٣] وبالنسبة للجن فإنها تطّلع على درجة من الغيب بحكم بنيتها، ولهذا فإن نظام حراسة وضع لمنع استماع الجن للسماء واكتشاف أسرار ليس لهم الحق في معرفتها. ونفس الشيء ينطبق على الملائكة التي هي عموماً كائنات مقربة وإنها أكثر إطلاعاً على الغيب من سواها، ولكنها أيضاً تطّلع بدرجات متفاوتة حتى يصل الأمر إلى جبرائيل عليه السلام الذي يتقدم على سواه بسبعين حجاباً يغوص فيها إلى أعماق الغيب ثم يصل إلى حد يقف عنده ولا يتعداه، فهناك إذن طبقات من الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾[٤].

وعن النبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ قال: الروح الأمين جبرائيل، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس[٥].

---

(١) سورة التكوير: ١٩ ـ ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٣.

(٣) سورة ق: ٢٢.

(٤) سورة الجن: ٢٦.

(٥) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦١.

وفي هذا الحديث تكرار لعظمة الخلقة وظرافتها وجمالها ولأول مرة يشار إلى أجنحة الملائكة، فالأجنحة في هذا الحديث ليست من ريش بل من المعدن الذي يركب منه اللؤلؤ، وهنا طبعاً وجه شبه بين أجنحة الطيور وأجنحة الملائكة في جانب لكن هناك اختلافات مثل استخدام اللؤلؤ فيها، ولعل هناك فوارق أخرى تجعلنا نذهب إلى استنتاج كون الاتحاد والتشابه في المبدأ وليس بمعنى التطابق مع أجنحة الطير أي أنها جميعاً تستخدم في الطيران.

سئل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿*ولقد رأى*﴾. وذكر مثله[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لجبرائيل عليه السلام: ما أحسن ما أثنى عليك ربك ﴿*ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين*﴾ ما كانت قوتك؟ وما كانت أمانتك؟ قال: أما قوتي فإني بعثت إلى مدائن قوم لوط، وهي أربع مدائن وفي كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، حملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب، وهويت بهن فقتلتهن. وأما أمانتي فلم أومر بشيء فعدوته إلى غيره[2].

وفي هذا أيضاً إشارة إلى ما أعطى الله تعالى جبرائيل من قوة يتصرف بها لكنه رغم كل هذه القوة والقدرة لا يعدو ولو بالقليل عن أمر ربّه، وهذا طبعاً يعني القضاء قضاءً تاماً على حالة الاجتهاد قبال نص الأمر الذي وقع فيه الشيطان حيث أمر بالسجود لآدم وعدل عنه إلى الرفض بناءً على اعتقاد أفضليته على آدم، فهذه الحالة معدومة عند جبرائيل نهائياً.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٩.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٦٣.

الارتباط بين القرب والصفات

ومما يدل على هذا الأمر ورود جملة من خصائص وصفات جبرائيل عليه السلام، منها القوة في الجانب الجسماني، فهي هائلة جداً تماماً كقوته الخلقية مضافاً إلى الحسن، وكل من هذه الأوصاف تعني حالة من التكامل في أغلب جوانب الوجود، أي الكمال البدني والكمال الأخلاقي والكمال في الجانب الجمالي.

ويترتب على هذا التكامل المكانة والقرب من الله سبحانه وتعالى، وهي مدار البحث فجبرائيل بناءً على مواصفات خاصة حاز على الدرجة الرفيعة، ونال القرب بحسب ما جاء في الآية: ﴿*عند ذي العرش مكين*﴾[1] فالله سبحانه وتعالى منحه مكانة خاصة ويتفرع عنها امتلاكه لسلطة واسعة تجعله مطاعاً إما مباشرة أو من خلال طاعة الجهاز الضخم الذي تمثله الملائكة المتسلطة على الوجود برمته في الحدود التي يأذن بها الله سبحانه وتعالى، وكما يبدو أنها سلطة تامة لا تترك صغيرة ولا كبيرة كما تصف الآيات: ﴿... *وما تسقط من ورقة*﴾[2] فمهما بدت بعض الأشياء صغيرة وتافهة في أعيننا فإنّها تأتي في إطار حسابات وإشراف هذا الجهاز الإداري الهائل سواء في عدد أفراده أو في إمكانياتهم العقلية والجسدية، فالله سبحانه منحهم سُلطة على الوجود بسبب مواصفاتهم التي تعد الأمانة أهمها فهم أهل أن يمنحوا هذه الطاعة وجبرائيل عليه السلام هو الحالة القصوى لتلك المواصفات فهو كما قلنا لا يشذ ولو بالقليل عما يريده الله، فالمحور الرئيسي الذي تبينه الآيات (حقيقة القرب) النظرية والتي تساوق عملياً درجة من درجات التفويض تتناسب مع طاعة

---

(١) سورة التكوير : ٢٠.

(٢) سورة الأنعام: ٥٩.

الملائكة لله سبحانه وتعالى وبسبب امتلاكها لقدرات ومواصفات خاصة وقد أكدت ذلك جملة الأحاديث.

فالقرب هنا على ما يبدو مشترك في المكانة والمكان، فالمكانة يعبّر عنها بخرق الحجب والوصول إلى أماكن في الكون لا يصل إليها أحد ثم إن كل ملك له حد معين لا يجوزه، كما أكده الحديث من وجود نهر النور الذي لم يعبره ملك مقرب ولا نبي مرسل وهو أقصى عالم الخلق والخليقة.

ومن الطبيعي هنا أن لا نتصوّر أن الله سبحانه وتعالى موجود في نقطة ما من هذا الوجود، بل لعل هذا المكان هو مركز إدارة أو حد الوجود الذي ينتهي إليه الملكوت، وكما جاء في الحديث فإن الحجب تدمر المخلوقات التي تعبرها، ولنفرض أنها مركز انطلاق الطاقة أو المادة الأساسية في الوجود، وبالتالي فإن أحداً لا يستطيع أن يصل إلى ذلك المكان، أو لعل ذلك المكان هو عالم ذو قوانين مختلفة بحيث لا يمكن لكائن ما أن يلج إليه ما لم تتغيّر بنيته بصورة كلية، فإذا افترضنا أن الوحدات الأساسية في هذا الوجود وهي (أ،ت) فإن ذاك وحداته الأساسية هي (حـ، د). وعلى هذا الأساس فإن الملائكة المدبرة للكون تعلم مكان بعينه هو الذي يكون أقرب إلى مركز إدارة الكون من خلال معالم معيّنة هي اللوح والقلم وسدرة المنتهى، وهنا توجد مظاهر تجلّي الله وبروز معالم جبروته وجلاله وفرقها عن سواها. أن الملائكة في تماس مباشر معها وبصورة متواصلة حيث يأتي الوحي والأوامر الإلهية ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾[1] بحسب حركة الوجود وبروز الظواهر من الغيب إلى الوجود والتي لا يعلم مداها وأصلها ومنتهاها إلاّ الله سبحانه.

وكما سيتبيّن في البحث أن هذا القرب ينشأ من نمط علاقات معقدة غير متاحة لجميع الملائكة ولعل المتاح جزءً منها، وعلى هذا الأساس فإن القضية

---

(١) سورة الرحمن: ٢٩ .

ترتبط بمسألة جذرية وتفتح أمامنا صورة أكثر غموض عن عالم السماء وهي قضية خلق الملائكة وحيازتهم على الصفات. فقد مرّ في السابق أن الملائكة ليسوا كبقية الكائنات ثابتة الشكل والمكانة.

فالشكل والمكانة مرتبطان وهذان يرتبطان بدورهما بعبادة الملائكة وعدم ارتكاب الملك لما يوجب عقابه، وكما يبدو أن الملائكة وهي معصومة عن الزلل لكنها ترتكب بعض التوهمات التي توجب العقاب بالحرمان من القرب وهو نوع عذاب خاص مؤلم، كما أن التكريم أيضاً موجود بصورة خاصة لكن وكما يبدو أن الوضع مختلف بالنسبة لطبقة الملائكة المقربين إذ أن أغلب شؤونهم تتميز بالثبات، لأنّهم الأساس في نظام السماء وكل منهم يلعب دوراً رئيسياً في عالم الملكوت، وعلى هذا الأساس فإن الأقرب هو الأثبت من ناحية المكانة وهو الأكثر خوفاً لله بما يمتلك من طاعة وعلماً به من سواه، وجبرائيل هو الأقرب وهو الذي وردت أحاديث تشير إلى أنّه هو الذي يولد الملائكة ولسنا ندري إن كان هو الأول الذي أولدهم جميعاً بما في ذلك الملائكة المقربين، ولهذا فإنّه ذو خصوصية، لكن الترابط بين الشكل والمكانة ليس قانوناً ثابتاً ربما وجدت ملائكة لها عدد أجنحة أكبر من جبرائيل لكنها ليست أفضل منه، بل لعل الأفضلية تتبع حالة التكامل فلعلّ التكامل مثلاً في النسبة الجسمية دون الأخلاق أو كما جاء في الفهم والعقل ولهذا قد لا ينتج قرباً بل قد ينتج شيئاً آخر هو الاستعداد لمهمة معينة تلائم هذا الحال.

وعلى هذا فإن الخلقة ترتبط بصورة أساسية مع المهام والوظائف التي تقوم بها الملائكة وهو ما يفهم من الأحاديث.

وهكذا يلوح القرب كرتبة عالية في الوجود تمثل نهاية الكون تعتمد بصورة أساسية على تدبير الملائكة، وتدبير الملائكة معتمد على وجود الملائكة المقربين باعتبارهم جهاز تنظيمي ينظم الفعاليات الطبيعية وغير الطبيعية، فإذا

افترضنا أن الوجود كائن حي وله جسد مكون من الأفلاك وعلاقات التجاذب والتنافر، وأن الملائكة هي عبارة عن روح هذا الكون وعقله وهي بالتالي نقطة الارتباط بين المحدود واللامحدود.

وهنا نلاحظ التقابل بين مفهوم القرب ومفهوم الحجب، فالقرب يمثل انهيار الحجب والقدرة على تحطيمها، فكل موجود له دائرة معينة ينتهي عندها وبالتالي فهو يطّلع على جزء من العالم ضمن هذه الدائرة، فالإنسان محجوب عنه عوالم غير عالمة، وكذلك بالنسبة للجن والملائكة التي لها حدودها الخاصة لا تتعداها مع أن ملك الله يمتد إلى ما لا نهاية ولا يعرف الحدود، فهناك إذن معنى موضوعي للقرب وهو الجهاز الإداري للوجود وإنّها أيضاً تعني الارتباط بين المحدود (الكون) واللامحدود (الله) وهو ما يفسر طبيعة بناء الوجود.

الملائكة جهاز ارتباط

إنَ النتيجة الجانبية للحديث عن الملائكة المقرّبين والذي نقلته الآيات والروايات هي الخروج بتصور عن العالم مكون من عنصرين أساسين هما: الملائكة المجسّدة لإرادة الله في نفسها وفي باقي الأشياء والعنصر الثاني، هي الطبيعة وبقية المخلوقات. ولهذا فإن كل ما ورد يمثل إشارة إلى حدود الوجود المعروفة للإنسان سواء عن طريق العلم أو عن طريق الوحي الذي نقلت بعض الروايات بعض معالمه نقلاً رمزياً أو نقلاً صريحاً مع مراعاة مستوى التطور العقلي لإنسان تلك الحقبة التي كانت فيها الكثير من الحدود والمعالم مجهولة ولو وضحت لكانت ضرباً من الخيال بالنسبة لهم.

وهكذا فإنّ ما ينقل لنا هو تصور عن جزء خاص من الوجود يسميه الوحي بالغيب، وهو كما أسلفنا غيب زماني وغيب مكاني وغيب كيفي،

فالغيب الزماني هو الماضي والمستقبل الذي هو بالنسبة إلى نقاط أخرى من الوجود ليس كذلك لعدم وجود التقسيم الذي نألفه في حياتنا العقلية، ولعلنا نستطيع تخيّل مشاهد ينظر إلى حادثة تتقدم من النقطة التي نسميها المستقبل ثم تتقدم إلى الحاضر ثم تنتقل إلى الماضي فيراها هذا المشاهد متصلة، لأنّه يشاهد المجموع ولا يغيب عنه شيء بينما تبدو للإنسان بصورة أخرى؛ لأنه لا يشاهد إلاّ طوراً واحداً هو طور الحاضر الذي يقع بين مرحلتين غيبيتين هما الماضي والمستقبل.

الملائكة يمكن أن تكون هذا المشاهد الذي يختلف عن الإنسان الذي لا يستطيع أن يرى من الحوادث إلاّ مقطعاً هو الحاضر، الملائكة ترى الحوادث وهي لا تزال في ضمير الغيب قبل الوصول إلى عالم الشهود ثم تعود إلى الغيب بعد انتقالها من عالم الشهود فتراها كشيء واحد متصل.

وبالنسبة إلى كل الوجود بمعناه العام فإنّها لا ترى إلاّ الجزء الذي تتواجد ضمنه، ولهذا فإن هناك الحجب التي تعني عزلة العالم الذي يقع ما وراء الحجب عن العالم الذي تتحرك فيه الملائكة بدون أي حجب أو أستار، وقد وصف لنا جبرائيل ﷺ أن أقصى حدود العالم هو نهر النور الذي لم يعبره إلاّ الرسول محمد ﷺ أما الحجب الأخرى فلا بد أن نحملها على أنّها تقع قبل نهر النور وإلاّ فإن الرسول ﷺ لم يصل إلى حدود الخلق كلها ولم ير كل أسرار عالم الخليقة، وكما في الأحاديث إن بين الحجب من عجائب الوجود الكثير الكثير لكن الرسول ﷺ لم يتحدث عنها ولعل السبب عائد إلى أننا لا نستطيع تحمل هذه الأوصاف لأنّها بعيدة عن إدراكاتنا وخصوصاً في عصر النص.

وعلى هذا الأساس لربما وجدت أحياء أو مخلوقات أو عجائب أخرى لم يطلعنا عليها الرسول ﷺ فإننا نفاجئ أن في السماء بحار من المياه عمق

أحدها (٥٠٠) عام، وأنَ في السماء حية تستطيع أن تبتلع السموات والأرض أو نهر النور وهكذا فإنَ الأحاديث تحدثت عن مخلوقات (كائنات الروح - كائنات الكروبيين) ولكننا لا نستطيع أن نعرف الامتداد الذي تبلغه الخليقة قبل الحجاب الأخير. إنّها بالأبعاد المحسوسة والمرئية بلغت أبعاداً هائلة تستعصي على الخيال والأبعاد غير المرئية تمتد امتداداً أكبر بكثير منها لكنها في النهاية وبحسب ما جاء في الروايات سبقت الامتداد عند حد معين وبحسب اللغة العلمية نهاية القوانين أو حدود الزمان والمكان، فالزمان والمكان هما بعدا هذا الوجود وبالتالي فهما محدودان والنظريات العلمية تفترض وجود حدود للزمان والمكان.

فلعلنا حين نفترض هذه النهاية فإننا نفترض وجود سبيل للاتصال بين الله سبحانه وتعالى الخالق غير المحدود والذي لا يمكن أن ينسب إلى أي بعد مهما كان هذا البعد بالجسم المادي المحدود (بنوعية المشهود والغائب) الوجود. وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى حدد لنا شكلاً من أشكال الاتصال وهو اللوح، فاللوح هو وسيلة اتّصال وعن طريقه يصل الوحي الذي يسيّر الوجود وتكون هذه الكائنات هي المشرفة على تسييره، لكن اللوح كما مرَ عبارة عن خزان كبير للمعلومات لأنَ جميع ما يحدث وما حدث وما سيحدث موجود فيه وبالتالي فهناك نظام لهذا الخزان للمعلومات الداخلة والخارجة وللقوة والفعل أو أية أبعاد أخرى يمكن أن تحتاجها حركة الوجود.

لكن القلم ربما هو جهاز المعلومات الواردة وهو الذي يكتب به الفعلي من الأحداث بدلاً عن الأحداث المقدرة، فالقدر يمكن أن يقع بعشرة احتمالات إلاّ أن أحدها هو الذي سيكون فعلياً وتتولى الملائكة إنزاله منزل التطبيق.

لكن السّدرة التي ورد ذكرها لم تكن واضحة الدور، إذ الماهية وقد وصفتها الآية بأنها إحدى آيات الله الكبرى، فهي بعد أن ذكرها الله في القرآن: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[1] فيفهم أنّها منها، وقوله: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾[2].

وفي النتيجة الطبقة الأولى من الملائكة والقلم واللوح والسّدرة هي قريبة من العرش. أمّا العرش فهو مركز إدارة لعلّه لأكثر من عالم ولا يختص بعالمنا وحده.

المقرّبون جهاز تنظيم وإدارة

عن عكرمة قال: سأل رسول الله (ص) جبرئيل: من أكرم الخلق على الله؟ فعرج ثم هبط، فقال: «أكرم الخلق على الله جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فأمّا جبرائيل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين. وأمّا ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط، وكل ورقة تنبت، وكل ورقة تسقط، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض روح كل عبد في بر أو بحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم»[3].

وعن جابر بن عبد الله، قال: إن جبرائيل موكل بحاجات العباد، فإذا دعاه المؤمن قال: «يا جبرئيل إحبس حاجة عبدي، فإني أحبّه وأحب صوته، وإذا دعا الكافر قال: يا جبرئيل اقبض حاجة عبدي فإنّي أبغضه وأبغض صوته»[4].

---

(١) سورة النجم: ١٨.

(٢) سورة النجم: ١٦.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٠

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٨.

«وعن شريح بن عبيد قال: إنّ النبي ﷺ لما صعد إلى السماء رأى جبرائيل في خلقته منظوم أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت، قال: فخيل إليّ أن ما بين عينيه قد سد الأفق وكنت أراه قبل ذلك على صور مختلفة وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية الكلبي. وكنت أحياناً أراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال»[1].

وقد ورد حديث آخر جاء فيه: «قلت: يا جبرائيل على أي شيء أنت؟ قال: على الرياح والجنود، قلت: على أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر. قلت: على أي شيء ملك الموت؟ قال: على قبض الأنفس»[2].

وفي هذه الأحاديث عنصرين أساسين هما:

أولاً: أن هؤلاء الأربعة (جبرائيل، إسرافيل، ميكائيل، ملك الموت) هم طبقة خاصة تمثل أعلى جهاز إدارة في الغيب، وقد مرّت أحاديث تفيد هذا المضمون كما ستأتي أحاديث أخرى تؤكده.

الثاني: هو أن الملائكة المقرّبين متخصصون في إدارة جوانب معيّنة ولكل منهم تخصّص في أداء وظيفة كونية محددة، ورغم وجود أحاديث تتضمن أداءهم لوظائف طارئة في ظروف خاصة، ومن هنا فإنّ الالتزام بوظيفة معيّنة سيكون هو الحالة الغالبة بينما توجد وظائف طارئة يؤديّها الملك.

ولعل هذه الأحاديث التي سبق أن بيّنت لنا أنّ الملائكة بصفة عامة كائنات مدبرة للكون وهي بالمصطلح الحديث جهاز إداري فإنّ الملائكة المقرّبين سيكونون عبارة عن الجهاز الإداري الأعلى؛ لأنّهم يديرون الملائكة التي تدير الوجود، وهذا بالطبع يساوق النظريات العلمية التي يجتهد العلماء

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٨.

(٢) نفس المصدر.

المعاصرون في دراستها فعرفوا وقالوا: «إنّ تنظيم المشروع معناه تزويده بكل شيء مفيد للقيام بوظيفته»[١]. ومن المعلوم أن الكون بهذه الضخامة لا يستطيع أن يؤدي وظائفه بدون تنظيم فلا يكون على الأقل شبيهاً بالمشاريع التي يؤسّسها البشر، وأن لا يتم تزويده بما يؤهله للقيام بوظائفه خصوصاً أن آيات القرآن تؤكد على أن خلق السماوات والأرض هادفة ﴿ ***وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين...*** ﴾[٢].

ثم إن هناك ضرورة تنشأ من وجود أجزاء فكل جزء حتى لو أدى وظائفه بصورة جيدة فلا بد من وجود «التنسيق» بينه وبين الأجزاء الأخرى، فإنّه لا بدّ من «الترتيب المنظّم للمجهودات الجماعية من أجل التوصل إلى وحدة في النشاط من أجل تحقيق هدف مشترك»[٣]. أو على الأقل لمنع التصادم بين الأجزاء. وعلى هذا الأساس لا بد من وجود «محور التصميم الهيكلي» وفيه يتم تحديد «المسؤوليات والسلطات والاختصاصات ـ التنسيق الرأسي والأفقي ـ على ربط الواجبات بالقدرات على التخصص»[٤]. وهناك أيضاً محور آخر هو محور «السلوك أو الأنماط السلوكية، الدوافع، القوة، الصراع والتعارض ـ ردود الأفعال، التعاون المنسق إرادياً... الخ»[٥].

وقد بدا واضحاً أن جميع النظريات تركز على مبادئ هي: (تقسيم العمل ـ تسلسل السلطة ـ هيكل التنظيم الرسمي ـ نطاق الإشراف أو الرقابة ـ مبدأ الرشد)[٦] فهذه المبادئ وأمثالها استطاع الإنسان اكتشاف أهميتها من

---

(١) التنظيم: ٣١.

(٢) سورة الدخان: ٣٨ .

(٣) التنظيم: ٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ٣٤.

(٦) تطور الفكر التنظيمي: ١٧.

خلال التجارب والسعي الدؤوب لتطوير المؤسسات والمرافق، وسيكون طبعاً من الغريب جداً أن نفترض أن مؤسسة ناجحة ومنظمة تنظيماً دقيقاً لا تتوفر على هذه المبادئ البسيطة التي تحتاجها مشروع بسيط قياساً بهذا الوجود الذي يعجز الإنسان عن مجرد تخيل سعته وامتداده. وهكذا يلوح أنّ الأحاديث طرحت فكرة غاية في الدقة سبقت الإنسان بفترة زمن طويلة ولم يستطع اكتشاف أبعادها إلاّ بعد الانفجار العلمي من العصر الحاضر.

ومن هنا فإن دور الملائكة يأتي متطابقاً مع أدق المبادئ العلمية وأنّها تعبّر عنها تعبيراً دقيقاً وخصوصاً من ناحية المبادئ الهامة التي سردناها في الصفحات السابقة، وإن مقارنة بسيطة لما طرحته الأحاديث بهذه المبادئ فإنّنا نكتشف أنّها عبّرت عنها بصورة ضمنية، ولعل أبرزها أنّ مبدأ التخصّص والتنظيم الهرمي والإشراف على الفاعليات وتظافر القوانين الطبيعية مع القوى العاقلة في إدارة الوجود.

التخصُّص

ويرتبط أيضاً بمسألة القرب التخصصي الوظائفي، فلكل ملك مقرّب وظيفة أو أكثر يقوم بها، فجبرائيل كما جاء في الحديث أنّه لم يفصل في قضية القرب من تلقاء نفسه بل صعد إلى السماء وسأل وعاد بالجواب ثم عاد وتحدث عن تخصص الملائكة، فقال: إن جبرائيل صاحب الحرب أي أنّه الذي يتدخل بالحروب الإيمانية ولعلّه يتدخّل بكافة الحروب. وكذلك المسؤول على إيصال الرسالات. أما صاحب المطر وكل ورقة تنبت، وكل ورقة تسقط فهو ميكائيل. وملك الموت هو المسؤول عن قبض الأرواح أما إسرافيل فأمين الله ما بينه وبينهم.

ومعلوم من الأحاديث السابقة أن كل واحد من هؤلاء لديه مسؤوليته عن عدد كبير من الملائكة.

وعليه فإنّ قرب الملائكة وكونهم طبقة يعني وجود تعاون بينهم بحكم تفاوت القرب، فجبرائيل الأقرب وبعده إسرافيل ثم ميكائيل وبعده ملك الموت والنتيجة هي أنه مع هذا التفاوت يوجد تفاوت في المهام التي عرضتها الأحاديث آنفة الذكر.

(أما حديث الخصال) فيؤكد على وجود قاعدة مفادها التفاضل والتباين بين جميع الأشياء لذا يمكن اختيار أربعة أفراد من كل جنس، وقد تم اختيار الأربعة الأفضل بالنسبة لجنس الملائكة، كما أن نفس الاختيار يتم بناءاً على توافر شروط موضوعية تعطي الأرجحية لبعض المخلوقات على المخلوقات الأخرى سواء كان ارتباط الرجحان بالجانب الإرادي (الأخلاقي والعبادي) أو الجانب غير الإرادي مثل نقاء المعادن والأحجار الكريمة إلى تفاوت تبعاً لنقاء الحجارة أو غير ذلك من المواصفات التي تعطيها قيمة عالية.

وفي معاني الأخبار قال جبرائيل: معناه عبد الله، وميكائيل معناه عبيد الله، وكذلك معنى إسرافيل عبيد الله[١].

من غير الواضح هل أن لفظة جبرائيل منقولة من لغة؟ ولكنه بالنسبة للعربية بمعنى عبد الله، فهل هذا يدل على وجود لغة خاصة لأهل السماء هي التي سمي جبرائيل بأحد مفرداتها؟ الأرجح وجود لغة خاصة بالملائكة مع قدرتهم على التكلم بجميع اللغات في هذه الخليقة بما في ذلك لغات الحيوان.

والتقارب في التسمية قد يعكس تقارب المكانة عند هؤلاء فهم الأقرب من بين كل الملائكة، ولهذا فإن أسماءهم مشتقة من العبودية وهذا يذكرنا بكونهم

---

(١) بحار الأنوار : ٥٦/ ٢٥٠ .

ذوي أوضاع متقاربة كما ورد في حديث السبحة حيث أشار إلى أن خلقهم كان من سبحة واحدة وهذا هو نفسه الواقع بالنسبة لاشتقاق الأسماء.

الملائكة المقرّبون جهاز توليد

عن عبد الله بن عباس: قال: إن رسول الله ﷺ لما أسرى به إلى السماء انتهى به جبرائيل إلى نهر يقال له: ((النور)) وهو قول الله عز وجل: ﴿***خلق الظلمات والنور***﴾ فلما انتهى به إلى ذلك النهر قال له جبرائيل: يا محمّد اعبر على بركة الله، فقد نوّر الله لك بصرك، ومدّ لك أمامك، فإنّ هذا نهر لم يعبره أحد لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل غير أن لي في كل يوم اغتماسه فيه، ثم أخرج منه فأنفض أجنحتي، فليس من قطرة تقطر من أجنحتي، إلاّ خلق الله تبارك وتعالى منها ملكاً مقرباً له عشرون ألف وجه، وأربعون ألف لسان، (كل لسان) يلفظ بلغة لا يفقهها اللسان الآخر[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((إنّ في الجنة نهراً يغتمس فيه جبرائيل كل غداة، ثم يخرج منه فينفض فيخلق الله عز وجل من كل قطرة تقطر منه ملكاً))[٢].

وعن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: إنّ في الجنة لنهراً ما يدخله جبرائيل من دخلة فيخرج فينتفض إلاّ خلق الله في كل قطرة تقطر منه ملكاً[٣].

ففي الحديث الأول إشارة إلى وجود رتبة وهي رتبة نهر النور عبرها الرسول ﷺ مما يدلل على أن مقام الرسول ﷺ لا يضاهيه مقام آخر وأن مقام جبرائيل عليه السلام أدنى من مقامه ﷺ.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٨.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٠.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٠.

ويدلل أيضاً على أن جبرائيل عليه السلام يخلق الله منه الملائكة من ارتماسه بنهر النور، وهذا الأمر تكرّر في الأحاديث الثلاثة الماضية. وهناك أحاديث أخرى مرت، ففي حديث (مجالس الصدوق) تفسير للآية ﴿ *وجعل الظلمات والنور*﴾[1] وهذا يدل على أن الظلمة مثل النور مخلوقة ونحن نعرف أن النور هو القدرة على الإبصار والاهتداء، أما الظلمة فهي الضد ولا يعلم هل أن معنى الآية الوارد في الحديث حالة كلية تشمل المتعارف عليه من النور أو الظلمة والذي أشرنا إليه؟ أم أن لها حالات أخر؟ فمن المعلوم أن هذه القضية مرتبطة بالإنسان وبحواس الإنسان، ولعل بعض الظلمة ليست كذلك بالنسبة لمخلوقات أخرى حيث تتمكن من الإبصار في الليل. وإذا كان ذلك فإنها متعددة الآفاق وأن لكل مخلوق حالة خاصة به. وبالتالي فإن الظلمة هي حالة عامة ذات مصاديق متغيرة بحسب المخلوقات.

وبناءً على هذا فإن نهر النور حد معين من حدود الإبصار والوعي سواء أكان نهراً فعلياً أم كان نهراً رمزياً. أي أنّه أفق من آفاق المعرفة سمح الله لرسوله صلى الله عليه وآله بأن يرقاه وما تحدّث به جبرائيل عليه السلام من ارتماسه به يدل على أنه نهر فعلي في السماء، وهو هنا ينطبق على مفهوم الحجب الذي سيرد فهو لا يبلغه أي أحد وهذا معناه أنّه حجاب لغير الرسول صلى الله عليه وآله.

على أن هذا النهر ينطوي على مستوى من التفضيل لا يعبره أحد من بشر أو ملائكة، وهذا معناه أنّ الرسول صلى الله عليه وآله أفضل من الملائكة ومن جميع الرسل.

وحين يكون هذا النهر هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه مخلوق فمعنى هذا أن جميع ما أتي ويأتي من أوصاف إنما تنطبق على المخلوقات ذوات

---

(١) سورة الأنعام : ١.

الرتب قبل هذا النهر وبالتالي فإن الأحاديث التي ستأتي بخصوص إسرافيل هي في مواقع سابقة عن هذا النهر وسنعرّج عليه في موضعه. أما بالنسبة لانغماس جبرائيل في هذا النهر وظهور الملائكة من قطراته فله عدّة معاني:

١ ـ أن في هذا النهر مياه ولكنها مكونة من نور، وهذه فرضية تقول: إنّ النور ممكن أن يتكثف فيصبح كالماء.

٢ ـ أن وصول هذا الماء إلى جسم جبرائيل عليه السلام وسقوطه عنه ينتهي إلى تخلّق الملائكة، فإن النور لوحده لا يؤدي إلى تخلق الملائكة.

٣ ـ وهناك أحاديث تقول: إنّ جبرائيل حين يرتعش من خوف الله فإنّ أعداداً من الملائكة تتخلّق من كل ارتعاشه.

ومعنى هذا أن جبرائيل قادر على إنتاج الملائكة بأكثر من طريقة ولعل كل طريقة تؤدي إلى نوع خاص من الملائكة تختلف عن الأنواع الأخرى. ويؤيد هذا أن الارتماس بنهر النور يؤدي إلى خلق ملائكة مقرّبين لأحدهم عشرون ألف وجه وأربعون ألف لسان (كل لسان) يلفظ بلغة لا يفقهها اللسان الآخر. ولعلّ هذا دليل على أنّه لسان مغاير. إذ لا يمكن افتراض أن هذا اللسان مرتبط بعقل غير العقل الذي يرتبط باللسان الآخر فإن العقل واحد وهو الذي يقف وراء النطق بكل الألسن وبالتالي فإنّه يعقل ما يراد النطق به كما في أجهزة الكومبيوتر.

إن الله يخلق الملائكة من ارتعاشات جبرائيل عليه السلام حين خوفه من الله سبحانه وتعالى وهذا لم يرد عن بقية الملائكة، فهل يعني هذا أن خلق الملائكة يتم بواسطة جبرائيل عليه السلام بأكثر من طريقة كالارتعاش والارتماس وأن بقية الملائكة ليست مسؤولة عن عمليات التكاثر؟

فإذا كانت قضية خلق الملائكة مرتبطة بجبرائيل فهذا يعني أنّه كان أول مخلوق خلقه الله من الملائكة، وعلى هذا الأساس فإن قضية الاصطفاء تشبه

اصطفاء آدم عليه السلام كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾[1] فالأهلية موجودة لا بمعنى اختياره من الملائكة بل اختياره لوجود مؤهلات فيه.

وعلى هذا فإنّ جبرائيل حين خلق لم يخلق بنفس طريقة خلق الملائكة ولعله خلق كخلق آدم عليه السلام ويمكننا أن نربط ومن خلال تسميته بالروح الأمين بينه وبين الروح وهي الكائنات السماوية الأخرى رغم عدم وجود أدلة قوية تؤكد هذا المعنى في الأحاديث، ومعنى ذلك أنّه قد يكون خلق بطريقة تشبه طريقة خلق آدم عليه السلام سواء أكان خلقاً مباشراً بطريقة التركيب من النور أم بطريقة التطور من النور بصورة مشابهة لنظرية التطور.

ومن الملفت للنظر أن ذكر النور يتكرر كثيراً في عالم السماء، فهناك اللوح الذي بيد عزرائيل عليه السلام وهناك نهر النور الذي يرتمس فيه جبرائيل عليه السلام وهناك ورد ذكر أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا أنواراً في ساق العرش.

وهذا أمر يجعلنا نتخيل وجود عوالم متدرجة يمثل كل عالم مبدأ للعالم الذي يليه، وأن قلب هذه العوالم هو النور، فحين تصل الأشياء إلى طور النور فإنّها توشك أن تظهر إلى العالم الذي يليه وبحسب حقيقتها وقابليتها للظهور، ومن هنا فإن الملائكة وهي موجودات النور والتي تشكل جزءاً منه فإنّها لا تغادره إلى سواه، وعلى هذا الأساس يمكن تصور وجود عالم يلي النور وهو عالم التراب والمادة الذي تعيش فيه الحيوانات بجميع أنواعها ويمكن أن يترشح منه بعض الأشياء إلى عوالم أخرى تليه.

وهذا التتالي ليس مكانياً أو زمانياً. بل هو تتالٍ في الكيفيات، وحين نثبت هذه القضية فإننا حينئذ يمكننا أن نتصور أن جبرائيل عليه السلام قد انتقل من طور سابق على النور إلى عالم النور، ولهذا فإنه امتلك قابلية إعادة تصدير النور وإنتاج الموجودات النورية.

---

(١) سورة آل عمران: ٣٣ .

هذه الفرضية تعتمد على اعتبار قانون التغيرات أو التطور حالة ممتدة في الوجود، وبالتالي فهو غير محصور بمفرده وأنّه عام لجميع طبقات الوجود وعليه فإن أصل انبثاق عالم المادة إنّما جاء بهذه الطريقة، فهو قابل للتهشم والارتداد إلى حالة النور والطاقة لكن هذه الطاقة هي أيضاً قابلة للتهشم إلى نور أبسط وهكذا إلى ما يعلمه الله من الغيب.

وفي الأحاديث السابقة أبعاداً عدة منها ما يتعلق بجبرائيل ومنها ما يتعلق بإسرافيل، أما فيما يتعلق بجبرائيل فإنه يخشى الساعة مثلما يخشاها البشر وخشيته هذه عائدة إلى أسباب خفية نجهلها، وقد يكون أحدها خوف الصعقة التي أشارت إليها الرواية وبينت أن الملائكة تصعق وتموت. لكن الكثير من الآيات يفهم منها أن الملائكة لا تموت وأنها حاضرة في الأحداث الهائلة التي تقع متاخمة للقيامة إلاّ إذا فرضنا أن بعضاً منها يموت وبعضاً لا. لكن الحديث يقول بأن جميع الملائكة تموت حتى المقربين منهم أما امتعاق اللون فإنّه يشعر بأن جبرائيل كان بصورة البشر ولهذا فإنه يتصرف وينفعل مثلهم.

أمّا فيما يتعلق بإسرافيل فإنّ أول شيء نلاحظه بخصوصه هو نزوله إلى الأرض وهي أمر نادر الوقوع. رغم وجود أحاديث تقول إنّه شارك في معركة بدر وإن نزوله إلى الأرض بهذه الكيفية يعكس أهمية ما يترتب على هذا النزول الذي يفهم من سؤال الرسول صلى الله عليه وآله عن كونه (ملك نبي أم عبد نبي) ولعل هذا السؤال يترتب عليه أبعاد بالنسبة لمسار الإسلام في العالم.

ثم إن عودته إلى السماء فإنّه كان يقطع المسافة بين كل سماء وسماء دفعة واحدة وأنّه مع ارتقائه يصغر حجمه، ولسنا ندري هل كان صغره تابعاً لطبيعة الرؤية أم أنه يصغر فعلاً؟ ثم إن هناك أحاديث تشير إلى أن الملائكة يأخذون أشكالهم الطبيعية من السماء.

وأخيراً إنّه حاجب الرب وأقرب الخلق منه، ولعل الحديث عن اللوح هو الذي يفسر لنا معنى الحجابة، فاللوح وهو عبارة عن شاشة من ياقوت أحمر يعكس أوامر الرب بصورة من الصور. إما كتابةً أو صوتاً وهو مزود بآلية تنبيه (ضرب اللوح على جبينه) فينتبه الملاك إلى أن ما يصدر عن الرب سبحانه وتعالى من أوامر تخص شؤون العالم.

وبعد أن يستلم إسرافيل الوحي يلقيه إلى الملك المختص ثم من هناك إلى الملائكة الأقل رتبة ثم إلى من يهمه الأمر.

أما مسألة (أنّه أدنى خلق الرحمن منه) فهذا الدنو يجب أن لا يناقض كون جبرائيل هو الأدنى، ولهذا يجب حمله على الدنو من ناحية تلقي الوحي عن الله وإشرافه على اللوح المحفوظ وهو غير الدنو الذي لجبرائيل حيث يحتل الرتبة الأقرب إلى الله كما في أحاديث أخرى، ولعل تفاوتهما في المنزلة تفاوتاً يسيراً إذ أنهما من طبقة واحدة لكن الحديث عن الحجب هنا يقتضي أن يكون إسرافيل هو الأقرب وبينهما تسعون حجاباً من نور تقطع دونها الأبصار ما لا يعد ولا يوصف (وإني لأقرب الخلق منه وبيني وبينه مسيرة ألف عام).

من هم الملائكة المقرّبون؟

الملائكة المقربون هم طبقة مكونة من جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت لأنه كما أسلفنا أن درجة القرب درجة واحدة، إلاّ أنّها تتضمن عدة مستويات من القرب تشير إليها الأحاديث، فهناك روايتان تؤكد أنّ جبرائيل هو أفضل الملائكة وأكدت إمامته لأهل السماء، وكما هو معلوم أنّ الإمامة تعني القيادة والإدارة وهو كما يلوح أعلى منصب إداري في السموات

والأرض، فهذا يعني أن الطبيعة برمتها وحياة الناس والحيوان والنبات ودوام حركة الأجرام ترتبط بخيط واحد يمسكه جبرائيل‎عليه السلام.

عن موسى بن أبي عاشة، قال: بلغني أن جبرائيل إمام أهل السماء.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله‎صلى الله عليه وآله: أفضل الملائكة جبرائيل[1].

وهناك النص الآخر الذي يؤكد على أفضليته، والأفضلية مفهوم آخر يقع مقدمة للإمامة ولا يتطابق معها، فجبرائيل بناء على هذا فهو الأفضل بين الملائكة.

كما أن هناك النص الآخر الذي يقول أن أقرب الملائكة لله هما جبرائيل وإسرافيل، وهنا القرب هو غير الإمامة فلعلّ الأقرب ليس إماماً، ولعلّ هناك رابطة بين القرب والإمامة، وعلى الثاني فإن هناك احتمالاً أن يكون جبرائيل الإمام والأقرب أما الذي يليه في المكانة فهم ثلاثة ملائكة عظام هم: عزرائيل وإسرافيل وميكائيل.

وفي خبر المعراج قال جبرائيل‎عليه السلام: أقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل[2].

وعن أبي جعفر‎عليه السلام أنّه قال: إن الله خلق الملائكة روحانيين لهم أجنحة يطيرون بها حيث يشاء الله، فأسكنهم فيما بين أطباق السماوات يقدسونه الليل والنهار، واختار منهم إسرافيل وجبرائيل وميكائيل[3].

وروي عن أبي الحسن الأول‎عليه السلام قال: قال رسول الله‎صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى اختار من كل شيء أربعة، اختار من الملائكة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[4].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٨ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٩ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٢ .

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٠ .

وعن عكرمة قال: سأل رسول الله ﷺ جبرائيل عن أكرم الخلق على الله، فعرج ثم هبط، فقال: أكرم الخلق على الله جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فأما جبرائيل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط، وكل ورقة تنبت، وكل ورقة تسقط، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض روح كل عبد في بر أو بحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم[1].

فهنا لدينا تأكيد لما سبق من أن جبرائيل أكرم الملائكة على الله ولكن تفضيله ورئاسته لأهل السماء لم يعفه عن مهمة خاصة غير مهام الرئاسة وهي أنَه المسؤول عن الرسالات. أما كونه صاحب الحرب فعلى ما يبدو أنَه المسؤول عن نصرة المؤمنين في حروبهم مع أعداء الله. وميكائيل كان المسؤول عن القطر وكل ورقة تنبت أو تسقط، وهذا معناه أنّه مسؤول عن أرزاق الناس ليس بمعنى فردي بل بمعناه العام لأنّ الحديث عبر عنه بالكل، وهذا يقودنا إلى أنه مسؤول عن الرخاء العام والرزق في جميع الوجود. وملك الموت مسؤول عن استيفاء الروح. أما إسرافيل فأمين للّه فيما بينه وبينهم وفي أحاديث أخرى جاء أنّه صاحب الصور.

ومنه قوله تعالى: ﴿*لقد رأى من آيات ربّه الكبرى*﴾[2] قال: «رأى جبرئيل على ساقه الدر مثل القطر على البقل له ستمائة جناح قد ملأ ما بين السماء والأرض»[3].

وفي هذا تفسير للآية: ﴿*لقد رأى من آيات ربّه الكبرى*﴾ فهنا مصداق من مصاديق الآية يعرضه الحديث، فآيات الله الكبرى كثيرة وأحدها جبرائيل

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٠ .

(٢) سورة النجم: ١٨ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٩.

الذي رآه الرسول ﷺ وكونه آية لأنه عجيب الخلقة فأجنحته ستمائة وحجمه يملأ ما بين السماء والأرض، وهو على ما يبدو كناية عن عظمة الجسم وليس وسيلة من وسائل قياس الأبعاد، كما أن ساقه مغطاة بطبقة بلورية تشبه القطر على البقل وسماها بالدر تشبيهاً بالدر المعروف.

وفي النهاية فإن الحديث ينطوي على أوصاف عامة لجبرائيل عليه السلام ستأتي أحاديث لتضيف إليها معالم أخرى أكثر دقة.

عن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*﴾ قال: جبرئيل ﴿*مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ*﴾ قال: على سبعين حجاباً يدخلها بغير إذن[1].

وجاء مثل هذا في أحاديث أخرى مثل ما جاء في تفسير القمي: «أنّه ليس شيء يدنو من الرب إلاّ صغر لعظمته. إن هذا حاجب الرب، وأقرب خلق الله منه، و اللوح بين عينيه من ياقوتة حمراء فإذا تكلم الرب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللوح جبينه فنظر فيه ثم ألقاه إلينا فنسعى به في السماوات والأرض إنّه لأدنى خلق الرحمن منه، وبيني وبينه تسعون حجاباً من نور تقطع دونها الأبصار ما لا يعد ولا يوصف وإني لأقرب الخلق منه وبيني وبينه مسيرة ألف عام»[2].

وجاء أيضاً:

«هذا إسرافيل خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافّاً قدميه لا يرفع طرفه، بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها نور يدنو منه أحد إلاّ احترق، بين يديه اللوح المحفوظ، فإذا أذن الله في شيء في السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح، فضرب جبهته فينظر فيه»[3].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٣.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥١.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٨.

«والمراد بالحجب إمّا الحجب المعنوية كما مرّ، أو المراد بينه وبين عرشه، أو بين منتهى خلقه، أو بين محل يصدر منه الوحي»[١].

وفي هذه الأحاديث معالم مشتركة تؤكد أهمية أن إسرافيل وهو صاحب الصور وعبّر عنه بأمين الله، ولعله كناية عن كونه ما وصف بحاجب الرب وما ورد من كونه أقرب خلق الله إليه لا يتناقض مع قرب جبرائيل عليه السلام فإنّه الثاني بعده ولعله عائد أيضاً إلى طبيعة المهمة التي يؤديها في إدارة الملكوت، ولعل هذا يلفت النظر إلى جملة قضايا وهي: أن المخلوقات الكريمة لها حدود معينة لا تستطيع تجاوزها، ولهذا فإنّ الحجب ستكون عوازل بين هذه المخلوقات ولهذا عبّر الحديث أن من يتجاوزها يحترق، والاحتراق لربما يكون بتفكّك المركّب. وهذه الحجب هي من نور، فهذا النور عازل بين مكانين بالنسبة لحركة الملائكة ألف عام[٢].

وفي تفسير علي بن إبراهيم لقوله تعالى: ﴿ *لقد رأى من آيات ربّه الكبرى* ﴾ قال: رأى جبرائيل على ساقه الدر مثل القطر على البقل له ستمائة جناح قد ملأ ما بين السماء والأرض[٣].

وعنه أيضاً قال: «رأى جبرائيل له ستمائة جناح قد سد الأفق»[٤].

وعن ابن عباس في الآية قال: إنّما عنى جبرائيل: «إنّ محمداً رآه في صورته عند سدرة المنتهى»[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥١ (بتصرّف).

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٩.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٣.

(٥) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٣.

وعن وهب أنّه سئل ﷺ عن خلق جبرائيل فذكر أن «ما بين منكبيه من ذي إلى ذي خفق الطير سبعمائة عام»[١].

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما بين منكبي جبرائيل مسيرة خمسمائة عام للطائر السريع الطيران»[٢].

وعن حذيفة: لجبرائيل جناحان، وعليه وشاح من در منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه محبك حبك مثل اللؤلؤ كأنه الثلج وقد مالَ إلى الخضرة.

بيان: قال في النهاية: «رأسه محبك أي شعر رأسه متكثر من الجعودة، مثل الماء الساكن والرمل إذا هبت عليهما الريح فيتجعدان ويصيران طرائق»[٣].

وعن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ سأل جبرائيل أن يتراءى له في صورته، فقال جبرائيل: «إنّك لن تطيق ذلك، قال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ إلى المصلى في ليلة مقمرة، فأتاه جبرائيل في صورته فغشي على رسول الله ﷺ حين رآه، ثم أفاق وجبرائيل مسنده وواضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال رسول الله ﷺ: ما كنت أرى أن شيئاً ممن يخلق هكذا، فقال جبرائيل: فكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن له لإثني عشر جناحاً منها جناح في المشرق، وجناح في المغرب، وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحيان لعظمة الله حتى يصير مثل الوصع حتى ما يحمل عرشه إلاّ عظمته.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٩ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٩، عن الدر المنثور.

بيان: قال في النهاية: «فيه أن العرش على منكب إسرافيل، وأنّه ليتواضع لله حتى يصير مثل الوصع، يروى بفتح الصاد، وسكونها وهو طائر أصغر من العصفور والجمع وصعان»[١].

قال عبد الله بن سلام للنبي فيما سأله: من أخبرك؟ قال النبي: جبرائيل. قال: عمن؟ (قال) قال: عن ميكائيل، قال: عمن؟ (قال) قال: عن إسرافيل. قال: عمن؟ (قال) قال: عن اللوح المحفوظ. قال: عمن؟ قال: عن القلم. قال: عمن؟ قال: قال: عن رب العالمين، قال: صدقت، فأخبرني عن جبرائيل في زي الإناث أم في زي الذكور؟ قال في زي الذكور، قال: فأخبرني ما طعامه؟ قال: طعامه التسبيح، وشرابه التهليل. قال: صدقت يا محمّد، فأخبرني ما طول جبرائيل؟ قال: إنّه على قدر بين الملائكة، ليس بالطويل العالي ولا بالقصير المتداني له ثمانون ذوابة، وقصة جعدة، وهلال بين عينيه، أغر أدعج محجل، ضؤوه بين الملائكة كضوء النهار عند ظلمة الليل، له أربعة وعشرون جناحاً خضراء مشبكة بالدر والياقوت مختمة باللؤلؤ، وعليه وشاح بطانته الرحمة، وأزراره الكرامة ظهارته الوقار ريشه الزعفران، واضح الجبين، أقنى الأنف، سائل الخدين، مدور اللحيين، حسن القامة، لا يأكل ولا يشرب، ولا يمل ولا يسهو. قام بوحي الله إلى يوم القيامة، قال: صدقت يا محمّد - ثم ساق الحديث إلى أن قال -: وما الثلاثة؟ قال: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وهم رؤساء الملائكة، وهم على وحي رب العالمين[٢].

بيان: «طعامه التسبيح» أي يتقوون بالتسبيح والتهليل كما يتقوّى الإنسان بالطعام والشراب ولا يبقى بدونهما، والقصّة - بالضم - شعر الناصية ذكره

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٩، عن الدر المنثور.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٣، عن الاختصاص .

الجوهري، وقال: الغُرة ـ بالضم ـ: بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم، يقال: فرس أغر والأغر الأبيض ورجل أغر أي شريف وقال: الدعج شدة سواد العين مع سعتها، والأدعج من الرجال: الأسود. وقال: التحجيل: بياض في قوائم الفرس أو في ثلاث منها أو في رجليه قل أو كثر بعد أن يجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين والعرقوبين لأنّها مواضع الأحجال وهي الخلاخيل والقيود، يقال: فرس محجل، وقال: الوشاح ينسج من أديم عريضاً ويرصّع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها (انتهى). والمراد بالوشاح إمّا المعنوي فالصفات ظاهرة أو الصوري فالمعنى أن بطانته علامة رحمة الله له أو للعباد، وكذا الباقيتان، القنى إحيداب في الأنف[1].

فهذه جملة أحاديث وردت تصف جبرائيل‌عليه‌السلام.

١ ـ ساق جبرائيل عليها در مثل القطر على البقل له ستمائة جناح ملئ ما بين السماء والأرض وهذا يعني أن أجنحته ستمائة جناح ومع ذلك فهو أفضل الملائكة وأقربهم إلى الله وهناك ملائكة لها أجنحة أكثر وأحجام أكبر لكنها ليست الأقرب فإذا ربطنا بين بنية الجسم والقرب فإنّها ضمن الوضع الكلي تؤدي النتيجة وليست بمعزل عن سواها. أمّا بالنسبة للساق فإن الصورة المنتزعة من التشبيه فهي أن الساق إمّا مكونة كلياً من مادة شفافة تعكس لوناً أخضر كما يعكس الماء النقي الذي يسقط على ساق البقل لوناً أخضر أو أنّها عليها مناطق شفافة مغطاة بالدر وهو مادة سليكونية شفافة.

٢ ـ لم يذكر سوى عدد الأجنحة والحجم وأنه سد الأفق.

٣ ـ إن النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله رآه في صورته عند سدرة المنتهى، وهذا معناه وجود أكثر من صورة أحدها التي يراها الرسول‌صلى‌الله‌عليه‌وآله في الأرض والثانية التي رآها عند سدرة المنتهى ولربما هناك سواها.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٤.

٤ ـ تقدير بالمسافة لجزء معين من جبرائيل وهي المسافة ما بين المنكبين، ففي الرواية خفق الطير سبعمائة عام وهي معدل سرعة الطير وهي ٣٠كم/ساعة مضروب بالزمن وهو عدد ساعات السنة فتكون النتيجة: ٣٠×٧٠٠×٣٦٠×٢٤= المسافة ما بين المنكبين.

٥ ـ نفس الموضوع باختلاف أن الطير يسير (٥٠٠) عام ولعل ذلك يتفق مع ذكره قيداً للطير المسرع، وهذا يعني أن سرعة خاصة قصدت ولهذا اختلف المقدار بـ (٢٠٠) عام.

٦ ـ وهنا جملة أوصاف منها:

أ ـ وجود وشاح من در منظوم وهذا معناه أنه وشاح مكون من حبيبات من الدر وهي حبيبات شفافة غير ملونة.

ب ـ إن له فماً وله ثنايا براقة.

ج ـ له جبهة واسعة توصف بالجلاء ولكن بالحجم الكبير.

د ـ له شعر رأس مجعد وكثير لكنه أبيض اللون.

و ـ القدمان مائلتان إلى الخضرة.

٧ ـ إنّ لجبرائيل صورة لم يتحمل النبي ﷺ رؤيتها وغشي عليه.

٨ ـ وفي هذا الحديث عدا عن الوصف ما يلي:

إنّ الوحي يأتي عن طرائق هي: جبرائيل، عن ميكائيل، عن إسرافيل، عن اللوح، عن القلم، عن الله سبحانه.

أما بالنسبة لوصف جبرائيل:

١ ـ إنّ مظهره مظهر الرجال.

٢ ـ أنّه لا يأكل ولكنه يتقوى بالتسبيح ويرتوي بالتهليل كالطعام والشراب.

٣ ـ أنّه متوسط الطول بالنسبة للملائكة.

٤ ـ له شعر منه ثمان ذوائب وشعر الناصية أجعد.

٥ ـ هناك هلال بين عينيه وهذا معناه أن له عينين.

٦ ـ والأغر هو الأبيض الجبين أو الشريف.

٧ ـ له عينان سوداوان واسعتان أو أنّه أسود البدن وأبيض الجبين فقط.

٨ ـ محجل أي سواد على الساق له ضوء كضوء النهار عند ظلمة الليل.

٩ ـ له أربع وعشرون من الأجنحة خضراء مشبكة بالدر والياقوت مختمة باللؤلؤ.

١٠ ـ له وشاح بأوصاف معنوية ولعل الوشاح معنوي.

١١ ـ أما الريش فهو الزعفران. وهذا يعني أنّ له ريشاً كريش الطير، لكن لونه أصفر كالزعفران.

١٢ ـ واضح الجبين.

١٣ ـ أقنى الأنف أي الاحديداب بالأنف.

١٤ ـ سائل الخدين.

١٥ ـ مدور الوجه.

لعل أكثر هذه الأوصاف هي أوصاف بشر لكنّه بشر كبير الجسم فيما عدا بعض المعالم كالأجنحة والغرة والريش والصورة التي تنتج من مجمل الأوصاف أنّه طير ووجهه وجه بشر.

مهام وفعاليّات جبرائيل عليه السلام

خوفه وتعليمه

روي أن جبرائيل أتي النبي صلى الله عليه وآله وهو يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: وما لي لا أبكي، فو الله ما جفت لي عين منذ خلق الله النار مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها. وقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار[1].

وعن أنس قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً مع أصحابه إذ جاءه رجل عليه ثياب السفر يتخلّل الناس حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فوضع يده على ركبة رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ((يا محمد ما الإسلام؟ وساقوا الحديث مثل ما مر إلى قولهم: يا رسول الله صلى الله عليه وآله متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وأدبر الرجل فذهب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: علي بالرجل، فاتبعوه يطلبونه فلم يروا شيئاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ذلك جبرائيل جاءكم ليعلّمكم دينكم))[2].

وعن ابن عباس، قال: ((جلس رسول الله صلى الله عليه وآله مجلساً فأتاه جبرئيل فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله واضعاً كفيه على ركبتي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله حدثني عن الإسلام، قال: الإسلام أن تسلم وجهك لله عز وجل وأن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت. فقال: يا رسول الله حدثني عن الإيمان، قال: الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيين

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٣.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦١.

والموت والحياة بعد الموت وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كلّه خيره وشره، قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت. قال: يا رسول الله حدثني ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك»[١].

وعن ابن عباس، أن جبرائيل وقف على رسول الله ﷺ وعليه عصابة خضراء قد علاها الغبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا الغبار الذي أرى على عصابتك؟ قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن فهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها»[٢].

جبرائيل عليه السلام يبكي من خوف الله وخوف عقابه، وحين سأله الرسول ﷺ عن سبب بكائه؟ فأجاب أنّه لم يكف عن البكاء منذ خلق الله النار وهذا يعني أن النار خلقت بعد خلق جبرائيل وأن جبرائيل يخشى أن يعاقبه الله بالنار، وهذا طبعاً يناقض كون الملائكة يدخلون في النار دون أن يتأذون بها إلاّ إذا قلنا أن الزبانية فيها فقط هم الذين لا يتأذون من النار، ثم إننا نفهم أن الملائكة غير مكلفة وأن العقوبة التي يعاقب بها الملائكة هي ليست النار مع أن الملائكة هي عموماً كائنات معصومة، وأن ما يمكن أن يكون معصية هي توهم لا أكثر ولا يجازي الله غير العامدين بالمعاصي بالنار مع أنّها خلقت لعذابهم فكيف بالملائكة، وقل أيضاً مثل ذلك في ميكائيل.

كما أنّ جبرائيل يعلّم الناس كيف يغتنمون وجود الرسول ﷺ بينهم فيسأل عن أمور الدين والدنيا ليعلم الناس وقد فعلها أمام الناس ثم أخبر الرسول ﷺ عن أنه جبرائيل عليه السلام خصوصاً أن الأسئلة التي سألها تنحو نحو الوصول إلى لب الدين وعدم الاكتفاء بالظواهر وهذا يدخل ضمن دور

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٠.

الملائكة في الهداية سواء المباشرة بإرسال الرسل أو بالخواطر الداعية إلى الخير عند أغلب الناس أو الناهية عن المنكر أو هذه التي يعلم فيها الناس كيفية اغتنام فرصة وجود الرسول بينهم.

كما جاء في الكثير من الأحاديث عن زيارة الملائكة للبيت والمراقد المقدسة، وقد بيناه في حينه، وهذا خاص بجبرائيل لكنه لا يختلف في أبعاده الأساسية عنها.

وفي حديث روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((إن الله تبارك وتعالى بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وكروبيل عليهم السلام فمرّوا بإبراهيم عليه السلام وهم معتمون، فسلموا عليه، فلم يعرفهم ورأى هيئة حسنة، فقال: لا يخدم هؤلاء أحداً إلا أنا بنفسي، وكان صاحب أضياف فشوى لهم عجلاً سميناً حتى أنضجه، ثم قرّبه إليهم، فلمّا وضعه بين أيديهم ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، فلما رأى ذلك جبرائيل حسر العمامة عن وجهه وعن رأسه فعرفه إبراهيم، فقال: أنت هو؟ فقال: نعم، ومرت امرأته سارة فبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فقالت: ما قال الله؟ فأجابوها بما في الكتاب العزيز، فقال إبراهيم عليه السلام لهم: فبماذا جئتم؟ قالوا له: في إهلاك قوم لوط ـ وساق الحديث إلى أن قال ـ: فأتوا لوطاً وهو في زراعة له قرب المدينة فسلموا عليه وهم معتمون، فلما رآهم رأى هيئة حسنة، عليهم عمائم بيض وثياب بيض فقال لهم: المنزل، فقالوا: نعم، فتقدمهم ومشوا خلفه، فندم على عرضه عليهم المنزل، وقال: أي شيء صنعت! آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟! فالتفت إليهم فقال: إنكم تأتون شراراً من خلق الله ـ وساق إلى قوله ـ فلما رأتهم امرأته رأيت هيئة حسنة، فصعدت فوق السطح وصفقت فلم يسمعوا فدخنت، فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون إلى الباب ـ وساق إلى قوله ـ فكاثروه حتى دخلوا البيت فأهوى جبرئيل

نحوهم بإصبعه فذهبت أعينهم ـ وساق إلى قوله ـ ثم أقتلعها جبرائيل عليه السلام بجناحه من سبع أرضين، ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها وأمطر عليها وعلى من حول المدينة حجارة من سجيل))[١].

وهنا بيان لحقيقة العداء بين الكافرين والملائكة لكن هنا مقيد بأن جميع أفعال الملائكة بأمر الله المباشر ولا تخضع لرؤية خاصة بالملك، فكل ما يفعله الملاك وإن كان إرادياً إلاّ أنّه خاضع بصورة دقيقة لإرادة الله.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما انهزم الناس يوم أحد ـ وساق الحديث الطويل إلى أن قال ـ قال النبي صلى الله عليه وآله: يا رب وعدتني أن تظهر دينك، وإن شئت لم يعيك. فأقبل علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أسمع دوياً شديداً وأسمع أقدم حيزوم وما أهم أضرب أحداً إلاّ سقط ميتاً قبل أن أضرب. فقال: هذا جبرائيل وميكائيل وإسرافيل في الملائكة ثم جاءه جبرئيل فوقف إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد، إن هذه هي المواساة، فقال: إن علياً مني وأنا منه، فقال جبرائيل عليه السلام: وأنا منكما، ثم انهزم الناس ـ وساق الحديث إلى قوله ـ فأتبعهم جبرائيل فكلما سمعوا وقع حوافر فرسه جدّوا في السير، فكان يتلوهم، فإذا ارتحلوا قال: هوذا عسكر محمّد قد أقبل، فدخل أبو سفيان مكة، فأخبرهم الخبر، وجاء الرعاة والحطابون فدخلوا مكة، فقالوا: رأينا عسكر محمد كلما رحل أبو سفيان نزلوا يقدمهم فارس على فرس أشقر يطلب آثارهم فأقبل أهل مكة على أبو سفيان يوبخونه ـ إلى آخر الخبر[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٦، عن الكافي.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٥.

وهذا أيضاً يدخل في حقيقة الحب الذي أسلفناه وهو يقوم به جبرائيل إمّا لأنه كلّف شخصياً أو لأنّه قائد الملائكة ويقوم به معهم لكن دوره يكون هو المبرّز، لأنَّ الآخرين يتبعونه في الفعل ويسيرون حسب أمره وكأنّهم بعض أجزاء بدنه ولهذا ينسب له خصوصاً دوره في إرعاب الكفار وإخافتهم.

إسرافيل

مرّ في البحث السابق أن إسرافيل هو أحد أقرب اثنين من الملائكة إلى الله وقد مرّت نعوت كثيرة بخصوصه، فهو حاجب الربّ وهو صاحب الصور وهو الذي بين يديه اللوح. وفي أحد الأحاديث عن لسان جبرائيل أنّه الأقرب إلى الله وقد مرّ الحديث عنه، وقد جاء عن إسرافيل أحاديث يمكن أن نجملها بجملة عناوين وهي:

١ ـ مكانة إسرافيل.

٢ ـ خلق إسرافيل.

٣ ـ وصفه ومهامه.

٤ ـ إسرافيل والحجب والوحي.

٥ ـ إسرافيل وأسماء الله.

٦ ـ إسرافيل والصور.

وبالنسبة للموضوع الأول فقد مرّت جملة أحاديث بيّنت أن إسرافيل هو الثاني بين الملائكة، ومرّت أحاديث أخرى حدّدت أنّه الأول بينهما، ومرّت أحاديث أشارت إلى مكانة مشتركة بينه وبين جبرائيل. وهناك حديث حدد أنّه أحد ثلاثة كما مرّ. وكما مرّ بنا أنه أحد أربعة ملائكة مقربين وهم الأقرب دون سواهم.

وبالنسبة لخلق إسرافيل فلدينا حديث مفاده:

عن وهب بن منبه، قال: «خلق الله الصور من لؤلؤة (بيضاء) في صفاء الزجاجة وثم قال للعرش: خذ الصور فتعلّق به، ثم قال: كن. فكان إسرافيل فأمره أن يأخذ الصور فأخذه وبه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة لا تخرج روحان من ثقب واحد وفي وسط الصور كوّة كاستدارة السماء والأرض وإسرافيل واضع فمه على تلك الكوّة ثم قال له الرب تعالى: قد وكلتك بالصور، فأنت للنفخة وللصيحة، فدخل إسرافيل في مقدم العرش، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش، وقدم اليسرى ولم يطرف منذ خلقه الله ينظر متى يؤمر به»[1].

الحديث حول الصور وعلاقة الصور بالعرش وعلاقة إسرافيل بالصور لكن الإشارة هنا تفيدنا في تصور خلق إسرافيل حيث لم يرد هل أنّه وجد بعد استحمام جبرائيل بنهر النور أو بارتعاشة من ارتعاشاته. وهذا يضعنا أمام جملة احتمالات، أولّها: هو أن يتخلّق على القاعدة أي أنه مثل كل الملائكة خلق من جبرائيل أو أنّه كما جاء في حديث السبحة أن هؤلاء المذكورين هم خلقوا مرّة واحدة ومن مادة واحدة وهي النور «إنّ الله خلق إسرافيل وجبرئيل وميكائيل من سبحة واحدة»[2].

وعلى أساس هذا الحديث فإن الطبقة الأولى من الملائكة خلقت بطريقة مشابهة وإنّها تختلف عن بقية الملائكة، ولكن لا يعلم أنّهم جميعاً بنفس الصفات أو أن هناك اختلاف ولعل الاختلاف من درجة القرب يقودنا إلى استنتاج اختلاف الصفات.

---

(١) - بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٦١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٥.

ومن هنا فإننا نلاحظ أن الطبقة الأولى من الملائكة مكونة من الثلاثة المذكورين بصورة أساسية، وأن طريقة خلق إسرافيل هي طريقة الخلق الفجائي مع العلم أننا نلاحظ أن جميع حالات الخلق نرى فيها أطوار ومراحل، ولعلّ في هذا الحديث صورة عن تخلّق الصور بنفس الطريقة فكل بداية تذكر ليست في الواقع إلاّ بداية طور متميز.

وصف إسرافيل والحُجُب

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان بيننا رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً وعنده جبرائيل عليه السلام وإذ حانت من جبرائيل عليه السلام نظرة قبل السماء فامتقع لونه حتى صار كأنه كركم، ثم لاذ برسول الله صلى الله عليه وآله فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حيث جبرئيل فإذا شيء قد ملأ بين الخافقين مقبلاً حتى كان كقاب من الأرض، ثم قال: يا محمد إني رسول الله إليك أخيّرك: أن تكون ملكاً رسولاً أحب إليك، أو أن تكون عبداً رسولاً، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جبرئيل وقد رجع إليه لونه فقال جبرئيل: بل كن عبداً رسولاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بل أكون عبداً رسولاً، فرفع الملك رجله اليمنى فوضعها في كبد السماء الدنيا، ثم رفع الأخرى فوضعها في الثانية، ثم رفع اليمنى فوضعها في الثالثة ثم هكذا حتى انتهى إلى السماء السابعة، بُعد كل سماء خطوة، وكلّما ارتفع صغر حتى صار آخر ذلك مثل الصر، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جبرائيل عليه السلام فقال له: قد رأيتك ذعراً، وما رأيت شيئاً كان أذعر لي من تغيّر لونك! فقال: يا نبي الله لا تلمني، أتدري من هذا؟ قال: لا. قال: هذا إسرافيل حاجب الرب، ولم ينزل من مكانه منذ خلق الله السماوات والأرض، ولما رأيته منحطاً ظننت أنه جاء بقيام الساعة، فكان الذي رأيت من تغيّر لوني ذلك، فلما رأيت ما اصطفاك الله به رجع إليّ لوني ونفسي أما رأيته كلّما ارتفع صغر، إنه ليس شي يدنو

من الربَّ إلاّ صغر لعظمته، إن هذا حاجب الرب، وأقرب خلق الله منه، واللوح بين عينيه من ياقوتة حمراء فإذا تكلم الرب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللوح جبينه فنظر فيه، ثم ألقاه إلينا فنسعى به في السماوات والأرض، إنّه لأدنى خلق الرحمن منه، وبيني وبينه تسعون حجاباً من نور تقطع دونها الأبصار ما لا يعد ولا يوصف. وإني لأقرب الخلق منه، وبيني وبينه مسيرة ألف عام.

بيان: قال الجوهري: حان له أن يفعل كذا يحين حيناً أي آن. وحان حينه أي قرب وقته وقال: قال الكسائي: امتقع لونه إذا تغير من حزن أو فزع، وقال: وكذلك انتقع وابتقع وبالميم أجود. وقال: الكركم الزعفران. وقال: لاذ به لواذاً ولياذاً أي لجأ إليه وعاذ به. وفي القاموس: الصر طائر كالعصفور وأصغر «يدنو من الربّ» أي من موضع مناجاته، أو من عرشه سبحانه «ما لا يعد ولا يوصف» أي دونها وقبل الوصول إليها، ما لا يعد ولا يوصف انقطع عندها الأبصار، ولا تقدر على النظر إليها.

وفي بعض النسخ «ما يعدّ» بدون «لا» فيمكن أن يكون بدلاً من «تسعون حجاباً» و«ما» موصولة، أي يحيط به العدد دون الوصف، والمراد بالحجب إمّا الحجب المعنوية كما مرّ، أو المراد بينه وبين عرشه، أو بين منتهى خلقه، أو بين محل يصدر منه الوحي[1].

وعن ابن عباس، قال: «بينما رسول الله ﷺ ومعه جبرئيل عليه السلام يناجيه إذا انشق أفق السماء فأقبل جبرائيل عليه السلام يتضاءل ويدخل بعضه في بعض ويدنوا من الأرض، فإذا ملك قد مثل بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً وبين أن تكون نبياً عبداً؟

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

قال رسول الله ﷺ: فأشار جبرائيل إليّ بيده أن تواضع فعرفت أنه لي ناصح، فقلت: عبد نبي. فعرج ذلك الملك إلى السماء، فقلت: يا جبرائيل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبرائيل؟ قال: هذا إسرافيل. خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها نور يدنو منه أحد إلاّ احترق. بين يديه اللوح المحفوظ، فإذا أذن الله في شيء في السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح. فضرب جبهته فينظر فيه، فإن كان من عملي أمرني به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به، فقلت: يا جبرئيل على أي شيء أنت؟ قال: على الرياح والجنود، قلت: على أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر. قلت: على أي شيء ملك الموت. قال: على قبض الأنفس، وما ظننت أنّه هبط إلاّ لقيام الساعة وما ذاك الذي رأيت مني إلاّ خوفاً قيام الساعة»[1].

الخلق والوصف والمهام المشتركة مع إسرافيل

عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ سأل جبرئيل أن يتراءى له في صورته، فقال جبرئيل: إنك لن تطيق ذلك، قال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ إلى المصلى في ليلة مقمرة، فأتاه جبرئيل في صورته، فغشي على رسول الله ﷺ حين رآه، ثم أفاق وجبرئيل مسنده وواضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال رسول الله ﷺ: ما كنت أرى أن شيئاً ممن يخلق هكذا، فقال جبرئيل فكيف لو رأيت إسرافيل؟ إنّ له لأثني عشر جناحاً منها جناح في المشرق، وجناح في المغرب، وإن العرش على كاهله وإنّه

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٦٠.

ليتضاءل الأحيان لعظمة الله حتى يصير مثل الوصع حتى ما يحمل عرشه إلاّ عظمته.

بيان: قال في النهاية: «فيه أن العرش على منكب إسرافيل، وأنّه ليتواضع لله حتّى يصير مثل الوصع. يروى بفتح الصاد وسكونها، وهو طائر أصغر من العصفور، والجمع وصعان»[1].

إسرافيل أثناء تلقّي الوحي

عن كعب قال: «إسرافيل له أربعة أجنحة: جناحان في الهواء، وجناح قد تسرول به، وجناح على كاهله، والقلم على أذنه، فإذا نزل الوحي كتب القلم ودرست الملائكة، وملك الصور أسفل منه جاث على إحدى ركبتيه، وقد نصب الأخرى، فالتقم الصور، فحنى ظهره، طرفه إلى إسرافيل وقد أمر إذا رأى إسرافيل قد ضم جناحه أن ينفخ في الصور. وعن عائشة مثله»[2].

أما بالنسبة للوح الذي هو عبارة عن ياقوتة حمراء ترتفع فتضرب جبين إسرافيل حين ينزل الوحي مما يشبه جهاز التنبيه، فكلما نزل الوحي تنبّهت الملائكة لاستلام الوحي رغم أن الملائكة لا تنشغل ولا تلهو وهو يعني تصور احتمال الغفلة إلى الصفر. وإن كان أمراً ليس له واقعية أصلاً.

واللوح الذي هو من ياقوت قد يكون شبيهاً بالشاشات في أجهزة الاستقبال يستخدم لاستلام الوحي، أمّا كونه من الياقوت فلا بدّ من خاصية، لذلك فمعلوم أن إنتاج أشعة الليزر تستفاد من الياقوت الأحمر في عملية إنتاجها ولعلّه ذو خاصية مشابهة أو نفسها لوجود القدرة العالية لهذا النمط

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٢.

من الأشعة، وليس بالضرورة أن يكون هذا العالم مطابقاً لذلك لكن هناك قدراً من التشابه ممكن الوقوع.

أمّا بالنسبة للحجب فإنّها من نور وحجاب النور يعني حاجزاً أوحداً من الأشعة، فالأشعة يمكن أن تشكل حدود أو حواجز، فالإنسان مثلاً لا يستطيع العبور من الأشعة الذرية لأنّها في حدود معينة تؤدي إلى قتله ولعلها بالنسبة للملائكة تعمل بطريقة مشابهة أو أنّها حائل لا تستطيع تجاوزه دون أن يؤدي إلى هلاكها، كما يكون تيار النهر الجارف أو البحر أو المسافات الشاسعة بالنسبة للإنسان لكن في النهاية هو يحول دون خرق الملائكة لها ويحتجزها داخل هذه الدائرة.

وفي هذه الأحاديث جاء تأكيد على أن نزول إسرافيل إلى الأرض سببت الخوف لأنّ جبرائيل ظن أنّه نزل بقيام الساعة ذلك أنه قليل الحركة، ولا يغير مكانه إلاّ لأسباب كبيرة كما يلوح من الحديث أنّه في حالة تأهب دائماً للنفخة بالإضافة إلى تلقّي الوحي وهي حالة تقتضي البقاء على جاهزية تامة أيضاً.

أما بالنسبة للخوف فلا يعلم على وجه الدقة ما هو سببه وخصوصاً لأنه تعلق بالملائكة فهل لأجل التحولات التي تحصل؟ أم لأنّ المشهد الرهيب الذي نقلته الآيات حيث تقوم الملائكة والروح صفاً؟ أم أن الملائكة تخشى من دخول البشر إلى النار انطلاقاً من كون الملائكة كائنات خيرة لا تحب الأذى؟ أو لعلها هي أيضاً مهددة بالحساب والعقاب وإن كان هذا بعيداً لأنّها مكلفة بتكاليف تختلف عن البشر وعقابها وثوابها مختلف كذلك.

أما ما أشار إليه الخبر من تصاغر الكائنات فهذا يدل على عدّة دلالات: فهل أن التصاغر يبدو في أعين الناظر العادي أم أنّه تصاغر حقيقي؟ فإذا كان مجرد تصاغر في أعين البشر فإنّه حالة طبيعية بالنسبة لهم. وكلما بعُدَ الجسم بدا صغيراً بينما هو في الواقع في نفس حجمه الطبيعي.

وكما يبدو في متن الحديث أن التصاغر كان حقيقياً! ثم صار في طريق العودة يصغر حتى بات صغيراً جداً، أما إذا كان المقصود تأكيد الحديث حالة عامة فإن التصاغر يلازم ابتعاد الأجسام عن عين الناظر إلاّ أنّه لم يبين ماهية القرب هل هو قرباً معنوياً أم أنه اقتراب من نقطة معينة؟ مثل بيت الله في مكة أو مركز من نوع ما كالعرش الذي هو قرب من مركز لإدارة الوجود بناء على أنه لا يمكن نسبة الله عز وجل إلى أي نقطة لأنه موجود في كل نقطة. ولعل الأرجح هي نقطة تجلي الله أو عن طريق آلائه وآياته التي وسمها بالكبرى وحين وصف رسوله ﷺ بأنه دنا فتدلّى.

ولكن هذا التضاؤل العام يتعارض مع الآيات والأحاديث لأنّها لم تأت على ذكره بل لعلّ الوصف جاء مشيراً إلى أجسام الملائكة بأحجامها الهائلة، ولهذا لابدّ لنا من الجمع بين القولين بافتراض هذا التضاؤل يحصل أثناء الحركة، كما جاء في النظرية النسبية لأينشتين التي تنص على أن أبعاد الأجسام تتقلص باتجاه السرعة ولكن هل ينطبق هذا على الأجسام النورية؟ طبعاً هذا ما لا يمكن الجزم به بل يمكن الجزم بضده، كما يمكن الجمع بأن هذا يحصل عند الحركة في نقطة معينة في الكون ولكن حين تصل الملائكة إلى أماكنها الأصلية فإنّها تعود إلى الوضع الطبيعي.

أمّا بالنسبة للحركة التي تحرك بها إسرافيل فإنّها أشبه بقفزات كل قفزة أو نقلة تستوعب مسافة سماء أي أنه قطع سبعة سموات بسبع خطوات.

وإلى جانب ذلك فإن ما بين الحاجز والحاجز توجد أشياء وصفت وصفاً سريعاً بقوله: «ما لا يعد ولا يوصف» أو «ما يعد ولا يوصف» وفي كلا الحالتين فإنّ هنالك أشياءً إمّا حيّة أو جامدة عجيبة لأنّها لا توصف فضلاً عن أنها مسافات هائلة، وكما ورد في الحديث أنّها فاصلة تقطع دونها الأبصار ما لا يعد ولا يوصف وأن بين جبرائيل وإسرافيل ألف سنة، أما بالنسبة للطير

كما هي العادة في الأحاديث أو بالنسبة لسرعة الملائكة وهكذا يكون جميع هذا الوصف بين الحاجز والحاجز حتى نصل إلى الحاجز الأخير الذي لا يتجاوزه أحد والذي سماه جبرائيل نهر النور.

وفي الحديث الآخر لا يذكر لفظة حجب بل يورد كلمة نور ويصرّح بأن كل من يقترب منه يحترق، وهذا يذكرنا بأشعة الليزر التي تحرق وإذا كانت مركّزة فإنّها تحرق وتذيب الحديد.

وفي الحديثين يوصف إسرافيل بالتأهب ولكن الحديث الآخر وصفه بأنّ له اثني عشر جناحاً منها جناح في المشرق والآخر في المغرب ولعل هذا كناية عن عظمة خلقته ويدعمها أن العرش بعظمته على كاهله، وهذا طبعاً يختلف عن الوصف السابق الذي يقول أنه وضع أحد رجليه داخل العرش كما أنّه وصف التضاؤل على أنّه حالة رمزية وليست فعلية، فهو رغم هذه العظمة فإنه يتواضع أمام ربه فيكون كالوصع وبذلك تختلف عن الدلالة السابقة وهو الأقرب إلى المنطق ولا يتناقض مع الأحاديث السابقة التي وصفت الملائكة.

وفي الحديث الآخر ورد ذكر أربعة أجنحة اثنان مرفوعان كما في الوصف السابق وجناح قد لبسه بمثابة سروال وآخر على كاهله وحين عقب بوصف تلقي الوحي فهذا قد يوحي بأن هذا الوضع وضع التلقي؛ لأنّه ليس الوضع الدائم ذلك أن عدد الأجنحة قد ورد مختلفاً وهذا لعلّه وصف لموضع الحاجة وليس لكل أجنحة إسرافيل.

كما أن الأحاديث الأخرى وصفته أنّه الذي يلتقم الصور أمّا في هذا الحديث فإن الصور قد حمله ملك آخر وليس إسرافيل، وفي أحاديث أخرى فإن الصور عند ملكين مع إسرافيل وهكذا فإن الصور تتفاوت تفاوتاً جزئياً يفيد قرب النفخة من جهة وانصياع صاحب الصور للأوامر واستعداده التام للتنفيذ.

الصوْر

عن ابن مسعود، قال: الصور كهيئة القرن ينفخ فيه[١].

وعن قتادة: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[٢] قال: فإذا نفخ في الصّور[٣].

وعن أبي سعيد، قال: «إن صاحبي الصور بأيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران»[٤].

وعن النبي ﷺ قال: «وما من صباح إلاّ وملكان موكلان بالصور ينظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا»[٥].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعداً ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان درّيان»[٦].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعُم وقد التقم صاحب القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ، قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٢.

(٢) سورة المدّثر: ٨.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٣.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٢.

(٥) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٢.

(٦) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٢.

توضيح: قال الجوهري فيه: كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه!! أي كيف انتعم من النعمة ـ بالفتح ـ وهي المسرّة والفرح والترفّه[١].

وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع حتى يؤمر؟ قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل وعلى الله توكلنا[٢].

وفي تعقيب صلوة أمير المؤمنين: وباسمك المكتوب على جبهة إسرافيل، وبقوة ذلك الاسم الذي ينفخ به إسرافيل في الصور، وأسألك باسمك المكتوب على راحة رضوان خازن الجنان[٣].

ومن هذه الأحاديث نلاحظ ما يلي:

١ ـ الصور، قد مرّ في حديث سابق أن الصور خلق من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة ثم قال للعرش خذ الصور فتعلق به. والظاهر أن الدلالة خافية في هذا المقطع إلاّ أنها تشير إلى أن خلق الصور سبق خلق إسرافيل وأنه كان في العرش وأهميته أنه آذان بحلول الساعة بأهوالها وما يحدث خلالها.

٢ ـ ثم إن الصور فيه كوّة بقدر السموات والأرض وهذا يعني أنّه أكبر من الكوّة التي ينفخ بها، ثم إن فم إسرافيل أكبر من السموات والأرض، وأن في الصور ثقوب بقدر أرواح المخلوقات الحية لأن النفخة تؤدي إلى صعق كل من في السماوات والأرض من أحياء.

٣ ـ والصور كما جاء في الأحاديث كهيئة القرن وأنّه هو نفسه الناقور وأنه القرن أيضاً.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٦٣.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٣.

وهنا أحاديث تقول: إن إسرافيل ومعه ملك آخر هما صاحب الصور وهناك أحاديث تقول بأن ملكان هما صاحبا الصور، ولعل هذا يعني أنّهما بإمرة إسرافيل فتكون الساعة عن طريقه، لأنّه هو صاحب اللوح ومع كل هذا تصح الأوصاف ولكنّها مرّة تكون بطريقة مباشرة وأخرى غير مباشرة.

وكل الأحاديث تفيد أن الهيئة هيئة من يوشك أن ينفخ لكي نشعر بأن الساعة قريبة وأنّها بين اللحظة واللحظة يمكن أن تقع.

عزرائيل (ملك الموت)

لقد ورد وصف ملك الموت في حديث المعراج وهناك آيات كثيرة تحدثت عنه وبيّنت مهمته الرئيسية وأنّه رئيس طائفة من الملائكة مختصة باستيفاء روح المتوفى، وجاءت هذه الأحاديث لتبيّن بعض التفاصيل الإضافية عن مهمة استيفاء الروح.

ومن الواضح أن وجود جهاز مختص لاستيفاء الروح يؤكد الأهمية العملية مع العلم أنّ الآيات لا تبين بوضوح هل أن الملائكة الذين يقومون بذلك لا يؤدون مهام أخرى وهم متفرّغون لأداء هذه المهمة أم لا؟ إلاّ أنّنا ومن خلال الكثير من الأحاديث نعلم بوجود مبدأ عام هو مبدأ التخصص وأن كل طائفة متخصصة بأداء أعمال معينة قلّما تزاول غيرها.

وهناك أحاديث أفادت أنّ ثمة فئات متعددة مختصة باستيفاء أرواح المخلوقات وكل فئة مختصة بصنف من الأحياء، وعلى هذا فإننا نلتفت إلى أن هذه العملية تحظى بعناية خاصة تقتضي البحث عن أسبابها، ولعل أوّل ما يلوح هنا أن الروح تحتاج إلى حفظ دقيق من أماكن خاصة حتى يوم البعث،

وأنَّ النقلة هذه هي عبارة عن سلب الإرادة، ففي الحياة الدنيا تألف الأرواح نسق خاص من السلوك وتعتاده فيأتي الموت ليمنع أي سلوك للإنسان فلا الكلام ولا الحركة ولا أي شيء آخر مجاز حتى يأتي يوم البعث ثم إنَّ العودة إلى الأبدان أيضاً تعكس نفس النسق الجديد.

وصف ملك الموت

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما أسري بي إلى السماء رأيت ملكاً من الملائكة بيده لوح من نور لا يلتفت يميناً ولا شمالاً مقبلاً عليه ثبة كهيئة الحرير فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا ملك الموت مشغول في قبض الأرواح. فقلت: أدنني منه يا جبرئيل لأكلمه، فأدناني منه، فقلت له: يا ملك الموت أكل من هو مات أو هو ميت فيما بعد أنت تقبض روحه؟ قال: نعم قلت: وتحضرهم بنفسك؟ قال: نعم، ما الدنيا كلّها عندي فيما سخّره الله لي ومكنني منها إلاّ كدرهم في كف الرجل يقلبه كيف يشاء، وما من دار في الدنيا إلاّ وأدخلها في كل يوم خمس مرات وأقول إذا بكى أهل البيت على ميتهم: لا تبكوا عليه، فإن لي إليكم عودة وعودة حتى لا يبقى منكم أحد. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كفى بالموت طامة يا جبرائيل! فقال جبرئيل: ما بعد الموت أطم وأعظم من الموت![1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما أسري بي إلى السماء رأيت في السماء الثالثة رجلاً قاعداً، رجل له في المشرق ورجل له في المغرب. وبيده لوح ينظر فيه ويحرك رأسه، فقلت يا جبرئيل: (من هذا؟ قال: هذا ملك الموت)[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٤٩.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٢، عن صحيفة الرضا.

وفي كل هذه الأحاديث كان وصف الملك شبيهاً بوصف الرجل ولسنا ندري أكانت الصورة التي رآها الرسولﷺ هي الصورة الأصلية بل هي صورة متحولة.

وقد مرّ شبيه هذا الحديث عن ملك الموت ولوح النور ولكن هنا إشارة إلى أن ملك الموت يحضرهم بنفسه ولا يعني أنه يقبض أرواحهم بنفسه لكن حضوره أو إشرافه ممكن لأنه كما جاء في الحديث: ((ما الدنيا عندي فيما سخره الله لي ومكنني منها إلاّ كدرهم في كف الرجل يقلبه كيف شاء)) وهذا التشبيه يمكن أن يفهم بأكثر من طريقة حيث ينتهي إلى التسلط على جميع أفراد الجنس البشري أو جميع الأحياء أكثر من مرة في اليوم، وإذا كان ملك الموت مهتم بأرواح العباد وبحياتهم فلا بدّ من وجود نظام ارتباط بين الأرواح والأجسام يمر عبر جهاز سيطرة يشرف عليه عزرائيل عليه السلام فإذا افترضنا أن كل روح هي عبارة عن جهاز يرتبط لاسلكياً بمركز سيطرة متطور، فإن جميع الأرواح تكون واضحة بالنسبة إلى موظف السيطرة من خلال شاشة تحسب نقصان الأجل أو زيادته والولادات، وهذا طبعاً ممكن في عالمنا العادي كما هو بالنسبة لخطوط الإنتاج أو شبكات الكهرباء وغير ذلك، ويمكن تخيل نظم سيطرة أكثر تطوراً تعمل بأنواع من طاقة غير مكتشفة بالنسبة لنا وتكون أصغر وملائمة بالنسبة لكائنات فائقة الذكاء ومتعددة الرؤوس كما مرّ في الحديث السابق.

ومن الملاحظ أن الحديث استخدم مفردة (الدنيا) ويحتمل أن تعبّر عن الأرض بما فيها من كائنات، ولهذا قال: ((وما من دار في الدنيا إلاّ وأدخلها في كل يوم خمس مرات)).

وحتى لو افترضنا أنّه قادر على دخول المنازل والدور فإنّ دخوله قد يكون مباشراً أو غير مباشر بواسطة حضور الملائكة الموجودين بكثرة مع البشر.

هناك أكثر من ملك

عن ابن عباس قال: ((وكّل ملك الموت بقبض أرواح الآدميين فهو الذي يلي قبض أرواحهم، وملك في الجن، وملك في الشياطين، و ملك في الطير والوحش والسباع والحيتان والنمل، فهم أربعة أملاك والملائكة يموتون في الصعقة الأولى، وإن ملك الموت يلي قبض أرواحهم، ثم يموت وأما الشهداء في البحر، فإن الله يلي قبض أرواحهم، لا يكل ذلك إلى ملك الموت لكرامتهم عليه))[1].

ولعل هذا يدل على أن ملك الموت مسؤول بصفة عامة عن استيفاء جميع الأرواح لكنه أبقى استيفاء أرواح البشر تحت نظره مباشرة، إلاّ أنه وكل بجميع أصناف الأحياء، فلكل صنف ملك مختص.

غير أن في هذا الحديث إشارة إلى موت الملائكة فإنها تموت كالبشر، وهذا يتناقض مع المهام الواسعة التي لهم في الوجود حيث يشرفون على كل شيء ولا يعقل أن يكون وجودهم كمالي، وأن موتهم ممكن كموت البشر فضلاً عن أن طبيعتهم تختلف عن طبيعة البشر وهي أصلاً متساوقة مع الحياة الأخرى التي يكون الموت مدخلاً لها ولعل في موت الملائكة اضطراب لنظام الوجود.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٤.

ملك الموت ورفقهِ بالمؤمن وتردّده

عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: دخل النبي صلى الله عليه وآله على رجل من الأنصار يعوده، فإذا ملك الموت عند رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال: أبشر يا محمد، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم يا محمد أني لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله، فأقوم في جانب من الدار فأقول: والله ما لي ذنب، وإن لي لعودة وعودة، الحذر! الحذر! وما خلق الله من أهل بيت مدر ولا شعر ولا وبر في برّ ولا بحر إلاّ وأنا أتصفّحهم فيه في كل يوم وليلة خمس مرات حتى أني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد إني لا أقدر أن أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك وتعالى الذي يأمر بقبضه[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام مثله أيضاً لكن فيهما: خمس مرات عند مواقيت الصلوات[2].

بيان: لا يخفى عدم دلالة هذه الأخبار على كون قابض أرواح الحيوانات ملك الموت، فإن الغرض منها المبالغة في عدم قدرته على فعل صغير أو كبير بدون إذنه سبحانه، فلا ينافي خبر ابن عباس، لكن ليس في أخبارنا تصريح بأحد الطرفين والتوقف في مثله أحوط[3].

وعن الخزرجي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ونظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار. فقال: يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٤.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٥.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٥.

مؤمن، فقال ملك الموت: طب نفساً وقر عيناً واعلم بأني بكل مؤمن رفيق واعلم أنّي يا محمد لأقبض روح ابن آدم، فإذا صرخ صارخ قمت في الدار ومعي روحه، فقلت: ما هذا الصارخ؟ والله ما ظلمنا ولا سبقنا أجله، ولا استعجلنا قدره، وما لنا في قبضه من ذنب فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا، وأن تسخطوا تأثموا وتوزروا وأنّ لنا عندكم عودة بعد عودة فالحذر! الحذر وما من أهل بيت شعر ولا مدر، بر ولا فاجر، سهل ولا جبل إلاّ وأنا أتصفحهم في كل يوم وليلة حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله لو أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو يأذن في قبضها[1].

إنّ أوّل ما يستشف من هذا الحديث هو رقة النبي ﷺ وطلبه للرفق بالمؤمنين وأن عزرائيل هو بدءاً رفيق بالمؤمنين حتى أن ملك الموت يتألم لألم أهل الدار لكنه مأمور بقبض الروح.

والأمر الثاني هو متابعة الأحياء خمس مرات في اليوم والليلة ومن الواضح أنّه يتابع شؤونه من زاوية الأجل، وهذا يقودنا إلى أن الأجل متحرك فلعل بعض الأحياء يقومون ببعض الأعمال فيمدّ الله في آجالهم، ولهذا فإن عزرائيل ينظر إلى التغيرات خمس مرات في اليوم والليل حتى تأتي إشارة الحتم فيقبض روح الحي، ولعل هناك نظاماً خاصاً بالحذف والإضافة حتى تأتي لحظة الحتم وهي عملية حسابية ربما تؤديها ملائكة أو يؤديها اللوح الذي نفترض أنّه يشبه جهاز الكومبيوتر الضخم المزود ببرامج ضخمة ومعلومات دقيقة بالإضافة إلى ارتباطه بخزان المعلومات الذي يحتوي على جميع ما يتعلّق بالوجود من أحياء، وجمادات وما هو ثابت وحتمي بالنسبة له وما هو

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٤.

متغير وهذا بناءً على ما مرّ من الحديث عن اسرافيل واللوح المحفوظ حيث ينسخ للملائكة الحفظة نسخة من أعمال العباد ويقارنونها بما لديهم مما كتبوه قبلاً.

وهذا خزان المعلومات هو الذي يزود عزرائيل بمعلومات عن الأفراد فيما يتعلق بآجالهم، ذلك أن عملية استيفاء الروح تظهر في اللوح إذا كانت نهاية الأجل ثم يؤمر الملك بقبض الروح، وهو لا يقرر ذلك إلاّ بعد أن يصدر الأمر إليه ونحن نعلم أن الأوامر إنّما تصدر من اللوح ومنه إلى الملك المختص.

إشراف جبرائيل على عزرائيل

عن معتب غلام الصادق‹ع› قال: كنت مع أبي عبد الله‹ع› بالعريض فجاء يمشي حتى دخل مسجداً كان يعبد الله فيه أبوه، وهو يصلي في موضع من المسجد فلما انصرف قال: يا معتب ترى هذا الموضع؟ قلت: نعم، قال: بينما أبي‹ع› قائم يصلي في هذا المكان إذ دخل شيخ يمشي حسن السمت فجلس فبينما هو جالس إذا جاء رجل آدم حسن الوجه والتمسه، فقال للشيخ: ما يجلسك؟ ليس بهذا أُمرت، فقاما وانطلقا وتواريا عني فلم أرَ شيئاً، فقال: يا بني! هل رأيت الشيخ وصاحبه؟ فقلت: نعم، فمن الشيخ وصاحبه؟ قال: الشيخ ملك الموت، والذي جاء فأخرجه جبرئيل[1].

وعن زرارة، قال: قال أبو عبد الله: بينما أنا في الدار مع جارية لي إذ أقبل رجل قاطب بوجهه فلما رأيته علمت أنّه ملك الموت، فاستقبله رجل

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٢، عن الخرائج.

آخر أطلق منه وجـهاً وأطلـق منه بشراً، فقـال لـه: ليس بـذا أمرت، فبينمـا أنا أحدث الجارية إذ قبضت[١].

بيان: «ليس بذا أمرت» أي بالتأخير، أو بملاقات غير المتوفي أو بالقطوب للإمام، وفي الخبر السابق يحتمل الجلوس. أو قبض الإمام ﷺ مع الاحتمالين الأولين، والله يعلم».

ويترتب على هذا الحديث أن العملية بإشراف جبرائيل ﷺ فهو يتابع التلكؤ أو الأفعال غير الدقيقة أو الأغلاط التي تحصل من استيفاء الروح، فملك الموت حين يقوم بعمله يكون في استلام الأمر من اسرافيل مشرفاً عليه، وفي التنفيذ كذلك يشرف عليه من قبل جبرائيل ولهذا فإن جبرائيل ﷺ كما تعرض هذه الأحاديث يكون حاضراً في أكثر من موقف تصحيح.

كيفيّة استيفاء الروح

عن حنّان بن سدير، عن أبي جعفر ﷺ قال: قلت له: أخبرني عن قول يعقوب لبنيه ﴿... *اذهبوا فتحسّسوا من يوسف واخيه*...﴾[٢] أكان يعلم أنّه حي وقد فارقه منذ عشرين سنة؟ قال: نعم. قال: قلت: كيف علم؟ قال: إنّه دعا في السحر وسأل الله أن يهبط عليه ملك الموت، فهبط عليه بريال وهو ملك الموت، فقال بريال: ما حاجتك يا يعقوب؟ قال له: أخبرني عن الأرواح التي تقبضها مجتمعة أو متفرقة؟ قال: بل أقبضها متفرقة روحاً روحاً. قال: أخبرني

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٣، عن الخرائج.

(٢) سورة يوسف: ٨٧.

فهل مرّ بك روح يوسف فيما مرّ بك؟ قال: لا، فعلم يعقوب أنّه حي، فعند ذلك قال لولده: اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه[1].

بيان: «فتحسّسوا» التحسّس طلب الإحساس، أي تعرّفوا منهما وتفحصوا عن حالهما «تقبضها مجتمعة» لعل السؤال عن الاجتماع والتفرق في الأخذ، لأنّه إذا قبضها مجتمعة يمكن أن يغفل عن خصوص كل واحد بخلاف ما إذا أخذ روحاً روحاً، أو لأنّه إذا قبضها مجتمعة يمكن أن تسلم إليه بعد مرور الأيام ليجتمع عدد كثير منها ولما يصل روح يوسف عليه السلام إليه بعد ذلك، وهذا الملك إما عزرائيل يقبض الأرواح من أعوانه أو غيره ويقبض منه والأخير أظهر.

ملك الموت ينزل بالبشارة

وفي رواية عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما اتخذ الله عزّ وجل إبراهيم خليلاً أتاه بشراه بالخلة، فجاءه ملك الموت في صورة شاب أبيض عليه ثوبان أبيضان يقطر رأسه ماءً ودهناً، فدخل إبراهيم عليه السلام الدار، فاستقبله خارجاً من الدار، وكان إبراهيم رجلاً غيوراً، وكان إذا خرج في حاجة أغلق بابه وأخذ مفتاحه معه، ثم رجع ففتح فإذا هو برجل أحسن ما يكون من الرجال. فأخذ بيده وقال: يا عبد الله من أدخلك داري؟ فقال: ربها أدخلنيها. فقال: ربها أحق بها مني، فمن أنت؟ قال: أنا ملك الموت، ففزع إبراهيم وقال: جئتني لتسلبني روحي؟ قال: لا، و لكن اتخذ الله عبداً خليلاً فجئت لبشارته، فقال: من هو؟

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٤، عن الكافي.

لعلي أخدمه حتى أموت! قال: أنت هو، فدخل على سارة فقال لها: إن الله تبارك وتعالى اتخذني خليلاً[١].

وفي هذا إشارة إلى إمكانية أن يكلف الملك بغير اختصاصه لأنّ ملك الموت هنا نزل بالبشرى لإبراهيم عليه السلام ولا يدلّ على أن هذا يحصل بصورة شاذة أم أنّه شيء متكرر وهذا يشير إذا كان صحيحاً إلى أن نظام الاختصاص ليس صارماً ولا يمكن البت بهذه القضيّة فالأحاديث الكثيرة تؤكد وجود النظام وهذا الحديث يشير إلى إمكانية عدم الالتزام التام به.

وعن الصادق عليه السلام قال: إذا أمر الله ميكائيل بالهبوط إلى الدنيا فيما يأمره به صارت رجله في السماء السابعة والأخرى في الأرض السابعة[٢].

وفي هذا الحديث وصف لضخامة ميكائيل وهو وارد في وصف الملائكة بدون تخصيص بنفس الكيفية، ولكنه هنا جاء في خصوص ميكائيل عليه السلام وقد مرّ ذكر ميكائيل في الأحاديث التي مرّت وأنه رابع الملائكة المقرّبين، وأنّه المسؤول عن أرزاق العباد وعن المطر كما مرّ ذكره وأن معنى اسمه عبيد الله وأنّه مسؤول عن: «كل قطرة تسقط، وكل ورقة تنبت، وكل ورقة تسقط»[٣] وأنّه من سبحة واحدة مع بقية الملائكة المقربين[٤]. وهو على النبات والقطر.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٧، عن الكافي.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٢.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٠.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ١٧٥

الحيَّة

عن الصادق(عليه السلام): قال: إن الله خلق حية قد أحدقت بالسماوات والأرض، وقد جمعت رأسها وذنبها تحت العرش، فإذا رأت معاصي العباد أسفت واستأذنت أن تبلع السماوات والأرض[1].

وهذا الحديث لم يأت مثله بصدد الملأ الأعلى وبالتالي سوف يكون من الصعب تأكيد وجود كائنات أخرى، وهذه الحيّة واحدة منها وربما هي من صنف المخلوقات السماوية وعلى غرار «الملك الديك» والبحار التي في السماء وربما هي اسم رمزي لمخلوقات تشبه الحيّات فإذا كانت واحدة فإن وحدتها ستشكل جانباً من الغموض.

لكن ذكر الحيّات والحيوانات ورد في وصف النار في أحاديث ومنها حديث المعراج وعلى ذلك لا يمكن لنا إلاّ الوقوف عند الحديث والاكتفاء بالدلالة المباشرة له.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٥٢.

عصمة الملائكة

لقد مرّ في البحوث السابقة أهمية عصمة الملائكة لاعتماد بقاء الكون وصلاحه عليها فضلاً عن كونه من أساسيات الاعتقاد بالملائكة، وقد مرّت أحاديث وآيات تؤكد هذا المضمون ولذلك أفرد له هذا البحث دفعاً لشبهة إمكان قيام الملائكة بما ينافي العصمة في مورد هو ارتكاب السحر في قصة الملكين هاروت وماروت ولهذا جاء هذا البحث وفيه:

المعنى اللّغوي

«العصمة في لغة العرب المنع، وعصمة الله عَبْدَه أن يعصمه مما يوبقه، عصمه يَعصُمه عصماً: منعه ووقاه. وفي التنزيل ﴿...*لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ مَنْ رحم*﴾[1] أي لا معصوم إلاّ المرحوم، وقيل: هو النسب أي ذا عصمة، وذو العِصْمِة يكون مفعولاً كما يكون فاعلاً، والاسمُ العصمة، قال الفراء: مَنْ في موضع نصب لأن المعصوم خلاف العاصم والمرحوم معصوم. فكان نصبه بمنزلة قوله تعالى: ﴿*ما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظن*﴾. واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية. والعاصم: المانع الحامي. والاعتصام: التمسّك بالشيء، افتعال منه[2] «قال الزجاج: أصل العصمة الحبل، وكل ما أمسك شيئاً فقد عَصَمه»[3].

---

(١) سورة هود: ٤٣.

(٢) لسان العرب: ١٣ / ٤٠٤، باب (عصم).

(٣) المصدر نفسه: ١٣ / ٤٠٥، باب (عصم).

المعنى الخاص

وتعني عدم ارتكاب المعصية، فالإنسان المعصوم هو الذي يعصمه الله عن ارتكاب المعاصي. ولعل هذا يعدّ نوعاً خاصاً من العصمة الاختيارية ذلك أنّ البشر يملكون دوافع المعصية لوجود الشهوات فضلاً عن أنّهم يعيشون في عالم معزول عن عالم الغيب وعليهم لكي يُعصموا أن ينفلتوا من غواية الشيطان فيكون الإنسان أكثر تعرّضاً للمعصية من الملائكة.

وأمّا الملائكة فإنّها على تماس مستمر مع عالم الغيب. وهي على إطلاع على كثير من حقائق الوجود التي يجهلها الإنسان والشيء الأهم أنّها خالية من دوافع المعصية. أي أنّها مطيعة بالفطرة، فهي لا تأكل، ولا تنكح، ولا تنسى، ولا تفتر، وكل ذلك من مقومات العصمة الفطرية. وهكذا نستطيع أن نصنف العصمة إلى عصمة فطرية وأخرى اكتسابية أو اختيارية.

وبالنسبة للملائكة قد مرّت أحاديث كثيرة في بحث صفات الملائكة أكدت على عصمة الملائكة بجميع طبقاتها كما أن هناك آيات أفادت هذا المعنى وبالتالي فإنّ عصمتها أحد الثوابت. والآيات التي تدل على ذلك هي:

١ ـ الأعراف: ﴿ ***إنّ الذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون*** ﴾[1].

٢ ـ النحل: ﴿ ***ولله يسجد ما في السّموات وما في الأرض من دابّة والملائكة وهم لا يستكبرون ❖ يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون*** ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٦.

(٢) سورة النحل: ٤٩ ـ ٥٠.

٣ - مريم: ﴿ *وما نتنزّل إلاّ بأمر ربّك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربّك نسيّاً* ﴾[1].

٤ - الأنبياء: ﴿ *ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ❖ يسبّحون الليل والنهار لا يفترون* ﴾ وقال تعالى: ﴿ *وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ❖ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ❖ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ❖ ومن يقل منهم إنّي إله من دونه فذلك نجزيه جهنّم كذلك نجزي الظالمين* ﴾[2].

٥ - التحريم: ﴿ *...عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون* ﴾[3].

٦ - النساء: ﴿ *لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون....* ﴾[4].

﴿ *لن يستنكف* ﴾ أي لم يأنف، ولم يمتنع المسيح ﴿ *أن يكون* ﴾ أي من أن يكون ﴿ *عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون* ﴾ أي ولا هم يستكبرون من الإقرار بعبودية الله سبحانه. قال الطبرسي رحمه الله: استدل بهذه الآية من قال: إن الملائكة أفضل من الأنبياء قالوا: إن تأخير ذكر الملائكة في مثل هذا الخطاب يقتضي تفضيلهم، لأن العادة لم تجر بأن يقال: لن يستنكف الأمير أن يفعل كذا ولا الحارس، بل يقدم الأدون ويؤخر الأعظم، فيقال: لن يستنكف الوزير أن يفعل كذا ولا السلطان. وأجاب أصحابنا عن ذلك بأن قالوا: إنّما أخّر ذكر الملائكة لأنّ جميع الملائكة أفضل وأكثر ثواباً من المسيح وهذا لا يقتضي أن يكون كل واحد منهم أفضل منه وإنّما الخلاف في ذلك، وأيضاً فإنا وإن ذهبنا إلى أن

---

(١) سورة مريم: ٦٤.

(٢) سورة الأنبياء: ١٩ - ٢٠ و ٢٦ - ٢٩.

(٣) سورة التحريم: ٦.

(٤) سورة النساء: ١٧٢.

الأنبياء أفضل من الملائكة فإنّا نقول مع قولنا بالتفاوت أنه لا تفاوت كثيراً في الفضل بينهما ومع التقارب والتداني يحسن أن يقدّم ذكر الأفضل، ألا ترى أنه يحسن أن يقال: ما يستنكف الأمير فلان، ولا الأمير فلان إذا كانا متساويين في المنزلة أو متقاربين. وقال البيضاوي: لعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير لا باعتبار التكبير، كقوله: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس.

قول تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ** ﴾ أي مطلق الملائكة أو المقربين منهم ﴿ **وَلَهُ يَسْجُدُونَ** ﴾ أي يخضعون بالعبادة أو التذلل ﴿ **وَلَا يُشْرِكُونَ** ﴾ به غيره.

قول تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ قال البيضاوي: أي ينقاد انقياداً يعمّ الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً، والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً، ليصحّ إسناده إلى عامّة أهل السماوات والأرض. وقوله: ﴿ **مِن دَابَّةٍ** ﴾ بيان لهما، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانيّة، سواء كان في الأرض أو السماء، والملائكة عطف على المبيّن به وعطف جبرئيل على الملائكة للتعظيم، أو عطف المجرّدات على الجسمانيات، وبه احتجّ من قال: إنّ الملائكة أرواح مجرّدة، أو بيان لما في الأرض والملائكة تكرير لما في السماوات، وتعيين له إجلالاً وتعظيماً، والمراد بهما ملائكتهما من الحفظة وغيرهم، و﴿ **مَا** ﴾ لما استعمل للعقلاء كما استعمل لغيرهم كان استعماله حيث اجتمع القبيلان أولى من إطلاق «من» تغليباً للعقلاء ﴿ **وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ عن عبادته ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ....** ﴾[1] يخافون أن يرسل عذاباً من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر وقوله: ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ والجملة حال من الضمير في ﴿ **لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ أو بيان له وتقرير، لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته ﴿ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ من الطاعة والتدبير، وفيه دليل على أن الملائكة مكلّفون

---

(١) سورة النحل: ٤٩ ـ ٥٠.

مدارون بين الخوف والرجاء، وقال في قوله: ﴿ *وما نتنزّل إلاّ بأمر ربّك* ﴾ حكاية قول جبرائيل حين استبطأه رسول الله ﷺ لمّا سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه، فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعين، حتّى قال المشركون: ودعه ربّه وقلاه، ثمّ نزل تبيان ذلك، والتنزّل النزول على مهل، لأنّه مطاوع نزل، وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل والمعنى: وما ننزل وقتاً غبّ وقت إلاّ بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته ﴿ *له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك* ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايين لا تنتقل من مكان إلى مكان أو لا تنزل في زمان دون زمان إلاّ بأمره ومشيئته ﴿ *وما كان ربّك نسيّاً* ﴾ أي: تاركاً لك، أي ما كان عدم النزول إلاّ لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إيّاك كما زعمت الكفرة، وإنّما كان لحكمة رآها فيه ﴿ *ولا يستحسرون* ﴾ أي لا يعبئون منها ﴿ *لا يفترون* ﴾ حال من الواو في ﴿ *يسبّحون* ﴾.

قوله تعالى: ﴿ *وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً* ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله سبحانه، تنزيه له عن ذلك، ﴿ *بل عباد* ﴾ أي بل هم عباد من حيث هم مخلوقون، وليسوا بأولاد ﴿ *مكرمون* ﴾ مقرّبون. ﴿ *لا يسبقونه بالقول* ﴾ لا يقولون شيئاً حتّى يقوله كما هو ديدن العبيد المقرّبين ﴿ *وهم بأمره يعملون* ﴾ ولا يعملون قط ما لم يأمرهم به. ﴿ *يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم* ﴾ لا تخفى عليه خافية ممّا قدّموا وأخّروا أو هو كالعلّة لما قبله والتمهيد لما بعده، فإنّه لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم ﴿ *وهم من خشيته* ﴾ من عظمته ومهابته ﴿ *مشفقون* ﴾ مرتعدون، وأصل الخشية خوف مع تعظيم، ولذلك خصّ بها العلماء، والإشفاق خوف مع اعتناء فإن عدّي بمن، فمعنى الخوف فيه أظهر، وإن عدّي بعلى، فبالعكس.

قوله تعالى ﴿ومن يقل منهم﴾ أي: من الملائكة أو الخلائق ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي من ظلم بالإشراك وادّعاء الربوبيّة، وعلى تقدير إرجاع الضمير إلى الملائكة لا ينافي عصمتهم، فإنّ الفرض لا ينافي امتناع الوقوع، كقوله تعالى: ﴿... لئن أشركت ليحبطنّ عملك...﴾[1].

قوله ﴿عليها﴾ أي على النار ﴿ملائكة﴾ يلي أمرها وهم الزبانية ﴿غلاظ شداد﴾ غلاظ الأقوال، شداد الأفعال، أو غلاظ الخلق، شداد الخلق، أقوياء على الأفعال الشديدة ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ فيما مضى ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ فيما يستقبل أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها، ويؤدون ما يؤمرون به.

قال الطبرسي ﷺ: في هذا دلالة على أن الملائكة الموكلين بالنار، معصومون عن القبائح لا يخالفون الله في أوامره ونواهيه، وقال الجبائي: إنّما عني أنّهم لا يعصونه ويفعلون ما يأمرهم به في دار الدنيا، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، وإنّما هي دار جزاء (المؤمنين) وإنّما أمرهم الله تعالى بتعذيب أهل النار على وجه الثواب لهم بأن جعل سرورهم ولذاتهم في تعذيب أهل النار، كما جعل سرورهم ولذاتهم في الجنة.

وأقول: كون الآخرة دار جزاء الملائكة غير معلوم، وإنّما المعلوم أنها دار جزاء الأنس، فلا ينافي كون الملائكة مكلفين فيها، بل يمكن أن يكون جزاؤهم مقارناً لأفعالهم من حصول اللذات الحقيقية، ورفع الدرجات الصورية والمعنوية، بل أصل خدماتهم وجزاؤهم كما ورد أن طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس. وقال الشيخ المفيد ﷺ في كتاب المقالات: أقول: إن الملائكة

---

(١) سورة الزمر: ٦٥.

مكلفون وموعودون ومتوعدون، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **ومن يقل منهم إنّي إله من دونه فذلك نجزيه جهنّم كذلك نجزي الظالمين** ﴾[١] وأقول: إنّهم معصومون مما يوجب لهم العقاب بالنار، وعلى هذا القول جمهور الإمامية وسائر المعتزلة وأكثر المرجئة وجماعة من أصحاب الحديث، وقد أنكر قوم من الإمامية أن تكون الملائكة مكلفين، وزعموا أنهم إلى الأعمال مضطرون، وواقفهم على ذلك جماعة من أصحاب الحديث[٢].

وقال عزّ وجل: ﴿ **وله من في السموات والأرض ومن عنده** ﴾ يعني من الملائكة ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ❁ يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[٣].

وقال عزّ وجل في الملائكة أيضاً: ﴿ **بل عباد مكرمون ❁ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ❁ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** ﴾[٤] ثم قال (ع): لو كان كما يقولون كان الله قد جعل هؤلاء الملائكة خلفاء على الأرض، وكانوا كالأنبياء في الدنيا، أو كالأئمة فيكون من الأنبياء والأئمة (ع) قتل النفس والزنا. ثم قال (ع): أولست تعلم أنّ الله عزّ وجل لم يخل الدنيا قط من نبي أو إمام من البشر؟ أوليس الله عزّ وجل يقول: ﴿ **وما أرسلنا قبلك** - يعني إلى الخلق - **إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القُرى** ﴾[٥] فأخبر أنه لم يبعث الملائكة إلى الأرض ليكونوا أئمة وحكاماً، وإنّما أرسلوا إلى أنبياء الله. قال: قلنا له: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً؟ فقال: لا، بل كان من الجن

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣١٢ - ٣١٥.

(٣) سورة الأنبياء ١٩ - ٢٠.

(٤) سورة الأنبياء: ٢٦ - ٢٨.

(٥) سورة يوسف: ١٠٩.

أما تسمعان الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ *وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن* ﴾[1] فأخبر عزّ وجل أنه كان من الجن، وهو الذي قال الله عزّ وجل: ﴿ *والجان خلقناه من قبل من نار السموم* ﴾[2].[3]

قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام: حدّثني أبي عن جدي، عن الرضا، عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله عز وجل اختارنا معاشراً آل محمّد، واختار النبيين، واختار الملائكة المقربين، وما اختارهم إلاّ على علم منه بهم أنّهم لا يواقعون ما يخرجون به عن ولايته وينقلعون به عن عصمته، وينتمون به إلى المستحقين لعذابه ونقمته، قالا: فقلنا له: فقد روي لنا أن علياً عليه السلام لما نصّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله بالإمامة عرض الله عز وجل ولايته في السماوات على فئام من الناس وفئام من الملائكة، فأبوها فمسخهم الله ضفادع. فقال عليه السلام: معاذ الله! هؤلاء المكذبون لنا المفترون علينا، الملائكة هم رسل الله فهم كسائر أنبياء الله ورسله إلى الخلق، فيكون منهم الكفر بالله؟ قلنا: لا قال: فكذلك الملائكة، إن شأن الملائكة لعظيم، وإن خطبهم لجليل[4].

المعنى الموضوعي للعصمة

والعصمة بالنسبة للملائكة تكتسب معنى إضافياً انطلاقاً من كون الملائكة رسل ومدبّرة للكون ولو جاز لها العصيان فإنّ نظام الوجود سيختل وبما أنّها كثيرة فإننا سنرى تعدد الاضطرابات بالكون إذ أن كل فرد أو جماعة من الملائكة سيكون لها رغبة وإرادة تختلف عن غيرها.

---

(١) سورة الكهف: ٥٠.

(٢) سورة الحجر: ٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٢١.

(٤) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٢٢.

وعلى مستوى حياة الإنسان فإن الملائكة إن كانت تعصي فإنّها تغيّر الرسالات، وبالتالي فإن وجهة مسار المجتمعات الإنسانية ستتغير كلياً إذ كل رسالة ستتغير وفي النتيجة فإن المجتمع الذي يتبنّاها سيسير باتجاهات غير تلك التي أمر بها الله.

وهكذا فإنّ أهم معلمَين من معالم الوجود هما: الوجود الطبيعي، والوجود الإنساني اللذان يقعان تحت سلطة وإشراف الملائكة سيتبعان مساراً خاصاً وهو قطعاً غير سليم، لأنّ الملائكة مهما أوتيت من العلم فإنّها لا تستطيع أن تسيّر الكون مساراً كما لو سار تحت إشراف الله العالم بكل شيء.

والنتيجة التي لا محيص عنها ستكون اضطراب الوجود والطبيعة وهذا بدوره سيؤدي إلى اضطراب الحياة الإنسانية قطعاً كما أن تغير الرسالات السماوية سيخلق الاضطراب والفوضى.

وهكذا فإن المعنى الآخر للعصمة سيكون هو الانسجام في عالم الطبيعة وعالم الحياة وإنّها ضرورية لأجل ذلك، ولهذا فإنّها قسرية إذ لا مجال لمعصية يترتب عليها الكثير من الفساد والدمار في الوجود.

شبهة المعصية

وعلى هذا الأساس فإنّ احتمال نفي العصمة ليس إلاّ في مورد جزئي هو مورد الملكين، وفيما عداهما فلا جدال حول عصمة الملائكة وحتى في قصة الملكين فإنّهما لم يكونا بحال الملائكة بل كانا في حال بشر وهذا شكل من أشكال التحول ولا علاقة له بالأصل. مثل أي تحول بالطبيعة وقد تكون القصة بمعنى آخر خال من المعصية على رأي بعض المفسرين فينتفي حينئذٍ توهّم عصيان الملائكة.

ومن هنا فإن البحث برمّته معقود لنفي مورد الملكين ببابل وهو في الحقيقة تفسير من سورة البقرة هي: ﴿ **واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق...** ﴾[1].

فهذا المورد هو الوحيد الذي يناقض ظاهره العدد الكبير من الأدلّة التي مرت، وقد حاول المؤلف نفيه بواسطة ما أفاده العلماء من تأويل الآيات وهو معتمد كلياً على نفي تعاطي الملائكة للسحر لعدم وجود مورد آخر ممّا يعد ذنباً يمكن أن ينقض عصمة الملائكة.

وعلى هذا الأساس فإنّ بحث السحر سيشكل العنصر الأول في تأكيد ونفي العصمة، ولهذا فإن الإطّلاع على معناه سيكون ضرورة للتوصل إلى إثبات العصمة.

فكما أورد المصنف أن السحر معناه في اللغة: (ما لطف وخفي سببه) وفي الشرع: (مختص بكل أمر مخفي سببه يتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع)[2].

وهكذا يمكن أن نفهم أن معنى السحر مركب من جزئين، الأول: هو امتلاك قدرة خاصة. والثاني: الإفادة منها للخداع.

القدرة الخاصة: يمكن أن نعلم القدرات الخاصة تنشأ عند الحصول على معلومات حول أشياء والإفادة منها في عملية الخداع منها:

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٧.

١ ـ قوى الطبيعة.

٢ ـ الأرواح:

أ ـ الجن.

ب ـ أرواح البشر ويلحق بها الكواكب بناءً على ما يذهب إليه البعض في أنّها حيّة عاقلة ومدبرة.

أما الخداع: فهو على أنواع قد يكون لتحقيق مكاسب ماديّة أو لخلق أوهام وعقائد باطلة كما هو قائم بالنسبة للاعتقاد بأن الكواكب هي مدبّرة لهذا العالم.

ومن هنا فإن حرمة السحر قد تكون في نوعية الإفادة من العلم والقوى التي يحصل عليها الساحر، وبالتالي فإنّ صدق كون هاروت وماروت من الملائكة فإنّهم سيكونان قد علّما الناس ما يجنّبهم الخداع عبر إطلاعهم على الحقائق وأن البعض من الناس صاروا ينتفعون منها بصورة ضارة من قبيل تعلّم ما يفرّق بين المرء وزوجه.

أمّا بالنسبة لاحتمال كون هاروت وماروت من البشر فإنّهما سيكونان هما اللذان أفادا ممّا أنزل عليهما بتلك الطريقة الضارة. وفي كل الأحوال فإنّ السحر المحرّم سيكون خارجاً عن ممارسة الملائكة.

والأساس في نفي شبهة المعصية يقوم على تأويل الآيات.

إثبات العصمة بتأويل الآيات

قوله تعالى: ﴿ *واتّبعوا ما تتلوا الشياطين* ﴾ أقول: هذه الآية مما يوهم نفي عصمة الملائكة، ولعل في تأويلها مسالك نشير إلى بعضها وإن أفضى إلى الإطناب.

قال السيد المرتضى ﷺ: في كتاب الغرر والدرر: إن سأل سائل عن قوله عزّ وعلا: ﴿ ***واتّبعوا ما تتلوا الشياطين ـ إلى قوله تعالى ـ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون*** ﴾ فقال: كيف ينزل الله سبحانه السحر على الملائكة؟ أم كيف تعلّم الملائكة الناس السحر والتفريق بين المرء وزوجه؟ وكيف نسب الضرر الواقع عند ذلك إلى أنه بإذنه وهو تعالى قد نهى عنه وحذر من فعله؟ وكيف أثبت العلم لهم ونفاه عنهم بقوله: ﴿ ***ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق*** ﴾ ثم بقوله: ﴿ ***لو كانوا يعلمون*** ﴾؟.

فهنا جملة نقاط اضطلع البحث بالإجابة عنها:

١ ـ إنزال السحر على الملائكة.

٢ ـ تعليم الملائكة الناس السحر (ما يفرّق بين المرء وزوجه).

٣ ـ الضرر الواقع بإذن الله.

٤ ـ علمهم بعقوبة الآخرة.

وتقوم الإجابة على ركائز خاصة هي:

١ ـ نفي أصل إنزال السحر على الملائكة ونسبته إلى الشياطين بواسطة تأويل «ما».

الجواب: قلنا في الآية وجوه كل منها يزيل الشبهة الداخلة على من لم يمعن النظر فيها:

أولها: أن يكون ((ما)) في قوله تعالى: ﴿ *وما أنزل على الملكين* ﴾ بمعنى الذي، فكأنه تعالى أخبر عن طائفة من أهل الكتاب بأنهم اتبعوا ما تكذب فيه الشياطين على ملك سليمان وتضيفه إليه من السحر، فبرأه الله عزّ وجل من قرفهم وكذبهم في قولهم: ﴿ *وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا* ﴾ باستعمال السحر والتمويه على الناس، ثم قال: ﴿ *يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين...* ﴾ وأراد أنهم يعلمونهم السحر وما الذي أنزل على الملكين وإنّما أنزل على الملكين، وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال فيه ليعرفا ذلك ويعرفاه الناس فيجتنبوه ويحذروا منه، كما أنّه تعالى قد أعلمنا ضروب المعاصي ووصف لنا أحوال القبائح لنتجنبها لا لنواقعها، إلاّ أن الشياطين كانوا إذا علموا ذلك وعرفوه استعملوه وأقدموا على فعله، وإن كان غيرهم من المؤمنين لما عرفه اجتنبه وحارزه وانتفع بإطلاعه على كيفيته. ثم قال: ﴿ *وما يعلّمان من أحد* ﴾ يعني الملكين، ومعنى ((يعلمّان)) يعلمان، والعرب تستعمل لفظة ((علمه)) بمعنى أعلمه، قال القطامي:

تعلم أن بعد الغي رشداً ... وأن لتانك الغمر انقشاعاً

وقال كعب بن زهير:

تعلم رسول الله إنك مدركي ... وإن وعيداً منك كالأخذ باليد

ومعنى ((تعلم)) في البيتين معنى ((أعلم)) والذي يدل على أنّه ههنا الإعلام لا التعليم قوله: ﴿ *وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر* ﴾ أي إنهما لا يعرفان صفات السحر وكيفيته إلا بعد أن يقول إنّما نحن محنة، لأن الفتنة بمعنى المحنة، من حيث ألقيا إلى المكلّفين أمراً لينزجروا عنه وليمتنعوا عن مواقعته، وهم إذا عرفوه أمكن أن يستعملوه ويرتكبوه، فقالا لمن يطلعانه على

ذلك: لا تكفر باستعماله، ولا تعدل عن الغرض في إلقاء هـذا إليك، فإنّه إنّما ألقى إليك وأطلعت عليه لتجتنبه لا لتفعله. ثم قال: ﴿ *فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه* ﴾ أي فيعرفون من جهتهما ما يستعملونه في هذا الباب وإن كان الملكان ما ألقياه إليهم لذلك، ولهذا قال: ﴿ *ويتعلّمون ما يضرهم ولا ينفعهم* ﴾ لأنّهم لما قصدوا بتعلمه أن يفعلوه ويرتكبوه لا أن يتجنّبوه صار ذلك بسوء اختيارهم ضرراً عليهم[1].

فأصل البناء على أن الشياطين هم الذين كفروا فعلموا الناس السحر كما علموا الناس ما أنزل على الملكين ببابل غير أن الذي أنزل على الملكين هو (وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال فيه ليعرفا ذلك ويعرّفاه) ليبتعد الناس عن الاستفادة من السحر كنتيجة للتعليم والإطلاع. فالمجموع المحرم والذي كان مدار البحث هو ما أنزل على الملكين من وصف للسحر وماهيته وكيفية الاحتيال فيه، وكانت الشياطين تعرفه أصلاً فهذا هو المحرم والمشاع وعلى هذا فإن ما أنزل على الملكين مع الاختلاف في الملكين أيضاً هل هما من الملائكة أم من الملوك.

وثانيهما: أن يكون ﴿ *ما أنزل* ﴾ موضعه موضع جر، ويكون معطوفاً بالواو على ﴿ *ملك سليمان* ﴾ أي واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين. ومعنى ﴿ *ما أنزل على الملكين* ﴾[2] أي معهما وعلى ألسنتهما كما قال تعالى: ﴿ *ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك* ﴾ ألسنتهم ومعهم، وليس بمنكر أن يكون ﴿ *ما أنزل* ﴾ معطوفاً على ملك سليمان وإن اعترض بينهما من الكلام ما اعترض، لأن رد الشيء إلى نظيره وعطفه على ما هو أولى هو الواجب

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٦ - ٢٦٨.

(٢) سورة البقرة: ١٠٢.

وإن اعترض بينهما ما ليس منهما ولهذا نظائر في القرآن وكلام العرب كثيرة: قال الله تعالى: ﴿ ***الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيّماً...*** ﴾(١). و((قيّم)) من صفات الكتاب حال منه، لا من صفة ((عوج)) وإن تباعد ما بينهما، ومثله ﴿ ***يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام*** ﴾(٢) فالمسجد الحرام ههنا معطوف على الشهر الحرام أي يسألونك عن الشهر وعن المسجد الحرام، وحكي عن بعض علماء أهل اللغة أنه قال: العرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمي بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يرد كلّ إلى خبره كقوله عزّ وجل: ﴿ ***ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله*** ﴾(٣) وهذا واضح في مذهب العرب كثير النظائر.

ثم قال تعالى: ﴿ ***وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنّما نحن فتنة*** ﴾ والمعنى أنّهما لا يعلمان أحداً بل ينهيان عنه، ويبلغ من نهيهما عنه وصدهما عن فعله واستعماله أن يقولا إنّما نحن فتنة ((فلا تكفر)) باستعمال السحر والإقدام على فعله، وهذا كما يقول الرجل:

ما أمرت فلاناً بكذا ولقد بالغت في نهيه حتى قلت له: إنك إن فعلته أصابك كذا وكذا. وهذا هو نهاية البلاغة في الكلام، والاختصار الدال مع اللفظ القليل على المعاني الكثيرة، لأنّه أشعر بقوله تعالى: ﴿ ***وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنّما نحن فتنة*** ﴾ عن بسط الكلام الذي ذكرناه ولهذا نظائر في القرآن قال الله تعالى: ﴿ ***ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق*** ﴾(٤)

---

(١) سورة الكهف: ١ ـ ٢.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣) سورة القصص: ٧٣.

(٤) سورة المؤمنون: ٩١.

ومثل قوله تعالى: ﴿ *يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون* ﴾[١] أي فيقال للذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم وأمثاله أكثر من أن نورد. ثم قال تعالى: ﴿ *فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه* ﴾ وليس يجوز أن يرجع الضمير على هذا الجواب إلى الملكين وكيف يرجع إليهما وقد نفى تعالى عنهما التعليم؟ بل يرجع إلى الكفر والسحر، وقد تقدم ذكر السحر وتقدم أيضاً ذكر ما يدل على الكفر ويقتضيه في قوله تعالى: ﴿ *ولكنّ الشياطين كفروا* ﴾ فدلّ «كفروا» على الكفر والعطف عليه مع السحر جائز، وإن كان التصريح وقع بذكر السحر دونه ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ *سيذّكّر من يخشى ❖ ويتجنّبها الأشقى ❖ الذي يصلى النار الكبرى* ﴾[٢] أي يتجنب الذكرى الأشقى، لم يتقدم تصريح بالذكرى لكن دل عليها قوله: ﴿ *سيذّكّر* ﴾ ويجوز أيضاً أن يكون معنى ﴿ *فيتعلّمون منهما* ﴾ أي بدلاً مما علمهم الملكان، ويكون المعنى أنّهم يعدلون عما علمهم ووقفهم عليه الملكان من النهي عن السحر إلى تعلمه واستعماله، كما يقول القائل: ليت لنا من كذا وكذا (كذا) أي بدلاً منه، كما قال الشاعر:

جمعت من الخيرات وطباً وعلبة ... وصرّاً لأخلاف المزمّمة البزل
ومن كل أخلاق الكرام نميمة ... وسعياً على الجار المجاور بالبخل

يريد: جمعت مكان الخيرات ومكان أخلاق الكرام هذه الخصال الذميمة، وقوله تعالى: ﴿ *ما يفرّقون به بين المرء وزوجه* ﴾ فيه وجهان: أحدهما أن يكونوا يغوون أحد الزوجين ويحملونه على الشرك بالله تعالى، فيكون بذلك

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٦.

(٢) سورة الأعلى: ١٠ ـ ١٢.

قد فارق زوجه الآخر المؤمن المقيم على دينه، ليفرق بينهما اختلاف النحلة والملة، والوجه الآخر أن يسعوا بين الزوجين بالنميمة والوشاية والإغراء والتمويه بالباطل حتى يؤول أمرهما إلى الفرقة والمباينة[1].

وثالث الوجوه في الآية أن تحمل «ما» في قوله تعالى: ﴿ ***وما أنزل على الملكين*** ﴾ على الجحد والنفي، فكأنه تعالى قال: ﴿ ***واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان*** [وما أنزل الله السحر على الملكين] ***ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت*** ﴾ ويكون قوله تعالى: ﴿ ***ببابل هاروت وماروت*** ﴾ من المؤخر الذي معناه التقديم فيكون على هذا التأويل هاروت وماروت رجلين من جملة الناس هذان اسماهما، وإنّما ذكرا بعد ذكر الناس تمييزاً وتبييناً، ويكون الملكان المذكوران اللذان نفى تعالى عنهما السحر جبرئيل وميكائيل، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تدعى أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبرئيل وميكائيل إلى سليمان، فأكذبهم الله تعالى بذلك، ويجوز أن يكون هاروت وماروت يرجعان إلى الشياطين. كأنّه تعالى قال: ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا، ويسوغ ذلك كما ساغ في قوله: ﴿ ***وكنّا لحكمهم شاهدين*** ﴾ يعني تعالى: حكم داود وسليمان، ويكون قوله تعالى على هذا التأويل: ﴿ ***وما يعلّمان من احد حتى يقولا إنّما نحن فتنة*** ﴾ راجعاً إلى هاروت وماروت اللذين هما من الشياطين أو من الإنس المتعلمين للسحر من الشياطين والعاملين به، ومعنى قولهما: ﴿ ***إنّما نحن فتنة فلا تكفر*** ﴾ يكون على طريق الاستهزاء أو التماجن والتخالع كما يقول الماجن من الناس إذا فعل قبيحاً أو قال باطلاً: هذا فعل من لا يفلح، وقول من لا ينجوا والله لا حصلت إلاّ على الخسران. وليس ذلك منه على سبيل النصيحة للناس وتحذيرهم من

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٦٨ - ٢٧٠.

مثل فعل فعله، بل على جهة المجون والتهالك، ويجوز أيضاً على هذا التأويل الذي تضمن الجحد والنفي أن يكون هاروت وماروت اسمين للملكين، ونفى عنهما إنزال السحر بقوله تعالى: ﴿*وما انزل على الملكين*﴾ ويكون قوله تعالى: ﴿*وما يعلمان من احد*﴾ يرجع إلى قبيلتين من الجن أو إلى شياطين الجن والإنس فتحسن التثنية لهذا. وقد روي هذا التأويل في حمل «ما» على النفي عن ابن عباس وغيره من المفسرين، وحكي عنه أيضاً أنّه كان يقرأ «على الملكين» بكسر اللام، ويقول: متى كان العلجان ملكين إنّما كانا ملكين وعلى هذه القراءة لا ينكر أن يرجع قوله تعالى: ﴿*وما يعلمان من احد*﴾ إليهما، ويمكن على هذه القراءة في الآية وجه آخر وهو أن لا يحمل قوله تعالى: ﴿*وما انزل على الملكين*﴾ على الجحد والنفي، وهو أن لا يكون هؤلاء الذين أخبر عنهم اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتدعيه على ملك سليمان واتّبعوا ما أنزل على هذين الملكين من السحر، ولا يكون الإنزال مضافاً إلى الله تعالى، وإن أطلق لأنّه عزّ وجل لا ينزل السحر بل يكون منزله إليهما بعض الضلاّل والعصاة، وأن يكون معنى «أنزل» وإن كان من الأرض حمل إليهما لا من السماء أنّه أتى به عن نجود الأرض والبلاد وأعاليها، فإن من هبط من نجد من البلاد إلى غورها يقال: نزل وهبط وما جرى هذا المجرى[1].

فأمّا قوله تعالى: ﴿*وما هم بضارّين به من احد الّا بإذن الله*﴾ فيحتمل وجوهاً:

منها: أن يريد تعالى بالإذن العلم من قولهم: «أذنت فلاناً بكذا وكذا» إذاً أعلمته و«أذنت بكذا وكذا» إذا أسمعته وعلمته، وقال الشاعر:

في سماع يأذن الشيخ له وحديث مثل ما ذي مشار

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٠ - ٢٧٢.

ومنها: أن يكون «إلا» زائدة، ويكون المعنى: وما هم بضارين به من أحد إلاّ بأن يخلى الله تعالى بينهم وبينه، ولو شاء لمنعهم بالقهر والقسر زائداً على منعهم بالنهي والزجر.

ومنها: أن يكون الضرر الذي عني به أنه لا يكون إلاّ بإذنه وأضافه إليه ما (هو) يلحق المسحور عن الأدوية والأغذية التي أطعمه إياها السحرة ويدّعون أنها موجبة لما يقصدونه فيه من الأمور، ومعلوم أنّ الضرر الحاصل عن ذلك من فعل الله تعالى بالعادة، لأنّ الأغذية لا توجب ضرراً ولا نفعاً، وإن كان المعرّض للضرر من حيث كان كالفاعل له هو المستحق للذم، وعليه يجب العوض.

ومنها: أن يكون الضرر المذكور إنّما هو ما يحصل من التفريق بين الأزواج لأنّه أقرب إليه في ترتيب الكلام، والمعنى أنّهم إذا أغرّوا أحد الزوجين فكفر فبانت منه زوجته فاستضر بذلك كانوا ضارين له بما حسّنوا له من الكفر، إلاّ أن الفرقة لم تكن إلاّ بإذن الله وحكمه، لأنّه تعالى هو الذي حكم وأمر بالتفريق بين المختلفين الأديان، فلهذا قوله تعالى: ﴿ ***وما هم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله*** ﴾ والمعنى أنّه لولا حكم الله تعالى وإذنه في الفرقة بين هذين الزوجين باختلاف الملة لم يكونوا بضارين له هذا الضرر من الضرر الحاصل عند الفرقة ويقوي هذا الوجه ما روي أنّه كان من دين سليمان أنّه من سحر بانت منه امرأته»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿ ***ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق...*** ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿ ***لوكانوا يعلمون*** ﴾ ففيه وجوه:

أوّلها: أن يكون الذين علموا غير الذين لم يعلموا ويكون الذين علموا الشياطين أو الذين خبر عنهم بأنّهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون. واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٢.

والذين لم يعلموا هم الذين عملوا السحر وشروا به أنفسهم،

وثانيها: أن يكون الذين علموا هم الذين لم يعملوا، لأنهم عملوا شيئاً ولم يعلموا غيره، فكأنه تعالى وصفهم بأنّهم عالمون بأنه لا نصيب لمن اشترى ذلك ورضيه لنفسه على الجملة، ولم يعلموا كنه ما يصير إليه من العقاب الذي لا نفاد له ولا انقطاع، وثالثها: أن تكون الفائدة في نفي العلم بعد إثباته أنّهم لم يعملوا بما علموه فكأنّهم لم يعلموا، وهذا كما يقول أحدنا لغيره: ما أدعوك إليه خير لك وأعود عليك لو كنت تعقل وتنظر في العواقب، وهو يعقل وينظر إلا أنّه لم يعمل بموجب علمه، فحسن أن يقال له مثال هذا القول، وقال كعب بن زهير «يصف ذئباً وغراباً» تبعاه ليصيبا من زاده:

إذا حضراني قلت لو يعلمانه ألم تعلما أني من الزاد مرمل

فنفى عنهما العلم ثم أثبته بقوله: «ألم تعلما أني من الزاد مرمل» وإنّما المعنى في نفيه العلم عنهما أنهما لم يعملا بما علما، فكأنهما لم يعلما، ورابعها: أن يكون المعنى أن هؤلاء القوم الذين قد علموا أن الآخرة لاحظ لهم فيها مع عملهم القبيح إلاّ أنهم ارتكبوه طمعاً في طعام الدنيا وزخارفها، فقال تعالى: ﴿ *ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون* ﴾ أي الذي آثروه وجعلوه عوضاً عن الآخرة لا يتم لهم ولا يبقى عليهم وأنّه منقطع زائل، ومضمحل باطل، وأن المآل إلى المستحق في الآخرة، وكل ذلك واضح بحمد الله.

قال في الصحاح: والغمرة، الشدة والجمع غمر قال القطامي يصف سفينة نوح: وحان لتالك الغمر انحسار. وقال: الانحسار، الانكشاف. وقال: قشعت الريح السحاب أي كشفته فانقشع وتقشع. وقال: الوطب سقاء اللبن خاصة. وقال: العلبة محلب من جلد. وقال: صررت الناقة شددت عليها الصرار وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية لئلا يرضعها ولدها، وقال: الخلف ـ بالكسر ـ

حلمة ضرع الناقة، والمزممة من الزمام. والبزل: جمع البازل، وهو جمل أو ناقة كمل. لها تسع سنين. والماذي: العسل الأبيض. ويقال: شرت العسل أي اجتنتها، وأشرت لغة، ذكره الجوهري واستشهد بالبيت.

وقال الرازي في تفسير هذه الآية: أمّا قوله: ﴿ **واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان**﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى قوله: ﴿ **واتّبعوا**﴾ حكاية عما تقدم ذكره وهم اليهود، ثم فيه أقوال: أحدها: إنّهم اليهود الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وآله وثانيها: إنّهم الذين تقدموا من اليهود، وثالثها: إنّهم الذين كانوا في زمن سليمان من السحرة لأنّ أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان ويعدونه من جملة الملوك في الدنيا، فالذين منهم كانوا في زمانه لا يمتنع أن يعتقدوا فيه أنّه إنّما وجد ذلك الملك العظيم بسبب السحر، ورابعها: إنّه يتناول الكل، وهذا أولى، لأنّه ليس صرف اللفظ إلى بعض أولى من صرفه إلى غيره، إذ لا دليل على التخصيص. وخامسها: إنّه عائد إلى من تقدم ذكره في قوله: ﴿ **نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب**﴾ قال السدي: لما جاءهم محمّد صلى الله عليه وآله عارضوا بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فهذا هو قوله: ﴿ **ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم**﴾[1] ثم أخبر عنهم بأنّهم اتبعوا كتب السحرة.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير ﴿ **تتلوا**﴾ وجهين: أحدهما: إن المراد منه التلاوة والإخبار، وثانيهما قال أبو مسلم: ﴿ **تتلوا**﴾ أي تكذب على ملك سليمان يقال: تلا عليه إذا كذب، وتلا عنه إذا صدق، وإذا أُبهم جاز الأمران، والأقرب هو الأول، لأن التلاوة حقيقة في الخبر، إلاّ أن المخبر لا يقال في خبره

---

(١) سورة البقرة: ١٠١.

إذا كان كذباً أنّه يقول على فلان وأنّه قد تلا على فلان، ليميز بينه وبين الصدق، الذي لا يقال على فلان بل يقال روي عن فلان وأخبر عن فلان، (وتلا عن فلان) وذلك لا يليق إلاّ بالإخبار والتلاوة، ولا يمتنع أن يكون الذي كانوا يخبرون به عن سليمان ما يتلى ويقرأ فيجتمع فيه كل الأوصاف»[1].

المسألة الثالثة: اختلفوا في الشياطين، فقيل: المراد شياطين الجن، وهو قول الأكثرين وقيل: شياطين الإنس، وهو قول المتكلمين من المعتزلة، وقيل: شياطين الإنس والجن معاً أمّا الذين حملوه على شياطين الجن فقالوا: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرؤونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمان سليمان حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، فكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تم له ملكه إلاّ بهذا العلم، وبه سخر الجن والإنس والريح التي تجري بأمره وأمّا الذين حملوه على شياطين الإنس فقالوا: روي في الخبر أنّ سليمان كان قد دفن كثيراً من العلوم التي خصّه الله بها تحت سرير ملكه حرصاً على أنه إن هلك الظاهر منها بقي ذلك المدفون، فلما مضت مدة على ذلك توصل قوم من المنافقين إلى أن كتبوا في خلال ذلك أشياء من السحر تناسب تلك الأشياء من بعض الوجوه، ثم بعد موته وإطلاع الناس على تلك الكتب أوهموا الناس أنّه من عمل سليمان، وأنّه ما وصل إلى ما وصل إليه إلاّ بسبب هذه الأشياء، فهذا معنى ﴿*ما تتلوا الشياطين*﴾ واحتج القائلون بهذا الوجه على فساد القول الأول بأن شياطين الجن لو قدروا على تغيير كتب الأنبياء وشرائعهم بحيث يبقى ذلك التحريف مخفياً فيما بين الناس لارتفع الوثوق عن جميع الشرائع، وذلك يفضي إلى الطعن في كل الأديان، فإن قيل: إذا جوزتم ذلك على شياطين الإنس فلم لا يجوز مثله من شياطين

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٥.

الجن قلنا الفرق أن الذي يفتعله الإنسان لا بدّ وأن يظهر من بعض الوجوه، أمّا لو جوزنا هذا الافتعال من الجن وهو أن يزيد في كتب سليمان بخط مثل خط سليمان فإنّه لا يظهر ذلك ويبقى مخفياً فيفضي إلى الطعن في جميع الأديان.

المسألة الرابعة: أما قوله: ﴿*على ملك سليمان*﴾ فقيل: في ملك سليمان، عن ابن جريح، وقيل: على عهد ملك سليمان، والأقرب أن يكون المراد، واتّبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان، لأنّهم كانوا يقرؤون من كتب السحر، فيقولون: إن سليمان إنّما وجد ذلك الملك بسبب هذا العلم، فكانت تلاوتهم لتلك الكتب كالافتراء على ملك سليمان.

المسألة الخامسة: اختلفوا في المراد بملك سليمان، فقال القاضي: إن ملك سليمان هو النبوة، أو يدخل فيها النبوة وتحت النبوة الكتاب المنزل عليه والشريعة فإذا صح ذلك ثم أخرج القوم صحيفة فيها ضروب السحر وقد دفنوها تحت سرير ملكه ثم أخرجوها بعد موته وأوهموا أنّها من جهته صار ذلك منهم تقوّلاً على ملكه في الحقيقة، والأصح عندي أن يقال: القوم لما ادّعوا أن سليمان إنما وجد تلك المملكة بسبب ذلك العلم كان ذلك الادّعاء كالافتراء على ملك سليمان[1].

المسألة السادسة: السبب في أنّهم أضافوا السحر إلى سليمان وجوه: أحدها أنّهم أضافوا السحر إلى سليمان تعظيماً لشأنه، وتعظيماً لأمره، وترغيباً للقوم في قبول ذلك منهم. وثانيها أن اليهود ما كانوا يقرون بنبوة سليمان، بل كانوا يقولون إنّما وجد ذلك الملك بسبب السحر، وثالثها: أن الله تعالى لما سخر الجن لسليمان فكان يخالطهم ويستفيد منهم أسراراً عجيبة. فغلب على

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٥.

الظنون أنه﷤ استفاد السحر منهم. أمّا قوله تعالى: ﴿ وما كفر سليمان ﴾ فهذا تنزيه له﷤ عن الكفر وذلك يدل على أن القوم نسبوه إلى الكفر والسحر. وقيل فيه أشياء أحدها ما روي عن بعض أحبار اليهود أنّهم قالوا: ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبياً. وما كان إلا ساحراً؟ فأنزل الله هذه الآية، وثانيها: أن السحرة من اليهود، زعموا أنه أخذوا السحر عن سليمان، فنزّهه الله منه. وثالثها: أن قوماً زعموا أن قوام ملكه كان بالسحر فبرأه الله منه، لأنّ كونه نبياً ينافي كونه ساحراً كافراً ثم بين تعالى أن الذي برأه منه لاحق بغيره، فقال: ولكن الشياطين كفروا، يشير به إلى ما تقدم ذكره ممن اتخذ السحر كالحرفة لنفسه وينسبه إلى سليمان ثم بين تعالى ما به كفروا، فقد كان يجوز أن يتوهم أنهم كفروا لا بالسحر فقال تعالى: ﴿ يعلّمون الناس السحر ﴾[1].

وجاء في التفسير أيضاً:

أما قوله تعالى: ﴿ لكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ﴾ فظاهر الآية يقتضي أنّهم إنّما كفروا لأجل أنّهم كانوا يعلّمون (الناس) السحر لأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعليّة، وتعليم مالا يكون كفراً لا يوجب الكفر فصارت الآية دالّة على أن تعليم السحر كفر، وعلى أن السحر أيضاً كفر، ولمن منع ذلك أن يقول:

لا نسلم أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعليّة، بل المعنى أنّهم كفروا وهم مع ذلك يعلمون السحر.

فإن قيل: هذا مشكل لأن الله أخبر في آخر الآية أن الملكين يعلمان السحر فلو كان تعليم السحر كفراً لزم تكفير الملكين، وأنّه غير جائز لما ثبت أن

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٦.

الملائكة بأسرهم معصومون، وأيضاً فلأنكم دللتم على أنّه ليس كلما يسمّى سحراً فهو كفر.

قلنا: اللفظ المشترك لا يكون عاماً في جميع مسمياته، فنحن نحمل هذا السحر الذي هو كفر على النوع الأول من الأشياء المسماة بالسحر، وهو اعتقاد إلهية الكواكب والاستعانة بها في إظهار المعجزات وخوارق العادات، فهذا السحر كفر، والشياطين إنّما كفروا بإتيانهم بهذا السحر لا بسائر الأقسام، وأمّا الملكان فلا نسلم أنّهما إنّما علما هذا النوع من السحر، بل لعلهما يعلمان سائر الأنواع على ما قال تعالى: ﴿ *فيتعلّمون منهما ما يفرّقون بين به المرء وزوجه* ﴾ وأيضاً فبتقدير أن يقال: إنهما علما هذا النوع إنما يكون كفراً إذا قصد المعلّم أن يعتقد المتعلّم حقيقته وكونه صواباً فإمّا أن يعلّمه ليحترز عنه فهذا التعليم لا يكون كفراً وتعليم الملائكة كان لأجل أن يصير المكلف محترزاً عنه على ما قال تعالى حكاية عنهما: ﴿ *وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنّما نحن فتنة* ﴾ وأما الشياطين الذين علموا السحر (النّاس) فكان مقصودهم اعتقاد حقيّة هذه الأشياء فظهر الفرق[1].

المسألة الخامسة عشر: قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو بتشديد «لكن» و«الشياطين» بالنصب، على أنّه اسم لكن، والباقون «لكن» بالتخفيف و«الشياطين» بالرفع، والمعنى واحد.

أمّا قوله تعالى: ﴿ *وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت* ﴾ ففيه مسائل:

الأولى ما في قوله: ﴿ *وما أنزل* ﴾ فيه وجهان: الأول: أنّه بمعنى الذي، ثم هؤلاء اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال: أولها: إنّه عطف على السحر، أي يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أيضاً. وثانيها: أنّه عطف على قوله: ﴿ *ما تتلوا الشياطين* ﴾ أي واتّبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٠١.

سليمان وما أنزل على الملكين، لأن السحر منه ما هو كفر وهو الذي تتلوا الشياطين ومنه ما تأثيره بالتفريق بين المرء وزوجه وهو الذي أنزل على الملكين، فكأنه تعالى أخبر عن اليهود بأنّهم اتبعوا كلا الأمرين ولم يقتصروا على أحدهما، وثالثها: أنّ موضعه جر عطفاً على ﴿*ملك سليمان*﴾ وتقديره: ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين، وهو اختيار أبي مسلم. وأنكر في الملكين أن يكون السحر نازلاً عليهما، واحتج عليه بوجوه: الأول: إنّ السحر لو كان نازلاً عليهما لكان منزله هو الله تعالى وذلك غير جائز، لأنّ السحر كفر وعبث ولا يليق بالله تعالى إنزال ذلك، الثاني: إنّ قوله: ﴿*ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر*﴾ يدل على أن تعليم السحر كفر، ولو ثبت في الملائكة أنّهم يعلمون السحر لزمهم الكفر، وذلك باطل، الثالث: كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر فكذلك في الملائكة بالطريق الأولى. الرابع: إنّ السحر لا يضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة فكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب؟! وهل السحر إلاّ الباطل المموه؟ وقد جرت عادة الله تعالى بإبطاله، كما قال في قصّة موسى عليه السلام: ﴿*ما جئتم به السحر إنّ الله سيبطله*﴾[1].

ثم إنّه سلك في تفسير الآية مسلكاً آخر يخالف قول أكثر المخالفين، فقال: كما أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرءاً عنه، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر، مع أن المنزل عليهما كان مبرءاً عن السحر، وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير وأنهما كانا يعلمان الناس ذلك مع قولهما إنّما نحن فتنة توكيداً لبعثهم على القبول والتمثل، فكانت طائفة تتمثل وأخرى تخالف

---

(١) سورة يونس: ٨١.

وتعدل عن ذلك ﴿ *ويتعلّمون منهما* ﴾ أي من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وهذا تقدير مذهب أبي مسلم.

الوجه الثاني: أن يكون «ما» بمعنى الجحد، ويكون معطوفاً على قوله ﴿ *وما كفر سليمان* ﴾ كأنّه قال: لم يكفر سليمان ولم ينزل على الملكين سحر لأن السحرة كانت تضيف السحر إلى سليمان وتزعم أنّه مما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، فرد الله عليهم في القولين. وقوله: ﴿ *وما يعلّمان من أحد* ﴾ جحد أيضاً، أي لا يعلمان أحداً بل ينهيان عنه أشد النهي، وأمّا قوله: ﴿ *حتى يقولا إنّما نحن فتنة* ﴾ أي ابتلاء وامتحان ﴿ *فلا تكفر* ﴾ فهو كقولك ما أمرت فلاناً بكذا حتى قلت له: إن فعلت كذا، تلك كذا أي ما أمرته به، بل حذرته عنه.

واعلم أن هذه الأقوال وإن كانت حسنة إلاّ أن القول الأول أحسن منها وذلك لأن عطف قوله ﴿ *وما أنزل* ﴾ على ما يليه أولى من عطفه على ما بعد عنه إلاّ لدليل منفصل، أما قوله لو نزل السحر عليهما لكان منزل ذلك السحر هو الله تعالى، قلنا: تعريف صفة الشيء قد يكون لأجل الترغيب في إدخاله في الوجود، وقد يكون لأجل أن يقع الاحتزاز عنه، كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشرّ لكن لتوقّيه

قوله ثانياً: إن تعليم السحر كفر لقوله تعالى: ﴿ *ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر* ﴾ فالجواب أنا بيّنا أنه واقعة حال فيكفي في صدقها صورة واحدة، وهي ما إذا اشتغل بتعليم سحر من يقول بإلهية الكواكب ويكون قصده من ذلك التعليم إثبات أن ذلك المذهب حق، قوله ثالثاً: إنّه لا يجوز بعثة الأنبياء لتعليم السحر فكذا الملائكة. قلنا: لا نسلم أنّه لا يجوز بعثة الأنبياء لتعليمه بحيث يكون الغرض من ذلك التعليم التنبيه على إبطاله، قوله رابعاً: إنّما يضاف السحر إلى الكفرة أو المردة فكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه؟ قلنا:

فرق بين العمل وبين التعليم، فلم لا يجوز أن يكون العمل به منهياً عنه وأما تعليمه لغرض التنبيه على فساده فإنّه يكون مأموراً به.

المسألة الثانية: قرأ الحسن ﴿الملكين﴾ بكسر اللام، وهو مروي أيضاً عن الضحاك وابن عباس ثم اختلفوا، فقال الحسن: كانا عجلين أقلفين ببابل يعلمان الناس السحر، وقيل: كانا رجلين صالحين من الملوك، والقراءة المشهورة بفتح اللام، وهما كانا ملكين نزلا من السماء، وهاروت وماروت اسمان لهما. ثم قيل: هما جبرئيل وميكائيل عليهما السلام وقيل: غيرهما، أمّا الذين كسروا اللام فقد احتجوا بوجوه: أحدها: إنّه لا يليق بالملائكة تعليم السحر، وثانيها: كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله: ﴿***ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون***﴾[1] وثالثها: لو أنزل الملكين لكان إمّا أن يجعلهما في صورة رجلين أولاً يجعلهما كذلك فإن جعلهما في صورة رجلين مع أنّهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلاً وتلبيساً وهو غير جائز، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكون كل واحد من الناس الذين نشاهدهم لا يكون في الحقيقة إنساناً بل ملكاً من الملائكة! وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى: ﴿***ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً***﴾ والجواب عن الأول: إنّا سنبين وجه الحكمة وإنزال الملائكة لتعليم السحر، وعن الثاني: إنّ هذه الآية عامة، وقراءة الملكين بفتح اللام متواترة وخاصة والخاص يقدم على العام. وعن الثالث: أن الله تعالى ينزلهما في صورة رجلين وكان الواجب على المكلّفين في زمان الأنبياء أن لا يقطعوا على من صورته صورة الإنسان بكونه إنساناً، كما أن في زمان الرسول صلى الله عليه وآله كان الواجب على من شاهد دحية الكلبي أن لا يقطع بكونه من البشر، بل الواجب التوقف فيه.

---

(١) سورة الأنعام: ٨.

المسألة الثالثة: إذا قلنا بأنهما كانا من الملائكة فقد اختلفوا في سبب نزولهما، فروي عن ابن عباس: أن الملائكة لما قالت: ﴿*أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء*﴾ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿*إني أعلم ما لا تعلمون*﴾[1] ثم إن الله وكل عليهم جمعاً من الملائكة وهم الكرام الكاتبون فكانوا يعرجون بأعمالهم الخبيثة فعجبت الملائكة منهم، ومن تبقية الله إياهم مع ما يظهر منهم من القبائح ثم أضافوا إليها عمل السحر فازداد تعجب الملائكة، فأراد الله تعالى أن يبتلي الملائكة فقال لهم: اختاروا ملكين من أعظم الملائكة علماً وزهداً وديانة لإنزالهما إلى الأرض فاختبرهما فاختاروا هاروت وماروت وركّب فيهما شهوة الإنس وأنزلهما ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا والشرب، فنزلا فذهب إليهما امرأة من أحسن النساء وهي الزهرة فراوداها عن نفسها فأبت إلاّ بعد أن يعبدا الصنم وإلاّ بعد أن يشربا، فامتنعا أولاً: ثم غلبت الشهوة عليهما، فأطاعا في كل ذلك فعند إقدامهما على الشرب وعبادة الصنم دخل سائل عليهم فقالت: إن أظهر هذا السائل للناس ما رأى منا فسد أمرنا فإن أردتما الوصول إلي فاقتلا هذا الرجل فامتنعا منه، ثم اشتغلا بقتله، فلما فرغا من القتل طلبا المرأة فلم يجداها. ثم إن الملكين عند ذلك ندما وتحسرا وتضرعا إلى الله تعالى فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، وهما معذبان ببابل، معلقان بين السماء والأرض يعلمان الناس السحر.

ثم لهم في الزهرة قولان: أحدهما: إن الله تعالى لما ابتلى الملكين بشهوة بني البشر أمر الله الكوكب الذي يقال له: «الزهرة» وفلكها حتى هبط إلى الأرض إلى أن كان ما كان، فحينئذ ارتفعت الزهرة وفلكها إلى موضعها من السماء موبخين لهما على ما شاهداه منهما. والقول الثاني: أن المرأة كانت

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

فاجرة من أهل الأرض وواقعاها بعد شرب الخمر وقتل النفس وعبادة الصنم، ثم علماها الاسم الذي به كانا يعرجان إلى السماء، فتكلمت به فعرجت إلى السماء، وكان اسمها «بيدخت» فمسخها الله تعالى وجعلها هي الزهرة.

واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة، لأنّه ليس في كتاب الله ما يدل عليها، بل فيه ما يبطلها من وجوه: الأول ما تقدم من الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عن كل المعاصي، وثانيهما: إنّ قولهم إنها خيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاسد أن يخيّرا بين التوبة والعذاب، لأن الله تعالى خير بينهما من أشرك به طول عمره فكيف يبخل عليهما بذلك. وثالثها: أن من أعجب الأمور قولهم: إنّهما يعلمان الناس السحر في حال كونهما معذبين ويدعوان إليه وهما معاقبان[1].

ولما ظهر فساد هذا القول فنقول: السبب في إنزالهما وجوه: أحدها: إنّ السحرة كثرت في ذلك الزمان، واستنبطت أبواباً غريبة، وكانوا يدعون النبوة ويتحدّون الناس بها، فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذباً ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد.

وثانيها: أن العلم بكون المعجزة مخالفاً للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة والناس كانوا جاهلين بماهية السحر فلا جرم تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض. وثالثها: لا يمتنع أن يقال: السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله كان مباحاً عندهم أو مندوباً، فالله تعالى بعث الملكين لتعليم السحر لهذا الغرض. ثم إنّ القوم تعلموا ذلك منهما واستعملوه في الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله والألفة بين أعداء الله. ورابعها أن تحصيل

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٠١ ـ ٣٠٦.

العلم بكل شيء حسن ولما كان السحر منهياً عنه وجب أن يكون متصوراً معلوماً، لأن الذي لا يكون متصوّراً امتنع النهي عنه، وخامسها: لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر الشر على الاتيان بمثلها، فبعث الله الملائكة ليعلموا البشر أموراً يقدرون بها على معارضة الجن. وسادسها: يجوز أن يكون ذلك تشديداً في التكليف من حيث إذا علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ثم منعه من استعمالها كان ذلك في نهاية المشقّة، فيستوجب به الثواب الزائد، كما ابتلي قوم طالوت بالنهر على ما قال ﴿...*فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنّه منّي*...﴾[1] فثبت بهذه الوجوه أنّه لا يبعد من الله تعالى إنزال الملكين لتعليم السحر.

المسألة الرابعة: قال بعضهم: هذه الواقعة إنّما وقعت في زمان إدريس ﷺ لأنّهما إذا كانا ملكين نزلا بصورة البشر لهذا الغرض فلا بد من رسول في وقتها ليكون ذلك معجزة له، ولا يجوز كونهما رسولين، لأنّه ثبت أنّه تعالى لا يبعث الرسول من الملائكة إلى الإنس.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿*هاروت وماروت*﴾ عطف بيان لملكين، علمان لهما وهما اسمان أعجميّان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت وهو الكسر كما زعم بعضهم لانصرفا، وقرأ الزهري: ﴿*هاروت وماروت*﴾ بالرفع، على هما هاروت وماروت، وأمّا قوله تعالى: ﴿*وما يعلّمان من احد حتى يقولا إنّما نحن فتنة*﴾ فاعلم ـ أنّه تعالى شرح حالهما فقال: وهذان الملكان لا يعلمان السحر إلاّ بعد التحذير الشديد من العمل به، وهو قولهما ﴿*إنّما نحن فتنة*﴾ والمراد ههنا بالفتنة المحنة التي بها يتميز المطيع عن العاصي، كقولهم «فتنت الذهب بالنار» إذا عرض على النار ليتميز الخالص عن المشوب، وقد بينا الوجوه في أنّه كيف يحسن بعثه الملكين لتعليم السحر، فالمراد أنّهما لا يعلمان أحداً السحر ولا يصفانه لأحد

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٩.

ويكشفان له وجوه الاحتيال حتى يبذلا له النصيحة، فيقولا له ﴿ *إنّما نحن فتنة* ﴾ أي هذا الذي نصفه لك وإن كان الغرض فيه أن يتميز السحر من المعجز. ولكنه يمكنك أن تتوصل إلى المفاسد والمعاصي، فإيّاك بعد وقوفك عليه أنّ تستعمله فيما نهيت عنه، أو تتوصل به إلى شيء من الأغراض العاجلة.

أمّا قوله: ﴿ *فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه* ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير هذا التفريق وجهين: الأول: أن هذا الترفيق إنّما يكون بأن يعتقد أن ذلك السحر مؤثر في هذا التفريق فيصير كافراً وإذا صار كافراً بانت منه امرأته، فيحصل التفريق بينهما. الثاني: يفرق بينهما بالتمويه والتضليل والتضريب. وسائر الوجوه المذكورة.

المسألة الثانية: أنّه تعالى لم يذكر ذلك لأنّ الذي يتعلمون منهما ليس إلاّ هذا القدر لكن هذه الصورة تنبيهاً على سائر الصور، فإن استنامة المرء إلى زوجه وركونه إليها معروف زائد على كل مودة فنبه بذكر ذلك، على إن السحر إذا ما أمكن به هذا الأمر على شدته فغيره به أولى.

أما قوله: ﴿ *وما هم بضارّين به من أحد* ﴾ فإنّه يدل على ما ذكرناه لأنّه أطلق الضرر ولم يقصره على التفريق بين المرء وزوجه، فدل ذلك على أنّه تعالى إنّما ذكره لأنّه أعلى مراتبه.

أمّا قوله تعالى: ﴿ *بإذن الله* ﴾ فاعلم أن الإذن حقيقة في الأمر، والله لا يأمر بالسحر ولأنّه تعالى أراد عيبهم وذمهم، ولو كان قد أمرهم به لما جاز أن يذمهم عليه فلا بدّ من التأويل، وفيه وجوه:

أحدها قال الحسن: المراد منه التخلية، يعني الساحر إذا سحر إنساناً فإن شاء الله منعه منه وإن شاء خلى بينه وبين ضرر السحر. وثانيها: قال الأصم: المراد: إلاّ بعلم الله، وإنّما سمّي الأذان أذاناً لأنّه إعلام الناس وقت الصلاة وسمّي الإذن إذناً لأن بالحاسة القائمة بذلك يدرك الإذن، وكذلك قوله:

﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس ﴾[١] أي إعلام، وقوله: ﴿ فأذنوا بحرب من الله ﴾[٢] معناه فاعلموا، وقوله ﴿ فقل آذنتكم ﴾[٣] يعني أعلمتكم. وثالثها: أن الضرر الحاصل عند فعل السحر إنّما يحصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، وما كان ذلك فإنّه يصح أن يضاف إلى إذن الله تعالى كما قال: ﴿ إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٤] ورابعها: أن يكون المراد بالإذن الأمر، وهذا الوجه لا يليق إلاّ بأن يفسّر التفريق بين المرء وزوجه بأن يصير كافراً، والكفر يقتضي التفريق فإن هذا حكم شرعي وذلك لا يكون إلاّ بأمر الله.

أمّا قوله: ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إنّما ذكر لفظ الشراء على سبيل الاستعارة لوجوه: أحدها أنّهم لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وأقبلوا على التمسك بما تتلوا الشياطين فكأنّهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله. وثانيها: أن الملكين إنّما قصدا بتعليم السحر الاحتراز عنه ليصل بذلك الاحتراز إلى منافع الآخرة. فلما استعمل السحر فكأنه اشترى بمنافع الآخرة منافع الدنيا، وثالثها: أنّه لما استعمل السحر علمنا أنه إنّما تحمل المشقة ليتمكن من ذلك الاستعمال فكأنه اشترى بالمحن التي تحملها قدرته على ذلك الاستعمال.

المسألة الثانية: قال الأكثرون: الخلاق النصيب. قال القفال: يشبه أن يكون أصل الكلمة من الخلق معناه التقدير، ومنه خلق الأديم، ومنه يقال: قدر

---

(١) سورة التوبة: ٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٩.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٩.

(٤) سورة النحل: ٤٠.

الرجل كذا درهماً رزقاً على عمل كذا. وقال آخرون: الخلاق: الخلاص، قال أمية بن أبي صلت:

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم   إلا سرابيل قطران وأغلال

بقي في الآية سؤال وهو: أنه كيف أثبت العلم لهم أولاً في قوله: ﴿ *ولقد علموا* ﴾ ثم نفاه عنهم في قوله: ﴿ *لوكانوا يعلمون* ﴾؟ والجواب من وجوه: أحدها: أن الذين علموا غير الذين لم يعلموا فالذين علموا هم الذين علموا السحر ودعوا الناس إلى تعلمه، وهم الذين قال الله في حقهم: ﴿ *نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون* ﴾[1] وأمّا الجهال الذين يرغبون في تعلم السحر فهم الذين لا يعلمون، وهذا جواب الأخفش وقطرب. وثانيها: لو سلمنا أن القوم واحد ولكنهم علموا أشياء وجهلوا أشياء أخر، علموا أنّه ليس لهم في الآخرة خلاق، ولكنهم جهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة وما حصل لهم من مضارها وعقوباتها، وثالثها: لو سلمنا أن القوم واحد والمعلوم واحد ولكنهم لم ينتفعوا بعلمهم بل أعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم كما سمّى الله تعالى الكفار صماً وبكماً وعمياً إذ لم ينتفعوا بهذه الحواس، ويقال للرجل في شيء يفعله لكنه لا يضعه موضعه: صنعت ولم تصنع (انتهى).

وسأل شيخنا البهائي رحمه الله بعض أخلائه عن قول البيضاوي في تفسير هذه الآية حيث قال: «وما روي من أنهما مثلاً بشرين وركبت فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها: الزهرة فحملتهما على المعاصي والشرك، ثم صعدت السماء بما تعلمت منهما، فمحكي عن اليهود، ولعله من رموز الأوائل، وحلّه

---

(١) سورة البقرة: ١٠١.

لا يخفى على ذوي البصائر» بيّنوا حتى نصير من ذوي البصائر فأجاب الشيخ رحمه الله بعد أن أورد هذه القصة نحواً مما رواه الرازي في هذه القصة: هي ما رواه قدماء المفسرين من العامة عن ابن عباس ولم يرتض بهذه الرواية متأخروهم وأطنب الفخر الرازي وغيره في تزييفها، وقال: إنّها فاسدة مردودة غير مقبولة لوجوه ثلاثة ـ إلى آخر ما نقلناه من الوجوه في عرض كلامه ـ ثم قال: وفي كل من هذه الوجوه نظر أما الأول: فلأنّه لم يثبت بقاؤهما على العصمة بعد أن مثلهما الله سبحانه بصورة البشر وركب فيهما قوّتي الشهوة والغضب وجعلهما كسائر بني آدم كما يظهر من القصة. وأما الثاني: فلأن التخيير بين التوبة والعذاب وإن كان هو الأصلح بحالهما لكن فعل الأصلح مطلقاً غير واجب عليه سبحانه على مذهب هذا المفسر، بل فعل الأصلح الذي من هذا القبيل غير واجب عندنا أيضاً فإنا لا نوجب عليه سبحانه كل ما هو أصلح بحال العبد كما ظنه مخالفونا، وشنعوا علينا بما شنّعوا بل إنّها نوجب عليه سبحانه كل أصلح لو لم يفعله كان مناقضاً لغرضه ولعله سبحانه لم يلهمهما التوبة وأغفلهما عنها لمصلحة لا يعلمها إلاّ هو، فلا بخل منه سبحانه على هذا التقدير.

وأما الثالث: فلأن التعليم حال التعذيب غير ممتنع وظني أن تزييف الفخر الرازي لهذه الرواية هو الباعث على عدول البيضاوي عن حمل هذه القصة على ظاهرها وتنزيلها على محض الرمز والذي سمعته من والدي رحمه الله في حله أنّه إشارة إلى أن شخص العالم العامل الكامل المقرب من حظائر القدس قد يوكل إلى نفسه الغرارة ولا يلحقه التوفيق والعناية، فينبذ علمه وراء ظهره، ويقبل على مشتهيات نفسه الخبيثة الخسيسة، ويطوي كشحه عن اللذات الحقيقية، والمراتب العلية فينحط إلى أسفل السافلين، والشخص

الناقص الجاهل المنغمس في الأوزار قد يختلط بذلك الشخص العالم قاصداً بذلك الفساد والفحشاء، فيدركه بذلك التوفيق الإلهي فيستفيد من ذلك العلم ما يضرب بسببه صفحاً عن أدناس دار الغرور، وأرجاس عالم الزور، ويرتفع ببركة ما يعلمه عن حضيض الجهل والخسران إلى أوج العزة والعرفان، فيصير به المتعلم في أرفع درج العلاء، والمعلم في أسفل درك الشقاء. ورأيت في بعض التفاسير أنّ المراد بالملكين المذكورين الروح والقلب فإنّهما من العالم الروحاني أهبطا إلى العالم الجسماني لإقامة الحق، فافتتنا بزهرة الحياة الدنيا، ووقعا في شبكة الشهوة، فشربا خمر الغفلة، وزنيا ببغي الدنيا، وعبدا صنم الهوى، وقتلا نفسهما بحرمانهما من النعيم الباقي، فاستحقا أليم النكال وفظيع العذاب. هذا وهذه القصة كما رواها علماء العامة عن ابن عباس فقد رواها ـ علماؤنا رضوان الله عليهم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام وذكرها الشيخ الجليل أبو علي الطبرسي في مجمع البيان لكن بين ما رواه العامة وما رواه أصحابنا اختلاف يسير فإن الرواية التي رواها أصحابنا ليس فيها، أنّهما يعلمان الناس السحر في وقت تعذيبهما، بل هي صريحة في أن التعليم كان قبل التعذيب، وكذلك ليس فيها أن تلك المرأة تعلمت منهما الاسم الأعظم وصعدت ببركته إلى السماء. والحاصل أن هذه القصة مروية من طرقنا ومن طرق العامة معاً، وليس من جملة الحكايات الغير المسندة، كما يظهر من كلام الفاضل الدواني في شرح العقائد العضدية حيث قال: إن هذه القصة ليست في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ما يدل على صدقها، ثم إنّه استدل على أنّه من جملة الأكاذيب بأن تمكن تلك المرأة من الصعود إلى السماء بما تعلمته من الملكين أعني الاسم الأعظم وعدم تمكنهما من ذلك مع علمهما به غير معقول. ولا يخفى أنّ دليله هذا إنّما يتم لو ثبت

أنّه ـ جل اسمه ـ لم ينسهما الاسم الأعظم بعد اقترافهما تلك الكبائر العظيمة، واستحقاقهما الطرد والخذلان ودون ثبوته خرط القتاد (انتهى كلامه رحمه الله)[1].

ومن خلال مجمل ما مرّ تتأكد حقائق هي:

١ ـ أن القرآن يبرئ سليمان عليه السلام من السحر بنفي الكفر عنه وأن الشياطين هم الذين علموا الناس السحر.

٢ ـ أن الملكين علما الناس الكثير مما يتعلق بالسحر لغرض أن يتجنبه الناس كما أنّهم ينبهونه مع التعلّم بمعنى (اعلمه) بأن هذا الإطلاع والعلم فتنة وأن ممارسة السحر هو كفر.

٣ ـ أن الضرر ينتج عن ممارسة السحر أو بالعادة لخصائص موجودة في المادة وهي قد أذن الله بها بدءاً أو التفريق بين الزوج وزوجه.

٤ ـ أن هاروت وماروت قد يكونا رجلين من سائر الناس وليسا من الملائكة أو هما من الشياطين من الجن.

٥ ـ أما بالنسبة للعلم فإنّ العلم بالشيء وعدم مراعاته فكأنّه عدم العلم.

والنتيجة النهائية للبحث تبرئة الملائكة إن كان هاروت وماروت من الملائكة بالإضافة إلى الإشارة إلى أن السحر حقيقة موجبة للكفر وأنّه مضر، وغير نافع.

ومما مرّ نرى أن العلماء يعمدون إلى إثبات العصمة من خلال تأويل الآيات الكريمة، لأن المعنى الظاهر يتصادم مع أحد الثوابت الإعتقادية وهو تعاطي الملائكة للسحر المحرم في الشريعة.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٠٦ ـ ٣١٢.

الروايات في عصمة الملائكة

سأل الزنديق أبا عبد الله ﷺ قال: فما تقول في الملكين هاروت وماروت وما يقول الناس بأنهما يعلمان السحر؟ قال: إنّهما موضع ابتلاء وموقف فتنة تسبيحهما اليوم لو فعل الإنسان كذا وكذا لكان كذا، ولو يعالج بكذا وكذا لصار كذا أصناف السحر، فيتعلمون منهما ما يخرج منهما، فيقولان لهم: إنّما نحن فتنة فلا تأخذوا عنّا ما يضركم ولا ينفعكم[1].

وعن أبي ولاد، قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: جعلت فداك إن رجلاً من أصحابنا ورعاً مسلماً كثير الصلاة قد ابتلي بحبّ اللهو وهو يسمع الغناء، فقال: أيمنعه ذلك من الصلاة لوقتها أو من الصوم أو من عيادة المريض أو حضور جنازة أو زيارة أخ؟ قال: قلت: لا ليس يمنعه ذلك من شيء من الخير والبر، قال: فقال: هذا من خطوات الشيطان مغفور له ذلك إن شاء الله. ثم قال: إنّ طائفة من الملائكة عابوا ولد آدم في اللّذات والشهوات أعني ذلكم الحلال ليس الحرام، قال: فأنف الله للمؤمنين من ولد آدم من تعيير الملائكة لهم، قال: فألقى الله في همة أولئك الملائكة اللذات والشهوات كيلا يعيبون المؤمنين، قال فلما أحسوا ذلك من هممهم عجوا إلى الله من ذلك، فقالوا: ربنا عفوك، عفوك، ردّنا إلى ما خلقتنا له، واخترتنا عليه فإنّا نخاف أن نصير في أمر مريج، قال: فنزع الله ذلك من هممهم، قال: فإذا كان يوم القيامة وصار أهل الجنة في الجنة استأذن أولئك الملائكة على أهل الجنة فيؤذن لهم، فيدخلون عليهم فيسلمون عليهم ويقولون لهم: سلام عليكم بما صبرتم في الدنيا عن اللذات والشهوات الحلال.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٢٦.

بيان: أنف من الشيء ـ كعلم ـ: استنكف، ومرج الدين والأمر: خلط واضطرب[١].

وعن علي بن محمّد بن الجهم، قال: سمعت المأمون يسأل الرضا علي بن موسى عليه السلام عما يرويه الناس من أمر الزهرة، وأنّها كانت امرأة فتن بها هاروت وماروت وما يروونه من أمر سهيل وأنّه كان عشاراً باليمن؟ فقال: كذبوا في قولهم، إنّهما كوكبان، وإنما كانتا دابتين من دواب البحر فغلط الناس وظنّوا أنهما كوكبان وما كان الله ليمسخ أعداءه أنواراً مضيئة ثم يبقيها ما بقيت السماء والأرض، وإن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام حتى ماتت، وما تناسل منها شيء، وما على وجه الأرض اليوم مسخ، وإن التي وقع عليها اسم المسوخية مثل القردة والخنزير والدب وأشباهها إنّما هي مثل ما مسخ الله على صورها قوماً غضب عليهم ولعنهم بإنكارهم توحيد الله وتكذيبهم رسله، وأما هاروت وماروت فكانا ملكين علما الناس السحر ليتحرزوا به من سحر السحرة، ويبطلوا به كيدهم، وما علما أحداً من ذلك إلاّ قالا له: إنّما نحن فتنة فلا تكفر، فكفر قوم باستعمالهم لما أمروا بالإحتراز منه، وجعلوا يفرقون بما يعرفونه بين المرء وزوجه، قال الله: ﴿ ***وما هم بضارّين به من أحد إلّا بإذن الله*** ﴾ يعني بعلمه[٢].

وعن المظفر بن أحمد القزويني، قال: سمعت أبا الحسين محمد بن جعفر الأسدي الكوفي، يقول في سهيل والزهرة: إنّهما دابتان من دواب البحر المطيف بالدنيا في موضع لا تبلغه سفينة ولا تعمل فيه حيلة، وهما المسخان المذكوران في أصناف المسوخ، ويغلط من يزعم أنهما الكوكبان ولو كانا ملكين لعصما فلم يعصيا وإنما سمّاهما الله عزّ وجل في كتابه ملكين بمعنى أنهما خلقا

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٢٣، عن العيون.

ليكونا ملكين، كما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[١] بمعنى ستكون ميتاً ويكونون موتى[٢].

بيان: المطيف بالدنيا على بناء الأفعال أي المحيط، يقال: فلان يرشح للوزارة أي يربي ويؤهل لها، ثم أن هذا كلام إن كان قاله الأسدي من قبل نفسه فيرد عليه أن الملائكة ليست أمراً تحصل لذات بعد أن لم تكن، بل الظاهر أنها من الحقائق التي لا تنفك كالإنسانية والحيوانية إلا أن يكون مراده أنهما لم يكونا من الملائكة بل كانا مما يصلحان ظاهراً أن يخلطا بالملائكة كالشيطان.

عن أبي الحسن عليه السلام أنّه عدّ المسوخ، وساق الحديث إلى أن قال: ومسخت الزهرة لأنّها كانت امرأة فتن بها هاروت وماروت[٣].

وعن الصادق عليه السلام وأما الزهرة فإنّها كانت إمرأة تسمّى «ناهيد» وهي التي تقول الناس أنه افتتن بها هاروت وماروت[٤].

وعن الرضا عليه السلام: وأما الزهرة فكانت امرأة فتنا بها هاروت وماروت، فمسخها الله عز وجل (الزهرة)[٥].

وعن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: وأما الزهرة فكانت امرأة نصرانية، وكانت لبعض ملوك بني إسرائيل وهي التي فتن بها هاروت وماروت، وكان اسمها (ناهيل) والناس يقولون: «ناهيد»[٦].

---

(١) سورة الزمر: ٣٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٣١٥، عن العلل.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦/ ٣٢٣، عن العلل.

(٤) المصدر نفسه: ٥٦/ ٣٢٤، عن العلل.

(٥) المصدر نفسه: ٥٦/ ٣٢٤، عن العلل.

(٦) المصدر نفسه: ٥٦/ ٣٢٤، عن العلل.

وعن أبي الطفيل، قال: كنت في مسجد الكوفة فسمعت عليّاً وهو على المنبر وناداه ابن الكوّا وهو في مؤخرّ المسجد، فقال: يا أمير المؤمنين ما الهدى؟ قال: لعنك الله ولم يسمعه ما الهدى تريد ولكن العمى تريد، ثمّ قال له: ادن، فدنا منه، فسأله عن أشياء فأخبره، فقال: أخبرني عن هذه الكوكبة الحمراء - يعني الزهرة - قال: إن الله اطّلع ملائكته على خلقه، وهم على معصية من معاصيه، فقال الملكان هاروت وماروت: هؤلاء الذين خلقت أباهم بيدك، وأسجدت له ملائكتك يعصونك. قال: فلعلّكم إذا ابتليتم بمثل الذي ابتلواهم به عصيتموني كما عصوني قالا: لا وعزّتّك. قال: فابتلاهما بمثل الذّي ابتلى به بني آدم من الشهوة، ثمّ أمرهما أن لا يشركا به شيئاً، ولا يقتلا النفس التي حرّم الله، ولا يزنيا، ولا يشربا الخمر، ثم اهبطهما إلى الأرض، فكانا يقضيان بين الناس هذا في ناحية وهذا في ناحية، فكانا بذلك حتّى أتت أحدهما هذه الكوكبة تخاصم إليه وكانت من أجمل الناس، فأعجبته، فقال لها: الحقّ لك ولا أقضي لك حتّى تمكنيني من نفسك، فواعدت يوماً. ثم أتت الآخر فلمّا خاصمت إليه وقعت في نفسه وأعجبته كما أعجبت الآخر، فقال لها مثل مقالة صاحبه. فواعدته الساعة التي واعدت صاحبه فاتّفقا جميعاً عندها في تلك الساعة، فاستحيى كلّ واحد من صاحبه حيث رآه وطأطأ رؤوسهما ونكسا. ثمّ نزع الحياء منهما، فقال أحدهما لصاحبه: يا هذا! جاء بي الذي جاء بك، قال: ثمّ راوداها عن نفسها، فأبت عليهما حتّى يسجدا لوثنها ويشربا من شرابها، وأبيا عليها وسألاها فأبت إلاّ أن يشربا من شرابها فلمّا شربا صلّيا لوثنها، ودخل مسكين فرآهما، فقالت لهما: يخرج هذا فيخبر عنكما، فقاما إليه فقتلاه، ثمّ راوداها عن نفسها فأبت حتّى يخبراها بما يصعدان به إلى السماء، فأبيا وأبت أن تفعل، فأخبراها، فقالت ذلك لتجرّب مقالتهما وصعدت فرفعا أبصارهما إليها فرأيا أهل السماء مشرفين

عليهما ينظرون إليهما، وتناهت إلى السماء فمسخت، فهي الكوكبة التي ترى[1].

وعن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سأله عطا ـ ونحن بمكّة ـ عن هاروت وماروت، فقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ الملائكة كانوا ينزلون من السماء إلى الأرض في كلّ يوم وليلة، يحفظون أعمال أوساط أهل الأرض من ولد آدم والجنّ، فيكتبون أعمالهم ويعرجون بها إلى السماء، قال: فضجّ أهل السماء من معاصي أهل أوساط الأرض، فتوامزوا فيما بينهم ممّا يسمعون ويرون من افترائهم الكذب على الله تبارك وتعالى وجرأتهم عليه ونزّهوا الله ممّا يقول فيه خلقه ويصفون فقالت طائفة من الملائكة: يا ربّنا ما تغضب ممّا يعمل خلقك في أرضك وما يصفون فيك الكذب ويقولون الزور ويرتكبون المعاصي وقد نهيتهم عنها، ثمّ أنت تحلم عنهم وهم في قبضتك وقدرتك وخلال عافيتك، قال أبو جعفر عليه السلام: فأحبّ الله أن يرى الملائكة القدرة ونافذ أمره في جميع خلقه. ويعرف الملائكة ما منّ به عليهم ممّا عدله من صنع خلقه، وما طبعهم عليه من الطاعة، وعصمهم به من الذنوب، قال: فأوحى الله إلى الملائكة أن انتدبوا منكم ملكين حتّى أهبطهما إلى الأرض ثمّ أجعل فيهما من طبائع المطعم والمشرب والشهوة والحرص والأمل مثل ما جعلته في ولد آدم، ثم اختبرهما في الطاعة لي. قال: فندبوا لذلك هاروت وماروت، وكانا أشد الملائكة قولاً في العيب لولد آدم واستئثار غضب الله عليهم. قال: فأوحى الله إليهما أن اهبطا إلى الأرض. فقد جعلت فيكما من طبائع المطعم والمشرب والشهوة والحرص والأمل مثل ما جعلت في ولد آدم. قال: ثم أوحى الله إليهما انظرا أن لا تشركا بي شيئاً، ولا تقتلا النفس التي حرّم الله، ولا تزنيا ولا تشربا الخمر.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٢٥.

قال: ثم كشط عن السماوات السبع ليريهما قدرته، ثم أهبطهما إلى الأرض في صورة البشر ولباسهم، فهبطا ناحية بابل، فرفع لهما بناء مشرف فأقبلوا نحوه، فإذا بحضرته امرأة جميلة حسناء مزينة معطرة مسفرة، مقبلة نحوهما، قال: فلما نظرا إليها وناطقاها وتأملاها وقعت في قلوبهما موقعاً شديداً لموضع الشهوة التي جعلت فيهما، فرجعا إليها رجوع فتنة وخذلان وراوداها عن نفسها. فقالت لهما: إن لي ديناً أدين به، ليس أقدر في ديني على أن أجيبكما إلى ما تريدان إلاّ أن تدخلا في ديني الذي أدين به، فقالا لها: وما دينك؟ قالت: لي إله من عبده وسجد له كان لي السبيل إلى أن أجيبه إلى كل ما سألني، فقالا لها: وما إلهك؟ قالت: إلهي هذا الصنم، قال: فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال: هاتان خصلتان ممّا نهينا عنهما: الشرك، والزنا، لأنّا إن سجدنا لهذا الصنم وعبدناه أشركنا بالله، وإنّما نشرك بالله لنصل إلى الزنا، وهوذا نحن نطلب الزنا فليس تعطى إلاّ بالشرك. قال: فائتمرا بينهما، فغلبتهما الشهوة التي جعلت فيهما فقالا لها: نجيبك إلى ما سألت، فقالت: فدونكما، فاشربا هذه الخمر فإنّه قربان لكما، وبه تصلان إلى ما تريدان، فائتمرا بينهما فقالا: هذه ثلاث خصال ممّا نهانا ربّنا عنها: الشرك، والزنا، وشرب الخمر، وإنّما ندخل في شرب الخمر والشرك حتى نصل إلى الزنا، فائتمرا بينهما، فقالا: ما أعظم البليّة بك! قد أجبناك إلى ما سألت، قالت: فدونكما فاشربا من هذه الخمر، واعبدا هذا الصنم واسجدا له فشربا الخمر، وعبدا الصنم، ثمّ راوداها عن نفسها، فلمّا تهيّأت لهما وتهيّئا لها دخل عليهما سائل يسأل، فلمّا أن رآهما ورأياه ذعرا منه فقال لهما: إنّكما نابان ذعران، قد خلوتما بهذه المرأة المعطرة الحسناء، إنّكما لرجلا سوء، وخرج عنهما، فقالت لهما: لا وإلهي ما تصلان الآن إليّ وقد اطّلع هذا الرجل على حالكما وعرف

مكانكما، ويخرج الآن ويخبر بخبركما، ولكن بادرا إلى هذا الرجل فاقتلاه قبل أن يفضحكما ويفضحني ثمّ دونكما، فاقضيا حاجتكما وأنتما مطمئنّان آمنان. قال: فقاما إلى الرجل فأدركاه فقتلاه ثم رجعا إليها فلم يرياها وبدت لهما سوآتهما ونزع عنهما رياشهما وأسقطا في أيديهما، قال: فأوحى الله إليهما أن أهبطتكما إلى الأرض مع خلقي ساعة من النهار فعصيتماني بأربع من معاصي كلها قد نهيتكما عنها وتقدّمت إليكما فيها فلم تراقباني ولم تستحيا منّي وقد كنتما أشدّ من نقم على أهل الأرض المعاصي واستجرّ أسفي وغضبي عليهم لما جعلت فيكما من طبع خلقي وعصمتي إيّاكما من المعاصي، فكيف رأيتما موضع خذلاني فيكما؟ اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقال أحدهما لصاحبه: نتمتّع من شهواتنا في الدنيا اذ صرنا إليها إلى أن نصير إلى عذاب الآخرة. فقال الآخر: إنّ عذاب الدنيا له مدّة وانقطاع، وعذاب الآخرة دائم لا انقطاع له فلسنا نختار عذاب الآخرة الدائم الشديد على عذاب الدنيا المنقطع الفاني، قال: فاختارا عذاب الدنيا، فكانا يعلّمان الناس السحر في أرض بابل، ثمّ لمّا علّما الناس السحر رفعا من الأرض إلى الهواء، فهما معذّبان منكّسان معلّقان في الهواء إلى يوم القيامة.

بيان: «أن انتدبوا» في بعض النسخ «أن أندبوا» وهو أصوب، إذ الظاهر من كلام أكثر اللغويّين أنّ الانتداب لازم، قال الجوهريّ: ندبه إلى الأمر فانتدب أي دعاه فأجاب، ونحوه قال الفيروز آباديّ: لكن قال في المصباح المنير: انتدبته في الأمر فانتدب يستعمل لازماً ومتعدّياً. وقال: كشطت البعير كشطاً من باب ضرب مثل: سلخت الشاة إذا نحيّت جلده، وكشطت الشيء كشطاً: نحيّته وقال الفيروز آباديّ: الكشط: رفعك الشيء عن الشيء قد غشاه، وإذا السماء كشطت: قلعت كما يقلع السقف، وكشط الجلّ عن

الفرس: كشفه، وفي النهاية: فيه يراود عمّه على الإسلام أي يراجعه ويراوده. وفي القاموس: سقط في يده وأسقط ـ مضمومتين ـ ذلّ وأخطأ، أو ندم وتحيّر. وقال: نكسه: قلبه على رأسه كنكّسه (انتهى). وأقول: يمكن حمل الخبر على التقيّة بقرينة كون السائل من علماء العامّة[1].

بالإسناد إلى أبي محمد العسكري، عن آبائه، عن الصادق جعفر بن محمد ﷺ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ *واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان* ﴾ قال: اتّبعوا ما تتلوا كفرة الشياطين من السحر والنيرنجات على ملك سليمان الذين يزعمون أن سليمان به ملك، ونحن أيضاً به نظهر العجائب حتى ينقاد لنا الناس (ونستغن عن الانقياد لعلي) وقالوا: كان سليمان كافراً ساحراً ماهراً بسحره ملّك ما ملك وقدّر على ما قدر، فردّ الله عزّ وجلّ عليهم فقال وما كفر سليمان ولا استعمل البحر (كما قال هؤلاء الكافرون، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) الذي نسبوه إلى سليمان وإلى ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. وكان بعد نوح ﷺ قد كثر السحرة والموهون وفبعث الله عز وجلّ ملكين إلى نبيّ ذلك الزمان بذكر ما يسحر به السحرة وذكر ما يبطل به سحرهم ويردّ به كيدهم. فتلقّاه النبيّ عن الملكين وأدّاه إلى عباد الله بأمر الله عزّ وجل، وأمرهم أن يقفوا به على السحر وأن يبطلوه، ونهاهم أن يسحروا به الناس، وهذا كما يدلّ على السمّ ما هو وعلى ما يدفع به غائلة السمّ (ثم يقال للمتعلّم ذلك هذا السمّ فمن رأيته يسمّ فادفع غائلته بكذا وإيّاك أن تقتل بالسمّ أحداً) ثمّ قال عزّ وجلّ: ﴿ *وما يعلمان من أحد حتّى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر* ﴾، ويعني أنّ ذلك النبيّ أمر الملكين أن يظهرا للناس بصورة بشرين ويعلّماهما ما علّمهما الله من ذلك فقال الله عزّ وجل: ﴿ *وما*

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٣١٦ ـ ٣١٩.

يعلّمان من أحد ﴾ ذلك السحر وإبطاله حتّى يقولا للمتعلّم ﴿ ***إنّما نحن فتنة*** ﴾ امتحان للعباد ليطيعوا الله فيما يتعلمون من هذا، ويبطلوا به كيد الساحر، ولا يسحروا هم، فلا تكفر باستعمال هذا السحر وطلب الإضرار به ودعاء الناس إلى أن يعتقدوا أنّك به تحيي وتميت وتفعل ما لا يقدر عليه إلاّ الله عزّ وجلّ فإنّ ذلك كفر، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ***فيتعلّمون*** ﴾ يعني طالبي السحر ﴿ ***منهما*** ﴾ يعني ممّا كتبت الشياطين ﴿ ***على ملك سليمان*** ﴾ من النيرنجات ﴿ ***وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت*** ﴾ يتعلّمون من هذين الصنفين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه هذا من يتعلّم للإضرار بالناس، يتعلّمون التضريب بضروب الحيل والتمائم والإيهام أنّه قد دفن في موضع كذا وعمل كذا ليحبّب المرأة إلى الرجل والرجل إلى المرأة أو يؤدّي إلى الفراق بينهما. ثمّ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ***وما هم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله*** ﴾ أي ما المتعلّمون لذلك بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله، يعني بتخلية الله وعلمه فإنّه لو شاء لمنعهم بالجبر والقهر. ثمّ قال: ﴿ ***ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم*** ﴾ لأنّهم إذا تعلّموا ذلك السحر ليسحروا به ويضرّوا فقد تعلّموا ما يضرّهم في دينهم ولا ينفعهم فيه، بل ينسلخون عن دين الله بذلك ولقد علم هؤلاء المتعلّمون ﴿ ***لمن اشتراه*** ﴾ بدينه الذي ينسلخ عنه بتعلّمه ﴿ ***ماله في الآخرة من خلاق*** ﴾ أي من نصيب في ثواب الجنة، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ ***ولبئس ما شروا به أنفسهم*** ﴾ ورهنوها بالعذاب ﴿ ***لو كانوا يعلمون*** ﴾ أنّهم قد باعوا الآخرة وتركوا نصيبهم من الجنّة، لأن المتعلّمين لهذا السحر هم الذين يعتقدون أن لا رسول ولا إله، ولا بعث، ولا نشور. فقال: ﴿ ***ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق*** ﴾ لأنّهم يعتقدون أن لا آخرة. فهم يعتقدون أنّها إذا لم تكن آخره فلا خلاق لهم في دار بعد الدنيا، وإن كان بعد الدنيا آخرة فهم مع كفرهم بها لا خلاق لهم فيها. ثمّ قال: ﴿ ***ولبئس ما شروا***

به انفسهم﴾ إذ باعوا الآخرة بالدنيا ورهنوا بالعذاب الدائم أنفسهم ﴿*لو كانوا يعلمون﴾* أنّهم قد باعوا أنفسهم بالعذاب. ولكن لا يعلمون ذلك لكفرهم به، فلمّا تركوا النظر في حجج الله حتّى يعلموا عذابهم على اعتقادهم الباطل وجحدهم الحق. قال يوسف بن محمّد بن زياد وعليّ بن محمّد بن سيار، عن أبويهما أنهما قالا: فقلنا للحسن أبي القائم عليه السلام: فإنّ قوماً عندنا يزعمون أنّ هاروت وماروت ملكان اختارتهما الملائكة لّما كثر عصيان بني آدم. وأنزلهما الله مع ثالث لهما إلى الدنيا. وأنّهما افتتنا بالزهرة، وأرادا الزنا بها وشربا الخمر، وقتلا النفس المحترمة. وإنّ الله مسخ تلك المرأة هذا الكوكب الذي هو الزهرة. فقال الإمام عليه السلام: معاذ الله من ذلك، إن ملائكة الله معصومون محفوظون من الكفر والقبائح بألطاف الله، قال الله عزّ وجلّ فيهم ﴿*لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون*﴾[1][2].

وبالنسبة للروايات التي مرّت فإننّا نرى أنّها بصورة عامة تنقسم إلى اتّجاهات: أولّها: تلك التي تعيد قصة الملكين هاروت وماروت اللذين تحولا إلى بشر، وتتفاوت في بعض تفاصيل القصة كما تتفاوت في الاختصار والإطالة، كما هناك الروايات النافية لهذه القصة كلياً أو جزئياً، وبالنسبة للقسم الأوّل قد تقدم نفي العلماء لهذه القصة حيث عدّوها من الإسرائيليات المنسوبة إلى الأئمة عليهم السلام ويقوّي هذا الأمر ورود نفي لها عن طريق الأئمة عليهم السلام بالإضافة إلى أن بعضها منسوب إلى مقربين من الأئمة أو بعض يسمع من الأئمة.

أمّا بالنسبة لطائفة النفي فإنّها نفت قضية تصورها بعض الناس ألاّ وهي قضيّة المسخ، فالمسخ لا يكون إلاّ لمدة ثلاثة أيام ثمّ إنّه لا يعد مسخاً جعل

---

(١) سورة التحريم: ٦.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣١٩ / ٣٢١.

الكافر باقياً في السماء في وضع كوضع الكواكب إلى ما شاء الله، وأن الله يمسخ أعداءه كما ذكر في الكتاب قردة وخنازير أو ما شاكل.

وفي إحدى الروايات إشارة إلى أن بعض الملائكة كانت تعيب على البشر فألقى الله فيهم الشهوة فاستغفروا بعد أن علموا ما عليه البشر من مجاهدة الشهوات. وليس فيها هبوط إلى الأرض أو ما شابه ذلك، وهذه الرواية يمكن أن تكون أساساً للرواية المحرّفة بعد أن أضاف لها الناقل جهلاً أو عمداً بعض الإسرائيليات الباطلة.

كما أن هناك رواية أخرى تؤيد تأويل المفسرين الذين ذهبوا إلى أن إنزال السحر على الملكين إنّما جاء لأجل الاحتراز بالكيفية التي مرّت في هذه الرواية.

وهكذا تكون النتيجة النهائية أن الكواكب ليست من الملائكة الممسوخة خصوصاً إذا وضعنا في حسابنا الروايات الواردة عن الأئمةعليهم السلام وهي الأكثر والتي مرّ أغلبها فشكّلت أساس قراءتنا العلمية مما جاء عن زين العابدينعليه السلام في دعاء عرفه: «اللهم إنّ ملائكتك مشفقون من خشيتك، سامعون مطيعون لك، وهم بأمرك يعملون، لا يفترون الليل والنهار يسبحون»[1].

وهذه الصورة هي التي تتوافق مع الآيات وتدعمها بقية الروايات الأمر الذي يخلق تصوراً عاماً لا يمكن لهذه التفاصيل الخارجة عن ذلك التصوّر أن تغير معالمه بل لا بدّ أن يتم التغاضي عنها.

كما أنّ هذه الروايات تتحدث عن عملية تحول، والتحول يعني انقطاع الحقيقة، فالملائكة لم يعودوا ملائكة بل هم أصبحوا بشراً والأصل لم يعد

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٢٦.

موجوداً، ونفس الشيء بالنسبة لتحول المرأة إلى كوكب فهي الآن مجرد كوكب ولا شأن له بتأريخه السابق. ويضاف إلى كل هذا أن العلم كشف حقيقة التردد حول سهيل أو الزهرة وأثبت لهما صورتهما المعروفة وبذلك لا يمكن لنا أن نعير المنقول أهمية خصوصاً أنّه معارض بالقرآن في مواضع عدّة.

ومحصّلة البحث أن الملائكة هم كائنات معصومة مدبرة للكون وأن الآيات التي تحدّثت عن إنزال السحر عليهما من الآيات غير الواضحة، ولهذا فإن العلماء عمدوا إلى تأويلها بما يحفظ هذا الثابت العقائدي والعقلي أي عصمة الملائكة.

من باب تأكيد عصمة الملائكة التي لم تناقض إلاّ بمورد السحر الذي ورد في قصة هاروت وماروت بفتح الباب لبحث السحر كمقدمة للوصول إلى تأكيد العصمة.

الفصل السادس

السِّحر

- السّحر في اللّغة
- السّحر في الشّرع
- أنواع السّحر
- سحر أصحاب الأوهام والنفوس القويّة
- من السّحر الاستعانة بالأرواح الأرضيّة
- من السّحر التخيلات والأخذ بالعيون
- أقوال المسلمين في السّحر

السِّحر في اللغة

«واعلم أنّ الكلام في السّحر يقع من وجوه: الأوّل في البحث عنه بحسب اللغة، فنقول: ذكر أهل اللغة أنّه في الأصل عبارة عما لطف وخفي سببه، والسحر ـ بالفتح ـ: هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه، قال لبيد: ونسحر بالطعام والشراب. قيل: فيه وجهان: أحدهما: أن نعلل ونخدع كالمسحور والمخدوع، والآخر: نغذي وأي الوجهين كان فمعناه الخفاء. وقال:

فإن تسألينا مم نحن؟ فإننا   عصافير من هذا الأنام المسحر

وهذا الوجه يحتمل من المعنى ما احتمله الأول، ويحتمل أيضاً أن يريد بالمسحر أنّه ذو السحر والسحر هو الرئة، وما تعلق بالحلقوم. وهذا أيضاً يرجع إلى معنى الخفاء، ومنه قول عائشة: «توفي رسول الله بين سحري ونحري» وقوله تعالى: ﴿ *إنّما أنت من المسحرين* ﴾[1] يعني من المجوف الذي يطعم ويشرب، يدل عليه قولهم: ﴿ *ما أنت إلّا بشر مثلنا* ﴾[2] وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنّه قال للسحرة: ﴿ *ما جئتم به السحر إنّ الله سيبطله* ﴾[3] وقال: ﴿ *فلمّا ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم* ﴾[4] فهذا هو معنى السحر في أصل اللغة»[5].

---

(١) سورة الشعراء: ١٥٣.

(٢) سورة الشعراء: ١٥٤.

(٣) سورة يونس: ٨١.

(٤) سورة الأعراف: ١١٦.

(٥) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٧٧.

السحر في الشرع

«الوجه الثاني: اعلم أن لفظ السِّحر في عرف الشرع مختص بكل أمر مخفي سببه، ويتخيّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله، قال تعالى: ﴿ ***سحروا أعين الناس*** ﴾ يعني موهوا عليهم حتّى ظنوا أنّ حبالهم وعصيهم تسعى، وقال تعالى: ﴿ ***يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى*** ﴾[1] وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد، وروي أنّه قدم على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهثم وقال لعمرو: خبرني عن الزبرقان، فقال: مطاع في ناديه، شديد العارض، مانع لما وراء ظهره، قال الزبرقان: هو والله يعلم أني أفضل منه. فقال عمرو: إنّه زمر المروءة ضيّق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال، فقال رسول الله ﷺ: صدقت فيهما ارضاني فقلت أحسن ما علمت وأسخطني فقلت أسوء ما علمت فقال رسول الله ﷺ: إن من البيان لسحراً. فسمى النبي ﷺ بعض البيان سحراً، لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه وبليغ عبارته. فإن قيل: كيف يجوز أن يسمي ما يوضح الحق وينبئ عنه سحراً وهذا القائل إنّما قصد إظهار الخفي لا إخفاء الظاهر، ولفظ السحر إنّما يكون عند إخفاء الظاهر؟.

قلنا: إنّما سماه سحراً لوجهين: الأول: إنّ ذلك العذر للطفه وحسنه استمال القلوب، فأشبه السحر الذي يستميل القلوب فمن هذا الوجه يسمى سحراً لا من الوجوه الذي ظننت. الثاني: أن المقتدر على البيان يكون قادراً

---

(١) سورة طه: ٦٦.

على تحسين ما يكون قبيحاً وتقبيح ما يكون حسناً، فذلك يشبه السحر من هذا الوجه في أقسام السحر»[1].

وبناءً على هذا الفهم فإنّ السحر ليس من القدرات الحقيقية التي يمتلكها الساحر بل في استخدام هذه القدرات للغش والخداع وإيهام السذج الذين يجهلون الأسباب العميقة وراء القدرات التي يراها الناس عند الساحر، فمثلاً بالنسبة لخصائص المواد والآثار التي بعضها صار يدخل في الطب والكيمياء في العصر الحاضر بعد أن انفصلت عن السحر واستخدمت لخير ونفع البشر خارجة عن إطار السحر، فالحرام هنا جانب الخداع والإيهام وتحريف المعتقدات إلى الاعتقاد بوجود قدرة للكواكب أو البشر أو الأرواح أو المواد الموجودة في الطبيعة، لأن هذا هو السحر أي الاستفادة من الخفاء وهو معنى السحر في التأثير في الناس الذين يجهلون تلك الفنون أو العلوم سواء كان هذا الخداع في مجال اقتصادي أي لتحقيق مكاسب اقتصادية أو لتحقيق اعتقادات باطلة، وهكذا تكون بعض المقدمات الصحيحة تقود إلى نتائج استدراج الناس، فمثلاً الاستفادة من بعض الأدوية المنشطة لإشعار الناس بامتلاك الساحر قدرة في تغيير حقائق الأشياء أو قدرة في سيطرته على الطبيعة بالاستفادة مثلاً من قدرات الجاذبية أو القوى الكهربائية عند أناس يجهلونها.

وهذا الفهم يلقي ضوءاً على ما ورد في الآيات السابقة. «وتشير كلمة (السحر) إلى مجموعة أساليب تستخدم للتأثير على القوى الطبيعية أو الخارقة للطبيعة، وذلك عن طريق أداء بعض الممارسات الشعائرية التي يعتقد أنّها تؤدي إلى النتائج المرغوبة. ومن الواضح أن السحر قد تأثر بالتطورات السياسية والاجتماعية التي أنتجت المجتمع الحديث إذ لم يعد يعتبر جزءاً من

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٧.

نسق منظم يشتمل على معتقدات وأدوار لكنه يكون في مجتمعات أخرى بدائية وتقليدية أكثر تنظيماً. فيشغل «السحرة» حينئذ مراكز محددة ويقومون بأدوار متخصصة ويلعب الساحر في مثل هذه المجتمعات دوراً لا يختلف كثيراً عن دور الأخصائي في ميدان الطب أو دور رجل الدين»[1].

وكما تشير الدراسات في المجتمعات القديمة أن السحر والساحر يدخلان كعناصر في ترتيب الأنساق الاجتماعية، وبالتالي فهو جزء أساسي من الثقافة لأنّه «مكون من مجموعة من العقائد والطقوس. وللسحر أيضاً شعائره وقرابينه وعملية التطهير المتعلقة وصلواته وترانيمه ورقصاته»[2].

وتنشأ خطورته من كونه ليس مجرد ممارسة طارئة بل هو غالباً ما يرتبط بعقائد وطقوس خرافية ويحتل المكانة التي يجب أن يشغلها الدين عموماً أو يؤدي إلى انحراف المعتقدات بعد أن يلتصق بها ويوجهها ولهذا فإننا نلاحظ ذيوع الاهتمام بأرواح الموتى. ونجد «من المجتمعات البدائية أن أرواح الموتى تكون بمثابة الشيء المقدس وبالتالي تعتبر موضوعاً للطقوس الدينية. لكنها ـ وفي نفس الوقت ـ تلعب دوراً أساسياً في السحر. ففي استراليا وماليزيا واليونان. ولدى بعض المسيحيين تستخدم أرواح الموتى وعظامهم وشعرهم بواسطة القائمين على السحر. وكذلك فإن الشياطين أيضاً يكونون وسائل وأدوات عامة في السلوك السحري»[3].

كما أن من النتائج المترتبة على السحر هو الاعتقاد بقدرة الساحر على إيقاع الأذى في مقابل قدرته على نفع الناس ولهذا فإن هناك مصطلح «السحر

---

(١) علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٧.

(٣) علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: ٣٧.

الضار» و«استخدام مقصود للسحر بقصد إيذاء الغير»[١]. وهو يختلف بالطبع عن «وجود قدرة فطرية وراثية عضوية عند شخص يستطيع بواسطتها أن يلحق الأذى بالآخرين بوسائل غير ملموسة لا يمكن ملاحظتها أياً كانت المسافة بينه وبينهم وبشرط أن يشعر بدوافع عدائية نحوهم»[٢].

ومن هنا فإن السحر يعتمد بدرجة رئيسية على وجود وسط جاهل ببعض الملكات الحقيقية للساحر ويستفيد من هذا الجهل في صنع عقائد باطلة. و«باختصار، إنّ السحر عبارة عن نسق غير منطقي في القانون الطبيعي وبالإضافة إلى أنه موجه ومرشد وهمي ومخادع إنّه علم زائف كما أنّه فن فاشل»[٣].

ويمكن أن نربط هذه الصورة بما أثبتته الآية الشريفة: ﴿*وما هم بضارّين به من أحد*﴾ نرى أنّها تنفي قدرة الساحر على إيقاع الضرر حقاً أي أنّها تريد أن تبطل عقيدة شائعة في المجتمعات القديمة وهي نسبة النفع والضرر إلى الساحر لأنّ الله هو النافع الضار في الواقع والحقيقة، وهذا وهم في إزالة الخوف في النفوس عند الناس والذي يترتب عليه حصول الساحر على المكانة في المجتمع.

---

(١) علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٤٨.

أنواع السِّحر

النوع الأول:

«واعلم أنّ السّحر على أقسام: القسم الأول: سّحر الكلدانيّين والكذّابين الذين كانوا في قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنّها هي المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم، وراداً عليهم في مذاهبهم وهؤلاء فرق ثلاث:

الفريق الأول: هم الذين زعموا أن هذه الأفلاك والكواكب واجبة الوجود في ذواتها، وأنه لا حاجة بهذه ذواتها وصفاتها إلى موجب ومدبر وخالق وعلة البتة. ثم إنها هي المدبرة لعالم الكون والفساد، وهؤلاء هم الصابئة الدهرية.

الفريق الثاني: الذين قالوا: الجسم يستحيل أن يكون واجباً لذاته، لأن كل جسم مركب، وكل مركب فإنّه مفتقر إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره، فكل جسم فهو مفتقر إلى غيره، فهو ممكن لذاته [وكل ممكن لذاته فهو مؤثر] فله مؤثّر وهذه الأجرام الفلكية والكوكبية لابدّ لها من مؤثر، ثم قالوا: ذلك المؤثّر إما أن يكون حادثاً أو قديماً، فإن كان حادثاً افتقر إلى مؤثر آخر ولزم التسلسل وهو محال، وإن كان قديماً فإما أن يكون كل ما لا بد منه في مؤثريته حاصلاً في الأزل أو ليس كذلك، ويدخل في

هذا التقسيم قول من يقول: إنّه إنّما خلق العالم في الحيز الذي خلقه فيه، لأنّ خلقه في ذلك الحيز أصلح من خلقه في حيز آخر، أو لأن خلقه كان موقوفاً على القضاء الأزل، أو لأن خلقه كان موقوفاً على حضور وقت معين إمّا مقدر أو محقق. فإن قلنا إن كل ما لا بد منه في مؤثريته كان حاصلاً في الأزل لزم أن يكون الأثر واجب الترتب عليه في الأزل، لأن الأزل لو لم يكن واجب التريث عليه فهو إمّا ممتنع التريث عليه، فهو ليس بمؤثر البتة وقد فرضناه مؤثراً، هذا خلف، وإن كان ممكن الترتب عليه وممكن اللاترتب عليه أيضاً، فلنفرض تارة مصدراً للأثر بالفعل وأخرى غير مصدر له بالفعل، فامتياز الحيز الذي صار المؤثر فيه مصدر للأثر بالفعل عن الحيز الذي لم يصر فيه كذلك، إمّا أن يتوقف على انضمام قيد إليه أو لم يتوقف.

فإن توقف لم يكن الحاصل قبل انضمام هذا القيد إليه كل ما لابد منه في المؤثرية وقد فرضناه كذلك، وهذا خلف، وإن لم يتوقف فقد ترجّح الممكن من غير مرجّح البتّة، وتجويزه يسدّ باب الاستدلال بالممكن على وجود الصانع. وأمّا إن قلنا بأن كل ما لابد منه في المؤثرية ما كان حاصلاً في الأزل، فإن استمر ذلك السلب وجب أن لا يصير البتة مؤثراً، لكنا قد فرضناه مؤثراً في الأزل، هذا خلف، وإن تغيّر فقد حدث بعض ما لا بد منه في المؤثرية، فإن كان حدوثه لا لأمر فقد وقع الممكن لا عن مؤثر، وهو محال، وإن كان حدوثه لأمر لم يكن الشيء الذي فرضناه حادثاً أولاً كذلك، لأنّه حصل قبله حادث آخر وكما فرضناه حادثاً أولاً، وهذا خلف وأيضاً فإنّا ننقل الكلام إليه، ويلزم التسلسل وهو محال.

وقالوا: وهذا يقتضي استناد الممكنات إلى مؤثر تام المؤثرية في الأزل، ومتى كان كذلك وجب كون الآثار أزلية دائمة، فهذا يقتضي أن لا يحصل في

العالم شيء من التغيّرات البتة لكن التغيرات مشاهدة قطعاً، فلا بد من حيلة، فنقول ذلك المؤثر القديم الواجب لذاته إلاّ أن كل حادث مسبوق بحادث آخر حتى يكون انقضاء المتقدم شرطاً لحصول المتأخر عن ذلك المبدأ القديم وعلى هذا الطريق يصير المبدأ القديم مبدأ للحوادث المتغيرة، فإذن لا بدّ من توسط حركة دائمة يكون كل جزء منها مسبوقاً بالآخر لا إلى أول، وهذه الحركة يمتنع أن تكون مستقيمة، وإلاّ لزم القول بأبعاد غير متناهية، وهو محال، فلا بد من جرم متحرك بالاستدارة وهو الفلك: فثبت أن حركات الأفلاك كالمبادئ القريبة للحوادث الحادثة في هذا العالم، والمدبرات الملاصقة بها، فلا جرم قالوا بإلهيتها، واشتغلوا بعبادتها وتعظيمها، واتخذوا لكلّ واحد منها هيكلاً مخصوصاً وصنماً معيناً فاشتغلوا بخدمتها، فهذا هو دين عبدة الأصنام والأوثان. ثم إن هؤلاء قالوا: إن المبدأ الفاعلي لا يكفي وجوده في حصول الفعل، بل لابد من حضور المبدأ القابلي المنفعلي، ولا يكفي حضوره أيضاً ما لم تكن الشرائط حاصلة والموانع زائلة، وربما حدث أمر مشكل غريب في العالم الأعلى يصلح لإفادة هيئة غريبة في مادة العالم الأسفل، فإذا لم تكن المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الهيئة من الأشكال العلوية لم تحدث تلك الهيئة، ثم إنّ فوات ذلك التهيؤ تارة يكون لأجل كون المادة مملؤة بالمعوقات المانعة عن قبول ذلك الأثر، وتارة لأجل فوات بعض الشرائط لكن لو تهيأت لنا مقدّمات المعرفة بطبيعة ذلك التشكل وبوقت حدوثه وبطبيعة الأمور المعتبرة في كون المادة السفلية قابلة لذلك الأثر لكان يمكننا تهيئة المادة لقبول ذلك الأثر وإماطة الموانع عنها، وتحصيل المعدات لها، حتى يتم ذلك الفيضان، ويسري في القابليات، لما تقرر أن الفاعل التام متى لقي المنفعل التام ظهر الفعل التام لا محالة، فإذا عرفت هذا فالساحر هو

الذي يعرف القوى العالية الفعالة بسائطها ومركباتها، ويعرف ما يليق بكل واحد من العوالم السفلية، ويعرف المعدّات ليعدها، والعوائق لينحيها، معرفة بحسب الطاقة البشرية، فحينئذ يكون الإنسان متمكّناً من استجذاب ما يخرق العادة، ومن دفع ما يدافعها، بتقريب المنفعل من الفاعل، وهذا معنى قول بطليموس «علم النجوم منك ومنها» فهذا هو الإشارة إلى خلاصة قول الفلاسفة الصابئة في حقيقة السحر وماهيته.

الفريق الثالث: الذين أثبتوا لهذه الأفلاك والكواكب فاعلاً مختاراً خلقها وأوجدها بعد العدم، إلاّ أنهم قالوا: إنّه سبحانه أعطاه قوة عالية نافذة في هذا العالم، وفوّض تدبير هذا العالم إليهم. قالوا: الدليل على كون هذه الأجرام الفلكية أحياء وجهان: الأول أنّه لا شك أن الحياة أشرف من الجمادية فكيف يحسن في الحكمة خلق الحياة في الأجسام الخسيسة نحو أبدان الديدان والخنافس وإخلاء هذه الأجرام الشريفة النورانية الروحانية عن الحياة. الثاني أن هذه الأفلاك متحركة بالاستدارة فحركتها إمّا أن تكون طبيعيّة، أو قسرية أو إرادية، لا جائز أن تكون طبيعيّة، لأنّ المهروب عنه بالطبع لا يكون بعينه مطلوباً بالطبع، وكل نقطة فرضنا الفلك متحركاً عنها فإن حركته عنها هي عين حركته إليها فيستحيل كون تلك الحركة طبيعية، ولا جائز أن تكون قسرية لأن القسر هو الذي يكون على خلاف الطبيعة، فإذ قد بطلت الطبيعية، وجب بطلان كونها قسرية، ولما بطل القسمان ثبت كونها إرادية، فثبت أن الأفلاك والكواكب أجرام حية عاقلة، قالوا: إذا ثبت هذا فنقول: الوقوف على جميع الطبائع العلوية والسفلية مما لا يفي به وسع البشر. وطاقة النفس الناطقة لوجوه أربعة:

أولها: إنّه لا سبيل إلى إثبات الكواكب إلاّ بواسطة القوة الباصرة، ولا ارتياب أنّها عن إدراك الصغير من البعيد قاصرة، فإن أصغر كوكب مما في القدر السابع من الفلك الثامن وهو الذي يمتحن به حدة البصر مثل كرة الأرض بضعة عشر مرة، وإن كرة الأرض أعظم من العطارد كذا ألف مرة، فلو تكوكب الفلك الأعظم بكواكب على قدر الكواكب الصغيرة المذكورة من الثوابت فلا شك أن الحس لا يدركه، والبصر لا يمتد عليه، فضلاً عمّا يكون في مقدار عطارد أو أصغر منه، وعلى هذا التقدير لا يبعد أن يكون في السماوات كواكب كثيرة فعالة وإن كنا لا نعرف وجودها فضلاً عن أن نعرف طبائعها، ولهذا نقل صاحب كتاب «تنكلوشا» عن سيّد البشر أنّه بقي في الفلك وراء الكواكب المرصودة كواكب لم ترصد إما لفرط صغرها أو لخفاء آثارها وأفعالها.

وثانيها: أن الكواكب التي نراها ليست بأسرها مرصودة، بل المرصودة منها ألف واثنان وعشرون، والبواقي غير مرصودة، وممّا يحقق ذلك ما ثبت بالدلالة أن المجرة ليست إلا أجرام كوكبية صغيرة جداً مرتكزة في فلك الثوابت على هذا السمت المخصوص وظاهر أنّ الوقوف على طبائعها متعذّراً.

وثالثها: أن هذه الكواكب المرصودة مما لم يحصل الوقوف التام على طبائعها، لأنّ أقوال الأحكاميين ضعيفة قليلة الحاصل، لا سيما في طبائع الثوابت.

ورابعها: أنا بتقدير أن نعرف طبائع هذه الكواكب على بساطتها لكنه لا يمكننا الوقوف على طبائعها حال امتزاجها إلاّ على سبيل التقريب البعيد عن التحقيق[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٧٨ - ٢٨٠.

ثم إنّا نعلم أن الحوادث الحادثة في هذا العالم لا يصدر عن طبائعها البسيطة وإلاّ لدامت هذه الحوادث بدوام تلك الطبائع، بل إنّما يحصل عن امتزاجاتها، وتلك الامتزاجات غير متناهية، فلا سبيل إلى الوقوف عليها على سبيل القياس، فقد ثبت بهذه الوجوه الأربعة تعذر الوقوف على طبائعها الفعالة، وأمّا القوى المنفعلة فالوقوف التام عليها كالمتعذّر، لأن القبول التام لا يتحقق إلاّ مع شرائط مخصوصة في القابل من الكم والكيف والوضع والأين وسائر المقولات، والمواد السفلية غير ثابتة على حالة واحدة، بل هي أبداً في الاستحالة والتغير، وإن كان لا يظهر في الحس، فقد ظهر بما قررنا أن الوقوف التام على أحوال القوى الفعالة السماوية والقوى الأرضية المنفعلة غير حاصل للبشر، ولو حصل ذلك لأحد لوجب أن يكون ذلك الشخص عالماً بجميع التفاصيل الحاصلة من الماضية والآتية، وأن يكون متمكّناً من إحداث جميع الأمور التي لا نهاية لها.

ثم قالوا: فهذه المباحث والملامح مما يوهن العقل عن التمكن من هذه الصناعة، إلاّ أنّه نعم ما قيل من أن ما لا يدرك كله لا يترك كله فالقوى البشرية وإن قصرت عن اكتناه هذه القوى العالية الفعّالة والسافلة المنفعلة ولكن يمكنها الإطلاع على بعض أحوالها، وإن كان ذلك القدر تافهاً حقيراً بالنسبة إلى ما في الوجود لكنه عظيم بالنسبة إلى قدرة الإنسان وقوته، لأن الأحكاميين من أهل النجوم قد وقفوا بسبب التجارب المتطاولة قرناً بعد قرن على كثير من أحوال السبعة السيارة وكثير من الثوابت. وعرفوا من أحوال البروج والحدود والوجوه والمثلثات ما يعظم الانتفاع بمعرفته لمن اطلع عليه وأحاط به، وليس يلزمنا أنّه لما تعذر علينا تحصيل اليقين التام بها بواسطة البراهين المنطبقة أن يترك الانتفاع بها مع ما نشاهد من صحة قوانينها الكلية، كما لا يلزم من عدم قيام الدلائل الطبيعية على طبائع الأغذية والأدوية البسيطة والمركبة أن لا ينتفع

بها، بل هذه الصناعة أولى بالرعاية من صناعة الطب، وذلك لأنهما بعد اشتراكهما في عدم البراهين المنطبقة على مطالبها امتازت هذه الصناعة عن صناعة الطب بوصف نافع، وذلك أن الدواء المتناول لو لم ينفع يحصل من تناوله ضرر عظيم، وأمّا هذه الصناعة فلو لم تنفع لم تضر.

أما الظن بحصول النفع فهو قائم في الموضعين، وإذا كان كذلك كانت هذه الصناعة أولى بالرعاية من صناعة الطب.

فإن قال قائل: كيف السبيل إلى معرفة طبائع هذه الكواكب والبروج؟ وأما التجربة فهي متعذرة وذلك لأنّ أقل ما لابد منه في التجربة أن يعود الأمر مرتين، وعودة الفلك إلى شكله المعين ممتنع عند بعض الفلاسفة، ولو أمكن على بعده فإنّما يقع لو عاد جميع الكواكب إلى الموضع الذي كان واقفاً عليه في المرة الأولى وذلك مما لا يحصل إلاّ بعد المدة التي تسمّى بعمر العالم فأي عمر يفي بذلك؟ وأي عقل يصل إليه؟.

الجواب: أنّه لا حاجة في هذه التجربة إلى عود الفلك إلى الشكل الأول من جميع الوجوه، بل لما رأينا كوكباً حصل في برج وصدر عنه أثر وشاهدنا هذا الأثر مع حصوله في ذلك البرج مدة بعد أخرى غلب على ظننا أن حصوله في ذلك البرج مستعقب لهذا الأثر، وهذا القدر كاف في حصول الظن، وأيضاً قد تحصل معرفة طبائع هذه الكواكب على سبيل الإلهام، يحكى عن جالينوس أنّه عرف كثيراً من الأمور الطبية برؤيا رآها، وإذا كان ذلك ممكناً فلا سبيل إلى دفعه.

قالوا: إذا ثبت ذلك فإن التجارب التي مارسها الأحكاميون من المنجمين دلت على أن لكل اختصاصاً بأشياء معينة في هذا العالم، من الأمكنة والأزمنة والأيام والساعات والأغذية والروائح والأشكال التي يتعلق بها كوكب معين في وقت يكون الكوكب فيه قوياً على ذلك الفعل الذي يطلب منه لم يبعد أن

يحصل ذلك الأثر الخارق للعادة لا سيما إذا كان المتولي لمباشرة ذلك العمل القوي النفس صافي الروح، بحيث يكون روحه في الاستعلاء والاستيلاء من جوهر الأرواح السماوية، فهناك يتم الأمر، ويحصل الغرض، فهذا مجموع أقوال الصابئة في تقرير هذا النوع من السحر.

أما المعتزلة فقد اتفقت كلمتهم على أن غير الله لا يقدر على خلق الجسم والحياة واللون والطعم واحتجوا بوجوه ذكرها القاضي ولخصها في تفسيره وفي سائر كتبه، و نحن ننقل تلك الوجوه وننظر فيها:

أولها: وهو النكتة العقلية التي عليها يقولون: أن كل ما سوى الله إمّا متحيز أو قائم بالمتحيّز، فلو كان غير الله فاعلاً للجسم والحياة لكان ذلك الغير متحيّزاً وذلك المتحيز لابدّ وأن يكون قادراً بالقدرة، إذ لو كان قادراً لذاته لكان كل جسم كذلك ـ بناء على أن الأجسام متماثلة ـ لكن القادر بالقدرة لا يصح منه فعل الجسم والحياة. ويدل عليه وجهان: الأول: أن العلم الضروري حاصل بأن الواحد منا لا يقدر على خلق الجسم والحياة ابتداء، فقدرتنا مشتركة في امتناع ذلك عليها فهذا الامتناع حكم مشترك فلا بدّ له من علة مشتركة، ولا مشترك ههنا إلاّ كوننا قادرين بالقدرة، وإذا ثبت هذا وجب في من كان قادراً بالقدرة أن يتعذر عليه فعل الجسم والحياة. الثاني: أن هذه القدرة التي لنا لا شك أن بعضها يخالف بعضاً فلو قدرنا قدرة صالحة لخلق الجسم والحياة لم يكن مخالفتها لهذه القدرة أشد من مخالفة بعض هذه القدرة للبعض فلو كفى ذلك القدر من المخالفة في صلاحيتها لخلق الجسم لوجب في هذه القدرة التي يخالف بعضها بعضاً أنّ تكون صالحة لخلق الجسم والحياة ولما لم يكن كذلك علمنا أن القادر بالقدرة لا يقدر على خلق الجسم والحياة.

وثانيها: أنا لو جوّزنا ذلك لتعذر الاستدلال بالمعجزات على النبوات لأنا لَما جوّزنا استحداث الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية لم يمكننا القطع بأنّ هذه الخوارق التي ظهرت على أيدي الأمناء صدرت عن الله تعالى، بل يجوز فيها أنّهم أتوا بها من طريق السحر، وحينئذ يبطل القول بالنبوات من كل الوجوه.

وثالثها: أنا لو جوزنا أن يكون في الناس من يقدر على خلق الجسم والحياة والألوان لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب لكنا نرى من يدعي السحر متوسلاً إلى اكتساب الحقير من المال بجهد جهيد فعلمنا كذبه، وبهذا الطريق يعلم فساد ما يدعيه قوم من الكيمياء. فإنّا نقول لو أمكنهم ببعض الأدوية أن يقلبوا غير الذهب ذهباً لكان إمّا أن يمكنهم ذلك بالقليل من الأموال فكان ينبغي أن يغنوا أنفسهم بذلك عن المشقة والذلة، أو لا يمكن إلا بالآلات العظام والأموال الخطيرة فكان يجب أنّ يظهروا ذلك للملوك المتمكنين من ذلك بل كان يجب أنّ يفطن الملوك لذلك لأنه أنفع لهم من فتح البلاد التي لا يتم إلا بإخراج الأموال والكنوز، وفي علمنا بانصراف النفوس والهمم عن ذلك دلالة على فساد هذا القول. قال القاضي: فثبت بهذه الجملة أن الساحر لا يصح أن يكون فاعلاً لشيء من ذلك.

واعلم أن هذه الدلائل ضعيفة جداً، أما الوجه الأول فنقول: ما الدليل على أن كل ما سوى الله تعالى إمّا أن يكون متحيزاً أو قائماً بالمتحيز، أما علمتم أن الفلاسفة مصرون على إثبات العقول والنفوس الفلكية والنفوس الناطقة، وزعموا أنّها في أنفسها ليست بمتحيزة ولا قائمة بالمتحيز، فما الدليل على فساد القول بها؟

فإن قالوا: لو وجد موجود هكذا لزم أن يكون مثلاً لله تعالى، قلنا: لا نسلّم، وذلك لأنّ الاشتراك في السلوب لا يقتضي الاشتراك في الماهية، سلمنا ذلك لكن لم لا يجوز أن يكون بعض الأجسام يقدر على ذلك لذاته؟ قوله: «الأجسام متساوية فلو كان جسم كذلك لكان كل جسم كذلك» قلنا: ما الدليل على تماثل الأجسام؟.

فإن قالوا: أنّه لا معنى للجسم إلاّ الممتد في الجهات، الشاغل للأحياز، فلا تفاوت بينها في هذا المعنى.

قلنا: الامتداد في الجهات والشغل للأحياز صفة من صفاتها ولازم من لوازمها ولا بعد أن تكون الأشياء المختلفة في الماهية مشتركة في بعض اللوازم، سلمنا أنّه يجب أن يكون قادراً بالقدرة، فلم قلتم إن القادر بالقدرة لا يصح منه خلق الجسم والحياة؟ قوله: «لأن القدرة التي لنا مشتركة في هذا الامتناع، فهذا الامتناع حكم مشترك، فلا بد له من علة مشتركة، ولا مشترك سوى كوننا قادرين بالقدرة». قلنا: هذه المقدمات بأسرها ممنوعة، فلا نسلم أن الامتناع حكم معلل، وذلك لأن الامتناع عدمي، والعدمي لا يعلل. سلمنا أنّه أمر وجودي، ولكن من مذهبهم أن كثيراً من الأحكام لا يعلل، فلم لا يجوز أن يكون ههنا كذلك؟ سلمنا أنه معلّل، فلم قلتم: إن الحكم المشترك لا بد له من علة مشتركة، أليس أن القبح حصل في الظلم معللاً بكونه ظلماً وفي الكذب بكونه كذباً وفي الجهل بكونه جهلاً؟ سلمنا أنّه لا بد من علة مشتركة، لكن لا نسلم أنه لا مشترك إلاّ كوننا قادرين بالقدرة، فلم لا يجوز أن تكون هذه القدرة التي لنا مشتركة في وصف معين وتلك القدرة التي تصلح لخلق الجسم تكون خارجة عن ذلك الوصف، فما الدليل على أن الأمر ليس كذلك؟

أما الوجه الثاني: وهو أنّه ليست مخالفة تلك القـدرة لبعـض هـذه القـدرة أشد من مخالفة بعض هذه القدرة للبعض، فنقول: هذا أضعف، لأنّا لا نعلـل صلاحيتها لخلـق الجسـم بكونها مخالفـة لهذه القـدرة، بـل لخصوصيتها المعينة التي لأجلها خالفت سائر القدر، وتلك الخصوصية معلوم أنّها غير حاصلة في سائر القدر ونظير ما ذكروه أن يقال: ليست مخالفة الصوت للبيـاض أشـد مـن مخالفة السواد للبياض، فلو كانت تلك المخالفـة مانعـة للصوت من صحة أن يرى لوجب لكون السواد مخالفاً للبياض أن يمتنع رؤيتـه، ولما كـان هـذا كـلام فاسـداً فكـذا ما قـالوه والعجـب مـن القـاضي أنّه لما حكـى هـذه الوجـوه عـن الأشعرية في مسألة الرؤية زيفها بهذه الأسئلة، ثـم إنه نفسـه تمسـك بها في هـذه المسألة التي هي الأصل في إثبات النبوة، والرد على من أثبـت متوسـطاً بـين الله وبيننا.

أما الوجه الثالث: وهو أن القول بصحة النبوات لا يبقـى مـع تجويـز هـذا الأصـل فنقـول: إمّا أن يكـون القـول بصحـة النبـوات متفرعـاً على فسـاد هـذه القـاعدة أو لا يكـون، فـإن كـان الأول، امتنـع إفسـاد هـذا الأصـل بالبنـاء علـى صحـة النبـوات وإلاّ وقـع الـدور، وإن كـان الثـاني، فقـد سـقط هـذا الكـلام بالكلية.

أمّا الوجه الرابع: فلقائل أن يقـول: الكـلام في الإمكـان غير، وفي الوقـوع غير، ونحن لا نقول بأن هذه الحالة حاصلة لكل أحد بل هذه الحالـة لا تحصـل للبشر إلاّ في الأعصار المتباعدة، فكيف يلزمنا مـا ذكرتمـوه؟ فـهذا هـو الكـلام في النوع الأول من السحر[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٨٠ ـ ٢٨٨.

إنّ الميزة الأساسية للعصور القديمة هي عدم وجود أنظمة تعتمد على التخصص وأنّ الإنسان المتصدّر ربما كان سياسياً وكاهناً وعالماً وسحّاراً في آن واحد. ذلك أنّه كان يدرس كل العلوم الموجودة في عصره وهي كانت مندمجة بشكل يصعب الفصل بينها. وهكذا فإننا نرى اختلاط السحر كممارسة بعلوم التنجيم أي علم الفلك بصورته القديمة، وفي الغالب ما تكون كل هذه العلوم متأسسة على عقيدة دينية تعتمد على العلوم المعاصرة لها وتتأثر بها وتنتفع منها في خلف الإقناع.

ولكن مع تقدم الحياة نلاحظ تمايز العلوم عن بعضها البعض حتى وإن كان الدارس لها شخصاً واحداً وهكذا صار للفلك صورتين:

الأولى: هي الصورة التي ترتبط بالأرصاد وتتابع حركة الكواكب وخصوصاً بعد أن برزت لها فوائد هامة على مستوى الحياة اليومية للناس من قبيل الاهتداء بواسطتها إلى الجهات. والصورة الثانية ظلت مرتبطة بالعقائد وهي التي استمرت لتشكل هذا النوع من الادعاء الذي أوردناه أول قسم من أقسام السحر والقائم على اعتقاد مفاده أن: «أغلب الأحداث الدنيوية مرتبطة بالأحداث الكونية».

وقد أثبت العلم أنّ الكواكب تشكل جزءاً صغيراً جداً من الكون اللا نهائي الذي يمتد امتداداً يستعصي على الحصر وبالتالي لو كان لهذه الكواكب جميعاً تأثير في حياة الإنسان لكان الإنسان أسيراً لعدد هائل من القوى وهذا شيء لم يصل إليه أدعياء وجود التأثيرات لأنّهم لم يكونوا مطّلعين على وجود كواكب ونجوم بالصورة التي أثبتها العلم الحديث.

وإذا أمكن تصديق أفعال هؤلاء فإن ذلك ناشئ عن التداخل بين الملكات الحقيقية وهي تختلط في الغالب بالاستعانة بالأرواح أو قوى الطبيعة أو أن

تمتلك الوسيط قوى نفسية خاصة تقود في النهاية إلى إيقاع الوهم في نفوس بعض من لا يدركون الأسباب العلمية فيعتقدون بوجود آثار لهذه النجوم.

ومن هنا فإنّ هذا النوع من السحر هو من أوضح الأنواع من ناحية البطلان، لكن يمكن تفسير هذا الخلط بأن المجتمعات القديمة عملت على إسقاط فكرة الملائكة، تستبدل بها أرواحاً سماوية على الكواكب فبسبب إليها فكرة التدبير التي هي فكرة مستقاة من الدين، وساد اعتقاد بأن للكواكب سلطة على الإنسان، خصوصاً أنها كانت في نظر البشر سماوية أيضاً وأن مسكنها الأفلاك، ولعل العلم الحديث بعد أن تقدم كثيراً وصل إلى استنتاج ضرورة وجود قوى مدبرة للكون إلى القول بوجود نفس للكون. وقد «اعترف العديد من العلماء بوجود نفس للكون. والواقع هو أن المادة ليست هي حقيقة العالم وواقعه»[1].

ولعل هذا النوع من التوفيق المعاصر بين الإدراك لوجود ظواهر عميقة أعمق من الشكل المحسوس والظاهر من المادة وبين الرغبة في تحويل كل شيء إلى محسوس يشابه ما قام به الأولون في صبغ الفكرة الدينية بأدلة مادية يدركها الإنسان بحسه الفردي، كذلك ومن خلال حوادث في حياته جعل الجماعات البشرية تؤمن بها حاول الإنسان إعطاءها شكلاً مادياً كان في حينه يمثل أقصى حدود الوجود المادي المعروف.

ومن هنا فإن بعض ما كان يقع حقاً كان ينسب بطريقة التأويل الخاطئ إلى تأثير الكواكب خصوصاً إذا تم استخدام القوى الأخرى، كالاستعانة بالأرواح أو الأدوية والعقاقير والمواد الكيماوية بحيث يعطي هذا الانطباع الخاطئ حول قدرة الكواكب في التأثير.

---

(١) مجلة المعرفة ـ ما بعد الباراسيكولوجي ـ : ٢١.

ويقوم هذا النوع من السحر على إثبات قدرة الكواكب على التأثير في حياة البشر وبغض النظر عن المذهب الذي يعتمد عليه، فإنّه كان طبيعياً يستفيد من مستوى الجهل بحقيقة العالم خارج عالم الإنسان ومدى ارتباطه بعالم الإنسان ككائن حي وبصورة دقيقة في محاولة إثبات وجود وسائط بين الله سبحانه وتعالى وبين مخلوقاته.

على أن العصر الحاضر قد ألغى بشكل كبير هذه التصورات بعد أن استطاع العلم الوصول إلى عدد من الكواكب، إمّا بصورة مباشرة أو بواسطة المركبات الفضائية، فضلاً عن الرؤية العلمية التي تختلف بين عدّة نظريات لا تكاد أي منها تلتفت إلى هذه الأقوال، فأسفر عن تغير التصورات على أساس وجود قوى وقوانين ثابتة هي التي تشكل العلاقة بين الأجرام وبين الكواكب والنجوم، وأن الأرض مجرد كوكب سيار مثله مثل أعداد هائلة من الكواكب وإذا كان ثمة تأثير من هذه الزاوية فإنّه من قبيل ظاهرة المد والجزر أو التأثيرات في الجو أو تأثيرات الأشعة وارتطام الأجسام.

وهكذا يأتي العلم ليقترن مع الشرع في نفي الهالة التي خلقتها العقائد القديمة والتي حاولت أن تتخذ من الفلسفة أذرعاً تستند عليها، خصوصاً أنَّ الدين نفى القدرة عن ما سوى الإنسان على الإنسان باستثناء الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا الأساس يكون النوع الأول من السحر القائم على نوعين من الوسائط هي: ١ ـ الكواكب المؤثرة الأصلية ومن ثم ٢ ـ السحرة الذين يستطيعون من خلال إطلاعهم على طبيعة تأثير الكواكب إلى نقلها من القوة إلى الفعل، فبعد تطور العلم واكتشاف الكثير من العلل المؤثرة في حياة البشر صار يتهاوى ما كان ينسب أثره إلى الكواكب وتغيرت النظرة إلى إدراك سلطة الإنسان على نفسه.

النوع الثاني:

سحر أصحاب الأوهام والنفوس القويّة

«قالوا: اختلف الناس في أن الذي يشير إليه كل إنسان بقوله «أنا» ما هو؟ فمن الناس من يقول: إنّه هو هذه البنية، ومنهم من يقول: إنّه جسم سار في هذه البنية، ومنهم من يقول: إنّه موجود ليس بجسم ولا جسماني أما إذا قلنا: إن الإنسان هو هذه البنية فلا شك أن هذه البنية مركبة من الأخلاط الأربعة، فلم لا يجوز أن يتفق في بعض الأعصار النادرة أن يكون مزاج من الأمزجة في ناحية من النواحي يقتضي القدرة على خلق الجسم والعلم بالأمور الغائبة عنا؟ وهكذا الكلام إذا قلنا: إن الإنسان جسم سار في هذه البنية، أمّا إذا قلنا: إن الإنسان هو النفس فلا يجوز أن يقال: النفوس مختلفة، فيتفق في بعض النفوس أن تكون لذاتها قادرة على هذه الحوادث الغريبة مطلعة على الأسرار الغائبة عنا فهذا الاحتمال ممّا لم يقم دلالة على فساده سوى الوجوه المتقدمة وقد بان بطلانها.

ثم الذي يؤكد هذا الاحتمال وجوه: أولّها: أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر على هاوية تحته، وما ذاك إلاّ لأن تخيّل السقوط متى قوي أوجبه.

وثانيها: أجمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران، وما ذاك إلاّ لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام.

وثالثها: حكى صاحب الشفاء عن أرسطو في طبائع الحيوان: إنّ الدجاجة إذا تشبّهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الجواب مع الديكة نبت على ساقيها مثل الشيء النابت على ساق الديك. ثم قال صاحب الشفاء: وهذا يدل على أنّ الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية.

ورابعها: أجمعت الأمم على أنّ الدعاء مظنّة للإجابة وأجمعوا على أنّ الدعاء اللساني الخالي عن المطلب النفساني قليل البركة عديم الأثر، فدل ذلك على أن للهمم والنفوس آثاراً، وهذه الاتفاق غير مختص بملة معينة، ونحلة مخصوصة.

وخامسها: أنك لو أنصفت لعلمت أن المبادئ القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلاّ التصورات النفسانية. لأن القوة المحركة المخلوقة المطبوعة المغروزة في العضلات صالحة للفعل وتركه أو ضده ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر إلاّ لمرجح، وما ذاك إلاّ تصور كون الفعل جميلاً أو لذيذاً أو تصور كونه قبيحاً أو مؤلماً فتلك التصورات هي المبادئ لصيرورة القوى العضلية مبادئ بالفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة، وإذا كانت هذه التصورات هي المبادئ لمبادئ هذه الأفعال فأي استبعاد في كونها مبادئ للأفعال بأنفسها وإلغاء الواسطة عن درجة الاعتبار.

وسادسها: التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادئ قريبة لحدوث الكيفيات في الأبدان، فإن الغضبان يشتد سخونة مزاجة حتى أنّه يفيد سخونة قوية. يحكى عن بعض الملوك أنّه عرض له فالج فأعيى الأطباء مزاولة علاجه، فدخل عليه بعض الحذّاق منهم على حين غفلة منه وشافهه بالشتم والقدح في العرض، فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية لما ناله من شدة ذلك الكلام، فزالت تلك العلة المزمنة والمرضة المهلكة! وإذا جاز

كون التصورات مبادئ لحدوث الحوادث في البدن فأي استبعاد من كونها مبادئ لحدوث الحوادث خارج البدن.

وسابعها: أن الإصابة بالعين أمر قد اتفق عليها العقلاء، وذلك أيضاً يحقق إمكان ما قلناه.

إذا عرفت هذا فنقول: النفوس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً فتستغني في هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه، وتحقيقه أن النفس إذا كانت قوية مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات كانت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم، أمّا إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلاّ في هذا البدن، فإذا أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثيرها من بدنها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووضعه عند الحس ليشتغل الحس به، فيتبعه الخيال عليه، وأقبلت النفس الناطقة عليه، فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية.

ولذلك اجتمعت الأمم على أنه لا بدّ لزوال هذه الأعمال من الانقطاع عن المألوفات والمشتهيات وتقليله الغذاء والانقطاع عن مخاطبة القلب، فكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى، فإذا اتفق أن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر نظراً إلى ماهيتها وخاصيتها عظم التأثير والسبب اللّمي فيه، أن النفس إذا اشتغلت بالجانب الواحد استعملت جميع قوتها في ذلك الفعل، وإذا اشتغلت بالأفعال الكثيرة تفرّقت قوتها وتفرّعت على تلك الأفعال، فتصل إلى كل واحد من تلك الأفعال شعبة من تلك القوة، وجدول من ذلك النهر، ولذلك ترى أن إنسانين يستويان في قوة الخاطر إذا اشتغل أحدهما

بصناعة واحدة واشتغل الآخر بصناعتين، فإن ذا الفن الواحد يكون أقوى من ذي الفنّين، ومن حاول الوقوف على حقيقة مسألة من مسائل فإنه حال تفكّره فيها لابد وأن يفرغ خاطره عما عداه فإنّه عند تفريغ الخاطر يتوجه الخاطر بكلّيته إليه، فيكون الفعل أسهل وأحسن، وإذا كان كذلك، فإذا كان الإنسان مشغول الهم والهمة بقضاء اللذات وتحصيل الشهوات كانت القوة النفسانية مشغولة بها مستغرقة فيها، فلا يكون انجذابها إلى تحصيل الفعل الغريب الذي يحاوله انجذاباً قوياً، لا سيما وهنا آفة أخرى، وهي أنّه مثل هذه النفس اعتادت الاستغال باللذات من أول أمرها إلى آخره ولم تشتغل قط باستحداث هذه الأفعال الغريبة، فهي بالطبع حنون إلى الأول عزوف للثاني، فإذا وجدت مطلوبها من النمط الأول فأنّى تلتفت إلى الجانب الآخر؟ فقد ظهر من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتّى إلاّ مع التجرد عن الأحوال الجسمانية وترك مخالطة الخلق والإقبال بالكلية على عالم الصفاء والأرواح وأمّا الرقى فإن كانت معلومة فالأمر فيها ظاهر، لأن الغرض منها أن حس البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة لذلك الغرض فحس السمع نشغله أيضاً بالأمور المناسبة لذلك الغرض، فإن الحواس متى تطابقت نحو التوجه إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه حينئذ أقوى.

وأمّا إذا كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ويحصل للنفس في أثناء ذلك انقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل وجدّ عظيم، فيقوى التأثير النفساني، فيحصل الغرض، وهكذا القول في الدخن، قالوا: فقد ثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مستقل بالتأثير، فإن انضم إليه النوع الأول من السحر هو الاستعانة بالكواكب وتأثيراتها عظم التأثير. بل ههنا نوعان آخران:

الأول: أن النفوس التي فارقت الأبدان قد يكون فيها ما هو شديد المشابهة لهذه النفس في قوتها وفي تأثيراتها، فإذا صارت هذه النفوس صافية لم يبعد أن ينجذب إليها ما تشابهها من النفوس المفارقة، ويحصل لتلك النفوس نوع ما من التعلق بهذا البدن فتعاضد النفوس الكثيرة على ذلك الفعل، وإذا كملت القوة تزايدت قوى التأثير.

الثاني: أن هذه النفوس الناطقة إذا صارت صافية عن الكدورات البدنية صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية والنفوس الفلكية، فتتقوى هذه النفوس بأنوار تلك الأرواح، فتقوى على أمور غريبة خارقة للعادة، فهذا شرح سحر أصحاب الأوهام والرقى»[1].

وهذا النوع من السحر الذي يدخل في إطار علم النفس حيث بات معروفاً على نطاق واسع قدرة بعض الأشخاص على إحداث تأثيرات في الآخرين بواسطة التنويم المغناطيسي وهي ليست سوى الاستفادة من الإيحاء الذي يستطيع ضخه بقوة إلى أصحاب الشخصيّات الأضعف أو المرضى.

كما أنّه تم اكتشاف وجود قدرات كبيرة في النفس الإنسانية وعرفت عموماً بالظواهر البارسايكولوجية، وهي قوى حقيقية يستطيع الاستفادة منها من يمتلكها ويعرف كيف يتصرف بها، خصوصاً أنّ هناك أبحاث منظمة متواصلة تهدف للتوصل إلى حقيقة هذه القوى وحدودها ومستوى تأثيرها والفرز بينها وبين التوهمات التي ليس لها أساس من الواقع.

وطبعاً هذه القوى صارت في الآونة الأخيرة تبحث بحثاً علمياً وبالتالي فإنّها لم تعد في شعب السحر كالسابق.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٨٨ - ٣٩٢.

«إن تأريخ القوى النفسية الخارقة طويل جداً. وقد اعتراها على توالي الأحقاب شتى الملابسات والمضاعفات، والمشكلة الأساسية في تاريخ هذه القوى آتية من كونها قد استخدمت في مختلف الأزمان والأماكن من قبل السحرة والكهان واختلطت من جراء ذلك بكثير من التدجيل والشعوذة»[١].

وهي لا تختلف عن الملاكات الأخرى التي استخدمت استخداماً سيئاً بحيث تصبح جزءاً من أجزاء السحر والشعوذة، وبالتالي وضعت في نفس الزاوية التي وضع فيها السحر عندما بدأت النهضة العلمية في القرون الوسطى واتخذ منها موقف النفي والإنكار بناءً على ما ساد في تلك القرون من رفض كل ما هو غير محسوس وغير تجريبي.

غير أن التقدم العلمي نفسه عاد ليلقي ضوءاً جديداً على هذه القوى وبدأ بحثها «بشكله التجريبي الراهن حوالي سنة ١٩٣٠. ففي هذه السنة التي يمكن اعتبارها نقطة تحول في تأريخ البشر أسّست جامعة (ديوك) في أمريكا فرعاً خاصاً لدراسة هذه القوى دراسة مختبرية تحت إشراف البروفسور (راين) وقد ألّف (راين) عدة كتب لخّص فيها نتائج بحوثه حيث أثار بذلك ضجة كبرى في الأوساط العلمية».

«وقد أخذت الضجة ضدّه تخفت أخيراً... وبدأ العلماء ينظرون إليه نظرة جدية بعد أن لمسوا نتائجه التجريبية التي تكاد لا تقبل الشك»[٢].

ومن هذه البداية انطلق البحث ليصل إلى معرفة الكثير من أبعاد القوى النفسية فـ«التجارب المختبرية التي أجراها (راين) وغيره على مئات الألوف من الأفراد دلت على أن كل فرد يملك في أعماق نفسه انبثاقات نفاذة مبدعة»[٣].

---

(١) خوارق اللا شعور أو أسرار الشخصية الناجحة: ٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٧.

(٣) المصدر نفسه: ٣١.

«وقد توصلت جمعيات المباحث النفسية في بريطانيا وغيرها إلى أن لدى الإنسان ملكات نفسية خارقة أهمهما ثلاث وهي: تناقل الأفكار ـ ورؤية الأشياء من وراء حواجز ـ والتنبؤ»[1].

وهذه الملكات طبعاً موجودة لدى جميع البشر لكنها تختفي بسبب الإهمال وعدم الاعتناء وتظهر في حالات أخرى، وقد سمى الدكتور (ميلان ريزل) القوة التي تقف وراء هذه الظواهر بقوة الإدراك الحسي الفائق وقال: «إن كل فرد منا يتمتع بتلك الموهبة»[2] ولكنها تحتاج إلى ظروف خاصة لكي تظهر وتبرز إذ يمكن «مقارنة موهبة الإدراك الحسي الفائق الدفينة بموهبة مقدرة الطفل المولود حديثاً على تعلم القراءة والكتابة عند توفر الظروف المناسبة». فإنها تظهر إذا توفرت هذه الظروف لكن الطفل سوف يظل أمياً إذا لم يحصل على التدريب المناسب سواء كان تدريباً منظماً أو فطرياً.

«ويمكن إجمال عدد من الإحساسات التي نستطيع تنميتها بحذاقة ولطافة، بالدرجة الأولى، من الحواس السبع المتممة للحواس الخمس، والتي يمكن أن نجد ما يفيدنا عنها في كتابات (رودلف ستاينر) وتتمثل هذه الإحساسات السبع في:

١ ـ الإحساس بالتوازن.

٢ ـ الإحساس بالحركة.

٣ ـ الإحساس بالحياة.

٤ ـ الإحساس بالحرارة.

٥ ـ الإحساس بالنطق.

٦ ـ الإحساس بالفكر.

---

(١) خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة: ١٤٥.

(٢) تدريب الإدراك الحسي الفائق: ١٠.

٧ ـ الإحساس بالأنا والآخر.

وإلى ما بعد هذه الإحساسات النفسانية توجد ظواهر أخرى فوق نفسانية نذكر منها:

١ ـ الإحساس بالاتجاه: إحساس لم يطوره جميع الناس.

٢ ـ الإحساس بالصعوبات: هناك خلائق عمياء، تمتلك نوعاً من الرادار يعلمها عن وقوع أو وجود صعوبة قبل أن تكون قد لمستها أو أحست بها.

٣ ـ إحساس الإيحاء الذاتي: هو القدرة على وصف خلل عضوي أو غيره.

٤ ـ إحساس تقبل الإشعاعات الكهربية: هو إحساس يسمح بتحقيق وتطبيق عمليات حساسية ـ واكتشاف خلل في ميزان حسابي وأمور أخرى.

٥ ـ إحساس المعايير النفسية: يعني البيئة الفكرية والنفسية التي تحدث فيها أحداث مأساوية أو سعيدة.

٦ ـ صفاء الرؤية: رؤية سريعة عابرة، هي إدراك حالة وجدانية لدى شخص آخر.

٧ ـ السماع الفوقي: هو الشعور بصوت داخلي، كما كانت حالة سقراط.

٨ ـ التخاطر وانتقال الأفكار: هو اتصال أو هو تزامن المشاعر والأفكار بين شخصين.

٩ ـ الإخطار: هو تنبيه، أو إلهام لظاهرة بعيدة.

١٠ ـ الإخطار المسبق: هو نوع من التخاطر المسبق وهو اتصال، وهو إحساس يسبق دافعه ويعلم عنه مسبقاً.

١١ ـ التلستزي هو نوع من التخاطر، يحدث بين شخصين يتبادلان أفكارهما على نحو دائم ومتبادل دوري.

١٢ ـ التلكنزي: هو إمكان تحريك الأشياء، أو تحويلها أو نقلها عن بعد دون لمسها أو دفعها.

١٣ ـ السيكوسنيزي: ينتج هذا التحريك عن تأثير مباشر لقوة الفكر ودون تدخل لأية قوة أخرى.

١٤ ـ إحساس الانتباه اللاعقلي: لا يرتبط هذا الانتباه بقشرة الدماغ بل بانتباهنا إلى حياتنا الداخلية اللطيفة هذا هو الإحساس بالحياة.

١٥ ـ إحساس الانتباه الهامشي: هو الشعور بأن شخصاً ما يراقبنا.

١٦ ـ الإحساس بالضمير: هو إحساس ضمن نطاق التكون المستقيم.

١٧ ـ إحساس العدالة: هو إحساس فوق طبيعي منحته الطبيعة للإنسان. ولما كنا لا نستطيع أن نلاحظ أن العدالة غير موجودة في الطبيعة، من حولنا أو بين الحيوانات والنباتات. فإننا نعلم أن العدالة تلعب دور العلاقة بين القوى، ففي كل مكان نجد مستويات أو اتفاقات بين القوى المتعارضة، وبهذا الصدد، نرى يقينية هذا الإحساس عند كل إنسان، وخاصة عند الطفل وقد جُرح إحساسه أو صدم، يصرخ قائلاً: ليس هذا عدلاً. ولا شك أن الإحساس بالعدالة كشف للضمير أو ظهور له، وهو بالتالي ظاهرة فوق نفسانية»[1].

---

(١) مجلة المعرفة، ما بعد الباراسيكولوجي: ٢٦ ـ ٢٨.

النوع الثالث:

الاستعانة بالأرواح الأرضيّة

«واعلم أن القول بالجنّ مما أنكره بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة أمّا أكابر الفلاسفة فإنّهم ما أنكروا القول به، إلاّ أنّهم سمّوها بالأرواح الأرضية، وهي في أنفسها مختلفة، منها خيّرة ومنها شريرة، فالخيّرة منهم الجن والشريرة هم كفّار الجنّ وشياطينهم، ثم قال: خلق منهم هذه الأرواح جواهر قائمة بأنفسها لا متحيّزة ولا حالّة في المتحيّز، وهي قادرة عالمة مدركة للجزئيات واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتّصالها بالأرواح السماوية، إلاّ أنّ القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوّة الحاصلة لها بسبب اتّصالها بتلك الأرواح السّماوية، أمّا أن الاتّصال أسهل فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضيّة أرسل، فإن المشابهة والمشاكلة بينها أتمّ من المشاكلة بين نفوسنا وبين الأرواح السماويّة، وإمّا أن القوّة الحاصلة بسبب الاتّصال بالأرواح السماوية أقوى فلأن الأرواح السماوية بالنسبة إلى الأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة والبحر بالنسبة إلى القطرة والسلطان بالنسبة إلى الرعيّة قالوا: وهذه الأشياء وإن لم يقم على وجودها برهان قاهر فلا أقلّ من الاحتمال والإمكان، ثم أن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضيّة يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، فهذا النوع المسمّى بالعزائم وعمل تسخير الجنّ»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٢ - ٢٩٣.

إن هذا النوع من السحر هو الأكثر شيوعاً لأن الاتّصال مع الأرواح الأرضية أكده القرآن وادّعاه أغلب الممارسون، وبالنسبة للعلوم العصرية فقد أكدته حيث تم الاتصال بهذه الأرواح لكن يشير البعض إلى أن هذه الأرواح هي أرواح الموتى، وبالتالي فإن الصورة الموضوعية والتي أكّدتها التجارب لا تستطيع تأكيد أن الاتصال كان مع الجن أو مع أرواح الموتى «ففي الثلاثينات من هذا القرن التقارير العسكرية الاسكندنافية تتكلم عن رسائل صوتية لم تعرف مصدرها في عام ١٩٤٧.

كان يعمل أتيلافون في تسجيل الديسكات حيث سمع أصواتاً غريبة غير مفهومة في تسجيلاته ـ وفي عام ١٩٥٠ تلقى جون أوتو ـ مهندس إذاعي ـ أصواتاً بلغات متعددة لم يعرف مصدرها. لكن الحالة الأولى التي تم فيها تسجيل أصوات الأموات في العالم كان في مختبر الفيزياء التجريبية في الجامعة الكاثوليكية في ميلانو في إيطاليا عام ١٩٥٢ من قبل رجلي دين هما: الأب الوستينوجيميلي ـ فيزيائي معروف ـ مؤسس هذه الجامعة ورئيس الأكاديمية الرسولية، والأب بيليكارينو ارنيتي ـ فيزيائي هو أيضاً»[١].

وهذه الاتصالات ليست مقصورة على هذا العصر فإن الثقافات القديمة أكدتها ولكن أحداً لا يستطيع أن يحزم أن ما يقع هل هو من فعل الجن مع ادّعاء أنّهم أرواح الموتى أم أن هذه الاتصالات هي فعلاً مع أرواح الموتى أم أن الاثنين يتم الاتصال بهما معاً؟ وهناك أكثر من طريقة بالطبع وأحد أهمها وأقدمها هي طريقة الوسطاء وهم نوع خاص من البشر تستخدم الروح أصواتهم للاتّصال بالأحياء.

---

(١) الاتّصال المباشر مع الآخرة: ١٠.

كما أنّه من الشائع الاستعانة بالجن في كتب السحر عن طريق استدعائهم بواسطة الأذكار الخاصة، وهناك مصنّفات كثيرة لأرباب الصنعة بهذا الخصوص ولا شك بأن هناك بعض الآثار لهذا التعاون لكنه لا يخلوا من الكذب والادّعاء بما لا يستطيعه هؤلاء، ذلك أن الجن مخلوقات مثل البشر محدودة القدرة وأنّها لا تستطيع أن تفعل بعض الأشياء فإنّها تتوسل إليه بواسطة الأسباب الطبيعية التي قد تكون خافية على بني البشر.

فإذا أخذنا مثلاً كتاباً من كتب السحر ومثاله «شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى» تأليف ابن الحاج التلمساني سنة ٧٣٧ فإننا نلاحظ مزج الأدعية، بالطب وبالأبراج بالإضافة إلى الاستعانة بالجن أو الاستعانة بأسماء الله والأوراد والأذكار، وهذا يعني وجود أكثر من عنصر، فهناك خصائص المواد والأعشاب التي يستفاد منها في خلق تأثيرات طبيعية، وهناك أيضاً أدعية كما في بعض الأحيان هناك الأوراد التي من المعروف أن لها آثاراً كما مرّ، فإن الانقطاع يؤدي إلى انطلاق طاقات النفس الإنسانية وربما يؤدي في بعض الأحيان إلى حصول المراد منها. ولعلنا نرى أن هناك فضلاً في خصائص الحروف وهو شبيه بما ورد عن خصائص الأرقام، ولعله هو نفسه لأن كل حرف معادل لرقم معين، وأغلب الذين يريدون استخراج البروج يتعاملون مع الحروف بعد أن يرجعونها إلى الأرقام المقابلة لها، ولحد الآن لم تأت أدلة علمية على وجود آثار خاصة لهذه الحروف وإذا أخذنا ما ورد إزاء الحرف أ وهو ما يلي:

«حرف الألف صورته (ا ، ا) من كتبه والقمر قد بات في منزله النطح في كفه الأيمن بما ورد ومسك ألف مرة ويده مقابلة تلك المنزلة والبخور صاعد وهو العنبر ثم يذكر ذلك العدد المرقوم، فإذا كمل ذلك العدد ينظر

إلى تلك المنزلة ويقول القسم الذي يجري على الحروف الثمانية والعشرين وهو كمال أسرارها وبه قوام نتاج الأفعال، وهو هذا: أيّها الروحاني الموكل بحرف كذا سألتك بالذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركّبك... الخ».

فهنا إشارة إلى افتراض وجود روح موكل بكل حرف وأن الآثار عائدة لذلك الروح وهكذا يكون مآل التأثيرات إلى أنواع الأرواح التي هي القوى الحقيقية الفاعلة في الطبيعة والأشياء، ولكن من غير الواضح أن هذه الأرواح هل هي الكواكب أم هي الجان؟ ولكن في النهاية يتأكد عدم وجود قوى ذاتية للحروف وهناك أيضاً خصائص الآيات وخصائص الأسماء الحسنى، وهذا طبعاً له جذور في الروايات الواردة عن أهل البيت ﷺ ولكن هؤلاء مزجوه مع أعمال السحر وبالتالي فإن هذا ليس منه طبعاً بل هو من الاستعانة المشروعة حتى لو أدخل عليه بعض التحريف.

وبالنسبة للجن فقد أشار المؤلف إلى استعانته بالجن بعد اطلاعه على الأسماء التي يخضعون لها وأعلمه بعض أسرار الأمراض والسبل الكفيلة بعلاجها لأنّ منشأها عن صرع الجن لبعض النساء والرجال والأطفال.

النوع الرابع:

التخيّلات والأخذ بالعيون

«فهذا النوع مبني على مقدمات أولها: إنَّ أغلاط البصر كثيرة، فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركاً، وذلك يدل على أنَّ الساكن يرى متحركاً والمتحرك يرى ساكناً، والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً، والزبالة التي تدار بسرعة ترى دائرة، والقبة ترى في الماء كالإجاصة، والشخص الصغير يرى في الضباب عظيماً، وكبخار الأرض الذي يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيماً، فإذا فارقته وارتفعت صغرت، وأما رؤية العظيم من البعيد صغيراً فظاهر، فهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أنَّ القوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه في الجملة لبعض الأسباب العارضة.

وثانيها: أن القوة الباصرة إنَّما تقف على المحسوس وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان له مقدار، فأمَّا إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً ثم أدركت بعده محسوساً آخر وهكذا فإنَّه يختلط البعض بالبعض، ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض، ولذلك فإن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارت فإن الحس يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان.

وثالثها: أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربَّما حضر عند الحس شيء آخر فلا يشعر الحس به البتة، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد

يلقاه إنسان ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه، لما أن قلبه مشغول بشيء آخر، وكذا الناظر في المرآة فإنّه ربما قصد أن يرى قذاة في عينه فيراها ولا يرى ما هو أكثر منها إن كان بوجهه أثر أو بجبهته أو بسائر أعضائه التي تقابل المرآة، وربما قصد أن يرى سطح المرآة هل هو مستو أم لا فلا يرى شيئاً مما في المرآة.

إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر، وذلك لأن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به و يأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفز عنهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفيّاً لتفاوت الشيئين أحدهما اشتغالهم بالأمر الأول، والثاني سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنّه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله، فهذا هو المراد من قولهم إن المشعبذ يأخذ بالعيون لأنّه بالحقيقة يأخذ بالعيون إلى غير الجهة التي يحتال. وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى كان أحذق في عمله، وكلما كانت الأحوال التي تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد، كان هذا العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جداً، فإن الضوء الشديد يفيد البصر كلالاً واختلالاً، وكذا الظلمة الشديدة، وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالاً واختلالاً، والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها فهذا مجامع القول في هذا النوع من السحر»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٣ ـ ٢٩٥.

وهذا النوع تحول إلى تسلية شائعة في المحافل وفي الأعياد حيث يعتمد على عناصر لخداع البصر منها سرعة الحركة وتشتيت الانتباه، وهناك أيضاً كتب ألّفت في هذا المجال شرحت كيفية إحداث هذه العمليات التي صارت للتسلية المحضة وخرجت عن الطبيعة السابقة لها لكنه مختلف الدرجات، فهناك الحالات العظيمة التي وصفها القرآن في حادثة يوم الزينة التي وقعت في زمان موسى عليه السلام إذ شاهد عشرات الناس الحبال والعصي على أنّها أفاعي تتحرك وانطلت الحيلة عليهم ولذلك قال الله: ﴿**وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾[1] كما أن هناك خدعاً بسيطة مثل إخفاء ورقة أو كرة في مكان ثم إخراجها من مكان آخر، وما إلى ذلك من الأشكال التي باتت معروفة ومشهورة في هذا الزمان.

---

(١) سورة الأعراف: ١١٦.

النوع الخامس:

«الأعمال العجيبة التي تطرأ من تركيب الآلات المركّبة على النسب الهندسيّة تارة وعلى ضرب الخيلاء أخرى مثل فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر وكفارس على فرس في يده بوق كلّما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد، ومنها الصور التي تصوّرها الروم وأهل الهند حتّى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان حتّى يصوّرونها ضاحكة وباكية، وحتّى يفرق فيها بين ضحك السرور وضحك الخجل وضحك الشامت، فهذه الوجوه من لطيف أمور التخائيل، وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ويندرج في هذا الباب علم جرّ الأثقال، وهو أن يجرّ ثقيلاً عظيماً بآلة خفيفة وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعدّ من باب السحر، لأنّ لها أسباباً معلومة تعينيّة من اطلّع عليها قدر عليها، إلاّ أنّ الاطلاع عليها لّما كان عسراً شديداً لا يصل إليه إلاّ الفرد بعد الفرد لا جرم عدّ أهل الظاهر ذلك من باب السحر. «من هذا الباب عمل «ارجعانوس» الموسيقات في هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إيّاه. وذلك أنّه اتّفق له أن كان مجتازاً بفلاة من الأرض، فوجد فيها فرخاً من فراخ البراصل ـ والبراصل هو طائر عطوف ـ فكان يصفر صفيراً حزيناً بخلاف صفير سائر البراصل، فكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون ـ فتطرحها عنده، فيأكل بعضها ويفضل بعضها عن حاجته، فوقف هذا الموسيقات هناك وتأمل هذا الفرخ وعلم أن في صفيره المخالف لصفير البراصل ضرباً من التوجّع والاستعطاف حتى رقت له الطيور وجاءته بما يأكله، فتلطّف لعمل آلة تشبه الصفارة إذا استقبل الريح بها أدت ذلك الصفير، ولم يزل يجرب ذلك حتى

وثق بها وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجيء إلى ذلك الفرخ، لأنّها تظن أن هناك فرخاً من جنسها، فلما صح له ما أراد أظهر النسك وعمد إلى هيكل أورشليم، وسأل عن الليلة التي دفن فيها «اسطرحن» الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل، فأخبر أنه دفن في أول ليلة من آب، فأخذ صورة من زجاج مجوف على هيئة البرصلة، ونصبها فوق ذلك الهيكل، وجعل فوق تلك الصورة قبة، وأمرهم بفتحها في أول آب، فكان يظهر صوت البرصلة بسبب نفوذ الريح في تلك الصورة، وكانت البراصل تجيء بالزيتون حتى كانت تمتلئ القبة كل يوم من ذلك الزيتون، والناس اعتقدوا أنّه من كرامات ذلك المدفون، ويدخل في هذا الباب أنواع كثيرة لا يليق شرحها في هذا الموضع»[1].

أمّا هذا النوع من السحر فقد بات معروفاً لدى الناس لأنّه يعتمد على قوانين علمية وعلى مهارات خاصّة قد تكون غير معروفة لدى جميع الناس ولعلّنا نرى بعض الكتب التي ألفت في هذا المجال من قبيل كتب الفيزياء المسلّية أو الاستفادة من القوانين من قبيل البكرات أو الانعكاسات الضوئية وما إلى ذلك مما أصبح معروفاً، وهو طبعاً لا علاقة له بالسحر إلاّ من باب اللفظة لأنّ أسبابه غير معروفة وشائعة وهو في الحقيقة عبارة عن الاطلاع على بعض القوانين الطبيعية في مجال الكيمياء أو الفيزياء أو الهندسة أو الأحياء والاستفادة منها بصورة الصور، ولعلّها في ذلك الزمن استفيد منها للدجل والاستفادة من سذاجة أبناء ذلك العصر وإيقاع الوهم في نفوسهم، ولذلك عدت من السحر لكنّها لا علاقة لها به إلاّ من هذه الجهة وهو طبعاً يشمل أغلب أنواع السحر حيث يتم الانتفاع من بعض الحقائق انتفاعاً غير سليم.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٥ - ٢٩٦.

النوع السادس:

«النوع السادس من السّحر: الاستعانة بخواص الأدوية من أن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل، والدخن المكسرة نحو دماغ الحمار إذا تناوله الإنسان تبلد عقله وقلت فطنته، واعلم أنّه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد إلاّ أن الناس قد أكثروا فيه، وخلطوا الصدق بالكذب، والباطل بالحق»[١].

ومن الواضح أن هذا النوع صار يشكّل جزءاً مما يمارسه عالم الصيدلة الذي يدرس خواص المواد وتأثيرها على الإنسان سواء كان إيجابياً أو سلبياً وبالتالي فإنّها خرجت نهائياً عن دائرة السحر وباتت ضمن دوائر العلم.

«ولعل المثال في هذا المجال هو التعويذ ضد الدودة التي كان الآشوريون في تاريخ ألف قبل الميلاد يرون فيها سبب الألم في الأسنان. كان أسلافنا متشوقين إلى فهم العالم ولكنهم لم يعثروا على الطريقة وتخيّلوه عالماً صغيراً ومنسقاً تتآلف القوى القاهرة فيه من آلهة مثل آنوويا وشاماش»[٢].

ولقد كانت بعض هذه الآلهة من الكواكب هي المسؤولة عن حياة البشر وهي التي تتصرف، ولهذا فإنَّ علماً نشأ عن المقارنة بين حركة هذه الكواكب وبين طبائع الإنسان وإحداث حياة وبين تواجد هذه الكواكب في الأفلاك.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٦.

(٢) الكون: ١١ - ١٢.

ومن الواضح أن الإسلام حارب جميع أنواع هذه الخرافات وقدم صورة موضوعية للفضاء الخارجي بل هو نفى وجود أي سلطة على حياة الإنسان باستثناء سلطة الله تعالى، ولعل في توبيخ الإمام علي(عليه السلام) للرجل الذي حاول أن يحدد للإمام الساعة الملائمة لخروجه إلى أحد المعارك دليل على عدم اعتراف الإسلام بهذا اللون من التفكير.

وقد جاءت علوم الفضاء المعاصرة لتلقي ضوءاً على طبيعة الكواكب خصوصاً تلك الكواكب التي كانت مرصودة وتنسب إليها التأثيرات.

النوع السابع:

«النوع السابع من السّحر: تعليق القلب. وهو أن يدعى الساحر أنّه قد عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التميز اعتقد أنّه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل حينئذ ما شاء، وإن من جرّب الأمور وعرف أحوال العالم علم أن لتعلق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٧.

النوع الثامن:

السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيّة لطيفة وذلك شائع في الناس.

فهذا جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه والله أعلم[1].

وما سبق ذكره من النوعين مما لا يحتاجان إلى تعليق وقد مرّ بحث النوع السابع في المباحث السابقة وأن هذا الادّعاء يقوم على ما لا يمكن إتيانه.

والنوع الثامن فإنّه ممكن لكن من يريد الإيقاع بين الناس ويمارس في ذلك بعض الحذق من الدس.

وبناءً على ما تقدم فإن مفهوم السحر قد تغيّر بالنسبة لعصرنا الحاضر، إذ خرجت من تحت دائرته الكثير من الأبعاد المذكورة ودخلت تحت دائرة العلوم، فضلاً عن انهيار أكبر وأهم أنواعه وهي المتعلقة بالأجرام وحركتها والأفلاك حيث انهار مفهوم حيوية الطبيعة والتي تقول بأن الأجرام هي أرواح مدبّرة للعالم وأنّها حيّة ومؤثرة في السعادة والتعاسة، نعم لقد اكتشف لبعضها تأثير ولكن في الطبيعة كانتظام الفصول وأن حركتها إذا خرجت عن النظام المألوف فإنّها ستقود إلى كوارث.

فالأنواع التي دخلت تحت موضوع الكيمياء خرجت من السحر، وكذلك التي تتعلق بخصائص الأطعمة والأدوية والمواد المقوية التي صارت تحت علم الصيدلة والطب وعلم الكيمياء العضوية. وكما خرج بعضها ليدخل تحت علم النفس والظواهر النفسية وهكذا صار السحر بالمصطلح الحديث يضم ألعاب

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٧.

الخفة التي تمارس وبعض الحيل والاستفادة من القوى والملكات النفسية التي ذكرت تحت صنف قوة النفس.

ومن ذلك فإن موجة معاصرة من العلوم التي تحاول كذلك إدخال هذه الظواهر الخارقة ضمن دائرة العلوم ويتم دارستها على أنّها أسباب ونتائج لأسباب معلومة وهي ظواهر التلباثي.

كما انفصل ذلك عن بعض الملكات الطبيعية التي تعرف «بظواهر الإدراك الخارق» حيث يتم التنبؤ ببعض الأحداث.

أقوال المسلمين في السّحر

المسألة الأولى:

هل هذه الأنواع ممكنة أم لا؟

أمّا المعتزلة فقد اتّفقوا على إنكارها إلاّ النوع المنسوب إلى التخيل والمنسوب إلى إطعام بعض الأدوية المبلدة والمنسوب إلى التضريب والنميمة، فأمّا الأقسام الخمسة الأولى فقد أنكروها، ولعلهم كفّروا من قال بها وجوز وجودها. وأمّا أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً، إلاّ أنّهم قالوا: إن الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء عندما يقرأ الساحر رقى مخصوصة وكلمات معينة، فأمّا أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا وأمّا الفلاسفة والمنجمون والصابئة فقولهم على ما سلف تقديره.

واحتج أصحابنا على فساد قول الصابئة أنّه قد ثبت أن العالم محدث فوجب أن يكون موجوده قادراً، فإن الشيء الذي حكم العقل بأنّه مقدوره إنّما يصح أن يكون مقدوراً له لكونه ممكناً، والإمكان قدر مشترك بين كل الممكنات، فإذن كل الممكنات مقدور لله، ولو وجد شيء من تلك المقدورات

بسبب آخر يلزم أن يكون ذلك السبب مزيلاً لتعلق قدرة الله تعالى بذلك المقدور، فيكون الحادث سبباً لعجز الله، وهو محال، فثبت أنّه يستحيل وقوع شيء من الممكنات إلاّ بقدرة الله، وعنده يبطل كل ما قاله الصابئة قالوا: إذا ثبت هذا النوع فندعي أنه لا يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة، فقد احتجوا على وقوع هذا النوع من السحر بالقرآن والخبر. أمّا القرآن فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ *وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله* ﴾[1] والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه. وأمّا الأخبار فأحدها ما روي أنّه ﷺ سحر، وأن السحر عمل فيه حتى قال: إنه ليخيل إليّ أني أقول الشيء وأفعله ولم أقله ولم أفعله، وإن امرأة يهودية سحرته وجعلت ذلك السحر تحت راعوفة البئر، فلمّا استخرج ذلك زال عن النبي ﷺ ذلك العارض ونزلت المعوذتان بسببه.

وثانيها: أن امرأة أتت عائشة فقالت لها: إني ساحرة، فهل لي من توبة؟ فقالت: وما سحرك؟ فقالت: صرت إلى الموضع الذي فيه هاروت وماروت ببابل أتعلم علم السحر فقالا لي: يا أمة الله! لا تختاري عذاب الآخرة بأمر الدنيا فأبيت، فقالا لي: اذهبي فبولي على ذلك الرماد، فذهبت لأبول عليه ففكرت في نفسي فقلت: لا فعلت، وجئت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا لي: ما رأيت لما فعلت، فقلت: ما رأيت شيئاً، فقالا لي: أنت على رأس أمرك فاتقي الله ولا تفعلي، فأبيت، فقالا لي: اذهبي فافعلي، فذهبت وفعلت، فرأيت: كأن فارساً مقنعاً بالحديد قد خرج من فرجي، فصعد إلى السماء، فجئتهما فأخبرتهما فقالا: إيمانك قد خرج عنك، فقد أحسنت السحر، فقلت:

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

و ما هو؟ قالا: لا تريدين شيئاً فتصورينه في وهمك إلاّ كان، فصورت في نفسي حباً من حنطة، فإذا أنا بحب، فقلت: انزرع، فانزرع، فخرج من ساعته سنبلاً، فقلت: انطحن، فانطحن، فقلت: انخبز فانخبز، وأنا لا أريد شيئاً أصوره في نفسي إلاّ حصل، فقالت عائشة: ليست لك توبة.

وثالثها: ما يذكرونه من الحكايات الكثيرة في هذا الباب، وهي مشهورة أما المعتزلة فقد احتجوا على إنكاره بوجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿ *ولا يفلح الساحر حيث أتى* ﴾[1] وثانيها: قوله تعالى في صفة محمد ﷺ ﴿ *وقال الظالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً* ﴾[2] ولو صار ﷺ مسحوراً لما استحقوا الذم بسبب هذا القول. وثالثها: أنّه لو جاز ذلك من الساحر فكيف يتميز المعجز من السحر؟ ثم قالوا: هذه الدلائل يقينية، والأخبار التي ذكرتموها من باب الآحاد، فلا تصل معارضة لهذه الدلائل[3].

المسألة الثانية:

العلم بالسّحر ليس قبيح ولا محظور

اتّفق المحققون على ذلك، لأن العلم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿ *هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون* ﴾[4] ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز والعلم بكون المعجز معجزاً واجب، وما يتوقف

---

(١) سورة طه: ٦٩.

(٢) سورة الفرقان: ٨.

(٣) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٧ - ٢٩٩.

(٤) سورة الزمر: ٩.

الواجب عليه فهو واجب، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً كيف يصير حراماً وقبيحاً[1].

المسألة الثالثة:

هل يكفر السّاحر أم لا؟

اختلف الفقهاء في أن الساحر هل يكفر أم لا؟ روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقهما بقول فقد كفر بما أنزل على محمد.

واعلم أنّه لا نزاع بين الأمة في أن من اعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم، وهي الخالقة لما فيه من الحوادث (والخيرات) والشرور فإنّه يكون كافراً على الإطلاق، وهذا هو النوع الأول من السحر، وأمّا النوع الثاني: وهو أن يعتقد أنّه قد يبلغ روح الإنسان في التصفية والقوة إلى حيث يقدر بها على إيجاد الأجسام والحياة والقدرة وتغيير البنية والشكل فالأظهر إجماع الأمة أيضاً على تكفيره، أمّا النوع الثالث: وهو أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ في التصفية وقراءة الرقي وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى في عقب أفعاله على سبيل العادة الأجسام والحياة والقدرة وتغيير البنية والشكل، فهنا المعتزلة اتّفقوا على تكفير من يجوّز ذلك، قالوا: لأنّه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف صدق الأنبياء والرسل، وهذا ركيك من القول، فإن لقائل أن يقول: إن الإنسان لو ادّعى النبوة وكان كاذباً في دعواه فإنّه لا يجوز من الله تعالى إظهار هذه الأشياء على يده لئلا يحصل التلبيس، أما إذا لم يدع النبوة

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٩.

وظهرت هذه الأشياء على يده لم يفض ذلك إلى التلبيس، لأن المحق يتميز عن المبطل، بما أن المحق تحصل له هذه الأشياء مع ادّعاء النبوة، وأمّا سائر الأنواع التي عدّدناها من السحر فلا شك أنّه ليس بكفر.

فإن قيل: إن اليهود لما أضافوا السحر إلى سليمان، قال الله تعالى تنزيهاً عنه ﴿**وما كفر سليمان**﴾ وهذا يدل على أن السحر على الإطلاق كفر. وأيضاً قال: ﴿**الشياطين كفروا يعلّمون الناس السّحر**﴾[1] وهذا أيضاً يقتضي أن يكون السحر على الإطلاق كفراً. وحكى عن الملكين أنّهما لا يعلمان أحداً السحر حتى يقولا: إنّما نحن فتنة فلا تكفر، وهو يدل على أن السحر كفر على الإطلاق.

قلنا: حكاية الحال يكفي في صدقها صورة واحدة فنحملها على سحر من يعتقد بإلهيّة النجوم[2].

وعلى هذا فإن السحر سيكون بمعنى الخفاء الذي يقود إلى الضلال والخداع أو الاعتقادات الباطلة وما خرج عنه وتحول إلى حقيقة أخرى علمية فإنّه حينئذ يخرج عن دائرة الحرمة لأنّه عندئذ سيصير معلوماً من حيث الأسباب والنتائج ولا يفضي إلى الضلال، ولعل ما ورد من الآية في إشارة إلى الضرر بجميع أشكاله سواء كان ضرر تخريب العلاقات أم ضرر الإضلال وتخريب المعتقدات ونسبة الفائدة والضرر إلى غير الله هو المحرم وقد تبيّن فيما سبق أقوال المسلمين في القضيّة كما تبين لنا حقيقة السحر من خلال الرؤية العلمية.

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦ / ٢٩٧ ـ ٣٠٠.

وإذا كان الجزء الذي تتعلّق به الحرمة في جميع ما ذكرناه وأنّه محرم بالنسبة للإنسان فإن الملائكة التي تحمل الهدى إلى الناس لا يمكن أن تكون تمارسه خصوصاً أنّه لا يعني سوى الخداع والتضليل لأجل تحقيق منافع اجتماعية أو اقتصادية لطبقة من الناس على حساب الآخرين.

وفي مجموع ما ذكرناه تثبيت عصمة الملائكة وسلامة دورها في إدارة هذا ضمن التوجيهسات الإلهية، لضمان الاستقرار الطبيعي والانتظام في كل المجالات ولمنع الفساد بجميع أشكاله.

الفصل السابع

الإصابة بالعين (الحَسَد)

- معنى الإصابة بالعين
- المعنى اللّغوي
- صحّة الإصابة بالعين
- العين من منظور معاصر

معنى الإصابة بالعين

إن الذين قالوا بصحة الإصابة بالعين، يؤكدون قدرة لدى بعض البشر على إيقاع الضرر بالآخرين، حينما يستحسنون منهم شيئاً، كالمال والولد أو حسن الهيئة.

غير أن هناك من أنكر ذلك، وعلة الإنكار قائمة على أساس أن هذه الظاهرة تجري على غير المألوف والمعتاد عند الناس، من وجود الوسائط بين الحوادث والعلل المادية المعروفة، فإذا وجدنا خشبة مكسورة، فإننا نعلم وجود أداة للكسر وشخص قام بالكسر، وحين لا يكون ذلك، فإننا لا نستطيع القبول بالربط بين الحادثة وشخص بعيد عنها، مثل العاين والشخص المصاب بالعين.

ومن الواضح أن الإنكار يأتي لأن القدرة على الإصابة بالعين، هي من القدرات النادرة التي لا تجدها إلاّ عند بعض الناس، لكن هذا الإنكار يتجاهل إقرار أجيال الإنسان في الحضارات القديمة، بوجود ملكات خاصة عند بعض البشر كالعرافين والكهنة وأهل السحر، الذين لا يستطيع إنسان ما أن ينسب هذا الإيمان الواسع بهم إلى سذاجة الناس فقط، مع أننا نشاهد وجود أشكال راقية من الحضارات ووجود أفراد ذوي ملكات عقلية متقدمة، وبالتالي لا بدّ لنا من الجزم بوجود جانب معين من الصحة، تقف وراء قبول هذه الأعداد الكبيرة من البشر بصحة هذه الظواهر، وعلى أساسها احتل الكهان مواقع متقدمة في مجتمعاتهم، وربما صار بعضهم قادة لتلك المجتمعات أو من المقربين جداً من الملوك والزعماء.

وعليه فإن الموقف الرافض للإيمان بهذه القدرات يستند إلى ندرة هذه القدرات، بالإضافة إلى انطلاق التيار المعاصر الذي يركز على القبول

بالأسباب المادية، لأي ظاهرة لكي تصنف ضمن الحقائق، وإلاّ فإن هذه الظاهرة هي جزء من الأوهام والأساطير.

ولنفس السبب فإن العصر الحاضر أسدل الستار على عدد هائل من الظواهر وقابلها بالإهمال، لأنّها فقط لا تنتمي إلى الظواهر المحسوسة أو التي يمكن تناولها بالطرق المخبرية.

إلاّ أن عدم المعالجة والملاحقة، كان يحتاج إلى ظروف خاصة لمتابعة هذه القدرات النادرة، لم تكن متاحة في تلك الفترة التي كان فيها العلم الحديث يسعى لتثبيت وجوده، والانتقال من أنماط التفكير القديمة إلى النمط المعاصر.

ومن حسن الحظ وقلة الاهتمام لم يقضِ على هذه القدرات، إلاّ أنه نجح فقط في وضعها في زاوية الإهمال والتجاهل، ولم يمض زمن طويل حتى التفت الإنسان إلى هذه الظواهر مرة أخرى، وبدأت ملاحقة جديدة لهذه الظواهر، ولكن تبعاً للسبل المعاصرة وأدوات العلم الحديث انطلقت الأبحاث لتحصي هذه الظواهر والعلل التي تقف وراءها، وهكذا نشأ علم جديد هو علم الباراسايكولوجي.

وبالطبع إن نفس الإصابة بالعين لم يتم بحثها إلاّ في أبحاث نادرة، إلاّ أن الظواهر الأخرى تم بحثها، الأمر الذي يعطي هذه القضية فرص عالية للإثبات بواسطة الطرق العلمية المعاصرة.

ولكي نلقي الضوء على هذه الظاهرة فإننا نحتاج بدءاً إلى الإطلاع على معناها اللغوي.

المعنى اللّغوي

جاء في لسان العرب:

والعين: أن تصيب الإنسان بعين. وعان الرجل يعينه عيناً، فهو عائن، والمصاب معينٌ، على النقص، ومعيون، على التمام، أصابهُ بالعين. قال الزّجاج: المعين المصاب بالعين، والمعيون الذي فيه عين، قال عبّاس بن مرداس:

قد كان قومك يحسبونك سيداً   وأخالُ أنك سيدٌ معيون

وحكي اللحياني: إنك لجميل ولا اعنْكَ ولا أعينُكَ

وفي الحديث: العين حق وإذا استغسلتم فاغسِلوا[1]

وجاء في بحار الأنوار ما يلي:

وقال ابن حجر في «فتح الباري» في العين تقول: عنت الرجل أصبته بعينك، فهو معيون ومعين، ورجل عاين ومعيان وعيون، والعين يضرَ باستحسان مشوب بحسد من حيث الطبع يحصل للمبصور منه ضرر، وقد استشكل ذلك على بعض الناس فقال: كيف يعمل العين من بُعد حتّى يحصل الضرر للمعيون؟ والجواب أنّ طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك من سمّ يصل من عين العاين في الهواء إلى بدن المعيون.

وقد نقل عن بعض من كان معياناً أنّه قال: إذا رأيت شيئاً يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني! ويقرّب ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها في إناء اللبن فيفسد، ولو وضعتها بعد طهرها لم يفسد، وكذا تدخل البستان فتضرَ

---

(١) لسان العرب: ١٣ / ٣٠١/ باب (عين).

بكثير من العروش من غير أن تمسّها. ومن ذلك أنّ الصحيح قد ينظر إلى العين الرمد فيرمد، ويتثاب بحضرته فيتثاب هو، أشار إلى ذلك ابن بطّال.

وقال الخطابيّ: في الحديث أنّ للعين تأثيراً في النفوس، وإبطال قول الطباعيّين أنّه لا شيء إلاّ ما تدركه الحواس الخمس، وما عدا ذلك لا حقيقة له.

وقال المازري: زعم بعض الطباعيّين أنّ العاين تنبعث من عينه قوّة سميّة تتّصل بالمعين فيهلك أو يفسد، وهو كإصابة السم من نظر الأفعى، وأشار إلى معنى الحصر في ذلك مع تجويزه، وأنّ الذي يتمشّى على طريقة أهل السنّة أنّ العين إنّما تضرّ عند نظر العاين بعادة أجراها الله تعالى أن يحدث الضرّ عند مقابلة شخص لآخر وهل ثمّ جواهر خفيّة أو لا؟ هو أمر محتمل لا يقطع بإثباته ولا نفيه.

ومن قال: ممّن ينتمي إلى الإسلام من أصحاب الطبائع بالقطع بأنّ جواهر لطيفة غير مرئيّة تنبعث من العاين، فتتّصل بالمعيون وتتخلّل مسام جسمه فيخلق البارئ الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم، فقد أخطأ بدعوى القطع، ولكنّه جائز أن يكون عادة ليست ضرورة ولا طبيعة انتهى.

وهو كلام سديد، وقد بالغ ابن العربيّ في إنكاره، فقال: ذهبت الفلاسفة إلى أنّ الإصابة بالعين صادرة عن تأثير النفس بقوّتها فيه، فأوّل ما يؤثّر في نفسها ثمّ يؤثّر في غيرها.

وقيل: إنّما هو سمّ في عين العاين يصيبه بلفحه عند التحديث إليه، كما يصيب لفح سمّ الأفعى من يتّصل به.

ثمّ ردّ الأوّل بأنّه لو كان كذلك لما تخلّفت الإصابة في كل حال، والواقع بخلافه، والثاني بأنّ سمّ الأفعى جزء منها، وكلّها قاتل، والعاين ليس يقتل

منه شيء في قولهم إلاّ بصره، وهو معنى خارج عن ذلك. قال: والحقّ أنّ الله يخلق عند بصر العاين إليه وإعجابه به إذا شاء ما شاء من ألم أو هلكة، وقد يصرفه قبل وقوعه بالاستعانة أو بغيرها، وقد يصرفه بعد وقوعه بالرقية أو بالاغتسال أو بغير ذلك ـ انتهى كلامه ـ[1].

وفيه: بعض ما يتعقّب؛ فإنّ الذي مثّل بالأفعى لم يُرد أنّها تلامس المصاب حتّى يتّصل به من سمّها، وإنّما أراد أنّ جنساً من الأفاعي اشتهر أنّها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك العاين، وليس مراد الخطابيّ بالتأثير المعنى الذي تذهب إليه الفلاسفة، بل ما أجرى الله به العادة من حصول الضرر للمعيون، وقد أخرج البزّاز بسند حسن عن جابر رفعه قال: أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس. قال الراوي: يعني بالعين. وقد أجرى الله العادة بوجود كثير من القوى والخواصّ في الأجسام والأرواح، كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل، فترى في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه، وكثير من الناس يسقم بمجرّد النظر إليه ويضعف قواه، وكلّ ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات، ولشدّة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين، وليست هي المؤثّرة، وإنّما التأثير للروح. والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفيّاتها وخواصّها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرّد الرؤية من غير اتّصال به، لشدّة خبث تلك الروح وكيفيّتها الخبيثة.

والحاصل: أن التأثير بإرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصوراً على الاتّصال الجسمانيّ، بل يكون تارة به، وتارة بالمقابلة، وأخرى بمجرّد الرؤية، وأخرى بتوجّه الروح كالذي يحدث من الأدعية والرقى والالتجاء إلى الله

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٢ ـ ٣٤.

تعالى، وتارة يقع ذلك بالتوهّم والتخيّل. والذي يخرج من عين العاين سهم معنوي إن صادف بدناً لا وقاية له أثر فيه، وإلاّ لم ينفذ السهم بل ربّما ردّ على صاحبه كالسهم الحسّي سواءً[1].

ومن خلال ما مرّ نفهم معنى الإصابة بالعين، وأنّها مما ينسب إلى تأثيرات الأرواح والنفوس التي لا مجال إلى إنكار تبادل تأثير أحدها بالأخرى، كما في الأمثلة التي مرّت والأفاعي التي تنظر إلى الفريسة، فتنوّمها مغناطيسياً ثم تقدم على لسعها وافتراسها.

وعند الأقدمون وجد المنكرون أيضاً، ولذلك فإن أبحاثاً عقدت لإثبات صحة أثر العين.

صحّة الإصابة بالعين

وجاء حول صحّة تأثير العين ما ذهب إليه المفسّرون من تفسير جملة آيات منها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿*لا تدخلوا من باب واحد*﴾[2] خاف عليهم العين، لأنّهم كانوا ذوي جمال، وهيئة وكمال، وهم إخوة، أولاد رجل واحد، عن ابن عبّاس والحسن وقتادة والضحّاك والسدّي وأبو مسلم، وقيل: خاف عليهم حسد الناس إيّاهم، وأن يبلغ المَلِك قوّتهم وبطشهم، فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه، عن الجبائيّ، وأنكر العين وذكر أنّه لم يثبت بحجّة، وجوّزه كثير من المحقّقين، ورووا فيه الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ العين حقّ تستنزل الحالق» والحالق المكان المرتفع من الجبل وغيره، فجعل صلى الله عليه وآله العين كأنّها تحطّ ذروة

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٤.

(٢) سورة يوسف: ٦٧.

الجبل، من قوّة أخذها، وشدّة بطشها، وورد في الخبر أنه عليه السلام كان يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بأن يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة» وروي أنّ إبراهيم عليه السلام عوّذ ابنيه، وأنّ موسى عليه السلام عوّذ ابني هارون بهذه العوذة، وروي أنّ بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله، إنّ العين إليهم سريعة، أفأسترقي لهم من العين؟ فقال عليه السلام: نعم. وروى أن جبرائيل عليه السلام رقى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلّمه الرقية، وهي: «بسم الله أرقيك من كلّ عين حاسد الله يشفيك» وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين[1].

فالمفسرون ذهبوا إلى صحّة القول بأثر العين، أن أمر يعقوب عليه السلام لبنيه بعدم الدخول من باب واحد كان لأنّه خاف العين عليهم، فإذا كان النبي الذي يعلم الكثير من العلوم عن طريق الوحي يخشى من العين، فهذا يعني الإقرار بصحة الأثر إلا أنّ الاستدلال لم يكن كافياً، ولهذا ضمّت إليه الروايات الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله والتي تؤيد صحة الإصابة بالعين، ومع ذلك فإنّ صحة هذه الروايات لا تؤيد الاستدلال بالآية إلاّ مع ضمّ الأحاديث إليها، أي أنّها لوحدها غير كافية.

ونقل المصنف أن أكثر المحققين قالوا بصحة العين، استناداً إلى الآثار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله مع وجود منكرين لأثر العين، فالأكثرية فهموا هذه الآية، وهي تؤكد وصية النبي يعقوب عليه السلام لبنيه أن توقيا من أثر العين وهو أمر تدعمه الآثار، لكن احتمال أن يكون مراد يعقوب عليه السلام هو شيء آخر، وبالتالي فإن الاستدلال على صحة العين سوف يكون من خلال أدلة أخرى، وليس من خلال الاستدلال بهذه الآية، وبذلك تحتاج إلى مناقشة تلك الأدلة.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٦ ـ ٧.

ولهذا فإن المصنف أورد بحثاً حول إثبات صحة أثر العين وقال:

إثبات أنّ العين حقّ. والذي يدلّ عليه وجهان: الأوّل إطباق المتقدمين من المفسّرين على أنّ المراد من هذه الآية ذلك. والثاني ما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام. ثمّ ذكر بعض ما مرّ من الأخبار ـ إلى أن قال ـ: والخامس دخل رسول الله صلى الله عليه وآله بيت أمّ سلمة وعندها صبيّ يشتكي فقال: يارسول الله أصابته العين، فقال صلى الله عليه وآله: أما تسترقون له من العين؟ السادس قوله صلى الله عليه وآله: «العين حقّ، ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر». السابع قالت عائشة: كان يأمر العاين أن يتوضأ ثم يغتسل منه المَعين الذي أصيب بالعين[1].

فالأحاديث أنزلت العين في أعلى مراتب الضرر، ولو أن هناك شيء يسبق القدر لكانت هي التي تسبق القدر مما يشير إلى ربما سرعة أثرها أو مضاءه، فالمفسرين حين يطبقون على أن المراد بهذه الآية هو توقي أثر العين، فلا شك فإن هذا الإطباق حجة إذ يصعب أن يكونوا جميعاً هذه القضية بدون أدلّة أو أن أدلّتهم ليست كما يجب.

وفي ما عدا عن أطباق المفسرين في الروايات، التي تؤكد على أن سيرة الرسول قولاً وعملاً أقرب أثر العين، ثم وصايا الرسول بالرقى والأمر بالاستغسال للعاين، وهو أمر استند إليه المفسرون كما يبدو في توجيه فهم الآية بهذه الصورة.

ولهذا فإن الآية دلّت على أن هذا التوقّي لابدّ أن يكون موافقاً للقدر، إذ لو لم يكن فإنّه سوف لن يكون نافعاً، وأن الإصابة بالعين لن تقع آثارها، فلابدّ أن تكون مما قدره الله ولذلك جاء ما يلي:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٩.

﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾[١] أي وما أدفع من قضاء الله من شيء، إن كان قد قضا عليكم الإصابة بالعين أو غير ذلك، ﴿إن الحكم إلاّ لله﴾ أي ما الحكم إلاّ لله. «عليه توكّلت» فهو القادر على أن يحفظكم من العين، أو من الحسد، ويردّكم عليّ سالمين.

﴿وعليه فليتوكّل المتوكّلون﴾[٢] أي ليفوّضوا أمورهم إليه وليثقوا به. ﴿ولمّا دخلوا مصر من حيث امرهم ابوهم﴾ أي من أبواب متفرّقة كما أمرهم أبوهم يعقوب ﴿ما كان يغني عنهم ...﴾ أي لم يكن دخولهم مصر كذلك يغني عنهم أي يدفع عنهم شيئاً أراد الله إيقاعه، من حسد أو إصابة عين، وهو عليه السلام كان عالماً بأنه لا ينفع حذر من قدر، ولكن كان ما قاله لبنيه حاجة في قلبه، فقضى يعقوب تلك الحاجة، أي أزال به اضطراب قلبه، لأن لا يحال على العين مكروه يصيبهم، وقيل: معناه أنّ العين لو قدّر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرّقون، كما تصيبهم مجتمعين.

قال: ﴿وحاجة﴾ استثناء ليس من الأوّل بمعنى ولكن حاجة ﴿وإنّه لذو علم﴾ أي لذو يقين ومعرفة بالله ﴿لما علّمناه﴾ من أجل تعليمنا إيّاه، أو يعلم ما علّمناه فيعمل به ﴿ولكنّ اكثر الناس لا يعلمون﴾ مرتبة يعقوب في العلم[٣].

غير أن التوافق مع القدر لا يعني عدم الأثر، لأنّ أثر كل شيء متوقّف على التوافق مع القدر، ولذلك ولكن الحاجة هي دفع أثر العين إذا كانت غير مقدرة، وهو ما يعني الإقرار بوجود الأثر وضرورة السعي لدفعه، أما بالنسبة لطريقة الإصابة، فإن الأقدمون قد قدموا رؤية قريبة من التفسير العلمي المعاصر لجملة الظواهر التي مرّ الحديث عنها، وأن العين حين تلتفت إلى

---

(١) سورة يوسف: ٦٧.

(٢) سورة يوسف: ٦٧.

(٣) بحار الأنوار: ٦٠ / ٨.

الشيء الملفت للنظر والمثير للإعجاب، فإنّها تتصل بمجرد التركيز على مصدر الروحية وتتوجه إليه، فتصيبه بسيل من الأمواج التي تستطيع التأثير على الأمواج الصادرة عنه وهي طبيعية، فتصيبها باضطراب يظهر على شكل أعراض مرضية على البدن بحكم ارتباط النفس والبدن وتبادل التأثير بينهما. وقد فسّر العلماء الإصابة بالعين بمايلي: ثمّ اختلفوا في وجه تأثير الإصابة بالعين، فروي عن عمرو بن بحر الجاحظ أنّه قال: لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة تتّصل به وتؤثّر فيه، ويكون هذا المعنى خاصّة في بعض الأعين كالخواصّ في بعض الأشياء. وقد اعترض على ذلك بأنّه لو كان كذلك لما اختصّ ذلك ببعض الأشياء دون بعض، ولأنّ الأجزاء تكون جواهر، والجواهر متماثلة، ولا يؤثّر بعضها في بعض. وقال أبو هاشم: إنّه فعل الله بالعادة، لضرب من المصلحة، وهو قول القاضي.

ورأيت في شرح هذا للشريف الأجلّ الرّضيّ الموسويّ تَدَّسُ كلاماً أحببت إيراده في هذا الموضع، قال: إنّ الله يفعل المصالح بعباده على حسب ما يعلمه من الصلاح لهم في تلك الأفعال التي يفعلها، فغير ممتنع أن يكون تغييره نعمةَ زيدٍ مصلحةً لعمرو، وإذا كان تعالى يعلم من حال عمرو أنه لو لم يسلب زيداً نعمته أقبل على الدنيا بوجهه، ونأى عن الآخرة بعطفه. وإذا سلب نعمة زيد للعلّة التي ذكرناها عوّضه عنها، وأعطاه بدلاً منها عاجلاً وآجلاً، فيمكن أن يتأوّل قوله صلى الله عليه وآله: «العين حقّ» على هذا الوجه. على أنه قد روي عنه صلى الله عليه وآله ما يدلّ على أنّ الشيء إذا عظم في صدور العباد وضع الله قدره، وصغّر أمره، وإذا كان الأمر على هذا فلا ينكر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه، واستحسانه له، وعظمه في صدره، وفخامته في عينه، كما روي أنه قال ـ لما سبقت ناقته العضباء، وكانت إذا سوبق بها لم تُسبق ـ: «ما رفع

العباد من شيء إلاّ وضع الله منه» ويجوز أن يكون ما أمر به المستحسن للشيء عند الرؤية من تعويذه بالله والصلاة على رسول الله ﷺ قائماً في المصلحة مقام تغيير حالة الشيء المستحسن، فلا تغيير عند ذلك، لأنّ الرائي لذلك قد أظهر الرجوع إلى الله تعالى والإعاذة به فكأنّه غير راكن إلى الدنيا، ولا مغترّ بها انتهى كلامه رحمه الله[1].

فالتعليل يقوم على أساس انفصال أجزاء لطيفة من العين، هو شبيه بما أسلفناه من انطلاق موجات القوى النفسية من خلال حالة التركيز التي تقوم بها العين على الشيء المستحسن. أما التعليل الآخر فهو يخصّ الاعتقاد وهو لا علاقة له ببيان العلّة المادية للظاهرة وهي موضع البحث، ونلاحظ فيما يلي صورة أقرب للتعليل المعاصر كما نقلها المصنف في الكشف عن ماهيّته، فنقول: إنّ الجبائيّ أنكر هذا المعنى إنكاراً بليغاً، ولم يذكر في إنكاره شبهة فضلاً عن حجّة. وأمّا الذين اعترفوا به وأقرّوا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوهاً.

الأول: قال الجاحظ: تمتدّ من العين أجزاء، فتتّصل بالشخص المستحسَن، فتؤثّر وتسري فيه كتأثير اللسع والسمّ والنار، وإن كان مخالفاً في وجه التأثير لهذه الأشياء. قال القاضي: وهذا ضعيف، لأنّه لو كان الأمر كما قال لوجب أن يؤثر في الشخص الذي لا يستحسَن كتأثيره في المستحسَن.

واعلم أنّ هذا الاعتراض ضعيف، وذلك لأنّه إذا استحسن شيئاً فقد يحبّ بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه، وقد يكره بقاءه، كما إذا استحسن الحاسد بحصول شيء حسن لعدوه، فإن كان الأوّل فإنّه يحصل عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله، والخوف الشديد يوجب انحصار الروح في داخل القلب، فحينئذٍ يسخن القلب والروح جداً، وتحصل

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٧ ـ ٨.

في الروح الباصر كيفيّة قوّة مسخنّة، وإن كان الثاني فإنّه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوّه، والحزن أيضاً يوجب انحصار الروح في داخل القلب وتحصل فيه سخونة شديدة.

فثبت أنّ عند الاستحسان القويّ يسخن الروح جدّاً فيسخن شعاع العين، بخلاف ما إذا لم يستحسن فإنّه لا تحصل هذه السخونة، فظهر الفرق بين الصورتين، ولهذا السبب أمر الرسول صلى الله عليه وآله العاين بالوضوء، ومن أصابته العين بالاغتسال.

أقول: على ما ذكره، إذا عاين شيئاً عند استحسان شيء آخر وحصول تلك الحالة فيه أو عند حصول غضب شديد على رجل آخر، أو حصول همّ شديد من مصيبة أو خوف عظيم من عدوّ أن يؤثر نظره إليه وإلى كلّ شيء يعاينه، ومعلوم أنّه ليس كذلك.

ثمّ قال الرازيّ: الثاني قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخيّ: لا يمتنع أن يكون العين حقاً، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كانت المصلحة له في تكليفه أن يغيّر الله تعالى ذلك الشخص أو ذلك الشيء حتّى لا يبقى قلب ذلك المكلّف متعلّقاً به، فهذا التغيير غير ممتنع، ثمّ لا يبعد أيضاً أنّه لو ذكر ربّه عند تلك الحالة، وبعد عن الإعجاب وسأل ربّه فعنده تتغيّر المصلحة، والله سبحانه يبقيه ولا يفنيه، ولمّا كانت هذه العادة مطّردة لا جرم قيل: «العين حقّ»[1].

وفي هذا التعليل بسخونة الروح ثم انطلاق شعاع العين، هو نفس المبدأ الذي يذهب إليه علم البارسايكولوجي، أما بالنسبة لقول الحكماء، فإنّ فيه تصريح بنسبة الآثار إلى النفس وهو كالآتي:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٩ - ١٠.

أمّا قول الحكماء قالوا: هذا الكلام مبني على مقدّمة، وهي أنّه ليس من شرط المؤثّر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيّات المحسوسة، أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، بل قد يكون التأثير نفسانيّاً محضاً ولا تكون القوى الجسمانيّة لها تعلّق به والذي يدلّ عليه أنّ اللوح الذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشي عليه، وما ذاك إلاّ لأنّ خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه منه، فعلمنا أنّ التأثيرات النفسانيّة موجودة.

وأيضاً إنّ الإنسان إذا تصوّر كون فلان مؤذياً له حصل في قلبه غضب، وسخن مزاجه، فمبدء تلك السخونة ليس إلاّ ذاك التصوّر النفسانيّ، ولأنّ مبدء الحركات البدنيّة ليس إلاّ التصورّات النفسانيّة. ولمّا ثبت أنّ تصوّر النفس يوجب تغيّر بدنه الخاص لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس تتعدّى تأثيراتها إلى سائر الأبدان، فثبت أنّه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثّرة في سائر الأبدان، وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهيّة، فلا يمتنع أن تكون بعض النفوس بحيث يؤثّر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن تراه وتتعجّب منه. فثبت أنّ هذا المعنى أمر محتمل، والتجارب من الزّمن الأقدم ساعدت عليه، والنصوص النبويّة نطقت به، فعند هذا لا يبقى في وقوعه شكّ، وإذا ثبت هذا ثبت أنّ الذي أطبق عليه المتقدّمون من المفسّرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين كلام حقّ لا يمكن ردّه[1].

فهذه التفسيرات هي قريبة ممّا هو متداول في العصر الحاضر والتعليل لا علاقة له بثبوت الأثر لأنّ الأثر ثابت من خلال:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٠ ـ ١١.

١ ـ التجارب من الزمن الأقدم.

٢ ـ النصوص النبوية والباقي هو تفسير لحصول الظاهرة بعد حصولها.

وكذلك استدلوا على الإصابة بالعين بقوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا﴾[1]: ﴿إن﴾ هي المخفّفة من الثقيلة ﴿ليزلقونك﴾ أي يقتلونك ويهلكونك، عن ابن عبّاس وكان يقرأها كذلك: وقيل: ليصرعونك، عن الكلبيّ. وقيل: يصيبونك بأعينهم، عن السّديّ. والكلّ يرجع في المعنى إلى الإصابة بالعين، والمفسّرون كلّهم على أنّه المراد في الآية، وأنكر الجبائي ذلك وقال: إنّ إصابة العين لا تصحُ.

وقال الرّماني: وهذا الذي ذكره غير صحيح، لأنّه غير ممتنع أن يكون الله تعالى أجرى العادة بصحّة ذلك لضرب من المصلحة، وعليه إجماع المفسّرين، وجوزّه العقلاء، فلا مانع منه. وقيل: إنّ الرجل منهم كان إذا أراد أن يصيب صاحبه بالعين تجوّع ثلاثة أيّام، ثمّ كان يصفه فيصرعه بذلك، وذلك بأن يقول الذي أراد أن يصيبه بالعين: لا أرى كاليوم إبلاً أو شاتاً أو ما أراد، أي كإبل أراها اليوم. فقالوا للنبيﷺ كما كانوا يقولون لما أرادوا أن يصيبوه بالعين، عن الفرّاء والزّجاج، وقيل: معناه أنّهم ينظرون إليك عند تلاوة القرآن والدعاء إلى التوحيد نظر عداوة وبغض وإنكار لما يسمعونه وتعجّب منه، فيكادون يصرعونك بحدّة نظرهم ويزيلونك عن موضعك.

وهذا مستعمل في الكلام، يقولون: نظر إليّ فلان نظراً يكاد يصرعني ونظراً يكاد يأكلني فيه. وتأويله كلّه أنّه نظر إليّ نظراً أو أمكنه معه أكلي أو أن يصرعني لفعل، عن الزّجاج.

---

(١) سورة القلم: ٥١.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾[1] يعني القرآن ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي شرف ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ إلى أن تقوم الساعة، أو مذكّر لهم. قال الحسن: دواء إصابة العين أن يقرأ الإنسان هذه الآية.

قوله: «أي كإبل» كأنّه حمل قوله «أو ما أراد» على تغيير تركيب الكلام، ولا يخفى بعده، بل الظاهر أنّ المعنى: أو ما أراد أن يصيبه بالعين سوى الإبل، فيذكره مكانهما[2].

فهنا نلاحظ عنصرين من عناصر الإصابة بالعين، وهو الاستحسان بالإضافة إلى عدم الرضى من نزول الذكر على الرسول ﷺ كما أنّه يفيد درجة عالية من الحقد والحسد، ولذلك فإن الآية غير متمحصة في الإصابة بالعين، لكن إجماع المفسرين على هذا التفسير يعطيه القوة، غير أن باقي الآيات أدل عليه، ومنها سورة الفلق التي أن سبب نزولها هو واقعة السحر، ولذلك فإن الرقية جاءت شاملة للسحر والعين وجاء بخصوصها ما يلي:

قيل: إنّ لبيد بن أعصم اليهوديّ سحر رسول الله ﷺ ثمّ دسّ ذلك في بئر لبني زريق، فمرض رسول الله ﷺ فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فأخبراه بذلك وأنّه في بئر ذروان في جفّ طلعة تحت راعوفة ـ والجفّ قشر الطلع، والراعوفة حجر في أسفل البئر يقف عليه المائح.

فانتبه رسول الله ﷺ وبعث عليّاً عليه السلام والزبير وعمّاراً فنزحوا ماء تلك البئر ثمّ رفعوا الصخرة وأخرجوا الجفّ، فإذا فيه مشاطة رأس وأسنان من مشطة، وإذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر، فنزلت هاتان

---

(١) سورة القلم: ٥١.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٢ و١٣.

السورتان، فجعل كلّما يقرأ آية انحلّت عقدة، ووجد رسول الله خفّة، فقام فكأنّما أنشط من عقال.

وجعل جبرئيل عليه السلام يقول: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين والله يشفيك» ورووا ذلك عن عائشة وابن عبّاس. وهذا لا يجوز، لأنّ من وصف بأنه مسحور فكأنّه قد خبل عقله، وقد أبى الله سبحانه ذلك في قوله: ﴿ *وقال الظالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا* ﴾[1]. ولكن يمكن أن يكون اليهودي أو بناته على ما روي اجتهدوا في ذلك فلم يقدروا عليه واطّلع الله نبيّه صلى الله عليه وآله على ما فعلوه من التمويه حتّى استُخرج وكان ذلك دلالة على صدقه صلى الله عليه وآله وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم؟! ولو قدروا على ذلك لقتلوه وقتلوا كثيراً من المؤمنين مع شدّة عداوتهم لهم[2].

أمّا بالنسبة لإصابة الرسول صلى الله عليه وآله بالسحر وعدمه، فقد تمّ بحثه في موضوع السحر ولكن المهمّ أن العين دخلت في الرقية، فكانت واحدة من أنواع الأضرار التي يمكن أن تصيب الناس عموماً، وبذلك نكون قد حصلنا على أحد الأدلة على إمكان حدوث الضرر إثر الإصابة بالعين ويأتي من هذا السياق ما يلي:

وقال في قوله سبحانه: ﴿ *ومن شرّ النفّاثات في العقد* ﴾[3] معناه: ومن شرّ النساء الساحرات اللاّتي ينفثن في العقد. وإنّما أمر بالتعوّذ من شرّ السحرة لإيهامهم أنّهم يمرضون ويصحّون ويفعلون أشياء من النفع والضرر والخير

---

(١) سورة الفرقان: ٨ ـ ٩.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٣ ـ ١٤.

(٣) سورة الفلق: ٤.

والشرّ وعامّة الناس يصدّقونهم، فيعظم بذلك الضرر في الدين، ولأنّهم يموّهون أنّهم يخدمون الجنّ ويعلمون الغيب، وذلك فساد في الدين ظاهر، فلأجل هذا الضرر أمر بالتعوّذ من شرّهم.

وقال أبو مسلم: النفّاثات النساء اللاتي يملن آراء الرجال ويصرفنهم عن مرادهم ويردّونهم إلى آرائهن، لأنّ العزم والرأي يعبّر عنهما بالعقد، فعبّر عن حلّهما بالنفث، فإنّ العادة جرت أن من حلّ عقداً نفث فيه.

﴿ *ومن شر حاسد إذا حسد* ﴾ فإنّه يحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود، فأمر بالتعوّذ من شرّه. وقيل: إنّه أراد من شرّ نفس الحاسد ومن شرّ عينه، فإنه ربّما أصاب بهما فعان وضرّ، وقد جاء في الحديث أنّ العين حقّ. وقد مضى الكلام فيه.

وروي أنّ العضباء ناقة النبي ﷺ لم تكن تسبق، فجاء أعرابيٌّ على قعودله فسابق بها فسبقها، فشقّ ذلك على الصحابة، فقال النبيّ ﷺ: حقٌّ على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه، وروى أنس أنّ النبيّ ﷺ قال: من رأى شيئاً يعجبه فقال: ((الله الصمد، ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله)) لم يضرّ شيئاً، وروى أنس أنّ النبيّ ﷺ كان كثيراً ما يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بهاتين السورتين ـ انتهى[1].

وهذا ما يؤكد على إمكان الإصابة بالعين، غير أنّه يتضمن جعل العين حالة خاصة شبيهة بالسحر، ولعل ذلك عائد إلى أنّه نوع ضرر يحصل بمجرد الإرادة ودون اللجوء إلى الوسائط بمباشرة من الضار وهو أمر يحصل بواسطة السحر وبواسطة العين.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ١٤.

ومثله ما نقله البيضاوي:

«وقال البيضاوي: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شرّ النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها. والنفث ـ بالفتح ـ النفخ مع ريق وتخصيصه لما رويَ أنّ يهودياً سحر النبي صلى الله عليه وآله في إحدى عشرة عقدة في وتر دسّه في بئر، فمرض صلى الله عليه وآله، فنزلت المعوّذتان وأخبره جبرئيل بموضع السحر، فأرسل علياً عليه السلام فجاء به، فقرأهما عليه، فكان كلّما قرأ آية انحلّت عقدة، ووجد بعض الخفّة».

ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنّه مسحور، لأنّهم أرادوا به أنّه مجنون بواسطة السحر، وقيل: المراد بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل، مستعار من تليين العقدة بنفث الريق ليسهل حلّها.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1] إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه.

وقال الرازي: اختلفوا في أنه هل يجوز الاستعاذة بالرقي والعوذة أم لا؟ منهم من قال إنّه يجوز ـ ثمّ ذكر احتجاجهم بالروايات المتقدّمة وغيرها ـ ومن الناس من منع من الرقي، لما روي عن جابر، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرقي، وقال صلى الله عليه وآله:

«إنّ لله عباداً لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربّهم يتوكّلون. وقال صلى الله عليه وآله: لم يتوكّل على الله من اكتوى واسترقي؟!.

واختلفوا في التعليق أيضاً، فمنهم من منع لبعض الأخبار، ومنهم من جوّز، سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلّق على الصبيان فرخّص فيه، واختلفوا في النفث أيضاً فمنهم من أنكر، عن عكرمة: لا ينبغي للرّاقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد ـ إلى آخر ما قال ـ»[2].

---

(١) سورة الفلق: ٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٥ ـ ١٦.

وهنا يوجد رأي شبيه بالموقف المعاصر الذي يتبناه التيار المنكر لآثار العين أو الآثار الأخرى، ولعله يفيد أن عدم الاكتراث إلى هذه الأضرار باعتبار أن ضررها مقدور عليه من حيث العلاج، وربما لأن البحث عن العاين ينطوي على ضرر تخريب العلاقات الاجتماعية واتهام بعض الناس بهذه الأضرار، وهو لا يدل على نفي الأثر بل يدل على النهي عن الرقي، والذي يحتمل أيضاً ضعف أثر الرقى في الوقاية أو دفع الأثر واللجوء إلى آثار أكثر فعالية وتؤيده الرواية التالية:

وعن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الرقي بغير كتاب الله عزّ وجلّ وما يعرف من ذكره، وقال: إنّ هذه الرقي ممّا أخذه سليمان بن داود عليهما السلام على الجنّ والهوام[1].

ومن خلال ما تقدّم نفهم أن الإصابة بالعين يعني حصول حالة مرضية نتيجة لأثر نفس الإنسان الراغبة بقوة في الحصول على الشيء المستحسن كالمال والولد، أو الراغبة بقوة بزوال هذا الشيء من يد صاحبه، وهو طبعاً يمكن أن يكون اعراضاً سيئة على صاحب المال والولد، أو ضرراً يلحق بنفس المال والولد، لكن يبدو أن الضرر غير محدد ولا يصل إلى التلف أو الموت، غير أن الروايات نقلت تأكيد الحالة بعموميتها لكن بعضها افاده امكان حصول الوفاة بسبب الحسد ومنها ما يلي:

روي عن النبيّ ﷺ أنّ العين حقّ، وأنّها تدخل الجمل والثور التنّور.

وفي كتاب الغرّة أنّ رجلاً عيّاناً رأى رجلاً راكباً، فقال: ما أحسنه! فسقطت الدابّة وماتت ومات الرجل[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٨.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٧.

وعن أبي الحسن المخلّدي قال: كان لـي أكّار رديء العين، فأبصر بيدي خاتماً، فقال: ما أحسنه! فسقط الفص، فحملته فقال: ما أحسنه! فانشقّ بنصفين.

وعن الأصمعيّ قال: كان عندنا عيّانان، فمرّ أحدهما بحوض من حجارة، فقال: بالله ما رأيت كاليوم مثله. فانصدع فلقين، فضبّب بحديد، فمرّ عليه ثانياً فقال راسلاً: لعلّك ما ضررت أهلك فيك! فتطاير أربع فلقات. وسمع الثاني صوت بول من وراء الحائط، فقال: إنّك لشرّ شخب! فقيل: هو ابنك، فقال: وا انقطاع ظهراه! أما والله لا يبولّ بعدها، فمات من ساعته. وسمع أيضاً صوت شخب بقرة فأعجبه، فقال: أيتهن هذه؟ فوري بأخرى، فهلكتا جميعاً: الموّرى بها، والمورّى عنها، وقصّة البعير والأعرابي مشهورة معروفة[1].

ففي هذه الرواية إشارة إلى شدة الأثر الذي قد يؤدي إلى وفاة الثور والجمل فيضطر أهلها إلى ذبحها وأكلها تفادياً لخسارتها إذا صارت ميتة، أما الشواهد الأخرى فهي تأكيد لما جاء في متن الحديث الشريف.

قال ﷺ: إنّ العين لتدخل الرجلَ القبر، والجمل القدر.

الضوء: قد تقدم الكلام فيه، وأن المؤثر فيما يعينه العاين قدرة الله عزّ وجلّ الذي يفعل ما يشاء، ويغيّر المستحسن من الأشياء عن حاله، اعتباراً للناظر، وإعلاماً أنّ الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا يبقى ما فيها على وتيرة واحدة. والعين ماذا تكاد تفعل بنظرها ليت شعري؟! ولو كان للعين نفسها أثر لكان يصحّ أن ينظر العاين إلى بعض أعدائه الذين يريد إهلاكهم وقلعهم، فيهلكهم بالنظر، وهذا باطل والعين كالجماد إذا انفردت عن الجملة فماذا تصنع؟!

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٧.

وللفلاسفة في هذا كلام لا أريد أن أطويه. وفائدة الحديث إعلام أنّ الله تعالى قد يغيِّر بعض ما يستحسنه الإنسان إظهاراً لقدرته، واعتباراً للمعتبر من خليقته، وراوي الحديث جابر[1].

فالحديث يدل صراحة على أن العين يمكن أن تقود إلى وفاة المصاب بها، على أن الرواية لا تدل على أنّ كل عين يمكن أن تدخل القبر، فمفاد الرواية يدل على أن بعض الإصابات تؤدي إلى الوفاة، وهي مثل: ﴿*اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظن إثم*﴾[2] فالحالة السائدة هي أن العاين لا يقصد إيقاع الأثر وإنما يقوم بالاستحسان فقط، والأثر قد يقع أو لا يقع وهي الأغلب لكن هناك أيضاً ندرة في الندرة، هي أن يتمكن العاين من الاستفادة من هذه الطاقة بصورة تقرب من الإرادية، يعني يستطيع إيقاع الضرر في أغلب حالات إرادته، ولهذا لا مورد للاعتراض إذ قد يتمكن الإنسان من تطوير هذه القدرة.

ومثله ما ورد في الحديث التالي:

عن النبيّ ﷺ: العين تنزل الحالق ـ وهو ذروة الجبل ـ من قوّة أخذها وشدّة بطشها[3].

فهنا إشارة إلى شدة الآثار التي تحدثها العين دون أن تؤكد الموت أو عدمه لكن ذلك يفهم من شدة الأثر إذ أنه أقصى الشدة.

وجاء في تأكيد أثر العين تفسير: ﴿*يا بَنيّ لا تدخلوا...*﴾ لخوف العين وهو ما يلي:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٠.

(٢) سورة الحجرات: ١٢.

(٣) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٧.

أنّ يعقوب عليه السلام خاف على بنيه من العين لجمالهم، فقال ﴿ *يا بَنِيّ لا تدخلوا من باب واحدٍ* ﴾ ـ الآية ـ[1].

وكذلك ما جاء عن الرّسول صلى الله عليه وآله في أنّ العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر، وهو صريح في أن أثر العين قد يؤدي إلى الوفاة، ومنها ما يلي أيضاً:

عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أعجبه شيء من أخيه المؤمن فليثمد عليه، فإنّ العين حق.

وعن صفوان الجمّال، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: لو نبش لكم عن القبور لرأيتم أنّ أكثر موتاهم بالعين، لأنّ العين حقّ، إلاّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: العين حق، فمن أعجبه من أخيه شيء فليذكر الله في ذلك، فإنّه إذا ذكر الله لم يضرّه.

وعن الحلبيّ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن النشرة للمسحور، فقال: ما كان أبي عليه السلام يرى بها بأساً[2].

فهذه جملة روايات الدلالة الرئيسة لها هو صدق أثر العين، وهناك دلالات ثانوية، وصايا للمؤمن كي يمنع أثر عينه عن الأشياء التي تعجبه عند الناس عن طريق الدعاء أو الذكر، وهذا يدلّ أيضاً على أن هذه الملكة موجودة عند كافة البشر، وأنها يمكن أن تنطلق في لحظات الإعجاب بمال أو ولد، ولذلك فإنّ الوصيّة عامة وهذا الأمر يؤكد أنّ بعض الملكات الظاهرة والتي لا تظهر بصورة عادية عند كثير، فإنها قابلة للبروز في ظرف ما أو نتيجة لحصول آثار عالية.

وفي الرواية الثانية بيان لشدة الأثر حيث تؤكد على أن الحالة الغالبة على الوفيات هي أثر العين، وهذا يلفت النظر إلى أن غفلة الناس عن أثر العين،

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٧.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٥.

وعدم دقة التوقّي عنها هو الباعث على كثرة الإصابة بها وسريان أثرها إلى الدرجة التي جعلت أكثر الموتى هو لآثار العين وأضرارها، ويقودنا هذا الأمر إلى الاستفادة بأن الآثار النفسية هي أوسع دائرة من الأسباب البدنية، وبالتالي لو أن العناية وجهت لها، فإن نسبة الوفيات تتقلص بنفس النسبة أيضاً، وهذه هي أحد النتائج الهامة، فإذا افترضنا أن الموت ينشأ عن علل جسمية بنسبة ٢٥٪ فإن الباقي ٧٥٪ هو للأسباب النفسية.

وبنفس الطريقة، فإن جملة من الروايات التالية تؤيد هذا المضمون.

عن معمّر بن خلاّد، قال: كنت مع الرضا عليه السلام بخراسان على نفقاته، فأمرني أن أتّخذ له غالية، فلمّا اتّخذتها فأعجب بها فنظر إليها فقال لي: يا معمّر، إنّ العين حقّ فاكتب في رقعة الحمد: «وقل هو الله أحد» و«المعوّذتين» و«آية الكرسيّ» واجعلها في غلاف القارورة.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: العين حقّ، وليس تأمنها منك على نفسك ولا منك على غيرك، فإذا خفت شيئاً من ذلك فقل: «ما شاء الله لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم» ثلاثاً[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أعجبه من أخيه شيء فليبارك عليه، فإنّ العين حق.

قال النبي صلى الله عليه وآله: إنّ العين ليدخل الرجلَ القبر، والجمل القدر.

وقال صلى الله عليه وآله: لا رقية إلاّ من حمة والعين.

عن الصادق عليه السلام: لو كان شيء يسبق القدر لسبقه العين.

بإسناده عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: لا رقي إلاّ في ثلاثة: في حمة، أو عين، أو دم لا يرقأ.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٥ - ٢٦.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ العين لتدخل الرجل القبر وتدخل الجمل القدر(١).

وجاء في الخبر أنّ أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ بني جعفر تصيبهم العين، فأسترقي لهم؟ قال: نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين.

فالرواية الأولى ضمن تأكيدها لصدق تأثير العين تؤكد على أن سورة الحمد والمعوذتين وآية الكرسي وسورة الإخلاص، هي من أهم السور والآيات التي تمنع أثر العين، والرواية التي بعدها تشير إلى وجود العين وآثارها الضارة كامكانية عامة لدى الجميع، ولذلك يجب أخذ الاحتياطات الكافية، ومنها النص المذكور وهكذا البقية.

أما الروايات التالية، فإنها تشير إلى نمط من التعليل المتعلق بنظام الكون، وهو سماح الله بوقوع الآثار وهي كما يلي:

بإسناده عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما رفع الناس أبصارهم إلى شيء إلاّ وضعه الله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما قال الناس لشيء طوبى له إلاّ وقد خبأ الدهر له يوم سوء.

بيان: «طوبى» كلمة تستعمل في مقام المدح والاستحسان والتعجّب من حسن الشيء وكماله، وخبأت الشيء أخبوه: أخفيته. «يوم سوء» بالفتح أي يوم نقص وبليّة وزوال، وإخفاء الدهر ذلك اليوم كناية عن جهل الناس بأسبابه وأنّه يأتيهم بغتة، أو غفلتهم عن عدم ثبات زخارف الدنيا وسرعة زوالها.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٦.

ثمّ إنّه يحتمل أن يكون ما ورد في هذا الخبر والخبر السابق إشارة إلى تأثير العيون كما مرّ، أو إلى أنّ من لوازم الدنيا أنّه إذا انتهت فيها حال شخص في الرفعة والعزّة إلى غاية الكمال، فلا بدّ أن يرجع إلى النقص والزوال، فقولهم طوبى له واستحسانهم إيّاه ورفع أبصارهم إليه من شواهد الرّفعة والكمال، وهو علامة الأخذ في الهبوط والاضمحلال.

وقد يخطر بالبال أنّ ما ورد في العين وتأثيرها يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى، وإن كان بعيداً من بعض الآيات والأخبار، ويمكن تأويلها إليه وتطبيقها عليه، كما لا يخفى على أولي الأبصار، وما ورد من ذكر الله والدعاء عند ذلك لا ينافيه بل يؤيّده، فإنّ أمثال ذلك موجبة لدوام النعمة واستمرارها، والله يعلم حقائق الأمور ودقائق الأسرار[١].

فالرواية الأولى تؤكد أن العلة في السماح وقوع الأثر، هو أن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن تحصل العلاقة القوية بالمال وأمور الدنيا، بينما الرواية الثانية تشير إلى أن الأشياء تسير بطريقة عادية من القوة إلى الضعف وأن وقوع الأثر يأتي في هذا السياق، إذ لابدّ من وجود أسباب لكي تستمر دورة الأشياء من البداية إلى النهاية، وهذا طبعاً لا علاقة له بالعلل المادية من قبيل أسلوب تأثير العين، وإيقاع السوء بل هو له علاقة بالسنن المنظمة للكون.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: لا رقية إلاّ من حمة أو عين.

«عين» مصدر عانه إذا أصابه بعينه إذا نظر إليه نظر معجب حاسد مستعظم. والحمة السمّ. وأصلها حمو وحمى، والهاء عوض فيها عن الساقط، وبهذا الكلام يشير إلى ما كانت نساء العرب يدّعينه من تأخيذ الرجال عن الأزواج، وكانت لهنّ رقى تضحك الثكلان، فقال صلى الله عليه وآله: «لا

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٧.

رقية» أي لا تصحّ تأثير الرقية إلاّ في العين التي تعين الشيء، أي تصيبه، وأصل ذلك أنّها تستحسنه فيغيّره الله تعالى عند ذلك، لما للناظر إليه فيه من اللطف، أو لغيره من المعتبرين، إذا رآه غبّ اللطافة والطراوة والإعجاب بخلاف ما رآه، فيستدلّ بذلك على أنه لا بقاء لما في الدنيا، وأنّ نعيمها زائل[1].

وأمّا ما يذكر من أنّ العاين ينظر إلى الشيء فيتّصل به شعاع هو المؤثر فيه، فلا تلتفت إليه، لأنّا نعلم قطعاً أنّ الشعاع اللطيف لا يعمل في الحديد والحجر وغير ذلك، بل ذلك كلّه من فعل الله تعالى على سبيل اللطف والإعلام بأن نعيم الدنيا إلى انقراض. والرقية التي فيها اسم الله تعالى أو اسم رسوله صلى الله عليه وآله أو آية من كتاب الله تعالى يشفيه، وكذلك من السموم التي يستضرّ بها الإنسان من لسع الهوامّ، وهذا غير مدفوع، وما سوى ذلك فمخاريق يجلبون بها أموال الناس، وليس قوله صلى الله عليه وآله «لا رقية» إلى آخره قطعاً لأنّ تكون رقية الحقّ ناجعة في غير ذلك من الأدواء، بل المعنى أنّ الرقية لها تأثير قويّ فيهما كما في قوله: «لا سيف إلاّ ذو الفقار».

وروي أنّ رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة! قال: أما إنّك لو قلت حين أمسيت: «أعوذ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق» لم تضرّك. وعن ابن عبّاس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلّمنا من الأوجاع كلّها أن نقول: «بسم الله الأكبر، أعوذ بالله العظيم، من شرّ عرق نعّار، ومن شرّ حرّ النار» وفائدة الحديث أنّ الرقية في غير العين والحمة لا تنجع، وراوي الحديث جابر رضي الله عنه[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٩.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٩ ـ ٢٠.

فهذه الرواية تفيد في تأكيد التأثير ونسبة الأثر المباشر إلى الله هو هروب من التعليل، وأن التعليل بالشعاع هو أقرب لأن كلّ شيء يحدث بأمر الله ولكن من خلال علل، وأن تأكيد زوال الدنيا ذكره الله صراحة في النصوص ومن كل شيء ولا يكون عندئذ من خصوصية للسماح بأثر العين.

ويأتي في سياق التأكيد أيضاً ما يلي:

ذكر عبد الكريم بن محمّد بن المظفّر السمعانيّ في كتابه أنّ جبرئيل عليه السلام نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله فرآه مغتمّاً، فسأله عن غمّه، فقال له: إنّ الحسنين عليهما السلام أصابتهما عين. فقال له: يا محمّد، العين حقّ فعوّذهما بهذه العوذة، وذكرها.

عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجلس الحسن على فخذه اليمنى، والحسين على فخذه اليسرى، ثمّ يقول: أعيذكما بكلمات الله التامّة، من شرّ كلّ شيطان (و) هامّة، ومن شرّ (كلّ) عين لامّة ثمّ يقول: هكذا كان إبراهيم أبي عليه السلام يعوّذ ابنيه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

وعنه عليه السلام أنّه قال: لا رقيّ إلاّ في ثلاث: في حِمَة، أو عين، أو دم لا يرقأ، والحمة السمّ.

وعنه عليه السلام أنّه قال: لا عدوى ولا طيرة ولا هام، والعين حق، والفأل حقّ، فإذا نظر أحدكم إلى إنسان أو دابّة أو إلى شيء حسن فأعجبه فليقل: «آمنت بالله وصلّى الله على محمّد وآله» فإنّه لا يضرّه عينه[1].

فهنا هذه الروايات جاءت لتأييد صحة الإصابة ولكن من زاوية اجازة الرقية والعوذات، ولعل ذلك منعاً لسريان النهي إلى الرقية من الحمى والعين باعتبار أن أثر العين والحمى يمكن للرقية أن تؤثر فيه، بينما لا يمكن لها أو أن أثرها ضعيف في حالات أخرى، فالعين تؤثر الرقية فيها وكذلك الحمى دون

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٨.

أن يبين كيفية تأثير الرقية من الحمى، وهل أنها مثلاً من آثار الجن فتطرد بالذكر أو من قبيل الدعاء واستجابته؟ والرقية تأتي من العاين والمعيون ويمكن أن تكون الرقية من أحدهما كافية، وربما كانت ضرورة من قبل الاثنين ويؤيد ذلك الرواية التالية:

عن زرارة، قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: إنّ السحرة لم يسلّطوا على شيء إلاّ العين.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: أنّه سئل عن المعوّذتين: أنهما من القرآن؟ فقال الصادق عليه السلام: هما من القرآن. فقال الرّجل: إنّهما ليستا من القرآن في قراءة ابن مسعود ولا في مصحفه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: أخطأ ابن مسعود ـ أو قال: كذب ابن مسعود ـ هما من القرآن. قال الرجل: فأقرأ بهما يا ابن رسول الله في المكتوبة؟ قال: نعم، وهل تدري ما معنى المعوّذتين وفي أي شيء نزلتا، إنّ رسول الله سحره لبيد بن أعصم اليهودي.

فقال أبو بصير لأبي عبد الله عليه السلام: وما كان ذا؟ وما عسى أن يبلغ من سحره؟! فقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: بلى، كان النبيّ صلى الله عليه وآله يرى يجامع وليس يجامع، وكان يريد الباب ولا يبصره حتّى يلمسه بيده، والسحر حق وما سلّط السحر إلاّ على العين والفرج. فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره بذلك، فدعا عليّاً عليه السلام وبعثه ليستخرج ذلك من بئر ازوان، وذكر الحديث بطوله إلى آخره[1].

إن ذكر خصوص السحرة، يعني أن العين هي جزء من السحر، ومن الواضح في هذا إنه إشارة إلى الآثار الإرادية للعين، وأنها تنسب إلى السحر من باب خفاء علة إيقاع الأثر. وأن اللذين قالوا بوقوع الأثر ربّما توصلّوا إلى

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٤ ـ ٢٥.

حتميّة الوقوع بالاستعانة ببعض الجان أو بفنون السحر إذا قلنا أن أحد أنواعها الانطواء على ملكات وقابليات.

والخلاصة في ما أورده المصنف فيما يلي:

وأمّا العين فالظاهر من الآيات والأخبار أنّ لها تحقّقاً أيضاً، إمّا بأن جعل الله تعالى لذلك تأثيراً وجعل علاجه التوكّل والتوسّل بالآيات والأدعية الواردة في ذلك، أو بأنّ الله تعالى يفعل في المعين فعلاً عند حدوث ذلك، لضرب من المصلحة، وقد أومأنا إلى وجه آخر فيما مرّ.

وبالجملة لا يمكن إنكار ذلك رأساً، لما يشاهد من ذلك عيناً، وورود الأخبار به مستفيضاً، والله يعلم وحججه عليهم السلام حقائق الأمور[1].

لكن يقابل هذا الرأي رأي النافين الذين يستدلون عليه بنهي الرسول صلى الله عليه وآله عن الرقيّة وهو ما يلي:

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أن نهى عن التمائم والتِوَل، فالتمائم ما يعلّق من الكتب والخرز وغير ذلك، والتِول ما تتحبّب به النساء إلى أزواجهنّ كالكهانة وأشباهها، ونهى عن السّحر.

توضيح: في النهاية: فيه أنّه كان يتفأل ولا يتطيّر. الفأل مهموز فيما يسرّ ويسوء، والطيرة لا يكون إلاّ فيما يسوء. وربما استعملت فيما يسرّ، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً. وإنّما أحبّ الفأل، لأنّ الناس إذا أملوا فائدة الله ورجوا عائدته عند كلّ سبب ضعيف أو قويّ فهم على خير، ولو غلطوا في جهة الرجاء فإنّ الرجاء لهم خير، وإذا قطعوا أملهم أو رجاءهم من الله كان ذلك من الشرّ، وأمّا الطيرة فإن فيها سوء الظنّ بالله وتوقّع البلاء. ومعنى التفأل مثل أن يكون رجل مريض فيتفأل بما يسمع من كلام، فيسمع آخر

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٤٢.

يقول: «يا سالم» أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: «يا واجد» فيقع في ظنّه أنه يبرأ من مرضه، أو يجد ضالته.

وقال: في حديث عبد الله «التمائم والرّقي من الشرك» التمائم جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلّقها على أولادها يتّقون بها العين في زعمهم، فأبطله الإسلام، وإنّما جعلها شركاً لأنّهم أرادوا بها دفع المقادير المكتوبة عليهم، فطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه. وقال: في حديث عبد الله «التولة من الشرك» التولة ـ بكسر التاء وفتح الواو ـ ما يحبّب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، جعله من الشرك لاعتقادهم أنّ ذلك يؤثّر ويفعل خلاف ما قدّره الله تعالى.

وفي القاموس: التولة ـ كهمزة ـ: السحر أو شبهه، وخرز تتحبّب معها المرأة إلى زوجها كالتولة ـ كعنبة ـ فيهما[1].

غير أن هذا يمكن أن يتحقق مع الاستثناء، بحيث يكون للموارد التي مرّ ذكرها وأن الرقية للحمى والعين هو من ما يصح فيه الرقية، وبذلك يمكن لمجموع الأدلة المارة أن نخرج نتيجة صحة أثر العين. مع أننا نجد أن تلك العصور هي مثل هذه العصور تشترك فيها الآراء، فهنا من يقول بالأثر وهناك من ينفيها وأن الأدلة تتشابه وخلاصة ما مرّ أن العين هي ملكة نفسية يمكن أن تؤثر في الآخرين الضرر الذي قد يوصل إلى هلاك المصاب بالعين، وأن تأثيرها يتم من خلال الشعاع المنطلق من العين، وأنّه يمكن التوقّي منها من خلال بعض الرقى والأدعية والآيات أو بواسطة الوقاية عن طريق إخفاء الأشياء المثيرة للاستحسان بالقدر الذي يمكن، وأن النافين لها ينفونها لافتقارها للأسباب المادية والشكّ بوجود هذه القوة لعدم إطرادها وقدرة الإنسان على إيقاع الضرر في أي وقت يشاء.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٨ ـ ١٩.

أمّا بالنسبة للمعاصرين، فإن الموقف من العين لا يزال كما هو، فهناك من يعارض وجود أثرها ضمن إنكار القول بوجود قوى خارقة عند الإنسان، وهناك من يؤيد هذه القوى إلاّ أن البعض استطاع أن يقدم أدلة لا تقبل الإنكار على وجود قدرات عند البشر، وإجمالاً فإن الرؤية المعاصرة هي كما يلي:

العين من منظور معاصر

إن الاعتقاد بوجود ظواهر تحدث بدون وسائط مادية، قديم قدم الإنسان غير أنَّ النهضة العلمية الحديثة عندما استطاعت أن تحقق إنجازاتها العريضة على أساس العقلانية الماديّة، نقلت الإنسان باتجاه نفي كافة الظواهر التي تقع خارج دائرة التجريب أو التي لا تستند إلى أسس مادية ثابتة.

غير أن الإنسان سرعان ما عاد ليتناول هذه الظواهر التي طواها النسيان، ويحاول إعادة اكتشافها على أساس ما وصل إليه العلم الحديث مرَّة أخرى، وبذلك صارت هذه العودة تختلف عن سابقاتها، لأنّها هذه المرة تحاول القيام على أساس طرق اليقين المتقدمة الحديثة، حيث يكون من الصعب التسليم بيقينيّة الشيء إلاّ بعد أن تتم دراسته بواسطة السبل والمناهج المعاصرة التي تنتهي إلى تأكيد أو نفي تلك اليقينية.

ولهذا فإن الأوساط العلمية لم تتقبل هذه الآراء واعتبرتها مجرد استعادة تخيلات وأساطير الأجداد، وكانت الظواهر (الروحية) من الأشياء التي جوبهت بهذا الموقف الرافض، لكن التقدم العلمي نفسه اكتشف أن العلية بالصورة التي حاولت تقديمها المادية ليست بهذه الصرامة، إذ أن الكثير من الظواهر تحدث دون التعرّف على علتها المادية، لكنها أيضاً ليست بدون علّة،

وانتهى الحوار بعد فترة إلى الاعتراف بقوى النفس الخارقة حتى «أصبحت اليوم من الحقائق العلمية المقررة، وقد أخذت التجارب المختبرية تؤيدها تأييداً لا بأس به»[١].

إلاّ أن هذا الإثبات مرّ بأطوار عديدة وبدأ عندما اكتشف علماء النفس مقدمات تشير إلى إمكانية التنويم المغناطيسي، حيث يمكن التأثير على الإنسان ودفعه إلى النوم، ثم الاستجابة للأوامر الصادرة له من قبل المنوم.

فـ«العالم فرانز أنطون مسمر (١٧٣٤ ـ ١٨١٥) عندما نشر آرائه سنة ١٧٧٥» عن التنويم المغناطيسي وقدم الأساس الذي بنيت عليه عودة البحث في الظواهر الروحيّة وهو طبعاً كان مطروحاً من قبل الحكماء «فمنذ القرن الخامس عشر كان هناك حكماء علماء تعرضّوا لأمثال هذه الأفكار وعلى رأسهم العالم فيشيني من فلورنسا الذي ذهب إلى أن الأشخاص يمارسون تأثيراً من بعضهم على البعض الآخر عن طريق سيالات تمر بالعينين تحت تأثير تركيز الإرادة، كما كان العالم الإيطالي بومبوناج يتحدث منذ القرن السادس عشر عن قدرة الروح على المروق من العينين ومن أجزاء أخرى من الجسم كيما تباشر عن بعد تأثيراً روحياً»[٢].

ومن هناك بدأت الآراء تتجه نحو الاعتراف بوجود هذه التأثيرات الروحيّة وبدأت حركة متزايدة تدريجياً نحو دراسة هذه الظواهر وإحصاءها والبحث عن عللها ومستوى تأصلها في الوجود، وبالفعل تمّ اكتشاف عدد من الظواهر تباعاً واتسع الإيمان بأن في داخل الإنسان قوى خفية لا يدركها واضحةَ الآن، وأنها تؤدي إلى حدوث ظواهر روحيّة متنوعة[٣].

---

(١) خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة: ١٤٣.

(٢) التنويم المغناطيسي: ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) التنويم المغناطيسي: ٥٤.

وقد أحصى العلماء عدد من الظواهر التي تتعلق بعضها بعالم الإدراك وبعضها الآخر في عالم المادة وهي كالآتي:

أ ـ الظواهر العقلية:

١ ـ الاستشفاف البصري.

٢ ـ الاستشفاف السمعي.

٣ ـ الاستشفاف الحسي.

٤ ـ السيكومتري: وهي ظاهرة تقديم معلومات عن شخص من خلال الإمساك بشيء يعود له كالساعة أو القلم.

ب ـ الظواهر الفيزيقية (المادية):

١ ـ تحريك الأجسام الصلبة «وهذه الظاهرة مظهراً لحقيقة موضوعية أعمّ منها، وهي إمكان تأثير العقل أو الروح في المادة الصلبة تأثيراً مباشراً»[1].

٢ ـ الكتابة المباشرة.

٣ ـ الصوت المباشر.

٤ ـ المجلوبات والمأخوذات الروحيّة.

فهذه الظواهر جميعاً وبغض النظر عن أسلوب تفسيرها، قد أثبتت من خلال الممارسة الطويلة ورغم احتمال وجود مستوى من الخداع في بعضها إلاّ أنّها ليست جميعاً خارجة عن الصحة، وعلى هذا الأساس يتم إثبات المبدأ الذي نحاول إثباته وهو وجود آثار للروح أو النفس أو العقل.

وقد ثبت أيضاً أنّ هذه الظواهر تحدث عند أفراد محددين يمتلكون مواهب طبيعية، وهذه القضية تشبه أن يكون لبعض الناس عضلات غير اعتيادية وقوة بدنية متميزة أو حدة من الذكاء أو البصر والسمع، وهي من المواهب التي تخص البدن، فإنّه أيضاً يمكن أن تكون لبعض النفوس

---

(١) التنويم المغناطيسي: ١٢٣.

والأرواح قابلية على إبراز الظواهر التي عرفت فيما بعد بالظواهر الباراسايكولوجية.

ومما ثبت أيضاً أن هذه الملكات عندما تظهر فإنها لن تكون على وتيرة واحدة، وثبت أنها متفاوتة من ناحية الشدّة والضعف، فقد تكون قوية وبارزة الآثار عند البعض، بينما تكون ضعيفة عند البعض الآخر، ويضاف إلى ذلك ثبوت أن للتدريب والممارسة دور كبير في تطوير هذه الملكات، فإذا تواصلت الممارسة والتدريب فإن الأداء يتحسن بصورة واضحة، وعلى العكس من ذلك فإن الترك والإهمال يؤدي إلى ضمورها، ولذلك ساد اعتقاد بأن التدريب قادر على أن يجعل جميع الناس من أصحاب هذه القدرات إذا تحلّوا بالصبر والمواصلة واتّباع الخطوات الصحيحة بناءاً على أن هذه القدرات من مختصات روح أو نفس أي إنسان، وأنها موجودة لدى الجميع لكن الظروف تعمل على بروزها عند البعض وضمورها عند البعض الآخر تماماً مثل ملكة تعلم الكتابة أو المهارات الإنسانية الأخرى.

وإذا كان هناك مثل هذه الملكات التي تكون إيجابية التأثير، فإننا بإمكاننا تصوّر ملكات سالبة تقود إلى إيقاع الضرر من قبيل «قدرات بعض العيون على «حرق» شيء ما»[1].

ويمكن تصوير بروزها عند أناس ذوي مشاعر سلبية، فقد ثبت من خلال التجارب أن هناك موجات شعورية متنوعة فمن خلال مئات البحوث (الموجية) التي قام بها (الدكتور ديلجادو) وجد «الأنواع الخاصة بكل حالة شعورية»[2]. ولذلك استطاع من خلال توجيه هذه الموجات بواسطة جهاز صغير التأثير على ثور بدفعه إلى الهياج ثم تهدئته.

---

(١) هل هناك حاسة سادسة: ٩١.

(٢) المصدر نفسه: ٨٧.

وهكذا نلاحظ أن الشعور أو الموجات المنطلقة من النفس لها آثار على الآخرين، وأن العين غالباً ما تعمل على تركيز هذه الطاقة، فبعض قارئي «الفنجان» من ذوي القدرات الحقيقية لا يرون الفنجان كما يزعمون ولكنهم تدربوا على أن «يجبروا الطرف الآخر على التركيز» في شيء محدد لنجاح عملية التليباثي التي يقومون بها ودليلنا على ذلك واضح في استبدال «الفنجان بورق اللعب» أو «البيضة» أو حتى «دهن ظفر الإبهام» بمادة ملونة سوداء[١].

وهكذا نلاحظ أن العين تلعب دوراً رئيسياً في توجيه القوى النفسية التي صارت لها استخدامات واسعة، والتي يمكن أن تكون في حدود قصوى شبيهة بالطاقة التي جاء بها «آصف بن برخيا» بعرش بلقيس بين يدي النبي سليمان، فإذا أمكن نقل بعض الأشياء أمتار فإنه بمرور الزمن يمكن أن تتطور الملكة لنقل هذه الأشياء كليومترات.

«من نافلة القول أنه ليس في قدرة الأفراد اليوم استخدام الإدراك الحسي الفائق حسب الرغبة على رغم أنّ كل فرد منّا يتمتع بتلك الموهبة، فنحن لا نمتلك نظاماً فكرياً كافياً للتحكم بأفكارنا وجعل أنفسنا حسبما نتمنّى في حالة تؤهلنا للإدراك الحسي الفائق»[٢].

إلاّ أن هذه الملكة قابلة للتطور ككل الملكات التي حاز عليها الإنسان، وأنّها يمكن أن تساهم في أداء فعاليات كثيرة على صعيد التطور الحضاري، ولعلنا نستطيع أن نفسّر من خلال هذه الملكات ما وصلت إليه الحالة في زمن سليمان عليه السلام عندما استطاع التأثير على الوحوش والطير وعلى الشياطين. وإذا

---

(١) هل هناك حاسة سادسة: ٨٩.

(٢) تدريب الإدراك الحسي الفائق: ١٠.

أتيح للإنسان البلوغ إلى هذه المزايا، فإن أطواراً من الحضارة والمدنية سوف تولد ليس لها سابقة في التأريخ.

ومن المفيد جداً الالتفات إلى ما مرّ في طيات الأحاديث من الإشارة إلى أن العين هي من جملة ((السحر)) ثم أنها أيضاً موجودة لدى كل إنسان يقوى على الرؤية العلمية التي تقول بأنّ هذه القوة موجود لدى كل البشر، وأنّها يمكن أن تبرز وأن ضمها إلى السحر يعني إدراجها في بعض أشكالها ضمن العلل الخفية التي يتمكن بعض البشر من تطويرها من خلال الممارسة إلى استخدامها بحدود معينة في الاستخدام الإرادي، ولكن الاستخدام هنا يكون استخداماً سالباً وبالتالي، فإن وجود الوجه السالب يلفت النظر إلى وجود الوجه الموجب.

وعلى هذا الأساس فإنّنا يمكن لنا إدراك الإصابة بالعين على أساس ما قدمه علم البارسايكولوجي من أساس، والذي أكد وجود قوى وقدرات لدى الإنسان يمكن أن تنطلق في ظروف معينة لأداء شغل بالمعنى الفيزيائي للشغل، وأن العين هي التي تمثل حلقة الارتباط بين الحقول المغناطيسية الموجودة داخل النفس أو خارجها وتعمل على تسليطها على الجسم الذي تم التركيز عليه، وإذا أمكن بشكل تجريبي نقل أجسام وإحراق أجسام، فإن الصورة التي تكلمت عنها الأحاديث أشارت إلى هذه القدرة ((العين نزل الحالق)).

فمن خلال المواصفات العامة التي جاءت في الأحاديث، فإننا نلاحظ أنّها تشير إلى هذه القوة بنفس الصورة التي ترسمها تجارب البارسايكولوجي، فجميع المعالم التي أثبتتها التجارب موجودة في الأحاديث مع الفارق هو أن الصورة كانت تتحدث عن الآثار السالبة لهذه القوة، بينما التجارب تناولت القوة بأشكالها المتنوعة.

والأمر الذي يمكن استنتاجه أن الأحاديث حاولت الإشارة إلى هذه القوة باعتبارها قوة سحرية (أي خفية) حقيقية ليست من قبل الألاعيب والحيل السحرية، ولذلك فإنّها نفت أي سلطة للساحر إلاّ في هذه الناحية كما نلاحظ أن العمليّة تتم أيضاً بالاستفادة من أشياء متعلقة بالشخص لتوجيه الطاقة نحوه وهو الذي أكّده أيضاً العلم، وهذا يمكن للعين أن تكون أداة رئيسية في التركيز وتوجيه القوى، ولهذا فإن البشر نسبوا إليها الآثار بينما أن الحقيقة التي حاولت النصوص تبيانها هي أن هذه قوة طبيعية موجودة لدى كافة البشر، وأنها قابلة للتطور في درجة معينة لدى السحر، وأنّها قادرة على إنجاز الكثير من الأشياء إذا ما وصلت إلى درجة الاستخدام الإرادي.

وفي النهاية فإن تقدم العلم كفيل بتقديم صورة أكثر دقة عن هذا العالم الذي بدأت تتلاحق الأبحاث حوله منذ عام ١٩٧٠ وهو لا يزال يعد بالكثير ولا نملك غير الأسف لأننا لم نفهم الإشارات التي جاء بها الوحي رغم أنها مودعة في الكتب منذ زمن بعيد، كما أن أقوال العلماء قدمت صورة لا تختلف عن التفسير العلمي المعاصر لأنّها نسبت القوة إلى النفس وقالت بانطلاق الأشعة وهو الأمر الذي لم يتجاوزه العلم.

وهذا يجب أن يكون حافزاً لفهم إيماءات الوحي فهماً موضوعياً بدلاً عن الفهم الذي يبعدنا عن رؤية الصورة الحقيقة.

الفصل الثامن

أقوال العلماء المسلمين
في حقيقة السِّحر وطريقة تأثيره

أقوال العلماء المسلمين
في حقيقة السّحر وطريقة تأثيره

لقد مرّ في البحث السابق، أنّ العنصر الأساسي الذي يقوم عليه معنى السّحر، هو الخفاء المؤدي إلى خلق انطباعات غير صحيحة عن الحقائق التي تجري في الواقع، وبالتالي فإنّه مؤسّس على عنصرين هما:

إمّا الجهل الذي يوجد بصورة طبيعية في عوام الناس وبمعزل عن قدرات السّاحر، إذ يكون الناس غير مطّلعين على خصائص المواد الطبيعية أو الأعشاب الطبيّة، وبالتالي فإنّ إطّلاع الساحر على هذه الخصائص، يقود إلى خلق انطباعات عن بعض الأوضاع أو المواد، فينتفع الساحر بواسطة هذا الانطباع في جرّ الأذهان بعيداً عن الحقائق الموضوعيّة، أو الإفادة منها في خلق الضرر.

أو أن السحر مؤسّس أيضاً على العنصر الآخر الذي هو التجهيل، إذ يسخّر الساحر مهاراته لإخفاء حقيقة معيّنة، أو خلق انطباعات خاطئة، كما في الاستفادة من خفة الحركة لغرض خداع العين، والعجز في اكتشاف الترابط بين الحوادث الجزئية، في حقيقة حدوث الحادثة الكلية كما في تحويل الحبال إلى أفاع.

وهكذا فإن السحر يرتبط ارتباطاً مباشراً بالجهل والتجهيل، ولهذا فإن العلماء ومنهم الطبرسي عندما فسّر الآية ﴿... *يعلمون الناس السّحر*...﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

قال: إن السحر يرتبط بالجهل والخداع وخفاء بعض الحقائق وإخفائها.

فقد قال الطبرسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ *يعلّمون الناس السحر* ﴾ السحر والكهانة والحيلة نظائر، يقال: سحره يسحره سحراً. وقال صاحب العين: السحر عمل يقرّب إلى الشياطين، ومن السحر الآخذة التي تأخذ العين حتّى تظنّ أنّ الأمر كما ترى وحقيقة الأمر ليس كما ترى، فالسحر عمل خفيّ لخفاء سببه، يصوّر الشيء بخلاف صورته، ويقلبه عن جنسه في الظاهر، ولا يقلبه عن جنسه في الحقيقة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ *يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى* ﴾[1] [2].

ومن هنا، فإن الجهل هو جزء أصيل في عملية السحر، فلو عرف الناس مثلاً كيف يصير الحبل كالأفعى، لما كان هناك أي سحر ولانتهت قدرة الساحر. وهكذا بالنسبة لخصائص المواد، لو دخلت في إطار المعلومات التي يصل إليها الإنسان بصورة عادية، مثلما هو قائم في عالمنا المعاصر.

ومن هذا المنطلق نشأ الخلاف بين العلماء في حقيقة السحر، وطريقة تأثيره، وهو موضوع هام جداً سبق إليه العلماء المسلمون في الموقف منه قبل سبق موقف العلوم المعاصرة، فهل السحر حقيقة أم هو خداع؟.

إنّ النهضة العلميّة حكمت عليه بأنه خداع، وأسقطته في الحساب، بينما كان العلماء المسلمون أكثر موضوعية، إذ أقرّوا في غالبيتهم بوجود آثار للسحر، وهكذا فإننا نلاحظ تعدّد المواقف من السحر حول حقيقته وطريقة تأثيره فقد قال البيضاوي:

---

(١) سورة طه: ٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢.

المراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان ممّا لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلاّ لمن يناسبه في الشر وخبث النفس، فإن التناسب شرط في التضام والتعاون، وبهذا يميز الساحر عن النبيّ والوليّ، وأمّا ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفّة اليد فغير مذموم؛ وتسميته سحراً على التجوّز، أو لما فيه من الدقّة لأنّه في الأصل لما خفي سببه[1].

وقال الشيخ تتمثّل في التبيان: قيل في معنى السحر أربعة أقوال:

أحدها: أنّه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها، يخيّل إلى المسحور أنّ لها حقيقة.

والثاني: أنّه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

والثالث: أنّه قلب الحيوان من صورة إلى صورة، وإنشاء الأجسام على وجه الاختراع، فيمكن الساحر أن يقلب الإنسان حماراً وينشئ أجساماً.

والرابع: أنّه ضربٌ من خدمة الجنّ. وأقرب الأقوال الأوّل لأن كلّ شيء خرج عن العادة الجارية فإنّه سحر لا يجوز أن يتأتّى من الساحر، ومن جوّز شيئاً من هذا فقد كفر، لأنّه لا يمكن مع ذلك العلم بصحّة المعجزات الدالّة على النبوّات، لأنّه أجاز مثله على جهة الحيلة والسحر[2].

وقال النيسابوري: السحر في اللغة عبارة عن كلّ ما لطف مأخذه وخفي سببه، ومنه الساحر العالم، وسحره خدعة، والسُحر الرئة. وفي الشرع مختص بكل أمر يختفي سببه ويتخيّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢.

والخداع، وقد يستعمل مقيَداً فيما يمدح ويحمد، وهو السحر الحلال، قال ﷺ: إنّ من البيان لسحراً[1].

وما ذهب إليه البيضاوي من بيان معنى السحر، أنّه ذلك الذي يرتبط بالشيطان وهو الباعث على الشرور. وهكذا فإن السحر ذلك الناتج من اللقاء والتعاون بين المخلوقات المختلفة من الجن والإنس، وهكذا فإنه يقدّم ضابطة يميَز بها بين السحر المذموم، أو المحرم وما سواه، مما يشترك معه في الإسم وليس في الخصائص، وهكذا فإن السحر سينقسم إلى سحر محرّم وسحر غير محرم، تبعاً للضوابط، ولعل ما ذكره هو الضابطة الرئيسية فيها، وقد لا تكون الوحيدة، إذ قد يضاف إليها اشتراط ما ينتج عنه في استخدامه في الضرر كما أشير إليه في قوله: ﴿ *ما يفرّقون به* ﴾ فيه وجوه:

أحدها: إنّهم يوجدون أحدهما على صاحبه ويبغضونه إليه، فيؤدي ذلك إلى الفرقة.

وثانيها: أنّهم يغوون أحد الزوجين ويحملونه على الكفر والشرك بالله تعالى، فيكون بذلك قد فارق زوجه الآخر المؤمن المقيم على دينه، فيفرّق بينهما على اختلاف النحلة وتباين الملّة.

وثالثها: أنّهم يسعون بين الزوجين بالنميمة والوشاية حتّى يؤول أمرهما إلى الفرقة والمباينة. ﴿ *إلّا بإذن الله* ﴾ أي بعلم الله فيكون تهديداً أو بتخلية الله[2].

ومن هذا المنطلق نشأ التعدّد في مفهوم السحر وتصوّر معناه، كما أورد المصنف نقلاً عن «التبيان» وأنه على أربعة أقوال، منها أنه خدع وتمويهات،

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢.

وثانيها: أنه خداع العين، وثالثها: أنه إحداث التحول عن وجه الحقيقة، وهذا يعني امتلاك الساحر القدرة التي تبيح له التصرف. ورابعها: أنّه الاستعانة بالجن، ومثل ذلك عرف النيسابوري السحر مستنداً إلى عنصر الخفاء في التعريف، أمّا أنواعه التي أشرنا إلى مختصرها في السابق فهي كما يلي:

ثم السحر على أقسام:

منها: سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبّرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات.

والشرور والسعادة والنحوسة، ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضيّة، وهم الذين بعث الله إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم.

ومنها: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، بدليل أن الجذع الذي يتمكّن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض، لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر، وما ذاك إلاّ لأنّ تخيّل السقوط متى قوي أوجبه. وقد اجتمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القويّة اللمعان والدوران، وما ذلك إلاّ لأنّ النفوس خلقت مطيعة للأوهام. واجتمعت الأمم على أنّ الدعاء مظنّة الإجابة، وأنّ الدعاء باللسان من غير طلب نفساني قليل الأثر، والإصابة بالعين ممّا اتّفق عليه العقلاء.

ومنها: سحر من يستعين بالأرواح الأرضيّة، وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجنّ.

ومنها: التخييلات الآخذة بالعيون، وتسمّى بالشعبذة.

ومنها: الأعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على النسب الهندسيّة، أو لضرورة الخلاء، ومن هذا الباب صندوق الساعات وعلم جر الأثقال. وهذا لا يعد من السحر عرفاً لأنّ لها أسباباً معلومة يقينية.

ومنها: الاستعانة بخواص الأدوية والأحجار.

ومنها: تعليق القلب، وهو أن يدّعي الساحر أنه قد عرف الإسم الأعظم، وأنّ الجنّ ينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتّفق أن كان السامع ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنّه حقّ وتعلّق قلبه بذلك، وحصل في قلبه نوع من الرّعب، وحينئذ تضعف القوى الحسّاسة فيتمكّن الساحر من أن يفعل فيه ما يشاء.

ومنها: السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيّة لطيفة ـ انتهى...[1].

أمّا بالنسبة لطريقة تأثير السحر، فقد تم تفسيرها من خلال تفسير أسلوب التفريق بين المرء وزوجه، الذي مرّ في الآية، وهو كما مرّ أن يتم نتيجةً لأثر الكفر الذي يؤدي إلى التفريق شرعياً بين أحد الزوجين الذي كفر وزوجه المؤمن.

وإمّا من قبيل النفث في العقد ونحو ذلك، وفي هذا إشارة إلى وجود آثار موضوعية، تؤدي إلى التفريق تتجاوز الاعتبارات الشرعية.

وقال أيضاً في قوله سبحانه: ﴿فيتعلمون﴾ أي فيتعلّم الناس من الملكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه.

إمّا لأنّه إذا اعتقد أنّ السحر حقّ فقد كفر فبانت منه امرأته، وإمّا لأنه يفرّق بينهما بالتمويه والاحتيال، كالنفث في العقد ونحو ذلك ممّا يحدث الله عنده الفرك والنشوز ابتلاءً منه، لأن السحر له أثر في نفسه بدليل قوله: ﴿وما

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٤.

هم بضارّين به من احد إلاّ بإذن الله ﴾[1] أي بإرادته وقدرته، لأنه إن شاء أحدث عند ذلك شيئاً من أفعاله، وإن شاء لم يحدث.

وكأنَّ الذي يتعلّمون منهما لم يكن مقصوراً على هذه الصورة، ولكن سكون المرء وركونه إلى زوجه لمّا كان أشدّ خصّت بالذكر ليدلّ بذلك على أن سائر الصور بتأثير السحر فيها أولى ـ انتهى ـ[2].

ولعلّ الأثر الشرعي غير منظور في الحديث عن الأثر، لأنه ناتج عن التعليم الذي أدّاه الملكان، كما بيّنت الآية، ويمكن أن نفسّر الأثر أنه عن طريق التعاون مع الجن الذي يقومون بالإيحاء بصورة مستمرة إلى أحد الزوجين بما يشين إلى الزوج الآخر، وإيقاظ المثالب والتذكير بالهنات أو خلق الحوافز للنزاع والنفرة، كما يمكن ذلك عن طريق التأثير «التلباثي» والاتصال بين بعض النفوس، حيث أثبت العلم الحديث وجود بعض النفوس القويّة القادرة على التسلط على الآخرين. وقد تكون للأشياء المستخدمة من قبيل أجزاء اللباس أو المواد الأخرى، وسائط لتوجيه هذه القوى النفسية، خصوصاً أن التأثيرات الإيجابيّة ثمّ اختبارها والتأكد منها وقد مرّ هذا في السابق.

«من تفسير الإمام عليه السلام: ﴿ *فيتعلّمون* ﴾ يعني طالبي السحر ﴿ *منهما* ﴾ يعني ممّا كتبت الشياطين على ملك سليمان من النيرنجات، وممّا أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، يتعلّمون من هذين الصنفين ﴿ *ما يفرّقون به بين المرء وزوجه* ﴾ هذا من يتعلّم للإضرار بالناس، يتعلّمون التضريب بضروب الحيل والنمائم والإيهام أنّه قد دفن في موضع كذا وعمل كذا ليحبّب المرأة إلى الرجل، و الرجل إلى المرأة، أو يؤدي إلى الفراق بينهما، ﴿ *وما هم بضارّين به* ﴾

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٥.

أي ما المتعلّمون لذلك بضارّين به ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بتخلية الله وعلمه، فإنّه لو شاء لمنعهم بالجبر والقهر»[1].

فالتعلّم يعني وجود أساليب معيّنة تمنح المتعلم القدرة على خلق آثار موضوعية، لكن من غير المعلوم أن التفريق بين الزوجين، هو الأثر الوحيد، أم أنّه مجرد مثال للتأثير؟ وأن هناك آثار أخرى يمكن تعلمها والإفادة منها في إنتاج الآثار السحرية التي نهى عنها الشارع المقدس. ولعلّ الأوصاف الأخرى تؤكد هذا الاحتمال لأن الآيات في العادة يفسّر بعضها بعضاً، وبالتالي فإن ما جاء في الحديث عن الصراع بين موسى والسحرة، مما وصفه القرآن بالسحر العظيم، يشير إلى دائرة أخرى من السحر، وبالتالي يفتح الآفاق من خلال الإطلاق في استخدام مفردة السحر في الآية، فيفيد ويشعر بإمكان وجود آفاق أخرى غير التفريق بين المرء وزوجه، ويمكن أن يكون ما أورده الطبرسيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾[2] أي: فلمّا ألقى السحرة ما عندهم من السحر احتالوا في تحريك العصي والحبال بما جعلوا فيها من الزئبق، حتّى تحركت بحرارة الشمس وغير ذلك من الحيل وأنواع التمويه والتلبيس، وخيّل إلى الناس أنّها تتحرك على ما تتحرّك الحيّة. وإنّما سحروا أعين الناس لأنّهم أروهم شيئاً لم يعرفوا حقيقته، وخفي ذلك عليهم لبُعده منهم، لأنّهم لم يخلّوا الناس أن يدخلوا فيما بينهم. وفي هذا دلالة على أنّ السحر لا حقيقة له، لأنّه لو صارت الحبال حيّات حقيقة لم يقل الله سبحانه ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بل كان المفروض أن يقول: «فلمّا ألقوا صارت حيّات» - انتهى -[3].

---

(١) البحار الأنوار: ٦٠ / ٥، عن تفسير الإمام العسكري ﷺ.

(٢) سورة الأعراف: ١١٦.

(٣) بحار الأنوار: ٦٠ / ٥، عن مجمع البيان: ٤ / ٤٦١.

وحتى لو ذهبنا إلى ما ذهب إليه الرازي بقوله:

احتجّ به القائلون بأنّ السّحر محض التمويه بهذه الآية. قال القاضي: لو كان السحر حقّاً لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم، فثبت أن المراد أنّهم تخيّلوا أحوالاً عجيبة، مع أنّ الأمر في الحقيقة غير ما تخيّلوه[١].

وثبت أنّه مجرد تمويه، فإنه سيكون أثراً ناتجاً عن قدرة حقيقية هي القدرة على التمويه، وكذلك قول الواحدي: بل المراد: سحروا أعين الناس أي قلبوها عن صحّة إدراكها بسبب تلك التمويهات[٢]. وكذلك قول الطبرسي في معرض تفسير الآية: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾[٣].

وقال الطبرسيّ: ﴿ولا يفلح الساحرون﴾[٤] أي لا يظفرون بحجّة، ولا يأتون على ما يدّعونه ببيّنة، وإنّما هو تمويه على الضعفة.

قوله تعالى: ﴿ما جئتم به السّحر﴾[٥] أي الذي جئتم به من الحبال والعصي السحر، لا ما جئت به أنا. ﴿إنّ الله سيبطله﴾ أي هذا السّحر الذي عظّمتموه.

قوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يصلح عمل المفسدين﴾[٦] إنّ الله لا يهيئ عمل من قصد إفساد الدين ولا يمضيه، ويبطله حتّى يظهر الحقّ من الباطل[٧].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٦، عن تفسير الرازي: ١٤ / ٢٠٣.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٦، عن تفسير الرازي: ١٤ / ٢٠٣.

(٣) سورة طه: ٦٩.

(٤) سورة يونس: ٧٧.

(٥) سورة يونس: ٨١.

(٦) سورة يونس: ٨١.

(٧) بحار الأنوار: ٦٠ / ٦، عن مجمع البيان: ٥ / ١٢٥.

فالبطلان لا ينفي وجود القدرة حتى لو كانت قدرة على التمويه، ثم إنّه قد يكون بطلان إعجازي من قبيل إثبات النبوة، كما أبطل الله سبحانه وتعالى قدرة النار على الإحراق عندما أراد الكفار إحراق نبيه إبراهيم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ *يخيّل* ﴾ قال الطبرسي: الضمير في إليه راجع إلى موسى عليه السلام وقيل: إلى فرعون، أي يرى الحبال والعصيّ من سحرهم أنّها تسعى وتعدو مثل سير الحيّات. وإنّما قال: ﴿ *يخيّل إليه* ﴾ لأنّها لم تكن تسعى حقيقة، وإنّما تحرّكت لأنّهم جعلوا داخلها الزئبق، فلمّا حميت الشمس طلب الزئبق الصّعود، فحرّكت الشمس ذلك فظنّ أنّها تسعى.

﴿ *إنّما صنعوا* ﴾ أي إن الذي صنعوه أو إن صنيعهم ﴿ *كيد ساحر* ﴾ أي مكره، وحيلته. ﴿ *ولا يفلح الساحر* ﴾ أي لا يظفر ببغيته، إذ لا حقيقة للسّحر ﴿ *حيث أتى* ﴾ [1] أي حيث كان من الأرض، قيل: لا يفوز الساحر حيث أتى سحره، لأنّ الحقّ يبطله[2].

أمّا عدم الفلاح فقد يكون ناظراً للآثار الآخروية، حيث يعود على صاحبه بالجحيم، أو من باب محدودية الآثار لأنّه واقع ضمن الشر الذي غالباً ما يكون أثره محدوداً، لأنّ الله قضى عليه بذلك، وهذا لا ينافي وجود الأثر المؤقت والمجتزء.

أمّا بالنسبة للأحاديث فإنّها كانت ذات دلالات متعدّدة منها:

«١ـ في هجرة جعفر بن أبي طالب وأصحابه إلى الحبشة حيث بعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشيّ ليردّهم والخبر طويل ـ إلى أن قال ـ وكانت على رأس النجاشي وصيفة له تذبّ عنه، فنظرت إلى

---

(١) سورة طه: ٦٩.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ١١، عن مجمع البيان: ٧ / ١٨ ـ ٢٠.

عمارة ـ وكان فتى جميلاً ـ فأحبّته، فلمّا رجع عمرو بن العاص إلى منزله قال لعمارة: لو راسلت جارية الملك! فراسلها، فأجابته، فقال عمرو: قل لها تبعث إليك من طيب الملك شيئاً.

فقال لها، فبعثت إليه، فأخذ عمرو من ذلك الطيب وأدخله على النجاشي وأخبره بما جرى بين عمارة وبين الوصيفة، ثم وضع الطيب بين يديه. فغضب النجاشي وهمّ بقتل عمارة، ثم قال: لا يجوز قتله، فإنّهم دخلوا بلادي بأمان، فدعا السحرة فقال لهم: اعملوا به شيئاً أشدّ عليه من القتل، فأخذوه، فنفخوا في إحليله الزئبق فصار مع الوحش يغدو ويروح، وكان لا يأنس بالناس. فبعثت قريش بعد ذلك: فكمنوا له في موضع حتّى ورد الماء مع الوحش، فأخذوه فما زال يضطرب في أيديهم ويصيح حتّى مات ـ الخبر ـ[1].

وفي هذا الحديث دلالة على الاستفادة من الزئبق في إحداث تأثير كان لا يزال في ذلك العصر من السحر، بينما هو من الآثار الكيمياوية لمادة الزئبق، ولعل الزئبق لم يكن المادة الوحيدة، بل ربما اشتركت معه مواد أخرى في إحداث الأثر الذي كما يبدو كان نفسياً لأن عمارة هجر البشر وهام مع الوحوش ويمكن لنا تخيّل هذه المادة من نوع المواد التي تؤثر على العقل، وتحدث حالة من الجنون التي باتت كثيرة ومتعدّدة في العصر الحاضر، وتتراوح تأثيراتها في الآثار المؤقتة، إلى التي تدوم ساعات، إلى المواد الأخرى التي تسبب جنوناً أو أمراضاً أخرى تحدث بعد فترة، وتكون آثارها أبديّة، وغير قابلة للإزالة أو العلاج.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٦، عن تفسير القمي: ١ / ١٧٦ ـ ١٧٨.

وعليه فإنّ هذا النوع كما أسلفنا قد عدّ سحراً لأنّه يوفر شرط الخفاء والضرر، والأثر الروحي أو النفسي، وهو يمكن أن لا يعد كذلك في العصر الحاضر، لدخوله في علم الكيمياء الخاص بالمواد السامّة».

«٢ ـ في رواية أدعية السرّ القدسيّة: يا محمّد!، إنّ السحر لم يزل قديماً وليس يضرّ شيئاً إلاّ بإذني، فمن أحبّ أن يكون من أهل عافيتي من السّحر، فليقل: «اللهم ربّ موسى ـ الدعاء ـ» فإنّه إذا قال ذلك لم يضره سحر ساحر جنّي ولا إنسي أبداً[1].

فله دلالتان هامتان، الأولى: أن التأثير الذي يمكن أن يقع لا يخرج عن دائرة القضاء والقدر، لأنه لا يوجد شيء في هذه الحياة خارج دائرة الإذن الإلهي، كما أن الدلالة الثانية هي أن الضرر يمكن إبطاله بطرق يعدّ الاستفادة من الدعاء أحدها، ولعل هذا الدعاء له أثر خاص في إبطال السحر.

سأل زنديق أبا عبد الله عليه السلام فيما سأله، فقال: أخبرني عن السحر ما أصله؟ وكيف يقدر الساحر على ما يوصف من عجائبه وما يفعل؟ قال: إنّ السحر على وجوه شتّى: وجه منها بمنزلة الطب، كما أن الأطبّاء وضعوا لكلّ داء دواء، فكذلك علم السحر احتالوا لكلّ صحة آفة، ولكل عافية عاهة، ولكل معنى حيلة. ونوع منه آخر، خطفة وسرعة ومخاريق وخفّة، ونوع منه ما يأخذ أولياء الشياطين عنهم. قال: فمن أين علم الشياطين السحر؟ قال: من حيث عرف الأطباء الطب. وبعضه تجربة، وبعضه علاج.

قال: فما تقول في الملكين: هاروت وماروت، وما يقول الناس بأنّهما يعلمان الناس السحر؟ قال: إنّهما موضع ابتلاء وموقف فتنة، تسبيحهما اليوم لو فعل الإنسان كذا وكذا لكان كذا، ولو يعالج بكذا وكذا لصار كذا، أصناف سحر، فيتعلّمون منهما ما يخرج عنهما، فيقولان لهم: إنّما نحن فتنة

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٦، عن جنة الأمان.

فلا تأخذوا عنّا ما يضرّكم ولا ينفعكم. قال: أفيقدر الساحر أن يجعل الإنسان بسحره في صورة الكلب أو الحمار أو غير ذلك؟

قال: هو أعجز من ذلك، وأضعف من أن يغيّر خلق الله! إنّ من أبطل ما ركّبه الله وصوّره غيره فهو شريك لله (في خلقه) تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً! لو قدر الساحر على ما وصفت لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض، ولنفى البياض عن رأسه والفقر عن ساحته. وإن من أكبر السحر النميمة! يفرّق بها بين المتحابّين، ويجلب العداوة على المتصافيين، ويسفك بها الدماء، ويهدم بها الدور، ويكشف بها الستور. والنمّام أشر من وطئ على الأرض بقدم! فأقرب أقاويل السحر من الصواب أنّه بمنزلة الطبّ. إنّ الساحر عالج الرجل فامتنع من مجامعة النساء، فجاء الطبيب فعالجه بغير ذلك العلاج فأبرأه»[1].

وهنا إعادة إلى تعداد أنواع السحر التي تم استعراضها سابقاً، كما أننا نرى أن التصوّر الذي نشأ عن أصل السحر، إنّما هو عبارة عن تجارب وفنون وخبرات، يحصل عليها الإنسان عبر التجربة ـ التي تنتقل إليه ـ عبر الاتصال بالشياطين التي كانت قد تعلمت السحر بنفس الطريقة التي يتعلم بها الأطباء الطب الذي تعلموه من الإلمام بخصائص المواد والتجربة التي يتناقلها الأطباء كل عن الآخر، وبالتالي هو عبارة عن تراكم للخبرة، كما أن الحديث يطرح فكرة أن الملكين علّما الناس الكثير من المعلومات، وكان بعض منها ما ينفع في الممارسات السحرية، لكن الملائكة حذّروا من أسلوب الانتفاع منها، إذ يفترض أن الإنسان المؤمن لا يلجأ إلى الانتفاع المحرّم مهما كان ذلك، وبهذه الطريقة فإن التعليم لا يعني تحديد طريقة الانتفاع، وقد مرّ بحث ذلك.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢١، عن الاحتجاج: ١٨٥.

وبالنسبة لدائرة فاعلية الساحر فإنها لا تصل إلى القدرة على تغيير خلقة الكائنات، لأن ذلك يحتاج إلى قدرة كبيرة.

على أن السحر ليس كلّه ضرر، بل بعضه نافع ويؤدي إلى علاج حالات كما في الطب، وكذلك يؤدي إلى إبطال السحر من خلال السحر المضاد.

عن عيسى بن محمّد، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سحر لبيد بن أعصم اليهودي وأمّ عبد الله اليهوديّة رسول الله صلى الله عليه وآله في عقد من قز أحمر وأخضر وأصفر فعقدوه له في إحدى عشرة عقدة، ثمّ جعلوه في جفّ من طلع، ثم أدخلوه في بئر بوادٍ بالمدينة في مراقي البئر تحت حجر، فأقام النبي صلى الله عليه وآله ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب ولا يسمع ولا يبصر ولا يأتي النساء. فنزل عليه جبرئيل عليه السلام وأنزل معه المعوذات، فقال له: يا محمّد! ما شأنك؟ قال: ما أدري، أنا بالحال الذي ترى. قال: فإنّ أمّ عبد الله ولبيد بن أعصم سحراك، وأخبره بالسحر، وحيث هو. ثم قرأ جبرئيل عليه السلام: ﴿ *بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ بربّ الفلق* ﴾[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ذاك، فانحلّت عقدة، ثمّ لم يزل يقرأ آية ويقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وتنحلّ عقدة، حتّى أقرأها عليه إحدى عشرة آية، وانحلّت إحدى عشرة عقدة، وجلس النبيّ ودخل أمير المؤمنين عليه السلام فأخبره بما أخبره جبرئيل عليه السلام وقال: انطلق وائتني بالسحر، فخرج علي عليه السلام فجاء به فأمر به النبيّ صلى الله عليه وآله فنقض، ثمّ تفل عليه وأرسل إلى لبيد وأمّ عبد الله، فقال ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله على لبيد وقال: لا أخرجك الله من الدنيا سالماً، قال: وكان موسراً كثير المال، فمرّ به غلام يسعى في أذنه قرط قيمته دينار فجاذبه، فخرم أذن الصبي فأخذه فقطعت يده فمات من وقتها[2].

---

(١) سورة الفلق: ١.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٣، عن تفسير فرات الكوفي ٢ / ٦١٩.

بيان: في القاموس: الجفّ ـ بالضم ـ وعاء الطلع. في المصدر: الجف: يعني قشور اللوز.

أقول: قد مرّ الكلام في تأثير السحر في الأنبياء والأئمّة عليهم السلام وأن المشهور عدمه.

وهنا عدة دلالات هي:

١ ـ أسباب نزول السورة.

٢ ـ أثر القرآن المضاد للسحر.

٣ ـ قدرة السحر على التأثير حتى في الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

٤ ـ أعراض التأثير السحري: أعراض مرضية كالتي ذكرها الحديث.

٥ ـ هناك طرق أخرى لإبطال السحر سوى القرآن والدعاء.

في هذا الحديث إشارة إلى أسباب نزول المعوذتين، ومن خلال مجمل الواقع نكتشف أن السحر يؤثر في الأنبياء والأئمة، أي أنّهم من هذه الناحية لا يختلفون عن بقية البشر، ويمكن أن نفهم ذلك من خلال أن السحر يؤثر في النفس، وأن النفس تؤثّر في البدن، فتظهر الأعراض المرضيّة التي وصفها الحديث، وقد أكد العلم الحديث الأثر المتبادل بين النفس والبدن، وتأثير كل منهما في الآخر.

ويأتي نزول المعوذتين كمضاد للسحر، و هكذا فإن الحديث يؤكد وجود الأثر السحري وأنه أثر عام في بعض أنواعه، لا يفرق بين البشر حتى لو كانوا أنبياء وأئمة، لأنّه من نوع الأمراض التي تصيب الإنسان مثل الحمَى والبرد..الخ، وفي نفس الوقت فإن هذا النوع من السحر له مضادات لعل القرآن أحدها، وهذا يدفعنا إلى البحث عن المضادات الأخرى للإفادة منها عند الضرورة.

ويمكن أن يكون الرأي الآخر القائل باستثناء الأنبياء والأئمة صحيحاً، ذلك أن الأداة المفترضة لتأثير هذا السحر هو التأثير النفسي، وهو يمكن أن يكون غير فعّال بحكم قوة الإرادة التي يتمتع بها النبي والإمام، وقدرته على الهيمنة على الشياطين ومتابعة أفعالهم، فضلاً عن الحصانة التي يحيط بها الله الأنبياء والأئمة عليهم السلام على أن خروج هذه الدائرة الضيقة الممتنعة على التأثير من البشر، يمكن أن يكون بمثابة المناعة التي يمتلكها بعض الناس ضد الإصابة ببعض الأمراض، وهي مناعة تنشأ عن امتلاك جهاز مناعة فعّال، يختلف عمّا هو موجود عند الآخرين، و لا يضر ذلك بأصل تأثير السحر في بقيّة الأفراد، وهم سيشكلون أغلب أفراد البشر.

في المدار نفسه تدور هذه الأحاديث:

عن عليّ عليه السلام ـ إلى قوله ـ وجعلاه في مراقي البئر بالمدينة، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم ولا يتكلّم ولا يأكل ولا يشرب، فنزل عليه جبرئيل عليه السلام بمعوّذات ـ وساق نحوه إلى قوله ـ فقطعت يده فكوي منها فمات[١].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ جبرئيل أتى النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا محمّد! قال: لبيّك يا جبرئيل قال: إنّ فلاناً اليهوديّ سحرك، وجعل السحر في بئر بني فلان، فابعث إليه ـ يعني إلى البئر ـ أوثق الناس عندك، وأعظمهم في عينك، وهو عديل نفسك، حتّى يأتيك بالسحر.

وقال: فبعث النبيّ صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقال: انطلق إلى بئر «ذروان» فإنّ فيها سحراً سحرني به لبيد بن أعصم اليهودي، فائتني به. قال عليّ عليه السلام: فانطلقت في حاجة رسول الله صلى الله عليه وآله فهبطت فإذا ماء البئر قد صار

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٣، عن دعائم الإسلام.

كأنّه ماء الحياض من السحر، فطلبته مستعجلاً حتّى انتهيت إلى أسفل القليب فلم أظفر به. قال الذين معي: ما فيه شيء فاصعد، فقلت: لا والله، ما كذبت ولا كذّبت، وما يقيني به مثل يقينكم ـ يعني رسول الله ﷺ ـ ثمّ طلبت طلباً بلطف، فاستخرجت حُقّاً، فأتيت النبيّ ﷺ فقال: افتحه، ففتحته فإذا في الحُقّ قطعة كرب النخل، في جوفه وتر عليها إحدى وعشرون عقدة.

وكان جبرئيل عليه السلام أنزل يومئذ المعوّذتين على النبي ﷺ فقال النبيّ ﷺ: يا عليّ اقرأهما على الوتر، فجعل أمير المؤمنين كلّما قرأ آية انحلّت عقدة حتّى فرغ منها. وكشف الله عزّ وجلّ عن نبيّه ما سحر به وعافاه.

ويروى أن جبرائيل وميكائيل عليهما السلام أتيا إلى النبيّ ﷺ فجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فقال جبرئيل لميكائيل: ما وجع الرجل؟ فقال ميكائيل: هو مطبوب، فقال جبرئيل عليه السلام: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي، ثم ذكر الحديث إلى آخره.

بيان: في القاموس: الكرب ـ بالتحريك ـ أصول السعف الغلاظ، وفي النهاية رجل مطبوب أي مسحور، كنّوا بالطبّ عن السحر تفألاً بالبرء[1].

قال في النهاية: في حديث سحر النبي ﷺ «بئر ذروان» وسكون الراء، بئر لبني زريق بالمدينة وقال: الراعوفة هي صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون ناتئة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس عليها المنقي.

وقيل: هي حجر يكون على رأس البئر يقوم المستقي عليه، ويروى بالثاء المثلّثة بمعناها، وقال: في حديث سحر النبي ﷺ أنه جعل في جف طلعة. الجفّ: وعاء الطّلع، وهو الغشاء الذي يكون فوقه، ويروى في جب طلعة أي في داخلها.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٣، عن طب الأئمة عليهم السلام: ١١٣.

وقال: القعود من الدواب، ما يقتعده الرجل للركوب والحمل، ولا يكون إلاّ ذكراً، والقعود من الإبل ما أمكن أن يركب))[1].

وبالنسبة لموضوع تأثير السحر، فإننّا نواجه قضية الخلط بين السحر وبين سواه، إذ أن الكثير من الشعوب توسّع من دائرة السحر، فتجعل عدداً كبيراً من الأمراض في دائرته مع أنها ليست منه وخصوصاً، في العصور السالفة، حيث ينسب الضرر بصورة عامة إلى الشيطان، باعتباره القوة الموجدة للشر مطلقاً، في مقابل القوة الموجدة للخير الذي ينسب عادة إلى الله، أو إلى الملائكة أو إلى أي قوة أخرى تقابل الشر بالخير.

ومن خلال هذا الخلط، فإن دائرة السحر ظلت عائمة وغير مشخّصة، ولهذا فإن صورة دقيقة عن السحر لم تتوفّر، ولعلّ ما جاء في القرآن والحديث عن السحر، ساهم في تصحيح وإخراج السحر عن الصورة القائمة التي كانت له في العصور السابعة، إلى الصورة العلمية قريباً منها، على أن ما جاء في القرآن لا يطابق دائماً ما هو شائع في أذهان الناس، وهو يتنقل بواسطة انتقال الثقافة وتوارثها، بل لعل العكس حصل، إذ تمّ الاستفادة من ذكر القرآن للفظة السحر في تدعيم السائد.

ونذكر في هذا المجال، ما قام به الإمام علي عليه السلام من ردع أحد المنجمين الذي حاول أن يحدّد زمن إحدى الغزوات بناءً على التنجيم، وهذا يعني أن الإمام سحب واقع الشريعة بصورة كاملة عن هذا النوع من العلم، لأنّه ليس بعلم إطلاقاً، وهناك أيضاً أحاديث نهت عن أشكال أخرى وجعلت منها كفراً. كالتفؤل وقراءة البخت والطالع.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٥، عن أنوار التنزيل: ٢ / ٦٢٧.

والمهم في هذه القضيّة، أنّ الإمامعليه السلام نفى الفاعلية والتأثير عن أحد أهم أصناف السحر التي مرّ ذكرها عند تعداد أنواع السحر.

إذن، فالإسلام حيث ينفي التأثير عن بعض أصناف السحر، فإنّه يعترف بوجود بعضها الآخر، ففي لقاء السحرة بموسى أكد القرآن وجود تأثير للسحر، وهو تأثير يقوم على أعمال الوهم كما في إظهار الحبال والعصي على أنها أفاع؛ دون أن يبين كيفية خلق السحرة لهذا الوهم، لأن هذا خارج عن موضوع الآيات، كما أيّد القرآن تأثير السحر في العلاقة بين الناس، من خلال ذكر مفردة الزوج والزوجة، ويمكن القياس المنطقي لدائرة أوسع من هذا، إذ يمكن أن يحصل ذلك بين الابن والأب، والأم والأبناء، والجيران والأصدقاء أو الشركاء في العمل لوجود الأسباب نفسها.

ولعلّ القرآن لم يذكر الأنواع الأخرى، لأنّها مقحمة في دائرة السحر، بسبب الظروف التي تعيشها الإنسانية، من حيث قلة المعلومات من قبيل أثر المواد الطبية والأعشاب والمواد الكيماوية التي يعرفها بعض الناس وتخفى على الغالبية منهم فيشملها السحر من هذه الناحية.

ثم يتقدم القرآن خطوة، ليعترف بنوع آخر من السحر الذي ألمع إليه في حادثة موسى من خلال ذكره لمفردة (واسترهبوهم).

فهذه الرهبة لم تنشأ عن أسباب حقيقية، فهو خوف من الوهم الموحى به بواسطة قدرة الساحر، وقد فصلت الأحاديث بهذا النوع، فهو يقوم على العلاقات الروحية بين البشر والجن، أو بين البشر والبشر أو الجن والجن، ثم يؤول إلى البشر، وهذه التأثيرات كبيرة، وتختلف آثارها وتبدأ في الإيحاء البسيط، فتصل إلى التسخير حيث يسخر بعض البشر للجن، أو يسخر الجن للبشر، وهذا التسخير نوع من الطواعية التي تشاهدها في الحياة، حيث يفقد الإنسان أي إحساس بالإرادة، ويتبع إرادة إنسان آخر حباً أو خوفاً، أو الاثنين

معاً، فيطيعه فيما يحب أو يكره، ويحدث ذلك في دوائر التسلط كالصداقة أو الزواج أو الأحزاب أو العصابات، الشيء نفسه يتم بصورة أقوى بين الجن والإنس، لكن التعقيد ينشأ بسبب عدم مشاهدة الطرف الثاني أي الجن.

وفي النهاية فإنّ هذا النوع، يعتمد بصورة رئيسة على العلاقات النفسية بين الأحياء، والتفاوت في قوّة الإرادة والتي يعدّ التنويم المغناطيسي أحد أشكالها، إذ لا يحصل بدون تفاوت في قوّة الإرادة بين المنوِّم والمنوَّم، وهذا يشير إلى وجود قواعد وأسس في النفس الإنسانية، يمكن الإفادة منها في حال الإطلاع عليها، مثلها مثل القواعد الفيزياوية في عالم الطبيعة، وهذه الدائرة كانت مما كشفه العلم الحديث، فصار من الأمور المسلّمة، ولا تزال الأبحاث مستمرة عنه لتكشف المزيد من التأثير في القوى النفسية حتى بالنسبة للجمادات، حيث يستطيع البعض تحريك الأشياء عن بعد وبلا وسائط سوى القوى النفسية.

وهذه القوى إذا أضفنا إليها قوى الجن باعتبارهم مخلوقات لها نفوس كنفوس البشر؛ فإنّهم سيدخلون في دائرة التأثير على البشر، وبالتالي تتضاعف فرص إيقاع الآثار السلبية والإيجابية.

أمّا حول حقيقة السحر، فقد برز اختلاف بين العلماء على هذه النقطة، فبعضهم قال إن للسحر حقيقة، وذهب بعيداً إلى القول بقدرة الساحر على قتل إنسان ينفصل عنه بمسافات بعيدة وهو ما قاله الشيخ ـ قدّس سرّه ـ في الخلاف: السحر له حقيقة، ويصحّ منه أن يعقد ويؤثر ويسحر فيقتل ويمرض ويكوع الأيدي ويفرّق بين الرجل وزوجته، ويتفق له أن يسحر بالعراق رجلاً بخراسان فيقتله عند أكثر أهل العلم، وأبي حنيفة وأصحابه ومالك والشافعي[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٨، عن الخلاف: ٢ / ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

وعلى النقيض من ذلك القول بنكران حقيقة السحر واعتباره مجرد توهم وخيال كما قال أبو جعفر الإستر آبادي: لا حقيقة له، وإنّما هو تخييل وشعبذة، وبه قال المغربي من أهل الظاهر، وهو الذي يقوى في نفسي. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿*فإذا حبالهم*﴾ الآية وذلك أنّ القوم جعلوا من الحبال كهيئات الحيّات، وطلوا عليها الزيبق وأخذوا الموعد على وقت تطلع فيه الشمس، حتّى إذا وقعت على الزيبق تحرّك فخيّل لموسى عليه السلام أنّها حيّات ولم يكن لها حقيقة، وكان هذا في أشدّ وقت الحر فألقى موسى عصاه فأبطل عليهم السحر، فآمنوا به.

وأيضاً فإن الواحد منّا لا يصحّ أن يفعل في غيره وليس بينه وبينه اتّصال ولا اتّصال بما يتّصل بما يفعل فيه، فكيف يفعل من هو ببغداد فيمن هو بالحجاز وأبعد منها؟! ولا ينفي هذا قوله تعالى: ﴿*ولكنّ الشّياطين كفروا يعلّمون النّاس السّحر*﴾ لأنّ ذلك لا نمنع منه، وإنّما الذي منعنا منه أن يؤثّر الساحر الذي يدّعونه، فأمّا أن يفعلوا ما يتخيّل عنه أشياء فلا نمنع منه[1].

وهذا الخلاف يبدو أنّه لا يقف في دائرة واحدة، فبعض العلماء ينكر التأثير أصلاً وآخر يقرُّ بهِ كنوع من الوهم، وبين هذا وذاك من يقول بالقدرة لكنها تتفاوت، وتصل إلى حد قدرة الساحر على قتل المسحور بواسطة السحر.

فالشيخ في الخلاف قد أمرّ بحقيقة السحر، وذهب إلى القول بقدرته على جميع أنواع الآثار حتى القتل الصادر تأثيره من العراق لرجل في خراسان، على أننا نلاحظ أن هذا الإقرار يعتمد على قراءة النص وأبعاده، وليس على التجربة. ولعلّ ذلك لعدم وجود فرص كافية لتجربة الآثار، إما بسبب حرمة

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٨، عن الخلاف: ٢ / ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

السحر وتجنب العلماء لأهل الحرمة، أو لتخفيّ السحرة وخصوصاً عن أهل العلم، ثم إنّ السحر نفسه، عالمُ الأسرار والخفاء.

أما الاستر آبادي، فإنّه وإن أنكر التأثير، إلاّ أنه أقر بالتخييل والشعبذة، وهو طبعاً نوع من الآثار وإن كانت ـ هذه الآثار ـ كما أشار المصنف تقع في دائرة الوهم، إلاّ أنها آثار. وعلى هذا الأساس فإننا لا نجد من ينكر إنكاراً مطلقاً آثار السحر ووجودها، لكن هناك من يحصرها في إطار خلق الوهم، دون أن يذهب إلى ادّعاء القدرة على قتل البشر بواسطتها.

ولهذا فإن العلماء جميعاً يقرّون بنوع من التأثير للسحر، حتى ولو كان بالدرجة الميسّرة التي أشار إليها الإستر آبادي ﷺ، ولا يضرّ ذلك بما ورد عن عائشة في الحديث التالي:

فالحديث المروي عن عائشة خصّص الرسول وهو أمر غير ممكن ـ إذا قلنا أن الرسول محصّن عن كثير من فعل الشرور أو الإصابة بها، لما له من خصوصيات العصمة، وهذا طبعاً لا يناقض تأثير السحر على عموم الناس.

ولعل هذا الاختلاف حول تأثير السحر، عائد إلى عدم وجود حدود واضحة له، إذ أنّه يضم الاستفادة من العقاقير الطبية والقوى النفسية والاستعانة بالجان وأشياء أخرى، ولهذا فإن وحدة النظر غير متوفّرة، فإذا كان الاستر آبادي ينظر إلى تأثير أحد أنواع السحر، وهو سحر الأوهام والخفة، فإنّه ينكر الأنواع الأخرى لعدم إطلاعه عليها، وربما نظر إلى أنواع أخرى وهذا بالطبع سبب الاختلاف في النظرة إلى السحر وإلى مدى تأثيره.

ومن هنا، فإن العلماء الذين قالوا بوجود تأثير يصل إلى استطاعة قتل الغير، فإنّه لا ينظر إليه كقتل بسبب عدم المباشرة مثل سقاية السم، لكنّه قد يقتل بصورة غير مباشرة وهذا طبعاً نوع من القتل، إلاّ أنه من الناحية القانونية يختلف عن القتل المباشر.

وكما نقل عن العلاّمة فإنّه يرى في تأثير السحر عملية قتل، لكنه ليس حتمي التأثير، ولذلك لا يمكن اليقين بأن القتل الحاصل كان بسببه.

ولعل ما يذكر في قتل النجاشي لعمارة بن الوليد بواسطة السحر، فإنّه تأثير تضافرت فيه العقاقير إلى جانب التأثيرات النفسية، ولهذا فهو نوع خاص من السحر، وعليه فإن في وصف جميع هذه التأثيرات بصفة السحر، يؤدي إلى اللبس، بالإضافة إلى أن المدار هنا تبعاً على النصوص، وعلى هذا الأساس قرر عدم حقيقة السحر تبعاً لما ذكر نحواً ممّا مرّ من سحر اليهودي النبيّ ﷺ ثم قال: وهذه أخبار آحاد لا يعمل عليها في هذا المعنى، وقد روي عن عائشة أنّها قالت: سحر رسول الله ﷺ فما عمل فيه السحر. وهذا معارض ذلك.

ثمّ قال ﵀: إذا أقرّ أنّه سحر فقتل بسحره متعمّداً لا يجب عليه القود، وبه قال أبو حنيفة، وقال الشافعي: يجب عليه القود. دليلنا أنّ الأصل براءة الذمّة، وأن هذا ممّا يقتل به يحتاج إلى دليل.

وأيضاً فقد بيّنا أن الواحد لا يصحّ أن يقتل غيره بما لا يباشره به، إلاّ أن يسقيه ما يقتل به على العادة مثل السمّ، وليس السحر بشيء من ذلك.

وقد روى أصحابنا أن الساحر يقتل، والوجه فيه أنّ هذا فساد في الأرض والسعي فيها به، فلأجل ذلك وجب فيه القتل.

وقال العلاّمة ـ نوّر الله مرقده ـ في التحرير: السحر عقد ورمي كلام يتكلّم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثّر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة، وقد يحصل به القتل والمرض والتفريق بين الرجل والمرأة وبغض أحدهما لصاحبه ومحبّة أحد الشخصين للآخر، وهل له حقيقة أم لا؟ فيه نظر.

ثمّ قال: والسحر الذي يجب فيه القتل هو ما يعدّ في العرف سحراً، كما نقل الأمويّ في مغازيه أنّ النجاشيّ دعا السواحر فنفخن في إحليل عمارة بن الوليد فهام مع الوحش، فلم يزل معها إلى أمارة عمر بن الخطّاب، فأمسكه إنسان، فقال: خلّني وإلاّ مت، فلم يخلّه فمات من ساعته[1].

أمّا بالنسبة لاعتبار السحر أنه ليس قاتلاً، فهو عائد إلى التصرف في حقيقة القتل، وليس في حقيقة السحر، فإنّه رأى أن المباشرة هي جزء من حقيقة القتل، وبالتالي فإن القتل بواسطة السحر يفتقر إلى هذه الحقيقة، وبالتالي لا يوجب القود، ولهذا فإنّ البعض الآخر لم يقبل بهذا الرأي، ولكنّ العلاّمة كما مرّ رأى إمكان حصول القتل، ولم يعلّق أهمية على المباشرة أو عدمها، وسوى ساوى بين بقية الآثار قبل التفريق بين الزوجين أو الأصحاب، وأحال مسألة القتل إلى العرف، وأن ما حصل لعمارة أو الرجل الآخر يدخل في هذا الأمر إذ قيل: إنّ ساحرة أخذها بعض الأمراء، فجاء زوجها كالهائم، فقال قولوا لها تخل عنّي، فقالت: ائتوني بخيوط وباب، فأتوا بذلك فجلست وجعلت تعقد، فطار بها الباب فلم يقدروا عليها، وأمثال ذلك. وأمّا الذي يعزم على المصروع ويزعم أنه يجمع الجن ويأسرها فتطيعه، فلا يتعلق به حكم، والذي يحلّ السحر بشيء من القرآن والذكر والأقسام فلا بأس به، وإن كان بالسحر حرم على إشكال.

أما ما قاله الشيخ في موضع آخر من: «أنّه لا حقيقة للسحر، وفي الأحاديث ما يدل على أنّ له حقيقة، فعلى ما ورد في الأخبار: لو سحره فمات بسحره ففي القود أشكال والأقرب الدية - إلى آخر ما قاله»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٨، عن الخلاف: ٢ / ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٢٩، عن الخلاف ٢ / ٤٢٣ - ٤٢٤.

فإن هذا طبعاً، مبني على عدم توفر أركان القتل الذي يوجب به القود، وهذا طبعاً ليس بحثاً بحقيقة السحر، لأن بحثه يمكن أن يكون في درجة الجناية المرتكبة بواسطة السحر، وليس في أثره وهل هذا الأثر حقيقي أم لا؟ لأنّ قدر من الإعتراف لا مفر منه.

أما ما ورد في المنتهى من قوله:

واختلف في أنّه له حقيقة أم لا. قال الشيخ رحمه الله: لا حقيقة له: وإنّما هو تخييل، وهو قول بعض الشافعيّة وقال الشافعيّ: له حقيقة، وقال أصحاب أبي حنيفة: إن كان يصل إلى بدن المسحور كدخان ونحوه جاز أن يحصل منه ما يؤثر في نفس المسحور من قتل أو مرض أو أخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطيها أو يفرّق بينهما أو يبغّض أحدهما إلى الآخر أو يحبّبه إليه، فأمّا أن يحصل المرض والموت من غير أن يصل إلى بدنه شيء فلا يجوز ذلك[1].

فهنا مدار النفي، ليس على نفي الحقيقة بصورة مطلقة، وإنّما نفي أن السحر قادر على تحقيق القتل، أي أنّ له حقيقة، إلاّ أنّها لا تصل إلى الدرجة التي تمكّن الساحر من قتل خصومه، أو من يريد قتلهم من الناس.

ثمّ ذكر رحمه الله احتجاج الطرفين بآية «يخيّل إليه» وسورة الفلق، ثمّ قال: وروى الجمهور عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله سُحر حتّى يرى أنّه يفعل الشيء ولا يفعله، وأنّه قال لها ذات يوم: أشعرت أنّ الله تعالى أفتاني فيما استفتيته إنّه أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهوديّ في مشط ومشاطة في جف طلعة في بئر ذي أزوان، رواه البخاري: وجفّ الطّلعة وعاؤها، والمشاطة الشعر الذي يخرج من شعر الرأس وغيره إذا مشط، فقد

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٠، عن الخلاف: ٢ / ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

أثبت لهم سحراً. وهذا القول عندي باطل، والروايات ضعيفة، خصوصاً رواية عائشة، لاستحالة تطرّق السحر إلى الأنبياء.

ثمّ قال: إن كان للسحر حقيقة فهو ما يعدّ في العرف سحراً، ثمّ ذكر القصتين للنجاشي والساحرة. ثمّ قال: فهذا وأمثاله مثل أن يعقد الرجل المزوّج فلا يطيق وطي امرأته هو السحر المختلف فيه. فأمّا الذي يقال من العزم على المصروع فلا يدخل تحت هذا الحكم، وهو عندي باطل لا حقيقة له، وإنّما هو من الخرافات[1].

وبالنسبة لرد الرواية الأولى، فإنّه أيضاً لا يشمل رد أثره بالنسبة للناس من غير الأئمة والأنبياء فضلاً عن الاعتراف بدئاً بوجود أثر له على مستوى خلق التوهّم لدى عموم الناس، وهكذا فإنّه يؤول في النهاية إلى نفي الحقيقة في درجة من الدرجات، وليس نفياً مطلقاً. لكنه يعود فينفي ما ذكر عما ما قامت به الساحرة عند النجاشي، والأمير الآخر، وفي المآل النهائي فإنّه أيضاً نفي لدرجة من التأثير.

أما بالنسبة لقول الشهيد ـ رفع الله درجته ـ في الدروس: تحرم الكهانة والسحر بالكلام والكتابة والرقية والدخنة بعقاقير الكواكب وتصفية النفس والتصوير والعقد والنفث والأقسام والعزائم بما لا يفهم معناه ويضرّ بالغير فعله. ومن السحر الاستخدام للملائكة والجنّ واستنزال الشياطين في كشف الغائب وعلاج المصاب، ومنه الاستحضار بتلبيس الروح ببدن منفعل كالصبيّ والمرأة وكشف الغائب عن لسانه.

ومنه النيرنجات، وهي إظهار غرائب خواصّ الامتزاجات وأسرار النيرين، وتلحق به الطلسمات، وهي تمزيج القوى العالية الفاعلة بالقوى

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٠، عن المنتهى: ١.

السافلة المنفعلة، ليحدث عنها فعل غريب. فعمل هذا كلّه والتكسب به حرام، والأكثر على أنّه لا حقيقة له، بل هو تخييل، وقيل: أكثره تخييل، وبعضه حقيقيٌ، لأنّه تعالى وصفه بالعظمة في سحرة فرعون، ومن التخييل إحداث خيالات لا وجود لها في الحسّ المشترك للتأثير في شيء آخر، وربّما ظهر إلى الحسّ.

وتلحق به الشعبذة، وهي الأفعال العجيبة المرتّبة على سرعة اليد بالحركة، فيلبّس على الحسّ، وقيل: الطلسمات كانت معجزات للأنبياء.

وأمّا الكيمياء فيحرم المسمّى بالتكليس بالزيبق والكبريت والزاج والتصدية وبالشعر والبيض والمرار والأدهان كما تفعله الجهّال، أمّا سلب الجواهر خواصّها وإفادته خواص أخرى بالدواء المسمّى بالإكسير أو النار الملينة الموقدة على أصل الفلزات أو لمراعاة نسبها في الحجم والوزن، فهذا مما لا يعلم صحته، وتجنّب ذلك كلّه أولى وأحرى[1].

وهو أيضاً يصب في نفس الدرجة من النفي، أو أنّه تضمن الاعتراف بوجود حقيقة ولو في بعض أنواعه.

وقال الشهيد الثاني ـ رفع الله مقامه ـ: السّحر هو كلام أو كتابة أو رقية أو أقسام وعزائم ونحوها يحدث بسببها ضرر على الغير. ومنه عقد الرجل عن زوجته بحيث لا يقدر على وطيها، وإلقاء البغضاء بينهما، ومنه استخدام الملائكة والجنّ، واستنزال الشياطين في كشف الغائبات وعلاج المصاب، واستحضارهم وتلبسّهم ببدن صبيٍ أو امرأة وكشف الغائب على لسانه، فتعلّم ذلك وأشباهه وعمله وتعليمه كلّه حرام والتكسّب به سحت، ويقتل مستحلّه، ولو تعلّمه ليتوقى به أو ليدفع به المتنبيَ بالسحر فالظاهر جوازه،

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣١، عن الدروس.

وربما وجب على الكفاية كما هو خيرة الدروس، ويجوز حلّه بالقرآن والأقسام كما ورد في رواية القلا.

وهل له حقيقة أو هو تخييل؟ الأكثر على الثاني، ويشكل بوجدان أثره في كثير من الناس على الحقيقة، والتأثّر بالوهم إنّما يتمّ لو سبق للقابل علم بوقوعه، ونحن نجد أثره فيمن لا يشعر به أصلاً حتّى يضرّ به، ولو حمل تخييله على ما تظهر من تأثيره في حركات الحيّات والطيران ونحوهما أمكن، لا في مطلق التأثير وإحضار الجان وشبه ذلك فإنّه أمر معلوم لا يتوجه دفعه.

ثمّ قال: والكهانة عمل يوجب طاعة بعض الجانّ له واتّباعه له بحيث يأتيه بالأخبار، وهو قريب من السّحر، ثمّ قال: والشعبذة عرّفوها بأنّها الحركات السريعة التّي تترتّب عليها الأفعال العجيبة، بحيث يتلبّس على الحسّ الفرق بين الشيء وشبهه لسرعة الانتقال منه إلى شبهه.

أقول: ونحو ذلك قال المحقّق الأردبيلي ـ روّح الله روحه ـ في شرح الإرشاد وقال: الظاهر أن له حقيقة بمعنى أنّه يؤثّر بالحقيقة لا أنّه إنّما يتأثّر بالوهم فقط ولهذا نقل تأثيره في شخص لم يعرف ولا يشعر بوقوعه فيه، نعم يمكن أن لا حقيقة له بمعنى أن لا يوجد حيوان بفعله، بل يتخيّل، كقوله تعالى: ﴿ *يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى* ﴾ مع أنّه لا ثمرة في ذلك، إذ لا شكّ في عقابه ولزوم الدية وعوض ما يفوت بفعل الساحر عليه[1].

والشهيد الثاني أقرّ أيضاً، وهو يشرح معنى السحر بحقيقته، وإن مال إلى اعتبار أثره هو التخيل والتأثر بالوهم، لكنه أيضاً حقيقة، وفي المحصلة، فإنه أيضاً يقر بحقيقة السحر.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٠ ـ ٣١، عن الدروس.

وينشأ التردد عن عدم إضطراد تأثير السحر أوّلاً وثانياً لأنّه كما قال في بيان السحر: قال الراغب وغيره: السّحر يطلق على معان: أحدها ما دقّ ولطف، ومنه سحرت الصبي: خدعته واستملته، فكلّ من استمال شيئاً فقد سحره؛ ومنه إطلاق الشعراء سحر العيون لاستمالتها النفوس؛ ومنه قول الأطبّاء «الطبيعة ساحرة» ومنه قوله تعالى: ﴿ ***بل نحن قوم مسحورون*** ﴾[1] أي مصروفون عن المعرفة؛ ومنه حديث «إنّ من البيان لسحراً».

الثاني: ما يقع بخداع وتخييلات لاحقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ من صرف الأبصار عمّا يتعاطاه بخفّة يده، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ***يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى*** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ***سحروا أعين الناس*** ﴾ ومن هناك سمّوا موسى عليه السلام ساحراً، وقد يستعان في ذلك بما يكون فيه خاصيّة كحجر المغناطيس.

الثالث: ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرّب إليهم، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ***ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السّحر*** ﴾[2].

الرابع: ما يحصل بمخاطبة الكواكب واشتراك روحانياتها بزعمهم، قال ابن حزم: ومنه ما يؤخذ من الطلسمات كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب في وقت كون القمر في العقرب، فينفع من لدغة العقرب، وقد يجمع بعضهم بين الأمرين: الاستعانة بالشياطين ومخاطبة الكواكب، فيكون ذلك أقوى بزعمهم.

ثمّ السحر يطلق ويراد به الآلة التي يسحر بها، ويطلق ويراد به فعل الساحر، والآلة تارة تكون معنى من المعاني فقط كالرّقي والنفث، و تارة تكون

---

(١) سورة الحجر: ١٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٤ و٣٥، عن فتح الباري.

من المحسوسات كتصوير صورة على صورة المسحور، وتارة يجمع الأمرين الحسّي والمعنوي، وهو أبلغ.

واختلف في السحر فقيل: هو تخييل فقط ولا حقيقة له، وقال النوويّ: والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامّة العلماء، ويدلّ عليه الكتاب والسنّة المشهورة ـ انتهى[1].

وعليه فإنّ الخفاء والغموض وعدم الاطّراد، هو الذي يقف وراء النزاع الناشئ بين العلماء حول السحر وحقيقته، فتكون الحصيلة أن الخلاف ليس في الحقيقة، إنّما في درجة التأثير كما تبين من مجمل أقوال العلماء، وأنّه أيضاً يحمل في طياته نزاعاً آخر حول طريقة التأثير كما سيتضح ممايلي:

لكن محلّ النزاع أنّه هل يقع بالسحر انقلاب عين أولاً؟ فمن قال: إنّه تخييل فقط منع من ذلك، ومن قال: له حقيقة اختلفوا (في أنّه) هل له تأثير فقط بحيث يغيّر المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصيّر الجماد حيواناً مثلاً وعكسه. فالذي عليه الجمهور هو الأول، وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني، فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهيّة فمسلّم، وإن كان بالنّظر إلى الواقع فهو محلّ الخلاف فإنّ كثيراً ممّن يدّعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه[2].

فهذا النزاع حول طريقة تأثير السحر، وإن كان يؤدي إلى البحث عن حقيقته لارتباط ذلك بطريقة التأثير، وهذا بدوره يعيدنا إلى اعتبار أن أصل النزاع والبحث ثم تقدير النتائج، يعتمد على النصوص، وكان يمكن الاعتماد فيه على التجربة وبالتالي فإنّ التجربة هي التي تحسم النقاش، على أن الواقع

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٥، عن فتح الباري.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٥ ـ ٣٦، عن فتح الباري.

العلمي لا يؤكد وقوع تحوّل في المخلوقات من جماد إلى حيوانات مثلاً، وإن كان ممكناً لكان قابلاً للتكرار، وبالتالي فإنّه سيشيع عند الناس وأهل العلم أو السحر؛ كما في بث الفرقة بين الزوج وزوجه مثلاً، ومن هنا فإن النفي غالباً ما يكون نفي لدرجة من التأثير وهو ما ذهب إليه البعض.

ونقل الخطابي أنّ قوماً أنكروا السحر مطلقاً، وكأنّه عنى القائلين بأنّه تخييل فقط، وإلاّ فهي مكابرة[1].

ومثل هذا ما ذهب إليّه المازري، إذ أكد الحقيقة بناءً على النقل وعدم إنكار العقل لما يصفه من فرق للعادة، وهذا طبعاً يشير إلى أن غموض حقيقة السحر وخفاء طرقه كان هو العنصر الأساس في نشوء النزاع، وصعوبة اللجوء إلى التجربة لحسم النزاع يأتي كعنصر إضافي، وهذا يتضح في ما قاله المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر، وأنّ له حقيقة ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر ولأنّ العقل لا ينكر أنّ الله تعالى قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفّق وتركيب أجسام أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص، ونظير ذلك ما يقع من حذّاق الأطبّاء من مزج بعض العقاقير ببعض حتّى ينقلب الضارّ منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً، وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ *ما يفرّقون به بين المرء وزوجه* ﴾ لكون المقام مقام تهويل، فلو جاز أن يقع أكثر من ذلك لذكره[2].

قال المازري: والصحيح من جهة العقل أنّه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك قال: والآية ليست نصاً في منع الزيادة ولو قلنا إنّها ظاهرة في ذلك.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٧، عن فتح الباري.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٦، عن فتح الباري.

ثمّ قال: والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة أنّ السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتّى يتمّ للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك بل إنّما تقع غالباً اتّفاقاً، وأمّا المعجزة فتمتاز من الكرامة بالتحدّي.

ونقل إمام الحرمين الإجماع على أنّ السحر لا يظهر إلاّ عن فاسق، والكرامة لا تظهر عن الفاسق. ونقل النووي في زيادات الروضة عن المستولى ونحو ذلك وينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فإن كان متمسّكاً بالشريعة متجنّباً للموبقات، فالذي يظهر على يده من الخوارق كرامة، وإلاّ فهو سحر، لأنّه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين.

ويقترب القرطبي من حقيقة السحر حين يقول: السحر حيل صناعيّة يتوصّل إليها بالاكتساب، غير أنّها لدقّتها لا يتوصل إليها إلاّ آحاد النّاس، ومادّتها الوقوف على خواصّ الأشياء، والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون ﴿ *وجاءوا بسحرٍ عظيم* ﴾[1] مع أنّ حبالهم وعصيّهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصياً.

ثمّ قال: والحقّ أنّ لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب، كالحبّ والبغض وإلقاء الخير والشر في الأبدان بالألم والسقم، وإنّما المنكر أن الجماد ينقلب حيواناً وعكسه بسحر الساحر ونحو ذلك ـ انتهى ـ.

وكذلك ما قاله شارح المقاصد: السحر إظهار أمر خارق للعادة من نفس شريرة خبيثة بمباشرة أعمال مخصوصة يجري فيها التعلّم والتتلمذ، وبهذين الاعتبارين يفارق المعجزة والكرامة، وبأنّه لا يكون بحسب اقتراح المعترض، وبأنّه يختصّ ببعض الأزمنة أو الأمكنة أو الشرائط، وبأنّه قد يتصدّى لمعارضته

---

(١) سورة الأعراف: ١١٦.

ويبذل الجهد في الإتيان بمثله وبأنّ صاحبه ربما يعلن بالفسق، ويتّصف بالرّجس في الظاهر والباطن، والخزي في الدنيا والآخرة، إلى غير ذلك من وجوه المفارقة، وهو عند أهل الحقّ جائز عقلاً ثابت سمعاً وكذلك الإصابة بالعين. بينما وقف المعتزلة بعيداً بقولهم: هو مجرّد إراءة مالا حقيقة له بمنزلة الشعبذة التي سببها خفّة حركات اليد أو خفاء وجه الحيلة فيه[1].

وهذا يعني أنّهم أقصروا السحر على أحد أنواعه، وهو طبعاً إنكار لآثار، لا مجال لإنكارها، مثل آثار العقاقير وقوة النفس.

أمّا ما يراه صاحب «بحار» فهو يستند إلى ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ ***يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت*** - إلى قوله - ***فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد إلّا بإذن الله*** ﴾ وفيه إشعار بأنّه ثابت حقيقةً، ليس مجرّد إراءة وتمويه وبأن المؤثر والخالق هو الله تعالى وحده.

ومنها سورة الفلق، فقد اتّفق جمهور المسلمين على أنها نزلت فيما كان من سحر لبيد بن أعصم اليهوديّ لرسول الله ﷺ حتّى مرض ثلاث ليال.

ومنها ما روي أنّ جارية سحرت عايشة، وأنّه سحر ابن عمر حتّى تكوّعت يده.

فإن قيل: لو صحّ السحر لأضرّت السحرة بجميع الأنبياء والصالحين، ولحصّلوا لأنفسهم الملك العظيم، وكيف يصحّ أن يسحر النبيّ ﷺ وقد قال الله: ﴿ ***والله يعصمك من الناس*** ﴾ ﴿ ***ولا يفلح الساحر حيث اتى*** ﴾ وكانت الكفرة يعيبون النبيّ ﷺ بأنه مسحور، مع القطع بأنهم كاذبون.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٧، عن فتح الباري.

قلنا: ليس الساحر يوجد في كلّ عصر وزمان، وبكل قطر ومكان، ولا ينفذ حكمه كلّ أوان، ولا له يد في كل شيء والنبي صلى الله عليه وآله معصوم من أن يهلكه الناس أو يوقع خللاً في نبوّته، لا أن يوصل ضرراً وألماً إلى بدنه، ومراد الكفّار بكونه مسحوراً أنّه مجنون أزيل عقله بالسحر حيث ترك دينهم.

فإن قيل: قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ ***يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى*** ﴾ يدلّ على أنه لا حقيقة للسحر، وإنّما هو تخييل وتمويه[1].

قلنا: يجوز أن يكون سحرهم إيقاع ذلك التخيّل وقد تحقّق، ولو سلّم فكون أثره في تلك الصورة هو التخييل لا يدلّ على أنّه لا حقيقة له أصلاً.

وأمّا الإصابة بالعين وهو أن يكون لبعض النفوس خاصيّة أنّها إذا استحسنت شيئاً لحقه الآفة، فثبوتها يكاد يجري مجرى المشاهدات التي لا تفتقر إلى حجة، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «العين حقٌ يدخل الرجل القبر والجمل القدر» وقد ذهب كثير من المفسّرين إلى أن قوله تعالى: ﴿ ***وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر ويقولون...*** ﴾[2] نزلت في ذلك.

وقالوا: كان العين في بني أسد، فكان الرجل منهم يتجوّع ثلاثة أيام، فلا يمرّ به شيء يقول فيه «لم أر كاليوم» إلاّ عابه، فالتمس الكفّار من بعض من كانت له هذه الصنعة أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك، فعصمه الله.

واعترض الجبائي أن القوم ما كانوا ينظرون إلى النبيّ صلى الله عليه وآله نظر استحسان بل مقت ونقص.

والجواب أنّهم كانوا يستحسنون منه الفصاحة وكثيراً من الصفات، وإن كانوا يبغضونه من جهة الدين.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٨.

(٢) سورة القلم: ٥١.

ثمّ للقائلين بالسحر والعين اختلاف في جواز الاستعانة بالرقي والعوذ، وفي جواز تعليق التمائم، وفي جواز النفث والمسح، ولكلّ من الطرفين أخبار وآثار، والجواز هو الأرجح، والمسألة بالفقهيّات أشبه ـ انتهى ـ.

وأقول: الذي ظهر لنا ممّا مضى من الآيات والأخبار والآثار أنّ للسحر تأثيراً ما في بعض الأشخاص والأبدان، كإحداث حب أو بغض أو همّ أو فرح، وأمّا تأثيره في إحياء شخص، أو قلب حقيقة إلى أخرى، كجعل الإنسان بهيمة، فلا ريب في نفيهما، وأنّهم من المعجزات، وكذا في كلّ ما يكون من هذا القبيل، كإبراء الأكمه والأبرص، وإسقاط يد بغير جارحة، أو وصل يد مقطوع، أو إجراء الماء الكثير من بين الأصابع أو من حجر صغير وأشباه ذلك.

والظّاهر أن الإماتة أيضاً كذلك، فإنّه بعيد أن يقدر الإنسان على أن يقتل رجلاً بغير ضرب وجرح وسمّ وتأثير ظاهر في بدنه، وإن أمكن أن يكون الله تعالى جعل لبعض الأشياء تأثيراً في ذلك ونهى عن فعله، كما أنّه سبحانه جعل الخمر مسكراً ونهى عن شربه، وجعل الحديد قاطعاً ومنع من استعماله في غير ما أحلّه، وكذا التمريض، لكنّه أقلّ استبعاداً[1].

فإن قيل: مع تجويز ذلك يبطل كثير من المعجزات، ويحتمل فيه السحر.

قلنا: قد مرّ أن المعجزة تحدث عند طلبها بلا آلات وأدوات ومرور زمان يمكن فيه تلك الأعمال، بخلاف السحر، فإنّه لا يحصل إلاّ بعد استعمال تلك الأمور ومرور زمان، وأيضاً الفرق بين السحر والمعجزة بيّن عند العارف بالسحر وحقيقته ولذا حكم بعض الأصحاب بوجوب تعلّمه كفاية، ويروى عن شيخنا البهائي تدّس أنه لو كان خروج الماء من بين أصابع النبيّ ﷺ مع

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٣٩.

قبض يده وضمّ أصابعه إلى كفّه كان يحتمل السحر، وأمّا مع بسط الأصابع وتفريجها فلا يحتمل السحر، وذلك واضح عند من له مران في صناعة السحر.

وأيضاً معجزات الأنبياء لا تقع على وجه تكون فيه شبهة لأحد، إلاّ أن يقول معاند بلسانه ما ليس في قلبه، فإنّ الساحر ربّما يخيّل ويظهر قطرات من الماء من بين أصابعه أو كفه أو من حجر صغير، وأمّا أن يجري أنهار كبيرة بمحض ضرب العصا أو يروي كثيراً من الناس والدوابّ بما يجري من بين أصابعه بلا معاناة عمل أو استعانة بآلة، فهذا ممّا يعرف كلّ عاقل أنّه لا يكون من السحر، وكذا إذا دعا على أحد فمات أو مرض من ساعته، فإنّ مثل هذا لا يكون سحراً بديهة.

وأمّا جهة تأثيره فما كان من قبيل التخييلات والشعبذة فأسبابها ظاهرة عند العاملين بها تفصيلاً، وعند غيرهم إجمالاً، كما مرّ في سحر سحرة فرعون، واستعانتهم بالزئبق أو إرائتهم أشياء بسرعة اليد لا حقيقة لها.

وأمّا حدوث الحبّ والبغض والهمّ وأمثالها، فالظاهر أن الله تعالى جعل لها تأثيراً وحرّمها. وهذا ممّا لا ينكره العقل، ويحتمل أن يكون للشياطين أيضاً مدخلاً في ذلك. ويقلّ أو يبطل تأثيرها بالتوكّل والدّعاء والآيات والتعويذات.

ولذا كان شيوع السحر والكهانة وأمثالهما في الفترات بين الرّسل وخفاء آثار النبوّة واستيلاء الشياطين أكثر، وتضعف وتخفى تلك الأمور عند نشر آثار الأنبياء وسطوع أنوارهم كأمثال تلك الأزمنة، فإنّه ليس من دار ولا بيت إلاّ وفيه مصاحف كثيرة وكتب جمّة من الأدعية والأحاديث، وليس من أحد إلاّ ومعه مصحف أو عوذة أو سورة شريفة، وقلوبهم وصدورهم مشحونة بذلك، فلذا لا نرى منها أثراً بيّناً في تلك البلاد إلاّ نادراً في البلهاء والضعفاء والمنهمكين في المعاصي، وقد نسمع ظهور بعض آثارها في أقاصي البلاد،

لظهور آثار الكفر ونُدور أنوار الإيمان فيها، كأقاصي بلاد الهند والصين والترك[١].

وأمّا تأثير السحر في النبيّ والإمامعليهم السلام فالظاهر عدم وقوعه وإن لم يقم برهان على امتناعه إذا لم ينته إلى حدّ يخلّ بغرض البعثة، كالتخبيط والتخليط، فإنّه إذا كان الله سبحانه أقدر الكفّار لمصالح التكليف على حبس الأنبياء والأوصياءعليهم السلام وضربهم وجرحهم وقتلهم بأشنع الوجوه فأيّ استحالة على أن يقدروا على فعل يؤثر فيهم همّاً ومرضاً؟

لكن لمّا عرفت أن السحر يندفع بالعوذ والآيات والتوكّل، وهمعليهم السلام معادن جميع ذلك، فتأثيره فيهم مستبعد، والأخبار الواردة في ذلك أكثرها عاميّة أو ضعيفة ومعارضة بمثلها، فيشكل التعويل عليها في إثبات مثل ذلك.

وأمّا ما يذكر من بلاد الترك أنّهم يعملون ما يحدث به السّحب والأمطار فتأثير أعمال مثل هؤلاء الكفرة في الآثار العلوية، وما به نظام العالم ممّا يأبى عنه العقول السليمة، والأفهام القويمة، ولم يثبت عندنا بخبر من يوثق بقوله[٢].

ومن خلال ما ذهب إليه مصنّف بحار الأنوارقدس سره فإنه بإمكاننا فهم التصوّر القائم لدى العلماء حول حقيقة السحر وطريقة تأثيره، فهي طبعاً تختلف عن الصورة السائدة عنه في أوساط الناس، إذ أن مستوى الغش عالي جداً ويذهب إلى تضخيم التأثير إلى درجة كبيرة، خصوصاً أن الكثيرين لا يملكون سوى الإدعاء، بينما يمارسون الاحتيال دون امتلاك العلم أو المهارة التي هي حالة لا يملكها إلاّ أفراد قلائل ليكونوا سحرة حقيقيين، فالعلم هو

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠ / ٤٠.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠ / ٤١ و٤٢.

الدراية بخصائص الأشياء، والموهبة هي الخفّة وقوّة النفس أو امتلاك السبل للاتصال بالأرواح والكائنات الغائبة.

على أنّ إيراد الملائكة في دائرة السحر كما مرّ في أقوال بعض العلماء، لا يساوق البحث السابق حول عصمة الملائكة وعدم قدرة البشر للتسلط عليهم.

وعليه لا بدّ من استثناء الملائكة من السحر، إذ أنّهم لا يطيعون إلاّ الله فطاعة غير الله وخصوصاً في فعل الشر لا يصح بالنسبة لهذه المخلوقات الكريمة. ولهذا يمكن قصر ذلك على الجن والشياطين بل لعله يرتبط بصورة رئيسيّة بهم لأنّ جانب الضرر يغلب عليه.

وهكذا فإنّ التصور الذي أورده العلماء عن السحر تصوّر موضوعي لا يخرج عن المعايير العلمية المعاصرة وكما قد مرّ فإنّه يرتكز على جملة معطيات أساسية ولا مجال لإنكارها وهي:

١ ـ المهارة الفردية.

٢ ـ الموهبة النفسية.

٣ ـ الاتّصال بالكائنات الغيبية والأرواح.

٤ ـ الاستفادة من الأدوية والعقاقير.

٥ ـ الاستفادة من بعض الظواهر المتعلقة بما وراء الطبيعة.

فبالنسبة للمهارة الفردية فهي من أهم ميزات بني البشر، إذ أن الإنسان حين يمتلك قدر معين من الذكاء والممارسة في مجال معين، فإنّه يستطيع أن يحصل على مهارة وهي ليست مقصورة على السحر، بل يمكن أن نراها في الخياطة أو الرسم أو الهندسة أو أي مجال آخر، حتى تبلغ آفاق لا يصلها إلاّ القلّة من البشر، فيكون السحر هو أحد هذه المهارات، لما فيه من استخدام للعقاقير والحيل ووسائل التوهم.

ويصدق هذا الأمر على القدرات النفسية التي صارت في العصر الحاضر ثابتة وتدرس دراسة علمية كما هو معروف في أبحاث البارسايكولوجية، وكذلك الأمر بالنسبة للاتّصال بالأرواح الذي أصبح من الظواهر التي تدخل في إطار البحث. إلاّ أنّه لم يبلغ من التطور بحيث يمكن فرز الاتّصال: هل هو لأرواح البشر الموتى أو هو مع الجن والشياطين؟ ولعل المصداق الأكثر وضوحاً هو علم العقاقير، حيث تطور في عصرنا الحاضر وصار يدخل في علم الكيمياء، وتم استخلاص أنواع كثيرة من الأدوية ذات التأثيرات الروحيّة التي قد تسبب الحزن أو الفرح أو القوّة البدنية الخارقة، ولعل كل ذلك كان من أهم أعمال السحر عندما كانت هذه المعلومات مقصورة على الساحر.

والحمد لله أوّلاً وآخراً وصلّى الله على عباده الذين اصطفى لا سيّما محمد وآله الطيبين الطاهرين.

المصادر

بحار الأنوار: تأليف العلاّمة الشيخ المجلسي: الجزء: ٥٦ و ٦٠

كتاب الكون: تأليف: ج. كارل ساغات ـ ترجمة أيوب لبس ـ مراجعة محمد كامل عارف. من سلسلة كتب عالم المعرفة ـ الكويت.

التنظيم: تأليف سيّد هواري ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٣.

تطور الفكر التنظيمي: تأليف الدكتور علي السلمي ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ١٩٧٥.

لسان العرب: تأليف العلامة ابن منظور ـ نشر أدب حوزة قم ـ إيران ـ ١٤٠٥هـ.

علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: تأليف الدكتورة سامية محمد جابر ـ دار العلوم العربية ـ بيروت ـ ١٩٩١.

مجلة المعرفة ـ ما بعد الباراسيكولوجي: تأليف ندرة اليازجي ـ العدد ٤١٢ ـ ١٩٨٨ دمشق.

خوارق اللاشعور أو (أسرار الشخصية الناجحة) : تأليف الدكتور علي الوردي ـ دار الورّاق للنشر ـ لندن ١٩٩٦.

الاتصال المباشر مع الآخرة: تـأليف الأب فرانسـوا بـراون والعـالم ريمـي شـوفان ـ ترجمـة وتعليـق: يشـار شـكري قلايجيـان ـ دار عـلاء الديـن ـ دمشق.

شورى الفقهاء: تأليف العلاّمة السيد مرتضى الشيرازي.

تأريخ العلم وفلسفته: تأليف الدكتور سهل النوى ـ الدكتور عدنان النقّاش ـ ١٩٨٩ جامعة بغداد ـ وزارة التعليم العالي.

فجر العلم الحديث ـ الإسلام ـ الصين ـ الغرب ـ الطبعة الثانية ـ سلسلة عـالم المعرفة ـ الكويت.

العلم ـ الأيديولوجيـا ـ دراسـة في إشكاليات منهج البحث العلمي ـ عمـاد هرملاتي ـ دمشق.

المنطق ـ نظرية البحث ـ جون ديوري ـ ترجمة الدكتور زكـي نجيب محمـود ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٠.

معنى النسبية ـ ألبرت أينشتاين ـ ترجمة: علي يوسف خرج.

دراسـات فلسـفية في العلـم والفلسـفة ـ حمـادي بـن جـار اللـه ـ مشـروع مشترك ـ دار الشؤون الثقافيـة العامـة (آفـاق عربيـة) ـ بغـداد ـ الـدار التونسية للنشر.

الميتافيزيقيا ـ العلم ـ الأيديولوجيا. تأليف عبد السلام بن عبد العـال ـ الشركة المغربية للناشرين المتحدة.

الجـانب العقلاني مـن اللامعقـول: تـأليف عـدي الأعسـم ـ الطبعـة الثانيـة ـ بغداد١٩٨٩.

الروح: تأليف هاني يحيى نصري ـ مجلة المعرفة ـ العدد ٤٣١ ـ ١٩٩٩.

تدريب الإدراك الحسّي الفائق ـ الدكتور ميلان ديزل ـ ترجمة: إقبال أيـوب ـ وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ١٩٨٤.

تفسير مجمع البيان: تأليف الشيخ الطبرسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

آدم ـ فلسفة تقويم الإنسان وخلافته: تأليف البهي الخولي ـ مكتبة وهبة ـ مصر.

بحار الأنوار: تأليف الشيخ المجلسي ـ الجزء: ٥٦ والجزء: ٦٠.

قوانين المادة: اكتشافات خارقة ـ تأليف محمد وائل بشير الأتاسي ـ مجلة المعرفة ـ العدد ٤٣٢ ـ ١٩٩٩.

النهاية ـ الكوارث الكونية وأثرها في مسار ...... تأليف: فرانك كلوز. ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي. مراجعة: عبد السلام رضوان ـ سلسلة عالم المعرفة.

طبيعة الكون ـ تأليف: كليف كيلمستر ـ ترجمة: محمد بشار ـ حكمت البيطار ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق.

تفسير الميزان ـ تأليف: العلاّمة السيّد محمد حسين الطباطبائي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣.

مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين من الغزالي وابن رشد إلى الطوسي والخواجة زادة ـ تأليف: الدكتور رضا سعادة ـ طبعة أولى ـ دار الفكر اللبناني ـ ١٩٩٩.

التنويم المغناطيسي ـ عرض وتقديم: الدكتور مصطفى غالب ـ منشورات مكتبة الهلال ـ بيروت.

هل هناك حاسة سادسة؟ تأليف: محمود ابراهيم الصغيري ـ دار الكتاب العربي ـ سوريا.

القاموس المحيط ـ بيروت لبنان ـ دار المشرق ـ ١٩٧٣.

المحتويات

الفصل الأول
الماهيّة والصفات

الفصل الثاني

الملائكة ـ العلاقات والمهام

الفصل الثالث

أشكال علاقات الملائكة وتفاصيلها

الفصل الرابع

وصف عام للملائكة ـ واستنتاجات

الفصل الخامس

الملائكة المقرّبون

الفصل السادس

السِّحر

الفصل السابع

الإصابة بالعين (الحسد)

الفصل الثامن

أقوال العلماء المسلمين في حقيقة السحر وطريقة تأثيره